

# دراسات تاريخية

## مجلة علمية فصلية محكمة

### تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

السنة الخامسة عشرة ، العددان ٤٩ و ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤

المدير المسؤول : د. شاكرا الفحام  
رئيس التحرير : ناظم كلاس

للطلاب	للمؤسسات	للأفراد	الاشتراكات
(٥٠) ل.س	(٢٠٠) ل.س	(١٠٠) ل.س	في القطر السوري
	(٢٠) دولارا	(١٠) دولارات امريكية	في الاقطار العربية
	(٣٠) دولارا	(١٥) دولارا	في البلاد الاجنبية

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام ، ويتم تسديد بدل الاشتراك بنسيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب ، او بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٢/٣٣٢٢ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق  
المكاتب : جامعة دمشق ، هاتف / ٢٢٢٢٤٦١ /



## شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب ،  
وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي ، وهو كتابة تاريخ  
وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي ، وهو كتابة تاريخ  
العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقييد بأسلوب  
البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتسليط  
الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره  
الخاص ، وايضاح ما لفته الغموض ، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل  
ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في  
مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على ان يراعى  
فيها ما يلي :

أ - ان تتوافر في البحث الجودة والاصالة والمنهج العلمي .

ب - ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج - ان يكون مطبوعا على الآلة الكتابة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د - تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مدى  
صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها  
عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف او الاختزال ، بما يتوافق مع اغراض الصياغة .

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة  
الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :



## أ - في ذكر المصادر والمراجع ( للمرة الاولى ) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كان متوفى ، اسم المصدر او المرجع وتحت خط ، عدد المجلدات او الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

## ب - في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين « » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر او المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

## ج - في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملا وتحت خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

## د - في المخطوطات ( للمرة الاولى ) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به ، تاريخ النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة \* . وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادرة خلال ذلك العام ، مع عشرين ( مستلة ) من البحث .

دراسات تاريخية  
٥٠ - ٤٩  
٢ - ١ / ١٩٩٤



# دراسات تاريخية

السنة الخامسة عشرة ، العددان ٤٩ و ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤

- لهجتا قریش وتميم والاختيار اللغوي  
د. مسعود بوبو ٧
- من متارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ متركة الكفر  
د. ذوقان قرقوط ١٩
- الجدل حول تفسير التاريخ في سورية وقت الانتداب الفرنسي  
أولريكة فرايتاغ ٣٣
- جوانب من صورة الآخر ( الغرب ) في التاريخ الاسلامي  
د. نعمان محمود جبران ٤٥
- القاهرة كما رآها الرحالة الفرييون في العصر الوسيط  
بقلم ب. هـ. دوب ٦٣
- نظرة في بعض وتائق عقود الزواج من القرن الثالث الهجري  
د. فالح حسين ٨١



تنويه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

● العيارون والشطار ودورهم في الحرب بين الأمان والمأمن

د. محمد ارشيد العتيلى ٩٢

● حول أصل الاسم « سورية »

د. فاروق اسماعيل ١١٩

● متى كان لسورية والعراق حدود مميزة خاصة

د. محمد محفل ١٢٥

● الملك والاسرة المالكة في فينيقية

د. أحمد حامد ١٢٩

● علاقات سورية التجارية

د. محمود رمزي ١٦١



تصدرها وتشرف على تحريرها

## لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

د. محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق ، د. شاكر الفحام ،  
د. عادل العوا ، د. نبيه عاقل ، د. عبد الكريم رافق ، محمد محفل ،  
د. خيرية قاسمية ، د. محمد حرب فرزات ، د. عادل زيتسون ،  
ناظم كلاس ، د. مفيد رائف العابد رئيس قسم التاريخ

٥٠-٤٩  
٢-١ / ١٩٩٤  
دراسات تاريخية



## من تاريخ اللغة العربية (٤)

### لهجتا قريش وتميم والاختيار اللفوي

د. مسعود بوبو  
جامعة دمشق

الملاحظ بوجه عام أن علماء العربية القدماء لم يولوا المظاهر اللهجية في زمنهم من العناية والاهتمام ما أولوه للهجتي قريش وتميم اللتين خصوا السمات اللهجية المروية عنهما بفضل تأمل وتدبر ، لأن مظاهر الاختلاف بينهما أكثر تعددا وتنوعا ، وصلة باللغة الادبية العالية . ولأن القبيلتين تبوأتا منزلة بارزة بين قبائل العرب : دينيا ، وأدبيا ، وجغرافيا ، إذ احتلت تميم مكان الصدارة في نجد ، واحتلت قريش مكان الصدارة في الحجاز ، وبلهجتيهما كثر الاحتجاج والاقتداء ، وعليهما قاس اللغويون فيما بعد ، إلا أن نزول القرآن بلهجة قريش رجع كفتها في الفصاحة ، ورفع مكانتها في الدين والحسب والنسب والمجد .

ولقد كان من مظاهر الاختلاف بين اللهجتين - على ما تروي كتب اللغة - الصور التالية :

- تحقيق الهمز عند التميميين وتسهيله أو تخفيفه عند الحجازيين ، فالحجازيون كانوا يقولون مثلا : بير ، فواد ، بيس .. في « بئر » ، « فؤاد » ، « بئس » . وعلى ذلك قراءة نافع وأبي جعفر ( من أشهر قراء المدينة ) : ( وبيس المهادر ) و ( أصبح فواد أم موسى فارغاً ) و ( خاسياً وهو حسير ) بدلا من « بئس » و « فؤاد » و « خاسئاً » . والتميميون يحققون الهمز في هذا كله ، بل ربما بالغوا فهمزوا ما ليس بهموز أو نبروه . وتلك ظاهرة فاشية بين العرب غالبية على التسهيل . قال ابن الجزري : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقاً ، وأبعدها مخرجاً ، تنوع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف ، كالنقل ، والبدل ، وبين بين ، والإدغام وغير ذلك .. وحكى المبرد بسنده عن أبي زيد الأنصاري أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ : ( فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ) بهمز « جَان » . قال أبو زيد : فظننت قد لحن ، إلى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، مادة ، دابة ، وعليه قول كثير :

نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد ٢٤/٢٣ ( ١٩٨٩ ) ، والثانية في العدد ٢٨/٢٧ ( ١٩٩٠ ) والثالثة في العدد ٤٨/٤٧ ( ١٩٩٣ ) .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



## إذا ما العوالي بالعبيط احمازت (١)

ومن ذلك قول بعضهم : لبأ بالحج تلبئة ، وأصله [ لبني ] غير مهموز . قال الفراء : ربما خرجت بهم فصائحهم الى همز ما ليس بمهموز ، قالوا : لبأ بالحج ، وحلاً السويش . ورد الميت . . والمشهور ان العرب تركت الهمز في كلمات معدودات لكثرة الاستعمال نحو : الخابية من خبأ . والبرية من برا الله الخلق ، والذرية من ذرا الله الخلق . . وعلى العموم فان الأكثر عند العرب الهمز ، وعلى ذلك نزول القرآن واختياره نبر الهمز لغة فصيحة ، وإن لم يلزم الحجازيين بتحقيقه ، لذا كان اهل مكة والمدينة لا ينبرون الا اذا اضطروا وأرادوا محاكاة التميميين استلطافاً لهذه الصفة الحلوة من صفات لهجتهم . أو خروجاً على سليقتهم في تسهيل الهمزة في غير لهجات خطابهم العادية . لشعورهم بان تحقيق الهمزة في الاساليب الادبية من شعر وخطابة اقرب الى الفصاحة من تسهيلها ، يقول سيبويه : « ليس أحد من العرب الا ويقول تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية ، الا اهل مكة ، فانهم يهمزون هذه الاحرف ( يعني الكلمات ) ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك » (٢) . وجاء في « لسان العرب » ان قريشاً واهل الحجاز لا ينبرون سوى الهمزات التي يبتدأ بها (٣) .

ومعيار الترجيح العام لتخفيف الهمز أو تحقيقه عند العرب يتوقف على المعنى . فهو العمدة أو ما يحتكم إليه في التفريق بين معاني ما يهمز وما لا يهمز من الكلام ، وعليه تنبني نتائج خطيرة . من مثل ذلك ما جاء في معجم « مختار الصحاح » لابن بكر الرازي ، قال : أدفيت الجريح : أجهزت عليه . وفي الحديث « أنه صلى الله عليه وسلم أتني بأسير يوعك . فقال لقوم : اذهبوا فادفوه » ، وأراد الدفء من البرد ، فذهبوا به فقتلوه . فوداه صلى الله عليه وسلم (٤) . اي : دفع ديته .

— ومن وجوه الاختلاف بين اللهجتين إدغام المثلين عند التميميين وفك هذا الادغام عند الحجازيين ، ويمثلون اللهجة نميم بقول شاعرها جرير بن عطية الخطفي :

ففض الطرف إنك من تميم فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

رغضاً ( فعل امر ) يقال بلهجة قريش : اغضض ، وعلى ذلك قوله تعالى : واغضض من صوتك . . وعلى غرارها جاءت امثلة متعددة في آيات أخر ، ولكنها قرئت بالادغام عند نميم . كما لوف نطقنا اليوم في اقطار العربية .



– ومنها : إبدال المد في القافية نونا عند التميميين تسمى نون الترثم ، وحذف هذه النون عند الحجازيين ، نحو قول جرير في رواية لبيته المشهور :

أقلي اللوم هازل والعتابن      وقولي ان أصبت لقد أصابن  
أما الحجازيون فيقولون ذلك :

أقلي اللوم عازل والعتابا      وقولي ان أصبت لقد أصابا  
– ولعل من أوسع أمثلة الاختلاف بين اللهجتين ما يتصل بالحركات ، أو بالعلل القصيرة Short Vowels ( الضمة والفتحة والكسرة ) سواء في الاسماء أم في الأفعال نحو :

– حصاد ، قطاف ، حج .. هي عند تميم بفتح أوائلها ، وعند قريش بالكسر .  
– أسوة ، قدوة ، مرية(ه) ، مدية ، رضوان ، غلظة .. هي عند تميم بضم أوائلها ، وعند قريش بالكسر .

– ومنها : اختلاف القبيلتين في التسيكين والتحريك ، فمن القرآن الكريم نذكر الأمثلة التالية : ( قدرة ، جزءاً ، أكلها ، القدس ، رسلنا ، السحت ، عسراً ، نكراً ، خطوات .. )، قرئت كلها بالتسيكين ( على الحرف الثاني منها ) في لغة تميم وأسد ، وبالتحريك ( بالضم ) عند أهل الحجاز .

– واختلفت القبيلتان في عين الفعل ، في المضارع ، بين الفتح والكسر ، فكانت أمثلة كثيرة ، كالأفعال : ( زهد ، حقد ، نزع ، حسب ، بطح ، نحت ، قحل .. ) مكسورة عين الفعل عند تميم ، وعند قريش مفتوحة العين . ولعلها المرة الأولى التي نرى الحجازيين فيها يميلون إلى الفتح في النطق ، ويفضل التميميون الكسر ! . ومن شواهد ذلك في الاسماء قول قريش : الشفع والوتر ( بفتح الواو ) ، وتميم تقول بكسرها .

– ومما يتصل بالحروف والاصوات نجد أمثلة متعددة تتناولها كتب اللغة دونما تعليق أو تحليل ، مكتفية بعزوها إلى القبيلتين ، كل بحسب نطقها ، فإذا ما تأملتها في إمعان ومقارنة وجدت أنها لا تنقاد لحكم عام يمكنك من استخلاص خصائص كل من اللهجتين ، وإليك بعض ما قيده من ذلك :



د. مسعود بويو

تميم تقول : ثومها ، اللثام ، وقريش تقول : فومها ، اللغام ( تبادل الحرفين : ث ، ف ) .

تميم تقول : شمر عن صاقه ، الصماخ وقريش تقول : شمر عن ساقه ، السماخ ( تبادل الحرفين : ص ، س ) .

تميم تقول : افلطني الرجل افلاطاً ، فحسط برجلك ، وقريش تقول : افلطني افلاتاً ، فحست ( تبادل الحرفين : ط ، ت ) .

تميم تقول : كشطت الجمل عن الفرس ، وقريش تقول : كشطت الجمل عن الفرس ( تبادل الحرفين : ك ، ق ) .

تميم تقول : فاضت نفسه ( خرجت ) ، وقريش تقول : فاضت نفسه ( تبادل الحرفين : ض ، ظ ) .

تميم تقول : قلنسوة ، مبيوع ، مديون ، وقريش تقول : قلنسية ، مبيع ، مدين ( تبادل الحرفين : و ، ي ) .

تميم تقول : صوام ، نوام ، صواغ ، موائيق ، وقريش تقول : صيام ، نيام ، صياغ ، ميائيق ( تبادل الحرفين : و ، ي ) (٦) .

والذي يمكن ان نلاحظه على هذه الامثلة بوجه عام هو ان نطق قبيلة تميم يميل الى تفضيل الاصوات المفخمة ، المجهورة ( الشديدة ) والمستعلية غالباً عوضاً عن الاصوات المهموسة ، الرخوة ، الرقيقة ، كما يمكن ان نستنتج من تأمل صفات هذه الحروف ومقارنة بعضها ببعض . ولكن هذا الحكم ليس مطرداً ، لان امثلة اخرى تروى نقيض هذه ، او على الاقل : لا تتفق معها نحو قولهم :

تميم تقول : قليت البر قلياً وقريش تقول : قلت البر قلوأ . فها هنا نجد ان قريشاً هي التي مالت الى الواو بخلاف الامثلة السابقة . وقل مثل ذلك في : فرغ يفرغ فراغاً ( بلغة تميم ) ، وهي بلغة قريش : فرق يفرغ فروغاً .

ورب باحث يقول : قريش تميل الى المد (٧) ، او الحجازيون يفضلون الكسر (٨) ، وشاهد المد عند قريش قولهم : اولاء ( في اسم الاشارة للجمع ) ، على حين تقول تميم فيه : اولي . ولكن هذا وحده لا يكفي ، لان قريشاً تقول مثلاً : اوصدت ، فلا تمد ، في



حين تقول تميم : أصدت ، فتعد . ولقد سلف تقييد أمثلة تشير أيضاً الى أن قريشاً لا تفضل الكسر وحده ، بل هي تفتح عين الفعل المضارع في مثل : زهد ، حقد ، والاسم في الوتر . وقريش تقول : برأت ، وأنا منك براء ، ( فتفتح ) ، وتميم تقول : برئت ، وأنا منك بريء ( فتكسر ) . و ( نستعين ) من سورة الفاتحة مفتوحة النون في لغة قريش ، وقراءتها بالكسر لغة تميم وأسد وربيعة (٩) .

وقد يقال مثلاً: ان لهجة تميم تميل الى الهمز (١٠) بدلا من الواو ، يقولون : اكدت ، وقريش تقول : وكدت . ويقولون : إكاف ، وقريش تقول وكاف . ولكن هذا الحكم يتعارض أيضاً بقول قريش : ذأى البقل يذأى ، ويقول تميم : ذوي يذوي ، فتميل هنا الى الواو عوضاً من الهمز . وكذلك تقول قريش : أيهات فتميل الى الهمز ، وتقول تميم : هيهات .

وفي الاعراب قد تتفق القبيلتان ، ولكنهما مع ذلك تختلفان في الاسم او الاداة ، وقد يكون العكس ، فقريش مثلاً يقولون : ما رأيت منذ يومين ، أو يومان . في حين تقول تميم : ما رأيت ( مذ ) يومين ، أو يومان . الاعراب متفق ، ولكنهم اختلفوا في منذ ، ومذ . وعلى النقيض من ذلك تنصب قريش خبر ( ما ) النافية ، وليس في الارض حجازي إلا وينصب - كما يقول ابو عمرو بن العلاء (١١) . ولا في الارض تميمي الا وهو يرفع . وعلى لهجة الحجاز قرئت الآية الكريمة : ( ما هذا الا بشر ) . أي انهما تختلفان في الاعراب . وكذا الامر في نصب الخبر المستثنى ورفع في النفي بليس في مثل قولهم : ليس الطيب الا المسك أو إلا المسك . الحجازيون ينصبون وتميم يرفعون .

وتميم تقول : الاته يليتة ( حبسه أو أنقصه من حقه ) ، نعديه بهمزة ، وقريش تقول : لاته يليتة ( بالثلاثي ) . ولكن تميم تقول أيضاً : هلكه ، بمعنى : أهلكه ، فتخالف بذلك الشاهد السابق نفسه .

وفي الاصوات والصرف نمة الفاظ تجيء ساكنة في لهجة تميم نحو : جمعة ، حمر ، كبند ، فخذ . . وتجيء محركة الموضع في لهجة قريش .

وأهل الحجاز يقولون : خمس عشرة ( خفيفة ) لا يحركون الشين ، وتميم تثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها . وأهل الحجاز يقولون : جوة ( بغير همز ) ، وتميم تقول : جؤنة ( بالهمز ) . وفي القلب أهل الحجاز يقولون : لعمرى ، وتميم تقول : رهمل .



ـ ولعل من أبرز وجوه الاختلاف بين لهجتي القبيلتين ميل الحجازيين الى تأنيث كثير من الاسماء التي هي موضع نظر ، أو تقال بالتذكير مرة وبالتأنيث مرة في كتب اللغة والمعاجم ، نحو : العنق ، العضد ، الطريق ، السبيل ، السوق ، التمر ، البُسْر ، الشعر ، البر ، الذهب . . على حين يميل التميميون الى التذكير فيها (١٢) . وقد يبدو هذا موضع استفراب ، حتى لقد رأى المرحوم الدكتور صبحي الصالح انه « لا يمت الى المنطق العقلي بصلة » (١٣) . وفيه بعض تسرع ، ذلك أن الظواهر اللغوية ليست منطقية أصلاً ، ولا اللغة نفسها منطقية دائماً . ولعل ما يفسر هذا الميل عند الحجازيين وفي شمال الجزيرة العربية الى التأنيث شيوع الآلهة المؤنثة هناك قديماً أكثر من جنوبها ، ويبرز هذا خاصة في لهجة كنانة ، وكأنهم كانوا يتفاءلون بتلك التسميات أو يتلذذون ويتحجبون .

نخلص من هذا الى أن قریشاً غالباً ما كانت أقرب الى أساليب القول والنطق السليم عند العرب وأكثر توافقاً مع لغة القرآن والموروث الأدبي ، وإن تميماً لا تخلو في نطقها من كثرة وكرارة قد ترجعان الى طبيعتها البدوية . وتلك فكرة يميل اليها الدارسون ، ويقويها التحليل الصوتي في الامثلة التي استعرضناها مقارنين بين صفات الحروف . أي أن سمات الخشونة والبداءة تلمح غالباً في أساليب تميم اللهجية ، يقابلها في لهجة الحجاز رقة لا تخفى في الذوق والالسة ، وقد يفاضل الذوق السمعى من ذلك بين نطقي القاف المعروف في القراءات القرآنية اخذاً بلهجة الحجاز ، وبين القاف التميمية التي تلحق باللهة فتكون بين القاف والكاف . أو بين القاف والكاف والجيم ( القاهرية ) غير المعطشة ، كما في قول شاعر تميمي :

ولا اكول لكدر الكوم : كد نضجت      ولا اكول لباب الدار مكفول (١٤)

ولولا أن بقايا هذه اللهجة ما تزال مسموعة في كثير من المناطق العربية الى اليوم لظن ان هذا البيت متكلف مصنوع رصفت فيه ( القافات ) عمداً بهذا النطق لبيان مصداق حكمهم على لهجة تميم بالخشونة والمخالفة .

لقد توقفنا عند لهجتي تميم وقریش قليلاً لان المظاهر اللغوية فيهما ادعى الى التأمل والمدارسة مما سبق وعرضنا له من القاب اللهجات الاخرى التي تطفئ عليها الخصائص الصوتية النطقية . ففي اختلاف لهجتي تميم وقریش رأينا أن الهمز قد يؤدي - بين تسهيله وتحقيقه - الى تغيير المعنى كما في لفظة ( أدفوه ) التي سلف ذكرها ، أي أن في اللهجتين ما يتصل بالجانب الدلالي ، كما فيهما ما يتصل بالصرف والتجويد ( في ادغام المثلين نحو : اغضض وغض ) ، وفيهما ما يتصل بالجانب الاعرابي .



ومثل هذه الخصائص لا بد ان يكون لها اثر ملحوظ في العربية الفصحى ، ولعل أسلم الطرق الى التماس هذا الاثر ان نحتكم الى لغة القرآن ، والى احتجاج النحاة واللغويين ، عند ذاك سجد القرآن يتضمن شواهد من اللهجتين ، وخاصة في تذكير الاسماء وتأنيتها ، كما نجد ان اللغويين يستشهدون باللهجتين ويشعرهما ونثرهما عامة على صحة اللغة . وفي النهاية يتبين لنا ان ظواهر اللهجتين ليست مطردة - كلاً على حدة - ولا ملتزمة ، او تمثل قواعد صارمة نص النحاة على الاخذ بها وحدها في الاساليب ، او جعلوا القياس وقفاً على احدهما . انما الذي يستخلص من كتب التراث يفيد ان كلاً من القبيلتين التزمت بخصائصها اللهجية المحلية التي سلف ذكرها . وكان لكل قبيلة ( لحنها ) الخاص اندي بلهج به وعاداتها الصوتية التي تتمسك بها وتبقي عليها فلا تلتفت غيرها الا على فلة وبطء . لكن العامل المؤثر في حركة العربية الفصحى ، في هذه المرحلة ، ان الدين الاسلامي ، والدين على مر العصور من أبرز العوامل المؤثرة في تزيخ اللغات . فالقرآن الكريم . كتاب المسلمين المقدس نزل بلهجة قريش بصفة غالبة ، مما اعلى من شأنها وأعطها مكان الصدارة بين لهجات القبائل العربية كلها . وقد زاد من مكانتها - فيما بعد - ما روي ونص عن الاخذ بها . من ذلك ما رواه البخاري في « صحيحه » عن أنس بن مالك من أن الخليفة عثمان بن عفان لما امر بجمع القرآن عهد بذلك الى ( لجنة ) ربعية مؤلفة من زيد بن ثابت من المدينة . ومن عبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وكلهم قريشون . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم » (١٥) .

وروي ان عمر بن الخطاب كتب الى ابن مسعود : « ان الله عز وجل انزل هذا القرآن فجعله عربياً ، وأنزله بلغة قريش . فقرأه الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام » (١٦) .

وروي عن زيد بن ثابت حين أراد ان يكتب ( انساب ) بالهاء على لغة الانصار ، انهم منعه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش (١٧) . وهذا ما ارتقى بلهجة قريش الى مرتبة التقديس وجعل منها مقياساً أساسياً لسلامة العربية الفصحى وصحة الاحتجاج .

اما العامل الثاني الذي رجح كفة قريش على غيرها شيئاً فشيئاً فهو « الاختيار » اللغوي الذي اثر عنها ، ولكن عملية الاختيار التي انتهجتها قريش من الفاظ القبائل الاخرى واساليبها لم تكن تستند الى شرائط معينة ، ولم تكن خاضعة لقوانين معلومة تلتزم بها ، انما نستخلص من الاخبار اللغوية والتاريخية الكثيرة انها كانت تتجنب اخذ



د. مسعود بوبو .....

الغريب المتقعر ، وترد الشعر أو تقبله عندما يعرضه عليها الشعراء كاستحسانها  
لقصيدة علقمة بن عبدة التميمي التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم      أم حبلى إذ تأتلك اليوم مصروم  
والتي قالوا عليها : هذا سمط الدهر . ثم عاد اليهم في العام التالي فأنشدتهم قوله :  
طحا بك قلب في الحسان طروب      بعيند الشباب عصر حان مشيب  
فقالوا : هذان سمطا الدهر ، أو هاتان سمطا الدهر (١٨) .

وبسبب هذه المركزية الدينية والأدبية والاستقرار والتكامل انتشرت لهجة  
قريش وسادت في الحجاز ونجد واليمامة والبحرين ، وزاحمت اللغة الحميرية في  
الجنوب حتى باتت أداة التفاهم بين الوفود اليمنية وحملة الشريعة الإسلامية اليهم  
من مبشرين بها وداعين لها بين العرب الجنوبيين ، في مستهل الدعوة الإسلامية .

ومع هذا كله يبقى من العسير القول ان لهجة قريش كانت تتصف بخصائص  
مميزة هي كذا وكذا . . لانها لم تصل إلينا خالصة وبخصائصها الدقيقة كما كانت عليه  
في الاصل ، انما وصلتنا حاملة خصائصها وقدرنا من خصائص اللهجات الأخرى التي  
احتكت بها واقتبست منها أيضا ، واللغويون أو المؤرخون لم يمينوا تلك المقتبسات على  
وجه الدقة والتحري ، بل ان ما وصل إلينا من ذلك التراث اللغوي هو ما صيغ أو  
كتب بعد تكون هذه العربية الفصحى في آخر مراحلها قبل الاسلام ، أو بعد تغلب لهجة  
قريش ، وان ما سنه اللغويون والنحاة من احكام اخذ اللغة والاحتجاج بها لم يقتصر  
على قريش أو يقف عندها على وجه التخصيص أو التمييز ، بل هناك من كان يذهب  
الى أن سلامة اللغة في بني سعد أفضل وأصح مما في قريش ، لان بني سعد اهل وبر  
وأبعد عن التجارة وعن الاختلاط بالاعاجم على الرغم من عدّهم قريشا أفصح العرب مع  
ما كان منهم من اختلاطهم بغيرهم في المواسم والتجارات والرحلات .

وامام هذه الظواهر اللهجية التي بدت مقلقة أحيانا لم يجد اللغويون القدماء مفرًا  
من التحوط والتشدد في شرائط اخذ اللغة واضعين في الحسبان استقرارهم العام  
لمجمل مادتها ، ولواقعهم العربي ، وموفقين بين الجانب الديني والقومي ( من جهة  
اختلاط العرب بغيرهم ) ، مع مراعاة أهمية الجانب المكاني ( الجغرافي ) ، والجانب الأدبي  
التمثل بلغة الشعر خاصة ، فكانوا بهذا واضعي أهم شروط اخذها واستنباط قواعدها  
والاحتجاج بها مستقاة ممن لا تشوب عربيتهم شوائب اللكنة الأعجمية أو الرطانة  
الدخيلة ، أو مستبشع اللهجات العربية المدمومة ، فقالوا :



« وكانت قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ، الا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ، ولا عجر فيه قيس ، ولا كشكشة اسد ، ولا كسكة ربيعة » (١٩) .

وقالوا : « والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم ، واسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجمله فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم . فانه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقيبط . ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم اهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر (٢٠) فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس واسد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتلثوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم (٢١) .

ومن خلال القولين يتجلى واقع جمع العربية في تخير احسن لهجات العرب واملحها واصفى الكلام وافصحها ، ومعيار الفصاحة عند علماء اللغة هنا - كما هو ظاهر - يتوقف على مدى صلة العرب بالاعاجم . وأبواب هذه الصلة : اما الحواضر التي كانت مسرحا للتجارات ، أو عقدة للمواصلات ، وإما اطراف بلاد العرب حيث يسمح الاختلاط بالاقوام غير العربية بقدر من التأثير اللغوي يؤدي الى افساد الالسنه . وهذا كله جعل لهجة قریش وللقبائل الفصيحة القريبة منها اعتبارا خاصا ، وكوّن من ذلك نواة لغوية صارت هي المناط والمحتكم للاخذ والاحتجاج . ويمكن أن نستشرف في هذا المسلك لونا من التخطيط ، أو التصميم على صيانة هذه اللغة من افسادها بالالسنه الاعجمية ، أو بالظواهر اللهجية غير المستحبة ، أو غير المطردة عند مجمل القبائل العربية نفسها .

ولكن هذا التأسيس لأصالة العربية لم يبلغ اسهام القبائل القاصية والدانية بنتاجها الادبي في تغذية تلك النواة اللغوية التي كانت بمنزلة القلب من العرب وجزيرتهم ،



كما لم يفترض وضعاً متشدداً يحول دون أخذ القرآن منها ، أو دون التيسير لها بالقراءة على مقتضى لحنها ولهجاتها ، أو الاستشهاد بلهجاتها في النحو والتعديد . وهذا ما يفسر نزول القرآن الكريم منجماً وعلى سبعة أحرف وتضمنه كثيراً من لهجات ( أو لغات ) القبائل الأخرى ، وكتاب عبد الله بن عباس ( ت ٦٨ هـ ) المسمى « اللغات في القرآن » خير شاهد على ذلك .

وعلى هذه الصورة يمكننا أن نحيط نشأة العربية الفصحى بحقائق أو دوائر مركزها لهجة قريش وما جاورها من القبائل التي لم تختلط بالاعاجم فتفسد لسانها ( كما عبروا ) ، ثم الدائرة التي تحيط بهذا المركز متمثلة بلهجات القبائل العربية الأخرى ، تليها دائرة اللغات المسماة بالسامية والتي كانت تحيط بقلب الجزيرة العربية أو تتغلغل فيها كالعبرانية والسريانية والنبطية . . وما تذكره كتب اللغة عن ( الألفاظ النصرانية ) التي وردت في أشعار عدي بن زيد العبادي ، وأبي ذؤاد الأيادي ، وأمرئ القيس ، والنايفة الذبياني ، والمرقش الأكبر ، وأوس بن حجر ، والقحيف العقيلي (٢٢) . فضلاً عن إشارات موزعة هنا وهناك تذكر الحواضر وفساد لغة مرناديها ، وتذكر الحبشية والسريانية والحميرية وغيرها . يضاف إلى ذلك ما أحاط بالعربية من لغات أعجمية كالفارسية والرومية والهندية .

ولكن أمراً أساسياً يعرض هنا ، وهو حري بالآ يفغل ، وأعني به أن لغات القبائل التي احتكت بها لغة قلب الجزيرة العربية (قريش وما جاورها) وتأثرت بها لم تسجل . وبالاقتصار على استقرارنا لما وصلنا من معلومات عن هذه اللهجات العربية تكون جوانب لا يستهان بها من طفولة العربية قد بقيت غامضة ، ولعل الكشف الأثري تسهم - مستقبلاً - في القاء الضوء على تلك المرحلة المبكرة التي لم نخط بجوانبها كاملة ونستقص أخبارها بالتفصيل .

بهذه الصورة ورث الإسلام اللغة العربية الفصيحة التي نزل بها كتابه العظيم ، وفي ضوء هذه الاعتبارات كلها يمكن تفسير وجود ألفاظ يسيرة من القرآن جاءت بلهجة قبيلة نائية ، أو بلغة أعجمية . . ولكن هذا كله لا يغير وجه الحقيقة الكبرى الثابتة ، وهي أن الإسلام عند ظهوره وجد العرب قد هيئوا له لغة أدبية موحدة ، تملك من وسائل الفنى والصالح ما يجعلها جديرة باستيعاب رسالته العظيمة وحملها إلى البشرية .



## الهوامشي :

- (١) المحتسب في شواذ القراءات : ٤٧/١ ، تح : علي التجدي ناصف وآخرين ( القاهرة ١٢٨٦ هـ ) ، واللسان / جنن ، خبأ . والمبيط من السدم : الخالص الطري . واحمأرت أصلها : احمأرت ( بتشديد الراء ومن غير همز ) .
- (٢) اللسان / نبأ ، ودراسات في فقه اللغة ، الصفحات : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، المتن والهامش .
- (٣) مختار الصحاح / د ف ا ، وتاج العروس ١٢٨/١ ، والمخصص لابن سيده ٦-٢/١٤ ( ط بولاق ١٣١٦ ) فتحة شواهد أخرى ، منها على سبيل المثال : كلاته اذا حرسته ، وقد كليته اذا أصبت كليته ..
- (٤) سورة لقمان : ١٥ .
- (٥) المرية : الشك . ومثلها : القنوة ، أي : الكسبة (بالضم عند تميم وبالكسر عند قریش) وكذلك صنوان .
- (٦) يسمى هذا في اللهجات : المعاقبة أيضا ، تماقب الواو مع الياء . فقد روي عن الاصمعي قوله : سألت الفضل عن قول الاعشى : لعمري لمن أمس من القوم شاخصا لقد نال خيصا من غفيرة خائضا فقلت : ما معنى : خيصا خائضا ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص المطاء من بني فلان ، أي يقلله ، فكأن خيصا شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائضا . قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوصا ، اذ هو من قولهم : هو يخوص المطاء . فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لاهل الحجاز ( المخصص ١٩/١٤ ، ط أولى - بولاق ١٣١٦ هـ - ١٣٢١ هـ ) .
- (٧) كما جاء في « دراسات في فقه اللغة » ص ٨١ ، نقلا عن « شرح شلور الذهب » ص ١٦٤ .
- (٨) نفسه ص ٩٦ ، وص ١٠١ .
- (٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٦/١ ، والصاحبي : ٤٨ ، والمزهر ٢٥٥/١
- (١٠) من ذلك أيضا عزو لهجة الضعفة اليهم ، ( كما مر ) .
- (١١) انظر النص في « المزهر » ج ٢/٢٧٧ ( ط . الهلال ١٣٢١ هـ ) .. وفي غيره ..
- (١٢) المزهر ٢/٢٧٧ .
- (١٣) دراسات في فقه اللغة : ٨٢ .
- (١٤) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس : ٥٤ ، والبيت هو : ولا أقول لقدر القوم قد نضجت ولا أقول لباب الدار مقفول وفي « بحر العوام » : ولا أقول لقدر القوم : قد غليت ولا أقول لباب الدار مفلوق
- أضاف المحقق بعده :
- لكن أقول لبابي مفلوق وغلت قلدي وقابلها دن وابريق
- انظر : « بحر العوام فيما أساب فيه العوام » للحنبلي الحلبي : ١٩ ، تح : عز الدين التنوخي ، مجمع دمشق ١٩٣٧ .
- (١٥) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٥٩/١ ( ط . القاهرة ١٩٣٥ ) .
- (١٦) المحتسب لابن جني ٢٤٢/١ .
- (١٧) كتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني . صححه الدكتور آثر جفري ( ط . الرحمانية - القاهرة ١٩٣٦ ) .
- (١٨) انظر « معاهد التنصيص » : ٨٥ ، والاغاني ١١٢/٢١ ( ط . الساسي ) والقاموس المحيط / عبد .
- (١٩) الصاحبي في فقه اللغة ص ٥٢ .
- (٢٠) نقلها السيوطي ، أو نقلت عنه مصحفة عند بعض الباحثين ( اليمن ) ، ولعل ما أثبتناه هو الوجه ، مع الإشارة الى أن هناك من تنبه لهذا السهو قبلنا . وانظر المزهر ٢١١/١
- (٢١) المزهر ٢١١/١ . وكان يمثل هذا الاتجاه خاصة علماء البصرة .
- (٢٢) ينظر في ذلك : الشمر والشمره لابن قتيبة ٢٢٨/١ ، والموضح للمرزباني ٧٣ .







## من معارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ معركة الكفر

د. لوفان قرقوط

تشكل « الثورة » السورية الكبرى ، التي انفجرت عام ١٩٢٥ ، « فجأة » (١) في جبل الدروز بقيادة سلطان الاطرش ، أعنف وأطول فاصل زمني ( ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ) . في الكفاح من أجل الاستقلال قام به الشعب العربي السوري ، في وجه الانتداب الفرنسي . في أعقاب معركة ميسلون التي جرت غدرا ، مبتسرة ، بلا تكافؤ ، على أبواب دمشق ، في الرابع والعشرين من تموز / يوليو ١٩٢٠ ، والتي قادها البطل بحق يوسف العظمة وهو يعلم نتيجتها (٢) ، حتى لا يقال . ان فرنسا ، دخلت سوريا ، قلب العروبة آنذاك ، دون قتال . لتنفيذ سايكس - بيكو .

وبشمن محن وتضحيات لا حصر لها ، انتهى الامر بسوريا الى الحصول عام ١٩٤٣ على الاستقلال ومن ثم بعد ثلاث سنوات ، الى تحرير كافة اراضيها من الاحتلال الاجنبي . من هنا اعتبار تلك « الثورة » خاتمة للمحن والتضحيات وان كل ما جاء بعدها وما تلاها حتى توقيع المعاهدة مع الفرنسيين بالحروف الاولى ، انما كان يجري في ظل سيوف « المجاهدين » الذين نزحوا من سوريا الى الاردن وتجمع بعضهم في « النبك » بانتظار ما يتوصل اليه رجال السياسة . ولادراك اهمية الثورة كعدوة على طريق تقدم سوريا الى اهدافها الوطنية لا بد من استعراض قوى مراحلها .

في السنوات التي سبقت الثورة عمل الفرنسيون على توطيد « الانتداب » بالوصول الى سن الدستور ، او النظام الاساسي ، كما قضت بذلك عصبة الامم ، ان يوضع في مدة سنتين ، وعمل الشعب من جهته ، تلقائيا ، على ان لا يمكنهم من ذلك . فانقضت سنوات ما قبل الثورة في تخطيط ، وعدم استقرار دل على خطأ عصبة الامم وخلل في اهلية الدولة المنتدبة وصوابية الانتداب ، تطورت في اثنائها الحياة السياسية وشكل الحكم الذي فرضته فرنسا : من تقسيم سوريا الى دويلات متعددة ، املا بتسهيل حكمها ، مستقل بعضها عن بعض ، مرتبطة مباشرة بمندوبي المفوضية الفرنسية العليا في بيروت ، الى اتحاد ذي مجالس استشارية ، ثم الى اتحاد يتمتع بمجالس تمثيلية منتخبة ، ذات اختصاصات محدودة ، وبعد ذلك الى وحدة بين حلب ودمشق مع الاحتفاظ بعلاقات شبه اتحادية مع سنجق الاسكندرون و « بلاد



د. ذولفان قرقوط

العلويين «(٢)». ظل وضع « دولة جبل الدروز المستقلة »، كما انتهى اليه منذ قدوم الفرنسيين واتفق عليه روبر دي كيه وشيخ « العقل » محمود أبو فخر ... وبدأت تكتنفه حفلات « عيد الاستقلال » سنويا ، بمظاهرها المصطنعة ، كأنما لا علاقة تربط أهالي هذا الجبل بسوريا ولا شأن لهم بما يجري ويختمر فيها ، المحسوس ببصيرة بنيتها .

وهكذا ، من حيث لم تتوقع سلطات الانتداب ، وهي سادرة في غيها وفي رعونتها ، وفي وقت تراخت فيه قبضتها وانخفض عدد قواتها ، انطلقت الثورة ، فكانت مفاجأة لها وللجنة الانتداب على السواء(٤) . وذلك لأنها أقامت حكمها على أساس طائفي ، بل على أن « طوائف » سورية تشكل شعوبا منفصلة بعضها عن بعض ، حتى بلغ الأمر أن حسبت تعدد الطوائف هذه هي نتيجة فوارق عرقية ، ولم تفتن ، أو تعمدت أن لا تفتن ، الى ما بينها من ثوابت : هي روابطها القومية الاعمق من خلافاتها الدينية والاكثر أصالة ، والى أن مصالحها المتشابكة أقوى وأغلب من تلك الاحقاد والصفائن والعداوات التي ورثها الحكم العثماني وعصور الانحطاط . ومن ذرى « جبل الدروز » التي أقام الفرنسيون دولته « لتكون حصنا لهم » يفصل دمشق عن عمان وبغداد ، استجمعت البلاد كلها تقريبا ، أمانها الوطنية والقومية ، هذه المرة ، بمنطق الثورة ، تطرحها وتطالب بتحقيقها .

تصور صحافة تلك الايام ومصادر الانباء والتقارير الى وزارة الخارجية الفرنسية، انقسام أهل الجبل - على أثر وفاة حاكمه الأمير سليم الاطرش الى فئتين أو حزبين : أحدهما يطالب بحاكم وطني ويرى شغور المنصب فرصة له ، وآخر يؤيد وكيله ، الفرنسي ليسد الفراغ ، وأن المطالبين بحاكم وطني ، استغلوا فرصة قيام الحاكم الفرنسي بالوكالة في اجازته فتعالت شكواهم منه فذهبوا لمقابلة المندوب السامي في بيروت الجنرال ساراي . فرفض « مقابلتهم » ، وقيل انه أساء استقبالهم ولم يقبل شكواهم على موظف فرنسي ، في اجازة ، لانه عضو في حزبه ( في فرنسا ) ومن محفله الماسوني ... وان السلطات الفرنسية في دمشق اعتقلت بعضهم وهم في طريق العودة الى الجبل ونفتهم ... فكان هذا سببا في قيام « سلطان الاطرش زعيم هذا الحزب » ، الذي تخلف عن الاشتراك في « وفد الاحتجاج » ، بثورته على الفرنسيين ... الخ(٥) كما صور بعضها المسألة انتصارا لنفوذ « عائلة » - عائلة الاطرش - كاد يعصف به وجود كارييه Carbillet في الحكم ، الذي كانت سياسته تقوم على تقوية التيار الشعبي ضد الاقطاع .

والحقيقة مختلفة تماما . فحركة « الاحتجاجات » على تصرفات الحاكمين



الفرنسيين في السويداء وعلى هذا الحاكم الفرنسي بالذات وبعض معاونيه و«العرائض» التي رفعت للمسؤولين بمناسبة أزمة الحاكمية ، لم تكن بنت ساعتها ، وإنما كانت وسيلة القوى الوطنية الى أهدافها في مكافحة الانتداب الفرنسي ولم تكن هدفاً (٦) فالحزبان المعنيان هما أصلاً من مؤيدي الانتداب ومن قبل كانا من مؤيدي الحكم العثماني واقطابهما هم من المنتفعين بالسلطة في كل عهد . ومن قرأ « حوران الدامية » لحنا أبي راشد الدقيق في التاريخ لتلك الفترة لا يحتاج الى مزيد . . في حين أن الجانب الاقوى والاكثر عدداً وتعبيراً عن مكنون « الجماهير » ، كان يتمثل في تلك الجماعات ، وعلى رأسها سلطان الاطرش ، التي سبق لها أن لعبت دوراً كبيراً في « الثورة العربية الكبرى » ضد الاتراك العثمانيين ، الى جانب الحلفاء ورفضت الانتداب الفرنسي في استثناء لجنة كينغ - كراين ، مطالبة بالوحدة . ثم قاطعت « مهزلة دولة جبل الدروز المستقل » ، ولم تكن شترك في « أعياد الاستقلال » وإذا اشتركت فبالرغم عنها ، تمويها . ولم يكن من شأن وجود هذا الحاكم الفرنسي الظالم الارعن ، الشاذ في أخلاقه ، الذي عم أذاه ، إلا أنه فاقم الاستياء الشعبي . وقلما انقضى عام واحد دون أن نجد من يشارك منها - من تلك الجماعات - في إثارة الاضطراب في وجه الحكم الفرنسي أو يخرج عليه (٧) . إذ لم يكن أهالي الجبل قد نسوا بعد ذلك « العز » الذي انتشوا به جراء دورهم في الثورة العربية مع فيصل .

ذلك أن جبل حوران ، الذي أصر الفرنسيون على تسميته بـ « جبل الدروز » لتعزيز الصفة الطائفية - وجاء الحكم الوطني فسماه « جبل العرب » - كان من أشد مناطق سوريا ارتباطاً بفكرة الثورة العربية على العثمانيين التي ركب تيارها الهاشميون وحنينا الى أيامها .

اذ ، على الرغم من توالي تجريدات الدولة « العلية » عليه ، لاختصاصه ، فإن أخبار ثوراتهم طفت على تاريخ المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وظل الجبل من بين المناطق العربية القليلة ، المنطقة التي لم يستطع العلم العثماني ، رغم جميع مآسيه ، أن يستقر فيه (٨) ومن هنا كان أهاليه من أوائل المبادرين لتلبية نداء الشريف حسين بالثورة والالتحاق بفيصل وهو ما يزال في العقبة خاصة منهم أهالي القضاء الجنوبي ، كما كان الجبل هو المعبر المأمون اليها . يذكر الدكتور احمد قدري ، في مذكراته عن الثورة العربية ، كيف كان بواسطة الدكتور عبد العزيز الكنعاني واقاربه في جرمانا يخفي أعضاء جمعية الفتاة ثم ينقلهم الى قرية « خلخلة » ، إحدى القرى الامامية في الجبل ومنها الى القرى ، بلد سلطان الاطرش قاصدين بعدها الى العقبة . ويستدل مما كتبه أن المرء منهم ، بما أن تظاً قدماء أرض الجبل ، حتى كان يشعر بالامان والاطمئنان ، يمر بـ « المخفر » ، يغير اكرات ، وتولم له الولاثم ، ويلتف حوله



السامرون ينشد هم شاعر القرية على الربابة حتى الفجر (٩) . ويمكث أياما فيه ويتنقل بلا وجل . وكانت القرية مقرا يأوي اليه الملاحقون والمتوارون عن عيون الاتراك او محطة على طريق الحجاز ، وقد أفرد لهم مكان ينزلون فيه بدار محمد شلهوب : كل منهم جورج صيدح وخبيل سكاكيني . ولا يزال سكان القرية المعمرون يذكرون بعضا من نوادرهما وطرائفهما (١٠) وقد انشدا في جمع من الاهالي نشيد الوطن العربي ورفع سلطان الاطرش بحضور تحسين قدري ونزيه المؤيد العلم العربي قبل دخول الحلفاء وفيصل الى سوريا ، وقبل رفعه في اي مكان آخر من سوريا .

ومنذ بداية الحرب ، قبل الاتصال الرسمي بالشريف حسين ، أبدى سلطان الاطرش استعدادا للثورة والانتفاض على العثمانيين ، فأرسل كتابا الى المعتمد الانكليزي في القدس الا ان الجواب جاءه من المعتمد الفرنسي حداد باشا (١١) وكرر الكتابة الى المعتمد البريطاني فاجابة حداد باشا مرة اخرى (١٢) كما أوفد حسين الاطرش ، شيخ قرية عنز ، للالتقاء برسول الامير فيصل في « كاف » لطلب مدد من الاسلحة للقيام بثورة ضد الاتراك ، وحضر اللقاء : نسيب البكري ، وزكي الدروبي .

والى هذا الاجتماع تعزى ، افتراء ، فكرة ، اعطاء الجبل كيانا خاصا ، داخل كيان الحكومة السورية (١٣) ، وراحت قيادة الثورة توالي موافاته الانباء الهامة وهو بدوره يرسل بها عيون القرى والمتنفذين فيها عاملا بذلك على بثها بين الناس (١٤) . وقد اشار الى ذلك خصمه ، زعيم الاتجاه الاخر الموالي للعثمانيين ، بل وللحكم القائم في كل عهد . وفي صيف ١٩١٨ عاد نسيب البكري الى الجبل يحمل منشور فيصل الى اهاليه ، على ما يذكر حنا ابو راشد ، فاذاع سلطان الاطرش على اثره منشورا على الجبل يدعو الى الثورة ، ضاربا موعدا للحاق به في بصرى الشام للاقامة الشريف في درعا .

بعد ان تحرير دمشق انسحب سلطان باشا ومن معه من الدروز الى الجبل وظلوا محافظين على عهدهم للحكم الجديد وعلى احترامهم لفيصل واملهم فيه . وداوم من جهته ، على الاتصال بهم كمعادته كلما كانت تتأزم الامور في استطلاع آراء مؤيديه فكان يجدهم دائما على عهده بهم مخلصين ثابتين على المبدأ . وبعد ميلون وانسحاب فيصل الى الكسوة هب الدروز لنجدة الجيش العربي فتقدمت بيارقهم ( اعلام القرى ) حتى وصلت بصرى الحرير في سهل حوران ، الا أن فيصلا كان قد مر بدرعا ، مغادرا الى فلسطين ثم الى أوروبا حاجا عن عرش ، ولم يأخذ بنصيحة حمد البربور ، من « أم الرمان » ، بنقل الحكومة الى السويداء ، عاصمة الجبل ، والاستمرار في محاربة الافرنسيين ، كما اشار عليه كثيرون من وطني البلاد (١٥) .



وبقيت ذكريات هذا العهد ، مشرقة في ذهن أهالي الجبل وخاصة في قضاء صلخد ، فلم يكن من السهل نسيان « أيام الشريف » الحلوة و « عزها » . لا سيما لما رافقها ، لمدة سنتين ، من فيض في المحصول وارتفاع أسعار الفلال . فكان ذلك باعثاً على صمود أكثرهم في وجه الاغراءات الفرنسية : كانوا يقولون ان فلاحه الارض ادر مالا من عطايا غورو Gouraud وذهب الاحمر الرنان ، حتى ان احدهم استصلح قطعة من الارض البور على اطراف المعمور بين الجبل والاردن واطلق عليها اسم غورو وصارت مضرباً للتندر على المتعاونين مع الفرنسيين ، وما زالت بهذا الاسم حتى الان .

بداية سمي الفرنسيون الى اعطاء الجبل كيانا مستقلاً واقاموا انشاءات الحدود بينه وبين حوران ، حتى انهم اثاروا الاحسن القديمة ، المنسية ، وجعلوا له عيد استقلال ، تقيم القرى ، كل القرى ، بيتاً من الشعر او اكثر يضم قبة من شبابها وبناتها ، يولون ويتنافسون في الولايم والالعاب الفروسية والاهازيج وسهرات الربابة . لا تتخلف عن الاشتراك ، « عائلة » خشية عيون الحكم والوشاة .

وبدا كان الدولة المنتدبة تطبق اتفاقية « روبردي كيه - ابو فخر » التي اكتسبت رضى « عائلات » الجبل في اجتماعات عامة دعيت اليها - وان كانت اثناء أزمة « حاكمية كاربيه » والمطالبة باستبداله او بعزله وتنصيب حاكم درزي مكانه بموجب هذه الاتفاقية قد اثرت - ورفض الجنرال سراي الاعتراف بها (١٦) . كانت حكومة الانتداب تدير حكمها بتقسيم الجبل الى اقلية ثلاثة : السويداء ، صلخد ، شهاب ، وعلى رأسها حاكم اختارته في البداية ، من آل الاطرش ، كبرى عائلات الجبل ، هو الامير سليم ، خليفة يحيى بك الاطرش ، زعيم « عرى » ، المعترف لها ، بين أهالي الجبل بال « زعامة » ، والذي اختصم مع سلطان باشا الاطرش ، في اواخر الحكم العثماني على الموقف (١٧) في رسائل متبادلة بينهما نشرها حنا ابو راشد ، واقامت ، من أعوانها ، مجلساً استشارياً يجري انتخابه على درجتين ، راعت فيه التمثيل العائلي . ونصبت في كل قضاء مستشاراً . فلما توفي الحاكم الاهلي الامير سليم ، سولت لنائبه الكابتن كاربيه نفسه ، او ان حكومة الانتداب اوعزت له ان يطرح نفسه على المجلس الاستشاري لانتخابه حاكماً أصيلاً . ففعل بأن جمع أعضاء المجلس الاستشاري وطاف بينهم ماداً برنيطته ليضعوا أصواتهم فيها على ورقة أمام عينيه فلم يجرؤ احد على المخالفة . وشفع هذا الانتخاب بحركة تأييد عامة من الاهالي . فطاف قرى الجبل وكان على أهالي كل قرية ان يهرع أهاليها لاستقباله الى حدود القرية القادم منها حيث يخرج لوداعه أهالي القرية القادم منها . وويل للوجيه او الشخص البارز في القرية الذي لم يخرج لاستقباله او لوداعه . فأقل ما كان ينتظره ان يسجن في « الباكية » بين البقر والحمير ليلاً . ويمضي نهاره في رصف الطرق ، لا فرق في ذلك بين عائلة واخرى . ظاهراً



كان يزف من قرية الى قرية بين الاهازيج والدبكة والدفوف . ولكنها زفة تبعث المروءة والشعور بالاكراه والظلم . لم يشعر الاهالي بمثله من قبل ولا في كنف الدولة العثمانية : لان « الدنيا » حينذاك لم تكن تضيق بهم فأرض الله واسعة ، وما كان على المرء فيها الا أن ينتقل من ضيعة الى ضيعة يتوارى فيها او عشيرة بدوية رحالة .

وقد عزا الحكم الفرنسي ذلك وما كان الاهالي يحسونه من دكتاتورية حاكم الجبل الكابتن كاربويه الى اضطراذه اليه لفرض « السخرة » لتعبيد الطرق وشق الاقنية وبناء المدارس . . . . . اذ كيف بدونه وبدون فرض ضرائب يستطيع القيام بما قام به لان ميزانية « جبل الدروز » لم تكن تتعدى ( ٨ ) ملايين فرنك ، على حد قولها في تقريرها الى عصبة الامم لعام ١٩٢٥ ، ولم يكن الوفد السوري الفلسطيني بجانب عصبة الامم في جنيف قصير اللسان للرد ، وان بدا أن التقصيات التي كانت ترد اليه من سورية ضعيفة لا تفي بالفرض . . . . . ولكن متى كان ثمن « القطة الفرنسية » يساوي عشرين ليرة ذهبية تفرض غرامة على اهالي السويداء ، ( ربما كان احدهم سرقها او رماها في الحرش طعاما للوحوش . . . . ) . ولعل الشعور بالظلم والاهانة هو الذي دفع بطلا من الشعب هو حسين مرشد من السويداء للتصدي للملازم موريل أحد أعوان الحاكم المباشرين فيطلق عليه النار من مسدسه في وضع النهار في ٣ تموز / يوليو ١٩٢٥ فكان ذلك انذارا لسلطات الانتداب بقرب الانفجار .

ولم تخف سلطات الانتداب بل لم تستطع اخفاء ما كان يثير استياء الناس من الحكم وتصرفات الفرنسيين المباشرة وأعوانهم ورجال الشرطة في كثير من الاحوال التي يصعب سردها وتفصيلها ، حتى تقاريرها التبريرية التي تأخذ صفة الدفاع امام المركز او تقارير المفوض السامي الى وزارة الخارجية فانها كانت تنم عن الاخطاء وسوء الاستعمال ، مما يؤكد ، كما يقول الدكتور ادمون رباط ان الكابتن كاربويه مارس دكتاتورية فعلية سمحت بها وساندتها السلطات الفرنسية . وما ان وسع صدر تومي مارتن الذي أرسل ليحل محل الكابتن رينو ، الحاكم بالوكالة مكان الكابتن كاربويه الذي أعطي اجازة اضطرارية ، وفتح الباب للشكاوى حتى انتهالت عليه « العرائض » من كل جانب تكشف الارتكابات وتحددها ، نوه بعضها انها تقدم للمرة الثانية ، الاولى قدمت للكابتن رينو الذي خلف الكابتن كاربويه . وقيل انها وراء تقرير الكابتن رينو الذي رواه مسيو فيري Ferry في مجلس النواب الفرنسي وقال فيه : « ان المقصود بذلك شن حملة ضد الكابتن كاربويه انجرت عليها عائلة الاطرش التي اقتضتها الظروف الى صفوف المعارضة مع معظم العائلات الدرزية . . . . . الا أن افراد هذه العائلة الذين جاؤوا اليّ يؤكدون شخصيا اخلاصهم للسلطة المنتدبة ، طلبوا مني أن يستمع اليهم مندوب المفوض السامي في دمشق لتبديد سوء التفاهم » (١٨) . ثم أردف قائلا : وإهلتوا



« ... انهم اظهروا لاهلنا وولائنا نصرح اننا لم نعد نطالب بحاكم وطني ... وانما نريد حاكما فرنسيا شرط الا يكون هو الكابتن كاربويه » .

ويستشف من مداخلة النائب فيري ، في البرلمان الفرنسي ، أن السلطات الفرنسية في الجبل كشفت عن تناقض في صفوفها وتنافس ( لم يكن ليخفى على بصيرة الاهالي ... ) . فقد تلقى المفوض السامي في ٢ مايو / ايار برقية موقعة من أربعة وعشرين من اعيان الجبل يدعمون الكابتن رينو قائلين « ... انه احيا فيهم تعلقهم بفرنسا وبدد سوء التفاهم » . ويمضي النائب في مداخلته ، فيقول ان اوغست برونيت النائب الفرنسي الذي يمر بدمشق استقبل في اليوم الثاني وفدا درزيا يضم ثمانية وثلاثين شخصية يمثلون كبريات عائلات الجبل ، منهم سبعة أعضاء في المجلس الاستشاري ، وواحد من شيوخ « العقل » الاربعة ، فاستمع لشكاويهم ووعد ان ينقلها الى المفوض السامي . وفي ١٥ من الشهر نفسه توجه هذا الجمع المهيب الى بيروت لتقديم شكاويه بنفسه ولكن المفوض السامي الجنرال سراي رفض استقباله . وبعد ثلاثة ايام وجه الكابتن رينو تقريراً اخر الى رؤسائه في دمشق يدعم مطالب الوفد يذكر فيه: ان هناك حركة عامة تدعوننا ان نعبر حوادثها أعظم الانتباه . واخيرا قدمت رسالة جماعية ، شارك فيها من كان لا يزال متفرجا بعد من اعيان الجبل في المطالبة بتنحية الكابتن كاربويه ، وبعض اعيان دروز لبنان وعلى رأسهم الامير فؤاد ارسلان . ولكن ذلك لم يزعزع صمت الجنرال سراي .

وكانت الجهود جميعها حتى ذلك الحين متجهة الى استبدال الكابتن كاربويه وعدم عودته الى الجبل . ولكن تيارا جديدا ، أكثر عمقا راح يأخذ مجراه في الصفوف هو تيار المطالبة باتفاق ١٩٢١ الذي يشرط وجوب تسمية حاكم درزي في حكم الجبل . الا أن الجنرال سراي ، المفوض السامي ، أعلن أنه لا يعترف بصلاحيته لاتفاق في حين كان الدروز « يطالبون بالحقوق التي تمنحنا المعاهدة وتفرضها الظروف الان » وكانت حجة الجنرال أن هذه المعاهدة لم يوقعها من اهالي الجبل الا شخص واحد فيجب الموفدون الدروز بقولهم : « بالطبع كان هذا الزعيم الواحد منتدبا من الآخرين ، كما كان روبر دي كيه مفوضا منتدبا من الزعماء الفرنسيين الآخرين . ومع ذلك ما كان لهذا المندوب الفرنسي أن يضع توقيعاً عليها لولا أنه محص السلطات التي تخول مندوبنا ذلك » .

صحيح أن هذا التيار لم يكن بقوة تيار المطالبة بعزل واستبدال الكابتن كاربويه من الحاكمية ، وربما كان الجنرال سراي يستطيع تهدئة الحركة مؤقتا التي تنبئ بالانفجار لو إنه أعلن موافقته على تغيير كاربويه على الأقل . ولكنه لم ينش وظل سادرا



في عناده بدفع التيارين معا ، فقد أعقب الوفد الذي أثار اتفاقية ابو فخر جدوير  
دى كيه الموقعة في الرابع من اذار/مارس ١٩٢١ برسالة الى مندوبه في دمشق قائلا:  
« ختمت قولي بان هذا الامر لم يبق له الا قيمة تاريخية واضفت الى ذلك انهم اذا  
لم يعتبروه كأنه لم يكن فسوف يخلقون منه مدعاة للفتنة ويعرضون انفسهم لاعتبارهم  
مثيرين للشغب » .

وفي هذه الاثناء استبدل بالكابتن رينو الذي تعرض لاطلاق النار ، الكومندان  
تومي - مارتن رئيس استخبارات الدولة السورية . فوصل السويداء في ٦ تموز/  
يوليو ١٩٢٥ واستقبله الناس بالترحاب ظنا منهم بأن مجيئه علامة على تبدل موقف  
الحكومة المنتدبة . وكانت مهمته في حقيقة الامر قمع حركة الاحتجاجات وتوقيع  
العرائض ، والتهيئة لعودة كاربييه بدون أي تحر للوقائع ، في حين ان الناس حسبوه  
من طينة اخرى فانهالوا عليه بالعرائض التي تحمل مئات التواقيع . مما دعاه الى  
القول في تقريره للمفوض السامي الى القول انه : « لا شك في ان عودة الكابتن كاربييه  
الى السويداء ستعرضنا :

١ - الى مهاجمة سيارته على طريق السويداء - درعا .

٢ - عصيان في مدينة السويداء نفسها .

٣ - انتفاضة في جبل الدروز . » (١٩) .

وفي كل ذلك لم يكن المسؤولون الفرنسيون يلتمسون عذرا لعناد الجنرال سراي  
الا في اتباعه لآثر من سبقوه في تطبيق الانتداب باتوقراطية صارمة . فقد صرح النائب  
دوريو Doriot في مداخلته بجلسة ٢٠ كانون أول/ديسمبر ١٩٢٥ بقوله : « فوجئت  
برغبته التي أظهرها باتباع ما أسسه سابقوه . كان يردد دائما هذا ما فعله من سبقني . .  
ماذا أفعل لم أشأ تغيير ما وضعوه ، نعم لم أستقبل أعيان الدروز . . ولكن هذا  
ما فعله غري . . » . ولم يستبدل بكاربييه لان الجنرال ويفاند المفوض السامي هو  
الذي عينه حاكما .

وخطا الجنرال سراي خطوة الى الامام متوهما ان الازمة ازمة « عائلة » . فبحجة  
ان يتيح لها تحديد مطالبها بدقة ارسل يستدعي خمسة من زعمائها الى دمشق ،  
حضر منهم ثلاثة هم : نسيب ، شيخ صلخد ، وحمد ، عري ، وعبد الفغار ، السويداء ،  
فأرسلوا معتقلين الى تدمر ، حيث كان قد سبقهم اليها حقله المظلمين ، زعيم خطبائه .



في اليوم التالي ، التقى احد الاهالي بالكابتن نورمان ، في احد شوارع السويداء ، فقال له الاهالي : « الا تعلم ماذا جرى بالامس ، لقد اعتقل شيوخنا . فاجابه الكابتن نورمان : هذا غير معقول . المفوض السامي جنرال في الجيش الفرنسي . انه غير قادر على الاقدام على امر كهذا » (٢٠) . وأدانت لجنة الانتدابات في عصبة الامم في أعقاب جلسة روما ( شباط / فبراير ١٩٢٦ ) المسؤولين الفرنسيين ولم تجدد في جميع مبرراتهم ما يمنهم من استقبال وفود أهالي الجبل والاستماع الى شكاويهم .

حتى هذا الحين لم يعد ما يجري المطالبة باستبدال حاكم فرنسي بحاكم فرنسي آخر كثرت أخطاؤه وسوء تصرفه ، وانصرف النظر عن المطالبة بأن يكون هذا الحاكم من الاهالي ربما لان الخلاف يحسم ، بين ان يكون هذا الحاكم من « أطرشة » عرى اصحاب الزعامة العشائرية المتعارف عليها ام من « أطرشة » السويداء عاصمة الجبل ، التي منحها الواقع أهميتها . والى جانب هذا او منفصلا عنه الى حد ما فطن المعارضون وتجراؤا على المطالبة بتطبيق او مراعاة اتفاقية « أبو فخر - روبرديكيه » الموقعة في بيروت سنة ١٩٢١ التي تمنع الجبل حكما ذاتيا . ولم يدر في خلد هؤلاء وأولئك ولم يصرحوا برفض الانتداب الفرنسي ، ومعظمهم كان على صلة بالفرنسيين من وراء فيصل ، لم يقطع الصلة في عهده وظل محافظا عليها ، وساهم في تأليف « الخيالة » المرافقين لغورو وقتل أحدهم وهو يتسلل من وراء حكم فيصل لمقابلة الفرنسيين في بيروت .

عندما اجتمع أعيان آل الاطرش في صلخد لتلبية طلب مندوب المفوض السامي بدمشق بنزول خمسة منهم الى دمشق بحجة تقديم شكاويهم كان راي سلطان الاطرش صراحة الى جانب عدم الذهاب واعتبر المسألة فحاً . لذلك لم يغادر « القرية » بلده ، واعتذر متعب شيخ رساس بمرضه ، وامثل الثلاثة الآخرون . ومن الواضح ان ورود اسم سلطان في عداد الخمسة المطلوبين هو من قبيل « خلط الحابل بالنابل » ومن هنا كانت زيارة تومي مارتان لسلطان في بيته في القرية لاقتناعه بالذهاب الى دمشق مع الذين ذهبوا . فلما واجهه سلطان برأيه في الحكم وغيه ، وصل الامر في نقاشهما الى ان قال له سلطان قولته المشهورة التي انتشرت كالنار في الهشيم « لولا انك ضيفي لأمرت بزربك في الباكية » مدير استعلامات حكومة سوريا ، المنتدب الى السويداء يزرب بين الطرش !! عندئذ غادر متوعدا . ومن هنا بدأت الثورة . عاد تومي مارتان الى السويداء ، ولم اعثر في الوثائق الفرنسية على رد فعله ، وركب سلطان بصحبه أخيه زيد للقيام بجولة في الجنوب . فخرج من بكاء ، خيال واحد فقط هو شيخها صياح حمود الاطرش ولم يمروا بالقرية التي تليها جنوبا . ذيبين ، لان شيخها هو رئيس المجلس الاستشاري ، وخارج إليهم لمرافقتهم حمود البربور من أم الرمان .



وعندما أقبلوا على قرية عنز طالعهم بعض من كان في مضافة حسين الاطرش فأوفدوا من يلقاها بالرجاء أن لا يدخلوا قريتهم فاستمروا في طريقهم متجنبين قريتي شنيرة والمشقوق ثم صما البردان ، الى امتان . وفي امتان تعلق الشاب علي مصطفى الاطرش بركاب سلطان الاطرش يرجوه أن لا ينزل في القرية . فأكمل طريقه الى قرية ملح وهي مقر ناحية تابعة لصلخد ولم يخرج من امتان في صحبته الا خيال واحد هو يوسف العيسى .

وهكذا أقبل ستة خيالة الى ملح يأملون أن يلقوا فيها العون . كانت قرية ملح « ناحية » من نواحي قضاء صلخد ، واقعة على حدود البادية المتصلة من جهة العراق ومن جهة بالاردن في منتصف المسافة تقريبا بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال من حدود جبل الدروز الشرقية . وكونها مركز الناحية يعني أن بها مخفرا للدرك وموظفي حكومة . وفي هذه المسافة الواقعة في نصف دائرة تقريبا من القرية بلد سلطان الى ملح يكون قد مر باثنتي عشرة قرية منها . ولم يجتمع حوله أكثر من ستة خيالة . لحق بهم على ما يقال ستة أو سبعة اخرون . مما يقطع بأن الخوف من السلطة ما يزال يملك النفوس . وما أن أقبل جمعهم وطالعهم الناس بالمناظر حتى بادروا بايفاد من يلاقيهم لاندازهم بوجود « المخفر » بكامل هيئته وعدته ، وينصحهم بالنكوص اذ ليس في القرية والحالة هذه من يجروا على استضافتهم أو الاستجابة للعمل معهم . فاداروا رؤوس خيولهم وقفلوا راجعين . وعلى بعد كيلو متر واحد أو اثنين مروا بفسحة شاسعة ، هي أرض لعائلة الباسط ، تصلح ميدانا للطراد فنصب أحدهم « الميدان » ، رفعا للمعنويات المنكسرة واثارة للنخوة في رؤوس الرجال وراح يتحدى للنزال\* . فانقسم الجمع فريقين وبدأ الطراد . ولم يلبث خيالة القرية أن شاهدوهم فانطلقوا كل من جهة ينهالون للمشاركة وانصرف أفراد المخفر ومن يمت للحكومة فغادروا القرية بهدوء من تلقاء أنفسهم . وقبل غروب الشمس توقف النزال في الميدان فأخذ خيالة القرية والذين احتشدوا للمشاهدة يتنازعون على استضافة سلطان وربعه . فاذا بالقرية وضيوفها يبيتون ليلتهم في « عز أيام زمان » بين الاهازيج . وانتشرت الاخبار واتحلت عقدة الخوف في البلاد . ولم يعد يخشى من دفن بندقيته أن يخرجها ويجلوها . في اليوم التالي ١٦ أو في ١٧ تموز/ يوليو ، انطلق من قرية عرمان ثلاثمائة خيال — ربما كان بينهم بعض أهالي القرى المجاورة : قيصما و الهويا والحريسة — الى لقاء سلطان في ملح ، وبدلا من أن يستمر هذا الجمع الفقير في سيره الى الامام ، ملتفا

---

\* سميت الى تقصي اسم هذا الشخصى دون جدوى . واستنظقت سلطان باشا مرارا فلم يذكره ...

والغلب الظن أنه كان هو البانى إلا أنه لم يشأ أن يتحدث عن نفسه كعادته ...



حول الجبل عاد منحرفا الى عرمان المواجهة لصلخد ، مركز القضاء ومقر المستشار الفرنسي . ودفعت هذه التجمعات المقلقة ، المثرة ، الفرنسيين الى ارسال طائرات استكشاف ( ١٧ تموز ) فأجبرت نيران البنادق احداها على الهبوط في قرية امتان . فبسط الشاب علي مصطفى الاطرش زعيم القرية حمايته على الطيارين وأنقذهم من فتك الاهالي بهم . فكان ذلك بداية شهرة سياسية . وبعد يومين اثنين ، لم يبق هناك من استطع كبح جماح هذا الجمع الهائج عن الزحف الى صلخد ، ثانياً مدن الجبل الكبرى ، فاندفعوا يحرقون سراي الحكومة فيها وبيت المستشار يشاركهم اهاليها ومن صلخد انطلق هذا الجمع ومن خرج معه من اهالي صلخد ، الى سهل اسمه العين ، الى الغرب - الجنوبي . وهو مرج صالح للمرعى ، حيث اقترح سلطان المكوث قليلا والتقاط الانفاس . فنصبت بيوت « الشعر » وصنعت القهوة « المرة » وتحلق الجمع حول شاعر الرابة كأنهم قبيلة جمعها « مربع خيولها » .

ورأى المسؤولون الفرنسيون في السويداء ورؤساؤهم في دمشق ، عندما لم يستجب سلطان لطلبهم بالحقاق بالثلاثة من آل الاطرش الى دمشق ، وبعدما وصلتهم اخبار التجمعات في القضاء الجنوبي ان يقطعوا عليها الطريق ، بملاقاتها في قرية الكفر شرق جنوب السويداء ، بكتيبة يقودها الكابتن نورمان .

كان قصد سلطان من مقامه في مرج العين وتريثه اتاحة الفرصة لمخابرة قري الجبل بالحال وضرب موعد للقاء في قرية قنوات ، مقر المشيخة الروحية ، للتداول فيما يجب اتخاذه . وعندما علم بقوة الفرنسيين التي تترصده وتقطع عليه الطريق في الكفر ، ندب خياليين من المقربين للانتقال الى الكفر والسعي لمقابلة نورمان ، بصحبة شيخ الكفر أسعد مرشد ، والطلب من قائد السرية الابتعاد عن الطريق وعدم التعرض للجمع القادم مع سلطان لان بغيته المرور الى قنوات فقط ، وهو لا يبتغي القتال ومراده السلم والتفاهم . ولكن رعونة رجال الانتداب أبت الا ان تظهر صلفها . ففي اثناء محادثة الشيخ أسعد مرشد لنورمان امام موقدي سلطان ، قال نورمان وهو مستلق على سريره في خيمته بلباس الميدان وقد أدخل سوطه في جزمته :

— أسعد بك الا تعيرنا انتباهك لحراسة خيامنا ريثما نعود اليها جارين ورائنا سلطان من شاريه . ووراءه من ينتصر له ؟

عندئذ هب الحضور وقوفا ، وانتهى الكلام . وعاد الموفدان يخبران سلطان بما جرى فطلب اليهما ان يتكتما الخبر ويعتبرا سر لا يفشى لاحد .



يقول اللواء زيد ، - أخو سلطان الذي كان هندئذ في عداد الجمع - لم تعرف كيف تسرب الخبر وسرى كالبرق . وانطلق الخيالة والمشاة وبينهم أخي مصطفى ، حتى انني ، ولم تكن فرسي مسرحية ، لم اتمكن من اللحاق بهم الا وكانت المعركة قد انتهت وأبيد الفرنسيون وعلى رأسهم نورمان نفسه .

كتب سلامة علي عبيد كتابه الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر عن لسان شهود عيان يصف المعركة :

« ... انطلقوا جميعهم بخيلهم ورجلهم وفي وضح النهار انطلاقا جنوبيا باتجاه موقع الحملة - المخيمة حول نبع الماء شمالي القرية - فسلك الخيالة الطريق الاقل وعورة ، بارشاد بعض اهالي الكفر ، في حين انطلق المشاة بطريق مختصر ولكنه اشد وعورة . وبذلك أصبحوا يشكلون فكي كماشة انقضت في لحظة واحدة ودون أن تتوقف دقيقة واحدة على المحاصرين حتى أنها لم تسمح لهم باستعمال أسلحتهم بل أعجلتهم عن ذلك بانقضاض هائل خاطف بالسلاح الأبيض . وهكذا فقدت الرشاشات كل ميزة وتحولت البنادق الى عصي خشبية حتى أنه لم يتح لأكثر من مئتي مجاهد أن يشتركوا في هذه المجزرة الرهيبة التي لم تدم أكثر من أربعين دقيقة ... » .

حتى لقد روي أن أحد الانفار الناجين من المعركة العائدين الى المقر في قلعة السويداء ، شاهد في طريقه « زوالة » ظنها رجلا يتربص به فهرب عنه شاردا ، تاركا بغله وما عليه من « مؤونة فاذا بال « زوالة » امرأة تتكئ على عصا .

بعد الكفر ، لم تعد فكرة الاجتماع في قنوات واردة في اطار القصد الذي رمى اليه سلطان من قبل . بعدما استجد من معطيات . فالثورة انطلقت . لم يعد في قدرة أحد ايقافها . لقد هب الاهالي هبة واحدة . يحدوهم الانعتاق والتحرر من القهر المكبوت منذ أربع سنين ، وكسب البندقية من أيدي الفرنسيين . ففي الدراسة التي اجريت لحصر وتحديد عدد « المجاهدين » الذين يستحقون تخصيص راتب ، كان الشرط الاول أن يكون المجاهد قد بقي في الثورة أكثر من ستة شهور والا لامكن القول بأن جميع القادرين على حمل البندقية من سكان الجبل اشترك في الثورة ، بلا تفريق بين المعارضين والمؤيدين للوجود الفرنسي .

وهكذا أمكن لقائد الثورة أن يذيع منشورا يطرح فيه اما ني البلاد : لان الحق يؤخذ ولا يعطى وبالدعوة الى السلاح .



## الحواشي :

- (١) انظر : ذوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سوريا ، ط ٢ ، منشورات دار طلاس بدمشق ، فصل الثورة .
- (٢) ساطع الحصري ، يوم ميلون .
- (٣) E. RABBATH : L'Insurrection Syrienne de 1925 - 1927 - Revue Historique, 542 - Avril - Juin 1982 .
- (٤) جاء في تقرير لجنة الانتدابات لعام ١٩٢٦ : « لم يرد في تقرير الدولة المنتدبة الذي فحصته اللجنة خلال اجتماعها الخامس أي باعث على توقع الثورة التي شبت في جبل الدروز .. فاللجنة مضطرة والحالة هذه الى عدّها حادثا يعود الى اسباب مباشرة ذات اصل حديث ... » كذا .
- (٥) المقطم ( القاهرة ) ٨ نيسان / ابريل ١٩٣٠ : اسباب الثورة ، في آراء الكتاب الفرنسيين ، وفي ١٢ ، ١٨ ، ٢٥ ، تموز / يوليو ١٩٢٥ ، الاحرار البيروتية ١١ تموز / يوليو ١٩٢٥ .
- (٦) B. N. Paris : L'Illustration, 15 Oût 1925 : ( Les événements en Syrie) .
- (٧) Porter , J. L. Five years in Damaseus , Vol. I P 135; ميخائيل مشاقة ، مشهد العيان في تاريخ سورية ولبنان ص ١٥٢ ، الامير سعيد الجزائري : جهاد نصف قرن ص ٤٨-٤٩ .
- (٨) الدكتور احمد قدري : مذكرات ص ٤١ ، ٤٢ ، ٦٥ وقد سلك هذا الطريق كل من توفيق البساط و ابراهيم هاشم من الضباط الاحتياط في الجيش العثماني ، وعمر حمد عضو الجمعية اللا مركزية الشهر وتحسين قدري رئيس الديوان الملكي العراقي فيما
- (١٠) من حديث لسلطان باشا .
- (١١) حنا أبي راشد ، جبل الدروز ، الطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، حوران الدامية ، ١٩٢٦ .
- (١٢) أكد سلطان باشا للباحث نتيجة للتداول مع جورج صيدح و خليل سكاكيني وبعض رجالات الجبل أدرك أن الدولتين فرنسا وبريطانيا متفقتان على اقتسام النفوذ في البلاد وأن سورية من نصيب الفرنسيين ولم تكن سايكس - بيكو قد كشفت بعد .
- (١٣) نفى سلطان باشا ، لي ، التعرض لهذه الفكرة ، نفيا قاطعا ، في حدود علمه . والارجح ان يكون ذلك مدسوسا من الاتجاه الفرنسي لتأييد خطه فصل الجبل عن سوريا .
- (١٤) مثلا : بين أوراق نسيب البكري صورة من احدى رسائله اليه يقول فيها : « الجيش الحجازي طهر مكة المكرمة من الاتراك وجيش الحلفاء المنضم اليه الجيش السوري قد افتتح بشر سبع عن طريق غزة في ٢١ اكتوبر - تشرين الاول ١٩١٧ وياقا في ١٦ نوفمبر والقدس في ٩ ديسمبر وعليه كن على استعداد مع رجال حزيك وقرباسندخل جيلكم المنيع بواسطتكم . والله ينصر العرب .
- (١٥) حنا خاز و دكتور جورج حداد ، فارس الخوري ، حياته وعصره - مطابع صادر ربحاني بيروت ١٩٥٢ ، ص ٥٢ « واختلف الرأي على اثر انذار غورو . قال فارس الخوري : لا شك في اننا قمنا بما يقتضيه الواجب ومصلحة البلاد . ولكن الشعب لن



أيد الجنرال سري نفسه هذا الكلام في كتابه إلى مندوبه في دمشق ، الذي ذكره الدكتور ادمون رباط في المصدر المذكور سابقا وأيده م. كوبلنتز في كتابه « صمت سري » ص ٢٣٤ .

مداخلة النائب Ferry من مجلس النواب الفرنسي المشار إليها سابقا .

L' Echo de Paris , 29 September 1925 .

يقدر ذلك وسيزعم بأننا أضعنا عليه فرصة الانتصار وسيكون هناك من يقول دائما لبيتهم رفضوا الانذار واختاروا الحرب والنضال ، ساطع الحصري ، يوم ميلون - بيروت ١٩٤٨ ص ١١٢ .

(١٦) المقصود : اتفاقية أبو فخر - روبيرديكيه . وأبو فخر هذا هو شيخ العقل محمود أبو فخر الذي هزل من الشيخة نتيجة مؤامرة اخلاقية دنيئة . اهلية - فرنسية ، لا شك ان هذه المعاهدة ليست بميدة عنها .

(١٧) حنا أبو راشد  
(١٨) L' Echo de Paris, 29 September 1925





## راي للمناقشة :

### الجدل حول تفسير التاريخ في سورية وقت الانتداب الفرنسي

اولريكة فرايتاغ \*  
باحثة من ألمانيا

بعد البحث التاريخي فرعاً من العلوم الانسانية . والمعروف ان هذه العلوم مرتبطة بالتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية اكثر من العلوم الطبيعية . ومع التطورات الدائبة في هذه الحقول في المشرق العربي خلال القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بالتاريخ يتجدد أيضاً ولاسيما في سورية . ويمكننا اعتبار الفترة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وانهيار الدولة العثمانية ، هي مرحلة النهضة العربية التي بدأ فيها تكوين الفكر الوطني والقومي في المنطقة .

أما بعد الانتدابات الاوربية على المشرق فقد وجد المثقفون خصماً جديداً (١) . لقد استندت فرنسا في سياستها الاستعمارية الى ايدولوجية أساسها «الرسالة التحضيرية» . وحاول (أصحاب الحكم الانتدابي) أن يزودوا هذه الايدولوجية بنوع من العمق التاريخي كما فعلوا في الجزائر (٢) . وقد أثار ذلك ردود الفعل عند المثقفين العرب . وهذا الجدل حول الثقافة هو موضوع هذه المقالة .

يروى خالد العظم في مذكراته عن أيام دخول الجيش الفرنسي الى دمشق بعد معركة ميسلون ١٩٢٠ فيقول : « مرت بالتسلسل ذكرى دخول . . . . ثم قدوم الجنرال غورو ووقفته أمام ضريح السلطان صلاح الدين الايوبي وقوله ( ها نحن نعود ) ملمحاً الى عودة الصليبيين على يده ( . . . ) » (٣) .

والجدير بالذكر ان ذلك الحادث الذي يذكر أكثر من مرة يعبر عن رؤية الفرنسيين لأنفسهم « كتقليد صليبي » (٤) . وقد تأثر السوريون بذلك . وتعود هذه النظرة الى اقتناع الفرنسيين برسالتهم « التحضيرية » التي كانت ترافق وتبرر التوسع الاستعماري (٥) .

\* زارت الباحثة الالمانية اولريكة فرايتاغ دمشق أكثر من مرة لاعداد دراسة عن تطور كتابة التاريخ في سورية بعد الاستقلال ، نالت عليها شهادة الدكتوراه . وقد وافقت بهذا البحث بعد هودتها الى بلادها ، ونشره كوجهة نظر اوروبية .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



وبعد احتلال سورية بدأت فرنسا تنشيء ادارة الانتداب ، وخطت لاحتداث مدرسة خاصة لتعليم الموظفين الجدد . وطلب الجنرال غورو من هنري لامنس تحضير دروس عن تاريخ سورية لهذه المدرسة (٦) . وهنري لامنس ( ١٨٦٢ - ١٩٣٧ ) اب يسوعي بلجيكي الاصل فرنسي الجنسية ، عاش في بيروت حيث درس في الكلية اليسوعية . وهو مستشرق ومؤلف لعدة كتب عن الاسلام والعرب (٧) . وبالرغم من عدم تحقيق مشروع المدرسة الادارية ، فقد الف لامنس كتابا عن تاريخ سورية ( بيروت ١٩٢١ ) بناء على طلب زملائه الذين ارادوا استعماله للتدريس في المدارس العامة (٨) . ويدعى محمد كرد علي انه عاق الفرنسيين عن هذا الاستعمال الرسمي للكتاب [ باحتياجاته (٩) ] وعلى كل حال يمكننا اعتبار كتاب لامنس نوعا من « تفسير شبه رسمي » للتاريخ السوري من قبل الفرنسيين . واندليل على ذلك ليست قصة انجازه وحسب ، بل اثره على المناهج المدرسية العامة التي صدرت عام ١٩٣٢ ايضا (١٠) .

اما بالنسبة لمن يقول ان كتاب « تاريخ سورية » يشكل جزءا من الكتابة اللبنانية المسيحية للتاريخ ، لتشابه افكار لامنس وكتابات جرجي نيني (ت ١٩٤١ ) ويوسف الدبس ( ١٨٣٣ - ١٩٠٧ ) (١١) فهذا لا يستبعد ، للقراءة السياسية والفكرية السابقة بين بعض الاوساط اللبنانية المسيحية وفرنسا ، خلال اواخر القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين .

يعبر لامنس عن برنامج التاريخي السياسي بعنوان الفصل الاول من كتابه « الجنسية السورية قبل الفتح العربي » (١٢) وبذلك يلمح الى ما يراه الفرق الواضح بين السوريين والعرب . ويطور هذا الموضوع مستندا على ما يفسره بالوحدة السورية التاريخية للارض واللغة والاصل والتقاليد . وكل هذا ، يقول لامنس ، ادى الى تكوين « شكل خاص » يميز السوريين عن سكان مصر وبلاد ما بين النهرين ، والعرب عامة (١٣) . وبالرغم من كل موجات الفاتحين فقد احتفظ السوريون بخصوصيتهم بسبب حيويتهم الخاصة .

اما لغويا ، فيفسر لامنس تعريب سورية بضغط ما سماه « الخطر العربي » (١٤) . وهو ينظر الى العرب كاهل بادية هم برايه « متوحشون [ نبليون ] غير قادرين على التمدن » . اما سكان القرى والمدن الذين كان عددهم يتجاوز عدد البدو في تلك الايام فيصفهم بانهم مزيج من العرب مع تأثيرات اجنبية ، وهم لذلك متفسخون (١٥) . ويفسر بالتالي ازدهار الدولة الاموية بنقل عاصمة العرب من الحجاز الى سورية ، وبتأثير السوريين على العرب الذين استفادوا منهم (١٦) . ويضيف لامنس الى نظريته السلبية



للعرب هجوما على الاسلام . لذلك لا لهرابة في اعجابه بالجامع الاموي ، على الرغم من كونه رمز الحكم الاسلامي ، اذ انه يعتبره نتيجة الفن المحلي ، ويعني بذلك الفن السوري المسيحي ، وبذلك فهو ليس اسلاميا (١٧) . . اما الحكم العباسي فبدأ به ما يسميه لامنس بـ « الالف سنة عبودية » (١٨) ، لذلك يركز على معارضة السوريين للعباسيين . . الخ .

تختلف الصورة التي يرسمها لامنس عن فترة الصليبيين اختلافا تاما عما سبق . فقد وصل الصليبيون حسب رايه ، الى بلاد منهاره وفقيرة (١٩) أما عند خروجهم فكانت سورية قد ازدهرت واغتنى سكانها . وتعاكس صورته من هذه الفترة صورة المؤرخين العرب حتى في التفاصيل . يقول ان المسلمين فضلوا حكم الصليبيين على حكم امراء المسلمين لوجود التسامح ، وانسجام سكان البلاد ، الذي كان على عكس الظروف في البلاد تحت السيطرة الاسلامية في الوقت نفسه (٢٠) . وبذلك يرى لامنس فترة الحروب الصليبية نموذجا للانتداب الفرنسي ، ويوضح هذه الرؤية حتى لغويا عندما يكتب عن سورية في القرن الحادي عشر كمنطقة «منتدبة لدفاعها وتطورها» (٢١) .

اما الفترة التالية فلا يرى لامنس فيها الا ما راى عند بحثه عن العصر العباسي : فساد وفوضى واضطهاد . . الخ . وكان الاستثناء الوحيد ( برايه ) جبل لبنان الذي اصبح نوعا من ملجأ للاقلييات (٢٢) . ويشيد لامنس بالعلاقات الجيدة التي اقامها الامير فخر الدين المعني بين الطوائف . واهم من ذلك ، انه يرى ان جبل لبنان وحده من كل المناطق السورية استطاع ان يحتفظ بهويته الخاصة وتاريخه ، وبذلك اصبح يتجسد به تاريخ سورية الحقيقي . وحسب لامنس يعود هذا الى طبيعة الجبل الجغرافية التي منعت الفاتحين من الدخول اليه ، فمنذ الايام الاولى لسورية استطاعت الفئات المعارضة للحكم الالتجاء اليه .

يعتبر لامنس انتهاء الحكم العثماني في سورية تحريرا ، غير انه يلح على ان الجيوش العربية لم تلعب دورا ملحوظا في الحملة العسكرية التي ادت الى خروج الترك من البلاد ولذلك لا يستحق العرب اي دور في الحكم (٢٣) . وبذلك هو يبرر الحكم الانتداب الفرنسي الذي يراه متناسبا مع آمال سكان سورية ، مهملا ومزيفا نتائج لجنة كنج - كراين (٢٤) . ويدافع عن الانتداب الفرنسي ايضا وحجته ان سورية كانت تاريخيا دائما ممزقة بالرغم من وحدتها القومية . ويعود السبب في ذلك - حسب لامنس - الى جغرافيتها التي تتميز بكثرة الجبال والانهار والوديان التي منعت السكان من الاتصال ببعضهم وبالتالي من الاتفاق السياسي (٢٥) . اما جدلية تاريخ سورية فراها في التناقض والصراع الدائم بين الاحساس بالوحدة القومية السورية



وهذا التمزق السياسي . ومن هنا تأتي « الرسالة » الفرنسية في « مساعدة » سورية على تحقيق طبيعتها من خلال الانتداب ، ويبرر لامنس تجزئة سورية في أوائل الانتداب بهذا التاريخ ، مثلما يشرح تأسيس دولة لبنان بالدور التاريخي لهذه المنطقة (٢٦) .

ان لامنس المؤرخ ، حتى لو كان مقتنعا بهذه الصورة اقتناعا شخصيا صادقا ، فيبقى ان كتابه يبرر السياسة التي اتبعت مصلحة الدولة الاستعمارية ، واستخدام الكتاب لهذا الغرض ، كما تظهر انعكاساته في كتابات رجال الانتداب أنفسهم (٢٧) .

ويمكننا تصنيف الردود العربية على كتاب لامنس الى نوعين ، (الاعجاب) جزئيا كان او كليا بما قال ، والرفض . والجدير بالذكر ان أعماله كانت موضوع الخلاف في أوساط زملائه من المستشرقين أيضا (٢٨) .

ويبدو ان بعض الاوساط اللبنانية أعجبت بما كتب لامنس عن دور سورية في التاريخ عامة وعن شخصية لبنان البارزة خاصة ، مدافعا بذلك عن تأسيس دولة مستقلة في لبنان . ويرجع المؤرخ فيليب حتي في عدة مقالات صدرت في العشرينات وفي كتابه « تاريخ سورية » الذي صدر عام ١٩٣٧ ، الى فكرة الخصوصية التاريخية لسورية (٢٩) . ويشيد فيليب حتي بالعبقريّة السورية التي تجسدت في عصور مختلفة منذ العصر الفرعوني حتى العصر الحاضر ، ويتبع على سبيل المثال لامنس في رأيه بأن العصر الأموي ازدهر بسبب مساهمة السوريين فيه أكثر مما اسهم العرب ، الذين لم يكن السوريون من جنسهم . ويبدو ان هذه الافكار أثرت فيما بعد على تطور ( القومية السورية ) التي بدأت تتشكل في بيروت في الثلاثينات (٣٠) .

اما فكرة اطراء الدولة الاموية فقابلها ايضا محمد كرد علي الذي كان من اقسى ناقدى لامنس . فكانت الدولة الاموية من قبل تعتبر غير اسلامية بالجوهري . اما مع انتشار التفسير العلماني للتاريخ والقبول الواسع للافكار الوطنية والقومية فتغير هذا الحكم . غير ان التشابه بين لامنس وكرد علي لا يعني اتفاقهم في خط التفسير العام ، بل الامر على العكس تماما . .

يلوم كرد علي لامنس انه يكتب من باب الانحياز وليس من باب الموضوعية : « نحن لا ( نتناول ) الى ان يكتب المؤلف ( ويعني بذلك لامنس ) عن رجال الاسلام بدون نقد ولا تمحيص ولا ان يقيد حريته في الحكم عليهم . ولا نطلب منه ان يعتقد في دينهم اعتقاد اهله . بل نطلب منه ان ينصف التاريخ ويتجرد عن العواطف التي تذهب بهجة العلم حتى لا يعد من المغاليق في مذهبهم ، فقد قال في القرآن (١٦٢) وايجازه وتفسيره



وبلاغته أشياء كان يقول بها متعصبة الأديار في القرون الوسطى وكنا نود أن لا يقلدهم في آراء قال المعاصرون من غير المسلمين خلافا . وفي كلامه حظ من دين يؤمن به نحو ثلاثمائة مليون من البشر وتاريخه يظهر بينهم وفي بلادهم « (٢١) » .

وبالرغم من أن كرد علي يختار الكتابة عن بلاد الشام الأمر الذي يجعل إطاره الجغرافي يشبه الإطار الذي اختاره لامنس لكتابه ، فالنتيجة تختلف اختلافا كاملا . فمن ناحية يتبع كرد علي أسلوب الكتابة المحلية للتاريخ التي بدأت تتطور في القرن الثالث الهجري وازدهرت في سورية بالذات كذلك (٢٢) ، وذلك بالاهتمام الواسع في مواضيع مثل الجغرافية والعمارة وجوانب الحياة الاجتماعية . أما اختيار منطقة واسعة مثل سورية الجغرافية ( بلاد الشام ) وليس مدينة أو ولاية فقط ، وايضا وقبل كل شيء طريقة معالجة موضوعه ولفته ، فيفرق في ذلك بين كتابه وكتب معاصريه من المؤرخين المحليين التقليديين ، مثل محمد اديب ال تقي الدين الحصني الذي ألف « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » وكامل بن حسين بن مصطفى الحلبي الشهير بالفزي الذي كتب « نهر الذهب في تاريخ حلب » (٢٤) .

يمكن اعتبار « خطط الشام » نوعا من رد على هنري لامنس من حيث النية والمضمون معا . أراد كرد علي أن يخدم « روح الوطنية » (٢٥) وبالرغم من أنه وصف سكان بلاد الشام بانهم أمة من ناحية (٢٦) فهو لا ينكر الصلات بينهم وبين العرب من ناحية أخرى مثلما يفعل لامنس بل بالعكس ، يعترف كرد علي بالدور العربي الخاص في تاريخ هذه المنطقة ، وبعد وصف الهجرات المختلفة التي مرت بسورية يقول : « ولم تطل حياة عنصر في صحة بالشام كما طالت حياة العرب فانهم فيها على أصح الأقوال منذ زهاء الفين وخمسمائة سنة واصل بعضهم الى نحو اربعة آلاف سنة ، وهم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة واستعربت فلم تعد تعرف غير العربية لسانا ومنزعا . ولذلك كان من المعقول أن يدل الشامي بعربيته أكثر من ادلاله بفنيقيته وروميته وسريانيته وعبرانيته » (٢٧) .

وفي مجلة « المقتبس » يتعمق محمد كرد علي في هذا الموضوع ، ويشرح أن هناك أمة عربية من المحيط الأطلسي الى بحر الهند . أما داخل هذه الأمة فتوجد بلاد أو مناطق مختلفة مثل السودان والعراق واليمن وسورية (٢٨) . وبذلك تصبح سورية جزءا من الأمة العربية وليست وحدة منعزلة مثلما رآها لامنس .

يتبين مما سبق أن كرد علي ليس من رواد ( القومية السورية ) . أما مفهومه لوجود ( أمة سورية ) ضمن الأمة العربية فيتساوى مع تطور الأوضاع السياسية



والفكر السياسي انداك . والجدير بالذكر ان القوميين العرب من سورية كانوا متأثرين في العشرينات بتاريخهم الحديث اي : « الدولة السورية ١٩١٨ - ١٩٢٠ » والمناقشات التي دارت حول تأسيسها ، وعلان دولة العراق المستقلة في ذلك الحين (٣٩) . ويظهر من هذا ان وجود عدة دول عربية كان معترفا به في هذه الفترة بدون ان يؤخذ بمعنى « القومية القطرية » مثلما حدث فيما بعد عندما نشر انطون سمادة كتابه « نشوء الامم » عام ١٩٣٨ ، أي بعد نشر « خطط الشام » بفترة (٤٠) . والدليل على ذلك انه حتى ادمون رباط الذي اجاب في كتابه « الوحدة السورية والمستقبل العربي » على لامنس والذي حاول ان يؤثر على الراي العام الفرنسي اثناء مناقشة معاهدة ١٩٣٦ ، يحكي عن وحدة مناطق عربية مختلفة ويفسرها كالخطوة الاولى نحو الوحدة العربية الكبرى (٤١) .

ويفسر كرد علي ان اهمية الدولة الاموية - التي يؤكدها مثلما اكدها لامنس - تعود الى وضعها الاسس الثابتة للحضارة العربية الاسلامية والى تأسيسها دولة عربية صرفا (٤٢) ، مناقضا بذلك راي لامنس من ان العرب استفادوا من نشاط السوريين فحسب . اما الحكم العباسي فينتقده كرد علي - باستثناء بعض الخلفاء مثل هارون الرشيد - على اساس سياسة الحكم تجاه الفرس والأتراك . ويرى كرد علي في محاولة اندماج القوميات بداية النهاية لان هذه القوميات بدأت برايه تفسد الدولة وتحصل على زمام الحكم (٤٣) . ومرة اخرى نستطيع ان نلاحظ انه على الرغم من التوافق في التقدير السلبي للدولة العباسية يختلف التفسير التاريخي جذريا بين كرد علي ولامنس . فهذا يأسف على فقدان العرب للسلطة ، بينما يأخذ الثاني سوء السلطة العربية اساسا لحكمه .

اما بالنسبة للحروب الصليبية فيختلف الامر ، بحيث ان تحليل وحكم المؤرخين يتناقض تماما . فبينما يشيد لامنس بهذه الفترة وبأن اوربا ساعدت الشرق الاوسط على التطور ، يؤكد كرد علي النقل الحضاري من العرب الى « شعوب شمالي اوروبا المتوحشة » (٤٤) .

اما الفترات التالية أيام دول المماليك والمغول والعثمانيين ، فيراها كانهيار مستمر (٤٥) غير انه في القرن التاسع عشر بدأ الامل بتحسين الاوضاع يعود مع رجال مثل محمد علي باشا وابراهيم باشا ومدحت باشا . اما بالنسبة لطموحات السوريين فيعود محمد كرد الى تقرير لجنة كنج كراين ويلخص نتائجه بشكل افضل واصح مما فعله لامنس (٤٦) .



بعد نشر كرد علي « خطط الشام » بدأ هنري لامنس ينتقده لاستخدامه مراجع قديمة ، ولعدم علمية الكتاب وصدقه في مصادر غير موثوقة (٤٧) . وفي الاطار نفسه ناقش بعض نقاط مثل حكم كرد علي السلبي على العصر الروماني في الشام الذي كان براي لامنس عصرا ذهبيا . وبذلك النقد انتهى الجدل بين الاب اليسوعي هنري لامنس والمثقف العربي محمد كرد علي حول التفسير « الصحيح » للتاريخ السوري العربي .

توضح هذه المناقشة الدور الذي لعبه بعض المستشرقين في تبني ايدولوجية الدول الاستعمارية . ولكنها تدل أيضا على مشكلة أخرى : لقد اهتم محمد كرد علي الاديب الصحفي المؤرخ بتطور العلم واللغة متابعاً بذلك جهود رواد النهضة العربية . ويتضح ذلك في نشاطاته العديدة ، وكان بذلك يقترح انفتاح الحضارة العربية الإسلامية على التطورات الغربية ، مدافعاً عن ذلك بالحاجة على ان الغرب استفاد من التقدم العربي خلال وعقب الحروب الصليبية (٤٨) . ولم تكن هذه الفكرة مقبولة عند كل معاصريه نظرياً وعملياً . وعلى سبيل المثال يقال في حقل الكتابة التاريخية أن محمد اديب آل تقي الدين الحصني الف « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » قاصداً بذلك الدفاع عن النمط التقليدي لتدوين التاريخ ضد الاسلوب الحديث . ومهما كانت صحة هذا القول فيبقى ان المجتمع التقليدي عارض التغيرات العديدة وسبق في ذلك التطور مجال الادب والتاريخ . ومن الأرجح ان اعمال بعض المستشرقين وما عرف عنها زاد من رفض المحافظين لما اعتبروه بدعاً ، لذلك وجد محمد كرد علي نفسه في مأزق حيث قبل بعض الافكار والاساليب الجديدة منهم من ناحية ورفض قذفهم للعرب والاسلام من ناحية أخرى . ولكنه أجاب عن هذه المشكلة بنوع من الاستقلالية الفكرية حيث فرق بين المستشرقين الذين كتبوا لاغراض سياسية او نفعية ، وآخرين كتبوا بنزاهة (٤٩) .

لم ينته الجدل الثقافي بين الفرنسيين والسوريين مع النزاع المذكور بل أخذ اشكالا عديدة خلال فترة الانتداب ، وهذا على مستويات مختلفة منها حقل التربية . وتوجد عدة روايات تدل على دور دراسة التاريخ في ايقاظ الشعور بالقومية عند طلاب المدارس ومكتب عنبر بالذات (٥٠) . وبعدما اتفقت فرنسا مع سورية على معاهدة ١٩٣٦ التي رفض البرلمان الفرنسي ان يصدقها بدأ الموظفون السوريون في وزارة التربية بتغيير مناهج التعليم التي كانت في مجال التاريخ متأثرة بالبرامج الفرنسية وبأفكار هنري لامنس مثلما سبق ذكره ، وأخذوا ببرامج الدول العربية الاخرى مثل مصر والعراق ودول أوربية مثل اليونان وبلغاريا (٥١) . وكان المقصود بذلك الابتعاد عن البرامج الفرنسية والاقتراب من الدول العربية الاخرى دون الانعزال عن التطورات التربوية الحديثة . ولكن الانتداب لم يكن قد انتهى بعد ، وموظفيه مازالوا يراقبون



التطورات . ويبدو ، على سبيل المثال ، انهم منعوا كتباً مدرسية للتاريخ عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ لميولها للقومية (٥٢) . اما القوميون من الاساتذة فلم يكونوا مرتاحين لهذا الوضع: كتب صالح زاهد باشا الهبل رسالة الى وزارة التربية عام ١٩٤٤ شاكياً بأن الطالب العربي ما زال يتعلم عن تاريخ فرنسا أكثر مما يتعلم من التاريخ العربي الاسلامي (٥٣) .

كان هذا الشعور منتشرًا في أوساط القوميين ودعت الحكومة السورية ساطع الحصري الى دمشق عام ١٩٤٤ لدراسة أوضاع التعليم وذلك توقعًا للاستقلال القريب . وكان الحصري في ذلك الحين معروفًا ليس لنشاطه في سورية وقت الحكم الفيصلي فحسب بل لقيامه بتطوير النظام التربوي في العراق على خطوط القومية العربية (٥٤) . حلل ساطع الحصري الاوضاع في ٢٤ تقريرًا واقترح عدة اصلاحات (٥٥) ، ونتج عن ذلك ما سماه الحصري بوثيقة « الاستقلال الثقافي » (٥٦) وهو قانون ١٢/٢١ / ١٩٤٤ . حدد هذا القانون في مادته الاولى مهمة التعليم كما يلي :

« ان مهمة وزارة المعارف الاساسية هي تربية الجيل الجديد تربية صالحة - من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية - لينشأ كل فرد من الافراد قوي البدن حسن الخلق وصحيح التفكير محبا لوطنه معتزاً بقوميته مدركاً لواجباته ومزوداً بالمعلومات التي يحتاج اليها في حياته قادراً على خدمة بلاده بقواه العقلية والبدنية وبجهوده الانتاجية » (٥٧) .

من بين تعليمات هذا القانون كان فرض المناهج الرسمية على المدارس الخاصة في المواد التي اعتبرت مهمة من الناحية القومية مثل اللغة العربية والجغرافية والتاريخ ، ووقفت الحكومة السورية بهذا القانون في وجه فرنسا التي حاولت المحافظة على تأثيرها الثقافي الى النهاية . ويعتبر هذا القانون سبباً من أسباب رفض فرنسا الموافقة على الاستقلال السوري وبالتالي للاصطدامات العسكرية في ايار ١٩٤٥ (٥٨) . تدل هذه التطورات الاخيرة مرة أخرى على الاهمية التي اعطاها الجانبان الفرنسي والسوري للمسائل الثقافية والتربوية ، ومنها التاريخ ، في الاطار السياسي العام ، كما تؤكد التعديلات التي أدخلت على مناهج التاريخ بعد الاستقلال (٥٩) .





## الحواشي :

Jahrhundert. Frankfurt et. al . 1990, P.276; and, Werner Ende, **Arabische Notion und islami-sche geschiche , Die Umayt-yaden im Urteil arabischer Autoren 20. Jahrhundert.** Wies-baden, Beirut 1977, p. 83-84.

قارن : برنامج التعليم الثانوي في دولة سورية . دمشق ١٩٣٢ .

قارن  
Albert Hourani, « Historians of Lebanon, » in : Lewis/Holt Op. Cit, p. 226 - 249 , here p. 237 - 239 .

Lammens, Op. Cit, V. I. p. 1 .

Lammens, V, I, p. 5 .

Lammens, V, I, p. 23 .

Lammens, V, I, p. 33 .

Lammens, V, I, p. 69 - 122 .

Lammens, V, I, p. 88 .

Lammens, V, I, p. 125 .

Lammens, V, I, p. 194 - 236

Lammens, V, I, p. 243 .

Lammens, V, I, p. 235 .

Lammens, V. 2, p. 13 - 15 , 34-40, 63 .

ولناقشة نقدية هذه الفكرة انظر :

Kamal Salibi, **A House of Many Mansions , The History of Lebanon Reconsidered** London 1988, p. 130 - 150 .

Lammens, Op. Cit. V. 2, p. 238 - 244 .

Lammens, V. 2, p; 255 .

قارن للاحداث ونتائج لجنة كنج - كرين ، خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق

(١) قارن : عبد الله حنا : من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان . « النصف الاول من القرن العشرين » بيروت ١٩٨٧ ، ص ١٦-١٧ .

(٢) قارن : Mohammed Chérif Sahli, **Décoloniser I,Histoire** , Paris 1965.

(٣) خالد العظم : مذكرات ، ٣ مجلدات ، بيروت ١٩٧٣ ( الطبعة الثانية ) ، م ١ ، ص ٣٠ .

(٤) من أمثال هذه الرؤية الفرنسية الكتاب التالي : Gabriel Puau, **Deux années au Levant ( 1939 - 1940 )** , Paris . p. 79 .

(٥) انظر : Henri Brunschwig, **French Colonialism 1871 -1919, Myths and Realities** , London 1966 .

(٦) Henri Lammens , **La Syrie , Précis historique**, 2vol ., Beirut 1921 . compare vol. I, p; 1 .

(٧) انظر : خير الدين الزركلي : الاعلام . ٨ مجلدات . بيروت ١٩٨٤ ( الطبعة السادسة ) م ٨ ، ص ٩٩-١٠٠ و

(٨) Kamal Salibi ,**Islam and Syria in the Writing of Henri Lammens** , in : Bernard Lewis (ed ) : **Historians of the Middle East** , London , New York , Toranto 1962 , p. 330 - 334 . Lammens , Op. Cit. V. I, p. II . p. II .

(٩) انظر : Rainer Hermann, **Kulturkrise und konservative erneuerung . muhammad Kurd Ali ( 1876 - 1935 ) und das geistige leben in Damascus zu Beginn des 20.**



العربي ١٨٩٠ - ١٩٢٩ ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ١٤٥ - ١٧١ .

(٣٩) قارن : قاسمية : الحكومة العربية (هـ) (٢٤) ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٤٠) نشر « خطط الشام » لأول مرة سنة

١٩٢٥ - ١٩٢٨ ، أما مشروع الكتاب فيعود الى قبل الحرب العالمية الاولى . قارن:

(٤١) Hermann, Op. Cit, p. 193 - 194

Edmond Rabbath, Units Syri -

enne et devenir arabe , Paris

1937, p. 346 .

(٤٢) كرد علي ، خطط الشام ، ١م ، ص ٢١ .

(٤٣) كرد علي ، خطط الشام ، ٢م ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٤٤) كرد علي ، خطط الشام ٢م ، ص ١٢٨ .

قارن للدراسة معمقة .

Hermann, Op. Cit., p. 224-240.

(٤٦) كرد علي ، خطط الشام ، ٣م ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٤٧) هنري لامنس ، « خطط الشام » ، المشرق

٣ ، (١٩٢٥) ص ٥٦١ - ٥٦٧ و ص ٨١٤ .

(٤٨) قارن : Hermann, p. 259 - 277

(٤٩) قارن Hermann, p. 83 - 94

(٥٠) قارن ظافر القاسمي ، مكتب عنبر - صور

وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية

والاجتماعية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٤ - ١٠٧ .

(٥١) عبد الله حنا ، العمل لخلق مدرسة وطنية

ايام النضال ضد الانتداب الفرنسي ، المعلم

العربي ، (١٩٦٩) ، ص ٢٢ - ٤١ ، هنا

ص ٣٢ - ٣٣ .

٥٢ قارن :

Abdullatif Tibawi , Islamic

Education, London 1972, p. 144

لا يقول الطيباوي ، للأسف الشديد ، ماهي

الكتب التي منعتها قرنة ، ولا يعطى اي

دليل او مرجع لمعلوماته .

بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١١٢ - ١٢٣ .

(٢٥) Lammens, V. I, p. 2,4,9 - 11,13, 132f ; and V. 2, p. 12ff .

(٢٦) Lammens, V. 2, p. 262 - 268 .

(٢٧) قارن :

Puau, Op. Cit. or Georges

Catroux, Dans : la bataille de

Mediterranée 1940 - 1944, Paris

1949, p. 208 .

(٢٨) من نقاد لامنس الغربيين المستشرقون :

C. H. Beker, W. M. Watt and

Jean sauvaget , C. F. Ende Op.

Cit. p. 188 .

(٢٩) للتالي قارن : Ende, p. 176 - 178

(٣٠) أنطون سعادة ، نشوء الامم ، الانبار

الكاملة ، م ٥ ( بدون مكان طبع او تاريخ ) ،

ص ٨٠ - ١٢٨ .

(٣١) محمد كرد علي ، بحث انتقادي في مختصر

في تاريخ سورية ، مجلة المجمع العلمي العربي

بدمشق ، (١٩٢٢) ص ٢٧١ - ٢٨١ . هنا

ص ٢٧٥ .

(٣٢) قارن :

Sami Dahhan, «The Origin and

development of the local his -

tory of Syria » in : lewis/Holt,

Op. Cit, p. 108 - 117 .

(٣٣) دمشق ١٩٢٧ - ١٩٣٤ ، ٣ مجلدات .

(٣٤) حلب ١٩٢١ - ١٩٢٣ ، ٣ مجلدات .

(٣٥) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦ مجلدات .

دمشق ١٩٨٣ ( الطبعة الثالثة ) . ١م ، ص ٣٠ .

(٣٦) كرد علي م.ن ، ١م ، ص ٤٨ .

(٣٧) كرد علي م.ن ، ١م ، ص ٢٠ .

(٣٨) انظر : سمير صيقل ، « الحياة الفكرية

الدمشقية في مستهل القرن العشرين » :

« محمد كرد علي ومجلة المقتبس » في :

مروان بحري : الحياة الفكرية في المشرق



وتقارير عن احوال المعارف ' سورية خلال  
سنة ١٩٤٥ . دمشق ١٩٤٦ .

Cleveland , Op. Cit. p. 79 .

قانون رقم ١٢١ من ١٩٤٤/١٢/٢١ . الجريدة  
الرسمية (٨) ١٩٤٤/١٢ ص ١٣٢٩ - ١٣٢٢  
هنا ص ١٣٢٩ .

Tibawi , Op. Cit. p. 144 ; and  
Roderic D. Matthews / Matta  
Akrawi , Education in Arab  
Countries of the Near East,  
Washington D. C. 1952, p. 326.

لهذا التطور قارن الدراسة العميقة لزهير  
ناجي : تعليم التاريخ ، دمشق ١٩٧٧  
رسالة ماجستير غير مطبوعة .

(٥٣) وزارة التربية ، مركز التوثيق التربوي ،

مشمق . ملف اعادة النظر في برامج المدارس  
الثانوية والاكاديمية العامة ، وثيقة رقم  
٣٧٣.٥ : (٥٦٩.١) ٣٧١.٠ . انظر ايضا  
طكرة من رئاسة الجمهورية السورية الى  
وزارة المعارف . وثيقة رقم أنب ٣٧٣.٥  
(٥٦٩.١) ٣٧١.٠

لحياة ونشاط الحصري قارن :

William L. Cleveland , The  
Making of an Arab Nationa -  
list, Ottomanism and Arabism  
in the life and thought of Sati  
al - Husri , Princeton 1971 .

ساطع الحصري : تقارير عن حالة المعارف في  
سورية واقتراحات لاصلاحها . دمشق ١٩٤٤









## جوانب من صورة الآخر ( الغرب ) في التاريخ الاسلامي

د. نعمان محمود جبران  
جامعة اليرموك

هذه دراسة في اطار رسم جوانب من صورة الآخر ( الغرب ) في التاريخ الاسلامي من خلال محاولة لرصد بعض معالم هذه الصورة في الكتابات الاسلامية ( الجغرافية ، التاريخية ، الرحلات ) . وقد ركزت على آراء الجغرافيين والمؤرخين والرحالة المشاركة في فترة قوة الدولة الاسلامية وفترة ضعفها . وقارنت الدراسة بين ما ورد من صورة للآخر ( الغرب ) في الفترة السابقة للحروب الصليبية وخلالها . وخلصت الدراسة الى بيان اهم المراحل التي تم من خلالها رسم صورة الآخر ( الغرب ) ومدى انطباقها على الصورة الحالية للآخر في ذهن الانسان العربي .

### تمهيد :

ان الموقع الجغرافي للامة العربية واسلوب حياتها قد أهلاها منذ القدم للتعامل مع القارات في العالم القديم ، فكان للعرب صلاتهم باوروبا وافريقيا وشرق اسيا عن طريق التجارة البرية والبحرية ، وكان لهذا التبادل التجاري اثره في تكوين طبيعة العلاقات السياسية تعاوناً وتحالفاً ، او صراعاً وتنافساً . وعلى هذا ، فان معرفة الآخر وتبادل الخبرات والخيرات معه ظاهرة نابعة من ضرورات جغرافية واجتماعية حياتية .

واتسع هذا المجال بعد ظهور الاسلام وتكوينه دولته واتساعها الجغرافي الذي زاد من مدى الاتصال بالخارج من الاندلس غرباً الى حدود الصين شرقاً ومن جبال طوروس شمالاً الى بحر العرب واواسط افريقيا جنوباً . وجاء هذا التوسع مقروناً بالرغبة في اكتشاف الآخر او تكوين صورة له ، سواء كان هذا الآخر ضمن اراضي الدولة الاسلامية ( من مسلمين جدد غير عرب او من اتباع ديانات اخرى ) ، او خارجها ( ومن ضمنهم الغرب ) ، وتعمقت المعرفة بالآخرين عندما نشطت حركة الترجمة

---

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



في الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، فبدأت تتضح بشكل تدريجي معالم صورة العالم بالنسبة للمسلمين والتعرف على الآخر ( الغرب ) من خلال ترجمات من اليونانية والسريانية ، إضافة للمعلومات التي جمعها التجار والرحالة والأسرى ، وبذلك يمكن القول أن العرب المسلمين قد تعارفوا مع الآخر ( الغرب ) في فترات زمنية متباعدة بحكم التماس الجغرافي حين كانت أوروبا ( الغرب ) واحدة من ثلاث قوى حول البحر المتوسط ( إضافة الى المسلمين والبيزنطيين ) . وقد مرت العلاقات بين هذه القوى بأشكال مختلفة ، فبناء الحضارة الإسلامية كانوا في أغلب المراحل أكثر عطاء وإسهاما في الحضارة الإنسانية بشقيها المادي والروحي ، في حين كان الآخر تحت سيطرة قبائل بربرية لم يساهم في المسيرة الإنسانية بالقدر نفسه ، لكن هذه الصورة لم تكن ثابتة على أرض الواقع ، بل مرت بحالات من المد والجزر ، فالقوة الإسلامية والتي بدت لقرون متماسكة فاعلة ، بدأ يعترها نوع من الضعف لأسباب داخلية وخارجية ، وكذلك حال الغرب الذي بدأ يتلمس طريقا تقوده الى بداية التفاعل والمنافسة . يظهر ذلك من خلال شكوى بعض المؤرخين المسلمين في القرن الرابع الهجري من مضايقة الروم (١) والغرب للمصالح الإسلامية في البحر المتوسط (٢) . ويفهم من ذلك أن المقصود بالروم والغرب يعني أوروبا بمفهومها العام الواسع الذي كانت تبرز فيه ثلاث مناطق رئيسية هي : منطقة رومية ، منطقة السلاف (الصقالبة) ، ومنطقة الفرنجة أو ما يشمل الامبراطورية البيزنطية وأوروبا الشرقية (٣) ، وإذا كانت بيزنطة هي الأكثر تماسا مع الشرق الإسلامي فإن بلاد الفرنجة كانت الأقل تماسا وعلى ذلك فإن التصور الإسلامي للأولى كان أكثر وضوحا منه لصورة للفرنجة مكانا وسكانا والتي كانت المعلومات عنها تصل الى العالم الإسلامي ، وعلى حسب تعبير اندره ميكل André Miquel ، أرباً أرباً (٤) ، وهذا عكس ما كان لدى المسلمين من معلومات وتصور واضح عن بلاد الهند والصين ، أو إفريقيا السوداء ، أو بلدان آسيا الوسطى التركية .

وحين بدأت الدولة الإسلامية بالضعف والتجزئة السياسية والمذهبية سنحت الفرصة للغرب ، قبل أن يتوحد سياسيا أو دينيا ، لمد بعض النفوذ على مناطق من حوض البحر الأبيض وأجزاء من الدولة الإسلامية ، بالفزو العسكري لأسباب وأهداف متعددة ( ليس الدين أقواها ) فيما عرف بموجات الغزوات الصليبية . وهذا ما فرض تعارفا عنيفا بين أبناء الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي ، وعلاقات ما بين محتل صليبي ومقاوم إسلامي لهذا الاحتلال . وكان يفترض أن يكون لهذه الحروب التي استمرت قرنين من الزمان أثر في تعديل معلومات كل طرف عن الطرف الآخر ، لكن الطرف المسلم رغم ضعفه العسكري في المراحل الأولى للغزو الصليبي بقي يشعر بتفوقه حضاريا على هذا الغازي ، وعلى الرغم مما ترتب على هذه العلاقة العنيفة



الا ان القطيعة بين الطرفين لم تحصل الا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حين تقدمت اوروبا بسيطرتها على الطرق التجارية العالمية مما جعل منطقة الشرق الاسلامي خارج اهتمامها ، ليعود هذا الاهتمام بشكل عنيف مرة اخرى مع موجات الاستعمار الحديث في القرن التاسع عشر . ومن هنا فان العلاقة بين المسلمين والآخر ( الغرب ) لم تكن علاقة نمطية تسير في اطار واحد ، بل تمثلت بعلاقات تعاون وتنافس وسلم وحرب ، مما كان له انعكاس على تطور كل طرف للآخر بحسب قوته وضعفه، ولكنها من الطرف الاسلامي كانت تمثل تصور المسلم ابن الحضارة العريقة للآخر ( الغرب ) الاقل تحضرا ، او نظرة ابن دار الاسلام او السلام الى دار الحرب وسكانها دون ان يعني ذلك مفهوما عنصريا من حيث التفوق العرقي (٥) ، وهذا عكس التصور الاوروبي للاسلام ومعتنقيه او للحضارات الاخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن النظرة الاسلامية للآخر أو تصويرها له لم تكن واحدة ، فنجد تميزا في الاهتمام ما بين البيزنطيين والصقالبة والفرنجة والجلالقة ، حيث احتلت رومية والقسطنطينية المكان الابرز والاكثر أهمية في الذهنية الاسلامية ، على عكس مركز الغرب في هذه الذهنية ، على ان هذا الامر قد انعكس في مرحلة لاحقة من التاريخ (١) ، بتغير حال كل طرف . وحين نبحث عن صورة الآخر ( الغرب ) في الذهنية الاسلامية خلال فترات متباعدة ومن مصادر متعددة - سنقصرها تمثيلا على بعض المؤلفات الجغرافية وكتب الرحلات والسفارات وبعض كتب التاريخ الاسلامي من فترة الحروب الصليبية - لابد من التأكيد على ان جزءا من هذا التصور كان فيه تأثير اوروبي جاء عن طريق الترجمات الاسلامية للعلوم اليونانية ومن بينها الجغرافيا، او بتأثير تصرفات الآخر ( الغرب ) تجاه الدولة الاسلامية .

### أ - صورة الآخر ( الغرب ) لدى الجغرافيين المسلمين :

ان صورة الغرب لدى الجغرافيين المسلمين كانت محكومة بعدة عوامل ، منها الاثر اليوناني في الجغرافيا الاسلامية ، فقد أخذ المسلمون عن اليونان تقسيم العالم الى اقاليم ، وكان الاقليم الذي يقع فيه العالم الاسلامي اكثر تطورا واعتدالا . كما كان للتوسع الجغرافي في حدود الدولة الاسلامية اثر في ذلك . فمنذ القرن الثالث الهجري تأثر علم الجغرافيا الاسلامي بجغرافية بطليموس ، فاخذ عنه المسلمون تقسيم العالم الى سبعة اقاليم وركزوا في كتاباتهم على الاقليم الرابع الذي فضل على الاقاليم الاخرى ، وبخاصة على الاقاليم التي تقع اوروبا أو ( الآخر ) فيها ، ومن هنا نجدها عملية التفاضل واضحة بين الذات ( المسلم ) وبين الآخر ( الغرب ) ، من حيث الاقاليم الذي يعيش فيه . فابن خرداذبة ( ٢٧٠ هـ ) وضمن تقسيم العالم الى اربعة



اقسام يقول : « ان المعمورة اربعة اقسام منها اوروبي وفيها الاندلس والصقالب والروم وفرنجة وطنجة .. واسقونيا وفيها امينيا وخراسان والترك والخزر » (٧) ، وهنا يبدو ان مفهوم الغرب فيه عمومية وعدم وضوح يقابله زخم في المعلومات وتوسع في شرح حال الاقليم الرابع اقليم الدولة الاسلامية . ويتضح التفضيل بين الاقاليم عند ابن الفقيه ( ٢٩٠ هـ ) ضمن تقسيمه المعمورة الى خمسة اقسام تماشيا مع اجزاء الطير ( رأس وجناحان وصدر وذنب ) ، فابن الفقيه - في كتابه البلدان الذي وصلنا مختصرا - يرى ان العالم الاسلامي بمراكز اشعاعه مكة والحجاز والشام والعراق ومصر تمثل صدر الدنيا ( صدر الطير ) في حين ان الغرب يمثل الجزء الاقل اهمية والاكثر سوءا في الطير وهو الذنب (٨) ، وهو بذلك يفاضل بين الذات الاسلامية من خلال اقليمها الرابع وبين الآخر ( الغرب ) في اقليمه السادس الذي يضم الفرنجة وامما اخرى ، كما انه يدرج ذلك ضمن النظرة للذات وللآخر في اطار عملية التزيين والتقبيح حسب رأي الدكتور حسين محمد فهم (٩) .

ويبدو الغرب او الآخر اكثر تحديدا ووضوحا عند ابن رسته ( حوالي ٢٩٠ هـ ) ، في كتابه الاعلاق النفيسة ، فهو يشير بتميز القسطنطينية ويشير الى بلاد ملك برجان التي تبعد مسافة رحلة بحرية تستغرق ثلاثة اشهر عن بلاد فرنجة ، ثم يتحدث عن مدينة برطينية على ساحل بحر الغرب (١٠) . الا ان اوسع تعريف باوروبا والغرب نجده لدى المسعودي ( ٣٤٦ هـ ) بالرغم من انه لم يؤلف كتابا جغرافيا خالصا ، الا ان كتابيه مروج الذهب ، والتنبيه والاشراف ، يرد فيها معلومات واسعة - برغم ما فيها من اساطير اقتبسها ممن سبقوه - و اضاف اليها معلومات شخصية حصل عليها من تجار ورحالة او من مشاهدات ذاتية من رحلاته التي شملت الهند وسيلان وشواطئ زنجبار وارمينيا وشواطئ بحر قزوين (١١) . ففي كتابه مروج الذهب يتحدث عن الروم ( الرومان ) ويشير الى الصقالبة واجناسهم المختلفة ويستعرض دياناتهم ويذكر من اجناس الصقالبة اصطترانة ونامجين وسريين ومرادة وصاصين وخشانين وابرانجاين ، ويفرق بين هذه الشعوب من حيث حكماها وقوتها (١٢) . وفي كتابه التنبيه والاشراف يذكر عند حديثه عن الاقاليم ، ضمن عملية المفاضلة بين الذات ( المسلمة ) والآخر ( الغرب ) الذين يصفهم بأنهم اهل الربع الشمالي ، ويقول : « ... وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم الواغلين في الشمال كالصقالبة والفرنجة ومن جاورهم من الامم ، فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فقلب على نواحيهم البرد وتبلدت افهامهم وثقلت السنتهم وابيضت الوانهم ومن كان أوغل في الشمال فالغالب عليهم الفباوة والجفاء والبهائية وتزايد ذلك في الابد والابعد الى الشمال » (١٣) ، ويذكر من اجناس الفرنجة الجلالقة والجاسقس والوشكنس والصقالبة والبرغز (١٤) ، بالرغم من ان جزءا من هذه المعلومات قد ورد عند من سبقه ، الا انها هنا اكثر تفصيلا مما قد



يعني زيادة المعرفة بهذا الآخر ( الغرب ) ، على أن لا يعني ذلك انه كلما ابتعدنا في التاريخ عن الجغرافيين الاوائل كلما زادت معرفتنا بالآخر . يتضح ذلك مع نهاية القرن الرابع الهجري حيث ظهر أعظم كتاب في تاريخ الجغرافيا - حتى ذلك الوقت - للمقدسي ( ٣٩٥ هـ ) ، وهو كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، فهذا المؤلف يعطي اهتماما وتفضيلا للعالم الاسلامي الذي يقسمه الى اربعة عشر اقليما او بلدا يتحدث عنها بأسهاب . وبالمقابل نجد اهمالا للآخر ، او ما هو خارج دار الاسلام : « . . لم نتكلف ممالك الكفار لاننا لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها . . » ( ١٥ ) . وبعد عصر المقدسي نجد معلومات تختص بأوروبا الشمالية عند البيروني ( ٤٤٠ هـ ) الذي حصل على معلوماته من سابقه ، اضافة الى معلومات من التجار والرحالة ، وتلمح لديه معلومات عن بحر البلطيق والبحر الابيض الشمالي ، ومعلومات عن سكان شمال وشرق أوروبا وبخاصة عن النورمان والاسكندنافيين ( ١٦ ) .

ويمكن أن نجد عملية التفاضل بين الاقاليم عند جغرافي المغرب الاسلامي كما هو الحال عند صاعد بن أحمد الاندلسي قاضي طليطلة ( ٤٦٢ هـ ) ، فهو يرى أن موقع الاوروبيين من الارض جعلهم ضمن الأمم التي لا تعني بالعلوم ويرى « . . . انهم اشبه بالبهائم منهم بالناس . . . وفتى فيهم العمى والغبوة كالصقالبة والبلغر ومن اتصل بهم » ( ١٧ ) ، ونجد معلومات مشابهة وان كانت اوسع عند أبي عبيد البكري ( ٤٨٧ هـ ) ، وهذه المعلومات جاءت على لسان الرحالة التاجر ابراهيم بن يعقوب الذي زار بلدان اوروبية فوصل الى المانيا وانكلترا والبلغار وبولندا وتشيك وفرنسا وهولندا ، وقدم معلومات عن اللومبارديين وعن التجارة في سراغ واوغسبورج ( ١٨ ) . يتحدث ابو عبيد البكري عن الجلالة ويصفهم بالقوة والبأس بين أمم الفرنجة ، ويشير البرتونيين ( شمال غرب فرنسا ) ، ويشير الى لغتهم وسوء اخلاقهم . ويشير بالاجمال الى أن الفرنجة هم الجلالة والصقالبة والنوكبرد ( اللومبارديون ) والاشبان والترك والخزر واللان وياجوج وماجوج ، ويقول ان بلاد الفرنجة تقع في وسط الاقليم الخامس حيث الهواء الغليظ والبرودة الشديدة ( ١٩ ) .

وتزداد صورة الآخر ( الغرب ) تفصيلا لدى الادريسي ( ٥٦٠ هـ ) ، في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، وجاءت معلوماته عن أوروبا مشتمة على معلومات من سبقه ، اضافة الى معلومات رحالة وتجار عرب ويهود وفرنجة ومصادر اوروبية مثل بطليموس واوروسيوس ، اضافة الى معلومات جمعها من خلال رحلاته وزياراته واتصالاته . فقد زار الاندلس ووصل الى شواطئ بريطانيا وزار اسيا الصغرى قبل ان يؤلف كتابه ، وقبل ان يقبل الدعوة للاقامة في بلاط روجر الثاني ملك صقلية . ولاول مرة نجد ان أوروبا والجزر البريطانية تحتل مثل هذا المكان البارز في مؤلف جغرافي اسلامي . ويعطينا الادريسي تصورا واضحا عن فرنسا والمانيا واسكتلندا ( ٢٠ ) .



ويقدم جغرافي آخر هو أبو حامد الفرناطي ( ٥٦٥ هـ ) معلومات عن الألمان والهنغار ، ولكن معلوماته مشوشة بما يتعلق برومية وبيزنطة ويزودنا أبو سعيد الفرناطي بمعلومات عن أوروبا الغربية وبالأخص فرنسا وإيطاليا ، ومعلوماته عن أوروبا الشرقية أكثر تفصيلا . ونجد شبيها لهذه المعلومات السابقة لدى القزويني (٦٨٢هـ) في كتابه عجائب المخلوقات واثار البلاد ، فيشير الى موقع أوروبا في الأقاليم الخامس والسادس والسابع ، ويعطي معلومات بما يتعلق بأمم الفرنجة وبعض صناعاتها ، ويتحدث عن سكان تلك المناطق ويصفهم بأنهم أهل غدر وقذارة (٢٢) . وما يثير الاهتمام في معلومات القزويني انها في غالبها ليست جديدة ، فقد وردت عند سابقيه ، كما انه لم يتطرق الى محاولة الربط بين الفرنجة والحروب الصليبية برغم معاصرته لهذه الحروب (٢٣) . ونلاحظ ان هذه المعلومات تتكرر عند شمس الدين الانصاري الدمشقي (٧٢٧هـ) في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، حيث يشير الى بحر الوردك ويتحدث عن جزائر البحر المحيط وما بها من غرائب نجدها مشابة لما ورد عند أبو حامد الاندلسي (٢٤) ، ونجد الدمشقي يتبنى النظرية التقليدية في تقسيم العالم ، حيث الاقليم الرابع أفضل الاقاليم في حين أن الاقليم الخامس فيه افراط في البرودة مما اثر على اخلاق سكانه من الارمن والروس واللان ، والاقليم السادس فيه ترك وخزر وفرنج وكاشغرد وسكانه كالوحوش ، والاقليم السابع فيه الألمان والصقالبة والهنكر (٢٥) .

ونجد تطورا في المعرفة الجغرافية فيما يتعلق بأوروبا في الفترة التي تلت الحروب الصليبية ويتضح ذلك في مؤلفات أبي الفداء ( ٧٣٢ هـ ) ، حيث يورد معلومات في كتابه المختصر في اخبار البشر وتقويم البلدان عن بريطانيا وعلاقاتها مع فرنسا ويتحدث عن باريس ويشير الى نهر الدانوب وألمانيا كما يشير الى أيرلندا (٢٦) ، وربما عكس هذا التوسع في المعلومات التفصيلية عن أوروبا طبيعة التطور في العلاقات وازدياد حركة التبادل بين الشرق والغرب . وهذا ما يلمح في مؤلفات لاحقة مثل كتاب العمري (٧٤٩هـ) ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الذي يورد معلومات عن طبيعة العلاقات داخل القارة الأوروبية ، ويشير الى أهمية فرنسا من بين هذه القوى ، كما يذكر معلومات عن اسبانيا وبروفنس وصقلية والبندقية بيزا وفلورنسا (٢٧) . وتتكرر هذه المعلومات ومعلومات أخرى منقولة عن مؤلفين سابقين عند القلقشندي ( ٨٢١ هـ ) في موسوعته صبح الاعشى في صناعة الانشا (٢٨) .

نلاحظ ان تصور الجغرافيين المسلمين للآخر ( الغرب ) بدأ منذ القرن الثالث الهجري ، وكان يزداد وضوحا حسب تطور العلاقات بين الشرق والغرب . كما يلاحظ ان المعلومات التي وردت عن الغرب كانت مشوشة وغير واضحة في الفترة الاولى ، في حين انها بدت تفصيلية ومحددة بين ما يخص أوروبا الشرقية والغربية في فترات لاحقة،



كما نلمح ايضا أن الاوصاف التي اطلقت على الآخر (الغرب) لم تكن كلها صفات سلبية، ولكنها في الغالب الاعم أقل مرتبة من الصفات الواردة للمسلمين في اقليمهم . على أن المهم أن هذه الصور والافكار عن الغرب لم تكن خيالية بمجملها كما أنها لم تكن من ابتداع المسلمين ، بل أن فيها موروث يوناني ، وإذا كانت المعلومات الواردة عن الغرب وقارتهم مجزأة ومشتتة ، فذلك لان الاوروبيين لم تظهر لهم خصائص واضحة في ذلك الوقت الذي كتب فيه المسلمون معلوماتهم الجغرافية .

### ب - صورة الغرب كما رآها بعض الرحالة والرسل المسلمين :

في الوقت الذي كانت فيه اندولة الاسلامية تمثل القوة الاولى في عالم العصور الوسطى ، كانت الوفود تأتي الى عواصمها طلبا للعون أو طمعا في مهادنة أو صلح . وفي المقابل كانت الرسل والوفود تذهب من عواصم العالم الاسلامي الى اقصى اطراف الارض ، وإلى العديد من الامم ، مبشرين بمبادئهم أو مقدمين دعمهم أو باحثين عن تسهيلات تجارية . وكانت هذه الوفود الرسمية تعود بأوصاف عما شاهدته في طريقها أو في بلد المقصد . هذه المعلومات الوصفية كان فيها الكثير من معالم تصور المسلم للآخرين . ومن هذه السفارات تلك البعثة البرية التي أرسلها الخليفة العباسي الواثق بالله ( ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ) الى بلاد الخزر حيث سد بأجوج ومأجوج . وقد احتفظ لنا الجزري ( ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م ) في كتابه حوادث الزمان ( ٢٩ ) ، بفقرات من الاوصاف والمعلومات عن سكان المناطق التي زارتها البعثة . وعلى الرغم من أن هذه البعثة لا تقدم وصفا خاصا بالغرب ، إلا أنها تقدم نمطا لنظرة ابن الحضارة الاسلامية لغيره ، هي نظرة وتصور القادم من الاقليم المعتدل والعاصمة المزدهرة والبلد المسلم الى بلد البرد والمدن المتباعدة المتناثرة والسكان الذين يبدوون غريبين في عباداتهم وطقوسهم ، بل وحتى في اشكالهم . ونجد أن معالم هذه الصورة تتضح أكثر في رحلة اخرى تمت بعد حوالي قرن ( ٢٠ ) من الرحلة الاولى ، وتلك هي رحلة احمد بن فضلان رسول الخليفة العباسي المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) الى بلاط الترك والخزر والروس والصقالبة والمعلومات التي وردت في رسالة ابن فضلان تبين المستوى الحضاري الذي كان عليه الروس والصقالبة وهو مستوى متدن بمقياس ابن فضلان القادم من عاصمة الخلافة العباسية ، حتى أنه يشير الى أن هذه البعثة كانت لتقديم العون المادي والثقافي التعليمي لاقوام اضعف وأقل ثقافة ومعرفة ( ٣١ ) ، وفيها اشارات الى أن أبناء الحضارة الاسلامية كانوا روادا في معرفة العالم حتى قبل هذه الرحلة ( ٣٢ ) ، كما أن الرسالة فيها اشارات واضحة الى اخلاق هذه الشعوب وعاداتها ، فتورد اوصاف الصقالبة وطريقة حياتهم وملابسهم ومأكلمهم ( ٣٣ ) ، ومعلومات عن الروس



د. نعمان محمود جبران ..... د. نعمان محمود جبران

وقدارتهم .. وانحلالهم الخلقي . وقد ورد الكثير من معلومات ابن فضلان مصححة عند ياقوت الحموي ( ٦٢٥ هـ ) في كتابه معجم البلدان (٢٤) .

ومع أن ما ورد من وصف الرحلتين السابقتين ينطبق بشكل خاص على ما يعرف اليوم بأوروبا الشرقية ، إلا أننا نجد أيضاً مقاربا مع وصف آخر ، ولكن لمناطق تعتبر ضمن أوروبا الغربية . هذا الوصف الآخر على لسان مسلم من المغرب العربي هو يحيى الفزال ( ت ٢٥٠ هـ ) وذلك من خلال السفارة - الرحلة التي قام بها بأمر من سلطان الاندلس عبد الرحمن بن الحكم ( ٢٠٦-٢٣٨ هـ ) إلى بلاد النورمان في سنة ٢٢١ هـ ، ومن الجدير بالذكر أن خلافاً قد وقع في وجهة هذه الرحلة (٢٥) ، فالبنداق - على سبيل المثال - يرجح أنها كانت إلى بلاد الدنمرك (٢٦) ، وقد وردت معلومات مفصلة من هذه الرحلة في كتاب المطرب لابن دحية الكلبي ( ت ٦٣٣ هـ ) (٢٧) .

ويقدم لنا الفزال معلومات ذات دلالة كبيرة في كيفية التعامل مع الأوروبيين لا تقل أهمية عن المعلومات التي أوردها عن عاداتهم وأخلاقهم ، ويورد قصة توضح ذلك ويقول أنهم على ضعفهم يحاولون اذلال السفير ( العربي المسلم ) وبخاصة حين أعرب ( الفزال ) عن رفضه السجود للمكهم حسب عاداتهم لمنافاة ذلك للعادات الإسلامية ، ويقول أن الملك حاول التحايل على إصرار السفير وإجباره على السجود ، « ... فلما مشى إليه قعد ( الملك ) لهما في أحسن هيئة وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه ، فضيقه حتى لا يدخل عليه أحد إلا راکعاً ، فلما وصل إليه ( الفزال ) جلس على الأرض وقدم رجله وزحف على إلبته زحفة فلما جاوز الباب استوى واقفاً ... وعجب ( الملك ) من جلوسه على الأرض وتقديمه رجله في الدخول وقال : أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه » (٢٨) .

وهذه الصورة التي يقدمها الفزال ، وإن كانت تصويراً لذكاء ومكر الآخر إلا أنها تمثل في الوقت نفسه صورة الذات الأكثر ذكاء ومكراً . كما يورد الفزال معلومات نجدها مطابقة لما سيرد عند غيره من المؤرخين المسلمين في فترات لاحقة ، كما عرف عن الأوروبيين من تحرر وإباحية وانعدام الفيرة ، ويشير أيضاً إلى التمايز الطبقي الذي يظهر من خلال طبيعة العلاقة بين الجنسين (٢٩) .

كما نجد معلومات عن الأوروبيين وأنماط حياتهم وطبيعة بلادهم ومعاملاتهم التجارية من خلال المعلومات التي وردت عن رحلة يعقوب بن إبراهيم سنة ٣٥٥ هـ ، ويصف بلادهم وبردها وما بها من غابات وعلاقات بدت له غريبة عما هو مألوف في بلده الاندلس (٤٠) .



## ج - صورة الآخر ( الغرب ) في بعض كتابات المؤرخين المسلمين :

مما لا شك فيه ان صورة الغرب لدى المؤرخين المسلمين تأثرت بما تكون لدى ابناء الشرق الاسلامي من معلومات عن الغرب ، سواء كانت عن طريق التجارة والرحلات والسفارات ، او بما ورد من معلومات في المصادر الجغرافية الاسلامية ، الا ان المعلومات الاوفى لدى المؤرخين عن الغرب ، والتي يجب ان تؤخذ بمزيد من الحذر قد تشكلت خلال فترة الحروب الصليبية . وتبدو هذه الاهمية من الحقيقة بأن جزءا من هؤلاء المؤرخين كانوا شهود عيان ، عاصروا الاحداث ولمسوا الموقف عن قرب ، كما كان بينهم من شغل مناصب رسمية اتاحت لهم الاطلاع على الوثائق الرسمية والمعاهدات والمفاوضات مع الطرف الآخر ( الغرب ) المتمثل بالفرنج ، ومنهم من عايش فترة الصدمة التي تمثلت بنجاح الغزو الصليبي في ظل الفرقة الاسلامية . او عايش حركة احياء الجهاد والوحدة الاسلامية التي حققت النصر . وفي ظل ذلك كانت كتابات البعض منهم تصور حالتين : حالة القوة الصليبية وبرز من خلالها تصوير المقيور المغلوب على امره ( المسلم ) للقوى الظالم الهمجي ( الفرنجي ) . واذا نظرنا بعين الاعتبار الى ان بعض المؤرخين المسلمين كون علاقات خاصة مع الفرنج في اوقات السلم والحرب ، كما هو الحال مع اسامة بن منقذ ( ٥٨٤ هـ ) تبدى لنا ان ما ورد من تصوير للغرب ( الفرنجة ) لدى المؤرخين المسلمين فيه شيء من صدق التجربة ومعرفة الآخر عن طريق المعاشرة ايا كان نوعها ، سلمية ام حربية .

كما اننا نلمح في كتابات المؤرخين وبخاصة لفترة الحروب الصليبية تشابها مع ما ورد عند الجغرافيين ، من حيث التعميم في اطلاق اوصاف الفرنجة على امم وشعوب مختلفة . الا ان هذا التعميم لم يمنع من ورود صور خاصة وصفات خاصة لشعوب معينة من الفرنج ( الاوروبيين ) كالايطاليين ، الالمان ، الفرنسيين . ويمكننا ان نتبع ما ورد من صفات واوصاف للغرب باستعراض ما اورده بعض المؤرخين امثال ابن القلانسي ( ت ٥٥٥ هـ ) ، الذي يورد المعلومات التي كانت تصل للعالم الاسلامي عن تقدم الفرنج وكثرة اعدادهم وما رافق ذلك من خوف وهلع في الجبهة الاسلامية ، ويشير الى نجاحهم وسيطرتهم على العديد من المناطق (٤١) . ويورد خلال مؤلفه ، الذي ينتهي بحوادث سنة ٥٥٥ هـ ، اشارات يمكن من خلالها تلمس معالم صورة ترسم لهذا الغازي ( الفرنج ) ، فهم يسالمون في حالة الضعف ، ولكنهم اهل غدر ، وخاصة اذا حصلوا على امدادات تعزيزا لموقفهم العسكري ، كالمساعدات التي كانت تصلهم عن طريق المدن الايطالية (٤٢) . ويرسم صورة للفرنج وكأنه يعرض للحالة المفقودة عند المسلمين آنذاك ، تتمثل في ان هؤلاء الفرنج وبعد ان يتعرضوا لهزيمة عسكرية يتدارسون اسباب ذلك ، ويصل بهم الامر الى حد معارضة آراء قادتهم بعد



تحليلها (٤٣) . ويشير الى ان الفرنج يمكن ان يتأثروا بحضارة الشرق ، ويرى ان القادمين منهم حديثا اقل تفهما واكثر تعصبا ممن سبقهم وعاش في الشرق وخالط سكانه (٤٤) . ويشير ابن القلانسي تفصيلا الى اسماء شعوب اوروبية فيذكر الجنوبية والبنادقة والالمان والفرنسيين (٤٥) . وفي تصوير للذات الاسلامية بشكل غير مباشر يشير الى صورة الاخر ( الغرب ) المتحد ، مستغريا وقوع الخلاف في صفوفه ، فيورد في حوادث سنة ٥٢٧ هـ « في المحرم وردت الاخبار من ناحية الفرنج بوقوع الخلف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت المحاربة بينهم وقبل منهم جماعة » (٤٦) .

ونجد صورة الغرب اكثر تفصيلا عند اسامة بن منقذ ( ت ٥٨٤ هـ ) الذي ارتبط بعلاقات مع مجموعات منهم ، فهو يصورهم كما صورهم ابن القلانسي اهل غدر ، لا يلتزمون بالوفاء بالعهود ، وانهم يفسرون نصوص الامان المعقودة معهم بما يخدم مصالحهم (٤٧) . ويضيف : ولذلك فهم اصحاب مكيدة وحيل في الحروب (٤٨) ، ويقدر عاليا اهتمامهم بالفروسية والفرسان واشترائط مواصفات معينة في الفارس (٤٩) ، ويصورهم بمنظار المسلم الفارس ، فيقدر فيهم عنصر الشجاعة ، لكنه يعيب عليهم امورا اخرى ، « سبحانه الخالق الباري اذا خبر الانسان امور الفرنج سبح الله تعالى وقده ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل » (٥٠) ، وهو يرى انهم متخلفون عن الشرق حضاريا ولذا تراهم لا يالفون الا لجنسهم ولا يثقون بالغير (٥١) . وبمنظور ابن الشرق المحافظ والمتقدم علميا مقارنة بالغرب ، يرى انهم متخلفون في المعارف العلمية كالطب (٥٢) ، كما ان لديهم اباحية وانعدام للغيرة (٥٣) . ويرى ان هؤلاء الفرنجة قسمين : قسم اثرت فيه الحضارة الاسلامية ممن اقام فترة طويلة فصلح حاله ، مقارنة بالقسم الاخر القادم من الغرب الهمجي ، الا انه يرى ان ذلك شاذ ولا يقاس عليه ، فالغالب عليهم طبع الهمجية وجفاء الخلق (٥٤) .

ويصورهم البنداري ( ت ٦٤٢ هـ ) ، بشكل الفترة التي كتب فيها والتي بدأت تشهد تغيرا في ميزان القوى لصالح الجبهة الاسلامية في اواخر عهد نور الدين زنكي ( ت ٥٦٩ هـ ) وبدايات عهد صلاح الدين . فهؤلاء الفرنج برغم تعاظم خطرهم ، الا انهم اقل ذكاء في الحرب ، ويشير بذلك الى اهالي صقلية في غزوهم لدمياط سنة ٥٦٩ هـ (٥٥) . ونجد ايضا ان الصورة التي رسمها سابقوه عن تخلف الغرب وايمانهم بالخرافات تتكرر هنا مرة اخرى ، حيث يرى ايمانهم بأقوال المنجمين عن مصائب تصيب العالم نتيجة اجتماع الكواكب في برج معين ، فيقول : « ... وكلما سمعنا اخبارهم ضحكنا من عقولهم الواهية » (٥٦) .



ونجد أن صورة الغرب ( الآخر ) لدى المسلم تساير طبيعة العلاقة معه ، بنفس القدر الذي تساير فيه رسم صورة الذات، وهذا ما نلمحه عند أبي شامة (ت ٦٦٥هـ)، فهو إذ يكتب عن الدولتين النورية والصلاحية ، أي في فترة رجحان الكفة الإسلامية وبروز القوة القادرة على كبح الفرنج ، يبرز ذلك من خلال تصويره للفرنج والمسلم ، وهو لا ينسى أن يشير إلى أن هذه الصورة والنظرة للفرنج تأتي مختلفة عند طرف آخر ، كـ بعض وزراء الفاطميين الذين تحالفوا معهم ، فهو يورد رد الوزير الفاطمي (٥٧هـ)، على أحد قادة نور الدين (٥٨هـ) ، الذي حاول ثني الوزير عن التعاون مع الفرنج ، لتكون إجابته « ... ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرج » (٥٩هـ) ، في حين أن صورتهم لدى عامة المسلمين، أنهم قليلوا أوفاء بالعهود، إلا أن قادتهم يتمتعون بشجاعة وراي صائب (٦٠هـ). لكنه يشير إلى صور هامة ، وهي أن الفرنج ( الغرب ) لا يحترمون إلا القوي ولا يقرون بالحقوق لأصحابها إلا إذا رافق هذا الحق قوة ملادية تدعمه فيشير ضمن حوادث سنة ٥٦٧هـ عن الفرنج قائلا : « ... وكانوا في ذلك كما يقال : اليهودي لا يعطي الجزية حتى يُلْظَم ، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها » (٦١هـ) ، وضمن تصويره للذات المسلمة وللآخر ( الفرنج ) ، نظرا لتبدل حال الطرفين من القوة إلى الضعف أو العكس ، يشير إلى شجاعتهم ( الفرنج ) ، ولكن هذه الشجاعة ووجهت بما هو أقوى منها ، فيقول على لسان نور الدين « قد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم » (٦٢هـ) ، وضمن نفس السياق بتصوير حال العالم الإسلامي الذي أصبح قويا حيث أصبح العدد القليل من المسلمين قادرا على مواجهة عدد أكبر من الفرنج في حين أن المعادلة قبل ذلك كانت معكوسة ، فيقول « ... وصبر المسلمون للقاء الفرنج وكان المسلمون مثني فارس وصبر الفريقان لا سيما المسلمون لأن ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج » (٦٣هـ) ، إلا أن الصورة التي بقيت ملازمة للفرنج عنده هي عدم الوفاء ، حتى أنه ليستغرب أن يكون بينهم من يفي بالعهد كما هو استغرابه أن يوجد من لا يفي بالعهد بين المسلمين (٦٤هـ) .

ونلمح نموذجا آخر للرسم صورة الغربي لدى المؤرخين المسلمين كتلك التي نلمحها عند سبط ابن الجوزي ( ت ٦٥٤هـ ) وابن واصل ( ت ٦٩٧هـ ) حيث يجعلان وصف صورة الغربي من الغرب أنفسهم . فها هو ابن واصل يورد محاوراة بين رسول امبراطور المانيا فردريك الثاني ( ١٢١٥ - ١٢٥٠ م ) والملك الكامل الايوبي ( ت ٦٣٥هـ ) حول طبيعة النظام الإسلامي في الحكم والسؤال عن الخليفة وأصله ، فيقول مندوب الملك الكامل « ... هو ابن عم نبينا محمد أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منهم ، فقال الامبراطور ما أحسن هذا لكن هؤلاء القليلو العقول - الفرنج - يأخذون رجلا من المذيلة ليس بينه وبين المسيح نسب



ولا سبب جاهلا مذما ويجعلونه خليفة عليهم ، قائم مقام المسيح فيهم ، وانتم خليفتم ابن عم نبيكم فهو احق الناس بمرتبه « (٦٥) ، وزيادة على ذلك نجد أن الامبراطور فردريك يصف الفرنج بالخنازير . ففي أثناء زيارته للقدس سأل عن سر صنعة شبابيك قبة الصخرة بشكل اسياخ فقال له المسلمون : « حتى لا تدخل العصافير الى القبة ، فابتسم الامبراطور وقال : والآن احضر الله لكم الخنازير » (٦٦) ، ومن خلال هذين المثالين يبرز لنا وكأنهما محاولة من الجانب الاسلامي للتأكيد على صحة تصويرهم للغرب سابقا والدليل أن هذه الصورة جاءت مطابقة لوصف بعض الغرب لابناء جلدتهم .

ويتابع المؤرخان ايراد امثلة من اقوال الامبراطور في زيارته (٦٧) للقدس كاستغرابه من منع آذان الفجر حسب اوامر الملك الكامل خوفا من انزعاج الامبراطور (الصديق) (٦٨) حتى انه قال « ... اخطأتم يا قاضي تغيرون أنتم شعائركم وشرعكم ودينكم لأجلي فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ، الله الله لا تفعلوا أول ما تنقصون عندنا » (٦٩) ، وبغض النظر عن صدور هذه الاقوال أو عدمه عن الامبراطور ، فهي تصوير للذات الاسلامية في حالة معينة بلغ بها التهاون والهوان في سبيل ارضاء الآخر (الفرنجي) امرا اثار استغراب واستهجان الفرنجي ، وكأن المؤرخون هنا يحتجون على ما وصلت اليه أمور الدولة حيال من هم في نظرهم خنازير وقليلي عقول ولا تربطهم بالمسيح صلة كالتي تربط المسلمين بالرسول عليه السلام .

ومن الصور التي لازمت ذكر الفرنج حتى في فترات متأخرة هي صورة عدم الصدق والمكر ، مما يولد شعورا بعدم الثقة بهم ويزيد من دائرة الشك حولهم ، فابن الدواداري (ت ٧٣٤هـ) يورد قصة عن أحد رسلهم للدولة الاسلامية ، حيث أن هذا الرسول كان يتكلم عن طريق ترجمان مع الطرف المسلم ، ولكنه ولسبب ما تكلم العربية ، حتى أن الدواداري يقول : « انه قبل ذلك لا يتكلم الا بترجمان ويدعي أنه لا يعرف اللسان العربي » (٧٠) ، وهذا الشك بنوايا الفرنج نجده في فترة متأخرة حتى بعد انتهاء فترة الحروب الصليبية ، ففي سنة ٨٢٤هـ أصدرت الدولة المملوكية مرسوما حددت فيه مدة اقامة جميع طوائف الفرنج في أراضي الدولة بأربعة اشهر على أكثر تقدير ، وهي المدة التي كانت في نظر الدولة كافية لانهاء عملياتهم التجارية ، عند ان ثبت تأمرهم مع القراصنة (٧١) .

كما نجد أيضا صورة الغرب في نظر بعض المؤرخين المسلمين تأخذ منحى آخر حيث تظهر اشارات لوصافهم الجسمية ومدى تأثير ذلك على قيمتهم الحقيقية ، فيها هو ابن الدواداري يقول عن الامبراطور الألماني : « من صفته أنه أشقر امط اعينش



لو كان عبدا ما ساوى سبعين درهما « (٧٢) ، ثم يقارنهم بغيرهم من العناصر الاسلامية وبخاصة العنصر التركي السائد آنذاك ، فيقول : « الترك اسود والفرنج كلاب » (٧٣) . كما تأخذ الصورة بعدا يرتبط بالدين حيث يرد وصفا لملك الاسبتار بأنه « جهول عجول ما أدبه الوالدان ولا اختلقه الجديدان . . . مقسم الراي وكيف لا يكون مقسمه وهو عابد الثلاثة » (٧٤) .

كما نلمح من خلال بعض الكتابات التاريخية الاسلامية اشارات لرسم صورة خاصة بفئات معينة من الفرنج ، فالألمان أكثر الفرنج عددا واشدهم بأسا (٧٥) ، على عكس الايطاليين الأقل خبرة في الحروب والذين يتميزون بعدم ثبات موقفهم من العالم الاسلامي ، فهم أحيانا من أشد أجناس الفرنج عداوة ، وفي أحيان أخرى أكثرهم قربا وتعاوناً مع المسلمين (٧٦) ، ويبدو أن ذلك كان متمشيا مع طبيعة حياتهم كتجار فيحددون مواقفهم بناء على مصالحهم الخاصة بغض النظر عن العوامل الأخرى ، كالدين والعرق .

### الخاتمة :

لقد تشكلت صورة الآخر ( الغرب ) في الكتابات الجغرافية والتاريخية الاسلامية من خلال الاتصال الذي تم بين الشرق والغرب سواء أكان في فترة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية التي سبقت ازدهار الحضارة الأوروبية الحديثة أو في فترة انعكاس ميزان القوى لصالح الغرب بعد أن استطاع في فترة فاصل زمني من السيطرة على أجزاء من الشرق الاسلامي ، مما ولد شعورا من العداء على خلفية أن السيطرة الغربية كانت عنيفة وأعاقت التقدم الاسلامي ، وبذا فإن صورة الغرب أو الآخر قد جاءت متسقة مع معرفة هذا الآخر ، فمن معرفة جزئية فردية الى معرفة شاملة جماعية ، في فترتي سلم وحرب ، على أن هذه الصورة لم تتح لها مرحلة ناقدة كفيلة بتخليصها مما فيها من شوائب ، ويعود السبب في ذلك الى أن سلوك الآخر ( الغرب ) تجاه العرب والمسلمين لم يتغير ايجابيا ، مما ولد لدى بعض أبناء الشرق ظاهرة الرفض لكثير مما هو غربي ، على افتراض نية التآمر والتي جاءت من خلال التجربة الاسلامية مع الغرب ، مما جعل الكثير من الكتابات العربية الاسلامية تركز على ظواهر سلبية عند الآخر ضمن اطار الدعوة لحماية الذات .

وبالإجمال ، فإن صورة الآخر ( الغرب ) ، لدى أبناء الحضارة الاسلامية لم تكن ايجابية في كل جوانبها ، ولكن ذلك ليس من صنع العربي والمسلم بقدر ما هو نابع من تصرف هذا الآخر ، وبذا لا نجد اختلافا كبيرا بين معالم الصورة التي رسمت



للاخر في كتب التراث الاسلامي عما هو في ذهنية الانسان العربي المسلم المعاصر ، وذلك لان هذا الغرب لم يعبر سلوكه وتطرفه تجاه العالم الاسلامي وان غير تكتيكاته .

وعلى الرغم من ان كل طرف ( المسلم والغربي ) قد احتفظ للاخر بصورة مكتسبة من خبراته السابقة ، وعلى الرغم من مقولة الشاعر الانجليزي رديار كبلنغ ( ١٨٦٥ - ١٩٣٦ ) « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ، الا اننا نرى ان امكانية اللقاء الحضاري واردة ولا بد من توصلها ، ولكن بمنظور مختلف متخل عن نزعة السيطرة وفرض الذات ، وان الصورة التي رسمت للاخر في التاريخ الاسلامي - وكان الغرب مسؤولا عنها - هي بلا شك قابلة للتغيير اذا ما غير الغرب من سلوكياته وتخلّى عن نظرية الاستعلاء الحضاري والعنصرية والابتزاز الاقتصادي ، وحين يؤمن ان الحضارة ليست من صنع جنس بعينه ، بل هي مساهمات انسانية متراكمة .

### الهوامش :

- |   |   |
|---|---|
| <p>(١) محمد ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق ونشر دي جوييه ، بريل ، ١٨٨٥ ، ص ٢-٤ .</p> <p>(٩) حسين محمد فهم ، ادب الرحلات - سلسلة عالم المعرفة ، ع ١٢٨ ، ١٩٨٩ م ، ص ١٩٢-١٩٣ .</p> <p>(١٠) ابن رسته ، احمد بن عمر ، الاعلاق النفيسة نشر دي جوييه ، ١٩٨٢ ، ص ١١٩ - ١٢٠ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٥ .</p> <p>(١١) ابن سعيد المغربي ، ابو الحسن علي بن موسى ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .</p> <p>(١٢) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، نشر شار بلا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦١ ، ج ٢ ، ص ١٤١ - ١٤٧ .</p> <p>(١٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٣٨-٣٩ . كراشكوفسكي ، اغناطيوس بوليانوفتش ، تلويح الادب الجغرافي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، مراجعة ايفيور بليانف ، مطبعة لجنة</p> | <p>(١) المقصود هنا ، البيزنطيون والمدن الإيطالية .</p> <p>(٢) ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي ( ت. ق ٤ هـ / ١٠ م ) ، صورة الارض ، لندن ١٩٢٨ ، ص ٢٠٥ ، المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد ( ت ٣٧٥ هـ / ١٩٨٥ م ) ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن ، ١٨٧٧ ، ج ١ ، ص ١٤٨ .</p> <p>(٣) اندرة ميكل ، « اوروبا في نظر العرب حتى عام الف » في : اضواء عربية على اوروبا في القرون الوسطى ، ترجمة د. عادل العوا ، منشورات هويدات ، بيروت - باريس ، ١٩٨٣ ، ص ٩٠ .</p> <p>(٤) نفس المصدر ، ص ٩١ .</p> <p>(٥) خالد زيادة ، تطور النظرة الاسلامية الى اوروبا ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨ .</p> <p>(٦) نفس المصدر ، ص ٢٨ - ٢٩ .</p> <p>(٧) ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، المسالك والممالك ، نشر دي جوييه ، ١٨٨٩ ، ص ١٥٥ .</p> <p>(٨) ابن الفقيه الهمداني ، ابو بكر احمد بن</p> |
|---|---|



- (٢٥) التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ج ١ ، ص ١٨٢ .
- (١٤) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٩ .
- (١٥) المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٥ . حين محمد قهيم ، المصدر السابق ، ص ١٩٦ .
- (١٦) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٢ ، خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٩ ، سري محمود ، «الفكر الجغرافي عند البيروني» مجلة المؤرخ العربي ، ع ٣ ، بغداد ١٩٨٦ ص ٢٦٣ - ٢٧١ .
- (١٧) صاعد الاندلسي ، القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ، وضع مقدمته السيد محمد بحر العلوم ، المطبعة العيدرية ، النجف ، ١٩٦٧ ص ٦ - ٨ .
- (١٨) اندره ميكل ، المصدر السابق ، ص ٨٨ - ١٠٤ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .
- (١٩) ابو عبيد البكري ، جغرافية الاندلس وأوروبا - من كتاب المسالك والممالك - تحقيق عبد الرحمن الحجى ، دار الارشاد ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ٨٢ ، ١٣٧ .
- (٢٠) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٥-٢٧٩ ، ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ .
- (٢١) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ، كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٠٠ .
- (٢٢) ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص ٤٨ - ٥٠ .
- (٢٣) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .
- (٢٤) الجزري ، شمس الدين محمد بن ابراهيم ، حوادث الزمان ، السنوات ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ ، تحقيق نعمان جبران ، فرايبورغ / ألمانيا ، ١٩٨٨ ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- (٢٥) شيخ الربوة ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، طبعة لايبزغ ، ١٩٢٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ . خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
- (٢٦) ابو الفداء المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل ، تقويم البلدان ، حققه م. رينود وماك كوكين دي سلان ، باريس ، ١٨٤٠ ، ص ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢٦٩ .
- (٢٧) كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٢ .
- (٢٨) خالد زيادة ، المصدر السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ .
- (٢٩) الجزري ، شمس الدين محمد ، حوادث الزمان ، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة غوتا الألمانية ، رقم ١٥٥٩ - ١٥٦٠ .
- (٣٠) بدأت رحلة احمد بن فضلان انطلاقا من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩ هـ ، ووصل الى ملك الصقالبة في ١٢ محرم ٣١٠ هـ .
- (٣١) ابن فضلان ، احمد ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، مديرية احياء التراث العربي ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٩٨ ، ١٤٨ .
- (٣٢) نفس المصدر ، ص ١٥٣ .
- (٣٣) نفس المصدر ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .
- (٣٤) نفس المصدر ، ص ٥٨ - ٦٠ ، ١٧٧ - ١٧٨ .
- (٣٥) حول ما اثير من تساؤلات حول الرحلة وزمانها ووجهتها انظر ، محمد صالح البنداق يحيى ابن الحكم الفزال ، تقديم احسان عباس ، منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩ ، ص ٩٣ - ١٠٠ .
- (٣٦) نفس المصدر ، ص ١٦١ .
- (٣٧) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
- (٣٨) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
- (٣٩) نفس المصدر ، ص ١٣٢ .



د. نعمان محمود جبران

- (٤٠) أندره ميكل ، المصدر السابق ، ص ٩٦ - ٩٩  
١٠٤ - ١٠٥ .
- (٤١) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد بن  
علي بن محمد التميمي ، تاريخ دمشق ،  
تحقيق سهيل زكار ، دار حسان للطباعة  
والنشر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٨  
وما بعدها .
- (٤٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٤٦٣ .
- (٤٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .
- (٤٤) نفس المصدر ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
- (٤٥) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٢٢٣ ،  
٤٦٣ .
- (٤٦) نفس المصدر ، ص ٢٧٤ .
- (٤٧) ابن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن  
مرشد الكنانى الشيزري ، كتاب الاعتبار ،  
تحرير فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ،  
الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، أعيد طبعه في  
الدار المتحدة للنشر والطباعة والتوزيع ،  
بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٤ .
- (٤٨) نفس المصدر ، ص ٧٣ .
- (٤٩) نفس المصدر ، ص ٨٣ - ٨٤ .
- (٥٠) نفس المصدر ، ص ١٦٩ .
- (٥١) نفس المصدر ، ص ١٦٦ .
- (٥٢) نفس المصدر ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٨ .
- (٥٣) نفس المصدر ، ص ١٧٤ .
- (٥٤) نفس المصدر ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٠ .
- (٥٥) البنداوي ، قوام الدين الفتح بن علي ، سنا  
البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوي ،  
مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٧٩ ، ص ٧٧ ،  
٢٨٣ .
- (٥٦) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .
- (٥٧) الوزير الفاطمي هو أبو شجاع شاور بن  
بحيسر بن نزار بن عثمان ، تولى وزارة مصر
- سنة ٥٥٨ هـ ، ذهب للشام لطلب النجدة من  
نور الدين زنكي ، قتل سنة ٥٦٤ هـ
- (٥٨) القائد هو أسد الدين شيركوة الذي توجه  
الى مصر بأمر من نور الدين زنكي في سنوات  
٥٥٩ هـ ، ٥٦٢ هـ ، ٥٦٤ هـ ، تولى الوزارة  
في مصر سنة ٥٦٤ هـ وتوفي في السنة نفسها .
- (٥٩) أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن  
اسماعيل المقدسي ، الروضتين في اخبار  
الدولتين ، ج ١ ، ق ١ ، تحقيق محمد حلمي  
محمد احمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ،  
القاهرة ، ١٩٥٦ ، ج ١ ، ق ٢ ، تحقيق  
محمد حلمي محمد احمد ومراجعة محمد  
مصطفى زيادة ، وزارة الثقافة والارشاد  
القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
والترجمة والطباعة والنشر ، انظر ، ج ١ ،  
ق ٢ ، ص ٤٢٥ .
- (٦٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٤ -  
١٨٥ .
- (٦١) نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١٧ .
- (٦٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٦ .
- (٦٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧١ .
- (٦٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٦ .
- (٦٥) ابن واصل ، جمال الدين الدين محمد بن  
سالم ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ،  
ج ٤ تحقيق حسنين ربيع ، دار الكتب ،  
القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥١ .
- (٦٦) سبط بن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر  
يوسف بن قزاوغلي التركي ، مرآة الزمان  
في تاريخ الاعيان ، ج ٨ ، ق ٢ ، الهند ،  
١٩٥١ ، ٦٥٦ . ابن ابيك اللواداري ، أبو  
بكر عبد الله ، كنز الدرر وجامع الغرر ،  
ج ٧ ، تحقيق سميد عبد الفتاح عاشور ،  
القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
- (٦٧) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص  
٢٤٥ .



الكامل في التاريخ ، ١٢ جزء ، دار صادر  
- دار بيروت ، ١٩٦٦ ، ج ٩ ، ص ٢٠٧ .  
ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المعبر  
وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم  
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ٨  
اجزاء ، دار الفكر - بيروت ، ١٩٨١ ، ج ٥ ،  
ص ٣٧٣ .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح  
الاعشى في صناعة الانشا ، ١٥ جزء ، نسخة  
مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٦٣  
ج ١٣ ، ص ٨١ . ابو شامة ، شهاب الدين  
عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان المقدسي ،  
الروستين في اخبار الدولتين جزءان ، دار  
الجيل ، اوفست ، عن مطبعة وادي النيل ،  
١٩٥٦ - ١٩٦٢ ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢١ .

- ١ ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ٨ ،  
ق ٢ ، ص ٦٥٦-٦٥٧ .
- ٢ نفس المصدر ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٦٥٧ .
- ٣ ابن ابيك الدواداري ، كنز الدرر ، ج ٧ ،  
ص ١١٩ .
- ٤ ابن تفردي بردي ، ابو المحاسن جمال الدين  
يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر  
والقاهرة ، ج ٦ ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص  
٥٠٨ .
- ٥ ابن ابيك الدواداري ، كنز الدرر ، ج ٧ ،  
ص ٢٩٤ ، ٣٧٧ ، ١٤٣ .
- ٦ نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٣٧٧ .
- ٧ نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ١٤٣ .
- ٨ ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن  
ابي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني ،







## القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط (١)

بقلم : ب. ه. دوب P. H. Dopp

الاستاذ المساعد في كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول

( جامعة القاهرة حاليا )

اختارها وترجمها : عبد الرحمن حميدة

عن مجلة الجمعية الملكية الجغرافية المصرية : ٢٥ (١٩٥٢)

على قدر ما تكون النصوص نادرة ، يكون الامل في العثور على فائدة من أوائل النصوص التي تصف القاهرة ، التي تركها لنا الرحالة والحجاج من العصر الوسيط . غير أن خيبة الامل سرعان ما تقفز للعيان : ذلك ان طلائع زوار القاهرة لم يجيدوا الكلام عنها ، ولم يعرفوا الرؤية الحسنة ولا الوحدة . فقد اكتفوا ، من خلال قلم أرعن ، او ساذج ، بأن دونوا انطباعاتهم عن اتساع المدينة ، وعن عدد سكانها الذين لا يحيط بهم احصاء ، وعن غنى تجارتها ، وعن بهجة البساتين التي تحيط بها . أما فيما يتعلق بترتيب الامكنة حسب مواقعها ، وعن مشهد الاوابد ، فلا شيء الا النزر اليسير . وفضلا عن ذلك قدموا نبذة عن نهر النيل « القادم من الجنة الارضية » ، وعن السور الذي يطوق المدينة ، وعن القلعة ، و« قصر السلطان » . هذا كما ان الحجاج لم يتوانوا عن تعداد كنائس بابلون ، أي القاهرة القديمة (٢) ، التي زارها . غير ان وصفهم يقتصر على التنويه بجمال كنائسها وجلالها ، وانها تحتفظ بجسد ذلك القديس أو ذاك . وفي خلال كل القرن الثالث عشر لم يصف شيء يذكر الى تلك الملاحظات التي نراها متكررة من رواية لآخرى . وعلينا الانتظار حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر كي نعر على تفاصيل مرئية حقا وأوصاف ذات فائدة حقيقية .

ومنذ القرن ١١ ، اشار الشعراء الجواله الى القاهرة باسم بابلون Babilone اقتداء بالاغريق ، مع التباس ظاهر مع « بابلون » Babylone الاشورية ( كذا ) . وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوروبا ، ونصادفها حتى في المعاهدات التجارية المدبجة باللغة اللاتينية . وعلى كل فان المؤلفين الاكثر اطلاعا ، والذين جاؤا من بعد غليوم الصوري (٢) ، انتبهوا الى ضرورة التمييز بين بابلون التوراتية وبين عاصمة مصر ، التي ميزوا فيها بين مدينتين هما بابلون ، التي هي الجزء الذي يحمل اليوم اسم مصر العتيقة (٤) ، وبين القاهرة الحقيقية ( مصر القاهرة ) التي اسسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



ومن المعروف أن مدينة بابليون القديمة نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دعي « قصر الشام » وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن ، وهكذا توسع المعسكر بعد قليل تحت اسم مصر أو مصر الفسطاط . وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضا في اتجاه الشمال اثر ظهور « حي العسكر » على أيدي العباسيين في القرن الثامن ، وحي القطائع في القرن التاسع بجهود الفاطميين . وفي ٩٦٩م تأسست بأمر من قبل أول حاكم فاطمي « المعز » نواة القاهرة الحديثة ، الى الشمال أيضا ، وتوسعت وتحصنت على يد صلاح الدين الايوبي الذي شيد القلعة في ١١٧٩ .

وقد اطلق العرب على هذه المدينة الجديدة اسم مصر القاهرة ، على اسم الكوكب المريح ( القاهر ) الذي كان في حالة اقتران موائمة في وقت بناء الاسوار . وذلك هو أول ظهور لاسم القاهرة . غير ان الاقباط ، ومعهم الغربيون ، حافظوا على تسمية كل هذه المدن المتقاربة اسم بابليون .

غير ان القاهرة ، والقاهرة القديمة اللتين كانتا متلاستين تم فصلهما بشكل صريح في ١١٦٨ عندما قام آخر خليفة فاطمي ، وهو العاضد ، بحرق الحي المتوسط ، أي الفسطاط ، الذي تجاوز أسواره ، وأصبح من العسير الدفاع عنه ، معرضا للسقوط بسهولة كبيرة في أيدي الغزاة . ولم يحدث أن أعيد بناء الفسطاط ، بيد أنه يمكن التعرف على موقعه بمساحة كبيرة من الانقراض التي كانت لا تزال ، في منتصف القرن العشرين ، تفصل القاهرة الحديثة عن القاهرة القديمة .

منذ ذلك الحين فقدت القاهرة القديمة من أهميتها لحساب المدينة الفاطمية الجديدة ، التي غدت مركز الحياة الاقتصادية والسياسية . غير أن الحجاج الأجانب لم يترددوا في زيارة بابليون الرومانية لاهمية الكنائس والتي تحويها ، ولأنها كانت ، كما هي الحال اليوم ، مأهولة حصرا تقريبا بالمسيحيين واليهود .

هذا وان أوائل أوصاف القاهرة القديمة تعود على وجه الدقة لرحالة يهودي هو بنيامين الطليطلي . وهو رحالة شهير من اقليم نافار في شمالي اسبانيا ، ارتاد بين عام ١١٦٥ و ١١٧٣ كل البلاد المتمدنة في عصره ، وكتب باللغة العبرية « المسالك » الذي ترجم ونشر عدة مرات . ولكنه لما كان مهتما ، حصرا تقريبا ، بوضع أبناء ملته في العالم ، فإنه لم يترك لنا أشياء تستحق الذكر عن القاهرة العربية ، التي دعاها « زوان Zoan » ، بل تكلم ، عن القاهرة القديمة التي كناها باسم عبري هو « مصرائيم » ، ويقول « ان مصرائيم (٥) مدينة كبيرة واقعة على ضفة النيل ، وهو نهر فيزون (٦) ،



وعدد اليهود فيها سبعة آلاف (٧) ولهم كنيسان كبيران ، أحدهما يخص أبناء بلاد اسرائيل (٨) ، والاخر يخص اهل بابلون ويدعى كنيس الشاميين (٩) ، والثاني كنيس العراقيين (١٠) وعلى رأسهم نيتانل Nethenel وهو أمير الامراء ورئيس السانهدرين Sanhédrin وكل الطوائف المصرية . فهو يعين الحاخامين والموظفين (١١) في عداد حاشية السلطان الكبير ، الذي يقع قصره في مدينة العرب الملكية، أي زوان المدينة (١٢) . أما رعايا السلطان فيطلق عليهم اسم العلويين (١٣) ، الذين نبذوا سلطة أمير المؤمنين المقيم في بغداد . وهذان الفريقان في حالة عداة دائم ، لان الاول أسس في بلاد « زوان » عرشا منافسا لعرش بغداد (١٤) .

ويخرج الملك مرتين في العام : بمناسبة العيد الكبير (١٥) ، وعلى اثر فيضان النيل . ويحيط بمدينة زوان أسوار ولكن دون مصرائيم التي يحدها النيل من احد جوانبها . وهي مدينة كبيرة ذات أسواق وفنادق بأعداد كبيرة ، وسكانها من اليهود اغنياء جدا .

ولا ينزل المطر في مصر ابدا ، كما ان الثلج والجليد غير معروفين ، والمناخ شديد الحرارة . ويزيد ماء النيل مرة في العام خلال شهر أيلول ، وعندئذ يغطي كل البلاد بمدة خمسة عشر يوما ، وبركود الماء فوق الاراضي خلال شهري ايلول وتشرين الاول فانه يعمل على اخصابها . وهناك عمود من المرمر علوه اثنا عشر ذراعا ، مقام فوق الماء بحذق شديد على حافة جزيرة نيلية ، يدل السكان على الارتفاع الذي بلغه الفيضان (١٦) . وعندما يغمر الماء العمود المذكور ، يصبح من المعلوم ان المياه أصبحت تغطي كل البلاد على مسافة خمسة عشر يوما ، أي على عرضها (١٧) أما اذا لم يبلغ الماء منتصف العمود، فمعنى ذلك انه لا يغطي سوى نصف البلاد . وهناك مأمور يقوم في كل يوم بقياس ارتفاع الفيضان على العمود ويذيع الخبر في كل بلاد زوان وفي مدينة مصرائيم .

وهنا تضيف ترجمة برجرون النص التالي : « ان كل الذين يملكون حقولا في هذه البلاد يحفرون خنادق كبيرة تظل مليئة بالاسماك ، بعد ان ينحسر ماء النيل ، يتغذى عليها السكان ، او يملحونها لبيعها من التجار الذين يحملونها لامكنة اخرى . وتكون اسماك هذا النهر على درجة كبيرة من السمنة بحيث يصنعون منها زيتا ضروريا لايقاد المصابيح . وكل من يأكل من هذه الاسماك أو يشرب من ماء النيل لا يشعر ابدا بألم ، مهما أفرط في تناولهما ، لان هذه المياه لا تستخدم فقط للشرب بل وايضا في الطب للحصول على بدانة مفرطة جدا (١٨) .

« وتبتعد مصرائيم الجديدة بمسافة فرسخين (١٩) عن مصرائيم القديمة التي لم تعد اكثر من ارض قفراء ، غير انه لا تزال ماثلة عدة بقايا من الاسوار القديمة ، وكذلك



من البيوت مع الكثير من الاوابد . والانبار التي بناها يوسف والتي لا تزال قائمة (٢٠) وفي خارج اسوار المدينة يقع كنيس يحمل اسم نبينا الطوباوي موسى ( عليه السلام ) ، والذي لا يزال يتعهد خدمته الى اليوم احد كهول تلامذة الحكمة ، الذي يقوم بدور كاهن ، ويدعى الزينخ أبونستر ، ومعناه الاب الحارس القديم ، ويبلغ قطر هذه المدينة المتهدمة ثلاثة أميال ، وهي على ثمانية فراسخ من منطقة غوسن Gossen .

بيد ان الاهتمام بما تحويه مصر انتعش طبعاً في أعقاب اوائل التدخلات الفرنجية في البلاد . فعندما التمس الوزير «شاور» ، والذي كان يحكم بالفعل نائباً عن الخليفة، في القاهرة ، التحالف مع آموري الاول Amaury ، ملك بيت المقدس ضد الاتراك الذين اجتاحت مصر ، أرسل الملك هذا سفارة جرى لها استقبال في القاهرة ، وتقدمها الوزير بنفسه لتحظى باستقبال الخليفة الفاطمي (٢١) .

غير ان المقابلة الأكثر غرابة هي التي يرويها غليوم الصوري في كتابه (٢٢) ، ولما كان غير شاهد عليها فهو ينقل عن روايات سفراء فرنجة مثل هوغ من قيصرية ، والهيكلي جوفروا فولشر ، اللذين تكلما عن عجائب قصور الخلفاء ، التي كانت عبارة عن اسوار محصنة ، يحرسها احباش ، وساحات فسيحة مبلطة بالمرمر المتعدد الالوان . وحدائق فتانة ، وناقورات متدفقة ، واحواض ظليلة ، وحدائق حيوانات غريبة ، وقاعات مفروشة بزرابي من حرير موشاة بالذهب والياقوت والزمرد . . . . . » .

هذا كما يقدم غليوم الصوري صورة شاعرية أكثر منها ، موثقة ودقيقة، منقولة، دوماً ، عن انطباعات قادة صليبيين ، وهذا عندما قامت مفرزة أفرنجية باحتلال القاهرة بقيادة مشتركة تتألف من هوغ ديبلان H. de Ibelin والامير الكامل ، ابن شاور ، في حين كانت القوات التركية الفائزة ، التي كان بين صفوفها الشاب صلاح الدين الأيوبي ، تمسك في الجيزة ، على الضفة الغربية للنيل .

### جاك دوفيتري (١٢١٨ م) J. de VITRY

وقد قام جاك دوفيتري ، بدوره ، وهو مطران عكا أيام الصليبيين ، وهو الذي شهد حصار دمياط مع جيش الامير الفرنجي جان دوبرين J. de Brienne بتدوين هذه المعلومات الهزيلة ، نوعاً ما ، في المجلد الثالث من كتابه « التاريخ المشرقي » (٢٣) .

« على مسافة ثلاثة أيام من دمياط تقع مدينة كبيرة على حافة النيل تدعى بابلون الجديدة . ويجب ان ننوه انه كانت في الماضي مدينة نبيلة وقوية جداً تدعى



القاهرة ، ولا يزال فيها المقر الملكي وقصور الامراء . وتقع على مسافة ثلث ميل من تلك المدينة . وبناء على أوامر السلطان أحيطت هذه المدينة وبابيلون الجديدة بسور واحد (٢٤) وبذلك تشكلت مدينة واحدة . وهنا يسكن مسلمون ويهود ونصارى ويتبع كل من هذه الاقوام شريعته الخاصة (٢٥) وتوجد حول هذه المدينة مزارع شجرية بهيجة والعديد من البساتين .

وحوالي العام ١٣٠٠ اعتزل الامير الارمني هايتون في دير بواتيه ، في فرنسا، وأملى كتابه « تاريخ الشرق أو تاريخ بلاد التتر » (٢٦) ، ويخصص فصلا من هذا الكتاب لحالة ووضع المملكة المصرية ، ولكن لا يذكر شيئا يشير الاهتمام عن القاهرة: « ان أكبر مدينة في المملكة المصرية تدعى القاهرة ، وهي كبيرة جدا وبالغة الثراء . وعلى مقربة من هذه المدينة تقع مدينة اخرى ، مغللة في القدم تدعى مصر . وتقع هاتان المدينتان على حافة نهر يروي مصر يسمى النيل والذي يدعى في الكتاب المقدس جيئون Géon وهذا النهر هو أكثر نهر في الدنيا فائدة ، فهو يروي كل الاراضي حيثما يمر ، ويجعلها خصيبة ونضرة . وهذا النهر شديد العمق ، وقادر على أن يحمل كل أنواع السفن . وتكثر فيه كل أنواع الاسماك ، وهو جزيل الفوائد لولا انه تعيش فيه حيوانات تشبه التنين dragon تفرس الناس والخيول وكل الحيوانات الاخرى ، عندما تقع في متناولها ، وحتى على الشط . وتدعى هذه الحيوانات عادة التمساح Coquillaires ويفيض هذا النهر مرة في العام ، وتبدأ زيادته في منتصف اب ، ثم يأخذ بالتناقص ، وعندها يعمد الناس الى دفع مياهه نحو قنوات وسواق مقامة لهذا الغرض في الحقول ، كي تروى وتدمل (٢٧) . ويمكث الماء فوق الارض نحو من أربعين يوما ، ثم تبدأ الارض بالجفاف ، ويلقى بعد ذلك البذار في هذه الارض (٢٨) وينمو بشكل مدهش يفضل ارتوائها بهذه المياه ، ذلك لانه لا تسقط الامطار ابدا في هذا البلد المذكور ، فلا نجد اختلافا ابدا بين الشتاء والصيف .

وقد وضع الاهالي عمودا من الرخام في وسط النهر وامام مدينة مصر ، وقد صنعوا فوق هذا العمود بعض الاشارات : وعندما يكون النهر في فيضانه ، ينظرون الى هذه العلامات ، وعندما يصعد الماء حتى أعلا هذه العلامات ، فانهم يستبشرون بمحصول طيب ، وعندما لا يكون هناك ، خلاف ذلك ، فيضان قوي ، فهم يستخلصون عكس ذلك ، ويحددون اسعار البضائع استنادا الى هذه التوقعات وماء هذا النهر صحي جدا من أجل الشرب .

وتحوي مملكة مصر مينائين هما الاسكندرية ودمياط ..

« ولا يوجد في كل مصر مدينة ولا قلعة ولا قصر مزود بتحسينات او محاط بأسوار ، باستثناء مدينة الاسكندرية وقصر القاهرة .. وذلك مكان سكن السلطان » .



## الاخ يعقوب الفيروني (١٣٣٥) Frère J. de Vérone

وهو حاج يدعو نفسه الاخ يعقوب الفيروني ، وربما كان هو الاخ الذي كان رئيس الدير الاوغسطيني المنذور للقديسة أوفيميا ، في فيرونا في ١٣٢٩ والذي قام بزيارة الاراضي المقدسة في سر الخامسة والعشرين . ولما غادر فيرونا في ١٧ ايار بصحبة عدد قليل من الاصحاب الذين اغفل ذكر اسمائهم ، ركب البحر في ٢٩ من الشهر المذكور من البندقية ، وبعد توقف في كريت وفي قبرص نزل في حيفا ، ومنها توجه الى بيت المقدس ، وبعده قصد سيناء مرورا بغزة . وعلى اثر عودته من زيارة دير القديسة كاترينا اجتاز البحر الاحمر ليبلغ القاهرة بالطريق الصحراوي في ٣٠ ايلول ١٣٣٥ . ولكن لم يمكث فيها أكثر من يومين لانه يروى لنا ان هناك حملة صليبية وشيكة عكرت مزاج السكان ضد الاجانب . فانكفا يعقوب ( جاك ) الفيروني على عجل ، وتحاشى الاسكندرية ، ليجر من دمياط قاصدا يافا وفلسطين . وقال انه رأى في دمياط ، وبأمر من السلطان حجارة ضخمة ترمى في الميناء لجعله غير صالح لنزول الصليبيين . وشاهد الامر ذاته يحدث في حيفا وصور وعكا وهي الامكنة التي سافر اليها قبل ان يركب متن البحر قاصدا ايطاليا من بيروت .

ومما لفت نظر هذا الحاج ، على الخصوص ، في القاهرة هي رؤية فرق الممالك العسكرية ، وازدهار التجارة بشكل مذهل ، واليكم فقرات وصفه والتي نترجمها من النص اللاتيني الذي نشره رينهولد رويخرنشيت (٢٩) :

« بعد ان مضيت ستة ايام في اجتياز الصحراء ، وصلت في اليوم السابع الى مدينة القاهرة الجبارة الواقعة على النيل ، وهو نهر كبير ومدهش والذي هو احد انهار الجنة الاربعة . ويدعى نهر جيون في سفر التكوين ، ولكن المسلمين يطلقون عليه في لسانهم اسم كاليسمو (٢٠) . وفي اخر يوم من ايلول ، وهو عيد القديس جيروم ، وصلت الى القاهرة ، المدينة التي تحوي على الكثير من العجائب التي تستحق الذكر ، لانها زعيمة كل مصر وفلسطين والارض المقدسة ، وكل بلاد الاشور حتى ارمينية . حتى ان ملك ارمينية ، وهو نصراني ، يدفع للقاهرة في كل السنين جزية تبلغ مئتي الف فلورين ومائة الف حذوة حديد لبيطرة الخيول . وللسلطان مسكنه فيها ، والذي يقع في المدينة ، وهو قصر رائع منيع ، مع اسوار وابراج ، وعمارات ضخمة . وفي هذا القصر حرس عديد مؤلف من مسلمين ، وأتراك ، وآخرين ، ومن نصارى ( مرتدين ) ، وكذلك العديد من الرقيق النصارى الوافدين من سائر انحاء النصرانية وقد فرحوا كثيرا برؤيتي . وهم يقيمون في قصر السلطان الذي يوجد فيه الطعام والكساء . هم عمال يبنون له صروحه .



وقد رايت في القاهرة ، امام باب القصر ، جند السلطان ، حيث يجتمعون هناك في كل صباح جيشا لجبا من ٢٠٠٠٠ فارس حسب تقدير تجارنا النصارى ، مسلحين بالقسي ، يمتطون خيولا صغيرة الحجم تماثل المهور أو أفراس الامراء الصفار . وكانت وقايتهم رديئة ، فليس على رؤوسهم سوى خوذة صغيرة من حديد ولا يكتسي بالدروع سوى عدد صغير منهم ، في حين كانت دروع الاخرين من الجلد ، كما لم يكن اي واحد منهم مزودا بما يقي ذراعه الذي يمسك بالقوس ، ولا بما يحمي افضاهم وسيقاتهم .

ولهم ركابات قصيرة ، وعندما يرمون بأقواسهم ، يقفون على ركابهم كي يطلقوا سهامهم . ورايت خيل السلطان مغطاة بسروج مطرزة بالذهب والحرير مما يؤلف مشهرا بديعا ، طبعا ، ولكنها ذات حجوم صغيرة .

هذا كما رايت في مدينة القاهرة هذه ، خمسة فيلة قرب قصر السلطان ، وهي حيوانات ذات قوام مدهش ، وللواحد منها زوج من الانياب الطويلة ، يبلغ طولها ذراعين تقريبا ، وآذان طويلة جدا . ويبلغ علو جسمها الضخم ثمانية اقدام ، مع سيقان ضخمة جدا ولها في أعلى الفم خرطوم طويل ، بحدود ذراعين ، وتضرب به بقوة .

وقد بلغ مسامعي من نصارى يسكنون البلاد أنه في القاهرة أكثر من ٢٠٠٠٠٠ رجل قادرين على حمل السلاح . وتقع المدينة على ضفة النيل الذي يدعى كاليسفو . وتمتد طولا على أكثر من خمسة أميال بعرض يتجاوز المليون في سهل رملي . وتحوي العديد من المنازل العالية ، مشيدة باللبن مبيضة بالكلس من الخارج (٢١) ، وتحوي مساجد جميلة يؤدي المسلمون فيها صلواتهم .

ويوجد في مدينة القاهرة ذاتها وفي بابليون فراغات كبيرة حيث تقع اضرحة المسلمين ، وحيث شيدت قبور بديعة من الرخام ومن الحجر السماقي ومن حجر الهيصم ومن حجارة ثمينة أخرى ، مبنية ومذهبة بشكل رائع . ولم يسبق لي ان رايت مثيلا لها في كل بلاد النصرانية ، وتتجه جميعا نحو الجنوب ، مثلما يوجه النصارى كنائسهم نحو الشرق .

وعلى مقربة من القاهرة ، على مسافة ميل واحد وبمحاذاة النيل والخليج ، تقع مدينة بابليون الكبيرة والمدهشة . وتكاد تكون ملاصقة للقاهرة ، ويخضع سكانها ، شأن سكان القاهرة ، للسلطان الذي يسكن في هذه المدينة المذكورة مع قواته وضباطه الجليلين يحملون لقب « الامراة » وإله يعلم ان هناك الكثير مما يمكن قوله عن هاتين



المدينتين ، اللتين تقعان في موقع ممتاز على نهر جيئون Géon أو النيل ، الذي هو أحد أنهار الجنة الاربعة . والهواء فيها عذب وخال من أي شكل من أشكال الوخامة، والسكان أغنياء جدا بفضل تجارة الهند لان السفن تجلب عن طريق البحر الاحمر التوابل بمقادير لا تحصى ، وحجارة كريمة ، من مسافة تبلغ اربعة ايام عن القاهرة . وعندئذ تنقل قوافل الجمال التي لا يحصيها العد هذه البضائع حتى بابلون والقاهرة، وكذلك حتى الاسكندرية ، والتي هي بدورها مدينة هامة وكبيرة ، على البحر المتوسط ، واقعة بين فلسطين وسوريا شرقا ، وبين ممالك بلاد البربر Barbarie والمغرب وتونس من الغرب . وعن طريق البحر المتوسط الذي يحاذيها من الشمال تجلب اليها السفن من سائر بلاد العالم كل ما يمكن او يكون نافعا للانسان وعلى مسافة مائتي ميل الى الجنوب منها تقع القاهرة التي يهبط منها فرع من النيل حتى الاسكندرية مما يسمح بنقل كل الاشياء من بلد لآخر ، وهكذا تكون القاهرة وبابلون مزودتين بكل شيء ..

وفي القاهرة وبابلون العديد من النصارى ، يدعون نصارى الزنار لانهم يتمنطقون بالزنار ، على خلاف المسلمين الذين لا يضعونه على خصورهم . مثلما يضع النصارى على رؤوسهم فعلا ، قبعات سوداء ، في حين تكون بيضاء اللون لدى المسلمين . وقد سمعت من يقول ان عدد النصارى كان ٣٠٠٠٠ في كل مصر (٢٢) ، وان كل واحد يدفع للسلطان جزية سنوية تبلغ دينارا ذهبيا ، مما يعادل فلورين ونصف . وفي مصر عدة كنائس وعدة اديرة للرهبان الروم والارمن . ورايت في القاهرة عدة كنائس ، وقد وددت البقاء في مصر لبضعة ايام لولا الاشاعات عن الحرب - اذ انتشرت بين العوام اشاعة بأن حملة صليبية وشيكة الوقوع - مما جعل نصارى ايطاليا من الناطقين باللاتينية ، مشبهين على أنهم جواسيس . وقد انتابني الهلع فلم ابق بالقاهرة اكثر من يومين . وبعون الله والارقاء النصارى الذين كانوا هنا فقد استطعت العثور على مركب من النوع الذي يسمونه « الجريمة » الذي اوصلني الى دمياط . وكان علي ترك الاسكندرية على يسار والعزوف عن زيارتها ، للسبب الذي ذكرت .



ولنترك جانبا ، الرحلة المزعومة التي كتبها الفارس الانكليزي - النورماندي جان ماندفيل في ١٣٥٦ والتي لم تكن سوى تركيب لروايات اختلافية وملامع اسطورية من كل الجهات ، ولكن ابتداء من النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، اخذت روايات الرحالة الى القاهرة تقدم فائدة أكثر . ذلك هو العصر الذي اخذت فيه العلاقات الدبلوماسية تأخذ استمرارية أكثر مما ساعد على رحلات افراد عاديين . فالسفن



الجنوية والبندقية التي حملت في القرون الفاتنة الجيوش الى الشرق ، اخذت تنقل اليه الان التجار وشحنات السلع . وراح السفراء والقناصل يتجهون نحو الدول الاسلامية لاقامة علاقات سلمية وتمتينها . واصبحت سبل الحج الى الاماكن المقدسة اكثر سهولة واكثر عددا . وقصد رجال الدين من كل الامم مدينة القدس وسيناء مرورا بالقاهرة : من فرنسيين ، وفلمنك ، وانكليز ، والمان ، واسبان ، وطيان ، وروس . . فلم يعد كافيا تكرار معلومات مبتسرة وغامضة عن عاصمة السلطان متوفرة لدى مؤرخي الحروب الصليبية ، بل كتب الكثير من الرحالة رواية شخصية عن رحلتهم ، ورووا لنا ما راوه .

وقد جلب لنا عام ١٣٨٤ ثلاث روايات لثلاثة نبلاء من فلورنسة قاموا ، سوية ، برحلة الى الشرق في ذلك العام وهم : ليوناردو فريسكوبا لدى ، سيمون سيفولي ، وغوكشي دي دينو ، يرافقهم فلورنسيون اخرون هم سانتى دل رنكو ، انطونيو دي ، باولو ، والاخوان ماي واندرىا رينوكشيني . وقد مات الاخير خلال الرحلة في دمشق .

وكان هؤلاء قد غادروا فلورنسة في العاشر من اب ١٣٨٤ كي يبحروا من البندقية بتاريخ ٤ ايلول على السفينة بولا Pola التي يقودها القبطان لونزو موروسيني الذي كان ينقل شحنة من الاقمشة اللومباردية وصفائح الفضة والزيت والزعفران ، وبلغوا الاسكندرية في ٢٧ ايلول حيث استقبلهم القناصل الاوروبيون وقصدوا القاهرة التي امضوا فيها ثمانية ايام من ١١ الى ١٩ تشرين الاول ، قبل ان يقصدوا سيناء التي عبروها الى فلسطين وسورية ، وعادوا من بيروت بحرا في شهر كانون الاول ١٣٨٤ .

وقد اصبح اولهم فيما بعد ، وهو ليوناردو ، ابن نيكولو فريسكو بالدى ، سفيرا لدى البابا بونيفاس التاسع في ١٣٩٨ ، واليكم وصفا للقاهرة مترجما عن النص الايطالي الذي نشره غوغليلمو مانزي (٢٢) .

وصلنا الى القاهرة وبابليون في ١١ تشرين الاول ، واللذين هما الشيء نفسه . وهنا قادنا الترجمان الذي قصدناه في الاسكندرية ، الى الترجمان الاكبر ، وهو رئيس سائر تراجمة السلطان وقد انزلنا هذا الموظف الكبير في منزل مع امتعتنا ، قصدناه في قناة تتصل بالنيل . ويقع هذا المسكن على مسافة تقارب ثلاثمائة ميل في داخل البلاد .

وخلال المشوار بين الاسكندرية والقاهرة صادفنا الكثير من مراكب المسلمين موسوقة بالبضائع وتنقل كلها عددا كبيرا من نساء الشعب ويعملن فعلا بالكثير من



صنوف التجارة وكن يسافرون الى الاسكندرية والى جزيرة الروضة (٢٤) وبقصد البيع والشراء .

ويقوم السلطان في مدينة القاهرة وبابليون . ويقع قصره في المكان ذاته الذي كان يقيم فيه فرعون مصر ، حيث جرى ارضاع موسى . وفي يوم وصولنا الى القاهرة كان السلطان عائدا من القنص بعد غياب استغرق بضعة ايام . وكان هناك خمسة آلاف خيمة ، ولم نر اطلاقا مثل ذلك الفنى الباذخ . وقد كان هذا السلطان نصرانيا من اليونان (٢٥) ، اشتراه أحد الامراء طفلا صغيرا اي انه أصبح مملوك قائد حربي . وعندما تقدم في العمر احتفظ به الامير ضمن حاشيته ومنحه أفراسا وزادت مكانة هذا الشاب الى ان غدا حاكم القاهرة .

ويجب ان نعرف ان في القاهرة اثني عشر اميرا ، منهما اثنان رئيسيان . وتقسم المدينة الى اثني عشر حيا كما تقسم فلورنسة الى اربعة احياء ، وكل امير يحكم حيه ويقود عددا كبيرا من المحاربين . .

وتشكل بابليون مع القاهرة مدينة كبيرة جدا تمتد اكثر من ثمانية عشر ميلا طولا وثمانية أميال عرضا . ويحد النيل أحد أحيائها حيث يقوم ميناء جيد ، كان يرسو آنذاك عدد كبير من السفن مما لم نشهد له مثيلا في موانئ جنوا أو البندقية وآتكونة (٢٦) مجتمعة سوياً . هذا عن السفن من ذوات الجسرين ، والتي لا تؤلف ثلث عدد السفن الراسية هنا والتي تكون كلها ذات حمولة تعادل ، أربعمائة بالة أو أكثر . وفي عالية القاهرة (٢٧) ، وعلى مسافة ثلاثة أميال بمحاذاة الضفة ، يقع المكان الذي ولد فيه موسى ( عليه السلام ) وحيث ألقى في النهر في مهد مجلفط بالقمار . وفي ساحة السلطان ، وعلى مقربة من القصر الذي يسكن فيه ، ينتشر العديد من دكاكين باعة المجوهرات الذين يتصرفون بكميات من الحجارة الثمينة ، والزمرد ، والياقوت والياقوت الأحمر Balais (٢٨) والفيروز ، والالاء وأنواع أخرى من الحجارة الكريمة من سائر الاصناف . وقد اشترى رفيقنا اندريا دي ميسر فرانسيسكو لزوجته بضع لالء حملناها معنا ، فضلا عن أشياء أخرى استودعنا اياها عندما حضرته الوفاة بدمشق .

وعلى مسافة أربعة عشر ميلا من القاهرة ، فيما وراء النهر ، من جانب بابليون يقوم اثنا عشر من الانبار ( غنابر القمح ) ، من تلك التي أمر يوسف ببنائها في عهد فرعون في أيام المجاعة . ولا تزال قائمة : وهي ابنية مربعة الزوايا مقصوفة على هيئة الالماسات وعرض كل منها عند القاعدة يعادل ارتفاعه ، ويبلغ محيطها نصف ميل وتستتر الرمال قواعدها ، ولكن كان يوجد أكثر بكثير من هذه الانبار (٢٩) .



وقد سبق أن قلت أن القاهرة مدينة كبيرة للغاية ، وفيها يوجد الكثير من النسوة اللواتي يمارسن التجارة بنشاط ، فيقصدن الاسكندرية ، ورشيد ودمياط ، وسائر أنحاء مصر ، تماما مثلما يفعل تاجر كبير . أما في المدينة فيمتطين رواحل بديعة قادرة على حمل حمولات خيول قوية . وهذه الحيوانات معروضة للاجار على الساحات العامة وعلى الطرق ، وكل واحد مع سائقه ، ولا يعمل هؤلاء شيئا أكثر من تأجير رواحلهم للنقلات . وهم بالفعل عاجزون عن ممارسة أية مهنة أخرى . وكان يوجد في القاهرة عند وجودنا فيها ما لا يقل عن ستين الفا من هؤلاء الحمالين .

وعملتهم من الذهب أو من سبائك الفضة غير المسكوكة . ويدعى الذهب بيزان besan ، وتبلغ قيمة السبيكة دينارا وربع من العملة المسكوكة . ولكن دنائير البندقية ducats من الذهب المسكوك دارجة هنا (٤٠) . وتدعى العملة الفضية الدرهم وتعادل بندقية كبيرة . وليس هناك سعر لاية عملة فضية مسكوكة أخرى سوى تلك البندقيات الكبيرة . ولديهم عملة نحاسية غير مسكوكة يدعونها فلوس وكان كل تسعين فلسا يعادل في القاهرة درهما واحدا . ولكن يعادل الدرهم في امكنة أخرى من البلاد الاسلامية ثلاثين درهما ، وتارة اربعين ، وأحيانا اقل من ذلك حسب الامكنة . وكل بضائعهم ، تباع بالوزن ، حتى البطيخ الاحمر .

ويوجد في القاهرة حوالي ٢٥٠٠٠ من النصارى المرتدين ، ولكن القليل منهم من قوما ، ومعظمهم ينتسب الى أمم أخرى . ونصادف عددا كبيرا جدا من الابل المبرذعة ، جميلة وقوية ، وتستعمل حصرا لنقل مياه النيل الذي يجري بيعه في المدينة . ويقدر عدد الابل هذه بحوالي ١٣٠٠٠٠ ، ويقال ان في القاقرة ٦٠٠٠ من السقائين . أما النصارى فمن عدة اقوام ، اللاتين ، وهم قلائل ، والروم والنوبيون ، والكرج ، والاحباش ، والارمن ، ونصارى الزنار ، الذين يعمدون بالنار على الراس وعلى الصدغ وآخرون على الصدغ والرأس ، أو أحيانا على الرأس فقط ، وذلك حسب مذهبهم . . .

وتكون كسوة النساء عموما من قماش حسن النسيج ، وثيابهم الداخلية من قماش شيت Toile ، أو من كتان الاسكندرية الناعم لدى الأكثر غنى ، ويلبس بعضهم ثيابا قصيرة حتى الركبة ، ولكن في هذه الحالة يضعن فوق ذلك نوعا من معطف (مانطو) على الطريقة الرومانية . وهن محجبات ومخفيات بحيث لا تظهر سوى عيونهن ، وأكثرهن أناقة يضعن امام أعينهن قماشا رقيقا أسود اللون (برقع) يحول دون رؤيتهن ، مع أنهن يرين الناس تماما . ويحتدين جزمات بيضاء ويفطين سيقانهن بجوارب وبواقيات للساق تهبط حتى الكعب ، وتكون نهاياتها مطرزة - حسب حال السيدة - بالحرير ، أو بالذهب ، أو بالفضة ، أو بالحجارة الكريمة ، أو بلآلئ مطرزة فوق القماش .



ويكتسي الرجال بثياب مسدلة ، ودائما فوق سراويل أو جزمات ، بل يكتفون بأحذية من طراز البلاد على شكل خف مفلق ، وعلى رأسهم قبعة من قماش أبيض أو قماش ناعم . وثيابهم البيضاء من حرير ، أو من قطن أو من كتان فائق النعومة . ولا يميل أهل مصر كثيرا للحروب ولا يحملون أي سلاح كان ، وقد يحدث أن يتشاجروا لدرجة تجعل المشاهد يتصور أنهم سيقطعون بعضهم أربا أربا ، ولكن ما أن يصيح أحدهم قائلا : « استغفر الله » حتى تسود السكينة عليهم .

أما أمراء القاهرة فيمكن تسميتهم القادة العسكريين الاثني عشر : فكل منهم يحكم حيه وله فرقة وميليشيا ، ولا يهتم بالحي الاخر أو بالسكان المجاورين . ويتألف جنودهم من أتراك وعرب وتتر مع بعض مسلمي سورية وبعض المرتدين ، من نصارى ويهود من مختلف الأمم . . . . . »

ويقوم فريسكو بالدي بعدئذ بوصف الفيلة والزرافات التي رآها في القاهرة ثم يتابع كلامه :

وتكون مدينة القاهرة ، العاصمة الامبراطورية ، غنية بالسلع من كل نوع ولاسيما بالسكر ، وبالتوابل ، وبالأكلات من كل صنف ، وفيها ١٠٠٠٠٠ نسمة لا يملكون بيوتا ، وينامون ليلا في العراء ، كما أن هناك عددا كبيرا من الناس ينهمكون في أداء خدمات من كل نوع مقابل أجر قرابة درهم يوميا ، مما يعادل تقريبا أربعة قروش وربع من عملتنا . وفي القاهرة هذه سكان يزيد عددهم على سكان اقليم توسكانيا كله ، وفيها شارع واحد أكثر سكانا ، من كل مدينة فلورنسة . ونصادف بالمدينة عددا كبيرا من الطهاة الذين يعملون ليلا ونهارا في الطبخ بالعراء ، في الشارع في قدور جميلة كبيرة من نحاس مطلي . ويجهزون أنواعا ممتازة من اللحوم . ولا يقوم أي حضري - مهما بلغ من الفنى بالطبخ في بيته ، وهذا هو الوضع الفعلي لكل المسلمين ، فيرسلون من يشتري لهم أقواتهم من « البازارات » وهو الاسم الذي يطلق على هذه المطابخ . وكثيرا ما يجلسون في الشارع على الأرض لتناول طعامهم بعد أن ينشروا بساطا يضعون في وسطه طست الطعام ويتحلقون من حوله على الأرض ، بعد طي سيقانهم على شكل متصالب ، أو على كعوبهم . .

ويدفع مسلمو البلاد بعض الضرائب النظامية لا يخضعون بعدها لأي رسم . بيد أن على اليهود والنصارى من كل طائفة أن يدفعوا ، فضلا عن المألوف ، دينارا عن كل رأس كل ثلاثة عشر شهرا قمريا . ويبدا نظام التاريخ من محمد ( عليه السلام ) (٤١) ، ويلتزم الناس في كل عام بصيام شهر قمري ولكن هذا التوقيت لا يعود دوما للفترة نفسها . .



ومساجدهم بيضاء كليا من الداخل ، وفيها عدد كبير من المصابيح المتقدة ،  
ومناراتها عالية دون اجراس ، ومحاطة بشرفة ، يقوم مشائخهم في كل ساعة من  
النهار والليل ، بثلاث دورات حولها وهم يدعون للصلوات (٤٢) . .

وفي ١٨ من الشهر ذهبنا لزيارة الامكنة المقدسة وكنائس القاهرة وبابلون .  
وكانت اول كنيسة رايناها هي كنيسة القديس توما الرسول التي تخص نصارى  
الزنار ، وهي كنيسة جميلة جدا ومقدسة والثانية هي كنيسة القديسة بارب  
Barbe ، وهي بدورها ، جليلة وبديعة ، حيث راينا جسد القديسة وهي رفات  
مؤثرة جدا . وكانت الثالثة كنيسة القديسة مريم الدرج eescalier والعمود،  
وهي كنيسة مقدسة جدا ومزدانة ويسرد الاهلون عنها عجائب كثيرة . . وفي هذه  
الكنيسة يتسلم نصارى البلاد ، مراتبهم من يد البطريك ، وهو الرئيس الاعلى لكل  
نصارى هذه الاصقاع ، ويقصدها الناس حتى من اليونان . ونصارى الزنار هم الذين  
يخدمون بالقداس فيها . والكنيسة الرابعة هي كنيسة مريم الكهف حيث مكثت  
العدراء مختفية فيها مدة سبعة اعوام خوفا من هيرود . وهذه الكنيسة هي اكثر  
الكنائس توقيرا في العالم . فقد شيدتها القديسة هيلانة ، والددة الامبراطور  
قسطنطين . . . وفي المكان الذي سكنت فيه سيدتنا نجد مصلى تحت الارض بهبط  
اليه بتسع درجات ، يماثل كهفا حجرياً . . وقد كان محراب سيدتنا ، واليوم يقوم  
مذبح مكانه وطلبنا من حارس جبل صهيون في القداس اقامة قداس امامه ، وهو  
راهب فرنسي صغير Mineur ، وشريف من البندقية ، اسمه نيكولا (٤٣) وهو  
رجل يتمتع بشجاعة كبيرة وبحياة قدسية . . وقد جاء ليطلب السماح بتأسيس دير  
للاخوة الفرنسيين في وادي جوزافات Josaphat حيث يقع ضريح مريم العذراء ،  
ولكنه لم يغز بهذا الترخيص مطلقا . ويقوم نصارى الزنار ، من اهل بابلون ، بخدمة  
هذه الكنيسة وبين القاهرة وبابلون اللتين تبعدان عن بعضهما اكثر من رمية سهم ،  
تقع كنيسة القديس مارتن ، مطران الاسكندرية ، حيث يحتفظ بجثمانه ، او بالاحرى  
برفاته ، مغلفة بكفن من حرير ، وقد احتضناه بأذرعنا . وقد دفنت في هذه الكنيسة  
ملكة ارمينية التي ماتت في الاسكندرية ، عندما كان زوجها أسير السلطان (٤٤) ، ويقوم  
النصارى الارمن على خدمة الكنيسة .

وقد اقمنا بضعة ايام في المدينة لتأدية عبادتنا ، ولزيارة طرائف المناطق المجاورة  
مثل انبار فرعون وبيت موسى ( عليه السلام ) وللتموية بقصد رحلتنا عبر الصحراء  
نحو ارض الميعاد . وكثيرا ما كان يزورنا الترجمان الاكبر بالبيت الذي تقطنه ويتناول  
الشراب معنا . . وكان فيه العديد من طير اليمام ، حتى في غرفتي ذاتها حيث كان لها  
فيه ثلاثة اعشاش ، وكانت هذه اليمامات المستأنسة ذات حجم يعادل حمام بلادنا ،



وكانت كلها أهلية شأن طير الحمام لدينا . وللسلطان العديد من الموظفين ، ولما كان يود سماع الاخبار فقد كان يتسلم ، في كل نصف ساعة ، في القاهرة ، رسائل تردده من الاسكندرية بوساطة الحمام ....

« وفي البلاد عوز شديد لخشب البناء . وللو قود تستعمل أوراق النخيل ، اي السعف ، وقفف الحبوب ، وكذلك روث الابل المزوجة بالفبار وبفضلات أخرى . ويكون الخبز رديء الشواء ، ولكنه ابيض كالحليب ، لان لديهم قمحا رائعا ... » .

أما سيمون سيفولي ، صاحب فريسكو بالدي ، فقد دبح ، بدوره رواية ايطالية عن رحلته . وقد نشرت مع روايتي فريسكو بالدي ورواية غويكشي دي رينو بجهود كارلو كار غيولي (٤٥) وفيما يلي بعض فقرات منها :

« ... وتكون نيا ب المسلمين دائما من القطن الشديد النعومة حتى ليتصور اليه انه من حرير . وهناك من تسعفهم امكاناتهم فيكتسبون بقماش من حرير ابيض . ويلبسون ثيابا طويلة وعريضة تغطي الظهر وتسدل حتى الاقدام ، وذات اكمام طويلة جدا وعريضة جدا شبيهة بكتونات الرهبان . ويعتمرون فوق الرأس بقلنسوة ذات قمة حادة ويلفون الرأس والقلنسوة بقماش من كتان ناعم للغاية طوله خمسة وعشرون أو ثلاثون ذراعا . كما يحملون ايضا قطعة أخرى من الكساء وهي نوع من وشاح يتدلى من الخلف ، يماثل الوشاح الذي يضعه الشماس عندما يساعد الكاهن في القداس الكبير ويحمل كلهم تقريبا ، وعموما فوق اليد ، أو فوق الكتف ، منديلا مقلما من قطن مصبوغ .

ويلتزم المسلمون في كل السنوات بصوم يبدأ في أول شهر قمري من العام ، ويقع في شهر أيلول ( كذا ) ، والذي يدوم ثلاثين يوما . ويظلون طول النهار دون طعام أو شراب ، وثم في المساء ، عندما تظهر النجوم في المساء ، يأخذ كل واحد منهم بأكل اللحم وكل ما يروق له ، يأكلون طيلة الليل ... (٤٦) وفي نهاية الايام الثلاثين ، وعندما يرون الهلال الجديد ، ويحتفلون بعيد كبير جدا . ويجتمعون في اكبر ساحة في المدينة ، وعندها يأخذ بعضهم بقرع الطبول ، والنقر على الدفوف وآخرون ينشدون ايضا ، ويرقصون ويأكلون ويلعبون بالصنج ، في حين يرفع البعض أوزانا ضخمة بقوة اذرعهم ، وتستمر هذه الافراح مدة ثمانية أيام وتمتد شطرا كبيرا من الليل . ويظل كل طهارة المدينة ، خلال شهر الصوم ، في دكاكينهم طيلة الليل منهمكين في بيع اللحيم والإطعمة الأخرى لأن المسلمين لا يطهون الطعام في منازلهم أبدا .



وفي خارج القاهرة أو على مسافة عشرة أميال تقع أنبار فرعون . . .

ولنتكلم الان عن جمال ونبل القاهرة ، وعن عظمتها وعن كثرة السكان الذين يسكنون فيها ، وعن عاداتهم وعن جلال السلطان :

يتجاوز طول القاهرة اثني عشر ميلا ، ومحيطها نحو ثلاثين ميلا . وهي ليست محاطة بسور ، بيد ان النيل يجري على طرفيها ، ويكون الطرف الثالث محفوقا بخندق . وتلعب بيوت السكن العالية جدا دور الاسوار . وقد روى لي نصراني اسمه سيمون من كانديا (٤١) والذي كان وجوده هنا لعقد صفقات تجارية ، ان المدينة تحوي اكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، يكون اكثر من خمسين ألف منهم دون بيت ولا يستترهم سقف يتظللون فيأه وينامون في الليل فوق دكات لان المطر لا يهطل ابدا في القاهرة ويكون الطقس فيها شديد الحرارة جدا (٤٧) . وهناك من ناحية اخرى اكثر من عشر آلاف رجل من العراة باستثناء فوطة حول خصرهم . وقد روى لي هذا التاجر نفسه انه خلال طاعون ١٤٧٣ هلك بالقاهرة العديد من الناس أو ١.٥٠٠ شخص في ثلاثة ايام . وتصور الوضع في مثل هذه الحال ، حيث كان يموت فيها عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف أو ستة عشرة ألف واكثر ، تارة اكثر ، وتارة اقل ، الذين اهلكهم هذا الطاعون الذي استمر قرابة ثمانية أشهر .

وفي المدينة غزارة كبيرة في البضائع من كل الانواع ، ولا سيما التوابل من كل صنف ، تأتي في المحيط الى البحر الاحمر من قطري الهند (٤٨) لتفرغ في مرسى القديسة كاترينا (٤٩) الذي يقع على مسافة خمسة عشر ميلا تقريبا عند حضيض جبل سيناء . وهناك الكثير الوافر من السكر ، الابيض كالثلج ، وانقاسي كالحجر ، وهو افضل سكر بالدنيا . وبعد ان تفرغ البضائع في الميناء المذكور ، تحمل على ظهور الابل على الطريق الصحراوي حتى القاهرة ، مما يؤلف رحلة تمتد على ثلاثة عشر يوما لا يرى خلالها اي بيت أو سقف ، ولا يظهر سوى الجبل وسهل الرمل المغطى بالحجارة وبالحصباء .

« في مساء الأربعاء ١٩ منه وصباح الخميس ، خرجنا من القاهرة مع كل متاعنا ، وحميرنا وجمالنا ، لمتابعة رحلتنا نحو القديسة كاترينا » .

« وعلى مقربة من القاهرة ، وعلى مسافة ميلين ، على الطريق المباشر نحو دير القديسة كاترينا ، شاهدنا الكثير من الاشياء المذهشة ، واولها نبع من ماء غزير . وهو



عين جميلة جدا ذات مياه رائقة وطيبة ، مقسومة بجدار حيث تشكل ساقيتين احدهما بجانب الاخرى . وقد شيد السلطان فوق النبع بناء جميلا وكبرا على هادتهم هناك . وهنا يقع بستان السلطان وهو واسع جدا وغاية في الجمال ، مليء بالنخيل والاشجار المثمرة ، وفيه ينتج البلسان الذي لا ينمو في أي مكان آخر . ويعتني بالبستان ويحرسه عدد من الموظفين والمستخدمين يعينهم السلطان ، ويقومون بتسجيل محصول البلسان . ويحرص السلطان على ذلك ويتخذ التدابير كيلا يفقد شيء من المحصول . ويقال أن سيدنا المسيح هو الذي فجر هذا النبع بقدمه بناء على توسل أمه (٥٠) عندما هربا من سورية الى مصر مجتازين صحراء بلاء ماء . وكانت سيدتنا عطشى فطلبت من وليدها أن تشرب ، وعندها ضرب المسيح الارض بقدمه وفي هذا النبع قامت سيدتنا مريم بفصل أقمشة وليدها ونشرتها لتجف فوق شجيرات البستان ، التي غدت بعدئذ تنتج البلسان الشافي .» .

### الحواشي :

وتتلاصق وان كانت جميعها دون اسوار ولا تحصينات دفاعية ، الى أن قدمت جيوش المغاربة الفاطميين الى مدينة «الجيزة» الواقعة على الضفة النيل الغربية ، في مواجهة تلك العواصم الاسلامية الثلاث التي تقع جميعها على الضفة الشرقية القديمة . وفي ١٦٦٩/٦/٦م استولى جوهر الصقلي على العواصم الثلاث . ورابطت القوات الغربية في الارض الخلاء الواسعة التي يشرف عليها جبل المقطم في الشرق ، ويحدها من الغرب قناة متفرعة من النيل تحمل اسم « الخليج المصري » كانت تصل بين العواصم المصرية الاسلامية وبين مدينة القلزم ( السويس حاليا ) على البحر الاحمر . وهذه القاهرة دعيت «قاهرة المعز لدين الله» . مؤرخ الحروب الصليبية . ولد في سوريا حوالي ١١٣٠م ومات في ١١٨٦ وكان بطريرك صور وقد ترك حوليات عن الشرق اللاتيني في القرن ١٢م .

والتي سموها فعلا « بابيلون الجديدة » لتمييزها بوجه الدقة عن بابل الاشوريين الشهيرة برج بابل .

(١) لقد جرى جمع هذه النصوص قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كي تكون مساهمة في كتاب كانت « الجمعية الجغرافية الملكية » في مصر تزمع اصداره في ١٩٤١ بمناسبة العيد الالفي لتأسيس القاهرة . ولكن الظروف حالت للأسف دون نشر الكتاب المذكور ، الذي أخذ المسيو هنري مونييه ، والمسيو غاستون فييت ، من علماء الاثار المصرية ، على عاتقهما مبادرة الاشراف عليه .

(٢) من المعروف أنه كانت هناك عواصم اسلامية متعاقبة قبل القاهرة . ففي سنة ٦٤٠م دخل العرب الفاتحون مصر بقيادة عمرو بن العاص الذي اقتحم بقواته « حصن بابلون » حيث كانت ترابط القوات البيزنطية . وعلى مقربة من هذا الحصن المنيع الذي يقع حاليا في حي « مصر القديمة » أنشأ عمرو مدينة « الفسطاط » لتصبح أول عاصمة لمصر العربية . وفي سنة ٧٥٠م استولى العباسيون على مصر وأنشأوا عاصمة جديدة سموها « مدينة المعسكر » . وكانت هذه العواصم الثلاث متقلوبة ، فكاد حدودها تتداخل



عشرة ذراعا والذي يكون من المعتاد ان يرتفع  
الماء حتى سويته .

اي كل الدلتا .

كانت السمنة من مظاهر الصحة الجيدة ،  
وحتى عهد قريب منا كان يقال : « كرش  
الوجاهة » .

الفرسخ ٤ كم .

اي الاهرام . وكان يعتقد انها عنابر لتخزين  
الحبوب تحسبا للمجاعات الدورية .

يحفل التاريخ بالحكام الذين استنجدوا  
بالعدو للتشبيث بكراسيهم ، اليس امرؤ  
القيس من اوائهم عندما قصد قيصر بيزنطة  
للاستعانة به على مفتصي كرسيه في قلب  
الجزيرة العربية ، ويفص تاريخ الاندلس  
بمثل هذه التحالفات المشينة التي قادت  
لخروج العرب من شبه الجزيرة او صهرهم  
بمحاكم التفتيش .

ترجم للفرنسية في القرن ١٢ تحت عنوان  
« كتاب فتح الارض المقدسة » او « تاريخ  
هرقل » . نشر دار بولاق . باريس ، لدى  
دار فيرمان ديدو ١٨٧٩ . وعمل غليوم  
الصوري في فترة ١٠٩٥ - ١١٤٣ اعتمادا على  
مؤرخين سابقين ، ولكن للفترة ١١٤٣ حتى  
١١٨٤ وهي سنة وفاته ، فقد كان عمله  
ذا أصالة .

نشره بونفراس . هانوفر ، سنة ١٦١١م .  
وهذا خطأ من جانب الكاتب .

هذه الشهادة مدعاة للفخر عن التسامح  
العربي بالموازنة مع مذابح القدس عند  
دخول الفرنجة وما كان يفعله متعصبوا  
الاسبان بالاندلس من تذيبح وتهجير ومحاكم  
تفتيش تقشمر لفظاعتها الابدان .

جرى املاء هذا الكتاب بالفرنسية ، ولكنه  
ترجم الى اللاتينية في ١٣٠٧ ، واعيدت  
ترجمته الى الفرنسية ، ونشره بيير برجيرون  
في كتابه « رحلات تمت خاصة في الشرق »

(٥) لقد تمت ترجمة هذا النص عن الانكليزية بقلم

الكان فالتان أدلر « الرحلة اليهودية » . لندن

١٩٢٠ ، ونقابله نحن مع ترجمة أقدم للحصول على

بعض التفاصيل ، وهي ترجمة بيير برجيرون .

عنوانها « رحلة بنيامين الطليطلي » في رحلات

تمت في اسيا بشكل خاص خلال القرن ١٢ ،

١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، مع مقدمة بقلم بيير

برجيرون ذاته . لاهاي ١٧٨٥ .

(٦) احد انهار الجنة الارضية الاربعة ، كما

جاء في سفر التكوين وهي : النيل والفرات

وسيحون وجيحون .

(٧) يبدو هذا الرقم مبالغا فيه ، لان برجيرون

يقول : ٢٠٠٠ نسمة لا غير .

(٨) اي يعقوب عليه السلام ونسله .

(٩) اي هيكل السوريين او الفلسطينيين .

(١٠) ويقول برجيرون ان الكنيس الثاني يدعى

غيرهاكوم .

(١١) حسب ترجمة برجيرون : « ثائثائل ، هو

رئيس المجمع ، ويرأس كل جامعات مصر ،

وهو الذي يعين الاساتذة وكذلك مديري

املاك الكنس » .

(١٢) زوان اسم عبري لمدينة تانيس Tanis

القديمة وتدعى اليوم صان الحجر في مصر

السفلى .

(١٣) نسبة الى الامام علي ابن عم الرسول

(صلعم) وصهره ، والذين ينتسبون للشيعة .

اما برجيرون فيقول : يطلق على السكان

اسم « مورديم » اي المتمردين .

(١٤) يقول برجيرون : لقد اقام الاول بلاطة في قصر

زوان الذي يستحقه اكثر بسبب موقع المكان ،

اي قلعة صلاح الدين .

(١٥) أي عيد الفطر . .

(١٦) ذلك هو مقياس النيل nilomètre

في جزيرة الروضة . ويقول برجيرون : « لقد

حرص القدامى على اقامة عمود ، في الجزيرة

التي يشكلها النيل ، يزيد ارتفاعه عن اثني



- (٢٨) وتحت عنوان « التاريخ الشرقي » أو تاريخ  
لغريهاتون . نسب ملك ارمينية والذي يضم  
اولا : وصف موجز ولطيف لبضعة ممالك  
وبلاد شرقية ، حسب الوضع الذي  
(٢٩) كانت عليه حوالي العام ١٣٠٠ ، ثانيا :  
(٤٠) رواية الكثير من الامور الهامة التي انتابت  
شعوب هذه البلاد واممها وقد تمت كتابة  
المجموع بيد نيكولا فالكون ، وترجم حسب  
النص اللاتيني من قبل آندرية موللر  
غريفنهاج .
- (٢٧) تسمد بالظمي .
- (٢٨) كتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن  
الخطاب يصف مصر : « حتى اذا بنت سقاء  
من قوته الندى وغداه من تحته الثرى وبعد  
(٤٢) ان كانت الارض غيرة سوداء تصبح وبر جدة  
خضراء فتعالى الله الفعالم لما يشاء » .
- (٢٩) « حج الراهب الاوغسطيني جاك دوفرونا »  
نشر رينهولد رويخرنشيت في مجلة « الشرق  
اللاتيني » عام ١٨٩٥ . وفيرونا مدينة قرب  
البندقية على نهر الاديج (٣٧٥٠٠٠ نسمة ) .
- (٣٠) وهنا يخلط المؤلف بين النيل و « الخليج »  
وهي ترعة تجتاز القاهرة .
- (٣١) وهو الجير في مصر والشيد في فلسطين .
- (٣٢) أي في القاهرة وحاليا اكثر من ٢ مليون .
- (٣٣) نشر كارلو مورد كشيني . روما ١٩١٨ .
- ٢٤١ Resette ؟ اورشيد .
- (٣٥) وهو برقون الذي حكم من ١٢٨٢ و ١٣٩٩م  
وكان شركسيا ، اذ كانت تطلق عبارة بلاد  
اليونان على كل الاقطار التي تدن  
بالارثوذكسية .
- (٣٦) ميناء على الادرياتيكي ، عاصمة اقليم  
ماوش ١١٠٠٠٠ نسمة .
- (٣٧) أي باتجاه الصيد ، او باتجاه المنبع أو  
amont بالفرنسية upstream  
بالانكليزية .
- (٢٨) وجاء اسمه من اسم بلاد بلخشان ، قرب  
سمرقند ، حيث كان يسخر هذا الصنف  
من الباقوت .
- (٢٩) يقصد الاهرام .
- (٤٠) كان السلاطين من بعد برقون يسكنون دنناير  
ذهبية . فقد أصدر السلطان فرج الدينار  
الناصري والمؤيد المؤيدي ، وبرسباي الدينار  
الاشرفي . وتلك الدنانير طليعة القطع  
الذهبية المصرية .
- (٤١) ربما يريد ان يقول من هجرة الرسول  
(الترجم) .
- (٤٢) ويظهر هنا جهل فاضح لان الاذان خمس  
مرات وليس أربع وعشرين مرة .
- (٤٣) ويذكر غوكشي دي دينو ان رجل الدين هذا  
يدعى نيكولا داكورينو ، وانه كان بندقيا .  
ولد في كاندي في كريت التي كانت من ممتلكات  
البندقية ، وهو حارس القدس .
- (٤٤) وهي زوجة ليون السادس دو لوزيتيان ،  
آخر ملك في منطقة كليكيا الارمنية ، وقد  
اقتيدت مع زوجها بعد سقوط سيسعاصمة  
مملكته في ايدي قوات السلطان في عام  
١٣٧٥ .
- (٤٥) دار فيرنزة سنة ١٨٦٢ .
- (٤٦) عاصمة كريت واسمها الحالي هيراكليون على  
الساحل الشمالي وسكانها ٧٨٠٠٠ نسمة  
ليس من المستغرب ان ينفي الاجانب عن  
القاهرة ظاهرة المطر لانهم لم يصدف كما  
يبدو ان زاروها في الشتاء لان معدل مطرها  
السنوي يعادل ٢٥ مم .
- (٤٨) أي الهند والهند الشرقية (اندونيسيا) .
- (٤٩) ميناء الطور .
- (٥٠) وهنا مقاربة مع قصة انجاس مياها زمزم  
تحت قدمي اسماعيل عليه السلام على اثر  
شدة الظما الذي اشتكى منه واهه هاجر  
زوجة ابراهيم عليه السلام .



## في التاريخ الاجتماعي

### نظرة في بعض وثائق عقود الزواج من القرن الثالث الهجري

د. فالح حسين  
الجامعة الاردنية

تعتمد هذه الدراسة على بعض وثائق عقود الزواج التي عثر عليها في مصر ، والتي تعود الى فترة مبكرة نسبيا هي القرن الثالث الهجري، واحداها تعود الى القرن الثاني، وقد عثر على أغلبها بصورة جيدة وبعضها شبه كامل . وفي دراستها محاولة لتوضيح فكرة بعض شروط الزواج من خلال ما أوردته وثائق هذه العقود . ولن يتركز الاهتمام في بحث ما هو صحيح أو خطأ ، بل تصوير حالة اجتماعية من خلال الشروط الواردة . بغض النظر عن الآراء الفقهية سواء توافقت مع الشروط أو تعارضت معها . أي أن البحث غير معني بفكرة الافتاء أو البحث عن المسوغ للشروط فهذا أمر متروك للفقهاء ، ولكن الشروط تعني بنفس الوقت حقيقة مرونة التطبيق بغض النظر عن صحة أو عدم صحة الشرط ، فالاصل في النظم الاجتماعية هو الواقع العملي .

هنا نجد الحديث عن المهر المؤجل والمهر المعجل ، كما نجد تحديد قيمة المهر وكيفيه دفع المؤجل منه . فالمهر المؤجل يعني هنا ما نفهمه اليوم بمبدأ تقسيط المهر وهو أمر غير معروف عند المسلمين اليوم في التطبيق إذ أننا نستطيع أن نقول وبوضوح أن الغاية من المهر المؤجل كما تدل نصوص الوثائق التي بين أيدينا هي تسهيل عملية الدفع على الزوج حفظا لحق محدد للزوجة في مهرها ، أي كأنه تأجيل لدفع دين استحق للزوجة على الزوج بشكل لا يقبل أي تفسير آخر ، إذ تحدد الوثائق الاقساط كما تحدد مواعيد الدفع ، وبالتالي يتوضح الهدف أو القصد الذي من أجله أجّل قسم من المهر - المهر المؤجل - والذي يختلف عما يفهمه أهل عصرنا اليوم من أن المهر المؤجل كما يقال لتقييد الزوج أو لضمان حق الزوجة في حالة طلاقها من زوجها ، بينما هو في الوثائق لتحديد حق واجب الدفع مع استمرار رابطة الزواج ولا علاقة له ( بالعقاب ) الذي يفهم من المهر المؤجل هذه الايام ، إذ يبدو أنه حق للزوجة تطالب به حالة الطلاق ، وكأنه عقاب للزوج عند طلاقه زوجته .

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



د. فالح حسين

ومن اللافت للنظر اغفال كثير من كتب الفقه الحديث عن المهر المؤجل وحكم التأجيل وسببه اللهم الا الاشارات التي وردت لدى مالك بن انس - امام اهل المدينة - في المدونة الكبرى (١) .

ونجد أيضا في وثائق العقود بعض الشروط التي تحدد العلاقة بين الزوج وزوجته في حالة زواجه من زوجة أخرى ، وشروطا حول العلاقة بين الزوجة وأهلها على سبيل المثال ، كما نلاحظ كثرة عدد الشهود أحيانا .

ولا شك ان الاسلام نظر الى الزواج والعلاقة الزوجية نظرة احترام وتقدير وشجع على اقامة هذه العلاقة على اساس المودة والرحمة المتبادلة قال تعالى « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢) . وحث على ان تكون العلاقة علاقة معروف وفي حالة تعذر ذلك اباح التفريق بين الزوجين « فامسك بمعروف او تسريح باحسان » (٣) .

ومن شروط عقد الزواج المهر او الصداق الذي جعل حقا مخصصا للزوجة ، زاد او نقص ، قال تعالى « واتوا النساء صدقاتهن نحلة » (٤) وبين لسان العرب معنى كلمة نحلة انها فريضة او ديانة او عطية او هبة ونحل المرأة مهرها تقول أعطيتها مهرها نحلة اذا لم ترد منها عوضا ، اما كونها فريضة او ديانة كقولنا ينتحل كذا وكذا اي يدين . وقيل نحلة أي دينا او ديانة ( وقال بعضهم هي نحلة من الله لهن ان جعل على الرجل الصداق ولم يجعل على المرأة شيئا من الفرم فتلك نحلة من الله للنساء أي فريضة او هبة ) فهي هبة من الله للنساء وفريضة لهن على الأزواج (٥) .

كما اشترط الاسلام نكاح النساء باذن اهلن ، قال تعالى « فانكحوهن باذن اهلن واتوهن اجورهن بالمعروف » (٦) ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نكاح الا بولي » (٧) ورأى كثير من العلماء ان في الآية الكريمة « وانكحوا الايامي منكم » (٨) شرطا من شروط الولاية لان الخطاب كان للرجال دون النساء بتولي النكاح (٩) .

وللاطلاع على بعض ما ورد من شروط في وثائق عقود الزواج نثبت الوثيقة التالية بنصها الكامل وهي تعود الى ربيع الاول سنة ٢٥٩ هـ .

١ - بسم الله [ الرحمن الرحيم ]

٢ - [ هـ ] هذا ما اصدق اسـ [ معيل مولى احمد ] بن مروان القرشي بمدينة اشمون عايشه



٣ - [ابنت يوسف النسا] كنة بمدينة اشمون عندما خطبها [ا] الى نفسه  
وه [ي ا] امرأة ايمم بالغ بعد ان فو [ضت] .

٤ - [ام] - سرها الى جده [ا يعقوب] بن اسحق ال [و] واشهدت له شهود ؟

٥ - بتوكيلها اياه فقبل وك [الله] ا وانفذ [نكاحها واصدقها] ا اسمعيل مولى

٦ - [١] حمد بن مروان القرشي اربعة دنائير مثاقيل طرا (١٠) جواد وازنة  
يعجل بها

٧ - [١] سمعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجلا ويبقى لها [يشة] ابنت يوسف

٨ - على زوجها اسمعيل مولى احمد بن مروان دينرين مؤخرين الى [خسة] ؟  
سنين

٩ - اولهم ؟ شهر ربيع الاول سنة تسع وخمسين وما يتين وشرط اسمعيل مولى

١٠ - احمد بن مروان لامرته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة .

١١ - كما امر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على

١٢ - الامساك بالمعروف او التسريح بالاحسان وشرط اسمعيل .

١٣ - مولى احمد ان كل امرأة يتزوجها على امراته عايشة ابنت يوسف .

١٤ - [ثقام] تلك المرأة بيد عايشة تطلق كيف ش [ات] من الطلاق .

١٥ - وولي عقدة هذا النكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وانفذ

١٦ - النكاح ورضي اسمعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط المسماة ؟

١٧ - في هذا الكتاب والزم نفسه في صحة عقله وبدنه وجواز

١٨ - امره لا علة به من مرض او عرة في شهر ربيع الاول سنة تسع

١٩ - وخمسين وما يتين وش [هد على] ذلك (١١) .

ومن النص السابق يبدو جليا :

١ - ان الرجل خطب المرأة الى نفسه وهي ( امرأة ايم بالغ ) ثم فوضت امر  
زواجها الى جدها وهو وليها ، ( والايمن من النساء التي لا زوج لها بكرا كانت او  
ثيبا ) (١٢) مع ان مالك بن انس اورد في الموطأ حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قال ( الايمن احق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها واذنها صمتها ) (١٣) مما



يشعر ان الايم تعني الثيب وهي التي احق بنفسها في حين ان البكر تستأذن قبل موافقة وليها . وفي الوثائق وردت عبارة ( ايم بالغ تلي نفسها ) (١٤) ، ( ايم بالغ بكر ) (١٥) .

مما قد يشعر أن عبارة ايم كانت تستخدم للثيبات ، خاصة مع ورود عبارة ( تلي نفسها ) في وثيقة رقم (٤٠) السابقة ، ويرى الطحاوي ان من شروط العقود مع النساء ان يكتب عند ذكرها في الشهادة ( وهي امرأة بالغ ) لان البلوغ مما يخطيء عند النساء ( لخفض أمور النساء فيه ) (١٦) فهو اذن لم يتطرق لكلمة ايم ، بكر ، ويبدو لنا أن ورود كلمة ايم هنا لا يقصد بها تحديد البكارة أو الثبوبة بل لتقرير ان المرأة لا زوج لها لان التأيم ، ( المكوث من دون زواج للرجل أو المرأة والايم من النساء البكر والثيب اذا لم يكن لها زوج ) (١٧) في حين أن الثيب هي التي تزوجت وفارقت زوجها لاي سبب وهي بهذه الحالة عكس البكر وهي التي لم يسبق لها الزواج (١٨) وفي كلتا الحالتين البكر والثيب فانها لا تزوج نفسها بل يزوجها وليها . وذكر مالك بن عمر بن الخطاب ( لا تنكح المرأة الا باذن وليها أو ذي الرأي من أهلها أو السلطان ) (١٩) .

وبينا فيما سبق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لا نكاح الا بولي ) اي أن المرأة لا تزوج نفسها على كل حال ، وهذا ما نجده فعلا في الوثائق التي بين أيدينا (٢٠) وفي حالة عدم وجود الولي من أب أو أخ أو جد أو من يتولى من عصبة المرأة تزويجها فان القاضي نفسه كان يعلن ولياً للزوجة . وهذا يذكر بما رواه مالك عن عمر بن الخطاب أنفا (٢١) لكننا اضافة لذلك لدينا ما يثبت ذلك وثائقيا فقد جاء في عقد زواج يعود لفترة متأخرة نسبيا سنة ( ٤٦١ ) هـ ما يلي : -

( وولي تزويجها اياه بذلك الشيخ ابو الفضل العباسي بن هبة الله بن عفيف بامر القاضي أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الرحمن خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله على الحكم والصلاة والخطابة والقضاء والمظالم بمدينة اشمون وأعمالها . . ) (٢٢) . ونجد في احدى الوثائق (٢٣) ما يشعر لاول وهلة وكأن الزوجة كانت تلي نفسها اي أنها زوجت نفسها بنفسها دون ولي . ويظهر ذلك من وصفها سطر ٣-٤ ( وهي اذ ذاك امرأة بكر بالغ تلي نفسها ومالها ) ولكن متابعة النص تبين بوضوح أن والدها هو الذي تولى تزويجها وورد ذكره ( القاسم بن عبيد الله الولي ) سطر ١٠ ووردت وكالتها بشكل أوضح سطر ١٣ ( على اقرار رحمه ابنه قاسم ورضاه بوكالة قاسم بن عبيد الله يزوجه من عبد الله بن محمد الزوج ورضاه بالو[ك]الة بها ) ولذلك يفترض فهم العبارة الاولى بمعنى أن لها حرية التصرف بمالها وشخصها أي ان لها استقلاليتها الشخصية والمالية تتصرف دون قيد من أحد ، لان الفهم انها ولية نفسها بشأن الزواج مناقض لما هو معروف في عقود الزواج الاخرى .



٢ - حدد المهر بأربعة دنانير المعجل منه والمؤجل وكان المؤجل نصف المهر ، وقد حددت المدة المؤجلة هنا بخمس سنين ( سطر ٧-٩ ) . ونجد مثل هذا التحديد في بقية الوثائق دون التقيد بالمدة نفسها اذ الاجل يتفق عليه ، اما عن فترة التأجيل فقد تصل الى عدة سنوات ولكنها قد تقتصر لبضع ليال . فقد ورد في احدى الوثائق ان دفع المؤجل عن المهر وهو ثلاثة دنانير يجب ان يتم دفعه في خمس ليال متعاقبة ابتداء من تاريخ عقد الزواج في حين ان المعجل من المهر دينار واحد من أصل مجموع الصداق وهو أربعة دنانير ( وأخرت الثلاثة دنانير الباقي مهرها عليه الى انقضى ( خمسة ) ليلى / متواليات أولهن تاريخ هذا الكتاب ) (٢٤) .

ويبدو ان هذه الحالة استثنائية ، خاصة وان الرجل كان قد استرجع زوجته بهذا المهر بعد ان كان قد طلقها طلقاء واحدة ( سطر ٥-٦ ) . وفيما يتعلق بقيمة المهر الصداق ، فنجدته مختلفا اختلافا بينا في وثائق عقود الزواج ، وقد ذكر مالك بن انس اقل المهور هو ربع دينار (٢٥) . وذكر السرخسي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( لا مهر في أقل من عشرة دراهم (٢٦) أي ان الحد الأدنى للمهر هو عشرة دراهم ويساويه دينار واحد في ذلك الوقت . وبالفعل فان قيمة المهر مختلفة بشكل واضح لان ذلك يرجع الى وضع الافراد ، واقل ما عثر عليه في الوثائق البردية كان دينارا واحدا في الوثيقة ( رقم ( P. Berol. 8217 ) ، ويبين جروهمان ، وهو اشهر من عمل في نشر الوثائق البردية العربية ، ان اقصى ما وقفت عليه من قيمة الصداق ما ورد في عقدي الزواج المحفوظين في دار الكتب المصرية تحت رقم تاريخ ١٧٣٥/٣ ، ١٧٣٥/٤ هو ٨٠ دينارا (٢٧) وفي اغلب الاحيان يدفع نصف المهر معجلا كما هو حال العقد الذي بين ايدينا (٢٨) .

٣ - اشترط الرجل على نفسه حسن الصحبة والمعاشرة على الامساك بالمعروف او التسريح بالاحسان كما يطلب الكتاب والسنة وهذا مقتبس عن الآية الكريمة (فامساك بمعروف او تسريح باحسان) (٢٩) .

٤ - أعطى الرجل ، الزوج ، شرطا على نفسه لزوجته أن يكون امر كل امرأة يتزوجها بعد زواجه منها بيد زوجته هذه ولها ان تطلقها اذا شاءت ، وهذا الشرط يتكرر في وثائق اخرى وبلهجة اكثر تحديدا ووضوحا ، اذ يشترط الزوج في وثيقة تعود لسنة ٢٧٩هـ على نفسه ان اية زوجة يتزوجها مسلمة كانت [ او ] ذمية فامرها بيد امراته هنيذة ابنت اسحق تطلقها عليه ما شاءت من الطلاق [جائز] عليه ولازم له وكل جارية يتخذها عليها . يكون بيعها بيد امراته هنيذة ان شاءت عتقت وانشاءت باعت فعتقها وبيعها جائز عليه ولازم له (٣٠) .



د. فالح حسين

وبجد مثل هذا الشرط ايضا في وثيقة تعود للقرن الثاني الهجري اي سابقة لهذه الوثيقة بجوالي القرن بشكل واضح مما يشعر ان مثل هذا الشرط كان متعارفا عليه من قبل اذ يرد في نص العقد ان الزوجة مريم بنت اسماعيل لها مثل هذا الحق ( فان تزوج عليها . . تزوجها عليها بيد امراته مريم ابنت اسمعيل ان شئت طلقت وان شئت امسكت . . السرية بيد امراته مريم بنت اسمعيل . . شئت باعت وان شئت وهبت وان شئت صدقت ) (٢١) .

وهذا الشرط يبدو متناقضا مع ما يذكره مالك بن انس في الموطأ عند حديثه عن شروط الزواج اذ يقول ( فالامر عندنا انه اذا شرط الرجل للمرأة وان كان ذلك عند عقدة النكاح ان لا أنكح عليك ولا اتسرر ان ذلك ليس بشيء الا ان يكون في ذلك يمين بطلاق او عتاقة فيجب ذلك عليه ويلزمه ) (٢٢) . ولكن اشارة مالك هذه تدل على رفضه لمثل هذا الشرط الذي يبدو انه كان معروفا في أيامه . ولكن وثائقنا لا تذكر اشتراط الرجل على نفسه وحسب بل تجعل امر النساء او السراري الاخريات بيد المرأة التي يذكرها العقد ، أي انه يذهب ابعد مما قصد مالك ويثبت في العقد .

٥ - يبدو ان المرأة هي التي تتولى القبض والابراء منه فيما يتعلق بتسليم المعجل او حفظ حقها من باقي المهر المؤجل وهذا يتضح من النصوص التي تبين اقرار الزوجة نفسها بالقبض ( اقرار أم علي زوجة جبريل بن جعفر أنها قبضت من زوجها جبريل . . . عن معجل صداقها وحازت وأبرأت زوجها . . . من هاذين ؟ الدينارين ) (٢٣) . ( شهد الشهود على اقرار قطامة ابنت نصر . . أنها قبضت من زوجها . . معجل صداقها ) (٢٤) . وهذا يوضح أن المرأة شخصا معنية بالقبض ولها يحفظ الحق المؤجل ويشعر ذلك بشخصية المرأة واستقلاليتها المالية .

٦ - يبين نص العقد مسؤولية الرجل ، الزوج ، عما في العقد وانه كان عندما ألزم نفسه بالشروط كامل الاهلية القانونية في الصحة والعقل والبدن ( في صحة عقله وجواز امره لا علة به من مرض أو عره ) سطر ( ١٧-١٨ ) .

٧ - ثم يحمل العقد التاريخ الذي كتب به وهذا نجده في جميع العقود دون استثناء .

٨ - خلو النص الذي بين أيدينا من الشهود لا يعني عدم وجودهم بل يفترض ذكرهم في ورقة منفصلة (٢٥) بل اننا نلاحظ المبالغة في ذكر أسماء الشهود أحيانا كما هو الحال في وثيقة عقد الزواج رقم ٣٩ لسنة ٢٦٤ هـ الذي يعدد أسماء وشهادات ستة



عشر شاهدا (٢٦) ، وفي وثيقة الزواج رقم ٤١ سنة ٢٧٩ وهو على الرق كان عدد الشهود خمسة وكتبت شهاداتهم بأيد مختلفة مما يشير الى ان كلاً منهم كتب شهادته بخط يده ، وهنا نود ان نذكر ان عبارة ( كتب شهادته ) أو ( كتب بخطه ) امر كثير الوجود في مثل هذه الوثائق (٢٧) .

٩ - وقد ترد في عقود الزواج شروط أخرى متعلقة بالعلاقة بين الزوجة وأهلها بعد الزواج مثل ( ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها ) وان لم يرد هذا الشرط في الوثيقة التي ذكرنا نصها هنا ، الا اننا نجده يتكرر في وثائق أخرى وفي وقت مبكر يسبق هذه الوثيقة ، ومثل هذا الشرط يحفظ حق الزوجة في استمرار علاقتها بأهلها في عقد الزواج ، وهي ليست حالة فردية لانا نجد مثل هذه العبارة متكررة وبنفس النص غالباً مما يشعر بتداول هذا الشرط غالباً (٢٨) .

وقد تحرر وثيقة منفصلة عن عقد الزواج ( براءة ) تعترف بها المرأة بما وصلها من زوجها من مهر معجل أو بما قبضت من المؤجل لاحقاً . وفي هذه الحالة يتبين لنا ان مثل هذا الاقرار كان يكتب على نسختين كما يبدو من المثال التالي : -

- ١ - نسـ[خ]ت .
- ٢ - بسم الله الرحمن الرحيم .
- ٣ - شهد من اثبت شهادته في آخر هذه البراءة على قرار ام عـ[ـ] زوجة جبريل بن جعفر الجدي انها
- ٤ - قبضت من زوجها جبريل بن جعفر دينارين مئاقيل ( طري [جيا]د عن معجل صداقها وحازت - وابـ[ر]ءت ؟ زوجها جبريل بن جعفر
- ٥ - من هذين الدينارين براءة قبض واستيفا وذلك في رجب من سنة سبع وتسعين ومايتين شهد على ذلك .... (٢٩) .

وتمثل مثل هذه الوثيقة مدى استقلالية شخصية المرأة الاجتماعية والمالية حيث كتبت البراءة باسم المرأة واقرارها لاثبات حق الزوج بالدفع واقرار زوجته بالقبض بشهادة الشهود ، كما تبين بشكل واضح ان البراءات ( الصكوك ) الخاصة كانت تكتب على نسختين يحتفظ كل من طرفي العقد بنسخته الخاصة (٤٠) ويبين الطحاوي في كتاب الشروط الصغير الذي يمثل اقدم ما وصلنا في فقه الشروط اي توثيق المعاملات والعقود ان مثل هذه الكتب تبدأ ب ( هذا ما شهد عليه الشهود المسمون في هذا الكتاب ) (٤١) .



#### د. فالح حسين

ثم ينسق الكتاب حتى يؤتى على تاريخه . اي ان هذه العبارة ترد في صدر الكتاب قبل النص ، والطحاوي قريب جدا بل هو معاصر لتاريخ كتابة هذه النصوص التي بين ايدينا كما انه مصري ايضا .

وقد يكتب بالمبلغ المؤجل من صداق المرأة صك ( ذكر حق ) على زوجها وبهذا فانه يكسب شرعية الدين للمرأة على زوجها ، ويكتب منفصلا عن عقد الزواج كما في الوثيقة التالية :

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم .
- ٢ - ذكر حق يونة ابنت حليصي على زوجها يزيد بن قاسم
- ٣ - الجرار عليه عشرة الدنانير ؟ وزن المئاقيل الجديد عينا
- ٤ - ذهباً نقد جيد وهذا ؟ العشرة الدنانير ؟ حالة
- ٥ - ليونة ابنت حليصي على زوجها يزيد بن قاسم الجرار
- ٦ - والعشرة الدنانير ؟ بقية صداقها ومن قام بالذكر الحق
- ٧ - اقتضاه ومن احالت عليه اقر لها بحقها شهد على ذلك
- ٨ - اليسع بن عيسى وهو كاتب الصك وشهادته في انسلاخ
- ٩ - صفر سنة ثلث وثلثين ومايتين . . (٤٢) .

ثم تستمر الوثيقة بذكر الشهود وهم سبعة وعشرون شاهداً وقد كتبت بعض الشهادات في وقت لاحق سنة ٢٤٥ في شوال وذى الحجة ( سطر ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ) وبعضها كتب في نفس العام ولكن بتاريخ لاحق لتاريخ الصك ( سطر ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ شهر ربيع الاول ) ويبين الطحاوي صيغة كتابة وثيقة ذكر الحق عموماً كما يلي :

( ذكر حق فلان بن فلان الفلاني على فلان . . شهد على اقرار فلان . . يعني المطلوب وفلان . . يعني الطالب بجميع ما سمي ووصف في هذا الكتاب ثم تنسيق الشهادة عليهما ) (٤٣) .

وذكر الحق هو الصك والجمع ذكور حقوق ويقال ذكور حق أي صكوك (٤٤) . وأورد الطحاوي ضمن صيغ كتابة مثل هذه الذكور حق ( من قام بهذا الذكر حق فهو ولي ما فيه ) (٤٥) .



ومما يلفت الانتباه ان احدى وثائق عقود الزواج تحمل اسماء نصرانية (قبطية) لكلا الزوجين مما يحمل على الظن انه عقد زواج بين نصارى واذا كان كذلك فان النص يشبه الى حد كبير عقود الزواج الاخرى التي كانت عقود زواج اسلامية من حيث الشروط العامة للعقد كالمهر المعجل والمؤجل ووجود الولي كما نجد اشارة الى تقوى الله واحسان صحبة الزوجة ، ولكن ليس هناك اشارة ( لامر الله ورسوله او الى فكرة الامساك بالمعروف او التسريح باحسان مثلا وربما لان فكرة الطلاق عند النصارى غير وارده في ذلك الوقت ونرى من المفيد اثبات نص وثيقة العقد التي تعود لشعبان سنة ٢٧١ هـ .

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢ - هذا ما اصدق يحسن بن شنودة الساكن بمدينة اشمون دروا ابنت
- ٣ - شنودة الساكنة مدينة كذا عندما خطبها الى نفسها وهي امرأة ايم بالغ تلي
- ٤ - نفسها .. (.. فلان بن فلان البقال واشهدت له شهودا
- ٥ - بتوكيلها اياه في انكاحها ) ب فاصدقها اربعة دنانير
- ٦ - عينا ذهبيا لمراته قبل اصابته بها ودخوله عليها دينرين نقدا جياذ
- ٨ - خمس سنين متواليات اولهن شعبان من سنة احدى وسبعين ومايتين وعليه تقوا
- ٩ - الله وحده لا شريك له واحسان صحبتها وقد اوصل يحسن بن شنودة الدينرين
- ١٠ - المعجلين الى امراته دورا ( ابنت شنودة .. ) واقرت بوصولهما اليها وذلك
- ١١ - في العشر الاواخر من شعبان سنة احدى وسبعين ومايتين شهد على ذلك
- ١٢ - ..... (٤٦) .

ونستطيع ان نستخلص من الاستعراض السابق مايلي:

- ١ - ان المهر المؤجل كان في هذه الفترة بمثابة دين مؤجل للزوجة على زوجها ويفترض انه شكل نوعا من التسهيل على الزوج بالدفع خاصة واننا نجده مقسما دائما بشكل واضح .
- ٢ - ان المرأة كانت هي نفسها صاحبة الحق في المعجل والمؤجل من المهر وليس وليها فيصدر القبض والاستبراء منه عنها شخصا وهذا يعني الاعتراف العملي باستقلال شخصيتها ماليا واجتماعيا .



٣ - يبدو ان الزوج كان يخطب المرأة الى نفسها اولا ثم يتم توكيل الولي بعد موافقتها لاتمام الزواج تمثيا مع المبادئ الاسلامية.

٤ - ركزت بعض الشروط على عدم امكانية تحكم الزوج بعلاقة الزوجة مع أهلها بعد الزواج .

٥ - نجد من بين الشروط شرطا يعطي المرأة الحق في التدخل في حالة تعدد الزوجات او اتخاذ السراري وكأنه نوع من الحد من تعدد الزوجات .

٦ - هناك تشابه كبير بين نصوص عقد الزواج للمسلمين والنصارى في هذه الفترة.

ولا بد من التنويه في نهاية هذا البحث بان الدراسة التحليلية لهذه الوثائق لا يمكن ان تعطي الحكم النهائي في موضوع عقود الزواج وحقوق المرأة ودورها في حياة الاسرة بعمامة ، لان النصوص قليلة جدا وتتناول جانبا واحدا من الموضوع وقد يكون هناك سواها وفيه من المعلومات ما يوضح ما ورد فيها، او يخالفه او يعدله . كما ان في كتب الفقه الكثير مما لا بد من الرجوع اليه في هذا المجال بشكل عام . ولكننا حرصنا على عرضها وتحليل ما ورد فيها وما يعطيه من دلالات واشارات لايماننا بأهمية اعتماد النص المكتوب ، لا سيما اذا كان وثيقة أصلية في كتابة تاريخ امتنا السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري بعمامة .

### الحواشي :

- |      |  |
|------|--|
| (١)  | انظر : مالك بن أنس ، المدونة ج٢ ص ١٦٠ - ١٨٩ طبعة دار الفكر للطباعة والنشر، دون تاريخ ولم يتطرق له في الموطأ ، انظر : الموطأ، كتاب النكاح ج٢ ص ٥٢٣ - ٥٣٠ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٥ . وكذلك الشافعي في الام ج٥ كتاب النكاح ص ٣ وما بعدها ، تحقيق محمد زهدي النجار ، مكتبة الكليات الازهرية طبعة أولى ، القاهرة ١٩٦١ ، السرخسي ، المبسوط ج٥ باب المهور ص ٦٢ وما بعدها طبعة دار المعرفة ( أوفست ) ، ابن قدامة ، المغني ج٧ ص ٣٣٧ وما بعدها . دار الكاتب العربي ( أوفست ) بيروت، ١٩٧٢ ابن عابدين ، حاشية ابن عابدين ج٣ باب المهر ص ١٠٧ وما بعدها ، طبعة ثالثة - مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٨٤ . |
| (٢)  | سورة الروم (٢١) .  |
| (٣)  | البقرة (٢٢٩) انظر ( ٢٣١ ) .  |
| (٤)  | النساء (٤) انظر آية (٢٠) .   |
| (٥)  | ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نحل ج ١١ ص ٦٥٠ ( طبعة دار صادر - بيروت ) .   |
| (٦)  | النساء ( ٢٥ ) .  |
| (٧)  | سيد سابق، فقه السنة، دار الكتاب العربي بيروت ، طبعة ثالثة ١٩٧٧ ج٢ ص ١٢٦ . وقال رواه احمد وابو داوود والترمذي .   |
| (٨)  | سورة النور ( ٣٢ ) .  |
| (٩)  | سيد سابق ، فقه السنة ج٢ ص ١٢٥-١٢٦ .  |
| (١٠) | اي جديدة الضرب انظر جروهمان في أوراق البردي العربية ج١ ص ٧٥ .  |



- (١١) انظر جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ص ٧٢-٧٤ عقد زواج رقم (٢٨) يعود لسنة ٢٥٩ هـ وكتب العقد على ورقة بردي صفراء وهذا النص لا يحمل أسماء الشهود ويفترض ان شهادة الشهود دونت في صك منفصل وهذا امر معروف في بعض الوثائق البردية ، انظر جروهمان ج ١ ص ٧٧-٧٨ ولذا فهذا النص لا نقص فيه من نهايته ، وهو كما يبدو شبه كامل لم يفقد منه شيء .
- (١٢) ابن منظور - لسان العرب ، مادة ايم ج ١٢ ص ٣٩ .
- (١٣) مالك بن انس ، الموطأ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار احياء التراث العربي بيروت ١٩٨٦ ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .
- (١٤) جروهمان ، ج ١ ، ص ٨٥ عقد زواج سنة ٢٧١ .
- (١٥) جروهمان ، ج ١ ص ٨٨ عقد زواج رقم (٤١) سنة ٢٧٩ .
- (١٦) الطحاوي ، ابو جعفر احمد بن محمد ت ٣٢١ هـ .
- كتاب الشروط الصغير ، جزءان تحقيق روجي اوزجان مراجعة عبد الله محمد الجبوري ، نشر رئاسة ديوان الاوقاف ، سلسلة احياء التراث الاسلامي (١١) ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٤ ج ١ ص ١١ وجاء في احدي الوثائق وصف الزوجة انها ( ايم بكر بالغ ) انظر :
- Grohmann, Arabische Papyri aus den Staatlichen museen zu Berlin, Der Islam (22) 1934 p. 48.
- (١٧) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ايم ج ١٢ ص ٤٠ .
- (١٨) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثيب ، ج ١ ص ٢٤٨ ، انظر مادة بكر ج ٤ ص ٧٨ .
- (١٩) مالك بن انس ، الموطأ ، ج ٢ ص ٥٥٢ ، انظر الموسوعة الفقهية ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ طبعة اولى ١٩٨٦ وزارة الاوقاف - الكويت .
- (٢٠) انظر عقد زواج رقم ٢٠ مؤرخ بسنة ٢٦٤ ، جروهمان ج ١ ، ص ٧٩ عقد زواج رقم ٤٢ يعود للقرن الثالث الهجري ج ١ ص ٩٢-٩٣ .
- (٢١) انظر هامش رقم ٨ ( الصفحة السابقة ) .
- (٢٢) جروهمان ، اوراق البردي العربية ، ج ١ ص ١٠١ عقد زواج رقم (٤٥) سطر ١٢-١٥ .
- (٢٣) الوثيقة رقم (١٠) التي نشرها جروهمان ، في مجلة Der Islam عدد ٢٢ لسنة ١٩٣٤ بعنوان
- Arabische Papyri aus den Staatlichen museen zu Berlin p. 38.
- (٢٤) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ رقم ٤٥ ص ١٠٠-١٠١ الاسطر ٨-١٠ .
- (٢٥) مالك بن انس ، الموطأ ج ٢ ص ٥٢٨ .
- (٢٦) الرخسي ، المبسوط ج ٢ ص ٨١ .
- (٢٧) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ص ٧٦ يقصد هنا المهور المتداولة على النطاق الشعبي بين الناس ولا يقصد بها الحالات الفردية التي قد نجدها بين الخلفاء والامراء او سواهم مما لا ينطبق على الحالات الطبيعية في المجتمع اذ لا قياس على الاستثناء او على الحالات المقصودة هنا .
- (٢٨) وكذلك العقد رقم ( ٤٠ ، ٤٤ ، ٨٥ ، ص ٩٧ ) من المنشور في اوراق البردي العربية ج ١ وعقود اخرى مشابهة ضمن اوراق مجموعة برلين رقم ١٢٧٨٩ ، ٧٢١٧ انظر جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٢٩) البقرة (٢٢٩) انظر ايضا اية (٢٣١) النساء (١٩) الاحزاب (٤٩) .



اشمون انها قبضت من زوجها ( معجل صداقها  
الذي عقد به اليها) وتمود للقرن الثالث الهجري  
انظر الطحاوي ، ابو جعفر احمد بن محمد  
ت ٣٢١ - كتاب الشفعة من كتاب الشروط  
الصغير ج ٢ ص ١١٠٠ - ١١٠٢ وانظر ج ١  
ص ٤٥٥ ، ٤٦٤ . وهو جزءان تحقيق روي  
اوزجان مراجعة عبد الله محمد الجبوري ،  
نشر رئاسة ديوان الاوقاف ، سلسلة احياء  
التراث الاسلامي (١١) مطبعة الماني ،  
بغداد ١٩٧٤ .

انظر الهامش السابق .

جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١  
ص ١٠٦ - ١٠٨ رقم ٤٨ .

الطحاوي ، كتاب الشروط الكبير ج ١  
ص ٤٦٤ .

انظر الزمخشري ، جار الله ابو القاسم  
محمود بن عمر ( ت ٥٣٨ ) الفصل ، تحقيق  
عبد الرحيم محمود اوفست دار المعرفة ،  
بيروت ١٩٧٩ ص ١٤٤ . الزبيدي ، محمد  
مصطفى ، تاج العروس تحقيق عبد الكريم  
الغريباوي ، وزارة الاعلام - الكويت - سلسلة  
التراث العربي ( ح ١ ) ١٩٧٢ ط ١ ص ٣٧٩ .  
ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذكر ج ٤  
ص ٣١٠ .

الطحاوي ، الشروط الكبير ج ١ ص ٤٦٥  
وانظر الشروط الصغير باب اذكار الحقوق  
والرهون ص ٥٥ - ٤٦١ . قارن مع سطر  
٦-٧ من الوثيقة .

جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ص  
٨٥-٨٦ عقد زواج رقم ٤٠ سنة ٣٧١ هـ  
وهو مكتوب على ورقة بردي ( نود هنا ان  
نشر بوضوح ان الوثيقة او ناسرها لا تلمح  
الى كون الزوجين من النصارى وانما  
شجعنا على الظن على ما قلناه الاسماء  
النصرانية للزوجين وليس لدينا دليل واضح  
على ظننا الذي أقمناه على أساس عدم  
الاشارة الى سنة محمد (ص) او مسألة  
الاسماك بمعروف أو التبريح باحسان .

(٣٠) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١

ص ٨٩ عقد رقم ٤١ لسنة ٢٧٩ سطر ٨-١٠ .

(٣١) Grohmann, Arabische Papyri..

Der Islam, (22), 1934, p. 30-31.

(٣٢) مالك بن انس ، الموطأ ج ٢ ص ٥٣ .

(٣٣) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ،

ص ١١٢ رقم ٤٩ .

(٣٤) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ، ص

١١٤ رقم ٥٠ انظر وثيقة رقم ٤٥ . سطر

٧-٩ .

(٣٥) انظر جروهمان ، اوراق البردي العربية

ج ١ ص ٧٧-٧٨ .

(٣٦) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١

ص ٨٠-٨١ .

(٣٧) Grohmann, Arabische Papyri..

Der Islam, (22), 1934. Nr. 10,

p. 37 .

وانظر ايضا ص ٤٠ سطر ٢٧،٢٥ حيث اثبت  
الناشر كلمة Hand Zeichen بالالمانية  
وفعلا يظهر في الاصل ( التوقيع ) ويعود تاريخ  
هذا العقد لسنة ٢٩٥ .

(٣٨) انظر مثلا سطر ١٠ من الوثيقة رقم ٨ .

Grohmann, Arabische Papyri..

ورجح الناشر تاريخ العقد بالقرن الثاني

الهجري وانظر ايضا رقم ١١ سطر ٨ ص ٤٥

اذ جاء النص ( ولا يمنعها من زيارة أهلها

ولا يمنع أهلها من الدخول عليها ) . وفي اوراق

البردي العربية ج ١ ، واعقد زواج رقم ٣٩

لسنة ٢٦٤ هـ سطر ١ ص ٧٨ ، عقد زواج

رقم ٤١ لسنة ٢٧٩ هـ سطر ١٠ ص ٨٩ نجد

نفس النص المشار اليه ( ولا يمنعها من

أهلها ولا يمنع أهلها منها ) .

(٣٩) جروهمان ، اوراق البردي العربية ج ١ ص

١١٢ وثيقة رقم ٤٩ لسنة ٢٩٧ ورد في الاصل

تاريخ الوثيقة ٢٩٩ هـ ونعتقد انه خطأ مطبعي .

انظر وثيقة رقم ٥٠ ص ١١٤ ومضمونها : اقرار

قطامة ابنة نصر الفران الساكنة بمدينة



## العيارون والشطار ودورهم في الحرب بين الامين والامون

د. محمد ارشيد العقيلي  
ج. الامارات العربية المتحدة

### العيارون والشطار لغة واصطلاحاً :

العيارون جمع عيار ، والعيار لغة الشخص الكثير التجوال الذي يتردد على الاماكن بدون عمل . ويقال عار الفرس يعير ، أي ذهب أو انفلت يهيم على وجهه لا يثنيه شيء ، فهو عائر أي متردد وجوال . كما يطلق العيار على الوزن أو الكيال (١) . وفي الفارسية يعني اللص الشريف . والشطار جمع شاطر وفعله الثلاثي شطر . ويقال شطر عن أهله أي نزع عنهم وهجرهم ، والشطارة تعني الانفصال والابتعاد . والشاطر من عصا ولي أمره وانشطر عن أهله وعاش في الخلاعة . ويتصف الشاطر بالدهاء والمكر والخبث والذكاء والحيلة (٢) .

وأما العيارون والشطار اصطلاحاً فهم علم على طائفة من اللصوص الشرفاء المتمردين على واقعهم الاجتماعي ، ذاع صيتهم وتردد ذكرهم في بعض حقب الدولة العباسية لاسيما في مرحلة التفكك السياسي ، وأيام الفتن الأهلية أو المذهبية أو الازمات الاقتصادية الخائقة ، أو التفاوت الاجتماعي الطبقي البغيض .

ثمة قواسم مشتركة بين العيارين والشطار وبين من أطلق عليهم اسم الاحداث والزعار والدعار والعياق والحرافيش ، أو اصحاب المهن المتدنية الوضيعة (٣) من المعدمين والجياع والعاطلين عن العمل الذين أعجزتهم البطالة وطحنهم الفقر . إذ ان كلا منهم قد احترف اللصوصية وسيلة . ولكن مع اختلاف في الفايات ، وتفاوت في الاهداف والمرامي لهذه « الطوائف » .

وهذه الدراسة تتمحور اولا حول نشأة طائفة العيارين والشطار في العراق عامة وبغداد خاصة . وتفسير دوافع هذه الطائفة وغاياتها ، وهل تتميز عن اللصوص العاديين . وثانيا موقف هذه الطائفة من اجتياح جيوش الامون التي تأتمر بأوامر قادة

---

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



د. محمد أرشيد العقيلي .....  
من الفرس لمدينة بغداد ، أبان الحرب بين الامين والمأمون ، وتفسير هذا الموقف وما ترتب عليه من نتائج .

### الصلة بين الصعاليك والعيارين والشطار :

ان الباحث لا يستطيع ان يتناول طوائف العيارين والشطار والفتيان ودورهم في المجتمع العربي الاسلامي دون ان يربط ذلك بطائفة الصعاليك (٤) في المجتمع الجاهلي . وذلك لما بينهما من وشائج عميقة في كثير من الدوافع والوسائل والغايات . فهي جميعها تصدر في سلوكها عن موقف مشترك رافض ومتمرد على الواقع الاجتماعي والسياسي في عصرها . والصعلكة في المجتمع الجاهلي تعتمد على لصوصية السيف والعقل ، ولكنها في جوهرها تقوم على النشاط الفردي أو البطولة الفردية . في حين تقوم حركة العيارين والشطار واضرابهم على النشاط الجمعي أو البطولة الجماعية ، وهي اشبه بتنظيم الجند أو النقابات المهنية .

وحركة الصعاليك في العصر الجاهلي هي تمرد على النظام الاجتماعي والاقتصادي ، لانهم وجدوا انفسهم ضحية لنظام جائر فرفضوه وتمردوا عليه فانشطروا « انفصلوا » عن قبائلهم فقابلتهم قبائلهم بدورها (بخلهم) . وقد اسفر ذلك عن صراع مرير بين الجانبين ، بين الصعاليك الخلاء وبين قبائلهم (٥) . والصعاليك في الجاهلية طوائف ثلاث : الخلاء الذين تبرأت منهم قبائلهم وطردتهم ، والاغربة السود الذي سرى لهم السواد من أمهاتهم الاماء فلم يعترف بهم ابائهم العرب مثل تأبط شرا (٦) والشنفري (٧) ، ثم طائفة الفقراء والمتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لظروفهم الاقتصادية السيئة ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن التف حوله من فقراء العرب . ومن هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات انطلقت الى الصحراء يجمع بينها على اختلاف قبائلها الفقر والتشرد ، والتمرد على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية والايمان بان الحق هو القوة .

وبذلك يتضح ان الظاهرة في حياة الصعاليك هي انهم جميعا فقدوا توافقهم الاجتماعي . وقد انتهى بهم ذلك الى « سلوك صراعي » مع مجتمعاتهم (٨) .

ان ما يعنينا من طوائف الصعاليك ذلك الفريق الذي صدر في سلوكه عن موقف فروسي نبيل ، أو احساس مرير بالقهر الاجتماعي ، لا عن نزعة شريرة متأصلة حاقدة ، فطارد الاغنياء المترفين ، ولا سيما البخلاء منهم ، وتربص الدوائر بالقوافل التجارية ، وآلى افرادهم على انفسهم ان يثاروا من مجتمعهم ، وان يقتلوا من يعترض طريقهم .



وبذلك تكون الصلعة كما يراها يوسف خليف (٩) نزعة انسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والفني للفقير ، بهدف تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، وإعادة التوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين . فالغزو والسلب والنهب لم يكن عند الصعاليك غاية بل وسيلة لتحقيق العدالة والتوازن الاجتماعي . ويجسد عروة بن الورد فلسفة هذا الفريق الاجتماعية والاقتصادية (١٠) ، معبرا عن تلك المعايير المادية التي تحكم عصره بمرارة وتهكم بقوله :

ذريني للفنى أسعى فإنني رأيت الناس شرهم الفقير  
ويقصيه الندي وتزدريه حليته وينهره الصفير  
وتلقى ذي الفنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير

وكما عرف القرشي (١١) الصعلوك بأنه لص شاطر مفير ، فان مصادر أخرى اشارت الى أن الصعاليك هم شطار العرب في الجاهلية . كما ألحق ابو عبيدة البكري (١٢) صفة العيارة بهم في اطلاقه اسم اللص العيار على قرين بن الصاد الكلبى .

والملفت للنظر أن بعض المصادر العربية ذكرت أن بعض الصعاليك طاب لهم أن يطلقوا على أنفسهم « الفتيان » لاتصافهم بالفتوة الدالة على الشهامة والمروءة والفروسية والشجاعة والنجدة ، واغاثة الملهوف ، ونكران الذات (١٣) وغيرها من مقومات « الفتوة الشعبية » .

والجدير بالذكر أن صعاليك العرب أو شطار الجاهلية وعياريها انقسموا حسب دوافعهم النفسية والاجتماعية الى فريقين : فريق متمرد حاقد تنطوي نفسه على نزعة أنانية شريرة . وفريق تنطوي نفسه على نزعة خيرة غايتها حماية المستضعفين وتحقيق العدالة الاجتماعية . وأشهر من يمثل هذا الفريق عروة بن الورد ومن انضوى تحت لوائه (١٤) . وقد تغنى بعض الصعاليك ببطولاتهم شعرا ونثرا بفخر واعجاب (١٥) ، وحفرت بعض قصصهم مكانا في الذاكرة الشعبية العربية كسيرة عنتر بن شداد الذي تمحورت سيرته حول قضية التحرر الاجتماعي وظلت حية في الوجدان الشعبي في العصور الاسلامية .

وبذلك فان ظاهرة الصلعة الجاهلية في نزعتها الانسانية التقت مع ظاهرة العيارة والشطارة في المجتمع الاسلامي . وقد اعطى معظم الباحثين تفسيرا أو مضمونا انسانيا لكلتا الظاهرتين من حيث اللقاء والتداخل بينهما من ناحية ، والتواصل من ناحية أخرى ، لان الظاهرتين تحملان في طياتهما فكرة انسانية رددتها العامة في كلا



المصريين الجاهلي والاسلامي الوسيط ، في الحكايات والقصص . ولا شك أن هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشعبيتين تعكسان طموحا أو حلما جماعيا لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية ، تتلاشى معه تلك الهوة السحيقة التي تفصل بين اقلية تملك معظم الثروة ، وأغلبية ساحقة تعيش على الفقر والحرمان (١٦) .

وقد عبر أحد الصعاليك والعيارين عن المرارة التي تتفاعل في نفسه بسبب التفاوت الاجتماعي وضيق ذات اليد بقوله :

وإني لأستحي من الله أن أرى      أجزر حبلا ليس فيه بعير  
وإن أسأل الخب اللئيم بعيره      وبعران ربي في البلاد كثير

ولذلك فإن طائفة من الصعاليك ، وكذلك من العيارين والшطار قد بررت وسوغت لنفسها اللجوء الى السرقة ، واعتبرت ذلك موضع فخر واعتزاز ومؤشرا على البطولة ، وإن تقوم بذلك في رابعة النهار . وقال أحدهم :

معاذ الله أن أسرق بليل      ولكني أجاهر بالنهار (١٧)

ولذلك فإن الصعاليك من قبل والعيارين والшطار من بعد ، بإعلانهم التمرد على بعض طبقات المجتمع ، وعلى الذين استأثروا لأنفسهم بالسلطة أو المال أو بهما معا ، استهدفوا أن ينالوا بأسلوب غير شرعي ما يتصورون ويعتقدون أنه حق شرعي لهم . وسوف نجد أن ظاهرة التمرد هذه سوف تواجه بكل عنف وقسوة من السلطة القائمة ، باعتبارها خروجاً على القانون والسلطة الشرعية . ومن الطبيعي أن تشوه صورتهم من قبل مؤرخي السلطة الرسميين ، إما جهلاً بأوضاع هذه الطبقة الاجتماعية المتردية أو ممالة للسلطة القائمة . غير أن العيارين والшطار بالمقابل حظوا بأعجاب العامة في عصرهم ، فتعاطفت معهم وأشادت بأفعالهم . وقد انتهى الارتقاء بالшطار والعيارين في التراث الشعبي الى مرتبة البطولة شبه ملحمية ، حتى رددت اللسنة أن اللص أحسن حالا من الحاكم المرتشي أو القاضي الذي يأكل أموال اليتامى (١٨) .

### تطور ظاهرة العيارين والшطار حتى مطلع العصر العباسي :

ظاهرة العيارين والшطار ظاهرة عالمية لها بصماتها في المجتمعات الهندية والبابلية والفرعونية والعربية قبل الاسلام (١٩) . غير أن هذه الظاهرة كانت تتفاوت بين مرحلة وأخرى ، فتخبوا وتلاشى حين تكون المجتمعات في حالة مد حضاري ،



وتظهر وتشتد حين تكون في حالة جزر . وهي عموما تنتعش في الحقب التاريخية التي تتعرض فيها المجتمعات للفوضى والتفكك والتجزئة ، وضعف السلطة المركزية أو التفاوت الاجتماعي الطبقي .

ففي العصر الجاهلي كما عرفنا كانت ظاهرة الصعلكة والبطالة وليدة الصراع الداخلي بسبب شح الموارد والفقر والجوع (٢٠) وما نجم عنه من فرز طبقة فقيرة معدمة لم تجد سوى الفوز والسلب والتلصص وسيلة لاستنقاذ نفسها من ذل الفاقة والحرمان ، مما دفعها الى التمرد . ولكن بعد ان اشرقت الجزيرة العربية بنور الاسلام تغيرت أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يبق للصعلكة مكان فيها (٢١) وبخاصة في العهد النبوي والراشدي ، بسبب ما نشره الاسلام من مبادئ سامية قائمة على العدالة ومبدأ تكافؤ الفرص ، ومسؤولية الأمة عن أي حيف أو جور اجتماعي يقع على كاهل الفقراء والمعوذين .

وفي العصر الأموي وجهت طاقات الأمة نحو الجهاد ونشر الاسلام . ففضالة بن شريك مع أنه كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضرمًا أدرك الجاهلية والاسلام (٢٢) لم يصل إلينا من شعره إلا ما ورد من أخبار وأسماء اسلامية . وكان لابنه « فاتك » مركز اجتماعي مرموق في عهد عبد الملك بن مروان . وبرغم أن ثمة رواسب للصعلكة في شعر أبي خراش (٢٣) الاسلامي في تصويره للفقراء والجوعاء ذوي الثياب البالية ، فإننا نشهد صورة أخرى لتلك الحياة التي تغيرت ظروفها بسبب ما أحاط برقاب الصعاليك من ضوابط الدين الجديد . فلم يعودوا قادرين على المضي في حياتهم كما كانوا في الجاهلية ، لأن مقياس الأمور في ظل الحياة الاسلامية كان يقوم على الحق والعدل . ومع ذلك نجد رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو خراش في جاهليته اخلاصا عميقا ظلت آثاره تتسرب من حين لآخر في شعره الاسلامي . والجدير بالذكر أن ابنه خراش كان من أكثر المتحمسين للجهاد في سبيل الله ..

### ظاهرة العيارين والبطالة في العصر العباسي الاول :

شهدت الدولة العباسية في عصرها الاول تغيرات شاملة في مختلف الميادين ، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ... وما نجم عن ذلك من بروز ظاهرة التفاوت الطبقي - الاقتصادي ، ما ولدته من ردود فعل ، كان ضمنها أولى بوادر ظاهرة العيارين والبطالة . ونتلمس بدايات هذه الظاهرة منذ عهد الخليفة العباسي المهدي ( ١٥٨ - ١٦٩ هـ ) . ويذكر البلاذري بوادر هذه الظاهرة في مقاطعة « سيسر » التي كان بها مزوج لدواب الخليفة المهدي وأغنامه بقوله : « فلما كثر الصعاليك والذمار



وانتشروا بالجبل في خلافة المهدي أمير المؤمنين ، جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم وحوزا . فكانوا يقطعون ويأوون اليها ولا يطلبون لأنها حد همدان والدينور وأذربيجان . فكتب سليمان بن قيراط وشريك معه يقال له سلام الطيفوري بخبرهم وشكيا تعرضهم لما في أيديهم من الدواب والاغنام ، فوجه لهم جيشا عظيما وكتب الى سليمان وسلام يأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها وأعوانهما ورعاتهما ، ويحصنان فيها الدواب والاغنام مما خافاه عليها . فبنيا مدينة « سير » وحصناها وأسكنها الناس ، ووليها عامل ، وكان خراجها يؤدي اليه » (٢٤) . ويقول الفقيه الهمداني في حديثه عن « سير » أحد رساتيق همدان بقوله : « ولم تزل سير وما ولاها مراعي لمواشي الاكراد وغيرهم . فلما كثر الصعاليك والذعار وانتشروا في الجبل في خلافة المهدي ، جعلنا هذه الناحية ملجأ لهم ، فكانوا يقطعون ويأوون اليه ، فلا يطلبون . . . . . فكتب سليمان وشريكه ( صاحبا صحراء وقيراط بمدينة السلام ) الى المهدي بذلك . فوجه اليهما جيشا عظيما ، وكتب اليهما فأمرهما ببناء مدينة يأويان اليها مع أغنامهما ورعاتهما مما خافاه عليها . فبنيا مدينة « سير » ، وحصناها وأسكنها الناس » (٢٥) .

ويذكر البلاذري (٢٦) أيضا ان الصعاليك كثروا في خلافة أمير المؤمنين الرشيد وشعثوا سير ، فأمر ببنائها وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب خاقان الخادم السعدي . وفي آخر أيام الرشيد وجه الى سير مرة بن مرة العجلي ، ولم يزل مرة يؤدي الخراج عن سير في أيام محمد بن الرشيد ( الامين ) الى أن وقعت الفتنة . ثم أخذت سير من عاصم بن مرة ، فأخرجت من يده في عهد المأمون ، ورجعت الى ضياع الخلافة . فولى عليها المأمون قائدا يدعى همام بن هاني العبدي على ان يتعاون مع أهلها ويحصنها من غارات الصعاليك (٢٧) .

من خلال ما سبق عن بدايات ظهور الصعاليك والذعار في رستاق سير ، يتبين ان بوادر هذه الظاهرة كانت في مطلع العصر العباسي وفي شرق دار الخلافة . وان هذه الظاهرة لم تكن تشكل خطرا كبيرا يهدد سلطة الدولة . وذلك لان الدولة كانت لا تزال قوية متماسكة ، وفي أوج مجدها السياسي والحضاري ، ولا تزال قبضتها قوية حتى على الاطراف . ولم تكن غاية الصعاليك والعيارين حتى عهد الرشيد سوى ان يتعرضوا لقافلة أو سفينة ، فيختلسوا على حين غرة الشيء الطفيف الذي يسد عوزهم .

### دور العيارين والشطار في أحداث الحرب بين الامين والمأمون :

نعود جذور الصراع على السلطة بين الامين والمأمون الذي استمر خمس سنوات سالت خلالها دماء أهل العراق وخراسان وانتهى بمقتل الامين ، الى ذلك القرار



السياسي الذي اتخذ الرشيـد بتقسيم الخلافة بين أبنائه الثلاثة (٢٨) . وما ذهب إليه بعض المؤرخين المحدثين أمثال فلوتن وولهاوزن (٢٩) من تفسير عنصري لهذه الحرب ، وأنها حرب فارسية عربية ، تفسير غير واقعي ، فالمأمون برغم أنه كان معه بعض العناصر الإيرانية التي أسلمت حديثا مثل الفضل بن سهل ، فقد كان معه أيضا العديد من العرب ، كما كان في جيش الأمين إلى جانب العرب عناصر إيرانية ، مع أرجحية العنصر الفارسي عند المأمون والعربي عند الأمين . كما أن الأمين لم يحاول جذب العرب والتوسل بالنزعة العربية إلا في فترة متأخرة من هذا النزاع ، مما أهاج عياري بغداد وشطارها للدفاع عنه في حصار بغداد ضد التيار الفارسي الذي يحيط بالمأمون .

ويرى المستشرق الفرنسي سورديل أن الدوافع الحقيقية للنزاع بين الأمين والمأمون تكمن في اختلاف النزعة الدينية الفكرية لكلا العسكريين (٣٠) ، إلا أنني أرى أن أفضل تفسير لهذه الحرب أنها نزاع إقليمي بين العراق وخراسان على أيهما سيكون الإقليم المركزي للدولة يتمتع بامتيازاتها ، تماما كما ظلت بلاد الشام ناقمة على العباسيين منذ أن نقلوا عاصمتهم من دمشق إلى الهاشمية ثم إلى بغداد في العراق . وقد تمحور هذا التآكل حول الفضل بن الربيع ممثل الكتلة العربية في بلاط الأمين ، والفضل بن سهل ممثل الكتلة الفارسية في بلاط المأمون ، ولعبت الطموحات الشخصية لكلا الشخصين دورا بارزا في تأجيج مشاعر الأخوين ضد بعضهما البعض وتفجر الموقف الذي انتهى باجتياح طاهر بن الحسين قائد المأمون لمشرق العالم الإسلامي في طريقه إلى العراق وقتل علي بن عيسى بن ماهان قائد الأمين ، واحتلال معظم مدن العراق ، ثم محاصرة الأمين في بغداد (٣١) .

والجدير بالذكر أن ظاهرة العيارين والشطار أخذت تلفت أنظار المؤرخين منذ أن حاصر طاهر بن الحسين بغداد . وحين ضيق طاهر الخناق على مداخل المدينة من الشرق ثارت العامة فيها دفاعا عن الأمين الخليفة الشرعي ، ويشير ابن الأثير (٣٢) أنه في سنة ١٩٦ هـ نقب أهل السجون السجون ، وخرجوا منها ، وفتن الناس وساءت أحوالهم ، ووثب الشطار على أهل الصلاح . ويقصد بأهل الصلاح كبار التجار والأثرياء والقواد .

وسبب ثورة العيارين والشطار على التجار والأثرياء هو تخاذل هؤلاء في نصره الأمين حينما رميت بغداد بالمجانيق والعرادات في مطلع عام ١٩٧ هـ ودب فيها الخراب هدمًا وحرًا (٣٣) . وقد هرب معظم قواد الأمين ، وتخاذل جنده واستسلم معظمهم . وكان عيارو بغداد وشطارها وعامتها وأوباشها وأهل السجون هم رموز موازرتة والدفاع عن بغداد . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الطبري بقوله : « فذلت الأجناد ،



وتواكلت عن القتال ، إلا باعة الطريق والعراة ، وأهل السجون والاباش والرعاع والطاررين وأهل السوق « (٣٤) . وقد ذكرهم أيضا ابن الاثير وسماههم « الغوغاء والفساق » (٣٥) .

### معركة قصر صالح :

أحكم طاهر بن الحسين حصار بغداد ، لكنه فشل في اقتحامها لضراوة مقاومة العيارين ، ويذكر الطبري ان ظاهرا ظل يقاتلهم لا يفتر ولا يمل ولا يني عن ذلك (٣٦) ولكنهم أعجزوه . وحدثت حول قصر صالح بين قواته والعيارين معركة من اشرس المعارك بين العرب والفرس واستمات العيارون في الدفاع عن المدينة والقصر . وبرغم أن قائد الامين الموكل بقصر صالح علي افراهمر قد استسلم وسلم ما بيده الى جند طاهر ، وكذلك صاحب شرطته محمد بن عيسى - وكان مجدا في نصرته - كما استسلم اخرون ، إلا ان الفواة والعيارين قاتلوا قوات طاهر قتالا شديدا داخل القصر . وقد اورد الطبري : « فلما استأمن هذان الى طاهر اشفى الامين على الهلاك ، واقبلت الفواة من العيارين ، وباعة الطريق ، والاجناد ، فاقتتلوا داخل قصر صالح قتالا عظيما » (٣٧) . كما يذكر ابن الاثير انه قتل من اصحاب طاهر جماعة كثيرة ، ومن قواده جماعة . ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر منها (٣٨) .

ويسترسل الطبري في وصف المعركة وضراوتها داخل القصر بين العيارين وقوات طاهر بن الحسين : « وقتل في داخل القصر ابو العباس يوسف بن يعقوب ومن كان معه من القواد والرؤساء المعدودين . وقاتل افراهمر وأصحابه خارجا من القصر حتى قل وانحاز الى طاهر . ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر واصحابه منها ، ولا اكثر قتيلًا وجريحًا مقعورا من أصحاب طاهر من تلك الوقعة . فاكثر الشعراء فيها القول من الشعر ، وذكر ما فيها من شدة الحرب » (٣٩) .

وقد اسفر ذلك عن تدمير بغداد واحتراقها لأول مرة في التاريخ ، وتعرض كل من جانبي المسكرين الى حرق وتدمير من قبل الطرف الاخر . وقد رثى الشعراء بغداد رثاء يفيض ألما وحسرة على ما ألم بها من مصير ، وحتى احد شعراء العيارين الذين أطلق عليهم الطبري اسم « فتيان بغداد » رثاها بقصيدة نجتزىء منها (٤٠) :

بكى دما على بغداد لما	فقدت عضارة العيش الانيق
تبدلنا هموما من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
اصابتها من الحساد عين	قأنت أهلها بالمنجنيق



فقوم احرقوا بالنار قسرا      ونائحة تنوح على عريق  
وقوم اخرجوا من ظل دنيا      متاعهم يباع بكل سوق  
فلا ولد يقيم على ابيه      وقد هرب الصديق بلا صديق  
ومهما انس من شيء تولى      فاني ذاكر دار الرقيق

وقد تناول الحريمي وهو شاعر مأموني احداث بغداد ووصف ما جرى فيها بقصيدة طويلة من نحو مائة وخمسين بيتا اورد الطبري نصها كاملا في حين تركها ابن الاثير لطولها (٤١) وقد انحى الشاعر باللائمة على الذعار والشطار والعيار وغيرهم ، وكان يرى ان دفاعهم عن بغداد هو الذي جلب لها الحرب والدمار . غير انه لا ينكر ان المسؤولية تقع على الطرفين المتقاتلين . نجتزئ من هذه القصيدة بعض الابيات التي فيها ذكر للعيارين والشطار (٤٢) .

وصار رب الجيران فاسقهم      وابتز امر الدروب ذاعرها  
يحرقها ذا وذا يهدمها      ويشتفي بالنهاب مشاطرها  
والكرخ أسواقها معطله      يستن عيارها وعائرها  
كتاب الهرش تحت رايته      ساعد طرارها مقامرها  
خرجت الحرب من اراذلهم      أسود غيل علت قساورها

وهذه القصيدة تعكس رأي انصار المأمون من خلال الشائعات التي روجوها بأن الامين وجنده والعيارين والشطار وغيرهم هم الذين احرقوا مدينة بغداد . كما ان هناك قصائد أخرى تذهب هذا المذهب بوضع المسؤولية على الحركة الشعبية ومن يمثلها من الشطار والعيارين . من هذه القصائد قصيدة طويلة للشاعر البغدادي الاعمى الذي كان متعصبا للمأمون ومنها (٤٣) :

وصار رئيس القوم يحمل نفسه      وصار رئيسا فيهم كل شاطر

بيد ان الطبري كان أكثر موضوعية وحيادا حين نسب ما حدث من سلب ونهب الى « اللصوص والفساق » دون أن يذكر العياريين بينهم ، فقال « وكان اللصوص والفساق يسلبون محسن ، قهروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من اهل الملة والذمة » (٤٤) .



وبرغم أن المسعودي (٤٥) فيما يروي يقرن بين العيارين و « من أهل السجون » ، إلا أن رثاء العيارين لمدينة بغداد يعكس مشاعر هذه الطائفة ومروءتها ، ولو كان العيار لصاً لما صدرت عنه مثل هذه الأقوال والأفعال التي سنأتي على ذكرها ، والتي تفيض نبلا وعفة ومروءة . فالسطو على النساء لم يكن من شيم الشطار والعيارين ولذلك فإن رواية الضبري تنطوي على إعجاب بهم خاصة عندما لاذ أكثر قادة الامين بالفرار أو آثروا السلامة بانضمامهم إلى قوات طاهر بن الحسين ، وثبت العيارون والعامّة من أهل بغداد واستماتوا في الدفاع عن بغداد ودحروا الجند الخراسانيين مرارا .

وليس أدل على إقدام العيارين والشطار وقوة بأسهم من هذه الحكاية التي أوردها الطبري (٤٦) والمسعودي (٤٧) وابن الأثير (٤٨) : « أن قائدا من قواد أهل خراسان ممن كان مع طاهر من أهل النجدة والبأس خرج يوما إلى القتال ، فنظر إلى قوم عراة ، لا سلاح معهم ، فقال لأصحابه : لا يقاتلنا إلا من أرى ؟ استهانة بأمرهم واحتقارا لهم ، فقليل له : نعم هؤلاء الذين ترى هم الأفة ، فقال أف لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم ، وأنتم في السلاح الظاهر والعدة والقوة ، ولكم مالكم من الشجاعة والنجدة . وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ، ولا سلاح معهم ، ولا عدة لهم ، ولا جنة تقيهم . فأوتر قوسه وتقدم ، وأبصره بعضهم ، فقصد نحوه ، وفي يده بارية قصيرة ، وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار ، فوقع في باريته أو قريبا منه ، فأخذه فجعله في موضع من باريته ، وقد هيأه لذلك ، وجعله شبيها بالجعبة . وجعل كلما وقع منه أخذه ، وصاح دائق ، أي أن ثمن النشابة دائق قد أحرزه ، ولم تنزل تلك حالة الخراساني وحال العيار حتى أنفد الخراساني سهامه ، ثم حل على العيار ليضربه بسيفه . فأخرج من مخلاته حجرا فجعله في مقلع فرماه ، فما أخطأ به عينه ، ثم ثناه بآخر . فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه ، وكرّ راجعا وهو يقول : ليس هؤلاء بانس ، قال : فحدث أن طاهرا حدث بحديثه فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج للحرب » .

وكان طاهر بن الحسين اعرف بحقيقة هؤلاء العراة العيارين ، فهم وحدهم الذين أفقدوه خيرة جنده وقواده ، وحالوا دون سقوط بغداد بأيدي قواته ، في حين كان موقف تجار بغداد واثريائها متخاذلا ، لا يأبهون لسقوط المدينة . وهذه المواقف المتباينة جعلت أهل بغداد والعامّة والمستضعفين فيها ينظرون نظرة ازدراء واحتقار لاغنياء بغداد وكبارها ، ونظرة تقدير وإعجاب إلى العراة العيارين ، الذين كانوا بنظرهم أبطال بغداد الحقيقيين ولو هزموا في النهاية . مدحهم أحد شعراء بغداد الجهوليين (٤٩) في قصيدة منها :



ليس يدرون ما الفرار اذا الاب طال عاذوا من القنا بالفرار  
واحد منهم يشد على الفين عريان ماله من ازار  
ويقول الفتى اذا طعن الطعنة : خذها من الفتى العيار

وبرغم ان بعض قادة الامين وجنده تخلوا عنه واستسلموا ، ومنهم عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي واحوته وولد الحسن بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان ، ومحمد بن ابي العاص (٥٠) . الا ان ذلك لم يفت في عضد العيارين ، ولم يزد هم الا تصميمهما على الدفاع عن بغداد . فواجه بعض قادة المأمون وخاصة عبد الله بن الوضاح و « هرثمة » هزائم منكرة على يدهم . وكان من غيظ جند هرثمة وصفهم بـ « اولاد الزنا » في حين وصفهم بعض اصحاب هرثمة وقد داخله العجب في أمرهم وقوة بأسهم بقوله (٥١) :

يفنى الزمان وما يفنى قتالهم والدور تهدم والاموال تنتقص  
يأتوننا بحديث لا ضياء له في كل يوم لاولاد الزنا قصص

لكن الغريب والملفت للنظر انه في الوقت الذي كانت بغداد تنهب او تحرق على يد جند الامين تارة وبأمر منه (٥٢) ، وعلى يد جند طاهر بن الحسين تارة وبأمر منه ، فان ذلك كان ينسب الى العيارين . ومع ذلك فان هؤلاء لم ينش لهم عزم ، واستماتوا في الدفاع عن بغداد ، ومناصرة الامين حتى النهاية .

### وقعة الكناسة :

يتلخص خبر هذه الوقعة كما ورد في الطبري (٥٢) في ان طاهر بن الحسين احاط ببغداد بعدد من قواده ، فجعل العلاء بن الوضاح في أصحابه على الوضاحية ، وجعل نعيم بن الوضاح فيمن كان معه من الاتراك وغيرهم على شاطئ الصراة . واستمر القتال اشهرا حتى ان طاهرا باشر القتال بنفسه ، وقتل فيه عدد كبير من اصحاب الامين . وقد وصف هذه الوقعة الشاعر عمرو بن عبد الملك بقصيدة طويلة مطلعها :

وقعة يوم الاحد صارت حديث الابد  
كم جسد ابهرتبه ملقى وكم من جسد



وفي الابيات الاخيرة منها ندد باتباع الامين ومنهم العيارون بانهم بلا اصول وبلا قضية ، وان الامين لو انتصر لن يكثر بهم او ان يلتفت اليهم :

من انت يا ويلك يا مسكين من محمد

### وقعة درب الحجارة :

وهذه الوقعة من الايام المشهودة بين قوات طاهر واتباع الامين الذين كان معظمهم من العيارين ، وكانت الفلبة فيها لاصحاب محمد علي اصحاب طاهر من الجند الخرساني (٥٤) ، قتل فيها اعداد غفيرة من اصحاب طاهر ، وندد شاعر مأموني في أعقابها باتباع الامين من العامة والعيارين في قصيدة منها (٥٥) .

وقعة السبت يوم درب الحجارة	قطعت قطعة من النظارة
ذلك من بعد ما تفانوا ولكن	أهلكتهم غوغاؤنا بالحجارة
أخرجته من بيتها أم سوء	طلب النهب أمه العيارة
ليس هذا زمان كريم	ذا زمان الانزال أهل الزعارة

### وقعة باب الشماسية :

وهي من الايام الحاسمة الكبرى بين اتباع طاهر بن الحسين وبين العيارين والسطار والذعار انصار الامين ، وقد مرت بمراحل وكان فيها عدة جولات : كان على رأس قوات طاهر هرثمة بن أعين ، وعبيد الله بن الوضاح ، وأبرز قواد الامين حاتم ابن الصقر . وقد أوعد حاتم اصحابه الغزاة والعيارين أن يباغتوا عبيد الله بن الوضاح ليلا . فأوقعوا به وقعة وأزالوه عن موضعه وولى هارباً تاركا الخيل والسلاح والمتاع . وسيطر حاتم على الشماسية (٥٦) . فخفف هرثمة بن أعين لنصرة ابن الوضاح فوافاه اصحاب الامين في جولة ثانية وتمكنوا من دحر قواته ، ووقع هرثمة نفسه في الاسر . لكن ما لبث ان خلاصه احد جنده . وطارد اصحاب الامين قلول جيش هرثمة ، ولم يتمكنوا من استثمار هذا النصر بسبب حلول الليل ، وما شغلوا فيه من النهب والسلب (٥٧) . ولم يتمكن هرثمة من تجميع صفوف جنده إلا بعد يومين . وقد نظمت اشعار كثيرة في هذه الجولة منها ما قاله عمرو الوراق شاعر طاهر بن الحسين يندد بالعيارين ويتهم عليهم ويستخف بهم :



عريان ليس بذئ قميص      يغدو على طلب القميص  
في كفه طرارة      حمراء تلمع كالقصوص  
حرصا على طلب القتال      أشد من حرص الحريص

ولما بلغ طاهر ما صنع العراة وحاتم بن ابي الصفر بابن الواضاح وهرثمة ، اشتد عليه ذلك . فأمر بعقد جسر على دجله فوق الشماسية ، وعبا أصحابه وخرج معهم الى الجسر استعدادا لجولة فاصلة . فعبروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال حتى ردوا الى أصحاب الامين وأزاحوهم عن الشماسية ، واستردوا الاسرى وقتل من العراة بشرا كثيرة (٥٨) . وكما هي العادة فان عمرو بن النورق شاعر طاهر بن الحسين نظم قصيدة في هذه المناسبة تهكم فيها على العيارين وسخر من سلاحهم وطبلهم نجتزيء منها بعض الابيات (٥٩) .

ضربوا طبلهم فثار اليهم      كل صلب القناة والساعدين  
أو وزير ام قائد بل بعيد      انت من ذين موضع الفرقدين  
كم بصير غدا بعينين كي يب      صر ما حالهم فعاد بعين

ورغم أن هؤلاء العيارين بنظر هذا الشاعر لا يتطلعون الى مراكز قيادية كالوزارة أو غيرها ، « اين من ذي موضع الفرقدين » ، إلا أنهم استماتوا في مقاومة قوات طاهر والدفاع عن بغداد ، وكان سلاحهم المسمى « المطرد » لا يخطيء ما يريدون ولا يصيب إلا العينين .

وقد ترتب على هزيمة أصحاب الامين في الجولة الاخيرة من وقعة الشماسية نتائج هائلة أبرزها أن الذعر والهلع دب في صفوف قواته ، ففر معظمهم الى المدائن . كما أدرك التجار والأثرياء أن لا أمل لهم في الامين وخافوا على أنفسهم من « الفوغاء والسفلة » والعيارين . وتداعوا واتفقوا على مكاتبة طاهر بن الحسين للدخول في طاعته . وعلى تبرؤهم ممن سموهم على حد تعبيرهم بالسفلة الذين ليست لهم في بغداد دور ولا عقار ولا مأوى سوى الحمامات والمساجد ، وقد برر هؤلاء موقفهم بأنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الاوباش والعيارين . وقد أورد الطبري (٦٠) النص الكامل للكتاب الذي وجهه هؤلاء التجار الى طاهر بن الحسين . ومضمونه يدل دلالة واضحة على أن هذه الطبقة من الأثرياء كانت تسيطر وفق مصالحها ، إذ عندما كانت للامامة يد أو من يطلق عليهم الأثرياء اسم الاوباش وأهل المسجون والعيارين كانت حامية بغداد وحفاة هؤلاء الأثرياء من



هجمات قوات طاهر . هذا في حين تنصلت جماعة أخرى من الدخول في طاعة طاهر خوفا على أنفسهم وأموالهم من مطاردة من سموهم بالسفلة في بغداد : « والرأي الا تشهروا انفسكم بهذا ، فانا لا نأمن ان رآكم أحد من السفلة أن يكون به هلاككم ، وذهاب أموالكم والخوف من تعرضكم لهؤلاء السفلة أعظم من طلبكم براءة الساحة عند طاهر خوفا ، بل لو كنتم من أهل الاثام والذنوب ، لكنتم الى صفحه وتغمده وعفوه اقرب فتوكلوا على الله تبارك وتعالى وامسكو ، فأجابوهم وامسكوا » (٦١) .

ومهما يكن الامر فانه من الطبيعي في حالة الفوضى والذعر التي أصابت بغداد ان تختلط الامور وتتعدد الولاءات ، وان يبحث كل فريق عن النجاة بآية وسيلة . لذلك رأينا فريقا يطلب النجاة في موالة طاهر ، وفريقا آخر يتخوف من عاقبة موالة طاهر بأنها ستثير العامة والعيارين في بغداد ضدهم .

ومما زاد الامور تعقيدا واضطرابا أن طاهرا انتهج سياسة مآكرة ذكية وهي مراسلة بعض قادة الامين ورجاله ، يحذرهم من مقبة موقفهم ، وانه سيستولي على ضياعهم ، ففر معظمهم واستبقوا الاحداث وانضموا الى صفوف قوات طاهر ، بعد ان شاهدوا بأم أعينهم ان ميزان القوى يسير لغير صالح الامين ، ثم ان طاهرا دعا العيارين أيضا وهم القوة الرئيسية التي بقيت تناصر الامين وتذب عن بغداد بقوة واخلاص ، دعاهم للكف عن القتال والاستسلام ، له على أن يؤمنهم على ارواحهم . فرفضوا على الرغم من هزائمهم المتوالية (٦٢) . وقد عبر عمرو الوراق عن هذا الموقف بقصيدة منها :

نادى منادي طاهر عندنا يا قوم كفوا واجلسوا في البيوت  
فشارت الفوغاء في وجهه بعد انتصاف الليل قبل القنوت (٦٣)

والذي ينبغي أن يسجل في هذا المقام أمران ، الاول : ان العيارين صمدوا صمود الابطال في الدفاع عن بغداد مؤمنين بعدالة قضيتهم ، رغم ما كال لهم خصومهم من تهم وما أثاروا حولهم من شكوك وشبهات ، وما وجه لهم من تحقير وسخرية . ولولا ايمانهم بعدالة قضيتهم لما استماتوا في حرب طاهر بن الحسين من بيت بيت ومن شارع لشارع (٦٤) . وكان بمقدورهم لو كانوا لصوصا ، ان يهربوا ويستنفذوا ارواحهم وهم - كما وصفهم بعض تجار بغداد - لا دور لهم ولا عقار . ولا يسعنا الا القول بان هؤلاء العيارين كانوا يحاربون عن بغداد العربية في وجه ما اعتقدوا أنه سيطرة فارسية استطلت بالامون في سبيل استئصال شرعية الخلافة ممثلة بالامين .



والثاني : ان اثرياء بغداد وكبار تجارها وبعض قادتها كشفوا عن حقيقة موقفهم بعد ان انقلبت نتائج الحرب لصالح المأمون ، فتخلوا عن الامين الخليفة الشرعي من ناحية ، وتنصلوا من الفوغاء والسفلة والعيارين ، الذين سبق أن دافعوا عنهم وحموا أموالهم ودورهم من ناحية أخرى . وبذلك انكشفت النوايا وتحددت المواقف ، بعد ان اتضحت هزيمة العيارين . وهذه المواقف تنطوي على نزعة طبقية من قبل الاثرياء وكبار التجار على اعتبار انهم يمثلون فئة اجتماعية تنظر بمنتهى الازدراء والتحقير للعيارين وأمثالهم ، اضافة الى ان هذه الطبقة يهملها بالدرجة الاولى ان تحافظ على مصالحها المادية والاقتصادية . وقد عبر احد شعراء طاهر عن هذا الاتجاه بقوله (٦٥) .

أي دهر نحن فيه      مات فيه الكبراء  
هذه السفلة والفسو      غاء فينا أمناء

وقد أسفرت المعارك عن رجحان كفة قوات طاهر وانهيار المقاومة في صفوف الامين . وأصيب الناس بالهلع والجوع لشح الموارد وارتفاع الاسعار . وزاد الطين بلة ان جند المأمون احرقوا المنازل ، ومنها منازل الامين بالخيزرانية (٦٦) ، التي انفق على بنائها عشرين مليون درهم . وكانت سقوفها مرصعة بالذهب . وفي عام ١٩٨ هـ ضعف أمر الامين وأيقن بالهلاك ، ووجه التهم لاحد قادته البارزين وهو عبد الله بن خازم بن خزيمة ، وتحامل عليه السفلة والفوغاء على حد تعبير الطبري (٦٧) مما حمله على مكاتبة طاهر والهرب مع أسرته الى المدائن . وعندما أحكم الحصار على بغداد وضاق الحال أوعز الامين الى قائد من قواده يقال له ذريح ان يتعقب اصحاب الاموال والودائع والذخائر من أهل الملة (٦٨) ورفده بشخص عرف بالهرثس . فكانا يهجمان على الناس ويأخذان أموالهم بالظنة . فتجمعت أموال كثيرة ، ولكن العواقب كانت وخيمة ، اذ فر معظم الناس من بغداد بعلقة الحج (٦٩) فاضطرب الامر ، وعمت الفوضى وتأزم موقف الامين .

هذه الاوضاع المتردية كانت ايذانا بالمعركة الفاصلة بين الفريقين في جزيرة العباس وذلك ان الهرثس ومن معه من العيارين خرجوا الى هذه الجزيرة ، فتصدى لهم اتباع طاهر وحصل اقتتال شديد كانت الغلبة فيه للعيارين . ولكن طاهرا أمد أصحابه في اليوم التالي بجند كثيف ، فدارت الدائرة على العيارين وقتل منهم اعداد غفيرة ، ولاذ الباقون بالفرار (٧٠) .

وأصيب الامين في أعقاب ذلك باحباط شديد ، ونسب اليه انه قال : « وددت ان الله قتل الفريقين جميعا ، فأراح الناس منهم ، فما منهم الا عدو لي ، أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأمالوئك فيريدون نفسي » (٧١) . وبذلك ضعف أمر الامين ، وتفرق جنده ، وأيقن بظفر طاهر به .



الا ان اعدادا غفيرة من الصعاليك والعيارين ظلت موالية للاميين حتى اللحظات الاخيرة من حياته وتذكر المصادر ان الامين حين هم لخمس ليال بقين من محرم عام ١٩٨هـ بتسليم نفسه الى القائد المأموني هرثمة بن أعين دخل اليه الصعاليك من أصحابه ، وهم فتيان الانبار والجند فقالوا له (٧٢) : يا أمير المؤمنين ، ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة الاف رجل مقاتلة (٧٣) ، وفي اصطبلك سبعة الاف فرس (يحمل كل منا على فرس) ونفتح بعض ابواب المدينة ، ونخرج في هذه الليلة ، فما يقدم علينا احد الى ان نصير الى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنجتبي الاموال ، ونجمع الرجال ، ونتوسط الشام ، وندخل مصر ، ويكثر الجيوش والمال ، وتعود الدولة مقبلة جديدة ، فقال : هذا الله بالرأي ، فعزم على ذلك وهم به وجنح اليه . وكان لطاهر في جوف دار الامين غلمان وخدم من خاصة الامين يبعثون اليه بالاخبار ساعة ساعة . فخرج الخبر الى طاهر من وقته . فخاف طاهر ، وعلم انه الرأي ان فعله ، فبعث الى بعض قواد الامين مهددا « ان لم تزيلوه عن هذا الرأي لاخرين دياركم وضياعكم ولازيلن نعمكم ، ولاتلفن نفوسكم ، فدخلوا على الامين . في ليلتهم فأزالوه عن هذا الرأي . واتاه هرثمة في الحراقة الى باب خراسان ، فدخل الامين الحراقة ، وكان يرتاح الى هرثمة ، غير ان طاهر نمي اليه خروج الامين ، فبعث ببعض رجاله فدفعوا الحراقة فانقلبت بمن فيها ، فنجا هرثمة وألقي القبض على الامين ، فقتله جند المأمون .

وكان العيارون قد حذروا الامين من الاستسلام ، وقالوا : « حرب من الداخل وحرب من الخارج » (٧٤) . بمعنى ان بطانة الامين وبعض قادته عندما هددهم طاهر وأرغمهم على حمل الامين على عدم الخروج مع الصعاليك والعيارين ، كانوا أشد حربا عليه من جيوش طاهر التي تطوقه من الخارج ، وبوادر الخيانة التي ظهرت بفترات متعاقبة من حصار بغداد ، وآخرها هذه الخيانة .

ولكن ، ماذا كان مصير هؤلاء العيارين والشطار والصعاليك الذين أدينوا من السلطة العباسية في ظل الحكم الجديد ، كما أدينوا من كبار التجار والاثرياء ؟ سوف يسكت صوت هذه الحركة الشعبية الاجتماعية الثائرة نسبيا مدة نصف قرن . ولكن صوت العيارين عاد فارتفع من جديد عندما بدأ قتل الخلفاء على يد القادة الترك ابتداء من عصر المتوكل ومرورا بقتل المنتصر والمستعين ، وما نجم عن ذلك من فوضى واضطراب . حتى ان الخليفة المتوكل عندما اراد ان يعزز موقفه ضد النفوذ التركي شكل فرقة عسكرية جديدة تتكون من ( ١٢ ) الفا من العرب والصعاليك (٧٥) ، وواجهت هذه الفرقة مؤامرات القيادة التركية . ونجد صوتهم مرتفعا ايضا ابتداء من عصر المعتضد العباسي عندما بدأت قبضة الدولة تتراخي (٧٦) ، والظاهر في فتوحات الفوضى والاضطراب عام ٣١٥هـ في عهد المقتدر (٧٧) ، وأمرهم يتفاقم كليا ضفت



الحكومة كما في الفترة بين مقتل بجكم التركي (٧٨) ودخول بني بويه الى بغداد ( ٣٢٩ - ٣٣٤ هـ ) . والملفت للنظر ان ظاهرة الشطار والعيارين كانت تجد تعاطفا كبيرا في اوساط العامة في بغداد ، حتى ان العامة ربطوا بين سقوط « قبة بغداد » وغضب السماء على الامة بما اجتاح بغداد من عواصف وأمطار غزيرة (٧٩) .

ويستقرأ من انتعاش ظاهرة العيارين والشطار أنها تزامنت مع محاولات قوى خارجية للسيطرة على بغداد العربية وخلفائها العباسيين الهاشميين ، كما حدث ابان الفتنة بين الامين والمأمون أو سيطرة القادة العسكريين الترك على مقدرات الخلافة أو قدوم عنصر بويهى جديد حل محل المؤسسة العسكرية التركية المنهارة .

### تنظيمات العيارين ودستورهم الاخلاقي :

انفرد المسعودي (٨٠) بالاشارة الى تنظيمات العيارين والشطار واهل السجون في معرض حديثه عن مقاومتهم لجيش هرثمة بن أعين بقوله : « انه ما كاد هرثمة ينصب المنجنيقات على بغداد ويأخذ لنفسه عشر ما في السفن من أموال التجار الواردة من البصرة وواسط ، الامر الذي تأذى منه الناس ، وصعد نحوه من العيارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة في اوساطهم التبايين والمبارز ، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص ، وسموها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبواري قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل ، على كل عشرة نقيب قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده ، فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والامير ، وناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الاحمر والاصفر ، ومقاود قد اتخذت لهم ولجم واذناب من مكاس ومذاب . فيأتي العريف وقد أركب واحدا وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ من الخوص ، ودرق البواري . ويأتي النقيب والقائد والامير كذلك . فتقف النظارة ينظرون الى حربهم مع أصحاب الخيول . . والدروع والتجافيف والسواعد والرماح والدرق . فهؤلاء عراة ، وهؤلاء على ما ذكرنا من العدة ، فكانت العراة على زهير . واتاه المدد من هرثمة ، فانهزمت العراة ، ورمت بهم خيولهم ، وتحاصروا جميعا ، واخذهم السيف ، فقتل منهم خلق ، وقتل من النظارة خلق » .

والجدير بالذكر أن هذا التنظيم شبه العسكري كان شأنهم في كافة حروبهم ، ان مع الامين ، أو في الازمات اللاحقة في العصر التركي أو البويهى . وقد وصفهم المسعودي في أكثر من موضع ووصف اسلحتهم واعلامهم وأبواقهم ، فهم من العراة أصحاب مخالي الحجارة والآجر ، وخوذ الخوص ، ورماح القصب ، واعلام الخرق وقرون البقر (٨١) .



ويشير المسعودي الى اعدادهم في احدى المعارك بقوله : « وثارت العراة ذات يوم في نحو مائة ألف بالرماح والقصب ، والطرارات من الفراطيس على رؤوسها ، ونفخوا في بوقات القصب ، وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من الحمديّة ( جند الامين ) ، وزحفوا نحو المأمونية (٨٢) (أصحاب جيش المأمون) . وهناك تشابه واضح بين تنظيمات العيارين في الحرب بين الامين والمأمون ، وتنظيماتهم في الفتنة بين المستعين والمعتز . يقول المسعودي : « وقد كان لاهل بغداد في أيام حرب المستعين والمعتز نحو هذا من خروج العيارين الى الحرب ، وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء ، كاللقب بنينويه خالويه ، وغيرهم ، يركب الواحد منهم على واحد من العيارين ويسير الى الحرب في خمسين ألف عراة » (٨٣) .

ان هذا العدد الكبير من العيارين في مواجهة أعداء السلطة الشرعية القائمة ، سواء في عهد الامين أم في ظل الفوضى العسكرية والتركية أو البويهية ، يضعنا امام تساؤل خطير ، وهو مصداقية ما ألصق بهم من تهم ، وانهم ليسوا سوى مجموعة من اللصوص والحرامية والذعار . فلو كانوا لصوصا ما أصرروا على المقاومة حتى النهاية وقد قتل منهم في مذبحة واحدة زهاء عشرة آلاف . وكان بإمكانهم ان ينجوا بأرواحهم لو لم تكن لديهم بواعث كبيرة وأهداف سامية يحاربون من أجلها ، بوسائل بدائية ، جيشا منظما ومسلحا تسليحا قويا ، وكان بإمكانهم ان يستنقذوا أنفسهم بما عرض عليهم من أمان . إضافة الى بعض الشواهد التي تدل على ان حركتهم تنطوي على غايات كبيرة .

فقد ورد ان أحد الشطار تستر على ابراهيم بن المهدي وأخفاه في بيته . ورفض افشاء سره وتسليمه لقاء الجائزة التي أعلنها ابن أخيه الخليفة المأمون ، ومقدارها ألف دينار لمن يدل عليه أو يسلم رأسه (٨٤) .

نستطيع ان نكون فكرة عن دستور العيارين وأخلاقياتهم مما كتبه أبو القاسم الراغب الاصفهاني عن التلصص وما يجري مجراه (٨٥) وشيئا من أحاديثهم ووصاياهم ، وما نقله عن الجاحظ في بضع فقرات من « وصية عثمان الخياط للشطار اللصوص » . بالإضافة لما ضمنه الجاحظ نفسه في كتابه « الحيوان » (٨٦) عن الوصية ذاتها . وعثمان الخياط يعد زعيم اللصوص الفكري ، لانه هو الذي وضع الاسس والمبادئ الحرفية والأخلاقية التي ينبغي ان يتصف بها اللصوص ، ونسب اليه انه قال : « ما سرقت جارا ، وان كان عدوا ، ولا كريما ، ولا كافأت غادرا بغدره » (٨٧) . ومن وصاياهم لأصحابه : « اضمنوا لي ثلاثا ضمن لكم السلامة : لا تسرقوا الجيران واتقوا الحرم ، ولا تكونوا اكثر من شريك مناصف ، وان كنتم اولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم اخراج الزكاة ، وجحودهم الودائع » .



وذكر الاصفهاني ايضا ان سليمان وكان أجلد عصابة العيارين « خرج ليلة بأصحابه الى دار بعض الصيارفة ، فاخففوا ، فلما أرادوا الانصراف ، قال بعض أصحابه : دعنا نقم على مفارق الطرق لناخذ من بعض المارة نفقة يومنا ، فقال : على ان لا تبطشوا بهم . فقالوا : وهل يفعل ذلك الا الجبان . فبينما هم كذلك اذ مر شاب ذو هيئة . فلما قرب سلم عليهم ، فرد عليه بعضهم السلام ، فقام اليه بعضهم ، فقال رئيسهم : دعه فانه سلم ليسلم ، واجابه بعضهم فصار له ذمة بذلك ، قالوا فنخلي سبيله ، قال : أخاف عليه غيركم ، ليذهب معه ثلاثة يوصلونه الى منزله ، ففعلوا ، فلما بلغ دفع لهم مالا وقال : لاحوطنكم بمالي وجاهي لما عاملتموني به . فلما عادوا بالدراهم قال رئيسهم : هذا أقبح من الاول تأخذون مالا على قضاء الذمام والوفاء بالعهد ، لا ابرح أو تردوا اليه المال : فقالوا : قد افتضحنا بالصبح . فقال : لئن نفتضح بالصبح خير من تضييع الذمام وقال : ما خنت ولا كذبت منذ تفتيت» (٨٨) .

أما الجاحظ في كتابه « اللصوص » فقد سرد نوادر اللصوص الشطار وطرائفهم وحيلهم ولطائف خدعهم . وهو بذلك يقدم فلسفة هؤلاء اللصوص ، ودوافعهم الكامنة وراء شطارتهم ، وما يسبغونه على سلوكهم من شرعية . فقد ضمن القاضي أبو علي المحسن التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » بعض ما ذكره الجاحظ في « اللصوص » عنهم . ومن ذلك قوله عن بعضهم : « ان هؤلاء التجار خانوا اماناتهم ، ومنعوا زكاة اموالهم . فصارت اموالهم مستهلكة بها . واللصوص فقراء اليها . فاذا اخذوا اموالهم - وان كرهوا أخذها - كان ذلك مباحا لهم . لان عين المال مستهلكة بالزكاة . وهؤلاء يستحقون اخذ الزكاة بالفقر . شاء ارباب الاموال ام كرهوا» (٨٩) .

ويستدل من استجواب التجار من قبل العيارين والشطار انهم بالفعل لا يزكون اموالهم رغم غناهم .

يتضح من خلال هذه الوصايا ، ومن اخبار العيارين ان العيار يخون أو يكذب منذ ان صار من اللصوص الفتيان . والسرقة بنظرهم هي سرقة كبار الاغنياء والبخلاء وغيرهم ممن لم يخرج زكاة أو يفش أو يكذب في معاملات الناس أو يجحد الودائع . فتلك في رأيهم هي اللصوصية الحقيقية . اذن المروءة والقيام بالفتوة هي من شيم هؤلاء اللصوص والسرقة في عرفهم عملا مشروعا مادام يتم من خلالها استعادة مال الله ( الزكاة ) من الفجرة والبخلاء ، واعادة توزيعه على مستحقه الشرعيين من وجهة نظرهم (٩٠) .



### الخلاصة :

في ضوء ما سبق عرضه من بدايات ظاهرة الشطار والعيارين في العصر العباسي الاول وتبلورها بشكل واضح في احداث الحرب بين الامين والمأمون ، ثم خفوت صوتها بعد ذلك لتظهر في حقب الاضطراب والفوضى الاجتماعية والسياسية والعسكرية في العصر العباسي الثاني ( التركي ) . وفي العصر العباسي الثالث (البويهى) . ومن خلال ممارسات افراد هذه الطبقة من العيارين والشطار والدستور الاخلاقي الذي التزمت به الغالبية لتسويغ ما تمارسه من أعمال اللصوصية أو لاضفاء الشرعية على استخدام وسائل غير شريفة لتحقيق غايات سامية نبيلة ، وهي استعادة ما كان قد سلبه الاغنياء من حقوق الفقراء ممثلاً بالزكاة - الفريضة المعطلة - بنظر هؤلاء العيارين . وان انتزاع هذه الاموال من أيوي المترفين واعادة توزيعها توزيعاً عادلاً على الفقراء والمعوذين أمر يقع داخل دائرة الواجب الديني . . من خلال ذلك كله يمكن ان نجمل اسباب بروز هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ابتداء من العصر العباسي الاول ، وان نضع تقييماً شاملاً لها .

ان بروز ظاهرة الشطار والعيارين كان نتيجة طبيعية لما آل اليه المجتمع الاسلامي في بغداد من تمايز طبقي وتباين اقتصادي . حيث عاش الامراء والقواد والاثرياء ، في مجتمع بغداد من قبل وفي مجتمع القاهرة والشام من بعد ، في غاية الفنى والترف . في حين كان العامة والعاطلون عن العمل ، واصحاب الحرف المحقرة يعيشون في اقصى درجات الفقر والحرمان . وكان هذا التباين بين من يموتون من التخمة ومن يموتون من الجوع وسوء التغذية يزداد عمقا ، في ظل الصراعات المذهبية ، او التكتلات القومية ( الشعبوية ) ، او الخلل الاقتصادي والتمزق السياسي ، ومن الطبيعي ان يترافق ذلك باضطرابات وفوضى ، وضعف سلطة الدولة ، وبالتالي اختلال الامن . فظاهرة العيارين والشطار اذن هي وليدة المجتمع . واحدى افرازات التباين الطبقي الاقتصادي التي صاحبها بالضرورة اختلال الامن ، مما انعش اللصوصية الفردية ، التي ما لبثت ان تحولت الى عمل شبه جماعي منظم ومدروس وله قواعد وقيم وتقاليد . ولكن ينبغي بالمقابل ان لا نغض اعيننا عن الوجه الاخر وهي اللصوصية الرسمية او لصوصية بعض الجند والقادة واصحاب السلطة في ظل ظروف الفوضى وغلبة العسكر على مقاليد الامور لتصبح بغداد مرتعا خصبا للفتن والقتال والاضطرابات . فكان العسكر اول من يعيث فيها فآخربوا البلاد ، ونهبوا العباد ، وقطعوا الطرق على حد تعبير الطبري وابن الاثير .

وكان العامة هم ضحية هذه الاوضاع السياسية المتردية في أرجاء الدولة ، وتقع



المسؤولية ابتداء على عاتق الدولة ، لأنها لم تكن جادة في الحد من التفاوت في الملكية والثروة بالطرق المشروعة لضمان حقوق وواجبات كافة الطبقات الاجتماعية ، ولتوفير الحد الأدنى من متطلبات الحياة للفقراء . لذلك كان المناخ مواتيا في ظل هذه الظروف لازدهار حركة الشطار والعيارين في بغداد . خاصة وان بغداد اكبر عواصم الدنيا ، تستقطب افواجا كبيرة من المهاجرين ، وجلهم من الطبقات الفقيرة الباحثة عن عمل . فظهرت فيها تجمعات بشرية يسودها الفقر والقذارة وعصابات اللصوص والعيارين هي من افرازات هذه الطبقات (٩١) . وكلما تعسفت الدولة العباسية في كبج جماع اللصوص ، كلما تفنن هؤلاء في ايجاد الوسائل للتمرد او الثورة على الاغنياء . ومع مرور الايام اصبحت اللصوصية الفردية بتنظم جماعي له قوانين ودستور اخلاقي واعراف وتقاليد ، وسوغت لنفسها ما تقوم به لصوصية لاضفاء الشرعية على هذه الاعمال حتى من ناحية دينية . ثم ما لبثت ان تحولت الى حركة شعبية بمن انضم اليها من اهل الاصناف والصنائع والحرف الصغيرة ، وهدفهم الاساسي موجهها للتجار الموسرين (٩٢) ومن يحميمهم من رجال السلطة . وكان من شيمهم الا يتعرضوا لاصحاب البضائع القليلة التي تكون قيمتها دون الف درهم فضلا عن احترامهم للمرأة ، فلا تفتش ولا تسلب ولا تهان .

والجدير بالذكر ان طبقة العيارين والشطار لم تشكل حركة سياسية كالزنج او القرامطة ، لانه لم يخطر ببالهم اساسا قلب نظام الخلافة ، او الثورة على الخليفة الشرعي ، لذلك رايناهم مع الخليفة الشرعي « الامين » ضد من ارادوا ان يطيحوا به . وكذلك الامر عندما ثاروا على الترك او البويهيين كانوا مع الخليفة ضد خصومه . وجل ما كانوا يتطلعون اليه هو ان يحظوا في تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية التي يحلم بها هؤلاء المحرومون . واذا كان خصومهم السياسيين ومن شايهم من المؤرخين الرسميين ، قد شوهوا غاياتهم النبيلة ، وان انتفاضتهم لم تكن سوى « انتفاضة حرامية » ، ففرغوا بطولاتهم حتى في وقوفهم مع الامين ضد قوات طاهر بن الحسين من اي مضمون سياسي . الا ان خصومهم لم يستطيعوا بنظر جمهور العامة ان يسلبوهم الجانب البطولي في مقاومتهم لجيش طاهر . على اعتبار انه في نظرهم ، جيش فارسي جاء لطيح بالخلافة العربية الهاشمية ولكن الذي ينبغي ان يسجل ايضا هنا هو انه يجب ان لا يظن ان كل الشطار والعيارين كانوا ابطالا او شرفاء ، وان جميع حركاتهم كانت انتفاضات ثورية واعية او ذات غايات نبيلة . اذ ان معظم الثورات الاجتماعية يندس فيها كثير من المشبوهين ، واصحاب المصالح . فما بالنا اذا كان ابطال مثل هذه الانتفاضات هم من الشطار والعيارين اساسا . بل نجد اكثر من هذا ان بعض ذوي النفوذ والسلطة من الحكام



كان متواطئاً مع حركة الشطار والعيارين (٩٢) بمعنى أن بعض أفرادها كانوا أدوات بيد السلطة العباسية وكانوا يتقاسمون ما يسلبونه مع بعض أفرادها .

ومجمل القول أننا عند دراسة ظاهرة الشطارة والعيارة لا نجد أنفسنا أمام نوع من اللصوص بالمعنى التقليدي ينبغي أن تطبق عليهم الحدود الشرعية أو الوضعية . ولكننا نجد أنفسنا أمام نوع جديد من اللصوص هم ثوار لم يستهدفوا الثورة ضد الخلافة الإسلامية أو النظام نفسه ، بقدر ما استهدفوا الثورة على الواقع الاجتماعي أو القائمين على النظام وذلك عن طريق احترام اللصوصية والعيارة (٩٤) وليس من شك أن هذه الحركة لجأت إلى أساليب متطرفة وغير مشروعة . لكنها وجدت ما يبرر سلوكها في وضعها الاجتماعي والفقر والحرمان الذي تعاني منه من ناحية . وفي تعسف السلطة القائمة بما مارسته من ظلم وقسوة من ناحية أخرى (٩٥) دون أن تلتفت إلى حل مشاكل الطبقات الفقيرة الذي هو أحد واجبات السلطة الرئيسية .

### الحواشي :

- |   |  |
|---|--|
| <p>منظور . فالصلوك لغة هو الفقير الذي لا مال له ، غير أن أبا زيد القرشي صاحب كتاب « جمهرة أنساب العرب » ص : ١١٥ يصف الصلوك بأنه الفقير المتجرد للغارات . ولعل القرشي هو أدق من عرف معنى الصلوك . والجدير بالذكر أنه حتى عروة بن الورد سيد الصماليك كان فقيراً مثل الصماليك الذين كانوا يتزددون عليه ويأوون إليه ( التبريزي : شرح حماسة أبي تمام : ٩/٢ ) . والصراع الداخلي بين القبائل في الجاهلية يرجع في بعض الأحيان إلى الفقر والجوع . انظر : ( الإصفهاني في حديث الأصمعي في الأغاني : ٣٩/١٤ ) . كما يقرر علماء الاجتماع أن الجوع هو أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان .</p> <p>انظر تفسير هذه الظاهرة في : يوسف خليف : الشعراء الصماليك ، مكتبة غريب ، القاهرة ص ٦٠ وما بعد .</p> <p>السيوطي ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ، الزهير : ٢٦٩/٢ .</p> <p>المصدر نفسه : ٢٦٩/٢ .</p> | <p>(١) انظر المعاجم اللغوية ومنها : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة عير .</p> <p>(٢) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة شطر .</p> <p>(٣) يقال : زعر ريشه أي قل وتفرق فانكشف الجلد . وزعر الرجل : قل خيره . والأزعر وجمعه زعر وزعران تعني اللص الخاطف المارد . والزعارة شراسة الخلق . وأهل الزعار تعني العيارين الذين يترددون بلا عمل ويطلقون للنفس هواها وعنانها . وتحمل مادة « زعر » و « دعر » في المعاجم اللغوية المعنى نفسه . وأما العياق فاصلها عاق . وعاق فلان أي صرفه عما أراد وحبس عنه والعائق الذي يعوق الناس عن عمل الخير . ورجل عائق هو المانع الذي يعوق الطريق ويقطعه عن الناس . انظر : مادة عوق في المعاجم اللغوية .</p> <p>— وأما الحرافيش فمفردتها حرفوش وتعني ذميم الخلق والخلق وهو المقاتل أو اللص . ( المعاجم اللغوية ، ومعجم دوزي ) منادة « حرفش » .</p> <p>(٤) انظر : مادة « صملك » في لسان العرب لابن</p> |
|---|--|



وانظر :

Muir, ( Sir William), The Life of Mohammed, Edniburg 1912, p. Xc.

(٢٠) الاصفهاني ، الاغاني ، ٣٩/١٤ - ( حديث الاصمعي ) .

(٢١) خليف ، ص ٢٤٧ .

(٢٢) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٧١/١٠ ( بولاق ) .

(٢٣) ابن الاثير ، اسد الغابة ، الوهبة ، القاهرة ١٢٨٠ هـ ، ١٧٨/٥ .

(٢٤) البلاذري : فتوح البلدان ، مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٢ م ، ص ٣٠٣ .

(٢٥) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتب البلدان ، نشر دي غويه ، بريل ليدن ١٨٨٥ م ، ص ٢٤٠ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٢٨) اللبدي ، العصر العباسي الاول ، ص ١٦٨ وما بعدها .

عبد المنعم ماجد ، اضواء على البرامكة ، الموسم الثقافي في بغداد ١٩٧٢ م .

(٢٩) انظر : فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، المطبعة الاردنية ، عمان ١٩٨٢ ، ٣٥/٣ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(٣١) الطبري ، تع. مجد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ٤٤٥/٨ .

(٣٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ ، ٢٦١/٦ .

(٣٣) المصدر نفسه ٢٧٢/٦ . وانظر السعودي : مروج الذهب ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦ ، ٤١٥/٢ والطبري ٤٥٠/٨ وما بعدها .

(٨) انظر :

E.R. Groves, Personality and Social Adjustment. U.S.A. P. 193 .

وانظر :

Mac, Iver, Society . New York. 1944 .

(٩) انظر : خليف ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(١٠) الاصفهاني : الاغاني ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٧٣/٣ وما بعدها .

(١١) القرشي : جمهرة انساب العرب ، ص ١١٥ .

(١٢) ابو عبيدة البكري ، الامشلال ، تحقيق : احسان عباس . مطبوعات جامعة الخرطوم / ١٩٥٨ ، ص ١٥٢ .

(١٣) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية في المصور الإسلامية ، دمشق ١٩٧٣ ، ص ٣٠ .

(١٤) سيد حنفي ، الفروسية في العصر الجاهلي ، دار المعارف / القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٠ .

(١٥) خليف ، ص ٢١٨ .

(١٦) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت ١٩٨١ ، ص ١١٥ .

(١٧) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ١٧٨/١ . وانظر : الابشيبي : المستطرف في كل فن مستظرف ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ٢٢٤/١ .

(١٨) الراقب الاصفهاني : محاضرات الادباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦١ ، ١٩١/٣ .

(١٩) Oleary (Delacy) , Arabia before Muhammad, London 1927, p 3

وانظر : كرات ( الكسندر هجرني ) ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .



د. محمد أرشيد الثقلي

- (٢٤) الطبري ، ٤٤٨/٨ .
- (٢٥) ابن الاثير ، ٢٧٣/٦ .
- (٢٦) الطبري ، ٤٤٨/٨ وما بعدها .
- (٢٧) الطبري ، ٤٥٤/٨ .
- (٢٨) ابن الاثير : الكامل : ٢٧٣/٦ .
- (٢٩) المصدر السابق ، ٤٥٥/٨ .
- (٤٠) وانظر المسعودي ٤١٤/٣ . وانظر ابن الاثير ، ٢٧٣/٦ ، ٢٧٤ .
- (٤١) ارجع الى ذلك في الطبري ، ٤٤٨/٨ - ٤٥٤ ابن الاثير ، ٢٧٤/٦ .
- (٤٢) الطبري ، ٤٥١/٨ .
- (٤٣) المسعودي ، ٤٠٢/٣ .
- (٤٤) المصدر السابق ، ٤٥٦/٨ .
- (٤٥) المسعودي ، ٤٠٤/٣ .
- (٤٦) الطبري ، ٤٥٨/٨ .
- (٤٧) المسعودي ، ٤١٤/٣ .
- (٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٥/٦ .
- (٤٩) الطبري ، ٤٥٨/٨ .
- (٥٠) المسعودي ، ٤٥٦/٣ . وانظر : الطبري ، ٤٥٦/٨ .
- (٥١) المصدر السابق ، ٤٦٦/٨ .
- (٥٢) ابن الاثير ، ٢٥٢/٦ . وانظر : الطبري ، ٤٧٦/٨ وما بعدها .
- (٥٣) الطبري ، ٤٦٣، ٤٦٢/٨ . وانظر المسعودي ، ٤١٦/٣ .
- (٥٤) المصدر نفسه ، ٤٦٣/٨ وما بعدها . وانظر : ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ .
- (٥٥) ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ . وانظر : الطبري ، ٤٦٣/٨ ، ٤٦٤ .
- (٥٦) ابن الاثير ، الكامل ٢٧٦/٦ . الطبري ، ٤٦٥/٨ .
- (٥٧) الطبري ، ٤٦٥/٨ .
- (٥٨) الطبري ، ٤٦٧/٨ . وانظر : المسعودي ، ٤٥٠/٣ . وهو ينسبها لشاعر آخر .
- (٥٩) المصدر نفسه ، ٤٦٨/٨ .
- (٦٠) الطبري ، ٤٦٧/٨ ، ٦٦٨ .
- (٦١) الطبري ، ٤٦٨/٨ .
- (٦٢) المصدر السابق ، ٤٧٠/٨ .
- (٦٣) المصدر نفسه ، ٤٦٩/٨ .
- (٦٤) المسعودي ، ٤٦/٣ .
- (٦٥) المصدر السابق ، ٤٧٥/٨ .
- (٦٦) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٦/٦ .
- (٦٧) انظر : الطبري ، ٤٦٧/٨ . وايضا : ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٧/٦ .
- (٦٨) الطبري ، ٤٧٦/٨ .
- (٦٩) المسعودي ، ٤١٠/٣ .
- (٧٠) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٧٧/٦ .
- (٧١) المصدر نفسه ، ٢٧٧/٦ .
- (٧٢) المسعودي ، ٤٢٠/٣٠ .
- (٧٣) وانظر : ابن الاثير ، الكامل ، ٢٨٣/٦ . وهناك اختلاف في بعض التفاصيل . واما الطبري فأورد المضمون ( ٤٧٨/٨ ) ولكن هناك اختلافات كبيرة فالسبعة الاف مقاتل ذكرها سبعمائة وكذلك عدد الخيول ذكرها ألفا وليس سبعة الاف .
- (٧٤) انظر : الطبري ، ٤٧٩/٨ .
- (٧٥) فاروق عمر ، ٥٥/٣ .



- (٧٦) انظر : المسعودي ، ١٦٠/٤ .
- (٧٧) ابن الاثير ، الكامل ، ١٣٦/٤ .
- (٧٨) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم :  
ص : ١٢٠ .
- (٧٩) ادم منز : الحضارة الاسلامية في القرن  
الرابع الهجري ، ترجمة عبد الهادي ابو  
ريدة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص : ٣٠ نقل عن  
مخطوطتي المنتظم وكتاب العيون .
- (٨٠) المسعودي ، ٤١١/٣ .
- (٨١) المسعودي ، ٤١٦/٣ .
- (٨٢) المصدر نفسه ، ٤١٧/٣ .
- (٨٣) المصدر نفسه ، ٤١٥/٣ .
- (٨٤) ابن تيفور ، تاريخ بغداد ، ص : ١٨٧ .
- (٨٥) الراغب الاصفهاني ، ١٩٨/٣ وما بعدها .
- (٨٦) الجاحظ ، الحيوان ، دار صعب ، بيروت  
١٩٧٨ ، ٣٩٢/٢ ، ٥٤/٣ .
- (٨٧) المصدر السابق ، ١٩١/٣ .
- (٨٨) المصدر السابق ، ١٩٢/٣ .
- (٨٩) القاضي ابو علي المحسن التنوخي : الفرج  
بعد الشدة : تع. عبود الشالجي ، دار  
صادر ، بيروت ١٩٧٨ ، ٣٣١/٤ وما بعد .
- (٩٠) الراغب الاصفهاني ، ١٩١/٣ .
- (٩١) انظر : علي الورد ، لمحات اجتماعية من  
تاريخ العراق الحديث ( ٦ اجزاء ) ، بغداد  
١٩٦٩ .
- (٩٢) د. حمدان الكبيسي ، اسواق بغداد ،  
الدار الوطنية ، بغداد ١٩٧٩ ، ص ٣٧٤ .
- (٩٣) انظر تفاصيل ذلك : حسين مؤنس :  
الحضارة ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٨ ،  
ص ٢٦٧ وما بعدها . استنادا الى ما ورد  
في الطبري ، ٤٦١/٨ وما بعدها .
- (٩٤) الجدير بالذكر ان كلمة عيار ظلت تستخدم  
في تركستان حتى وقت قريب بمعنى «اللص»  
التريف « الذي يلجأ الى أعمال اللصوصية  
لانه يفشل في تسوية وضعه الاجتماعي أو  
حريته السياسية .
- (٩٥) انظر الى ما اشارت اليه المصادر التالية :  
مسكويه : تجارب الامم ، تح امدرود ، مصر  
١٩١٤ ، ٣٠٣/٦ . الخطيب البغدادي :  
تاريخ بغداد ( ١٤ جزء ) القاهرة ١٩٣١ ،  
٨١/١ .
- اليقوي ، ليدن ١٩٨٢ ١٢٢/٣ - ١٤٦ .  
وانظر محمد رجب النجار : حكايات الشطار  
والعيارين في التراث العربي ، المجلس  
الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ١٩٨١ ،  
ص ٧٩ وما بعدها .









## رأي للمناقشة

### حول أصل الاسم « سورية »

د. فاروق اسماعيل

جامعة حلب

على أرض شرقنا القديم نهضت أقدم الحضارات الإنسانية ، وسطرت أقدم الوثائق الكتابية التي تروي صفحات زاهية عن تاريخ المنطقة بمختلف جوانبه . وكانت أرض سورية موئلا ثرا حيويًا ، ففي رحابها وأركانها تجولت القوافل التجارية ، وازدهرت الحياة الزراعية والرعوية ، وبرزت ممالك ودويلات ، ودارت جولات من الحروب . كذلك برع سكانها في إبداع ثقافية متميزة شملت الفنون والآداب .

منذ أواخر القرن الماضي ظهرت آراء كثيرة في تفسير أصل الاسم « سورية » ، وتحول الأمر إلى موضوع مثير ومسألة تعددت فيها الآراء إلى حد كبير ، دون الوصول إلى نتيجة نهائية . والسبب في ذلك هو غياب الوثائق التاريخية العلمية التي تقدم تفسيرًا مباشرًا ، لذا يبقى الأمر في إطار الاقتراحات المعتمدة على استنتاجات شخصية ذاتية . وهنا يبرز الاختلاف في المنطلقات والمصادر المعتمدة وكذلك في الغايات المنشودة ، وليست جميعها علمية تاريخية . وهكذا تعددت الآراء بشكل لانجده في كثير من المسائل الأخرى .

هذه محاولة لبسط جميع الآراء التي طرحها المستشرقون المختصون في حضارات الشرق القديم مع مناقشة لها . وهي لا تهدف إلى تقديم جواب نهائي للمسألة ، لأن ذلك في اعتقادي سيكون في المحصلة إغلاقاً لباب يجب أن يبقى مشرعا ريشما تتوافر قرائن ووثائق أخرى .

لا خلاف في أن الاسم بصيغته الحالية يوناني ، وأن أول من ذكره هو المؤرخ هيرودوت ( ولد سنة ٤٨٤ ق.م ) ثم كسينوفون ( ٤٢٦ - حوالي ٣٥٥ ق.م ) . ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه هو : علام اعتمد اليونان في هذه التسمية ؟ وما المصدر الذي اشتق منه الاسم ؟ وما التبدلات التي طرأت عليه . . . ؟ الخ .

لعل المستشرق الألماني نولدكه<sup>(١)</sup> T. Nöldeke هو أول من تعرض للمسألة عام

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



١٨٧١م ، ورأى ان الاسم مشتق من اسم بلاد آشور ( شمال بلاد الرافدين ) ، ثم انتقلت الدلالة الجغرافية وتوسعت لتشمل المنطقة المتاخمة لها غربا .

في اعتقادي ثمة شرطان اساسيان يجب ان يتوافرا في مطابقة من هذا النوع ، اعني الاطار الجغرافي الموحد والتوافق في الاشتقاق اللغوي . وواضح ان رأي نولدكه يفتقر لكليهما ، فلبلدين منذ القديم حدود متميزة خاصة ، وان تعرضت عبر التاريخ الى التداخل والانساع او التقلص ، وتباين في كثير من المقومات والمظاهر الحضارية ، واختلاف في الهوية السكانية . ومن ناحية ثانية ليست لدينا شواهد مماثلة تبين حدوث مثل هذا الانتقال الدلالي الجغرافي الذي يطرحه نولدكه .

لقد خلط نولدكه ، كما فعل عدد من كتاب العصر الكلاسيكي ، بين الاسمين بسبب التشابه اللفظي ، وهو اتجاه مرفوض في دراسات علم اللغة رفضا قاطعا .

في قاموس العهد القديم ، الصادر عام ١٩٠١ ، يتجه سميث(٢) اتجاهها اخر اذ يربط بين الصيغة اليونانية للاسم ( سوريا ) واسم مدينة صور المعروفة . وهو يرمي الى تأكيد الاصل العبري للاسم لقناعته بأن كلمة صور عبرية بمعنى « الصخرة » المنحدر الصخري » . وما يفند هذا الزعم امران ، هما :

١ - كلمة صور ليست عبرية فحسب ، وانما هي من الكلمات التي تشترك فيها عدة لغات سامية قديمة ، فقد وردت في ملحمة جلجامش المدونة باللغة الاكدية ( البابلية القديمة ، النصف الاول من الالف الثاني ق.م ) دالة على الصخور(٣) . كما وردت اسما لمدينة صور في الكتابات الاوغاريتية ( القرن الثالث عشر ق.م ) (٤) ، ثم في النقوش العبرية ( نقش سيلوح ) (٥) . وفي الارامية الدولية ( القرن الخامس ق.م ) تحولت الصاد طاء ( طور ) (٦) ، وكذلك في السريانية بمعنى « هضبة ، جبل » (٧) .

٢ - معروف ان اليونان عرفوا المدينة باسم Tyre ( تلفظ تور ) ، اي بالتاء ، وهي صيغة متأثرة بالارامية على الأرجح . فاذا كانوا قد اشتقوا اسم سوريا من صور ، فلماذا ابدلوا الصاد تاء ؟.

وفي عام ١٩٤٥ نشر ه . كراب(٨) دراسة عن اله اناضولي قديم يصور في هيئة اسد ويسمى « سوريا » ، وحاول الربط بين الاسمين . وهو رأي لا يدعمه سوى التشابه اللفظي ، ولا تسنده اية أدلة علمية .

في الآونة الاخيرة ساد بين اوساط الباحثين رأي يلقي قبولا . وهو يتلخص في ان الاسم مشتق من اسم الشعب الخوري ( في الدراسات العربية : الحوري ،



الحوريون ) . والحوريون شعب لا يمت بصلة الى مجموعة الشعوب المعروفة بـ ( السامية ) ، ولكنه اصيل في منطقة الشرق الادنى القديم ولا سيما سورية . وهو من الشعوب الهند اوروبية ، كان مستقرا في البدء في مناطق شمال غرب ايران وارمينيا وفي اواخر الالف الثالث ق.م بدأ بالانتقال والتفغل جهة الغرب والجنوب الغربي ، وتوزع في اصقاع شتى من بلاد الرافدين وسورية ، وبدأ ذكر الحوريين يتردد في الوثائق الكتابية المسمارية بدءا من الفترة المسماة بـ « عهد سلالة اور الثالثة او البعث السومري » ، وكان لهم وجود متميز في أبرز المراكز الحضارية في الالف الثاني ق.م مثل : نوزي ، ارابخا ، شبت انليل / شخنا ، ماري ، ايمار ، الالاح ، اوغاريت .

شكل الحوريون عنصرا اساسيا في المملكة التي انشأها الميتانيون في منطقة مثلث الخابور ( حوالي ١٤٦٠ - ١٣٣٠ ق.م ) ، وكانت واشوكاني - التي يفترض وقوعها في منطقة منابع الخابور - عاصمة لها . في عهد هذه المملكة برزت علاقات متميزة بين حكام ميتاني والسلالات الحاكمة في مصر ، وتبادلوا الرسائل وعقدوا الاتفاقات للحد من الخطر الحثي . وبشكل عام سيطر الحوريون لفترة من الزمن على معظم مناطق شمال وشمال شرق سورية ، وكانت نهاية سيادتهم السياسية على يد الحثيين .

تطلق الوثائق الكتابية المصرية اسم خورو على المناطق السورية ، وبالاسم نفسه ذكرتها الرسائل المكتشفة في تل انعمارنة بمصر ، وهي رسائل مدونة باللغة الاكدية تبادلها امراء سورية وفلسطين مع فراعنة مصر ( القرن الرابع عشر ق.م ) وكان الاسم يشير الى المنطقة المجاورة لمصر من جهة الشمال مقابل اسم كوش الذي كان يشير الى المنطقة الواقعة جنوب مصر . كما سمي المصريون البحر الاحمر - وفي بعض المصادر البحر المتوسط - باسم « بحر خورو » لانه يفصل بلادهم عن بلاد خورو . اما النصوص المصرية القبطية التالية فقد اطلقت عليه اسم « بحر شوري » (٩) .

لذلك يعتقد ان اصل الاسم هو ( خ ر و ) ، ثم ابدلت الخاء في القبطية شيئا ( ش ر ي ) ، وهو ابدال مقبول لتوافر شواهد عدة مماثلة في النصوص القبطية . كما ان الابدال بين الصائتين ( و/ي ) امر مألوف شائع . وجدير بالذكر ان الاسم ورد بالصيغة نفسها - مع اضافة النون - في وثائق اوغاريت ( شوري ) (١٠) .

ويرى الداهيون الى هذا الرأي ان اليونان اعتمدوا على الصيغة الاخيرة بعد قلب الشين سينا ، وهو شائع ايضا .

من جانب آخر فان اسم شوري شائع في الوثائق المسمارية ، ويطلق دائما على مواقع ومدن حورية . فثمة مواقع عدة بهذا الاسم كانت مأهولة بالحوريين ، وتقع



في مناطق متفرقة . فقد اوضحت دراسات تناولت المعطيات التاريخية الجغرافية في الوثائق المسمارية وجود مدينة باسم شوري في منطقة مديات التركية ( ربما في تل سوار غرب مديات ) (١١) . واخرى في منطقة مثلث الخابور ذكرت في وثائق شاعر بازار وماري وتل ليلان (١٢) . كما اشير الى مدينة بالاسم نفسه في وثائق فوزي ( يورغان تبه قرب كركوك ) .

ومن الاراء التي يمكن عدّها ثانوية تفتقر الى حجج مقنعة نذكر :

١ - الاسم مشتق من اسم جبل حرمون بصيغته المذكورة في العهد القديم (سريون) (١٣) .

٢ - مصدر الاسم هو الاسم المذكور في نقش للملك كسرى ، حيث ورد فيه ( سيرا را وجبل لبنان ) (١٤) .

معلوم ان منطقة سورية عرفت في النصف الاول من الالف الاول ق.م باسم آرام ( العليا والسفلى ) (١٥) لانها كانت مأهولة بالاراميين الذين انتشروا في مختلف أرجائها ، واسسوا فيها ممالك ودويلات صغيرة كانت في صراع دائم مع الاشوريين بهدف التخلص من نفوذهم في المنطقة (١٦) . كما أن اللغة الارامية في ذاك العهد تفردت بخصائص لغوية مستقلة (١٧) . بعد ذلك انتشرت الارامية كلفة مراسلات دولية في مناطق متفرقة وصلت ايران وما وراءها ومصر . ثم برزت خصوصيات لهجوية واضحة بسبب سعة رقعة الانتشار الجغرافي وتعدد الممالك لدرجة تسمح بالحديث عن لغات آرامية منها : التدمرية والنبطية والفلسطينية ، وآرامية جزيرة الفيلة بمصر ، وaramية مملكة الحضر . . وغيرها .

في القرون الاربعة السابقة للميلاد شهدت ارض سورية صراعات بين القوى الاجنبية على ارضها كالفرس واليونان والرومان . وكان سكانها الاراميون والعرب يحاولون اثبات الذات والاستقلال بشؤونهم ، وقد انعكس ذلك في الاحداث التي شهدتها أبرز المدن أو الممالك السورية كتدمر والبتراء والزها وانطاكية . .

لقد تبني اليونان الاسم الجديد للبلاد ( سوريا ) ونشروه بدلا من ( آرام ) ، واعتمادا على ذلك سمو سكان البلاد ايضا باسم جديد هو ( سوريان ، سريان ) أي السوريين في صياغة يونانية . ومع فجر الديانة المسيحية التي اعتنقها قسم كبير من السكان ، تمسك هؤلاء بالتسمية الجديدة التي توجد بينهم ، ونبذوا الاسم القديم لهم ( الاراميين ) . لانه يذكر يهود وثنيتهن .



في هذه الفترة تميزت مملكة الرها الارامية الاصل كمركز اساسي هام من مراكز الديانة الجديدة ، وبرزت كذلك لغة الرها ، وانتشرت وطفقت على اللغات الارامية الاخرى التي اختفى استعمالها مع مرور الزمن . وكان طبيعيا ان يشمل تغير اسم المكان اسم لغتهم ايضا ، فصارت تسمى ( السورانية ، السريانية ) اي السورية في صياغة يونانية ايضا .

فالناطقون بهذه اللغة في عصرنا هم آراميو الاصل سوريو الموطن مسيحيو الديانة .

### الهوامشي :

- |   |   |
|---|---|
| <p>(١٠) انظر المرجع المذكور في الحاشية (٤) .<br/>ص ٤٩٥ .</p> <p>(١١) انظر :</p> <p>K - H. Kessler : Untersuchungen zur historischen Topographie Nordmesopotamien ..... 1979, 57 ff.</p> <p>(١٢) انظر :</p> <p>F. Ismail : Altbabylonische Wirtschaftsurkunden aus Tall Leilan ( Syrien ) . Diss. Uni . Tübingen, 1991, 147 .</p> <p>(١٣) ذكر في سفر التثنية ٢ : ٩ والمزامير ٢٩:٦ .</p> <p>(١٤) راجع :</p> <p>J. B. Pritchard : ANET, 291.</p> <p>(١٥) راجع مثلا النقوش المكتشفة في السفيرة ( قرب حلب ) .</p> <p>(١٦) راجع : علي ابو صاف : الاراميون . دار أماني ١٩٨٨ .</p> <p>(١٧) حول لغة تلك الممالك الارامية القديمة راجع : فاروق اسماعيل : لغة نقوش الممالك الارامية رسالة ماجستير . جامعة حلب ١٩٨٢ .</p> | <p>(١) راجع : Hermes 5 (1871) 443-468</p> <p>(٢) Smith's Bible Dictionary (Syria) 669</p> <p>(٣) راجع معجم اللغة الاكدية : W. von Soden: AHW 1115.</p> <p>(٤) راجع معجم اللغة الاوغاريتية : C. H. Gordon : Ugaritic Textbook. 476 .</p> <p>(٥) راجع معجم النقوش السامية الشمالية الغربية : Ch—F. Jean; J. Hoftijzer : DISO, 247 .</p> <p>(٦) انظر المعجم نفسه ، 110 .</p> <p>(٧) انظر قاموس كوستاز ص ١٢٥ .</p> <p>(٨) H. Krappe: The Anatolian Lion God . JAOS (1945) 144-145.</p> <p>(٩) راجع الدراسة التالية والمراجع المذكورة فيها :</p> <p>J.A. Tvedtnes : The Origin of the Name «Syria». JNES(1981) 139-140 .</p> |
|---|---|







## متى كان لسورية والعراق حدود مميزة خاصة؟!

د. محمد محفل

يسرد لنا الباحث في الدراسة التالية عدة آراء حول اشتقاق اسم « سورية » ليستبعدها بشكل أو بآخر ، باستثناء الرأي القائل أن الاصل اسم « سورية » ارتباطا باسم الشعب « الخوري / الحوري » ، ولحسن الحظ أن الباحث يقول في فاتحة الدراسة ، ان اجتهاده لا يهدف الى « تقديم جواب نهائي للمسألة » ، لان ذلك في اعتقادي سيكون في المحصلة اغلاقا لباب يجب ان يبقى مشرعا ريثما تتوافر قرائن ووثائق أخرى . « واعتمادا عليه ، نعرض رأي ( لجنة الاشراف على مجلة «دراسات تاريخية» ) لتوضيح بعض النقاط ، شاكرين للكاتب تعاونه واهتمامه بموضوع ، صريح الصلة بتاريخنا القومي .

من الامور المسلم بها ، واعتمادا على الوثائق المعروفة حتى الان ، كان المؤرخ اليوناني ( هرودوتس ، حول ٤٨٤ - حول ٤٢٠ ق.م . ) اول من ذكر التسمية الجغرافية « سورية » في مؤلفه ( التاريخ ، الكتاب الاول ، ١٠٥ ، الخ.٠ ) ، ثم شاعت التسمية فيما بعد لدى غيره من الكتاب الاغريق ، قبل ان تعم في الكتابات اللاتينية ، اعتبارا من القرن الاول ق.م ، والجدير بالذكر وجود اشارة الى « سورية ، سوري » في مصدر يوناني آخر ، للشاعر المسرحي اليوناني اسخيلوس ، حول ٥٢٥ - حول ٤٥٦ ق.م . ) في مسرحيته « آغا ممنون ١٣١٢ » ، مشيرا الى قصر الملك ، الذي غدرت به امرأته بمساعدة عشيقها ، بعد عودة « آغا ممنون » من حرب طروادة : « وكأن الدار ، عندما نسمعك ، لا تعبق بالاريج السوري » ، علما ان « اسخيلوس » قد وضع « آغا ممنون » ( اولى ثلاثيته المأساوية ، اورستيا ) قبل تواريخ هرودوتس بعشرات السنين .

يطرح الكاتب عدة تساؤلات حول أصل التسمية « سورية » والتبدلات التي طرأت عبر العصور - على مصدرها ( الخوري / الحوري ) لنذكرها لاحقا باسم « سورية » اعتبارا من عصر هرودوتس . ويبدأ بتنفيذ قول المستشرق الالماني

---

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



#### د. محمد محفل

( ثيودور نولدكه T. Noeldeke ، ١٨٣٦ - ١٩٣٠ ) ، الذي ربط بين اسم « سورية Syria » و « آشور Assyria » ، شمال بلاد الرافدين « . ويسرى الكاتب ، أن رأي ( نولدكه ) يفتقر الى شرطين أساسيين ليصبح مقبولا ، أما هذان الشرطان ، فهما في رأي الكاتب :

١ - الاطار الجغرافي والتوافق في الاشتقاق اللغوي .

٢ - وجود شواهد جغرافية مماثلة تدعم فرضية المستشرق الالماني .

فيما يتعلق بالشرط الاول يقول الباحث ، ردا على نولدكه « .. فلبلدين منذ القديم حدود متميزة خاصة ، وإن تعرضت عبر التاريخ الى التداخل والاتساع والتقلص ، وتباين في كثير من المقومات والمظاهر الحضارية ، واختلاف في الهوية السكانية .. » .

وهنا ، وفي رأينا ، لابد من القول اننا لا نشارك الباحث في رأيه .. فمتى كان للبلدين حدود متميزة خاصة ، سواء في العصور القديمة ام العربية الاسلامية ، والحديثة فالمعاصرة ، حتى الحرب العالمية الاولى ، فاتفاقية ( سايكس - بيكو ) ؟! ولو أخذنا حصرا الديار الاشورية ، ولا نعني الامبراطورية الاشورية الحديثة ، بأطرافها المترامية ، أفليست هي حاليا ( محافظة نينوى وعاصمتها الموصل ) المتاخمة لمحافظة ( الحسكة / الجزيرة ) .

تم ، أين تقع ( تل ليلان : شوبات انليل / شخنا ) حاضرة الملك ( شمش أدد الاول ، القرن الثامن عشر ق.م ) ، الاموري الاصل والذي اعتلى عرش آشور ، ليست في الجزيرة السورية ( ٢٥ كم الى الجنوب الشرقي من مدينة القامشلي .!؟ ) فهل ننسبها الى الاشوريين أم الى الاموريين الغربيين ( السوريين ) .. ؟ ومن أين انطلق مؤسسو السلالة البابلية الاولى ( القرن التاسع عشر - السادس عشر ق.م ) ؟! من الغرب كما نعلم ( سورية ) .

أما الحمدانيون ، فعلى العكس ، انطلقوا من ديار الموصل وأرض الجزيرة السورية غربا ليجعلوا من حلب حاضرة امارتهم .

ثم تأتي الى اتابك الموصل ( عماد الدين زكي ) فنور الدين الشهيد وصلاح الدين الايوبي ، ألم ينطلقوا من شمال العراق ، بلاد آشور نحو الغرب سورية فمصر ؟!



وكيف تغيب عن بالنا ( قضية الموصل ) والصراع على نفطها ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ورسم الحدود المصطنعة ( سايكس / بيكو ) ؟! .. فهل هي سورية ( في رأي فرنسا ) أم عراقية ( وفقا لمنطق الاستعمار البريطاني ) .

ثم الملك فيصل الاول ، الم يكن في سورية قبل ان يعتلي عرش العراق ؟! ونعد بالمشرات الزعماء السوريين الذين انتقلوا معه الى العراق ولعبوا دورا كبيرا في تاريخ العراق المعاصر .

فهل بعد هذا يمكننا القول ان للبلدين « منذ القديم حدودا متميزة خاصة .. » ؟!

اما بالنسبة للشرط الثاني : انتقال الدلالة الجغرافية ، فدراسة لفوية تاريخية لمختلف اسماء المواقع الجغرافية في بلادنا . تؤكد مفهوم « الشواهد الماثلة » .

وبالاضافة لكل ذلك ، فهرودوتس الذي اطلق تسمية « سورية » هو نفسه الذي عمم اسم « فلسطين » ( الكتاب الاول ، ١٠٥ ، الثاني ١٠٤ ، الثالث ٩١ ، الخ . ) .

اما النص الذي يجعلنا نميل الى ما ذهب اليه نولدكه - ونعتقد ان المستشرق الالماني قد اعتمد عليه لبناء فرضيته - هو التالي ( هرودوتس ) الكتاب السابع ، ٦٣ : « والاشوريون كان لهم خوذ نحاس منسوجة ومشبكة بطريقة غريبة الوصف ، وحرابهم وقراسهم وخناجرهم تشبه تقريبا سلاح المصريين ، وفوق ذلك كانوا يحملون نبايت خشب لها عجر من حديد ودروعا كتانية كاللباد ، وكان اليونانيون يسمونهم سوريين والبرابرة آشوريين وكان الكلدانيون منضمين اليهم وكان قائد الفريقين او تسبس بن ارتاخايس » .

نجد هذا المقطع في سياق النص الذي وضعه هرودوتس ، ساردا فيه وقائع الحرب الفارسية - اليونانية الثانية ( ٤٨١ - ٤٧٩ ق.م ) ، في عهد ( خشايارسا / سرخس ) الفارسي ، حيث حشد « ملك الملوك » قطيعا بشريا هائلا ، مؤلفا من مختلف شعوب الامبراطورية الفارسية ، الممتدة من أفغانستان حتى مصر .

نحن نعتقد ان ما جاء اعلاه يرجح قول نولدكه . ونود ان نطرح السؤال التالي :

لماذا نستبعد الاشتقاق « السامي » ونجهد النفس في البحث عن الاصل « الهندو - اوروبي » .. ثم ، ما هو الارث اللفوي ( الخوري / الحوري ) في الطبوغرافية التاريخية لبلادنا ، مقارنة بالالاف التي لا حصر لها لاسماء المواقع التاريخية والجغرافية لبلادنا .







## الملك والأسرة المالكة في فينيقية

د. أحمد حامدة

جامعة دمشق

يعالج هذا البحث دور الملك والأسرة المالكة في فينيقية . وفينيقية اسم أطلق على الأرض ، في حين سمي الشعب باسم الفينيقيين . والاسم اغريقي المصدر يرجع اشتقاقه إلى أصل لغوي معناه « الارجوان » .

تقع فينيقية على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وتتكون من أرض ضيقة محصورة بين مصب نهر العاصي شمالا ونهر بيلوس ( النعمين حاليا في فلسطين ) جنوبا ، يحدها من الشرق جبال اللاذقية وسلسلة جبال لبنان . ونظرا لاقتراب الجبال من البحر في معظم المناطق كانت الأراضي الصالحة للزراعة محدودة لا تفي باحتياجات السكان ، كما أن انتشار السلاسل الجبلية جعل اتصالهم بالداخل وفيما بينهم صعبا إلى حد كبير ، هذا بالإضافة إلى النزعة التوسعية لجيرانهم الأقوياء آنذاك من الآشوريين والبابليين ثم الاسكندر وخلفائه ، وغيرهم . كل ذلك ساعد منذ فترة مبكرة على تكوين «دويلات مدن» صغيرة مستقلة إداريا ، أو شبه مستقلة ، ودفع الفينيقيين إلى الاهتمام بالبحر وتوجيه أنظارهم نحوه (١) .

أطلق الفينيقيون على وطنهم اسم كنعان ، وهي كلمة لم يتفق الباحثون على معناها بعد . اسمها في الفينيقية ( كينع ، أو كنعان ) . ونجد في المصادر أنها أطلقت على البلد ، في حين أطلق اسم الكنعانيين على الشعب وظهر هذا الاسم بالقرن الخامس عشر قبل الميلاد في أحد النقوش الأكادية على تمثال أدريمي ، وعلى الشاهدة المصرية دمنوفيس الثاني في ممفيس ، كما ظهر في ألواح تل العمارنة أيضا .

إضافة لذلك تردد ذكر هذا الاسم في الكتابات على النقود في الفترة الهيلينية في فينيقية ، فقد ورد على أحد النقود « لأوديكييا في كنعان » ، كما استعمله فيلون الجبيلي في القرن الأول الميلادي . ونسبه إلى الكنعانيين سمي البونيون في القرن الرابع الميلادي chanani, chananaei (٢) .

إلى جانب ذلك ورد اسم كنعان في العهد القديم ، إذ يذكر أن لکنعان ولدين هما: صيدون وحيث (٣) .



وتذكر المصادر خمسا وعشرين مدينة تكونت خلال هجرة الكنعانيين على طول الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أهمها **أوجاريت ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، وطرابلس ، وأرواد ، وبيروت ، عكا ، الخ** . وكانت على طراز المدن في العالم اليوناني ، أي **دويلات مدن** ، كونت كل مدينة وحدة سياسية مستقلة ، تمتد سيطرتها على المدن والضواحي التابعة لها . وجدت بدون شك فترات مارست فيها إحدى المدن الكبرى الزعامة على المدن الأخرى . ولم تكن هناك تحالفات مدن بل تحالفات ذات غايات محددة وفترات مؤقتة ، كما كان الحال في مدينة صور إذ لم تكن هناك قيادة عسكرية موحدة (٤) .

تشكلت دويلات المدن هذه أرسقراطيا ، وكان معظمها مستقلا ، ولم تكن هناك علاقات بين المدن المتفرقة ، بل كانت هناك مطامح قوية لبعض المدن وفرضت سيطرتها في حدود المناطق المجاورة فقط ، لأن ذلك كان ضروريا لتأمين الزراعة لها ، وكان حكم هذه المدن ملكيا وراثيا ، وسلطة الملوك مطلقة ، وخصوصا قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اجتمعت في أيديهم المناصب الأخرى ، كمنصب القاضي وقائد الجيش وكبير الكهنة .

وبدءا من القرن الثاني عشر ق.م جلب المهاجرون من بحر إيجه نظريات بلادهم السياسية إلى فينيقية ، إلى صور وصيدا وجبيل وأرواد في القرن السادس قبل الميلاد ، وتطلع كل منهم إلى زيادة قوته على مر الزمن (٥) .

إلى جانب ذلك وجدت تسمية أخرى للفينيقيين وهي : **الصيدونيون** ، ولم يقصد بها سكان مدينة صيدا فقط بل كامل الشعب الفينيقي (٦) .

وبالنسبة لأصل الفينيقيين هناك آراء متعددة :

— أحد هذه الآراء تقل عن فيلون الجبيلي ، يصف الفينيقيين بأنهم سكان البلاد الأصليون ( جبيل ) ، ليس فقط الأشخاص وإنما الآلهة أيضا ، وبشكل مطلق فإن الحضارة الإنسانية بكاملها تنتسب إلى منطقتهم (٧) .

— غير أن هيرودوت يروي أنهم جاؤوا من البحر الإرتيري ( البحر الأحمر ) عبر البحر الميت إلى ساحل البحر المتوسط (٨) . في حين يرى سترابو وبلينيوس أن الموطن الأصلي للفينيقيين يقع على ساحل الخليج العربي حيث وجدت المدن والمعابد الفينيقية (٩) . ويذكر جوستينوس أن الفينيقيين شردوا من وطنهم بسبب هزة أرضية ، واستقروا أولا على البحر السوري ( البحر الميت ) ، ثم انتقلوا إلى ساحل البحر المتوسط (١٠) .



ومن المعروف ان الكنعانيين قد انتشروا من الجنوب باتجاه الشمال ، وتشير النصوص المكتشفة في راس شمرة ، والتي تعود الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى ان الفينيقيين قد زحفوا من شبه جزيرة سيناء او النقب ، وتوسعوا باتجاه الشمال ، وهذا ما يذكره هيرودوت ايضا ، الذي يقول انهم نزلوا في خليج العقبة قادمين من منطقة البحر الاحمر (١١) .

وقد اجمع الباحثون على ان الفينيقيين يعدون أحد اكبر الشعوب المتفرعة من الكنعانيين .

بدا التاريخ الحقيقي للفينيقيين مع نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اما الفترة الاقدم فمعلوماتنا عنها قليلة ، وهي خاصة بمناطق محددة ولفترات متقطعة كما يتبين من رسائل تل العمارنة واكتشافات جبيل . ويمكن تقسيم الحقبة من ٢٠٠٠ ( بدء هجرة الفينيقيين ) الى ١٢٠٠ قبل الميلاد ، الى اربع مراحل :

١ - المرحلة الاولى وامتدت حتى غزو الهكسوس لمصر ، قامت فيها بين المدن الفينيقية ومصر اتصالات نشيطة ، وظهر الفينيقيون خلالها تابعين لمصر .

٢ - المرحلة الثانية بدأت مع خضوع مصر للهكسوس نحو ١٧٠٠ ق.م وانتهاء السيادة المصرية على فينيقية لتحل محلها سيادة الهكسوس .

٣ - المرحلة الثالثة وتمتد حتى ١٤٠٠ ق.م وتبدأ بعودة المصريين لغزو فينيقية والزام المدن الفينيقية بدفع الجزية للمصريين ( حبوب - زيت - خمر - بخور ... ) .

٤ - مع امنوفيس الثالث ( ١٤١١ ق.م - ١٣٧٥ ق.م ) تبدأ المرحلة الرابعة ، وانتهت بزوال النفوذ المصري عن فينيقية بصورة نهائية (١٢) .

واما الحقبة ما بين ١٢٠٠ و ٧٥٠ ق.م أي عصر الاستقلال : فقد اتصفت بتأسيس ما عرف بالمستعمرات الفينيقية في منطقة البحر المتوسط بكاملها ، ووصول الكتابة الفينيقية والنتائج العلمية والفنية الى اليونان ، وتأسيس قرطاجة .

وفي الفترة الواقعة بين ٧٥٠ ق.م والفتح العربي الاسلامي ، كان على المدن الفينيقية ان تفقد الكثير من استقلالها .

ففي ظل الملك الاشوري تغلات فلاصر الثالث ( ٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م ) اصبح جزء كبير من فينيقية مقاطعة آشورية ، وقد أدى تعيين الاشوريين للملك في صيدا ووالد في صور الى دفع الجزية لهؤلاء ، وتقبيد استقلال الفينيقيين بشكل دائم .



وفي ظل السيادة البابلية الحديثة ، تم القضاء على الملكية من قبل القضاة ، وبقي الاستقلال محدودا ، وبانتهاء السيادة البابلية على يد الفرس ، حصل الفينيقيون مرة أخرى على قدر كبير من الاستقلال ، إلا أنهم ظلوا تحت السيادة الفارسية ، وكان عليهم دفع الاتاوة . وبعد محاولات فاشلة في القرن الرابع قبل الميلاد في سبيل الحرية والخلص من الفرس ، وقع الفينيقيون تحت سيادة الاسكندر الكبير (٣٢٣ ق.م) ، الذي دمر مدينة صور لمقاومتها . وخلال العصر الهلنستي ازداد النفوذ الهليني وادى بالتالي الى اختلال التاريخ الفينيقي ، فظهر تاريخ للمدن الفينيقية المتصارعة ، التي ازداد ضعفها فيما بعد لتصبح لعبة في يد القوى المتصارعة في سورية وفلسطين .

وبعد غزو الرومان لفينيقية حصلت المدن الفينيقية من جديد على استقلالها ، واصبحت مركزا للتجارة والثقافة في ظل (السلام الروماني) وحتى العصر البيزنطي (١٢) .

والمعروف أن الفينيقيين اخترعوا الأبجدية ، وأعطوا لأوربة اسمها ، واشتهروا بالملاحة البحرية وكانوا من أفضل الملاحين البحريين في العالم القديم ، فطافوا حول أفريقية ، وساهموا في تطوير صناعة الزجاج وصقله ، ولمع اسمهم في صناعة الصباغ الأرجواني بلونيه ، الزهري والقرمزي . مع العلم انه لم يتاجروا بالصباغ الأرجواني نفسه بل بالقمشة المصبوغة به ، وكان باهظ الثمن والحصول عليه يكلف مبالغ طائلة ، كما كان استعماله مقتصرا على الطبقات الحاكمة والغنية آنذاك (٩) . بالإضافة الى ذلك برز الفينيقيون في صناعة العاج والحفر على العظام ، وعملوا بصيد الأسماك والأعمال البحرية على السواحل ، وسيطروا فيما بعد على البحر ، وبنوا الموانئ ، وتوسعوا في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وأسسوا المحطات التجارية والبحرية وامتد نفوذهم حتى انكلترا (١٤) .

واعتمادا على المصادر المتوافرة سوف نحاول أن نعطي فكرة عن دور الملك والاسرة المالكة في فينيقية ونوضح ذلك بالدليل ، لغويا وتاريخيا . وقبل الشروع في ذلك لا بد من الإشارة الى أن البناء الاجتماعي في المجتمع الكنعاني الفينيقي كان على شكل هرمي ، تبدو فيه العناصر المتدرجة التالية :

الملك والاسرة المالكة ، النبلاء ، الكهنة ورجال الدين ، الجيش ، الموظفون ، التجار والصناع والاحرار الآخرون ، والعاملون في مجال الزراعة وصيد الأسماك ، وأخيرا العبيد .

وقد قسمت فئات الشعب بشكل عام الى ثلاث فئات : الاحرار وانصاف الاحرار والعبيد (١٥) . سمي الملك ملك بالفينيقية (١٦) ، وقد استعملت هذه التسمية في صيغ كما نلاحظ في الأمثلة التالية :



— (أبي بعل ملك جبيل) (١٧) . وأبي بعل اسم معناه «أبي هو بعل» وهو اسم لعدة ملوك بينهم ملك من جبيل ، وملك من سامسيمورونا ، ذكر كخصم لآسر حدون (٦٨٠ ق.م – ٦٦٩ ق.م) وآشور بانيبال (٦٦٨ ق.م – ٦٢٦ ق.م) وورد عند المؤرخ يوسفوس أن والد حرام ملك صور يحمل الاسم 'Abi Balos' (١٨) .  
مدينة جبيل تبعد حوالي ٣٠ كم (الخط الجوي) إلى الشمال من بيروت على البحر الأبيض المتوسط وهي مدينة فينيقية مع ميناء ، سميت عند الآشوريين Gubla جبلا ، ودعيت في الكتابات المصرية القديمة خلال فترة الدولة الوسطى باسم Kap - ni كابني ، وفي كتابات أخرى Kpn كبن وفي الكتابة السومرية في عهد سلالة أور الثالثة عرفت باسم Ku - ub - la(ki) كوبلا ، وفيما بعد سميت جبلا ، جبلي Gub /Gu-ub-la/li (uru) وفي العهد القديم Gebal ، وفي اليونانية بيبلوس Byblos ، وفي اللاتينية بيبلو ، واسمها الحالي في العربية جبيل (١٩) .

— (يحيملك ملك جبيل) (٢٠) . ويحيملك : وهو اسم مفرد علم معناه اللغوي «يحييا الملك» (٢١) .

— (إيلي بعل ملك جبيل) (٢٢) . إيلي بعل : هو اسم مفرد علم معناه «إلهي هو بعل» (٢٣) .

— (شفط بعل ملك جبيل) (٢٤) وهو اسم مفرد علم معناه «بعل قد قضى» . وقد ورد ذكر الملك si - pi - it - ti - bi - > - il/lu الأول من جبيل ضمن قائمة ملتزمي الضرائب أيام تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م) ، وبذلك يكون قد حكم حوالي عام ٧٤٠ ق.م ، بينما هناك ملك آخر يحمل هذا الاسم يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد .

يظهر الاسم عند آشور بانيبال الثاني كما يلي : sa - pa - ti - ba - al  
ويذكر في الواح تل العمارنة : si - ip - ti - Ba' Lu ، وفي الوثائق والمستندات الآشورية Is - pi - it - ti - I (lu ?) (٢٥) .

— (يحاو ملك جبيل) (٢٦) . ويحاو ملك معناه «حي الملك» أو «الملك الحي» (٢٧) .

— أورو ملك ملك جبيل (٢٨) أورو ملك : اسم علم معناه : «نور الملك» ، أو «الملك هو النور» انظر اسم الملك Iu - ru - mil - Ki (٢٩) .

— (عزي بعل ملك جبيل) (٣٠) وعزي بعل هو اسم علم معناه «بعل هو قوتي» ، عزي ، وقد ظهر هذا الاسم عند آشور بانيبال الثاني A - Zi - ba - > - al ، أسس



هذا الملك سلالة جديدة وعرف اسمه من خلال قطع نقدية كثيرة ، وحكم حوالي نهاية فترة السيادة الاخمينية (٢١) .

— ( فومي ياتون ملك كيتيون ودالي . . ) (٢٢) وفومي ياتون اسم علم معناه : « فومي قد اعطى » . حكم هذا الملك من ٣٦١ ق.م — ٣١٢ ق.م ، واعدم اخيرا من قبل بطلميوس الاول سوتير (٢٣) .

اما كيتيون فهي مدينة لارنكا في قبرص اليوم ، اهم مدينة في الجزء الشرقي من الجزيرة ولها ميناء طبيعي . وقد اطلق اسم الليتين على القبارصة عموما في كتاب العهد القديم ، واخيرا شمل هذا الاسم جميع سكان جزيرة قبرص (٢٤) . واديل هي مدينة دالي اليوم ، وتقع الى الشمال الغربي من كيتيون ( لارنكا ) في وسط قبرص ، وظهرت في المسمارية باسم *(uru) E-di-i-il* في قائمة ملتزمي الضرائب لاسر حدون ، وخضعت ايضار لاشور بانيبال (٢٥) .

— ( ملكياتون ملك كتيون ودالي . . ) (٢٦) . وملكياتون هو اسم علم معناه « الملك قد اعطى » ، وملكياتون والد فومي ياتون . حكم ملكياتون ما بين ٣٩٢ — ٣٨٨ ق.م ، ثم ابعد لمدة سنة عن السلطة عندما احتل الاثينيون بقيادة خابرياس قبرص ، وعينوا الملك ديمو نيكوس بن هيبو نيكوس على كيتيون ، وبعد سنة عاد ملكياتون الى مدينته وحكم حتى سنة ٣٦١ ق.م (٢٧) .

نستنتج من الامثلة السابقة ان الملك كان ملك مدينة ، وسنجد في الامثلة التالية شكلا آخر للملكية ، الا وهو ان الملك ملك شعب او قبيلة .

— ( الملك اشمن عزرمك الصيدونيين . . ) (٢٨) . واشمن عزر اسم علم معناه « اشمن قد ساعد » ، واشمن هو اله الصيحة ( الشفاء ) ، والمائل له عند الاغريق هو الاله اسكليبيوس . والاله اشمن معروف من خلال الاسماء والمعابد في صيدا وقبرص وسردينيا وقرطاج ، وذكر اسمه لأول مرة في اتفاق اسرحدون مع بعل صور كمايلي : *(d) Ja-su-Mu-nu* وقد ارتبط اسمه مع عشترت او ملقرت ، واشتقاق هذا الاسم لا يزال غير مؤكد (٢٩) .

(. الملك بدعشترت ملك الصيدونيين . . ) (٤٠) وبدعشترت اسم علم يعني : « بيد عشترت او عن طريقها رزقت صبيا » (٤١) .

— ( الملك بدعشترت والابن الشرعي لياتون ملك ملك الصيدونيين . . ) (٤٢) ياتون ملك : اسم علم معناه : « اعطى الملك ، او الملك المعطى » . ومن الملاحظ هنا



التأكيد على شرعية الابن ، وهنا يمكن ان نسأل : هل كان هناك أولاد شرعيون آخرون تولوا الملكية ؟ كما نسأل عن شرعية بدعشترت نفسه وهل كان شرعيا حقا أم جاء عن طريق آخر كالتبني مثلا ؟ .

– ( .. حيرام ملك الصيدونيين .. ) (٤٢) . ظهر هذا الملك باسم حرومو Hi-ru - um-mu ملك صور ضمن قائمة ملزمي ضرائب تغلات فلاصر الثالث ( ٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م ) ، وهناك خلاف حول مجال السيادة ، اذ تذكر المعلومات ان ملك صور مارس السيادة على صيدا أيضا ، واستطاعت صور ان تمت وبشكل قوي مجال تأثيرها في القرن الثامن قبل الميلاد . ومن الجدير بالذكر ان تسمية الصيدونيين استعملت للدلالة على جميع الفينيقيين ، وحيرام الثاني المذكور هنا حكم حوالي سنة ٧٤٠ ق.م (٤٤) .

– ( .. أزيثفادا .. ملك الدانونيين .. ) (٤٥) . اصل هذا الاسم من آسية الصغرى ويقرا حسب التهجية الحثية أزيثفادا . كان أزيثفادا ملك شعب دانونا الذي عاش في كيليكية جنوب شرق آسيا الصغرى في القرن الثامن قبل الميلاد (٤٦) .

الشكل الثالث من أشكال الالقاب الملكية كان ملك المنطقة أو ملك الاقليم ، حيث كانت سيادته تشمل جماعات السكان والارض معا ، ونجد مثل هذا النوع من الالقاب الملكية في الامثلة التالية :

( .. ملك جبارو على يادي .. ) (٤٧) . وجبارو اسم علم يعود كما يراه دونر وروليج الى gabaru (mi) ، أي ان أصله من الشعوب المعروفة بالسامية ، بينما يرى بينز انه اسم من آسية الصغرى ، وجبارو كان ملكا على يادي ، وهو الاسم المحلي القديم لما يسمى اليوم زنجرلي ونقع الى جانب سمنل في شمال سورية (٤٨) .

– ( في السنة الرابعة ، لما كان ملكياتون ملكا على كيتيون ودالي .. ) (٤٩) .

( انا يحاو ملك ملك جبيل .. الذي جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل .. ) (٥٠) . اضافة للالقاب الثلاثة المذكورة أعلاه وجد لقب رابع للملك وهو سيد الملوك ، وهو أرفع القاب الملك ، واستخدم كما يبدو للتفاخر والمجاملة ، وقد تقلده بطلميوس ، وفيما يلي بعض النصوص التي تشير الى ذلك :

( في اليوم السابع من شهر حيار ( أيار ) ، في السنة الحادية والثلاثين لسيد الملوك بطلميوس ابن بطلميوس .. ) (٥١) .



( لعنات ملاذ الاحياء ولسيد الملوك بطليموس يهب بعل شليم بن سيسامي المذبح للحصول على مصر جيد .. ) (٥٢) .

وبطليموس هو نفس الاسم اليوناني ، وهذا الملك هو بطليموس الاول سوتر ( ٣٠٥ - ٢٨٥ ق.م ) وكان حسب رأي ديودوروس الصقلي الملك الاخير ل : لايتوس ( لامبوسا ) ، وبراكسيبوس ، ووضع مع القبارصة الآخرين الى جانب سلوقس ، وفي سنة ٣١٢/٣١١ ق.م عزل . ومن المعلوم ان اسم بطليموس ورد أيضا في نقوش فينيقية من قبرص باسم بطليموس كما في نقش معسوب (٥٣) .

تسمية أخرى للملك : اضافة الى تسمية الملك ملك ، وجدت تسمية أخرى هي مملوك (٥٤) . كما في الامثلة التالية :

( أنا يحاو ملك ملك جبيل .. الذي جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل ) (٥٥) .  
( .. من تكون أنت .. أي ملك أو انسان ، لا تفتح مرقد الراحة هذا ) (٥٦) .  
وتجدر الإشارة ان تسمية مملوك جاءت بمعنى مملكة في امثلة أخرى ..

**رمز السيادة الملكية :** كان رمز السيادة الملكية نورة ( زهرة النوار ) وقد وجدت على نقوش بارزة عديدة . كما وجدت على تابوت الملك احيرام يحملها الملك في يده (٥٧) .

**لباس الملك :** هناك نقش من سمأل يظهر الملك بادراكيب وهو يجلس على كرسي العرش المزخرف ، ويضع قدميه على مسند الاقدام ، وخلفه عبد يلوح بالمروحة ( المنشة ) ، ويحيط بادراكيب بعود من التخيل بيده اليسرى ، تشبه زهرة النوار المذكورة تقريبا ، ويرفع يده اليمنى امرا أو مكلما ، وهو يرتدي حلة طويلة لف طرفها فوق الكتف الايسر ، وانهدل طرفها الاخر المزركش على قدميه ، ويجلس امام الملك كاتب حليق الرأس ، يرتدي ثوبا بسيطا (٥٨) .

**النسب الانثوي للملك :** فيما يخص النسب الانثوي لدينا كلمة ملكيوت ، وهي جمع لكلمة ملكيت ويقصد بها النسب الانثوي للملك ( نساء الملك وقرباته ) (٥٩) ونجد ذلك في نقش بت نعم وهذه ترجمته :

( في هذا التابوت ارقد انا بت نعم ، أم الملك عزي بعل ملك جبيل ، ابن فلطبعل كاهن بعلة ( جبيل ) بثوب وقلنسوة ( غطاء الرأس للسيدات ) علي وعلة احمر الشفاه الذهبية لفي ، مثل أمهات ( قريبات ) الملوك اللواتي كن قبلي (٦٠) .



وبت تعم اسم علم مؤلف من كلمتين بت بمعنى : بنت ، وتعم بمعنى : النعم – الخيرات فيصبح معناه بنت النعم كما تسمى اليوم فتاة باسم أم الخير مثلا . وواضح من خلال النص ان بت نعم لم تكن ملكة كما لم يكن زوجها ملكا ، بل كانت أما للملك عزي بعل ، وزوجها كاهنا للربة بعلة جيل . ومن المعلوم ان الايجيين والقبارصة كذلك في آسية الصغرى ، كانوا يستعملون طلاء الشفاه ( ربما احمر الشفاه ) لموتاهم ، فمنذ الالف الاول ق.م ساد استعماله في آسية الصغرى بوساطة علبة معدنية مغلقة ، حيث كانوا يستعملونه لمنع دخول الشياطين الى اجسادهم . كذلك استعمل في قرطاج إذ وجدت في المقابر التي تعود للقرن السادس علب فضية ضمن الاثاث الجنزي الذي كان يدفن مع الاموات (٦١) .

كذلك استعمل اسم ملكة بمعنى ملكة (٦٢) ونجد ذلك في نقش اشمن عزر التالي :

( ... انا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيث ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ، وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة بنت الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ... ) (٦٣) . وأم عشترت : اسم علم معناه ( أمة عشترت ، خادمة عشترت ) (٦٤) . ولا توجد دلائل واضحة على وضع الملكة في المصادر الفينيقية ، والتوراة تذكر زوجة الملك أهاب اليصابات ( ايزابيل ) وهي ابنة ملك الصيدونيين ايتوبعل ، وقد خدم أهاب لذلك بعل . ونصل من هذا الى المكانة المرموقة التي حظيت بها الملكة بشكل عام (٦٥) .

اضافة لذلك كانت الملكة كاهنة لعشترت وفي ذلك برهان على مكانتها الرفيعة أيضا . اما بالنسبة للام الملكة فقد حظيت باحترام كبير ، وكان على المرء أن يركع أمامها سبع مرات ، سبع مرات ( والمقصود بذلك سبع مرات على ظهره ، وسبع مرات على بطنه ) :

( ... الى اقدام سيدتي ركعت أنا سبع مرات ، سبع مرات ... ) (٦٦)

ومن رسالة للملك نلمس احترام الام الملكة أيضا :

( الى اقدام امي ركعت أنا ، أتمنى لامي الخير ، لتحملك الالهة وتحفظك ... ) (٦٧)

من هذا نستنتج أن الملكة الام تمتعت باحترام كبير من الملك والوجهاء والموظفين ، ومارست تصرفات الملكة نفسها في شؤون الدولة .

**إخوة الملك :** مكانة أخوة الملك غير واضحة ، وهناك أمثلة تدل على حدوث توترات قوية بين الملك وسكان المدينة النبلاء ، أدت الى عزل الملك أو قتله مثلما حصل في



أوجاريت وأرقاطة وتعنك ، وإن أخوة الملك ( الأشقاء ) شاركوا أحيانا في الثورة ضده كما حصل في جبيل وجيزر وتوبيهي (٦٨) .

**الملكية الوراثية :** كان الحكم في دول المدن الكنعانية الفينيقية قبل القرن الثاني مشرق . م ملكيا مطلقا ، ومع هجرة الإيجيين واندماجهم التدريجي مع الكنعانيين تسربت مفاهيم وأفكار سياسية جديدة إلى فينيقية ، ورغم ذلك استمرت إدارة الحكومة من قبل الملوك الذين حلوا في المدن الفينيقية بالوراثة ولدينا أمثلة كثيرة حول ذلك نكتفي ببعضها :

( أبي بعل ملك جبيل ، ابن يحمليك ملك جبيل ) (٦٩) .

( شفت بعل ملك جبيل ، ابن إيلي بعل ملك جبيل ، ابن يحمليك ملك جبيل ) (٧٠) .

( أنا تبنيث كاهن عشترت ملك الصيدونيين ، ابن أشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين ) (٧١) .

( ... أنا أشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيث ملك الصيدونيين ، حفيد الملك أشمن عزر ملك الصيدونيين وأمي أم عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة بنت الملك أشمن عزر ملك الصيدونيين ) (٧٢) .

( أنا بدعشترت والابن الشرعي لياتون ملك ملك الصيدونيين ) (٧٣) .

( ... أنا كيلاموفا بن حيا جلست على كرسي أبي (٧٤) . والاسم من آسية الصفري وقد بني من عنصر متكرر - موفا في نهاية الاسم انظر :

(٧٥) I Mi-is - ra - mu - wa, Id sausa - mu - wa, Klnmw :

( ... فومي ياتون ملك كيتيون ودالي ، ابن ملكياتون ملك كيتيون ودالي ) (٧٦) .

نلاحظ أن هناك سلالات أو أسر متعددة استطاعت أن تعيد دورها كاملا أو ناقصا ، كذلك عندما قامت الحروب أو الانقلابات في الأسر الحاكمة وقلبت هذه الأدوار رأسا على عقب (٧٧) مثال ذلك نقش بت نعم المذكور الذي يستخلص منه أن أم الملك لم تكن ملكة ، وإن أباه لم يكن ملكا أيضا بل كان كاهنا لبعلة جبيل ، إلا أن الابن عزّي بعل كان ملكا وهذا يدل على أن الملكية الوراثية تعرضت أحيانا للتبديل والتغيير ، وشابتها بعض الاستثناءات كما في المثال التالي :

( أنا يحاو ملك ملك جبيل ابن يحار بعل حفيد أورو ملك ملك جبيل ) (٧٨) .



يغلب الظن هنا أن والد يحار بعل نفسه لم يكن ملكا ، أما أمه فلا يوجد أي ذكر لها في النقوش الفينيقية .

والجدير بالذكر أنه قد حصل بعد الغزو الآشوري لبعض المدن الفينيقية تعيين حاكم آشوري SKn إلى جانب الملك ليراقب أعماله كما حصل في عهد أسرحدون ( ٦٨١ ق.م - ٦٦٨/٦٦٩ ق.م ) بتعيين والٍ في مدينة صور يراقب أعمال الملك (٧٩) .

لم يكن الملك حاكما سياسيا فحسب ، بل كان قائدا عسكريا ، وكاهنا ، وبنّاء ، وتاجرا أيضا . كان حاكما مطلقا ، لكن ماذا حكم وأين كانت مجالات حكمه ؟ نجد الجواب في النصوص التالية :

( هذه المرقعة ( المعشقة ) الذهبية ، التي وهبها الملك ملكياتون ملك كيتيون ودالي ، ابن بطرام إلى إلهه رشف ميكل في دالي ، في شهر بول في السنة الثانية لحكمه على كيتيون ودالي ، حتى يسمع قوله ويباركه ) . (٨٠) .

— ( .. حكم جبارو على يادي .. ) (٨١) .

( .. وأعطانا سيد الملوك ( دور ويافا ) الأراضي الخصبة التي في مزرعة شارون ، لأعمال العظيمة التي قمت بها ، ونحن ضمناها ( اتبعناها ) إلى حدود البلاد ، لتكون للصيدونيين إلى الأبد .. ) (٨٢) .

وتقع دور جنوب الكرمل على الساحل ، وهي اليوم « البرج » عند الطنطورة (٨٢)

sgs : يافا ، في الأكادية (uru) Ja - pu ، وهي مدينة يافا اليوم وتعني الجميلة (٨٤) .

( أنا أزيثفادا المبارك (من) بعل ، خادم بعل ، الذي جعلني أورك قويا ، أنا ملك الدانونيين ، لقد جعلني بعل للدانونيين أباً وأماً ، وأحييت أنا الدانونيين ، لقد وسعت أنا بلاد أضنة البعيدة من مشرق الشمس وحتى مغربها ، وكانت في أيامي الخيرات كلها للدانونيين والشبع والنعم .. ) (٨٥) .

( .. ولكن إذا ملك بين الملوك أو حاكم بين الحكام أو قائد جيش زحف ضد جبيل وأزاح ( فتح ) هذا التابوت ، فينبغي أن تنتزع عصا سلطته ، ويقرب كرسي عرشه ويزول السلام عن جبيل .. ) (٨٦) .



وحاول الملوك ان يسخروا سلطتهم في رفع مظالم الملوك السابقين عن ابناء شعبهم  
كما يتضح من النص التالي :

— ( . . انا كيلاموفابن حيا ، جلست على كرسي ابي ، امام الملوك السابقين زمجر  
الموشكابيم كالكلاب ، وانا كنت لاحدهم ابا ، وللثاني اما ، ولالثالث اخا ، ومن لم  
ير شاة قط من قبل جعلته صاحب قطيع غنم ، ومن لم ير قط من قبل ثورا جعلته  
صاحب بقر ومالكا للفضة والذهب ، ومن لم ير منذ صباه الكتان كسوته بثوب .  
ورفعت انا الموشكابيم على اليد ، واحسوا بالروح كاحساس اليتيم بأمه . . ( ٨٧ ) .  
وطبقة الموشكابيم : هي طبقة من طبقات الشعب الفينيقي كانت تتألف على الاغلب  
من الفلاحين الاصليين سكان البلاد القدامى والمستوطنين الذين اخضعوا من طبقة  
الرجال الاراميين الجدد . وكانت معاملتهم مهينة وغير مرضية في ايام الملوك الذين  
سبقوا كيلاموفا كما يوضح نقش كيلاموفا ( ٨٨ ) .

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : بهذه الرعاية الملكية هل سادت حقيقة هذه  
الوضاع الفردوسية ؟ وهل كانت هذه الخصال المكتوبة حقيقية ؟ اننا لا نملك اي  
دليل من قبل الموشكابيم ، وهنا نستفسر عن الاسباب التي دعت الملك الى ذلك : هل  
كان الملك ضعيف الشخصية حتى اضطر لشراء هؤلاء الموشكابيم ؟ ام كان صاحب  
الفضل عليهم لاسباب اخرى ؟

نلاحظ أيضا تناقضات الملك نفسه في هذا النص ، حيث وفق بين الحسنات  
والسيئات ففي تنمة نقشه يقول :

( . . ومن يتلف هذا النقش : ينبغي ان يسحق راسه بعل صمد ( الذي ينتمي  
الى بيت جبارو ) وينبغي على بعل حمون ( الذي ينتمي الى باماهو ) وراكب ابل سيد  
هذا البيت ان يسحقا راسه ) ( ٨٩ ) .

وهكذا يجب ان تفصل فكرة السيادة الملكية عن شخصية الحاكم ، اذ يعتبر  
الحاكم كرمز مؤقت للسيادة ، لقد أثبت الملك شرعية مراسيمه بوساطة الخاتم الملكي ،  
الذي كان يورث في الاسرة المالكة ، وبذلك يحمل مرسومه الملكي تأييد سابقيه ، الذين  
يتولون الفصل في القضايا مباشرة ، ولذلك طالب ملوك اوجاريت بخاتم سابقيهم  
مؤسسي اسرهم للاحتفاظ به ( ٩٠ ) .

كان الدعم الاخر للملوك الالهة ، وكان الملوك متعلقين بهم وبحاجة لوقوفهم الى  
جانبيهم . ولدينا امثلة متعددة تبين حاجة الملوك لدعم الالهة وكسب رضاها ، وحاولوا



كسب ودها والحصول على تأييدها ومباركتها بوسائل متعددة كتقديم الهدايا .  
وبناء المعابد ووقف الاوقاف ومن هذه الامثلة :

( هذا المعبد بناه يحيملك ملك جبيل . هو رمم كل أنقاض هذه البيوت . ليطيل  
اله السماء ( بعل شميم ) والهة جبيل ومجمع آلهة جبيل المقدس ايام يحيملك  
وسنواته على جبيل ، لانه ملك صادق وملك مستقيم أمام آلهة جبيل المقدسين  
( هو ) ( ٩١ ) .

— ( أنا يحاو ملك ملك جبيل ، ابن يحار بعل حفيد اورو ملك ملك جبيل الذي  
جعلتني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل . وناديت ربتي وسمعت ندائي . . ( ٩٢ ) وبذلك  
كان الملك سيدا على كل شيء ، فهو صاحب الحق في الاملاك وفي انتزاعها وتوزيعها  
على من يشاء ) ( ٩٣ ) .

**الملك قائد أعلى للجيش :** اضافة لعمل الملك كحاكم سياسى كان قائدا أعلى  
للجيش . نجد ذلك في النص التالي :

— ( . . . وانا ملأت مستودعات فاعر ، واتبعت الحصان بالحصان والمجن  
بالمجن والمعسكر بالمعسكر ، بوساطة بعل والآلهة ، وحطمت المعاندين وأهلكت كل  
الاشرار في الارض ، وأقمت أنا بيت سيادتي على النعم وجعلت الخير أساس حكمي .  
وجلسن على كرسي ابي وأقمت السلام مع كل ملك ، وعاملني كل ملك بالابوة ،  
بسبب صدقي وحكمتي وطيب قلبي . وبنيت أنا تحصينات قوية في كل الاطراف ،  
على الحدود ، على الاماكن حيث كان الناس الاشرار ، رؤساء العصابات الذين لم  
يخضعوا لبيت مافاش ، وأنا أزيثفادا وضعتهم تحت قدمي ، وبنيت التحصينات  
في كل مكان لتكون لسكن الدانونيين ، وأخضعت أنا بلادا قوية في مغرب الشمس التي  
لم يخضعها كل الملوك الذين كانوا قبلي . . ( ٩٤ ) .

وبذلك يتضح ان الملك بصفته قائدا أعلى للجيش عمل على اعداد المستودعات  
وتأمين العتاد اللازم والخيول المدربة وبناء التحصينات القوية في كل مكان، وسهر على  
الامن في الداخل والخارج وقضى على العصاة والخارجين على القانون والنظام وأحل  
الامن والسلام في كل مكان في بلاده لينعم شعبه بالراحة والاطمئنان .

اما من اجاريت فليس لدينا في النصوص الادارية المتأخرة والرسائل الموثوقة  
اي دليل يشهد على القيادة الشخصية للملك في القرن الرابع عشر ق.م ، الا ان النظام  
الاقطاعي اثبت أنه كان ظاهريا ( الملك ) القائد العام للجيش ( ٩٥ ) .



**الملك كاهن :** كان الملك كاهنا أيضا ، ويظهر ذلك من نصوص عدة ففي صيدا تقلد تبنيث منصب كاهن عشترت ، اضافة لمنصبه ملكا على الصيدونيين :

— ( انا تبنيث كاهن عشترت ملك الصيدونيين ، ابن اشمن عزر كاهن عشترت ملك الصيدونيين ) . (٩٦) .

ونجد في نقش اشمن عزر ان أمه ام عشترت تقلدت منصب كاهنة عشترت اضافة لكونها ملكة ، كما في النص التالي :

— ( . . انا اشمن عزر ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيث ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمن عزر ملك الصيدونيين ، وأمي ام عشترت كاهنة عشترت ربتنا الملكة ، بنت اشمن عزر ملك الصيدونيين ) . (٩٧) .

لقد احتفظ الملك ، بصفته كاهنا أعلى وملكاً ؛ بعلاقات وثيقة مع الالهة وقدم لها الهدايا والهبات وبنى لها المعابد ، ووقف لها الاشياء المختلفة لكسب ودها والحصول على رضاها ومباركتها ، والنصوص كثيرة بهذا الخصوص :

— ( هذه الصورة ( اللوحة النذرية ) حضرها ( جلبها ) أبي بعل ملك جبيل ، ابن يحيملك ملك جبيل في مصر ( من مصر ) لبعلة جبيل آلهته ، لتطيل بعلة جبيل أيام أبي بعل وسنواته على جبيل ) (٩٨) .

— ( انا يحاو ملك ملك جبيل ، ابن يحار بعل حفيد أورو ملك ملك جبيل ، الذي نصبني الربة بعلة جبيل ملكا على جبيل . وناديت انا ربتي بعلة جبيل وسمعت ندائي . فصنعت انا لربتي بعلة جبيل هذا المذبح النحاسي ( البرونزي ) الذي في هذا . . . ، وهذا الباب الذهبي الذي أمام بابي هذا ، والشمس المجنحة الذهبية التي في وسط الحجر الذي على الباب الذهبي هذا ، وهذه الاروقة وأعمدتها والتيجان التي فوقها ، وسقفها ، صنعتها انا يحاو ملك ملك جبيل لربتي بعلة جبيل ، كما دعوت ربتي بعلة جبيل ، وسمعت دعائي ، وجعلت لي النعم ( الخيرات ) ، لتبارك بعلة جبيل يحاو ملك ملك جبيل ، وتحية ، وتطيل أيامه وسنواته على جبيل ، لأنه ملك صادق هو ، وتعطيه الربة بعلة جبيل الرحمة ( الحنان ) أمام الالهة وأمام شعب الارض هذا وحنان شعب الارض هذا ، والحنان أمام كل الملوك وكل انسان ( الذي ) يجمع لينجز العمل لهذا المذبح والباب الذهبي هذا وهذه الاروقة . اسمي انا يحاو ملك ملك جبيل . هل ستضع نفسك لهذا العمل ؟ لكن اذا لم تضع لنفسك اسما ، أو تبعد هذا العمل



أو تنقل هذا ال... مع أساسه من هذا المكان وتزيل مخبأه ، فعندئذ ستهلك الربة  
بعلة جيل الانسان هذا وكل نسله أمام كل آلهة جيل ) (٩٩) . .

— ( هذه المرقعة ( المعشقة ) الذهبية التي وهبها الملك ملكيانون ملك كيتيون  
ودالي ، ابن يعلرام الى الآلهة رشف ميكل في دالي في شهر بول في السنة الثانية لحكمه  
على كيتيون ودالي حتى يسمع قوله ويباركه ) (١٠٠) .

**الملك بناء :** اضافة لما ذكر من أعمال الملك فقد قام بالبناء أيضا ، فبنى البيوت  
والمعابد ، ورمم البيوت المهدمة ، وبنى الأسوار والقلاع والتحصينات في أنحاء متفرقة  
من البلاد :

— ( هذا المعبد بناه يحيملك ملك جيل . هو رمم كل نقاض هذه البيوت . ) (١٠١) .

— ( هذا السور ( الجدار ) بناه شفط بعل ملك جيل ، ابن ايلي بعل ملك جيل ،  
ابن يحيملك ملك جيل لبعلة جيل آلهته ، لتطيل بعلة جيل أيام شفط بعل وسنواته  
على جيل ) (١٠٢) .

— ( ... وبنيت أنا تحصينات قوية في كل الاطراف على الحدود ، في الامكنة التي  
كان فيها اشخاص اشرار . رؤساء العصابات الذين لم يخضع منهم أحد لبيت مافاش ،  
وأنا أزيثفادا وضعتهم تحت قدمي . وأنا بنيت تحصينات في تلك الاماكن ليسكنها  
الدانونيون لطمأنينة قلوبهم . ... وبنيت أنا هذه المدينة وأعطيتها الاسم أزيثفادي  
لأن بعل ورشف صفاريم (١٠٢) أرسلاني لأبنيها ، وبنيتها أنا بواسطة رحمة بعل وبوساطة  
رحمة ورشف صفاريم . . . )

**الملك وحفظ الامن :** ضمن الملك الامن داخل حدود مملكته ، وكذلك امن  
المسافرين اليها ، وقام بتعويض المسروقات عند عدم القاء القبض على اللصوص ، كما  
في النقش التالي :

— وحطمت أنا ( أزيثفادا ) المعاندين ، واقتلعت كل الاشرار الذين كانوا في البلاد ،  
واقمت أنا بيت سيادتي على النعم ، وصنعت الخيرات لأصلها . وجلست على كرسي  
عرش أبي واقمت السلام مع كل ملك ، وعاملني كل ملك بالابوة ، بسبب صدقي  
وحكمتي وطيب قلبي ، وبنيت أنا التحصينات القوية على كل الاطراف ، على الحدود ،  
على الاماكن ، حيث كان الناس الاشرار ، رؤساء العصابات الذين لم يخضعوا لبيت



مافاش ، وانا ازيثفادا وضعتهم تحت قدمي ، وبنيت التحصينات في كل مكان لتكون لسكنى الدانونيين لطمأنينة قلوبهم .

واخضعت البلاد القوية في مغرب الشمس التي لم يخضعها كل الملوك الذين كانوا قبلي ، وانا ازيثفادا اخضعتهم وانزلتهم وأسكنتهم خارج حدودي في مشرق الشمس، وتركت الدانونيين يسكنون هناك ، وكانوا في أيامي في كل حدود مزارع أضنة من مشرق الشمس حتى مغربها وفي كل الاماكن التي كانت قبلي مخيفة ، حيث يخاف المرء أن يذهب في الطريق ، وفي أيامي أنا تستطيع المرأة بمغزل . . . بوساطة رحمة بعل والآلهة . وكان في كل أيامي الشبع والنعم والمساكن الجيدة وطمأنينة القلب للدانونيين ولكل مزارع أضنة (١٠٤) .

**الملك تاجر كبير :** اضافة لما تقدم من اعمال الملك فقد كان الملك تاجرا كبيرا ، والدلائل على ذلك تقول أنه في مدينة صور حكم حرام الاول ( ٩٦٩ - ٩٢٦ ق.م ) في عهد داود وسليمان ، وقد ربح بسبب التجارة في البحر المتوسط والبحر الاحمر مشاركة مع سليمان ثروات كبيرة استثمرها في اقامة المباني الضخمة (١٠٥) .

وكتب نجيب ميخائيل ابراهيم قائلا : خاض الملك مغامرات مستمرة بسبب نشاطاته التجارية ، واثّر نجاحه أو فشله في هذه الحملات التجارية على وضعه كملك (١٠٦) .

اما في اوجاريت فقد عثر في الجزء الشرقي للقصر الملكي على بقايا محل لصياغة الذهب وورشة للمجوهرات كانت ملكيتها تعود للملك ، وتحتوي هذه الموجودات على عدد كبير من الحجارة الثمينة والحلي الذهبية (١٠٧) .

ومن رسالة حثية اهتمت بنقل الحبوب في احدى المجاعات في الساحل الجنوبي من الاناضول استنتج Nougayrol ( نوغايرول ) أن ملك اوجاريت كان يأمر عند شحن كل سفينة أن يؤخذ حوالي خمسمائة طن من على ظهرها (١٠٨) . وهنا يشك المرء في هذا الرقم كما يشك في حمولة السفينة .

**سكن الملك وحديقة القصر والاصطبل الملكي :** سكن الملك في قصر على هضبة تقع على ساحل البحر ، مع معبد وضريح كما نعلم ذلك من جيبيل ، وبالنسبة للقصر الملكي في اوجاريت فقد استقينا معلوماتنا من الحفريات التي جرت هناك ، حيث شغل القصر الملكي مساحة تقدر ب ستة آلاف وخمسمائة - ٦٥٠٠ - متر مربع في القرن الرابع عشر



ق.م والثالث عشر ق.م ، وكان الجزء الاعظم منه قد رتب في مكان منتظم ذي طابقين  
لأجل اقامة سرايا متتالية وكبيرة المساحة .

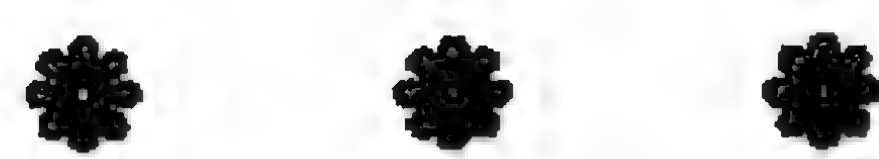
كان المسكن كبيرا ومأهولا ، وعلى امتداد الزاوية اليمنى شرقي القصر اقيمت  
الحديقة والامكنة المتصلة استعملت محلات وورشات لنحت العاج ، وإلى الجنوب من  
مكاتب القصر وجد حوض ماء يلاصق غرف الارشيف حيث وجدت رسائل سياسية  
ومعاهدات كما حفظت احكام قضائية ، ووثائق كتابية مختلفة ، وإلى الجنوب من  
القصر الملكي وجد قصر ثان أصغر من القصر الاول ، في الشمال الشرقي من منطقة  
القصر لنصل نحن الى حى اقامة الملك .

وجدير بالذكر أن القصر تعرض مرة أو مرتين للحريق واصابته خسائر فادحة ،  
وقد جمعت من بين الانتقاض قطع مكسرة لأوعية كبيرة من الذهب ، كذلك صناديق من  
العاج وكراسي وعلب من البورفير ( حجر السماق ) ، والعقيق اليماني والجزع والعقيق  
الاحمر وحجارة كريمة أخرى .

وقد حمى القصر بحصن منيع وكان في وسط برج ضخيم مساحته ٢١٤ م ، وكانت  
هناك أسلحة كثيرة مبعثرة في منطقة القصر بكاملها وهذه تعود في ماضي الزمان الى  
النبالة ( النشابين ) الذين تولوا حماية القصر (١٠٩) .

هذا فيما يتعلق بقصر اوجاريت اما بالنسبة لقصر مدينة صور فانه اذا كان المرء  
قادرا على تصور ابعاد قصر اوجاريت الضخمة فانه سيعجز بالتالي عن وصف ضخامة  
قصر مدينة صور ، وكان كلود شيفر قد أعلن أن ثروة قصر مدينة صور لا يمكن أن  
تقدر (١١٠) . وبخصوص حديقة القصر فقد وصفها أحدهم بأنها حديقة ازهار مع  
حوض ماء في الزاوية اليمنى وطريق دائري ، وقد وجدت مجاري مائية تحت حوض  
الماء (١١١) .

اضافة لما تقدم فقد كشفت الاصطبلات الملكية ، وظهر هنا لوح ضخم بالكتابة  
المسمارية وموجودات لمعدات عسكرية كانت تحفظ في ترسانات الاسلحة ، وتوزع في  
ايسام الحرب على الجنود (١١٢) .





- الاختصارات -

AAAS	Les Annales Archeologiques Syrienne Damaskus.
AFO	Archiv für Orientforschung, Berlin, (später) Graz.
Benz, PN	Frank L. Benz, Personal Names in the phoenician and punic Inscriptions, Rome, Biblical Institute Press, 1972.
Bibel	Die Bibel, Altes und Neues Testament, Einheitsübersetzung, Herder Freiburg. Basel. Wien, Katholische Bibelanstalt Gmb H, Stuttgart, 1980.
En Br	Encyclopaedia Britannica, Encyclopae- dia Britannica INC., William Benton Publisher, Chicago. London. Toronto. Geneva.
Friedrich- Röllig, PPG	Johannes Friedrich-Wolfgang Röllig, phönizisch-Punisch Grammatik, An Or, 46, (I-00 187 Roma pizza pilota 35), 1970.
Harris, Grammar	Z.S. Harris, A Grammar of the phoen- ician Language, AOS 8 (New Haven), 1936.
IAKA	R. Borger, Die Inschriften Asarhaddons Königs von Assyrien, Graz, 1956.
JNES	Journal of Near Eastern Studies, Chicago, Illinois.



## - الاختصارات -

KAI	H. Donner-W. Röllig, Kanaanäische und Aramäische Inschriften, zweite, durchgesehene und erweiterte Auflage, Wiesbaden, Band I: Texte, 1966; Band II: Kommentar, 1968; Band III: Glossare und Indizes Tafeln, 1969.
Lidzbarski, Handbuch	Mark Lidzbarski, Handbuch der nordsemitischen Epigraphik, nebst Ausgewählten Inschriften, I. Teil: Text, Georg Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim, 1962.
RE	Pauly-Wissowa, Paulys Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft, Stuttgart, 1894 ff.
RLA	Erich Ebeling und Bruno Meiss; später Ernst Weidner und Wolfram von Soden, Reallexicon der Assyriologie und vorderasiatischen Archäologie, Berlin und Leipzig (später Berlin und New York), 1932ff..
RS <sup>v</sup>	Ras Schamra
P.	Page
Segert, Grammar	Stanislav Segert, A Grammar of Phoenician and Punic, München, Verlag C.H. Beck München, 1976.
Syria	Syria. Revue d'art oriental et d'archéologie, Paris.



- الاختصارات -

Tomback,  
Lexicon

Richard. S. Tomback, A comparative  
semitic Lexicon of the phoenician  
and punic Languages, Scholars  
press, Missoula, Montana, printed in  
the United States of America, 1978.

UF

Ugarit-Forschungen (Kevelaer/Neu  
KirchenVluyn).

v. Chr.

vor Christus



- (1) RE, 39, 1941, P. 350-353 ; En Br, 17, 1962, p. 763 ;  
Moscati, S., The World of the Phoenicians, New-  
York, Washington, Friedrich A. Praeger publishers,  
1968, P. 5-7; Baramki, D., Die Phönizier, Stuttgart,  
1965, P. 9-10; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen  
im Phönizien des ersten Jahrtausends vor Chris-  
tus, Würzburg, 1985, P. 2-4.
- (2) RE, 39, 1941, P. 354; En Br, 17, 1962, P. 764; Moscati,  
S., Die Phöniker von 1200 v. Christus bis zum  
Untergang Karthagos, Zürich, Kindler-verlag, 1966,  
P. 16 ; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ...,  
P. 7-8; مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٩ - ٣٠، دمشق، ١٩٨٨  
د. عيسى مرعي .
- (3) Bibel, Genesis, 10, 15.
- (4) Delaporte, L., Die Völker des antiken Orients,  
Die Babylonier, Assyrer, Perser und Phöniker,  
Freiburg im Breisgau, 1933, P. 318; Meyer, E.,  
Geschichte des Altertums, zweiter Band, zweite  
Abteilung, dritte Auflage, Darmstadt, 1953, P. 1223;  
Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 66.
- (5) Baramki, D., Die Phönizier, P. 71-72.
- (6) RE, 39, 1941, P. 354; En Br., 17, 1962, P. 764; Moscati,  
S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 30; Wiesman, D.  
J., Peoples of old Testament Times, Oxford, 1973,  
P. 262; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ...,  
P. 8.



- (7) RE, 39, 1941, P. 353 ; Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 20.
- (8) Herodots, Erklärt von Heinrich Stein, erster Band, Buch I, siebente Auflage, Berlin, 1962, P. 2; Vierter Band, Buch VII, 1963, P. 90; RE, 39, 1941, P. 353; Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 20; Moscati, S., The world of the Phoenicians, P. 5; Movers, F. K., Die Phönizier, Band II, Neudruck der Ausgabe Berlin 1856, Scientia verlag Aalen, 1967, P. 56; Delaporte, L., Die Völker des antiken Orients, ..., P. 319.
- (9) Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 20; Moscati, S., The world of the Phoenicians, ..., P. 5; Delaporte, L., Die Völker des antiken Orients, P. 319.
- (10) RE, 39, 1941, P. 353; Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 20-21; Moscati, S., The world of the Phoenicians, ..., P. 5.
- (11) RE, 39, 1941, P. 353; Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 19-20; Moscati, S., The world of the Phoenicians, ..., P. 4.
- (12) RE, 39, 1941, P. 355-357; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ..., P. 8-11.
- (13) Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ..., P. 11-18.
- (14) Herm, Gerhard, Die Phönizier Das Purpurreich der Antike, Eoon Verlag Gmb H, Düsseldorf und Wien, 1973, P. Zu diesem Buch; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ..., P. 138-144; 13-14.



- .....
- (15) JNES, XXVI, 1967, P. 102; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ..., P. 21.
- (16) KAI, III, 14; Tomback, R. S., Lexicon, P. 180; Segert, S., Grammar, P. 293; Harris, Grammar, 1936, P. 118 ; Friedrich-Röllig, PPG, 1970, 75 a, P. 28; 204 a, P. 98; 212, P. 101; Lidzbarski, Handbuch, P. 310.
- (17) KAI, I, 5, 1.
- (18) Benz, PN, P. 257; KAI, II, P. 8; Harris, Grammar, P. 73; Lidzbarski, Handbuch, P. 205.
- (19) RLA, III, P. 673; KAI, II, P. 3; Tomback, Lexicon, P. 16; Segert, Grammar, P. 286; Lidzbarski, Handbuch, P. 248.
- (20) KAI, I, 4, 1; 5, 1.2; 6.1; 7.3; Segert, Grammar, 82.12, 1, P. 267.
- (21) Benz, PN, P. 308-309; KAI, II, P. 6; Harris, Grammar, P. 101; Segert, Grammar, P. 290; Noth, IP, P. 28f.; 39<sup>3</sup>, P. 206.
- (22) KAI, I, 6.1; 7.2.
- (23) Benz, PN, P. 266; Harris, Grammar, P. 77; KAI, III, P. 45; Noth, IP, P. 139-147.
- (24) KAI, I, 7, 1.2; 9A, 1.
- (25) KAI, II, P. 9; Benz, PN, P. 423-424; Harris, Grammar, P. 133; Friedrich-Röllig, PPG, P. 30; 132 P. 60; Segert, Grammar, P. 303; Tomback, Lexicon, P. 329.
- (26) KAI, I, 10, 1.7.8.9.12.13; Segert, Grammar, 82.12, 1.7.8.9.12.13, P. 267-268; Lidzbarski, Handbuch, Text a aus Byblos, 1.7.8.9.12.13, P. 416.



- (27) Benz, PN, P. 308; Friedrich-Röllig, PPG, 12, P. 10;  
Harris, Grammar, P. 106; Segert, Grammar, P. 290 ;  
Tombach, Lexicon, P. 100; KAI, II, P. 12; Lidzbarski,  
Handbuch, P. 287; Noth, IP, P. 27-30.
- (28) KAI, I, 10, 1.2; Lidzbarski, Handbuch, Text a aus  
Byblos, 1.2, P. 416; Segert, Grammar, 82.21, P. 267.
- (29) Benz, PN, P. 274; KAI, II, P. 12; Harris, Grammar, P. 118;  
Segert, Grammar, P. 284; Lidzbarski, Handbuch, P. 226.
- (30) KAI, I, 11.
- (31) KAI, II, P. 16; Benz, PN, P. 374; Harris, Grammar, P. 131;  
Segert, Grammar, P. 297; Tombach, Lexicon, P. 240.
- (32) KAI, I, 32, 1.2; 33; Lidzbarski, Handbuch, Text aus  
Limassol, P. 419.
- (33) Benz, PN, P. 391-392; KAI, II, P. 50; Harris, Grammar,  
P. 137; Friedrich-Röllig, PPG, P. 23; 62A, P. 24; 101A,  
P. 40; Lidzbarski, Handbuch, P. 351.
- (34) KAI, II, P. 50; Segert, Grammar, P. 291; Lidzbarski,  
Handbuch, P. 299-300; Wiesman, D.J., Peoples of Old  
Testament Times, P. 279.
- (35) RLA, II, P. 273; KAI, II, P. 50; Lidzbarski, Handbuch,  
P. 207.
- (36) KAI, I, 32, 2; 33, 2; 38, 1; 39, 1.2; 41, 5.6; Segert,  
Grammar, 83.42, 2, P. 274; Lidzbarski, Handbuch, Text  
A aus Citium 2, P. 420; Text aus Idalion 1, 1, P.  
421.



- .....
- (37) Benz, PN, P. 344-345; KAI, II, P. 56; Friedrich-Röllig, FPG, 66a, P. 24; 78C, P. 30; Harris, Grammar, P. 119; Segert, Grammar, P. 293; Lidzbarski, Handbuch, P. 311.
- (38) KAI, I, 13, 2; 14, 1.2.13.14.15.16; Segert, Grammar, 82.31, 1.2.13.14.15, P. 268-269; 82.32, P. 269.
- (39) KAI, II, P. 21; Benz, PN, P. 278-279; Harris, Grammar, P. 83; Segert, Grammar, P. 284; Lidzbarski, Handbuch, P. 229.
- (40) KAI, I, 15; 16; Segert, Grammar, 82.32, P. 269.
- (41) KAI, II, P. 24; Benz, PN, P. 283-285; Friedrich-Röllig, PPG, 40, 41a, P. 17; Harris, Grammar, P. 85; Segert, Grammar, P. 285; Lidzbarski, Handbuch, P. 234.
- (42) KAI, I, 16.
- (43) KAI, I, 31, 1; Lidzbarski, Handbuch, Text A aus Limassol, Cypern, P. 410; Segert, Grammar, 83.31, P. 273.
- (44) KAI, II, P. 49; Benz, PN, P. 310; Friedrich-Röllig, PPG, 78 d, P. 30; Harris, Grammar, P. 75; Segert, Grammar, P. 77, 289; Lidzbarski, Handbuch, P. 280.
- (45) KAI, I, 26A I, 1.2; Segert, Grammar, 83.12, I, 1.2, P. 271.
- (46) KAI, II, P. 38-39; Benz, PN, P. 186; Friedrich-Röllig, PPG, P. 1; Segert, Grammar, P. 282; Tomback, Lexicon, P. 180.
- (47) KAI, I, 24, 2; Segert, Grammar, 83.11, 2, P. 270; Friedrich-Röllig, PPG, 262, 2, P. 132.
- (48) KAI, II, P. 31-32; Harris, Grammar, P. 93, 105; Benz



- PN, P. 187; Friedrich-Röllig, PPG, 262, 2, P. 132;  
Tombach, Lexicon, P. 61; Segert, S., Grammar, P.  
286.
- (49) KAI, I, 39, Die Umsetzung in griechischer  
Schrift, P. 9.
- (50) KAI, I, 10, 1.2; Segert, Grammar, 82.22, 1.2, P.  
268; Lidzbarski, Handbuch, Text a aus Byblos,  
1.2, P. 416.
- (51) KAI, I, 40, 1; Lidzbarski, Handbuch, Text 3 aus  
Idalion, 1, P. 421.
- (52) KAI, I, 42 phönizisch, 1.2.3.4.5; Segert, Grammar,  
83.33, 1-5, P. 273; Lidzbarski, Handbuch, Text aus  
Larnax Lapithu 1, 1-5, P. 422.
- (53) KAI, II, P. 59; J. Brian Peckham, S. J.: The Develop-  
ment of the late phoenician Scripts, Harvard  
University Press, 1968, P. 80ff.; Cambridge, Mas-  
sachusetts, Harvard Semitic Series, Volum XX;  
M. Weippert and Kurt Gallinger: Eschmunazar und  
der Herr der Könige, ZDPV 79, 1963, P. 145-149 ;  
KAI, I, 19, 1.2.3.4.5.6.7.8.9; Lidzbarski, Handbuch,  
Text e aus Maṣṣub, 1-9, P. 419.
- (54) KAI, III, P. 14; Friedrich-Röllig, PPG, 207, P. 99; 306,  
2, P. 154; Tombach, Lexicon, P. 184; Segert, P. 293.
- (55) KAI, I, 10, 1.2; Segert, Grammar, 82.22, 1.2, P. 268  
Lidzbarski, Handbuch, Text a aus Byblos, 1.2, P. 416.
- (56) KAI, I, 14, 4; Lidzbarski, Handbuch, Text 2 aus Sidon,  
4, P. 417; Segert, Grammar, 82.31, 4, P. 268.
- (57) KAI, II, P. 4.
- (58) Samaal, Eckorthostat mit der Darstellung des



- Fürsten Barrakib von Samaal, vorderasiatisches Museum, Berlin., Vgl. Klengel, H., Geschichte und Kultur Altsyriens, 1980, P. 235.
- ( 59) Harris, Grammar, P. 118; Tomback, Lexicon, P. 182; KAI, III, P. 14; Friedrich-Röllig, PPG, 204a, P. 98; 230a, P. 108; KAI, II, P. 16.
- ( 60) KAI, I, 11.
- ( 61) KAI, II, P. 16; Harris, Grammar, P. 87; Lidzbarski, Handbuch, P. 247;  
Christel Butter Weck, Diethelm Conrad, Wilhelms C. Delsman, Manfred Dietrich, Karl Hecker, Heike Sternberg-elHotabi, Frank Kammer Zell, Oswald Loretz, Hans-Peter Müller, Walter W. Müller, Boyo Ockinga, Willem H. Ph. Römer und Hans P. Roschinski: Grab-, Sarg-, Votiv- und Bauinschriften, Texte aus der Umwelt des Alten Testament, Band II, Religiöse Texte, 1988, Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn, Printed in Germany, P. 589.
- ( 62) KAI, III, P. 14; Segert, Grammar, P. 293; Tomback, Lexicon, P. 182; Harris, Grammar, P. 118; Lidzbarski, Handbuch, P. 310.
- ( 63) KAI, I, 14, 13. 14. 15; Segert, Grammar, 82. 31, 13. 14. 15, P. 269; Lidzbarski, Handbuch, Eschmunazarinschrift, Sidon, 13. 14. 15, P. 417.
- ( 64) Benz, PN, P. 62; 269; Segert, Grammar, P. 283; KAI, II, P. 22.



- ( 65) Bibel, 1 Könige, 16, 30. 31. 32; Moskati, S., Die Phöniker von 1200..., P. 41; Richter, H. F., Geschlechtlichkeit, Ehe und Famili im Alten Testament und seiner Umwelt, Frankfurt am Main, Bern, Las Vegas, 1978, P. 198.
- ( 66) Virolleaud, Ch., 'Textes Alphabétiques de Ras-Shamra, Provenant de la Neuvième Campagne, Text I, RS 9479, 6. 7. 8. 9. 10. 11, P. 127 in: Syria, XIX, 1938, P. 127-131; Friedrich, J., Festschrift zum 65. Geburtstag..., P. 121; Donner, H., Art und Herkunft des Amtes der Königinmutter im Alten Testament, P. 121 in: Friedrich, J., Festschrift zum 65. Geburtstag am 27. August, 1958 gewidmet, Heidelberg, 1959.
- ( 67) Virolleaud, Ch., Lettres et Documents Administratifs provenant des Archives D'Ugarit, II, RS 11.872: Lettre du roi (d'ugarit) á la Reine sa mère, Zeile 5-8, P. 250 in: Syria, XXI, 1940, P. 250-253; Friedrich, J., Festschrift zum 65. Geburtstag am 27. August 1958 gewidmet, Heidelberg, 1959, P. 120.
- ( 68) Müller-Karpe, Hermann, Handbuch der Vorgeschichte vierter Band, Bronzezeit, erster Teilband, München, 1980. P. 463.
- ( 69) KAI, I, 5, 1. 2.
- ( 70) KAI, I, 7, 1. 2. 3.
- ( 71) KAI, I, 13, 1. 2; Lidzbarski, Handbuch, Text 1 aus Sidon, 1. 2, P. 417.



- .....
- ( 72) KAI, I, 14, 13. 14. 15; Segert, Grammar, 82. 31, 13. 14. 15, P. 69; Lidzbarski, Handbuch, Eschmunazar-inschrift, Sidon, 13. 14. 15, P. 417.
- ( 73) KAI, I, 16.
- ( 74) KAI, I, 24, 9; Segert, Grammar, 83. 11, 9, P. 270.
- ( 75) KAI, II, P. 31; Segert, Grammar, P. 291; Benz, PN, P. 187; Harris, Grammar, P. 111.
- ( 76) KAI, I, 33, 1. 2.
- ( 77) Moscati, S., Die Phöniker von 1200..., P. 66.
- ( 78) KAI, I, 10, 1. 2; Segert, Grammar, 82. 21, 1. 2, P. 267; Lidzbarski, Handbuch, Text a aus Byblos, 1. 2, P. 416.
- ( 79) IAKA, § 69, RS III, 13 f., P. 108-109; Jirku, A., Die Welt der Bibel, zweite Auflage, Stuttgart, 1957, P. 33; Moscati, S., Die Phöniker von 1200 ..., P. 55 ; RE, 39, 1941, P. 365.
- ( 80) KAI, I, 32, 1. 2; Lidzbarski, Handbuch, Text 1 aus Idalion, 1. 2, P. 421.
- ( 81) KAI, I, 24, 2; Segert, Grammar, 83. 11, 2, P. 270.
- ( 82) KAI, I, 14, 18. 19. 20; Segert, Grammar, 82. 31, 18. 19. 20, P. 269; Lidzbarski, Handbuch, Eschmunazar-inschrift, Sidon, 18. 19. 20, P. 418.
- ( 83) KAI, II, P. 23; Segert, Grammar, P. 287; Vertrag Asarhaddons mit Baal von Tyros, AFO, Beiheft 9, § 69, III, 19, P. 108; Friedrich-Röllig, PPG, P. 10; Lidzbarski, Handbuch, P. 254.
- ( 84) KAI, II, P. 23; Segert, Grammar, P. 290; Lidzbarski, Handbuch, P. 289.



- (85) KAI, I, 26A I, 1.2.3.4.5.6; Segert, Grammar, 83.12, A I, 1.2.3.4.5.6, P. 271.
- (86) KAI, I, 1, 2; Segert, Grammar, 82.11, 2, P. 267.
- (87) KAI, I, 24, 9.10.11.12.13; Segert, Grammar, 83.11, 9.10.11.12.13, P. 270.
- (88) KAI, II, P. 31; Hamdeh, A., Die sozialen Strukturen ..., P. 179-180.
- (89) KAI, I, 24, 15.16; Segert, Grammar, 83.11, 15.16, P. 270.
- (90) AAAS, IV-V, 1954-1955, P. 159ff.
- (91) KAI, I, 4, 3.4.5.6.7; Segert, Grammar, 82.12, 3.4.5.6.7, P. 267.
- (92) KAI, I, 10, 1.2.3; Segert, Grammar, 82.21, 1.2.3, P. 267; Lidzbarski, Handbuch, Text aus Byblos, 1.2.3, P. 416.
- (93) AAAS, II, 1952, P. 14.
- (94) KAI, I, 26A I, 6.7.8.9.10.11.12.13.14.15.16.17.18.19; Segert, Grammar, 83.12, A I, 6-19, P. 271.
- (95) Gray, J., The Legacy of Canaan, the Ras Shamra Texts and their Relevance to the old Testament, second Revised Edition, Leiden, E.J. Brill, 1965, P. 222-223.
- (96) KAI, I, 13, 1.2; Lidzbarski, Handbuch, Text 1 aus Sidon, 1.2, P. 417.
- (97) KAI, I, 14, 13.14.15; Segert, Grammar, 82.31, 13.14.15, P. 269; Lidzbarski, Handbuch, Eschmunazar-inschrift, Sidon, 13.14.15, P. 417.
- (98) KAI, I, 5, 1.2.



- (99) KAI, I, 10, 1-16; Segert, Grammar, 82.21, 1-16, P. 267-268; Lidzbarski, Handbuch, Text a aus Byblos, 1-16, P. 416.; Christel Butter Weck, Diethelm Conrad, Wilhelms C. Delsman, Manfred Dietrich, Karl Hecker, Heike Sternberg- el Hotabi, Frank Kammer Zell, Oswald Loretz, Hans-Peter Müller, Boyo Ockinga, Willem H. Ph. Römer und Hans P. Roschinski:  
Grab-, Sarg-, Motiv- und Bauinschriften, Texte aus der Umwelt des Alten Testament, Band II, Religiöse Texte, 1988, Gütersloher Verlagshaus Gerd Mohn, Printed in Germany, P. 586-588.
- (100) KAI, I, 38, 1.2; Lidzbarski, Handbuch, Text 1 aus Idalion, 1.2, P. 421.
- (101) KAI, I, 4, 1.2; Segert, Grammar, 82.12, 1.2, P. 267.
- (102) KAI, I, 7, 1.2.3.4.5.
- (103) KAI, I, 26 AI, 13.14.15.16.17.18.19; II, 9.10.11.
- (104) KAI, I, 26A I, 8-21; 26A II, 2-9; Segert, Grammar, 83.12, A I, 8-21; A II, 1-9, P. 27.
- (105) Bibel, 1 Könige, 9-14; 1 Könige, 10, 11; Golo Mann und Alfred Heuß, Propyläen Weltgeschichte, zweiter Band, 1962, P. 76.
- (106) نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والسنة الأولى القديمة ، المجلد الثالث ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، الصفحة ٥٠ .



(107) AAAA, II, 1952, P. 11.

(108) AFO, XIX, 1959-1960, P. 194-195.

(109) Delaporte, L., Die Völker des antiken Orients, ... , P. 320; Odenthal, J., Syrien, Hochkulturen zwischen Mittelmeer und Arabischer Wüste 5000 Jahre Geschichte im Spannungsfeld von Orient Okzident, Du Mont Buchverlag Köln, 1982, P. 239.

(110) AAAS, II, 1952, P. 22.

(111) AAAS, XXIX-XXX, 1979-1980, P. 22, مجلة الحوليات الأثرية السورية

(112) AFO, XIII, 1939, P. 172.

العدد ٢٩ - ٣٠ الصفحة ٢٢



## علاقات سورية التجارية

د. محمود رمزي

### ١ - لمحة تاريخية :

بين المصالح الاقتصادية السورية والمصالح الاقتصادية لبلدان العالم الاخرى القريبة والبعيدة ، ارتباط وثيق تفرضه مجموعة من العوامل الجغرافية والتاريخية ، يتقدمها ما تملكه سورية من ثروات طبيعية . وموقعها الجغرافي الهام على مفترق الطرق العالمية بين ثلاث قارات ، تلتقي عنده خطوط العالم التجارية البرية والبحرية والجوية . ونشاط سكانها ودورهم في التجارة العالمية عبر العصور (١) .

فمن الناحية الجغرافية . تطل سورية بواجهتها الغربية على البحر المتوسط الذي تنتهي عنده طريق الحرير ، اقصر وأيسر طريق بين شرقي آسيا وغربيها . والذي تنفذ بوابانه الى جميع الاتجاهات . ومن الطبيعي أن تجعل هذه الوقائع الجغرافية الثابتة من سورية بؤرة مركزية هامة للتجارة في قلب العالم القديم ، تلتقي على أرضها وعلى طول سواحلها طرق التجارة العالمية ، حيث قامت وبوقت مبكر سلاسل من المدن والموانئ على نسق واحد وباعداد لا مثيل لها في أية بقعة من الارض . تتمثل في الشمال بجزيرة ابن عمرو وتل حلف والرها وجرابلس والاسكندرونة والسويدية وانطاكية واوغاريت واللاذقية . وفي الوسط بماري وايبلا وحلب وقنسرين وادلب وتدمر وحمص وحماء وطرطوس وارواد وطرابلس الشام . وأخيرا في الجنوب بدمشق والجابية وبصرى الشام أذرع ( درعا ) .

ان الدور الذي لعبته هذه المدن والموانئ في خدمة وحماية الطرق التجارية التي كانت تمر بها أو تنتهي عندها ، كان عظيما . فمنذ زمن اسكندر المكدوني ( ٣٣٣ ق.م ) كان لسورية مكانة مرموقة في العلاقات التجارية العالمية . واذا ذهبنا الى أبعد من ذلك ، الى خمسة آلاف سنة مضت . أي منذ أن تدفقت الى أرض سورية أول موجة بشرية عرفها التاريخ باسم (آمورو ) . نرى ان هذه الأرض الطيبة كانت أروع مسرح لقصة الانسان ولنشاطاته التجارية ومبادلاته الاقتصادية . وصلات

---

دراسات تاريخية ، العددان ٤٩ / ٥٠ ، آذار - حزيران ١٩٩٤



شعبها مع الجزيرة العربية لم تنقطع . والتجارة بين الشمال والجنوب ، بين بلاد الشام واليمن ، لم تتوقف تمارسها قريش في رحلتي الشتاء والصيف .

وفي العصور الإسلامية وصلت هذه النشاطات التجارية والمبادلات الاقتصادية الى اوج ازدهارها . فعلى طرقها التي أخذت مداها الكبير في كل الاتجاهات . كان يتم نقل التوابل والبخور والذهب من شبه الجزيرة العربية . والمنسوجات من إيران . والآليء من أطراف الخليج . والحرير من الصين . والطيوب والجواهر والعاج من الهند . والمعادن من آسيا الصغرى . والخشب والملح والحبوب والفاكهة والمنسوجات والأسلحة الخفيفة والزجاج والزيوت من سورية .

واستمر موقع سورية الجغرافي ، ذو الأهمية المتزايدة ، يساعد أهلها على الاستفادة من نقل البضائع والمتاجرة بها وحملها من أطراف آسيا الى المدن السورية التي أقيمت فيها البيوت التجارية ، ليقوم بعد ذلك تجار البندقية وغيرهم من ملاحى وتجار البحر المتوسط بنقلها بحرا الى المدن الأوروبية .

الا ان كشف الطريق البحرية الى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح وعبر البحر الأحمر . واكتشاف العالم الجديد . ثم الاحتلال العثماني الذي جعل من سورية والبلاد العربية وحدة اقتصادية تقتصر العلاقات فيها على المبادلات الداخلية بين المدن ، وتفكك الدولة العثمانية ، بعد الحرب العالمية الأولى ، الى مناطق نفوذ للمستعمرين . كان نصيب سورية فيها الانتداب الفرنسي .

كل ذلك أدى الى فقدان الطرق البرية التي تنتهي في الساحل السوري أهميتها . فساد ركود عام شل حركة التجارة الخارجية مع بلدان العالم المختلفة ، واضعف العلاقات معها حتى اقتضرت على فرنسا ومستعمراتها . وهي علاقات كان الجانب الخاسر فيها دوما سورية .

برغم كل ذلك . لم تفقد سورية مكانتها في عالم التجارة والمواصلات . فقد بقيت ممرا رئيسيا من ممرات العالم الكبرى لتجارة العبور بين الشرق والغرب (٢) . وبمجرد تبدل الأوضاع السياسية في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية . وحصول سورية على استقلالها وتحررها من الارتباطات الجمركية والقيود التي فرضها الانتداب لربط اقتصادها بعجلة الاقتصاد الفرنسي . وتيسير السبل لها لسلوك سياسة اقتصادية رشيدة . التجارة الخارجية فيها ، والعلاقات التي تبنى لخدمتها ، لا تخضع الا لتوجهات المسؤولين عن انعاش اقتصاد البلد واصلاح ميزانه التجاري . خرجت سورية من عزلتها لتعود الى عالمها التجاري الواسع في خدمة ما استجد من أنظمة



وعلاقات اقتصادية . وتستعيد علاقاتها بالدول العربية وبدول العالم . وثبتت من جديد ان الطريق البرية للسيارات الشاحنة الكبيرة ، بين أوروبا واقطار شبه الجزيرة العربية وبعض المناطق الداخلية من اسيا ، والمارة بسورية ، لا زالت تلعب دورا هاما في التجارة والعلاقات التجارية . وان للشبكات التي تنقل النفط والتي تمر بسورية وينتهي بعضها في ساحلها دورها الهام ايضا في التجارة العالمية .

غير ان الوحدة الاقتصادية التي بقيت مع لبنان حتى عام ١٩٥٠ ، وسياسة الاسراف في الاستيراد التي أعقبت الحرب بسبب نعطش السوق الى البضائع الاجنبية المفقودة ، وما نتج عنهما من اغراق البضائع الامريكية والانكليزية للاسواق السورية . يضاف الى ذلك استغلال الجانب اللبناني الوحدة الاقتصادية لمصلحته ، واصرار التجار اللبنانيين على ابقاء سياسة حرية التجارة التي أعقبت الحرب ، رغم الاضرار الفادحة التي كانت تلحقها بالاقتصاد السوري .

كل ذلك قد أدى في بداية فترة الاستقلال الى فقدان التوازن بين الصادرات والواردات ، والى وقوع الميزان التجاري تحت عجز كبير بلغ في الاعوام الاخيرة من عقد الاربعينات أرقاما مخيفة . ففي عام ١٩٤٧ كانت قيمة الواردات ٣٦١ مليون ليرة سورية ، وقيمة الصادرات ٨٧ مليون ليرة سورية فقط . وارتفع العجز من ٢٧٥ مليون ليرة سورية عام ١٩٤٧ الى نحو ٤١٢ مليون (٢) عام ١٩٤٨ .

وأمام هذا الوضع المتردي لم تجد سورية بدا من ركوب المركب الصعب وفصم الوحدة الاقتصادية مع لبنان كحل لوقف النزيف ولانقاذ الاوضاع الاقتصادية مما آلت اليه (٤) .

ولقد شعرت سورية بشيء من الضيق الاقتصادي في بادئ الامر ، لان السياسة الاقتصادية البديلة لم تكن جاهزة ، تعاني من بعض السلبيات والنواقص . فالاتصال بالخارج لاتمام الصفقات التجارية كان يتم على يد التجار اللبنانيين . والبرامج الاقتصادية البديلة كانت تحتاج الى الاختبار في التطبيق ، وتفتقر الى ما يساندها في مجال عقد المعاهدات التجارية الثنائية المتكافئة لفتح الاسواق امام المنتجات السورية وللتشجيع على التصدير والحد من الاستيراد الواسع وخاصة للكماليات .

الا ان هذا الضيق لم يدم طويلا . اذ سرعان ما توصل رجال التجارة في سورية الى كسر الطوق الذي كان تجار لبنان قد فرضوه . وأوجدوا لانفسهم قنوات الاتصال الخارجي اللازم لتسيير امور تجارتهم على احسن شكل . كما عملت الحكومة



السورية على وضع التشريعات المختلفة التي تحمي اقتصادها مما كان يهدده من أخطار . فأصدرت في عام ١٩٥٢ عدة مراسيم تشريعية لتشجيع الصناعة وتنشيط الزراعة وحماية الانتاج الوطني من المضاربة والحد من الاستيراد ومنع تصدير المواد اللازمة للاستهلاك المحلي وجعل السوق المحلية تعتمد على المنتجات الوطنية . وسارعت الحكومة أيضا الى اعداد مرفأ اللاذقية اعدادا مؤقتا لاستقبال السفن بدلا من مرفأ بيروت الى أن يتم انجاز المشاريع الكاملة لتوسيع هذا المرفأ . ودعمه ببناء مرفأ آخر في طرطوس بمساحة تساوي مجموع مساحة حوضي مرفأي بيروت واللاذقية معا .

وقد ساهمت هذه التدابير السريعة في انقاذ الوضع الاقتصادي في سورية من التدهور . فاعتدل الميزان التجاري . ولاول مرة ، وبالرغم من أن دور البترول لم يبدأ بعد في دعم الاقتصاد بصادراته (٥) ، زادت قيمة الصادرات على قيمة الواردات في عام ١٩٥٣ (٦) .

وبهذه المرحلة الانتقالية القصيرة وبما اتخذ فيها من تدابير اقتصادية سريعة وناجعة ، تمكنت سورية من الانتقال الى المرحلة الاخيرة الحالية من مراحل تطور التجارة الخارجية فيها ، والتي يمكن القول بانها بدأت منذ ان أخضعت الامور الاقتصادية في البلاد ، بما فيها قطاع التجارة الخارجية ، لسياسة التخطيط . فاصبح التطور فيها يجري وفق خطط خماسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي سبيل تطوير علاقات سورية التجارية في هذه المرحلة . ومن أجل زيادة حجم التبادل التجاري مع بلدان العالم المختلفة . بذلت جهود كبيرة ، وخاصة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٩ ، من أجل تأمين اسواق جديدة للمنتجات السورية . وتأمين مصادر جديدة لاستيراد السلع والتجهيزات اللازمة لتنفيذ مشاريع التنمية الشاملة والمستمرة . وتوج هذا النشاط بعقد المزيد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي (٧) .

والشيء البارز في علاقات سورية التجارية في هذه المرحلة الانتقالية هو ان العلاقات مع البلدان الاشتراكية كانت أسرع في تطورها وزيادة حجمها منها مع البلدان الرأسمالية . كما أن العلاقات التجارية مع البلدان النامية هي الاخرى قد أخذت سبيلها الى التوسع لتفتح أمام منتجات القطاع الصناعي الذي توسع في سورية أسواقا جديدة وواسعة .

وما تجدر اليه الإشارة في هذه المرحلة ، هو دور التطور الهام الذي طرأ على



الحياة الاقتصادية في سورية خلال السنوات الاخيرة والذي كان من نتيجته النمو الملحوظ في كافة فروع الاقتصاد بعد أن تم تنفيذ العديد من الخطط الخمسية التنموية التي رسمت بطريقة علمية روعي فيها الانسجام مع واقع البلد الاقتصادي والاجتماعي ، ووضع الاسس الكفيلة بتنمية الصادرات السورية وتنويعها بما يتماشى مع التطور الذي تحقق في مجال الصناعة والتعدين والزراعة. والاقبال ما أمكن من تصدير المواد الأولية . وتشجيع تصدير المنتجات والمواد المصنعة ونصف المصنعة مما يساهم في زيادة الموارد من القطع الاجنبي ، وفي تحرير البلد من التبعية الاقتصادية . وتحقيق تنمية اقتصادية مستمرة ومتوارنة . أما في مجال الاستيراد فقد هدفت هذه الخطط الى الاقلال من استيراد المواد الكمالية وغير الضرورية والى تأمين أفضل المصادر لاستيراد المواد التموينية والسلع والتجهيزات اللازمة لمشاريع التنمية . كما عملت هذه الخطط على تطوير علاقات سورية مع البلدان العربية والاجنبية عن طريق عقد المزيد من الاتفاقيات الاقتصادية التي تسهل زيادة حجم المبادلات . وزيادة عدد الملحقين التجاريين في البعثات الدبلوماسية في الخارج ، وافتتاح مكاتب التمثيل التجاري في الكثير من بلدان العالم ، والاشتراك في المعارض التي تقام في البلدان العربية وغير العربية ، والتشجيع على زبارة الوفود الاقتصادية ، وافساح المجال لها للاطلاع على المنتجات المحلية المعدة للتصدير (٨) .

وكنتيجة حتمية لهذه السياسات الاقتصادية ، تحولت الجهود التي بذلت لدعم التجارة الخارجية وتوسيع علاقاتها بعد عام ١٩٨٩ الى أرقام فاقت فيها قيمة الصادرات قيمة الواردات بعشرات المليارات من الليرات السورية . واعتدل الميزان التجاري ومالت كفته للمرة الثانية لمصلحة سورية . والجدول رقم ١ مع اللوحة رقم ١ يبينان ذلك بكل وضوح .

ان العجز الذي يبينه الجدول وتظهره اللوحة بالنسبة لأكثر السنين التي سبقت عام ١٩٨٩ ، فناتج عن زيادة أثمان الواردات زيادة كبيرة خطرة حين كانت أمور التجارة الخارجية غير موجهة . فقيمة الواردات في عام ١٩٤٩ وصلت الى أكثر من ٥١٦ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة الصادرات لهذا العام ١١٢ مليون ليرة سورية . فكان العجز أكثر من ٤٠٥ ملايين ليرة سورية .

أما في السنوات الاخيرة ، فقد خف العجز . وأخذ الميزان يميل لمصلحة البلاد . وبدأت أثمان الصادرات تغطي على أثمان الواردات مرة ثانية في عام ١٩٨٩ وذلك بعد المرة الاولى في عام ١٩٥٣ عندما دخل القطن قائمة الصادرات السورية آنذاك . ولدخول البتول والفوسفات وبعض المنتجات الصناعية في قائمة الصادرات حالياً .



## جدول رقم ١

## تطور قيمة الواردات والصادرات والميزان التجاري في سورية

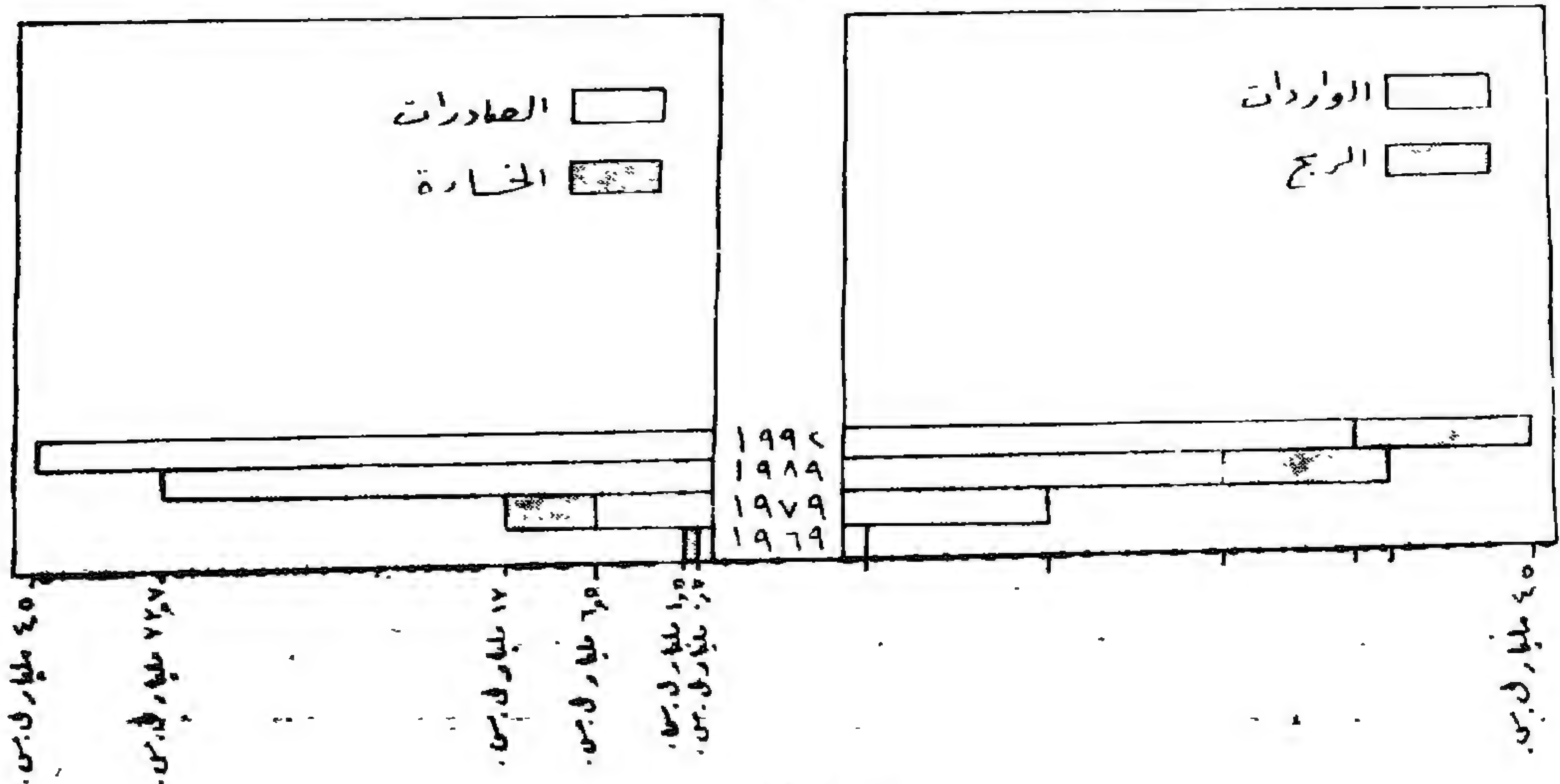
بين ١٩٦٩ و ١٩٩٢

السنوات	الواردات بآلاف الليرات السورية	الصادرات بآلاف الليرات السورية	الربح أو الخسارة بآلاف الليرات السورية
١٩٦٩	١١٣٢٥٣	٣٦٥١٧	٧٦٧٣٦(-)
١٩٧٩	٥١٦١٨٧	١١١١٠٤	٤٠٥٠٨٣(-)
١٩٨٩	٦٧٨٠٠٠	٤٢٥٠٠٠	٢٥٣٠٠٠(-)
١٩٩٩	١٤١١٠٠٠	٧٩٠٠٠٠	٦٢١٠٠٠(-)
١٩٧٩	١٣٠٦٧٠٠٠	٦٤٥٣٠٠٠	٦٦١٤٠٠٠(-)
١٩٨٩	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣٣٧٤٠٠٠٠	١٠١٩٦٠٠٠(+)
١٩٩٢	٣٢٥٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠٠	١٢٥٠٠٠٠٠(+)

## لوحة رقم ١

## تطور قيمة الواردات والصادرات والميزان التجاري في سورية

بين ١٩٦٩ و ١٩٩٢





ولمعرفة كيف كانت تحدث هذه الخسارة الكبيرة في الميزان التجاري خلال تلك الفترات من تاريخ التجارة الخارجية السورية وعلاقاتها . ثم معرفة لمن كانت تدفـ سورية هذه المبالغ الضخمة من أموالها ، وكيف انخفضت هذه الخسارة . واخذت تتراجع حتى مالت كفة الميزان لمصلحة البلاد . نورد الجدولين رقم ٣٥٢ واللوحتين رقم ٣٥٢ التالية والتي تمثل أولا جانبا من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩ عندما كانت سورية تخسر . ثانيا كامل علاقات سورية التجارية في عام ١٩٨٩ عندما أصبحت تربح .

## جدول رقم ٢

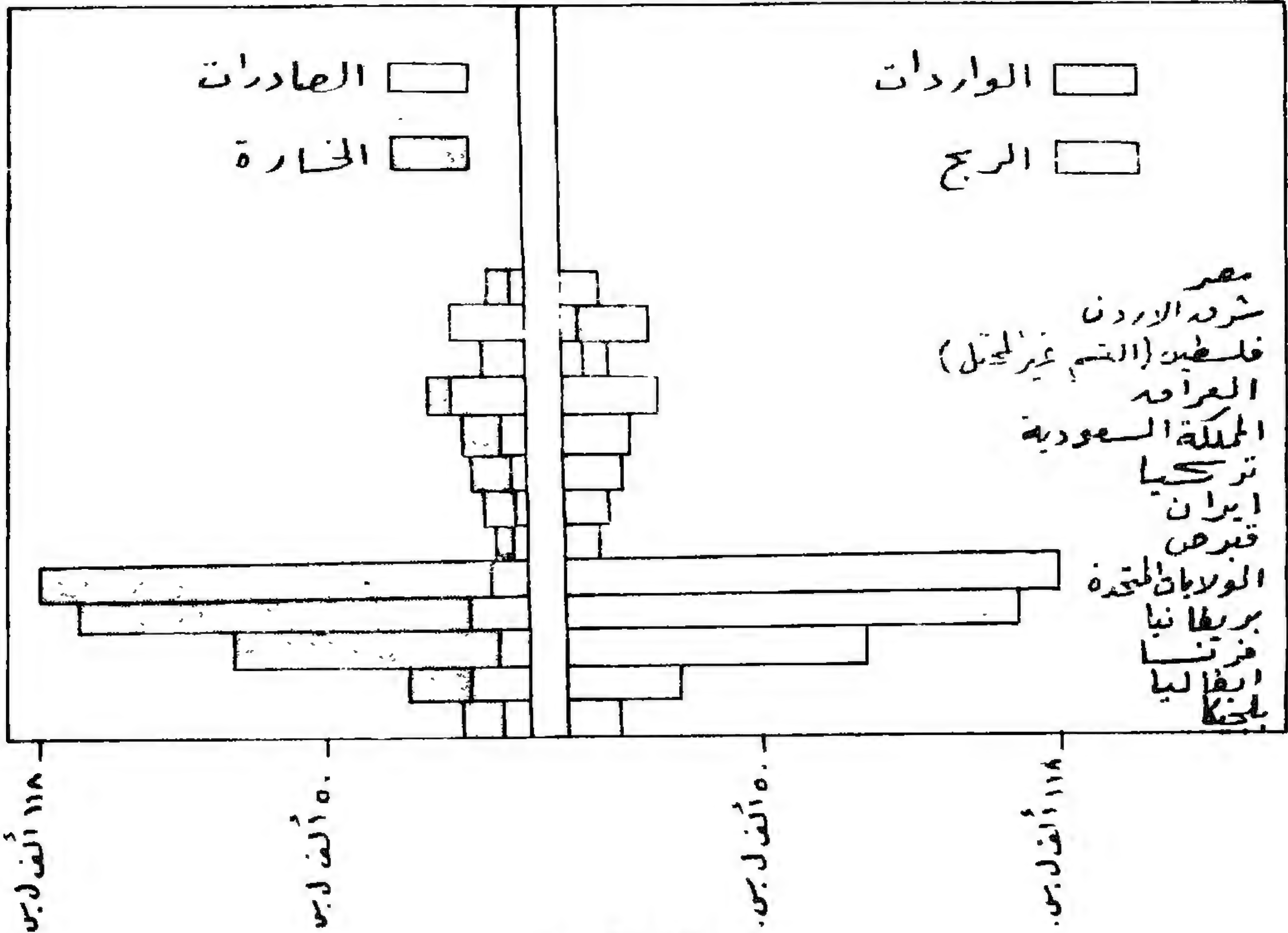
### جانب من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩

البلدان	( ١٠٠٠ ل.س ) قيمة الواردات	( ١٠٠٠ ل.س ) قيمة الصادرات
مصر	٦٧٨٤	٣٣٨٨
شرق الاردن	١٦٢٦	٢١٠٦٦
فلسطين	١٢٢٨	٨٠٦٩
العراق	٢٦٨١٣	٢٢٣٥٣
المملكة السعودية	١٢٧٥٧	٥٧٨٧
تركيا	١٢٢٩٨	٥٥٦
ايران	٥٩٤٠	١٤٤٠
قبرص	١٢٤٠	٢٤٢
الولايات المتحدة	١١٨٩٦٩	٢٧٥٩
بريطانيا	١٠٨١١٧	٩٦٩٤
فرنسا	٧٠٨٢٣	٧٠٧٢٣
ايطاليا	٢٦٢٧٢	١٣٢١٩
بلجيكا	١٣٠١٢	٢٨٦٤



## لوحة رقم ٢

جانب من علاقات سورية التجارية في عام ١٩٤٩



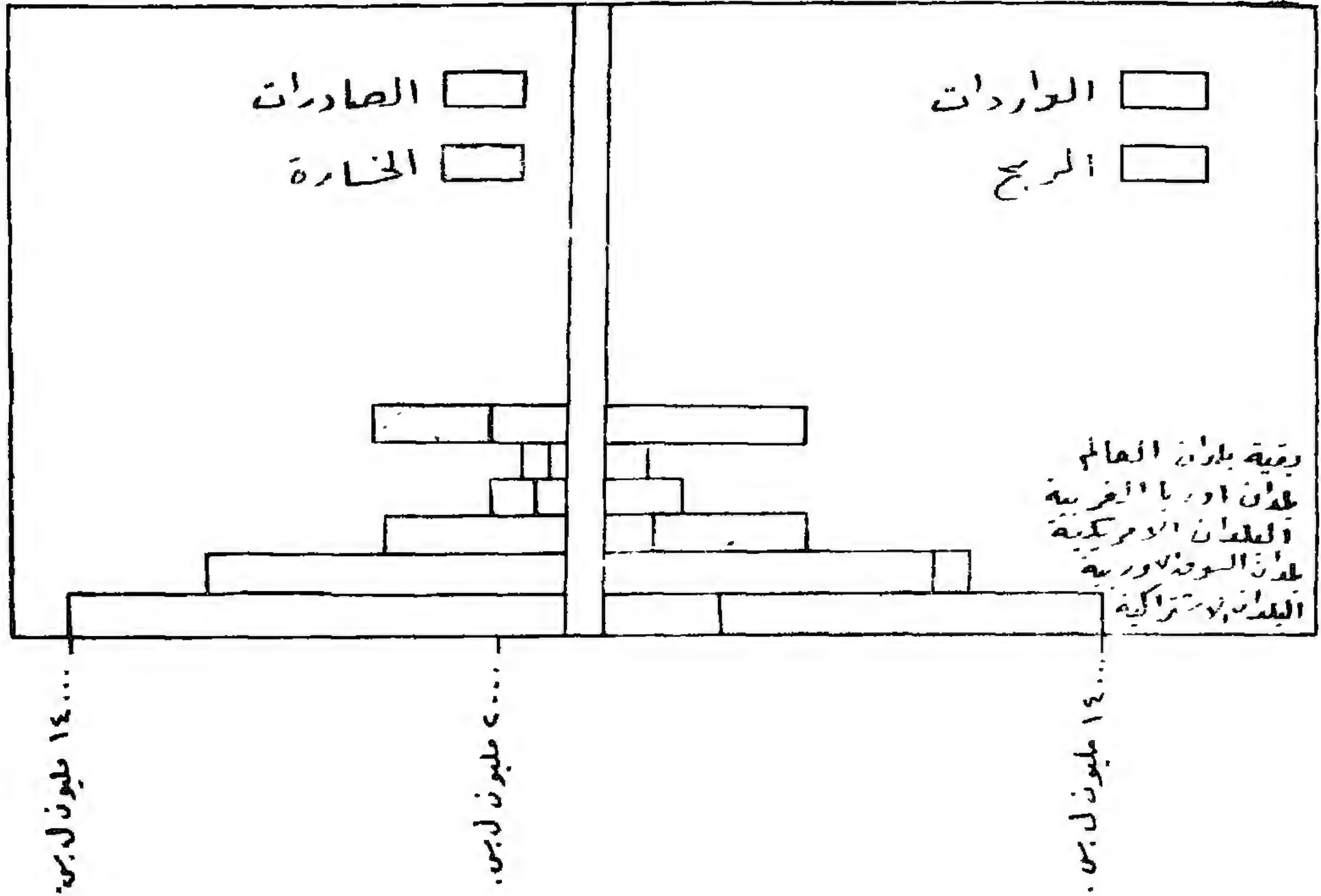
## جدول رقم ٣

علاقات سورية التجارية عام ١٩٨٩

مجموعات البلدان	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س.)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س.)
البلدان الاشتراكية	٣٣٣.٢٢٨	١٤٢٢٧١٢٨
بلدان السوق الأوروبية	٩٨٢٧٩٦٨	١.٤٦٦٦٦١
البلدان العربية	١٣٢٤٦١٦	٥٦٣٦١٧٣
البلدان الأمريكية	٢١٨٢٦٦٨	٨.٦٨٤٨
بلدان أوروبا الغربية	١.٨٤٥٤٤	٣٣٤.٦٦
بقية بلدان العالم	٥٧٩٤.٩٨	٢٢٩٨٧٦٢



**لوحة رقم ٢**  
**علاقات سورية التجارية عام ١٩٨٩**



وتظهر هذه الجداول واللوحات كيف أن معظم الخسارة في المراحل الأولى ، خسارة ١٩٤٩ مثلا كانت تحصل من الفرق الكبير بين قيمة الواردات من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وقيمة الصادرات الى هذه البلدان . وكيف أن الميزان كان خاسرا مع كل البلدان ، باستثناء شرق الأردن والقسم غير المحتل من فلسطين . وهذه الخسارة الكبيرة في الميزان تستدعي البحث عن الأسباب والتي يتلخص أهمها بما يلي :

١ - سوء السياسة التجارية بفتح باب الاستيراد على مصراعيه وتقييد التصدير وترك أمور التجارة الخارجية بأيدي تجار لا يعملون الا لمصلحتهم .

٢ - ارتفاع ثمن الواردات ، وخاصة التي تشرى بالعملة الصعبة من الأسواق الحرة . وكثرة التكاليف التي تصرف على هذه الواردات لايفضالها ( فواتير التحميل والتخزين والنقل والتفريغ والتأمين ) . وعدم ارتفاع ثمن الصادرات السورية بالنسبة نفسها .



٣ - سياسة الباب المفتوح التي كانت فرنسا تطبقها بالاستناد الى المادة ١١ من صك الانتداب وهي التي كانت تسهل دخول البضائع الاجنبية الى سورية ولبنان بتطبيق التعريفات الجمركية المخفضة عليها . يضاف الى ذلك سياسة الاستيراد التي كان يطبقها لبنان على حساب سورية . اذ كانت هذه السياسة مسؤولة عن الجزء الاكبر من هذه الخسارة . والدليل على ذلك ان الخسارة توقفت بعد الانفصال الجمركي عن لبنان .

اما تعويض هذه الخسارة الكبيرة فكان يتم على حساب اضمحلال وتآكل الثروة الوطنية شيئاً فشيئاً من الجوانب التالية :

- من الذهب المخزون والذي فقد القسم الاكبر منه .
- من ارباح تجارة العبور ( الترانزيت ) رغم قلتها وعدم تناسبها مع مكانة سورية ولبنان وأهمية الموقع الجغرافي الذي تحتلانه اذ أنها لم تكن تتجاوز الـ ١٨ مليون ليرة سورية سنوياً . ثم من البضائع التي كانت تستورد ثم يعاد تصديرها .
- من التبرعات وريع رؤوس الاموال الموظفة في الخارج ومن ارباح الحجاج والسواح والطلاب الغريباء والاصطياف .
- من اموال المهاجرين . وقد بلغ ما وصل البلاد منها بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٤ اكثر من ١١٤ مليون ليرة سورية (٩) .
- من الرسوم التي كانت تستوفى من شركات البترول التي تمر انابيبها عبر الاراضي السورية واللبنانية (١٠) ، ومن الطائرات التي كانت تهبط في المطارات .
- من ارباح التهريب الخفية .

## ٢ - علاقات سورية التجارية مع البلدان العربية وصور عن واقع هذه العلاقات :

ان الحال الذي وصلت اليه الاوضاع في الجزء الآسيوي من الوطن العربي بعد الحرب العالمية الاولى . حيث « تضرب فيه الاسداد بين فريق وفريق ، وتقام الفواصل وتصطنع الحدود والحواجز ، وتبتكر السياج حول مقاطعات اقليمية » (١١) . ان هذا الذي ادى الى تقسيم هذا الجزء من الوطن الى دويلات ذات حدود مصطنعة ، قد قلب الموقع الاقتصادي التقليدي لسورية ، وهو موقع احتل مكانة رئيسية في كل منطقة الشرق الأدنى خلال الفترة الواقعة بين ١٨٨٠ و ١٩١٤ .



لقد لمس معاصرو تلك المرحلة آثار التجزئة السياسية الاستعمارية على مصالح المنطقة الاقتصادية ، وبشكل خاص على مصالح سورية ، بعد السهولة التي كانت تسير بها التجارة في المنطقة دون حدود سياسية ودون حواجز جمركية . وان ما كتبه لطفي الحفار في جريدة الشعب في ١٧ تموز عام ١٩٣٠ ، وما ذكره بدر الدين الشلاح في مذكراته في شرح أسباب الازمة الاقتصادية في سورية يقدم خير صورة لتلك الآثار السلبية السيئة . حيث يرجع كل منهما هذه الاسباب الى تقسيم البلاد . « فسورية التي كانت قبل الحرب مورد التصدير الى الاناضول والرومللي والعراق والحجاز وفلسطين . تصدر الى كل هذه المناطق المحيطة محصولاتها الوطنية ، كما تسهل لها مرور المصنوعات والمنسوجات الاجنبية ، خسرت بعد الحرب هذه الاسواق . ودمشق التي كانت تصدر افضل انواع النسيج والفواكه المجففة الى فلسطين ومصر والحجاز والعراق حينما كانت حركة النقل والمواصلات بين دمشق وهذه الاقطار العزيزة سهلة وميسورة لا تقف بوجهها حدود او جمارك . دمشق هذه وجدت نفسها ، عندما فرض الاستعمار التجزئة ورسم الحدود السياسية والجمركية الوهمية بينها وبين هذه الاسواق ، معزولة اقتصاديا . وحل بها الضيق والبطالة والكساد . وانعكس هذا كله على علاقاتها التجارية » (١٢) .

رغم كل هذه الظروف القاسية التي أحاطت بعلاقات سورية التجارية مع شقيقاتها ، فان سورية استطاعت أن تعيد لهذه العلاقات حيويتها ونشاطها بسرعة ، مؤكدة بذلك أن ارتباط المصالح الاقتصادية بين البلاد العربية ، التي هي في الحقيقة أجزاء من سوق تجارية واحدة متكاملة ، يملك من القوة ما يمكنه من الصمود أمام عوامل التجزئة مهما كان شكلها وحجمها . وعادت البلاد العربية ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٩ لتصبح من أحسن من تعامل مع سورية تجاريا . وكانت سورية هي الرابحة دوما من هذا التعامل . فعلى سبيل المثال استوردت سورية مع لبنان في عام ١٩٣٩ من مصر والعراق وفلسطين وشرق الاردن والمملكة العربية السعودية ما قيمته ٧٣٢٢ ألف ليرة سورية . وصدرتا الى هذه البلدان ما قيمته ١٥٧٤٧ ألف ليرة سورية ، أي ضعف قيمة ما استورد منها . واستمر التعامل مع البلاد العربية يتحسن ، وبقي لمصلحة سورية حتى بلغت قيمة ما استوردته مع لبنان من البلاد العربية في عام ١٩٤٦ نحو ٣٧٥١٩ ألف ليرة سورية ، أي ما يعادل ١٤٪ من اجمالي قيمة الواردات البالغ ٢٦٦٦٥٤ ألف ليرة سورية . بينما بلغت قيمة ما صدرتاه الى هذه البلدان في هذه السنة نحو ٣٩.٩٥ ألف ليرة سورية ، أي ما يعادل ٤٧٪ من اجمالي قيمة الصادرات البالغ ٨٥٥٦٢ ألف ليرة سورية . وفي عام ١٩٦٩ وصلت قيمة ما استوردته سورية من البلاد العربية الى ١٩٨٩٤٢ ألف ليرة سورية ، وقيمة ما صدرته الى هذه البلدان ٢٤٥٣٢٨ ألف ليرة سورية وتكون سورية ، وقد انفرجت تجارتها الخارجية بعد انفصالها عن



لبنان عام ١٩٥٠ ، قد حققت من هذه العلاقات الميزة ربحاً مقداره ٦٣٨٦ ألف ليرة سورية . أخيراً بلغت قيمة واردات سورية من البلاد العربية في عام ١٩٨٩ نحو ١٣٢٤ مليون ليرة سورية . وقيمة صادراتها ٥٦٣٦ مليون ليرة سورية . وبذلك يكون ربح سورية من علاقاتها مع البلدان العربية قد ارتفع الى أكثر من ٤٣١٢ مليون ليرة سورية (١٣) .

ونظراً للروابط التقليدية بين سورية وفلسطين ضمن وحدة بلاد الشام الجغرافية ، حيث كانت فلسطين أكثر أسواق التصدير قيمة بالنسبة لسورية ، فإن تجار دمشق كانوا حريصين دوماً على عدم قطع هذه الروابط ، وعلى ابقاء هذه الأسواق مفتوحة لأنها كانت تؤمن العمل لنحو ٢٥٠ ألف عامل سوري ولأن قيمة ما كانت تستجره من بضائع لا تقل عن ثلاثة ملايين ليرة ذهبية عثمانية (١٤) .

ونتيجة لممارسات وطنية وقومية من الجانبين السوري والفلسطيني بقي للسوق الفلسطيني دوره الكبير في الاقتصاد السوري خلال فترة الانتداب . وبقيت تجارة فلسطين مع سورية أكثر نشاطاً من التجارة مع كل من مصر والعراق . حيث تبين من احصاءات ١٩٣٤ - ١٩٣٧ أن حصة سورية من مجموع مستوردات فلسطين من البلدان الثلاثة المجاورة مصر وسورية والعراق قد بلغت ٦٣٪ كما بلغت حصتها من صادرات فلسطين الى هذه البلدان نحو ٨٠٪ . وكان رصيد العلاقات التجارية بين سورية وفلسطين ايجابياً لمصلحة سورية ، حيث كان معدل ما تبيعه سورية لفلسطين لا يقل عن اربعة اضعاف ما تشتريه منها . ففي عام ١٩٢٧ على سبيل المثال ، باعت سورية لفلسطين ما قيمته ٨٨٢١٣٢ ليرة سورية . واشترت منها ما قيمته ٢٦٠٧٢٧ ليرة سورية . وفي مقدمة البضائع التي كانت تصدرها سورية الى فلسطين : الحنطة والشعير والطحين والبيض والالبسة والمنسوجات الحريرية والاحذية والجزمات الجلدية والاسمنت والبطايا . وكانت هذه البضائع تدخل الى فلسطين في مطلع الثلاثينات بسهولة بسبب ضعف بنية الاقتصاد الفلسطيني في تلك الفترة من جهة ، وبسبب مقاطعة عرب فلسطين للمنتجات اليهودية من جهة أخرى . وكان معرض القدس العربي الذي افتتح في تموز ١٩٣٣ ، والذي كانت المنتوجات السورية فيه موضع اعتزاز أهل فلسطين ، مناسبة لتوثيق الروابط الاقتصادية بين البلدين .

وتستفيد سورية مما تربحه من علاقاتها مع البلدان العربية في تعديل الميزان التجاري ، وتغطية جزء من الخسارة التي تلحقه من العلاقات مع البلدين الاخرى ، وبخاصة العلاقات مع بلدان السوق الأوروبية المشتركة والبلدان الأمريكية . والجداول التالية رقم ٤ بين تطور حجم علاقات سورية التجارية مع كل البلدان العربية مجتمعة .



**جدول رقم ٤**  
**تطور حجم علاقات سورية التجارية مع البلدان العربية**  
**( القيمة بملايين الليرات السورية )**

السنوات	قيمة الواردات من البلاد العربية	قيمة الصادرات الى البلاد العربية	قيمة اجمالي واردات سورية	قيمة اجمالي صادرات سورية
*١٩٤٦	٣٧	٣٩	٢٦٦	٨٥
١٩٦٩	١٩٨	٢٤٥	١٤١١	٧٨٩
١٩٧٩	٢٦٣٧	٧٦٠	١٣٠٦٧	٦٤٥٣
١٩٨٩	١٣٢٤	٥٦٣٦	٢٣٥٤٤	٣٣٧٣٩

\* \* \*

\* ارقام هذه السنة فقط تخص سورية ولبنان معا بسبب الوحدة الاقتصادية التي كانت بينهما .



## الصورة الاولى

### علاقات سورية التجارية مع العراق :

كانت العلاقات التجارية وثيقة بين المدن العراقية والمدن السورية أثناء الحكم العثماني . وكانت حلب بصورة خاصة مركزا تجاريا هاما ومخزنا لتوزيع البضائع في الشرق باجمعه .

أما في زمن الانتداب فقد طرأ على هذه العلاقات تطورات جديدة نتيجة لخضوع كل من البلدين لنظام سياسي واقتصادي مختلف فانتداب فرنسي في سورية ، وانتداب انكليزي في العراق . وقامت الحدود الجمركية بين البلدين فاتجه العراق نحو الخليج العربي ، في حين اتجهت سورية نحو ساحل البحر المتوسط . وظل الحال على هذا الشكل حتى مطلع الحرب العالمية الثانية . وكان العراق خلال هذه المدة يستفيد من التعرفة الجمركية الدنيا بموجب أحكام المادة ١١ من صك الانتداب على صادراته الى سورية بينما كانت سورية لا تنال مقابل ذلك أي تسهيل لبضائعها المصدرة الى العراق ، فكانت الواردات منه تفوق الصادرات اليه بكثير . وفي مطلع الحرب العالمية الثانية بدأت هذه الحالة تتغير ، وصار الميزان التجاري يتأرجح بين التعادل وبين الخسارة البسيطة . ففي عام ١٩٤٦ بلغت قيمة الواردات من العراق ١٦ مليون ليرة سورية ، وقيمة الصادرات اليه نحو ١٢ مليون ليرة سورية . فكانت الخسارة بسيطة . وفي عام ١٩٤٧ كان الميزان التجاري رابحا لأول مرة ، اذ بلغت قيمة الواردات منه نحو سبعة ملايين ليرة سورية ، وقيمة الصادرات اليه نحو ١٧ مليون ليرة سورية . أي بربح قدره ١٠ ملايين ليرة سورية .

وسورية في الحقيقة هي ممر طبيعي للبضائع الذاهبة للعراق والخارجة منه . وتجارة الترانزيت الى العراق تحتل المكانة الاولى في الترانزيت السوري . ففي عام ١٩٨١ ، قبل فتور العلاقات التجارية مع العراق لاسباب سياسية طارئة ومؤقتة . بلغت قيمة البضائع المارة لحساب العراق أكثر من ١٦٦ مليار ليرة سورية . كما أن سورية وقد سبقت العراق بنهضتها الصناعية والزراعية ، كانت احسن سوق تتزود منه العراق بما تحتاجه .

وبقيت العلاقات مع العراق تزداد أهمية يوما بعد يوم . تدعمها الاتفاقيات التجارية التي تعقد بينه وبين سورية . ففي عام ١٩٥١ ، بعد الانفصال عن لبنان ، تم



الاتفاق بينهما لتصدر سورية القمح الى العراق على أن يسدد ثمنه بمنتجات عراقية من اغنام وجمال وتمور وشعير وجلود وبتروول(١٥) . اما اهم ما يستورده العراق من سورية المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية والاحذية والشالات والمصنوعات الزجاجية والخزفية ، ثم الفواكه والقمح وقمر الدين والصابون وزيت الزيتون والتبغ والخضراوات والاثمار المحفوظة والمجففة .

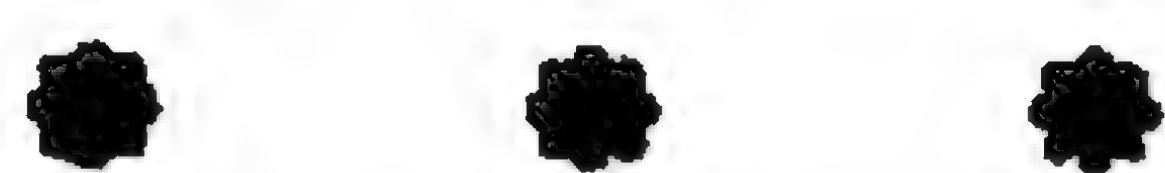
الا أن العراق عاد ليصبح الرابع من التجارة طيلة فترة تزويده لسورية بالبتروول الخام . ففي عام ١٩٦٩ بلغت قيمة صادرات العراق الى سورية نحو ٨٨ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة وارداته من سورية الـ ٢٤ مليون ليرة سورية . فكان ربحه بحدود الـ ٦٤ مليون ليرة سورية . وارتفعت قيمة صادراته الى سورية في عام ١٩٨١ الى أكثر من ٣٧ مليار ليرة سورية . اما قيمة وارداته منها فلم تتجاوز الـ ٩٥ مليون ليرة سورية . وبالتالي كان ربحه في هذه السنة أكثر من ثلاثة مليارات ليرة سورية(١٦) .

والجدول التالي رقم ٥ بأرقامه يبين تطور العلاقات التجارية مع العراق منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨١ .

### جدول رقم ٥

#### تطور علاقات سورية التجارية مع العراق (١٧)

السنوات	قيمة الواردات ( ١٠٠٠ ل.س )	قيمة الصادرات ( ١٠٠٠ ل.س )	الربح أو الخسارة ( ١٠٠٠ ل.س )
١٩٣٩	١٢٧٥	١١١١	١٦٤ ( - )
١٩٤٩	٢٦٨١٣	٢٢٣٥٣	٤٤٦٠ ( - )
١٩٦٩	٨٨٠٨٧	٢٤٢٤٦	٦٣٨٤١ ( - )
١٩٨١	٣٧١٣٣٢٦	٥٩٢٩	٣٧٠٧٣٩٧ ( - )





## الصورة الثانية

### علاقات سورية التجارية مع المملكة العربية السعودية :

بقيت العلاقات بين سورية من جهة والمملكة العربية من جهة أخرى ، محدودة الى وقت متأخر . ففي عام ١٩٣٩ لم تتجاوز قيمة الصادرات اليها من كل من سورية ولبنان الربع مليون ليرة سورية . وقيمة الواردات منها الـ ٥١ ألف ليرة سورية . ثم تدنت هذه الأرقام في السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية ، وعادت بعد ذلك الى النشاط حتى عام ١٩٤٥ حيث كان الميزان التجاري معها خاسرا لأول مرة اذ هبطت الصادرات الى ثلث الواردات . ومنذ عام ١٩٤٦ بدأ الرجحان في الميزان يميل لحساب سورية ولبنان حتى بلغ الصادر في عام ١٩٤٧ عشرة أضعاف الوارد منها . وفي عام ١٩٥٠ ، بعد الانفصال ، عقد بينها وبين سورية معاهدة تجارية لانماء التبادل بينهما الى أقصى حد مستطاع ، ثم اتبعت المعاهدة بقرض لسورية تسدده بالبضائع السورية من حبوب وبقولات وفواكه مجففة وطازجة وأقمشة قطنية وحريرية وصوفية وملبوسات وأحذية وسكاكر ومحفوظات وزجاج وخزف وصابون وزيت زيتون . أما أهم ما كانت تستورده سورية من المملكة العربية السعودية فهو الجلود الخام والجمال .

واستمر تحسن العلاقات التجارية بين البلدين كما وقيمة . وبقي الربح الذي كان بازياد مستمرا أيضا لمصلحة الجانب السوري . ففي عام ١٩٦٩ وصل الربح الى أكثر من ١١ مليون ليرة سورية . وارتفعت الأرباح في عام ١٩٨١ الى نحو ١٤٢ مليون ليرة سورية . أما في عام ١٩٨٩ فقد قفزت هذه الأرباح الى أكثر من ١٥٩٩ مليون ليرة سورية (١٨) وأرقام الجدول التالي رقم ٦ تبين بوضوح تطور حجم العلاقات التجارية مع المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٣٩ ونسبتها الى إجمالي قيمة الواردات والصادرات السورية .

#### جدول رقم ٦

#### تطور حجم العلاقات التجارية السورية مع المملكة العربية السعودية

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة إجمالي واردات سورية (١٠٠٠ ل.س)	قيمة إجمالي صادرات سورية (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٥١	٢٥٠	١١٣٢٥٣	٣٦٥١٧
١٩٤٩	١٢٧٥٧	٥٧٨٧	٥١٦١٨٧	١١١١٠٤
١٩٦٩	٦٤٤	١٢٤٢٣	١٤١١٣٢٤	٧٨٩٩١٨
١٩٨١	١٥٢٤٠	١٥٧١٨١	١٩٧٨١٠٤٢	٨٢٥٣٧٣١
١٩٨٩	٤١٨٢٠٢	٢٠١٧٢٠٦	٢٣٥٤٤٠٠٠	٣٣٧٤٠٠٠٠



## الصورة الثالثة

### علاقات سورية التجارية مع المملكة الاردنية :

كان شرق الاردن يحتل في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة ، المرتبة السادسة بين المتعاملين تجاريا مع سورية بالشكل الرسمي المعلن . الا ان التهريب على الحدود بين البلدين في هذه الفترة ، وهي حدود طويلة ، كان يتم على نطاق واسع ، حيث اصبح شرق الاردن مركزا لتوزيع وتهريب البضائع الى كافة البلدان العربية . وقد بلغت قيمة الصادرات اليه في عام ١٩٤٦ على سبيل المثال نحو ٤ ملايين ليرة سورية مقابل ٥٠٠ مليون ليرة سورية للواردات منه .

وبقي الميزان التجاري يتأرجح بين البلدين ، فتارة يميل لمصلحة سورية ، وأخرى لمصلحة الاردن . ولكن في الغالب كانت سورية هي الرابحة بالنسبة للمبادلات الرسمية المعلنه . اما بالنسبة للمبادلات الخفية ( التهريب ) فالربح كان دوما من حصة الاردن .

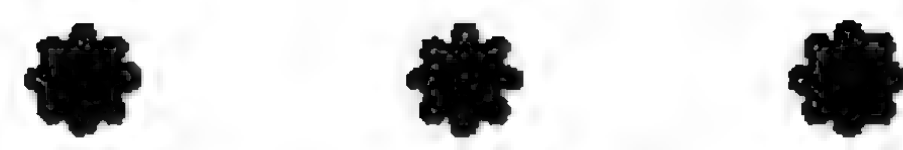
وفي كل الاحوال ، يبقى الاردن من بين البلدان العربية التي تتعامل تجاريا مع سورية بشكل واسع . وذلك نتيجة للجوار بين هذين البلدين الشقيقين من جهة ، وللتكامل الاقتصادي بينهما ، وحاجة كل منهما للآخر من جهة اخرى . ففي عام ١٩٦٩ كان الاردن ثاني بلد عربي تصدر اليه سورية بعد لبنان . ورابع بلد عربي تستورد منه بعد العراق ولبنان ومصر . فقد بلغت قيمة الصادرات اليه اكثر من ٤١٥ مليون ليرة سورية من أصل ٢٤٥ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السورية الى البلدان العربية . أما الواردات منه فقد كانت بحدود ١٤٥ مليون ليرة سورية من أصل ١٩٩ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الواردات السورية من هذه البلدان . وتكون سورية قد حققت في هذه السنة من علاقاتها التجارية مع الاردن ربحا صافيا مقداره ٢٧ مليون ليرة سورية .

وفي عام ١٩٨١ ازداد حجم التبادل بين البلدين لتصل قيمة الصادرات السورية الى الاردن الى نحو ١١١ مليون ليرة سورية ، من أصل ٧٩٧ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السورية في هذه السنة الى البلدان العربية . أما الواردات فقد بلغت قيمتها اكثر من ١٤٣ مليون ل.س . من أصل ٥٩٦٧ مليون ل.س ، قيمة اجمالي الواردات السورية لهذا العام من هذه البلدان . وهكذا يكون الاردن بهذه الأرقام ثالث بلد عربي تستورد منه سورية بعد العراق ولبنان ، وخامس بلد تصدر اليه بعد الكويت وليبيا والمملكة العربية السعودية ولبنان .



أما في عام ١٩٨٩ فقد حافظ الاردن على مرتبته الخامسة بين البلدان العربية التي تصدر اليها سورية بعد كل من المملكة العربية السعودية ولبنان والامارات العربية المتحدة وتونس . حيث بلغت قيمة ما صدر اليه نحو ٣٢٣ مليون ل.س . من أصل ٥٦٣٦ مليون ل.س . قيمة اجمالي الصادرات السورية الى هذه البلدان . أما في حقل الواردات فقد كانت قيمة ما استوردته سورية منه نحو ١٢١ مليون ل.س . من أصل ١٣٢٤ مليون ل.س قيمة اجمالي واردات سورية من البلاد العربية . وهو بهذا يكون قد حافظ على مرتبته السابعة (١٩) .

وهكذا يتضح أن سورية هي التي أصبحت تربح في الفترات الاخيرة ، وبشكل جيد من عمليات التبادل التجاري مع الاردن . وقد تحقق هذا كنتيجة طبيعية للتقدم الصناعي والزراعي الذي شهدته سورية ولفائض انتاجهما الذي يحتاج اليه الاردن البلد المجاور . تم للسياسة الحكيمة والموجهة التي أصبحت نعمة أساسية من سمات التجارة الخارجية السورية ولعلاقاتها مثلها في ذلك كمثل بقية القطاعات الاقتصادية الاخرى . يضاف الى ذلك الدور الذي تلعبه تجارة الترانزيت الى الاردن حيث بلغت قيمة البضائع المارة بسورية الى الاردن في عام ١٩٨٩ أكثر من ٧٥٧ مليون ليرة سورية .





## الصورة الرابعة

### علاقات سورية التجارية مع مصر :

بدأت علاقات سورية التجارية مع مصر في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، بشكل متواضع من حيث حجمها ، رغم ما يصل هذين البلدين من روابط تاريخية وثقافية واقتصادية ، ورغم ما يقتضيه الحال بأن تكون مصر من أول زبائن سورية لحاجتها ، وهي البلد المستهلك الكبير ، لما يفيض من الانتاج السوري . وحاجة سورية بالمقابل لبعض ما تنتجه مصر .

ورغم سهولة المواصلات البحرية وقربها . ورغم توصيات مجلس جامعة الدول العربية المتكررة بتوثيق وتوسيع العلاقات بين دول الجامعة . فقد بقيت مصر حتى عام ١٩٤٩ لا تحتل الا المقام السابع بين البلاد المستوردة من سورية ، والمرتبة التاسعة بين البلاد المصدرة اليها . وذلك لأن مصر كانت تفضل في هذه الفترة تصدير منتجاتها الى اسواق النقد القوي .

وبقي حجم تجارة سورية مع مصر محدودا في الفترات التالية ، كما أن العلاقات كانت تتعرض باستمرار لتأثير الاحداث السياسية التي مرت بالبلدين وبالمطقة العربية عامة . كالوحدة بين البلدين والانفصال الذي تلاها . ثم الحروب مع اسرائيل والمواقف المتباينة من النتائج التي أفرزتها هذه الحروب - وخاصة حرب تشرين عام ١٩٧٣ - والتي أدت الى القطيعة المؤقتة بين البلدين والتي استمرت حتى عام ١٩٩٠ .

أما مبيعات سورية لمصر فقد كانت تتكون من بعض الثمار والبقول المجففة والتبغ والتبناك وخيوط الحرير . وقد بلغت قيمة هذه المبيعات في عام ١٩٤٦ ، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، نحو خمسة ملايين ليرة سورية . ثم أخذت هذه القيمة بالتناقص حتى وصلت الى نحو ثلاثة ملايين ليرة سورية فقط في عام ١٩٤٩ . وبالمقابل كانت سورية نستورد من مصر القطن (٢٠) والسكر والارز والنحاس والاسفلت وبطانيات الصوف والافلام السينمائية . وقد بلغت قيمة هذه المستوردات في عام ١٩٤٦ نحو سبعة ملايين ليرة سورية . وتناقصت هذه القيمة في عام ١٩٤٩ بمقدار قليل لتعود الى الارتفاع من جديد وتصل في عام ١٩٦٩ الى ١٩ مليون ليرة سورية . وبعد الانقطاع الذي أعقب احداث حرب تشرين ، عادت الواردات في عام ١٩٨٩ لتسجل قيمة ٢٣ مليون ليرة سورية . في حين بقيت الصادرات حتى هذه السنة شبه معدومة .

وما تجدر الإشارة اليه في العلاقات التجارية بين سورية ومصر ، هو أنها بدأت



د. محمود رمزي .....

ضعيفة واستمرت كذلك . وان الميزان التجاري بدأ لمصلحة مصر في هذه العلاقات وبقي حتى عام ١٩٨٩ لمصلحتها ولكن الارباح كانت ولا زالت ضعيفة اذا ما نسبت الى الارباح التي كانت تحققها العلاقات التجارية مع البلدان العربية الاخرى ، خاصة تلك التي تتعامل مع سورية تجاريا على نطاق واسع . والجدول التالي رقم ٧ يبين ذلك بوضوح .

### جدول رقم ٧ العلاقات التجارية السورية مع مصر

السنوات	قيمة الواردات ( ١٠٠٠ ل.س )	قيمة الصادرات ( ١٠٠٠ ل.س )	الربح او الخسارة ( ١٠٠٠ ل.س )
١٩٣٩	٢٤١٨	١١٣٢	١٢٨٦ ( - )
١٩٤٩	٦٧٨٤	٢٢٨٨	٢٣٩٦ ( - )
١٩٦٩	١٨٩٥٣	٢٤٧٥٥	٥٨٠٢ ( + )
١٩٨١	٢٣١	—	٢٣١ ( - )
١٩٨٩	٢٣٢٩٩	—	٢٣٢٩٩ ( - )

\* \* \*



## الصورة الخامسة

### علاقات سورية التجارية مع لبنان :

ان الوحدة الجمركية بين سورية لبنان والتي أوجدتها السلطات الفرنسية ، وابتقت عليها سلطات البلدين في أول عهد الاستقلال ، لم تكن لتقتصر على الجمارك فحسب ، انما كانت تتسع لتكون شبه وحدة اقتصادية بين البلدين .

وكان لبنان يستغل هذه الوحدة الاقتصادية لمصلحته على حساب سورية ، ويحتكر فوائد تجارة البلدين الخارجية مستفيدا من وجود ادارة الجمارك والمرفأ ومراكز وكالات وتخليص البضائع وأسواق القطع لديه ، وفي بيروت بالذات ، ليفرض نفسه كوسيط لعمليات الاستيراد والتصدير الى سورية مقابل نفقات باهظة يدفعها في النتيجة المستهلك السوري .

ثم ان لبنان كان ينتهج ، وبشكل منفرد ، سياسة اقتصادية تنافى ومصلحة شريكه سورية ، فيفتح أبوابه على مصراعيها أمام البضائع الاجنبية لتغزو الاسواق السورية وتضارب المنتوجات المحلية وتشل النشاط الصناعي وتستنزف الثروات وتدخل الخلل الى الميزان التجاري .

وبعد الاستقلال، رغبت سورية انتهاج سياسة اقتصادية بديلة تحد من الاستيراد للكُماليات ، وتحمي المصنوعات الوطنية وتشجعها ، وتقي البلد شر استنزاف الثروة التي أصبح تأكلها يهدد كيان البلد الاقتصادي ، وتوقف الخسارات الفادحة في الميزان التجاري . لقد أرادت سورية في الحقيقة إعادة تنظيم التجارة الخارجية للبلدين ، المتحدنين اقتصاديا ، على أسس صحيحة في مجالي التصدير والاستيراد ، وتعديل فوائد المصالح المشتركة مع لبنان وجعل القسمة عادلة بحيث تتلاءم مع عدد المستهلكين في كلا البلدين . وهي لم ترد القطيعة بأي شكل من الاشكال . الا أن هذه الاسس الجديدة التي اقترحت سورية تنفيذها لصالح البلدين وللحفاظ على الوحدة الاقتصادية بينهما ، لم ترق للبنان لانها ستحد بالطبع من مكاسب المنتفعين وستضع حدا للاستغلال الذي كان يحقق لهم المرباح الطائلة . وأمام الموقف المتشدد من لبنان ورفضه لأي تعديل للشكل القديم للوحدة الاقتصادية ، لم يبق أمام سورية من أجل صيانة الجزء الباقي من ثروتها الا فصم الوحدة الاقتصادية عام ١٩٥٠ وتحررت سورية من القيود التي كانت تربطها وتمنعها من توجيه تجارتها الخارجية وعلاقاتها التجارية وفق ما تقتضيه المصلحة الوطنية .



وهكذا تحول ما كان يجري داخليا من تبادل مصالح بين البلدين في ظل الوحدة الاقتصادية ، الى تجارة خارجية . وأخذت خطوط التعامل في هذه التجارة الجديدة بين البلدين تتضح شيئا فشيئا لتصبح متسabee لما هو موجود بين سورية وبقية البلدان العربية المجاورة كالاردن والعراق . مع فارق بسيط يعود للعلاقات السابقة ويتمثل بسهولة المبادلات . ففي عام ١٩٦٩ فاقت قيمة ما صدرته سورية الى لبنان الـ ١١٢ مليون ل.س ، وقيمة ما استوردته منه الـ ٧٢ مليون ل.س . وارتفعت الارقام في عام ١٩٨٩ الى أكثر من ١٥٠٦ ملايين ل.س للصادرات . في حين لم تصل قيمة الواردات لأكثر من ٧١ مليون ل.س ، فتكون سورية قد حققت بذلك ربحا يزيد على الـ ١٤٣٥ مليون ليرة سورية .

### ٣ - علاقات سورية التجارية مع البلدان الأجنبية وصور عن واقع هذه العلاقات :

مند أن وضعت سورية تحت الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى ، والعلاقات تسير وفق ما تقتضيه مصلحة الدولة المنتدبة التي كانت لا تترك مجالا لأي دولة أجنبية أخرى لمزاحمتها في جني فوائد الانتداب (٢١) . فبقيت تتبوأ لوحدها المركز الاول في المبادلات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث استقلت سورية ، وظهر على المسرح التجاري العالمي مزاحمون جدد مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي انتزعت المكانة الاولى من فرنسا ودفعتها الى المرتبة الثالثة . في حين بقيت انكلترا تحتل المكانة الثانية طيلة هذه الفترة .

والصفة البارزة في علاقات سورية مع الدول الأجنبية في هذه المرحلة هي عدم تمشيها مع ما تقتضيه المصلحة من حماية للثروة الوطنية من خطر التبديد . فقيمة الواردات من هذه الدول أكثر من قيمة الصادرات إليها بعدة مرات . والامور التي كانت تدعم الاسترسال في هذه العلاقات ، رغم معرفة ما تجر من أضرار ، كثيرة وفي مقدمتها أن سورية لم تكن تملك في ظل الانتداب حرية القرار . ثم السياسة الاقتصادية المشتركة مع لبنان التي استمر اعتمادها بعد الاستقلال ، والتي كان ما يسمى فيها بالمصالح المشتركة يستغل بأبشع شكل من قبل تجار لبنان عامة ، وتجار بيروت خاصة . حيث كانوا يفرقون الاسواق بالكماليات ، يستوردونها ليتم تصريفها فيما بعد في سورية . مستغلين في ذلك سيطرتهم على الميناء الوحيد للاستيراد السهل في البلدين ، ولولا أن تم عام ١٩٥٠ الانفصال الاقتصادي عن لبنان ، وانهاء المصالح المشتركة ، لانتهى الامر بسورية الى كارثة اقتصادية لا يعلم مداها .

ولأول مرة في تاريخ سورية التجاري منذ الانفصال عمن جسيم الامبراطورية العثمانية ، أخذت قيمة الصادرات فيها تقترب من قيمة الواردات حتى فاقتها في مطلع عام ١٩٥٣ (٢٢) .



وفي المرحلة الحالية ، وبعد أن أصبحت سورية تطبق سياسة اقتصادية وطنية موجهة ، أن كان في مجال الزراعة والصناعة ، أو في مجال استثمار الثروات الطبيعية وفي مقدمتها البترول والفوسفات . ثم بعد أن وضعت هذه التجارة في خدمة التنمية الشاملة ، وما يقتضيه تنفيذ الخطط الخمسية الموضوعة لهذا الهدف . نتيجة لكل ما تقدم ، أصبحت الصفة البارزة لعلاقات سورية مع الدول الأجنبية هي الحرية في اختيار التعامل الأمثل ومع أي طرف من هذه الأطراف الأجنبية ، وبشكل متوازن وعقلاني ، ملتزم بكل ما من شأنه الحفاظ على الثروة الوطنية وتنميتها ، دون التقصير في تلبية ما تتطلبه التنمية المستمرة . وقد تمثلت هذه الصفة وبكل وضوح في واقع التجارة الخارجية لسورية في عام ١٩٨٩ عندما تخطت قيمة الصادرات ، وللمرة الثانية ، وبعد سنوات من التآرجح بين الخسارة والتوازن ، وبمقدار كبير ، قيمة الواردات ، ومعظمها من البلدان الأجنبية (٢٣) .

لقد تغيرت طبيعة العلاقات التجارية مع الدول الأجنبية في المراحل الأخيرة من هذه الفترة نتيجة للسياسة الاقتصادية الوطنية التي اتبعتها سورية في تنظيم هذه العلاقات بشكل ينسجم مع طبيعة العلاقات السياسي بينها وبين كتل العالم ومعسكراته المختلفة . لقد توجب عليها أن تشق لعلاقاتها التجارية ولمبادلاتها مع الدول الأجنبية طريقاً آمناً في ميادين لم تعد تسغلها دول ذات نظام اقتصادي واحد هو النظام الرأسمالي ، إنما أصبح فيها معسكر لنظام اشتراكي أيضاً وآخر لنظام غير منحاز ، خاصة وأن العلاقات مع هذه الأنظمة الجديدة تختلف في طبيعتها عن تلك التي هي مع النظام الرأسمالي . وأن الأساس فيها هو تبادل المنافع .

وفي سبيل تطوير علاقات سورية التجارية مع البلدان الأجنبية في هذه المرحلة الجديدة من تاريخ علاقاتها التجارية . ومع البلدان الصديقة بشكل خاص ، ومن أجل زيادة حجم النبادل التجاري مع هذه الدول . فقد بذل نشاط كبير في عام ١٩٦٩ كما سبق وذكرنا ، وذلك من أجل تأمين أسواق جديدة للمنتجات السورية . وتأمين مصادر جديدة لاستيراد السلع والتجهيزات اللازمة لتنفيذ مشاريع التنمية الشاملة والمستمرة . وقد توج هذا النشاط بعقد المزيد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي (٢٤) . والجدول التالي رقم ٨ يبين حجم علاقات سورية التجارية مع الكتل الرئيسية للبلدان الأجنبية في ثلاث فترات متعاقبة .



**جدول رقم ٨**  
**علاقات سورية التجارية مع الكتل الرئيسية للبلدان الاجنبية**

السنوات	قيمة الواردات ١٠٠٠ ل.س	قيمة الصادرات ١٠٠٠ ل.س
١٩٦٩	٣٧١٧.٩	١٤١٨١٤
	٤٣٧٢٣٣	٢٩٧٢٥٥
	٦٦٩٩٤	٥.٧٨
١٩٧٩	٤١٩١.٠٠٠	٣٣٢٢.٠٠٠
	٢٣٥١.٠٠٠	١.٣٦.٠٠٠
	٦٢٥.٠٠٠	٦١٩.٠٠٠
١٩٨٩	٩٨٢٧٩٦٨	١.٤٦٦٦٦١
	٣٣٣.٢٢٨	١٤٢٢٧١٢٨
	٢١٨٢٦٦٨	٨.٦٨٤٨

\* \* \*



## الصورة الأولى

### علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية :

أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ضمن مجموعة الموردين الأساسيين لسورية بعد أن سيطرت على التجارة العالمية ، وانتزعت من فرنسا مكان الصدارة في العلاقات التجارية لهذا البلد . ووصل وزن ما صدرته سورية ولبنان في عام ١٩٤٧ على سبيل المثال ، ٦٦١.٤ أطنان ، بقيمة تزيد على ٩٧ مليون ليرة سورية . بينما لم يتجاوز وزن ما صدر اليها من سورية في هذا العام الـ ٩٤٧.٠ طنا ، بقيمة لا تزيد على ٦ ملايين ليرة سورية . فالميزان التجاري كان خاسرا معها في هذه الفترة بشكل كبير . وقد وصلت الخسارة الى هذا الشكل الكبير بسبب سنوات الرفاه التي جاءت بعد الحرمان الطويل اثناء الحرب العالمية الثانية . ففتحت الابواب على مصراعيها أمام البضائع الأمريكية ، وقسم كبير منها يدخل في باب الكماليات ، وارتفعت أرقام الواردات ارتفاعا هائلا من حيث الوزن ومن حيث القيمة ، حتى أصبحت نسبة الصادرات اليها لا تساوي الا ٥٪ فقط . ولم يوقف هذا الاتجاه الخطير ، الا بعد أن حصل الانفصال عن لبنان بعد ١٩٥٠ . ومن استعراض الواردات لهذه الفترة ، والتي تضم السيارات والزيوت المعدنية والكاوتشوك والافلام والالبسة المستعملة ( البالة ) والاقمشة والورق والخیوط والادوية والروائح وأدوات الزينة والجمعة والمشروبات والسجائر ومصنوعات النايلون ، يتضح أن ٧٥٪ من هذه الواردات يستهلك دون أن يدر على البلاد أية فائدة . والباقي ونسبته ٢٥٪ فقط يستفاد منه في الصناعة والزراعة . وبالمقابل تضم قائمة ما تصدره سورية اليها التبغ والتبناك والصوف وزيت الزيتون وعرق السوس والجلود والامعاء . ومعظم هذه الصادرات مواد خام أولية يستفاد منها في الصناعة .

ومع اصرار سورية على الاستمرار في تطبيق سياستها الاقتصادية الجديدة الموجهة ، واتفاق ذلك مع عودة النشاط الى مناطق الانتاج والاسواق المختلفة في غرب أوربا وفي شرقها . ثم ظهور التكتلات الاقتصادية والسياسية الجديدة في العالم ، مثل السوق الأوروبية المشتركة في غرب القارة الأوروبية ، ومنظومة التعاون في شرقها ، وكتلة عدم الانحياز والعالم الثالث . أمام كل هذه الاوضاع ، أخذت العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية تتقلص . لتتوسع وتتوثق بالمقابل علاقات جديدة ومفيدة وموزونة مع بلدان في أوربا الشرقية والغربية وفي آسيا ، علاقات موجهة ومدروسة ، وهي في الوقت نفسه حلقة من مخطط اقتصادي متكامل .



وهكذا أصبح حجم العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية يتحدد وبفعل عاملين أساسيين : الاول سياسة سورية الاقتصادية وما ترسمه لتنظيم علاقاتها التجارية الخارجية مع الكتل الاقتصادية والسياسية العالمية . والثاني المنافسة المتعاظمة من قبل الاطراف الاوربية الغربية والشرقية ومن قبل اليابان . بعد أن استطاعت هذه الاطراف ترميم ما دمرته الحرب ، واستعادة قوتها الاقتصادية ونشاطها التجاري . ولعل أرقام الجدول التالي رقم ٩ واللوحه رقم ٤ تعطي فكرة واضحة عن تطور حجم العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية عند عام ١٩٣٩ ونسبتها الى اجمالي قيمة الواردات والصادرات السورية .

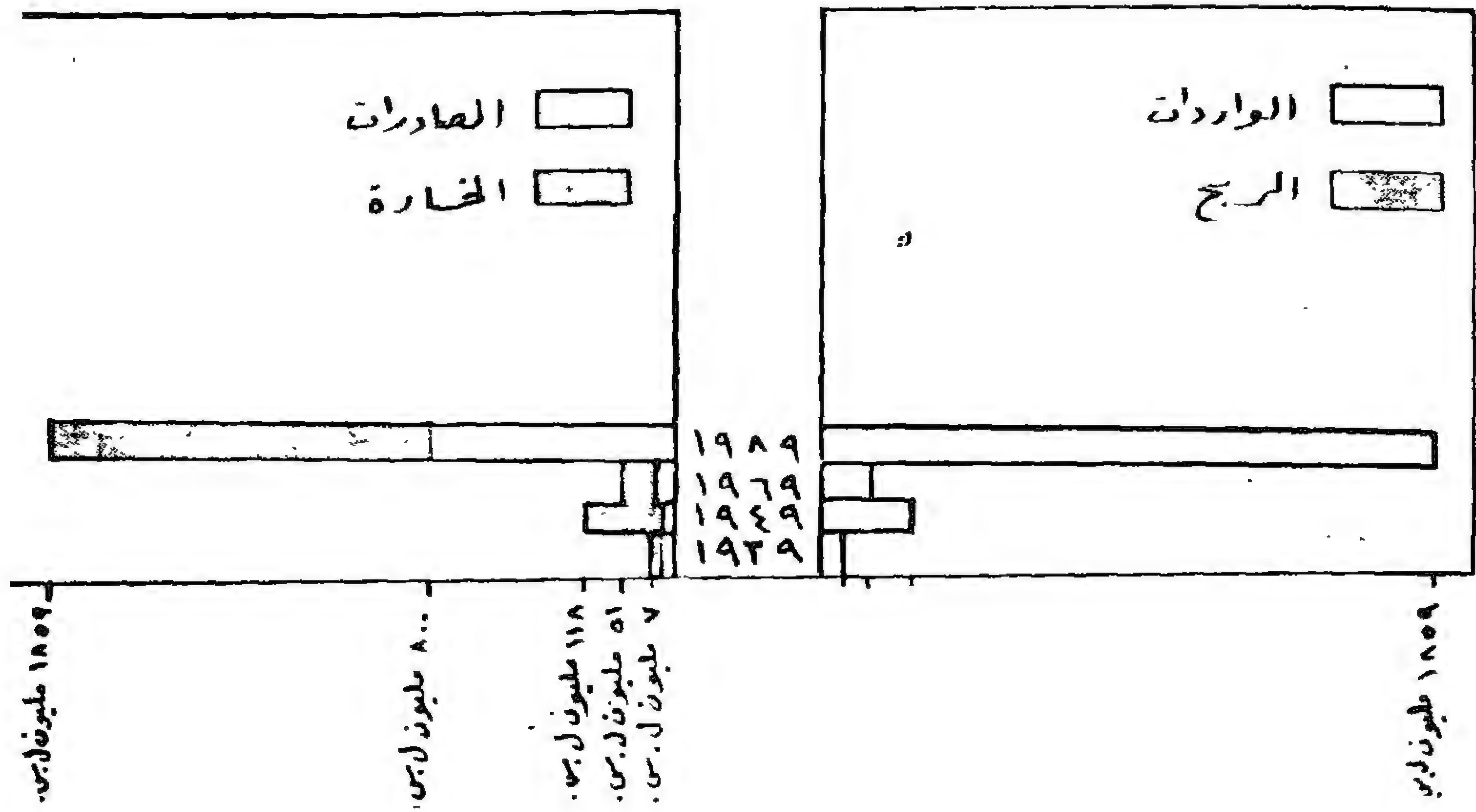
### جدول رقم ٩

#### تطور علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الامريكية

الربح أو الخسارة الف ل.س	قيمة اجمالي صادرات سورية الف ل.س	قيمة الصادرات الى امريكا الف ل.س	قيمة اجمالي واردات سورية الف ل.س	قيمة الواردات من امريكا الف ل.س	السنوات
٣١٨٣ -	٣٦٥١٧	٣٨٩٢	١١٣٢٥٣	٧.٧٥	١٩٣٩
١١٥٢١. -	١١١١.٤	٣٧٥٩	٥١٦١٨٧	١١٨٩٦٩	١٩٤٩
٤٥٨٨٩ -	٧٨٩٩١٨	٥.٥٥	١٤١١٣٢٤	٥.٩٤٤	١٩٦٩
١.٥٨٤.١ -	٣٣٧٤.٠٠٠	٨٠.٦٢١	٢٣٥٤٤.٠٠٠	١٨٥٩.٢٢	١٩٨٩



## لوحة رقم ٤ تطور علاقات سورية التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية



## الصورة الثانية

### ٢ - علاقات سورية التجارية مع الاتحاد السوفيتي :

برغم ان سورية نالت استقلالها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فأصبحت حرة في اتباع السياسة الاقتصادية التي تتماشى مع مصالحها ، فقد تأخر ولاسباب سياسية ، بدء العلاقات التجارية مع اطراف المنظومة الاشتراكية .

ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما اقبلت سورية أولا ، ثم تبعتهما افغان وخرتية أخري ، ففتحت صفحة علاقاتها التجارية مع اطراف هذه المنظومة ، ومع الاتحاد السوفيتي بالذات . ولم يأت عام ١٩٦٣ الا وكانت حركة الصادرات



والواردات قد اخذت طريقها الى التوسع . ومنذ عام ١٩٦٤ بدأت سورية باكورة علاقاتها التجارية مع الاتحاد السوفيتي باستيراد ما يقرب من ١١ الف طن من قضبان السكة الحديدية وهي كافية لتمديد خط بطول ١١٠ كم . وفي عام ١٩٦٥ تم استيراد كمية اخرى تكفي لتنفيذ ١٠٠ كم مع كل ما يلزم من الات ومعدات الية للتنفيذ السريع . واستمرت هذه العلاقات تتطور بسرعة لتأخذ دورها الهام بين علاقات سورية التجارية العالمية . انما بشكل جديد ومختلف عما كان يتم في السابق وفق اتفاقيات تجارية طويلة الامد مدعومة باتفاقيات تعاون اقتصادي ابرمت مع اكثر من بلد من البلدان الاشتراكية . فمع الاتحاد السوفيتي (٢٥) ، تم في عام ١٩٦٩ ابرام اتفاق تعاون اقتصادي وتجاري من أجل توثيق العلاقات التجارية يقضي بأن يقوم الاتحاد السوفيتي بتقديم قرض الى سورية بغية تنمية صناعة النفط وتوليد ونقل الطاقة الكهربائية وانشاء الخطوط الحديدية واقامة مصنع للمنتجات الحديدية واخر لاطارات السيارات وتسليم الات ومعدات البناء ومواد البناء اللازمة لذلك . بالإضافة الى المعدات والالات الزراعية اللازمة لتهيئة أكثر من ١٧ الف هكتار للاستثمار الزراعي في منطقة مشروع الفرات الكهربائي . على أن يتم التسديد بمنتجات سورية معدة للتصدير من مواد خام ومواد مصنوعة او نصف مصنعة .

وقد كان من نتائج هذا التعاون الوثيق أن تصدر الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٦٩ المكان الاول بالنسبة لصادرات سورية ووارداتها حيث تجاوزت قيمة مصادره سورية الى الاتحاد السوفيتي في هذه السنة الـ ١٣٦ مليون ليرة سورية من ٧٩٠ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الصادرات السورية . أي ما يساوي ١٧٪ منها . كما بلغت قيمة واردات سورية من الاتحاد السوفيتي ١٢٦ مليون ليرة سورية من ١٤١١ مليون ليرة سورية قيمة اجمالي الواردات السورية . أي ما يساوي ٨٩٪ منها (٢٦) .

وظل الاتحاد السوفياتي حتى السنوات الاخيرة من المرحلة الحالية من بين أوائل المتعاملين مع سورية . وقد تبعه في ذلك عدد من بلدان المنظومة الاشتراكية في شرق اوربا كرومانيا والمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا . ثم في شرق اسيا كالصين .

وارقام الجدولين التاليين رقم ١٠ ورقم ١١ اللذين يعودان لعامي ١٩٨١ و ١٩٨٩ يبينان بوضوح دور الاتحاد السوفيتي ودور بعض الاطراف الاخرى في المنظومة الاشتراكية في علاقات سورية التجارية من حيث قيمة ما يستورده سورية من هذه البلدان وما تصدره اليها ومقابلة ذلك مع قيمة اجمالي الصادرات والواردات السورية .



جدول رقم ١٠

واردات سورية وصادراتها في عام ١٩٨١  
من وإلى بعض البلدان الاشتراكية

البلدان	قيمة الواردات	قيمة الصادرات	الربح أو الخسارة
	١٠٠٠ ل.س	١٠٠٠ ل.س	١٠٠٠ ل.س
الاتحاد السوفياتي	٢٨٣٨٩٧	٤٤٦٢٣٩	١٦٢٣٤٢ +
رومانيا	٨٣٩٧٩٠	٨١٠٠٧١	٢٩٧١٩ -
المانيا الديمقراطية	٥١٤٢٩٥	١٥٣٩٧١	٣٦٠٣٢٤ -
تشيكوسلوفاكيا	٣١٦٧٩٤	٧٣٩٧٣	٢٤٢٨٢١ -
بلغاريا	٣٩٩٨٩٥	٣٧١٠٦	٣٦٢٧٥٣ -
الصين	٣١٨٨٩٤	٩٩٢٤١	٢١٩٦٥٣ -
قيمة اجمالي واردات سورية			١٩٧٨١٠٤٢ ألف ل.س
قيمة اجمالي صادرات سورية			٨٢٥٣٧٣١ ألف ل.س



**جدول رقم ١١**  
**واردات سورية وصادراتها في عام ١٩٨٩ من وإلى بعض البلدان الاشتراكية**

البلدان	قيمة الواردات ل.س. ١٠٠٠	قيمة الصادرات ل.س. ١٠٠٠	الربح أو الخسارة ل.س. ١٠٠٠
الاتحاد السوفياتي	٣٠٣٨٩٢٧	١٢٠٥٢٧٩٧	١١٠١٣٨٧٠+
رومانيا	٤٤٥٥٩٦	١٥٦٣٥٩٣	١١١٧٩٩٧+
بلغاريا	٢٦٩٠٥١	٧٣٩٠٦	١٩٥١٤٥-
تشيكوسلوفاكيا	٢٠٣٠٥٤	١١١٥١٢	٩١٥٤٢-
هنغاريا	٣٠٠٧٩٧	٣٥٠٠١	٢٦٥٧٩٦-
الصين	٣٣٣٧٢٣	١٧٤٤٨	٣١٦٢٧٥-
<hr/>			
قيمة اجمالي واردات سورية	٢٣٥٤٤١٢٢ ألف ل.س.		
قيمة اجمالي صادرات سورية	٣٣٧٣٩٦٣٨ ألف ل.س.		



## الصورة الثالثة

### ٢ - علاقات سورية التجارية مع بريطانيا ( المملكة المتحدة ) :

كانت بريطانيا قبل عام ١٩٣٩ تشغل المرتبة الثانية في التعامل مع سورية ولبنان . اما في عام ١٩٤٦ فقد نراجعت مرتبتها الى السابعة . ويعود السبب في ذلك الى اوضاع بريطانيا الخاصة بعد الحرب العالمية الثانية التي اضطرتها لاتباع نظام اقتصادي شديد ، كل شيء فيه يخضع للتقنين . ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا . اذ سرعان ما تخطته بتحسين شروط انتاجها الصناعي . واخذت من جديد تفرق اسواق سورية ولبنان بالمنتجات الصناعية والمحركات والالات ، لتقفز بذلك الواردات منها قفزات كبيرة ، مع بقاء الصادرات اليها منخفضة .

الا أن العلاقات التجارية مع بريطانيا بقيت متخلفة عن العلاقات مع اطراف السوق الاوربية المشتركة طيلة وجودها خارج هذه السوق من جهة . ولان بريطانيا كانت من جهة اخرى تحرص بالدرجة الاولى على توسيع علاقاتها مع مناطق مجموعة رابطة الشعوب البريطانية ( الكومنولت ) . اضافة الى ان البضائع البريطانية ، رغم جودتها ، كانت تلقى بسبب ارتفاع اسعارها منافسة قوية من بضائع الدول الصناعية الاخرى . ولكن ذلك لم يمنع سورية ، التي اختطت لنفسها في المراحل الحالية توسيع علاقاتها التجارية مع كل بلدان العالم ، من أن تشجع بقاء أسواقها مفتوحة لما هو ضروري ومطلوب من المنتجات الصناعية البريطانية لسد حاجة متطلبات البناء والتنمية ، اضافة لطبيعة السوق الواسعة التي تسيطر عليها بريطانيا اقتصاديا وهي سوق مجموعة الاسترليني التي يمكن ان يصرف فيها العديد من الصادرات السورية .

اما أهم الواردات من انكلترا فهي المنسوجات بأنواعها ، وخاصة الاقمشة الصوفية ، ثم الادوية والكاوتشوك وخيوط الفزل على أنواعها والالات والمحركات والذهب والحديد . والورق . أما الصادرات اليها فهي الحبوب وزيت الزيتون والمحفوظات والتبناك والجلود ثم العظام وقرون الحيوانات .

والجدول التالي رقم ١٢ يوضح سر علاقات سورية التجارية مع بريطانيا منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨٩ .



## جدول رقم ١٢

## علاقات سورية التجارية مع بريطانيا (٢٧)

السنوات	قيمة الواردات من انكلترا الف لس	قيمة اجمالي واردات سورية الف لس	قيمة الصادرات الى انكلترا الف لس	قيمة اجمالي صادرات سورية الف لس	الربح أو الخسارة الف لس
١٩٣٩	٨٧.٧	١١٣٢٥٣	٢٤٥٩	٣٦٥١٧	٦٢٤٨
١٩٤٩	١.٨١١٧	٥١٦١٨٧	٩٦٩٤	١١١١.٤	٩٨٩٢٣
١٩٦٩	٦٤٩٣٣	١٤١١٣٢٤	٨.٣٦	٧٨٩٩١٨	٥٦٨٩٧
١٩٨٩	٦٨٦١٣.	٢٣٥٤٤.٠٠٠	٣١.٣٨٧	٣٣٧٤.٠٠٠	٣٧٥٧٤٣

\* \* \*



## الصورة الرابعة

### علاقات سورية التجارية مع ايطاليا :

تمتع ايطاليا بمركز تجاري مهم في حوض البحر المتوسط ، وتملك صناعة متنامية - يدعمها اسطول تجاري كبير ، وانخفاض في أسعار الكلفة . مما جعل البضائع التي تختص بانتاجها رائجة . لهذا تحتل مكانة مرموقة بين البلدان التي تتعامل معها سورية .

يضاف لما تقدم ان لهذه العلاقات التجارية بين سورية وايطاليا جذورا تاريخية تعود الى الروابط بين تجار البندقية والمدن الايطالية الاخرى . ومراكز التجارة السورية القديمة على الساحل وفي الداخل تشهد على ذلك . والخانات القديمة التي لا زالت موجودة في أسواق هذه المراكز تحمل اسمهم .

أهم ما يستورد من ايطاليا المنسوجات بأنواعها وخيوط الغزل والاجهزة الكهربائية والورق والسيارات والرز ، أما أهم ما يصدر اليها ففي المقدمة يأتي القطن والبترول، ثم الجلود والصوف والفوسفات وزيت الزيتون .

بدأت العلاقات التجارية الجديدة بين سورية ولبنان وايطاليا قبل الحرب العالمية الثانية ناشطة . وكانت الخسارة في البداية بسيطة لم تتجاوز عام ١٩٣٩ الثلاثة ملايين ليرة سورية وبيف . الا أن هذه الخسارة ارتفعت بعد الحرب ، وقد توقفت أثناءها بسبب انقطاع السبل ، بحيث أصبحت في ١٩٤٩ بحدود ١٣٦ مليون ليرة سورية (٢٨) . ثم تابعت ارقام الاستيراد من ايطاليا بشكل قفزات واسعة فابتعدت بذلك قيمة هذه الواردات عن قيمة ما كانت تصدره سورية اليها .

ففي عام ١٩٦٩ وصلت قيمة ما صدرته ايطاليا الى سورية الى ١٢٣ مليون ليرة سورية . في حين كانت قيمة ما استوردته من سورية ٩٦٥ مليون فقط .

الا أن الوضع التجاري بين سورية وايطاليا تبدل في السنوات الاخيرة تبديلا كبيرا ولمصلحة سورية . ففي عام ١٩٨٩ فاقت قيمة الصادرات السورية الى ايطاليا قيمة ما استورد منها بمقدار كبير . فقد كانت قيمة الصادرات اكثر من ٥٢٣٦ مليون ليرة سورية . في حين لم تتجاوز قيمة الواردات منها الـ ١٦٥٩ مليون ليرة سورية . وتكون سورية قد حققت من هذه العلاقات ربحا يزيد على الـ ٣٥٧٦ مليون ليرة



د. محمود رمزي .....

سورية . أما في عام ١٩٩٢ فقد بلغت قيمة الصادرات اليها ١٢١٦٣ مليون ليرة سورية بينما لم تتجاوز قيمة الواردات منها الـ ٣٢.٨ ملايين ليرة سورية ، وبهذا يكون ربح سورية قد ارتفع الى ما يقرب من ٨٩٥٥ مليون ليرة سورية .

والملاحظ بصورة عامة ان صادرات سورية الى ايطاليا تزداد وتتناقص تبعا للمواسم الزراعية في البلدين . فعندما تكون هذه المواسم رديئة في ايطاليا وجيدة في سورية ، ترتفع نسبة واردات ايطاليا من سورية من المنتجات الزراعية الغذائية .

ثم يجب ان لا يغيب عن البال أن ايطاليا التي تفتقر الى النفط . قد وجدت في النفط السوري ما يناسبها من حيث القيمة ومن حيث التركيب الحاوي على الكبريت والذي يتطلب لمعالجته أنواعا خاصة من المصافي تنطبق مواصفاتها على المصافي الايطالية . والجدول التالي رقم ١٣ يبين تطور قيمة المبادلات التجارية بين سورية وايطاليا منذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٩٢ .

### جدول رقم ١٣ علاقات سورية التجارية مع ايطاليا

السنوات	قيمة الواردات (١٠٠٠ ل.س)	قيمة الصادرات (١٠٠٠ ل.س)
١٩٣٩	٥٤٤٤	٢٢٦٤
١٩٤٩	٢٦٨٧٢	١٣٢١٩
١٩٦٩	١٢٣.٧٨	٩٦٥٩٥
١٩٨١	١٩٨٦٦٨٨	٣٤٨١١٩٤
١٩٨٩	١٦٥٩٥٢.	٥٢٣٦٣٤٧
١٩٩٢	٣٢.٨٠٠٠	١٢١٦٣.٠٠٠



## الصورة الخامسة

### علاقات سورية التجارية مع تركيا :

ان أهم البلدان المجاورة والتي لها علاقات تجارية مع سورية ، هي تركيا . وانه لما يشير العجب أن تكون العلاقات التجارية بين بلدين متجاورين ، تمتد الحدود بينهما على مئات الكيلومترات ، محدودة ، بحيث لم يتجاوز حجم التجارة بينهما عشرات الالوف من الليرات السورية فقط في بداية التعامل بعيد الحرب العالمية الاولى ، بعد تفكك الدولة العثمانية . واذا ما تذكر المرء حالة المبادلات قديما ، حينما كانت حلب مخزنا لجنوب الاناضول يوزع البضائع من أقمشة ومنتجات محلية الى أورفا وعينتاب وديار بكر ومرعش فانه سيزداد عجا .

ان اسباب ضعف العلاقات هذه كثيرة . منها سياسية ومنها اقتصادية . وسياسة تركيا الاقتصادية الصارمة في صيانة ثروتها الوطنية في الفترة الاولى لقيام الدولة التركية الجديدة . وتشابه المنتجات وخاصة المنتجات الزراعية في كل من البلدين . قد قلل من أهمية المبادلات . الا أن هذا لا يمنع القول بأنه من الممكن قيام حركة مبادلات لكثير من الاصناف . ففي وسع سورية أن تصدر الى تركيا مثلاً منسوجات الحرير الاصطناعي والاسفلت والبتروول وبعض المنتجات المعدنية والصناعية . وأن تستورد منها بالمقابل الاخشاب الجيدة والفحم الحجري والورق والاسماك والاعنام والانواع الجيدة من السجائر .

ثم هناك مسألة التهريب الواسعة على الحدود التي يزيد طولها على ٥٥٠ كم ، بين البلدين ، وهي لا تدخل في الحسابات والاحصاءات الرسمية .

ثم هناك تجارة العبور ( الترانزيت ) التي كانت ولا تزال تجري لحساب تركيا عبر الاراضي السورية . وتلعب دوراً هاماً بالنسبة لعلاقات تركيا التجارية مع اقطار الخليج العربي . ففي عام ١٩٤٧ وفي البداية كانت تركيا من بين البلدان الاوائل التي تصدر وتستورد عن طريق سورية ، حيث بلغت آنذاك قيمة ما صدرته عن طريق سورية نحو ١٧ مليون ليرة سورية ، فكانت رابع دولة بين ٢٥ دولة . كما بلغت قيمة ما استوردته سورية في السنة نفسها أكثر من ١٢ مليون ليرة سورية ، أي ثامن دولة بين ٢٥ دولة . وقد ارتفعت هذه الأرقام في عام ١٩٨١ بشكل كبير لتصبح قيمة ما صدرته عن طريق سورية ١١٣٤ مليون ليرة سورية ، وقيمة ما استوردته ٣٨



مليون ليرة سورية . وبقيت الأرقام مرتفعة بهذا الشكل حتى عام ١٩٨٩ ، على الرغم من أن تجارة الترانزيت قد تراجعت في سورية بشكل عام . فقيمة صادراتها عن طريق سورية لم تهبط عن مبلغ ١١.٨ ملايين ليرة سورية . في حين ارتفعت قيمة ما استوردته عن طريق سورية إلى ٥٨ مليون ليرة سورية .

هذا وإنه لمن الطبيعي كنتيجة لسياسة التتدد التي تتبعها تركيا في معاملاتها التجارية مع سورية ومع غيرها من بلدان العالم ، أن تكون العلاقات معها خاسرة غالبا وأن يميل الميزان التجاري لمصلحتها دوماً .

والجدول التالي رقم ١٤ يبين ذلك بكل وضوح . كما يبين أيضا ارتفاعا ملموسا في قيمة المبادلات ، ولكن لمصلحة تركيا أيضا .

### جدول رقم ١٤ علاقات سورية التجارية مع تركيا

السنوات	قيمة الواردات ( ١٠٠٠ ل.س )	قيمة الصادرات ( ١٠٠٠ ل.س )	الربح أو الخسارة ( ١٠٠٠ ل.س )
*١٩٣٩	٢٢٥٣	١٢٧	٢١٢٦ ( - )
*١٩٤٩	١٢٢٩٨	٥٥٦	١١٧٤٢ ( - )
١٩٨١	٣٧٩٧٧٥	١٢٢٧١	٣٦٧٥٠٤ ( - )
١٩٨٩	١٨٥٤٤٢٧	٢٩١٧٤٧	١٥٦٢٦٨٠ ( - )

\* أرقام عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٩ هي لسورية ولبنان معا بسبب الوحدة الاقتصادية التي كانت قائمة بينهما .



## الحواشي :

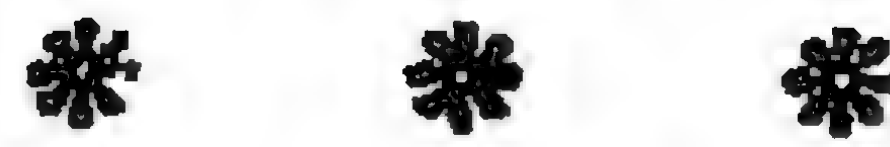
- (١) جاء في تقرير لجنة ( كنغ - كرين ) الذي صدر في صيف عام ١٩١٩ ما يلي : « لما كانت سورية جزءا من رأس الجسر الذي يربط بين اسيا واوروبا وافريقيا ، حيث يلتقي الشرق والغرب بصورة فريدة ، فان موقعها ذو أهمية استراتيجية وسياسية وتجارية » .
- (٢) كتاب الوطن العربي - الجزء الاول ( سورية ولبنان ) لعبد العزيز عثمان ، نشر مكتبة ربيع بحلب عام ١٩٥٧ - ص : ٢٢٢ .
- (٣) تجارة سورية ولبنان الخارجية بين ١٩٣٩ و ١٩٥٠ . مصدر سبق ذكره .
- (٤) المصدر السابق .
- (٥) أول شحنة صدرت من البترول السوري كانت في عام ١٩٥٨ من ميناء طرطوس .
- (٦) استوردت سورية في هذا العام ، ومن مختلف اسواق العالم ، ما قيمته ٣٠٧ ملايين ليرة سورية . وصدرت مقابل ذلك ما قيمته ٢٦٩ مليون ليرة سورية . فتكون قد حققت بذلك ربحا مقداره ٦٢ مليون ليرة سورية - المجموعة الاحصائية السنوية لوزارة الاقتصاد الوطني .
- (٧) عقد في هذه الفترة عدد من الاتفاقيات التجارية واتفاقيات التعاون الاقتصادي مع أكثر الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي . كذلك مع عدد من بلدان العالم النامي . وسرد استعراض مفصل لبعض
- (٨) النشرات الصادرة عن وزارة التخطيط وعن وزارة الاقتصاد الوطني والتي تتضمن التفاصيل الكاملة عن تطبيقات الخطط الخمسية للتنمية الاقتصادية ونتائجها .
- (٩) تجارة سورية ولبنان الخارجية بين (١٩٣٩ و ١٩٥٠) مصدر سبق ذكره .
- (١٠) وصلت الرسوم التي كانت تستوفي عن مرور البترول العراقي قبل توقفه الى ما لا يقل عن ٩٠٠ مليون ليرة سورية .
- (١١) المقاطعة الاقتصادية للصهيونية واسرائيل (١٩٩٢) الدكتور خيرية قاسمية .
- (١٢) المصدر السابق .
- (١٣) الارقام التي وردت في الشرح مصدرها النشرات الصادرة عن وزارة الاقتصاد الوطني وعن غرفتي تجارة دمشق وحلب اضافة الى المجموعات الاحصائية الصادرة عن المكتب المركزي للاحصاء بدمشق .
- (١٤) المقاطعة الاقتصادية للصهيونية ولإسرائيل . الدكتور خيرية قاسمية ١٩٩٢ .
- (١٥) كانت مصفاة حمص ، قبل ان تتحول الى التزود بالبترول السوري ، تعتمد على البترول العراقي المار عبر الأراضي السورية بواسطة خط انابيب شركة البترول العراقية . كجزء من رسوم المرور . ثم أصبحت الرسوم كلها نقدية .



- (١٦) المجموعة الاحصائية السنوية الصادرة عن مكتب الاحصاء المركزي بدمشق .
- (١٧) حققت أرقام الجدول بالاعتماد على النشرات الرسمية لوزارة الاقتصاد الوطني ، ولغرفتي تجارة دمشق وحلب . وعلى تجارة سورية ولبنان الخارجية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٥٠ للاستاذ محمود خليل اغا .
- (١٨) اضافة لكل ذلك ، كانت المملكة العربية السعودية على الدوام في مقدمة البلدان التي تستورد جزءا كبيرا من وارداتها عن طريق سورية . ففي عام ١٩٨١ كانت ثاني عميل ترانزيت لسورية بعد العراق حيث بلغت قيمة ما استوردته عن طريق سورية أكثر من ٢٩ مليار ليرة سورية .
- (١٩) استخلصت الأرقام من جداول المجموعة الاحصائية السنوية الصادرة عن مكتب الاحصاء المركزي بدمشق .
- (٢٠) يرد القطن هنا بين واردات سورية من مصر بالنسبة للفترة التي سبقت بدء زراعة القطن في سورية .
- (٢١) كانت المفوضية العليا الفرنسية ببيروت تتصرف باقتصاد سورية ولبنان حسب مشيئتها ، ولصالح فرنسا غالبا . وعندما انتقلت بعض الصلاحيات في عام ١٩٤٣ الى الحكومتين الوطنيتين في البلدين . لجأت السلطات الاستعمارية الى اتباع سياسة الدس بين البلدين مصورة لكل منهما انه المفسون في حق من دخل المصالح المشتركة .
- (٢٢) بلغت قيمة الصادرات لهذه السنة ٣٦٩ مليون ليرة سورية ، بينما كانت قيمة الواردات ٣٠٧ ملايين ليرة سورية فقط . تجارة سورية ولبنان ، محمود خليل اغا .
- (٢٣) بلغت قيمة الصادرات لهذا العام ٢٢٧٤٠ مليون ليرة سورية . بينما كانت قيمة الواردات ٢٣٥٤٤ مليون ليرة سورية فقط .
- (٢٤) عدا عن اتفاقية التعاون مع الاتحاد السوفيتي التي سيرد تفصيلها مع صورة العلاقات مع هذا البلد . فقد تم عقد اتفاق تعاون مع كل من الصين لانشاء معمل الفزل الرفيع في حماه ، ثم مع بولندا لانشاء معمل القضبان الحديدية في حماه ايضا ، ومصنع الفوسفات ، ومصنع الزجاج واللمبات الكهربائية ، ومصنع غسل الصوف ، ثم مع ألمانيا الديمقراطية لبناء مصانع اسمنت ، ومعمل الجرارات في حلب ، ومعمل الكابلات في حماه ، وعدد من المطاحن . على ان يتم تسديد ثمن ما ستقدمه هذه البلدان من الات وتجهيزات بمنتجات سورية خام أو مصنعة أو نصف مصنعة من قطن وأسمدة وبترول مع مشتقاته وجلود وتبغ وخيوط ومنسوجات وغيرها من المصنوعات السورية . المصدر . الكتاب السنوي ( سورية في ارقام وصور ) الصادر عن وزارة الاعلام .
- (٢٥) كذلك عقدت اتفاقيات تعاون اقتصادي وتجاري مثيلة لما عقد مع الاتحاد السوفيتي . وذلك مع كل من بولندا وألمانيا الديمقراطية ورومانيا والصين . حيث تقوم هذه البلدان



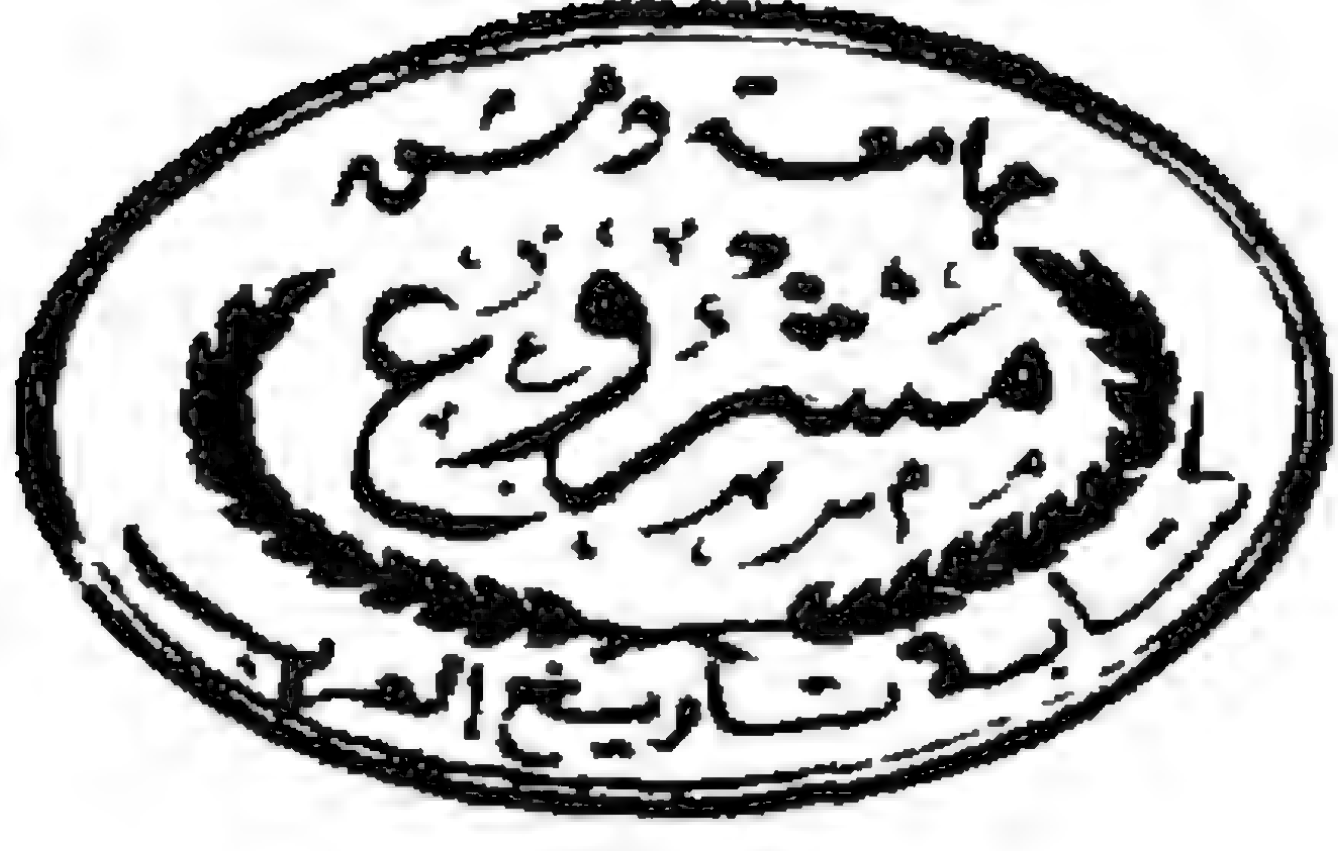
- بتقديم قروض طويلة الامد لسورية لتستورد  
الات ومعدات بناء معامل أو استثمار معدني  
أو كهربائي أو زراعي . على أن يتم تسديد  
هذه القروض بمنتجات سورية معدة للتصدير .
- (٢٧) حققت ارقام الجدول بالاعتماد على النشرات  
الرسمية لوزارة الاقتصاد الوطني وعلى  
المجموعة الاحصائية السنوية للمكتب المركزي  
للاحصاء بدمشق .
- كتاب الثورة - عامها التاسع . اصدار  
وزارة التخطيط بدمشق .
- (٢٨) محمود خليل افا ، تجارة سورية ولبنان  
الخارجية بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٥٠ جامعة  
دمشق ١٩٥٢ . مصدر سبق ذكره .











# دراسات تاريخية

## مجلة علمية فصلية محكمة

(( تعنى بتاريخ العرب ))

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق

السنة السادسة عشرة ، العددان ٥١ و ٥٢ كانون الثاني - نيسان ١٩٩٥

للطلاب	للمؤسسات	للأفراد	الاشتراكات
(١٠٠) ل.س	(٤٠٠) ل.س	( ٢٠٠ ) ل.س .	في القطر العربي السوري
	( ٤٠ ) دولار امريكي	( ٢٠ ) دولار امريكي	في الاقطار العربية
	( ٦٠ ) دولار امريكي	( ٣٠ ) دولار امريكي	في البلاد الاجنبية

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام ، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب ، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٢٣ .

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق  
المكاتب : جامعة دمشق ، هاتف / ٢٢٢٢٤٦١ /



تصدرها وتشرف على تحريرها  
لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول	أ. د. عبد الفني ماء البارد رئيس جامعة دمشق
رئيس التحرير	أ. محمد محفل
مدير التحرير	أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والإشراف :

د. عبد الفني ماء البارد	د. سلطان محيسن
د. عادل العوا	أ. محمد محفل
د. نور الدين حاطوم	د. سهيل زكار
د. شاكر الفحام	د. مفيد العابد
د. محمد خير فارس	د. فيصل عبد الله
د. حامد خليل	د. علي أحمد
د. خيرية قاسمية	أ. عبد الكريم علي
د. طيب تيزيني	



## شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب ، خطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي ، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص ، وايضاح ما لفته الفموض ، وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على ان يراعى فيها ما يلي :

أ - ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب - ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج - ان يكون مطبوعا على الآلة الكتابة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د - تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف او الاختزال ، بما يتوافق مع اغراض الصياغة .

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :



## أ - في ذكر المصادر والمراجع ( للمرة الاولى ) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كان متوفى ، اسم المصدر او المرجع وتحت خط ، عدد المجلدات او الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

## ب - في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين « » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر او المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

## ج - في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملا وتحت خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

## د - في المخطوطات ( للمرة الاولى ) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به ، تاريخ النسخة وعدد اوراقها ، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (أ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة \* . وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .

يمنع الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادرة خلال ذلك العام ، مع عشرين ( مستلة ) من البحث .



## رحيل زميل عزيز

بمناسبة صدور العدد الجديد لمجلتنا (( دراسات تاريخية )) ،  
تعتذر الإدارة الجديدة من القراء الكرام لانقطاع المجلة عن الصدور ، بعض  
الوقت ، ولأسباب قاهرة ، ألا وهي غياب زميلنا رئيس التحرير  
السابق ، الأستاذ ناظم كلاس ، الذي انتقل الى رحمة تعالى ،  
في أوائل تشرين الاول ١٩٩٤ .

إننا إذ ننعيه لزملائنا وقرائنا الكرام ، في سورية ومختلف  
أصقاع الوطن العربي ، نسأل المولى (( عز وجل )) أن يتغمده برحمته  
الواسعة .

إن إدارتنا الجديدة لا تنسى فضل زميلنا الراحل ، على نشوء  
وتطور فازدهار مجلتنا . وكل من عرفه وشاركه العمل يدرك مفرى  
كلامنا . لقد عمل طوال حياته بداب وصمت وتواضع ، ولم يسع قط  
الى الظهور في المقام الأول . لقد أدى واجبه بكل أمانة ... لقد كان  
معلماً في كل ذلك ، ولن نتردد في القول بأننا قد أثقلناه أحياناً بعبء  
العمل ، فلم يتنمر ، وإن فعل فبنكته المعهودة رحمه الله .

أصبحت مجلتنا ذات اعتبار ونالت الاعتراف كمجلة علمية محكمة ،  
إن كان في قطرنا أو في وطننا العربي ، وكذلك لدى المراكز والمؤسسات  
العالمية التي تهتم بقضايا تاريخنا . وكان لفقيدنا الراحل دور في  
هذا كله .

لقد رعى زميلنا الراحل مجلتنا ، فشبت بعنايته وعظم شأنها  
وارتفع اسمها .. ونحن لا ننكر فضله ، وعسى أن نقوم بمهمتنا على  
الوجه الأكمل .

في رحاب الله أيها الزميل ، وآخر التعازي لعائلته وعشيرته ،  
ولجميع أصدقائه وزملائه .

هيئة التحرير



## محتويات العدد

- من تاريخ اللغة العربية  
اللغة العربية وظهور الاسلام  
د. مسعود بوبو  
٩
- اخناتون وبلاد الشام  
السلطة والمعارضة  
د. محمود عبد الحميد أحمد  
٢٧
- حول زيارة أمين الريحاني لليمن وهل كان متذكرا؟  
د. محمد ثنيان الثنيان  
٥١
- تاريخ غور الاردن الشمالي من خلال المسوحات  
والحفريات الاثرية الاخيرة  
د. جمعة محمود كريم  
٨٥



● العناصر المعمارية لمساكن العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب)

في جنوب الاردن ( دراسة تحليلية )

١٦١

د. خالد محمود أبو غنيمة

● معطيات جديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر

( وقفية أحمد باشا )

١٩٣

د. محمد م. الارناؤوط

تنويه :

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

دراسات تاريخية ٥١ - ٥٢  
٢ - ١ / ١٩٩٥



2.



## من تاريخ اللغة العربية (\*)

### الفصل الثاني العربية وظهور الاسلام

د. مسعود بوبو

#### أولا : الكتابة والتدوين :

يمثل ظهور الاسلام انعطافا تاريخيا كبيرا في حياة العرب والبشرية ، وانتقالا حضاريا واجتماعيا له اثار خالدة في التاريخ تتجلى في نهجه الاصيل الرامي الى تنظيم حياة الانسان وتحقيق الامن والمساواة والعدل في المجتمع البشري ، ومؤالفة القلوب حول عقيدة التوحيد التي ترسم للحياة منهجا جديدا مفايرا لما عرفه العرب من قبل ، منهجا يحتاج الى لغة جديدة تستوعب هذا الدين السماوي ، وتعبر عن قيمه وتصوغ فكره ، وتفي بحاجات تعاليمه وتشريعاته .. فكيف طور الاسلام هذه اللغة وارتقى بها منذ بزوغ فجره : في الكتابة والتدوين وتصنيف الكتب واشاعة المكتبات ، وفي المصطلح والتعريب والترجمة ؟ وكيف أفاد من غناها وقدراتها في الاشتقاق والتوليد والمجاز والوضع والنقل والارتجال والابداع .. وما الى ذلك من مظاهر الثروة اللفظية والتنمية اللغوية .. ثم وظفها لصالح العقيدة والفكر والعلوم النقلية والعقلية؟.

لكي نتبع هذه الخطوط العريضة بالتدرج ، قد يكون من الموافق والمنطقي أن نبدأ بالكتابة والتدوين .

ومن المعروف ان الكتابة - بمعنى اثبات اللغة برموز من الحروف يتفق عليها - كانت ظاهرة معروفة في تاريخ اللغة العربية قبل الاسلام ، واستمرارها بعدان امتدادا متناميا في هذا السبيل ، على نحو يصعب معه الفصل بين صورة هذه العملية في العصر الجاهلي ، وصورتها في الاسلام ، على غرار تقسيم عصور الادب مثلا . ولذا سنحاول أن نقف على نشأة الكتابة ملتمسين الادلة على وجودها في جانبين أساسيين هما :

أ - النقوش المتأخرة التي عثر عليها في مناطق بلاد الشام ، كما في أم الجمل ،

\* نشرت الطبعة الاولى من هذه الدراسات في العدد ٢٤/٢٣ ( ١٩٨٩ ) ، والثانية في العدد ٢٨/٢٧ ( ١٩٩٠ ) ، والثالثة في العدد ٤٨/٤٧ ( ١٩٩٢ ) ، والرابعة في العدد ٥٠/٤٩ ( ١٩٩٤ ) .

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني - نيسان ١٩٩٥



وخربة زبد ، وحران ، والنمارة . . وما ذكر عن نقوش كنائس الحيرة وبيعها . تلك التي كانت معروفة في عهد المناذرة وفيها أخبار العرب (ونسابهم (١) ، وما يشبه ذلك مما ذكر سابقا .

ب - الأخبار الكثيرة التي تناقلتها كتب اللغة والتاريخ عن معرفة العرب بالكتابة منذ العصر الجاهلي ، ولا سيما في حواضرهم آنذاك ، كمكة والمدينة ، وفي الشمال الشرقي والغربي من جزيرتهم ، وفي جنوبها باليمن .

أما النقوش فقد أثبتت الأبحاث المبينة عليها والمستخلصة منها أن الكتابة عند العرب قد عرفت ومورست في شمال الجزيرة العربية متطورة من الخط النبطي ، وذلك منذ بداية القرن الرابع الميلادي . وبلغت درجة مقبولة من الكمال والوضوح في القرن السادس للميلاد كما ترجح المصادر الكثيرة المعنية بهذا الموضوع .

وأما فيما يتعلق بالأخبار المتواترة فيمكن القول أن كثرتها تجمع على فكرة معرفة العرب الكتابة منذ الجاهلية . من ذلك ما ذكر عن صحيفة المتلمس من عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، إلى أمير البحرين ، أو عامله هناك (٢) ، وربط مقتل طرفة بن العبد ( ابن أخت المتلمس ) بتلك الصحيفة التي حمل كل منهما ما يمكن أن يسمى نسخة أو صورة عنها ، في خبر معروف تناقله كتب التراث وما ذكر عن معرفة أكثم بن صيفي - حكيم قبيلة تميم في الجاهلية - بفن الكتابة . وما ذكر من أن لقيط بن يعمر الإيادي كان كاتباً في ديوان كسرى ، يكتب بالعربية والفارسية ، وأرسل إلى قومه يحذرهم من كسرى فقال :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم      لمن رأى رايه منكم ومن سمع (٣)

وقال لهم أيضاً :

سلام في الصحيفة من لقيط      إلى من بالجزيرة من إياد

فان الليث كسرى قد أتاكم      فلا يشغلكم سوق النقاد (٣)

وذكر أن النابغة الذبياني كتب قصائد اعتذار بعث بها إلى الملك النعمان بن المنذر ، وأنه كان في الجاهلية معلمون يكتبون ، مثل عمرو بن زرارة ، وغيلان بن سلمة بن معتب الذي جاء بعده في الطائف يوسف بن الحكم الثقفي . ومن ذلك ما ذكر عن معرفة بعض الشعراء الجاهليين بهذا الفن ، كالمرقس الأكبر ، وسلامة بن جندل ، وعدي بن



زيد العبادي(٤) . . فضلا عن كتابة العهود والمواثيق والاحلاف وكتب الخلع والرقيق والديون وتخليد ذكر وفاة أو انتصار .

ولعل مما يعزز صدق هذه الاخبار ويرجع صحتها ما ورد ذكره من الفاظ تتصل بالكتابة وأدواتها في أشعار الشعراء الجاهليين ، كقول الحارث بن حلزة :

واذكروا حلف ذي المجاز وما      قدم فيه العهود والكفلاء  
حذر الجور والتعدي وهل      ينقص ما في المهارق الاهواء (٤)

قال ذلك لما اختلف بنو بكر وبنو تغلب ، ثم اصطلحا عند عمرو بن هند وكتبوا بينهم عهدا . والمهارق ( في البيت ) : جمع « مهرق » وهو نسيج حريري كان يصقل ثم يستخدم في الكتابة ، والكلمة بالفارسية « من رد » أي الصقل ، ومنها جاء تعبير « مهره بتوقيعه » . ولعل مما يؤكد فارسية الكلمة قول ابن حلزة نفسه :

لمن الديار عفون بالحبس      آياتها كمهارق الفرس (٥)؟

وفي هذا اشارة صريحة الى أن العرب عرفوا « المهارق » من الفرس في وقت مبكر ، كما عرفوا أدوات الكتابة « القرطاس » ، ويبدو أنهم أخذوه عن الروم (٦) ، فقد نسبته طرفة بن العبد في شعره الى بلاد الشام حينما قال يصف ناقته :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفر      كسبت اليماني قده لم يجرد(٧)

والقرطاس : الصحيفة يكتب فيها ، والسبت : الجلد المدبوغ المعالج بالقرظ لاستخدامه في الكتابة (٨) ، والاحتذاء . والظاهر أن أهل اليمن كانوا مهرة في اعداد الأدم ، حاذقين في صناعة أدوات الكتابة الاخرى كالعسيب الذي ذكر في شعر امرئ القيس ، في قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني      كخط زبور في عسيب يمان(٩)

والعسيب : جريدة النخل المستقيمة يكشط خوصها بحيث تصبح صالحة للكتابة ، وقوله : كخط زبور : أي كخط الكتاب المزبور ، ومن ذلك أخذ معنى القلم عندهم حين سموه المزبر ( بالزاي وبالذال ) ، وكذا زبور داود عليه السلام ، أي صفه . وعليه قول عمرو بن أحمر :



أم لا تزال ترجي عيشة أنفأ لم ترج قبل ولم تكتب بها زبر (١٠)  
وعرف هذا أيضا في شعر أبي نؤيب الهذلي حيث قال :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري (١١)  
أي يكتبها ، والرقم هنا : الكتابة ، ومنه « المرقم » أي القلم .

وقال امرؤ القيس وذكر الزبور أيضا :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان  
أت حجع بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان (١٢)

وتجدر الإشارة هنا الى أنه ذكر المصاحف ، أي الكتب المجموعة في صحف .  
وذلك مما يتصل بالكتابة ويدل عليها .

وممن ذكروا الزبر والقلم من شعراء الجاهلية لبید بن ربیعة العامري ، قال :

درس المنا بمتالع فابان وتقامت بالحس فالسوبان  
فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان  
متعود فطن يعيد بكفه قلماً على عسب ذبلن وبان (١٣)

والمنا هنا : المنازل ، حذف منها مقطعا صوتيا ( زل ) ، ويسمى هذا الاختصار  
أو القطع : « القطعة » كما مر في اللهجات قبلا . والحس والسوبان ونعاف صارة  
والقنان : أماكن .

والزبر عنده : الكتب أو الصحف .

وقال لبید أيضا :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها (١٤)

أي كأن الأقلام الشبيهة بالسيول تجدد وجه الأرض . . ويروى : تخذ ، من  
الاخدود ، وهو الشق الطويل في الأرض .

وقال المرار بن منقذ من ذلك :

وترى منها رسوماً قد عفت مثل خط اللام في وحي الزبر (١٥)



والمقصود بالوحي هنا : نقش الكتاب ، والزبر : جمع زبور . ولا معدى هنا عن الوقوف عند كلمة « الزبر » وقفة قصيرة ، ولا سيما عند ذكر زبور داود ، ومصاحف الرهبان ، لنذكر بأن العرب اخذوا الكتابة او الخط – على ما يرى بعض المؤرخين – عن « النصارى واليهود » لانهم كانوا أصحاب كتب ، ولم يكن للعرب كتاب . .» ، وعليه قول أبي حية النميري :

كما خطَّ الكتاب بكف – يوماً – بهودي يقارب أو يزيل (١٦)

ونقرن هذا القول مع قول الشماخ بن ضرار :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيراً      بذروة أقوى بعد ليلي وأقفر  
كما اختط عبرانية يمينه      بتيماء حبر ثم عرض أسطراً (١٧)

واذا لم يكن للعرب كتاب – كما قيد البطليوسي – فانهم كانوا يعرفونه ، أو كان تسمية مألوفة عندهم ، والا لما ذكر في أشعارهم كما في قول بشر بن أبي خازم :

وجدنا في كتاب بني تميم      أحق الخيل بالركض المعار (١٨)

ويروى : قرأنا ، في مكان « وجدنا » ، والمعار : السمين أو المسمن .

وقد يكون الكتاب في تصورهم بمعنى الكتابة ، أو الكلام المكتوب ، كما في قول حاتم الطائي :

أتعرف اطلالاً وتؤياً مهدماً      كخطك في رق كتاباً منمنماً (١٩)

ويقوي هذا التصور وصفهم لآثار الديار والمنازل الخاويات تتعاورها الرياح راسمة عليها خطوطاً وتشكيلات على نحو ما تخلفه الكتابة المتأنية المتقنة ، من شواهد ذلك قول مالك بن جعفر بن كلاب :

فان لها منازل خاويات      على نملى وقفت بها الركاب  
من الأجزاء أسفل من نمل      كما رجعت بالقلم الكتاب  
كتاب محبر هاج بصير      ينمقه وحاذر أن يعاب (٢٠)

والترجيع هنا : التأني في الكتابة كفعل الواشمة أو المخضبة . والمحبر : المكتوب كتابة حسنة ، من التحبير الذي يعني التزيين ، لا من الحبر ، كما قد يتبادر الى الذهن . والهاجي : مفصل حروف الهجاء ، والهجاء هنا : تقطيع اللفظ بحروفه . وينمقه :



د. مسعود بوبو .  
يحسنه أيضا في الكتابة ، والظاهر أن الفعل « ينمقه » مشتق من لفظة فارسية الاصل هي « نامة » أي الكتاب .

ومن الفاظ الكتابة أو أدواتها التي تتردد في أشعار الجاهليين : المجلة ،  
والصحيفة ، والقلم ، فقد ذكر المجلة الشاعر النابغة الذبياني في قوله :

مجلتهم ذات الإله ودينهم      قويم به يرجون خير العواقب (٢١)

والمجلة : صحيفة كانوا يكتبون بها الحكمة . وذكرت الصحيفة مقرونة باسم  
الشاعر المتلمس الضبعي ، كما ذكرها ثعلبة بن عمرو السعدي في قوله :

لمن دمن كأنهن صحائف      قفار خلا منها الكتيب فواحف  
أكب عليها كاتب بدواته      يقيم يديه تارة ويخالف (٢٢)

أي يسوي سطوره مرة ويخالف أخرى ، بجيء بها على غير استواء . وأراد  
بالصحائف هنا ما فيها من النقش والكتابة ، وجاء في بعض الكتب والمعاجم أن  
الصحيفة : الكتاب ..

وممن ذكروا « القلم » الشاعر لبید في بيته السابق : « وجلا السيول .. البيت » .  
والمرقش الأكبر في قوله :

الدار قفر والرسوم كما      رقش في ظهر الأديم قلم (٢٣)

وأمية بن أبي الصلت في قوله :

قوم لهم ساحة العراق إذا      ساروا جميعاً والقلم (٢٤)

والقلم عند المحدثين معرب عن اليونانية ، عن لفظ Kalamous ، ويسمى  
بالعربية اليراع ، والاسمر (٢٥) .

ونضيف الى هذه الالفاظ والمسميات ما جاء من الفاظ تتصل بعملية الكتابة ،  
أو بفن الخط ، كقولهم : الكتاب المنم ، أو المرقش ( كما في بيت المرقش الأكبر أعلاه )  
وكقول طرفة بن العبد :

أشجاك الربيع أم قدمه      أم رماد دارس حممه  
كسطور الرق رقشه      بالضحي مرقش يشمه (٢٦)



والرق : الجلد الرقيق المستخدم في الكتابة . ويسمه : ينقسه ويزينه كالوشم في المعصم أو ينقطه . والمرقش من الرقش ، أي الاستعانة بالتزويق والزخرفة لتحسين في الخط وتقويمه ، أو للتسطير في الصحف . ومنه : ترقشت المرأة إذا تزينت .

وجمع الأخنس شهاب - ألى جانب الترقيش - ثلاثة ألفاظ تتصل بفن الكتابة حين قال :

لابنة حطان بن عوفٍ منازل      كما رقش العنوان في الرق كاتب (٢٧)

فذكر الرق ، والكاتب والعنوان . والرق مما سلفت الإشارة إليه في بيت طرفة بن العبد : « كسطور الرق رقته .. البيت » .

وفي اختصار وإجمال يمكن القول ان الترقيش ، والتنميق (٢٨) والتزيين والتجبير والتقطيع .. والزخرفة - فيما بعد - مظاهر تطور ومحاولات اتقان واجادة لفن الكتابة ..

والذي يعنينا هنا أن هذه المظاهر والمسميات لا بد أن تنهض أدلة كافية على معرفة العرب بالكتابة ، لأنها لم تأت من فراغ ، ولم تبد غريبة أو هجينة في العربية ، مع ما انطوت عليه من الفاظ دخلية من لغات مجاورة ، كالقرطاس والمهراق والقلم والتنميق .. أما السورق ، والصحيفة ، والمرقم ، والزبور ، والمجلة ، والسطر ، والكتاب ، والهجاء ، والوحي ، والخط ، والرق ، والقط ، والعسيب والدواة (٢٩) .. فألفاظ عربية أصيلة . وكان معظمها أدوات بدائية ومحلية للكتابة ، أضافوا إليها عند الحاجة الأدم ( الجلود المدبوغة ) والصفاح (٣٠) ، وعظام الاكتاف ، واللخاف (٣١) ، والاقتاب (٣٢) ، والاضلاع ، والخزف ، والقماش .. وأمثال ذلك من الادوات التي ظلوا يستخدمونها حتى القرن الاول الهجري . وفي هذا الصدد يقول الدكتور ناصر الدين الأسد :

« كان العرب .. يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذي عرفه بعد ذلك المسلمون ، وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة معرفة قديمة امرأ يقيناً يقرره البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس ، وكل حديث غير هذا لا يستند إلا الى الحدس والافتراض » (٣٣) .

تلك هي المرحلة الاولى من الكتابة والتقييد .

- اما التدوين فيعد استمرارا للكتابة وتنمية وتطويرا لها ، وبداية أو منطلقا لتسجيل نتاج العقل والوجدان .



ويرجع الفضل في التدوين الى الحافظ الديني الذي كان معتقد نشاط علماء الاسلام وواحدا من أعمالهم الجليلة لتثبيت لغة العقيدة ودراستها ، وتسجيل حقائق التاريخ وتأصيلها بنينا أساسيا لنهضة لغوية واسعة لم يكن من معدى عنها ، ولا سبيل الى بناء الحضارة الاسلامية الفكرية بغيرها .

والحقائق والأدلة المتصلة بالكتابة والتدوين في التراث والعصر الاسلاميين كثيرة وموثقة باسنادها الى كتاب الله العزيز ، أرفع المصادر وأعلاها حجة ومنزلة ، القرآن الكريم نزل منجما ، ودون في البداية مفرقا ، بأيدي كتاب الوحي ، وفي طليعتهم : زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وطلحة بن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وحذيفة بن اليمان ، وعثمان بن عفان ، وأبي بن كعب ، ومعاوية بن أبي سفيان ..

وعلى أيدي نفر من هؤلاء وغيرهم تمت عملية تدوين القرآن كاملة ، وهي أضخم عملية تدوين وأدقها في الصدر الاول للاسلام . والى جانب هذا يذكر أنه عند مجيء الاسلام كان في مكة سبعة عشر كاتباً ، وفي المدينة أحد عشر كاتباً ، وأنه لما حصر القرشيون المشركون محمداً رسول الله وآله في شعب أبي طالب ، بعد اسلام عمر بقليل كتبوا بينهم صحيفة وعلقوها في الكعبة ، وتقضي بمقاطعة بني هاشم .. ويذكر عن صحيفة سويد بن الصامت التي كان يحملها وفيها حكمة لقمان ، والتي يقال انه ذهب بها الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقرأها عليه فقال له الرسول : « ان هذا الكلام حسن ، والذي معي افضل منه : قرآن أنزله الله تعالى علي ، هو نور وهدى » (٢٤) .. ويذكر بعد عسكر معاوية بن أبي سفيان رفعوا في وقعة « صفين » من المصاحف ما يقرب من خمس مئة كما يروى .. الى جانب كل ذلك نذكر كتابة المعاهدات والرسائل ، كالمعاهدة التي أمر النبي (ص) بكتابتها إثر هجرته الى المدينة لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والانصار واليهود (٢٥) . وكالرسائل التي بعث بها الى القبائل في أمور العقيدة ، أو تقسيم الغنائم ، أو الأمان .. وكتب صلى الله عليه وسلم الى أهل اليمن : « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم ، له ذمة الله وذمة رسول الله (ص) ، ومن أبى فعليه الجزية » (٢٦) . كما كتب (ص) الى ذرعة بن ذي يزن (٢٧) ، وللوك حمير (٢٨) ، ولأكيدر صاحب دومة الجندل (٢٩) ، ولأهل هجر (٤٠) ، ووفد ثقيف (٤١) . ووجه العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي الى البحرين فصالحوه وكتب بينه وبينهم كتاباً (٤٢) .. فضلا عن رسائله الى ملوك الدول المجاورة للعرب ، كالمندر بن ساوى ، والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس عظيم مصر .

ونقرا - الى جانب هذه الأخبار - من أي الذكر الحكيم قوله تعالى : ( والطور ،



وكتاب مسطور ، في رق منشور (٤٢) و (نون والقلم وما يسطرون) (٤٤) و (اقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) (٤٥) ، كما نقرأ في سورة (القرآن) أنه لما سأل الجاهليون النبي عليه السلام معجزات خارقة نزل الوحي بالرد عليهم ، ومما جاء في ذلك قوله تعالى : ( ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ) (٤٦) . . بل ان القرآن الكريم حض الناس على ضرورة الاستعانة بالكتابة في بعض المعاملات كقوله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ، الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ) (٤٧) .

ولكن ، مع الاقرار بوجود هذه الادلة كلها على شيوع الكتابة في العصرين الجاهلي والاسلامي ، تبقى هناك قضية أساسية لا يمكن اغفالها ، وهي أن الكتابة كانت تقتصر في الغالب على مراكز التحضر والعمران ، وكانت محدودة ووفقاً على الشؤون الخاصة جداً في حياة العرب ، ولم تستثمر أو تسخر للتدوين بمعناه الواسع حتى القرن الاول الهجري ومن الشواهد على هذا الامر قوله تعالى : ( وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ) (٤٨) . فالكاتب لم يكن مهياً في كل حين ، ولم يجاف ابن سلام الحقيقة حين أشار الى أن الشعر – ديوان العرب – لم يكن مدوناً ، ومن هنا قال على العلماء : « فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » .

ولا ريب في أن أول ما اتجه العرب الى تدوينه القرآن الكريم ، وخاصة بعد أن استشهد باليمامة وحدها في حروب « الردة » نحو سبع مئة رجل من حفظته زمن الخليفة أبي بكر الصديق ، مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب الى مفاتحة أبي بكر بأمر تدوين القرآن بعد أن قد دَوّن مفرقاً ( كما سلف القول ) ، وما زال به حتى أقنعه بانجاز هذه المهمة التي أوكلت الى زيد بن ثابت وأحسن اتمامها على خير وجه بجمع القرآن في نسخة واحدة ظلت عند أبي بكر حتى وفاته ، ثم انتقلت الى عمر ، فالى ابنته حفصة حتى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي عهد الى زيد بن ثابت مرة أخرى ، ومعه عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام بنسخ الصحف التي كانت بحوزة حفصة . وهكذا تمت على أيدي هؤلاء عملية تدوين القرآن في صورة نهائية ، وفي ست نسخ موحدة .

وكانت الخطوة الثانية في طريق التدوين بعد القرآن تدوين الحديث بصفته المصدر الثاني للعقيدة ، ولأنه يمثل الجانب التطبيقي لها . وفي طبيعة من اشتغل بتدوين الحديث من الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص الذي قال عليه ابو هريرة : « ما أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني ، الا ما كان



من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا اكتب » (٤٩) . ويقول عبد الله بن عمرو نفسه في هذا الامر : « كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم اريد حفظه » (٥٠) . كما يروى عن ابن عباس انه كان أيضا يدون الاحاديث .

وثمة روايات اخرى كثيرة تدل على كتابة الصحابة للحديث وجمعه في صحف لحفظها ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابته خشية اختلاطه عند بعضهم بالقرآن ، وتكريما لمنزلة القرآن وحده . ولكن بعض الاحكام الشرعية لم تفصل في القرآن الكريم ، فوجد اهل الرأي الحنيف من الصحابة وجهة الاحتكام الى الحديث مخرجا ، وعونا على الوصول الى سلامة القضاء والحكم في الامور الشرعية والفقهية . وعلى يدي محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ( ت ١٢٤ هـ ) في كتابه « الموطأ » بالمدينة ، وسفيان الثوري ( ت ١٦١ هـ ) بالكوفة ، وحماد بن سلمة بن دينار ( ت ١٧٦ هـ ) في البصرة ، وعبد الرحمن الاوزاعي ( ت ١٨٣ هـ ) بالشام . ثم يلمع في القرن الثالث الامام أحمد بن حنبل ( ت ٢٤١ هـ ) في مسنده ، والبخاري ( ت ٢٥٦ هـ ) ، والنيسابوري ( ت ٢٠٤ هـ ) في كتابيهما « صحيح الحديث » ، ثم تظهر كتب السنن ، كسنن ابن ماجة ( ت ٢٧٣ هـ ) ، وسنن أبي داود السجستاني ( ت ٢٧٥ هـ ) ، وسنن أحمد بن علي النسائي ( ت ٣٠٣ هـ ) .

وبمرور الزمن راح التدوين ينمو ويتسع ويشمل أمورا أخرى غير القرآن والحديث ، مثل القصص والاعبار ومغازي الرسول ( ص ) ، وأخبار الفتوح ، وأنساب العرب . . . ولعل أكبر ما دون في هذا المجال يرجع الى عهد معاوية بن أبي سفيان الذي استحضر من اليمن عبيد الله بن شريح الجرهمي ، الى دمشق وسأله عن أخبار المتقدمين من ملوك العرب والعجم وغير ذلك مما عن له ، فكان عبيد الله يجيبه عن كل ما سأل عنه . فأمر معاوية أن تدون أخبار عبيد الله في كتاب (٥١) منسوبة الى راويها ، وهذا يعني أن التدوين في غير الاطار الديني الصرف يمكن أن يكون قد بدأ منذ منتصف القرن الاول الهجري (٥٢) .

ومنذ زمن ابن عباس ( ت ٦٨ هـ ) بدأ التدوين في التفسير يتسع ويحمل عنوانات على غرار ما صنعه ابن عباس في « غريب القرآن » (٥٣) ، من مثل : مجاز القرآن ، معاني القرآن ، إعراب القرآن ، لغات القرآن ، إعجاز القرآن . . . وكل ذلك يرمي الى هدف أساسي هو شرح ما غمض من القرآن الكريم ، وتوضيح أسباب النزول . الى غير ذلك مما يتصل بعلوم القرآن عامة .

ومن التابعين ممن دونوا وصنفوا في التفسير : عروة بن الزبير ، وسعد بن جبر ،



والحسن البصري ، وقتادة وغيرهم . وقد انتهى هذا التفسير المأثور كله عن الصحابة والتابعين الى تفسير « جامع البيان في تفسير القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ( ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ) ، وهو تفسير ضخم يقع في ثلاثين جزءا .

### ثانياً - المكتبات :

وكما هو منتظر فقد افضت حركة التدوين المتنامية الى اقتناء الكتب وانشاء الخزائن الخاصة والمكتبات لحفظها ، وكان ذلك منذ زمن الامويين ، فعلى ما تذكر كتب التاريخ - مثلاً - كانت خزائن كتب الوليد بن يزيد - الذي كان مولعاً بالشعر - تضم ما استنسخه من كتب حماد الرواية ، وجناد بن واصل - وكان أعلم الناس بالشعر - الى جانب مصنفات ابن شهاب الزهري على كثرتها (٥٤) ، وغيرها من الكتب حتى ان الوليد بن يزيد هذا حين قتل سنة ١٢٦ هـ حملت هذه الكتب من خزائنه على الدواب (٥٥) .

وكان بحوزة أبي عمرو بن العلاء كتب « ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم تنسك فأحرقها كلها ، فلما رجع عن تنسكه لم يكن عنده من العلوم الا ما وعاه في قلبه » (٥٦) .

وتذكر في جملة هذا النشاط مكتبة اسحاق بن سليمان العباسي التي كانت تمتلئ بالكتب والاسقاط والرقوق والقماطر والمساطر والمحابر ، على حد قول الجاحظ (٥٧) . ومثلها مكتبة يحيى بن خالد البرمكي ( كان عنده من كل كتاب ثلاث نسخ ) وربما فاقتها مكتبة الواقدي المؤرخ المشهور ( ت ٢٠٧ هـ ) التي كانت تشتمل على ست مئة صندوق مملوءة بالكتب (٥٨) .

ويذكر صاحب « الاغاني » ان هناك من أنشأ مكتبة تشبه النادي أو ما يسمى بالمركز الثقافي اليوم ، ولعلها الاولى من نوعها في المجتمع العربي الاسلامي ، وذلك في أوائل النصف الثاني من القرن الاول الهجري . يقول الاصفهاني : ان « عبد الحكيم ابن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقرات ودقائر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتادا ، فمن جاء زائراً أو قارئاً علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرد دفتره فقرأه ، أو نهض الى بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم » (٥٩) .

وانشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبيرة ملؤها بالكتب للمتاجرة والاكتراء للقراءه ، وثمة أخبار تتحدث عن مكتبة علي بن عيسى النجم . ومكتبة ابنه يحيى بن



علي . . فهذه الاخبار وامثالها تدل على أن عملية التدوين والتصنيف قد بدأت في حياة العرب منذ وقت مبكر ، وترجح أن هذا الوقت المبكر هو ما بعد منتصف القرن الأول الهجري كما سلف القول ، وأن هذه العملية « أخذت تنمو وتتطور حتى اكتمل تدوين المعارف العربية الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري » (٦٠) ، أو كاد .

وحركة التدوين المبكرة هذه كانت حافزا قويا على اتساع دائرة الحياة العلمية ورواج الكتب والمخطوطات ، كما كان من ثمارها تفتح القرائح والعقول على ألوان شتى من العلوم والثقافات مما شغل النابهين من أهل المعرفة بالقراءة والكتابة فأكبسوا على التحصيل والتأليف وافتوا أنظار الناس واهتمامهم فصاروا موضع اجلال ، ومقصد طلاب العلم ، ومحل اكبار عند ذوي الشأن والسلطان ، وقد قوي هذا التيار العلمي حتى استقل بجانب عظيم من مسؤوليات السلطة الحاكمة وجعل الدولة بمفهومها الديني والاداري تضع في حساباتها مهمة جديدة لم تكن محل التفات من قبل ، ألا وهي مهمة رعاية العلم والعلماء ، وهكذا كان الخلفاء والأمراء سباقين الى استقدام المؤدبين لتدريس أبنائهم ، وكانوا الساعين الى انشاء المكتبات الضخمة ورصد الاموال لها كجزء من انفاقات الدولة . من ذلك مكتبة « بيت الحكمة » التي أنشأها المأمون ، ومكتبة « البرامكة » التي أنشأها الفضل بن عيسى البرمكي . .

وهكذا تنامي الاهتمام بالكتب حتى أصبح اقتناؤها والاكثر منها رمزا ودليلا على الرفعة والمكانة المرموقة في المجتمع العربي الاسلامي . من ذلك على سبيل المثال ما يروى عن صاحب بن عباد من أنه كان اذا ترحل اصطحب معه أربعين بعيرا محملة كتباً ، على حين أن ما عنده من الكتب كان يحتاج الى أن يحمل على أربع مئة بعير أو أكثر (٦١) .

ولقد رقد هذا اللون من النشاط العلمي رافد مهم كان له طابعه الخارجي العام، وأسهمت في تعزيزه سلطة الدولة أيضا ، ونعني به « الترجمة » (٦٢) ، ورعاية المترجمين والباحثين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، والتفاضي عن تسرب ألوان من الثقافات المجاورة الى داخل حرم الثقافة العربية الإسلامية ، ان لم نقل اتاحة قدر مقبول من الحرية لها ؛ فكان ذلك كله من دواعي اختبار مقدرة العربية على الاستمرار واستيعاب المعطيات الحضارية المفغيرة لما عرفته من قبل ، كما كان برهانا على مرونتها وقابليتها لآخذ مكانها ودورها في الحضارة البشرية ، ودافعا لها على التجدد والنماء والاغتناء .

... وكانت العربية في كل خطوة في هذا المضمار تزداد مناعة ومنعة ، وتبدي



استعدادا واضحا لتقبل مظاهر التغير وهضمها والتعبير عنها في ميادين العلم والفن وسائر اشكال الحضرة والرقي العقلي ، من غير تعثر أو تلوؤ ، أو تخل عن الاصاله وعناصر الابداع .

استثناساً بهذه الصورة العامة نستطيع القول ان اللغة العربية أسهمت كالعامل الديني والسياسي ( الفتوحات بوجه خاص ) ، في صنع الحضارة الاسلامية اسهاماً عظيماً ، بل كانت الاداة الاساسية في انجاح ذلك .. ولكن ، ما الذي ساعد اللغة العربية على أن تنهض بمثل هذه المهمة الجسيمة ؟!

القضية من المنظور التاريخي متداخلة يظاهر بعضها بعضا ، فالحاجة أم الاختراع كما يقال ، ولقد كانت الحاجة تقتضي الاستعانة باللغة مشافهة وكتابة ونشر الدين الاسلامي ، ولتدوين هذا التراث الثمين ، وللتفاهم مع الاقوام الداخلين في الاسلام ، او في دائرة السلطة السياسية ، ولصياغة نظم الحياة الاجتماعية والادارية في المجتمع العربي والديار الاسلامية بمن فيها وما فيها ، كما أن اللغة نفسها - من هذا المنطلق - استدعت من واقع الحال أن تسعى الجهات المعنية الى توفير متطلبات الافادة منها ، أي فرضت على هذه المرحلة المبكرة مسؤولية تهيئة وسائل للتدوين والتنظيم والتعليم بما يماشى حركة التطور وسرعتها المتنامية ، ويمثل اعدادا لانجاز خطة عامة متكاملة في تلك المجالات .. ومن هنا نشأ التفكير بصناعة أدوات الكتابة والوراقة .





## الحواشي والإحالات :

- (١) تاريخ الطبري : ٣٧/٢ ( ط. مصر ) ، مصادر  
الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية للدكتور  
ناصر الدين الأسد ، ص ١٦٢ ( دار المعارف  
بمصر ) ١٩٦٥ .
- (٢) قال ابن السيد البطليوسي : « .. وأما  
أول من طبع الكتب فعمرو بن هند ، وكان  
سبب ذلك أنه كتب كتابا للمتلمس فدفعه  
الشاعر الى عامله بالبحرين يوهمه فيه  
بجائزة ، وأمره فيه بضرب عنقه فاستراب  
به المتلمس ، فدفعه الى من قرأه عليه ، فلما  
قرأ عليه رمى بالكتاب في النهر ، وفر » ،  
وفي ذلك يقول :
- والقيتها بالثني من جنب كافر  
كذلك أجزي كل قط مضلل  
رضيت لها بالماء لما رأيتها  
يجول بها التيار في كل محفل
- (٣) والقط هنا: الصك ، وجمعه قطاط وقطوط .  
وانظر : « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » :  
١٠٤ ( دار الجيل . بيروت ١٩٧٣ ) . وفي  
كتاب « الحل في شرح أبيات الجمل » لابن  
السيد البطليوسي نفسه ( ط. الدار  
المصرية للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة  
١٩٧٩ ) تحقيق د. مصطفى امام يرد الخبر  
ص ٩١ مع بعض اختلاف . وانظر أمالي  
المرتضى : ١٨٤/١ ، تحقيق : محمد أبو  
الفضل ابراهيم ، ( ط : الاولى ، القاهرة  
١٩٥٤ ) ، والخزانة للبغدادي ٤٤٦/١ ،  
والاغاني ١٢٥/٢ - ١٢٦ .
- (٤) مختارات ابن الشجري ، ج ١/١ . والنقاد:  
صفار الفهم .
- (٥) انظر : الاغاني ١٢/١٦ ( ط. دار الكتب ) و  
٢٤/٢٠ ( ط. الساسي ) ، الشعر والشعراء  
لابن قتيبة : ١٨٠/١ ( ط. دار المعارف ) ،  
شرح المعلقات السبع للزوزني : ٢٢٣ ( ط.  
دار القاموس الحديث - بيروت ) .
- (٦) المفضليات للمفضل الضبي : ١٢٢ تحقيق  
وشرح : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام  
محمد هارون ( ط. دار المعارف ) . وعن  
المهاريق انظر : الاقتضاب للبطليوسي : ٩٣ .
- (٧) هو باليونانية ( خارتس ) وتثنت قافه ،  
وانظر مثلا : المعجم الوسيط / قرطس .  
ديوان طرفة بن العبد : ٢٧ ( المؤسسة  
العربية للطباعة والنشر - بيروت ) ،  
ومختارات الشعر الجاهلي : ٣١٣/١ . شرح  
وتحقيق مصطفى السقا ( ط ٤ . البابي  
الحلي - القاهرة ) .
- (٨) انظر : المعجم الوسيط / قرطس ، والقرط :  
شجر عظام لها سوق ، من الفصيلة القرنية ،  
وهي نوع من السقط العربي يستخرج منه  
صمغ مشهور .
- (٩) ويروي البيت : ( ... كخط الزبور في  
العيسب اليماني ) وانظر الديوان : ٨٥ :  
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ( دار  
المعارف بمصر ١٩٥٨ ) ، وصنعة الاعلم  
الشتيمري ص : ٢٠١ بتصحيح الشيخ ابن  
أبي شنب ( ط . الجزائر ) .
- (١٠) جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرشي : ٨٤٣ ،  
تحقيق محمد علي البجاوي ( ط . القاهرة ) .
- (١١) ديوان الهذليين - القسم الاول : ٦٤  
( مصورة عن طبعة دار الكتب - القاهرة  
١٩٦٥ ) . وقال أبو ذؤيب نفسه وذكر الرقم :
- برقم ووشم كما نمنمت  
بميشمها المزهاة الهدى
- وانظر الاقتضاب لابن السيد البطليوسي :  
٩٤ ( مرجع سابق ) .
- (١٢) ديوانه : ٨٩ وما بعدها . والاقتضاب : ٩٢ ،  
والزبور هنا : الكاتب ( عن ابن قتيبة ) .  
شرح ديوان لبدي : ١٢٨ تحقيق د. احسان  
عباس ( الكويت ١٩٦٢ ) .



- (١٤) نفسه : ٢٩٩ . ومثله ذكر المرقش الأكبر القلم  
و ( الترقيش ) في قوله :
- الدار قعر والرسوم كما  
رقش في ظهر الاديم قلم
- ولعله بهذا سمي المرقش ، والاديم هنا :  
الجلد يكتب عليه . والقلم مرب .
- (١٥) الفضليات : ٨٩ .
- (١٦) الحل في شرح أبيات الجمل : ٣٤٩ ( م . س ) .
- (١٧) ديوانه : ١٢٩ حققه وقدم له صلاح الدين  
الهادي ( ط . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ) .
- (١٨) الشعر والشعراء : ١٨٠/١ ، والاغاني  
٢٤/٢٠ ( ط . الساسي ) ، والفضليات : ٢٤٤
- (١٩) ديوانه : ٧٩ ( دار صادر ) ، بيروت ١٩٦٣ .
- (٢٠) غلى : ماء قرب المدينة . والقصيدة في  
الفضليات : ٣٥٧ - ٣٥٨ .
- (٢١) ديوان النافذة ( ط . بيروت ١٩٦٠ ) والمجلة  
صحيفة كانوا يكتبون بها الحكمة . وانظر  
البيت في « مبادئ اللغة » للاسكافي : ٩٠  
( ط . القاهرة ١٣٢٥ هـ ) . وفي « الصاحبى  
في فقه اللغة » لابن فارس : ١٥٤ « غير  
العواقب » بدلا من : خير العواقب .
- (٢٢) الفضليات : ٢٨١ .
- (٢٣) الفضليات : ٢٣٧ .
- (٢٤) ديوانه : ٦٠ ( ط . بيروت ١٩٢٤ ) المكتبة  
الاهلية . ويقول شتيم بن خويلد الفزاري :  
تسمع أصوات كدري الفراه به  
مثل الاعاجم تفشى المهرق القلما  
وانظر « مصادر الشعر الجاهلي » : ٥١  
( ط ٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ) .
- (٢٥) وفيه يقول الشاعر :
- وبيت على ظهر المطي بنيته  
بأسمر مشقوق الخياشم يعرف
- وانظر : الاغاني ٢٧/٦ ، وانظر ١٣٠/١٦ حول  
ما كتبه المرقش الأكبر على رحله .
- (٢٦) ديوانه : ٦٨ وما بعدها ( ط . دار صادر -  
بيروت ) . وانظر : الاقتضاب لابن السيد  
البطلوسي : ٩٣ .
- (٢٧) الفضليات : ٢٠٤ .
- (٢٨) وذكر التميمي في شعر سلامة بن جندل حيث  
قال :
- لم تطل مثل الكتاب المنق  
خلا عهده بين الصليب فمطرق
- وانظر الاصمعيات : ١٣٢ للاصمعي ، بتحقيق  
أحمد محمد شاکر ، و عبد السلام هارون  
( ط ٣ ، دار المعارف بمصر ) ، والاصمعيات :  
٢١٣ .
- (٢٩) ومن ذكر « الدواة » عبد الله بن منة  
الضبي حيث قال :
- فلما رأيت الدار قفرا سألتها  
ففي علينا نؤيها ورمادها
- فلم يبق الا دمنة ومنازل  
كما رد في خط الدواة مدادها
- وانظر : الفضليات : ٣٧٩ ، والاصمعيات  
٢٢٦ .
- (٣٠) الصفاح : حجارة رقيقة عريضة .
- (٣١) اللخاف : حجارة عريضة بيضاء .
- (٣٢) الاقتاب : مفردا قتب ، وهو الاكاف الصغير  
على قدر سنام البعير .
- (٣٣) مصادر الشعر الجاهلي : ٣٣
- (٣٤) السيرة النبوية ٦٨/٢ .



وسطور الكتابة ثلاث مرات ، والكتاب ٢٦١ مرة ، والكتاب مرتين ، والقلم ثلاث مرات ، والصحف ثمانين مرات : والرق الذي يكتب عليه مرة واحدة ، والالواح أربع مرات . وانظر الايات والسور : الفرقان : ٥ ، النور : ٣٣ ، البقرة : ٢٨١ - ٢٨٣ ، القلم : ١ ، العلق : ٤ ، الطور : ٣ ، النجم : ٣٦ ، عبس : ١٣ ، التكويد : ١٠ ، الاعلى : ١٨ - ١٩ ، المذثر : ٥٢ ، البينة : ٢ ، الاعراف : ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، البروج : ٢٢ .

(٤٩) فتح الباري : ١٨٤/١ - ١٨٥ ، وسنن الدارمي : ١٢٥/١ .

(٥٠) الوضع السابق : ١٨٥/١ ، ١٢٥/١ ، ومسند أحمد بن حنبل ٢١/١٠ .

(٥١) الفهرست لابن النديم : ١٢٨ ، ومسروح الذهب للمسعودي : ٢٢٢/٣ ( ط. بيروت )

(٥٢) ينظر الفهرست : ٦٦-٦٧ ، ونشر هنا الى ان بعض الروايات تقول ان كتب الاحبار ( ت ٣٤ هـ ) ترك كتابا في تاريخ الاسكندر ، وعروة بن الزبير ( ٢٢-٩٣ هـ ) كان له فضل عناية بالتاريخ ولعله اول من صنف المغازي وأحرق يوم الحرة سنة ٦٣ هـ كتب فقهه كان ألفها ثم حزن عليها اشد الحزن ، وان وهب بن منبه قد صنف كتابا في تاريخ المتوجين من ملوك حمير ، وان خالد بن يزيد بن معاوية كتب أكثر من كتاب في الكيمياء والعلوم .

(٥٣) ويقول محمد ابو الفضل ابراهيم في مقدمة كتاب « الغربيين » ص ٥ انه أورد قدرا كبيرا منه ، وفي « المعجم العربي » : ٢٩/١ يسميها د. حسين نصار « مقتبسات » نقلها السيوطي في الاتقان .. وكتب في هذا الموضوع « غريب القرآن » جملة من اقدماء منها : ابو سعيد ابان بن تطلب البكري ( ت ١٤١ هـ ) ، محمد بن السائب الكلبي ( ت ١٤٦ هـ ) ، أبو فيد المؤرج السدوسي ( ت ١٧٤ ) ، علي

(٣٥) انظر : نهاية الارب للنويري ٣٤٨/١٦ . ويذكر من ذلك أنه لما جاء عمر بن الخطاب ليطش بأخته فاطمة وبزوجهما لانهما كانا أسلما وجد عندهما خباب بن الارت يقرئهما القرآن الكريم في صحيفة مكتوبة ، وذلك قبل الهجرة بنحو سبع سنوات . وانظر : تاريخ ابن الاثير ٣٤/٢ . وقد ذكر المسعودي في « النبيه والاشراف » أن زيد بن ثابت كان يكتب الى الملوك ، ويجب بحضرة النبي (ص) ، وكان يترجم له بالفارسية والرومية والقبطية والحشية ، وكان تعلم ذلك بالمدينة من أهل اللسن . ولا تفوتنا الاشارة الى أسرى معركة « بدر » الذين كان فداء كل واحد منهم تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة . ولا صلح « الحديبية » المكتوب .. وانظر : « طبقات ابن سعد ١/٢ : ١٤ » .

(٣٦) فتوح البلدان للبلاذري : ٨٠ عني بمراجعته والتعليق عليه : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣ .

(٣٧) فتوح البلدان : ٨١ .

(٣٨) نفسه ٨٢ .

(٣٩) نفسه ٧٢ .

(٤٠) نفسه ٩٠ .

(٤١) نفسه ٦٧ .

(٤٢) فتوح البلدان : ٨٩ .

(٤٣) سورة الطور : ٣/٥١ .

(٤٤) سورة القلم : ١/٦٨ .

(٤٥) سورة العلق : ٥٤، ٣/٩٦ .

(٤٦) سورة الاسراء : ٩٣/١٧ .

(٤٧) سورة البقرة : ٢٨٢/٢ .

(٤٨) سورة البقرة : ٢٨٢/٢ - ٢٨٣ . ويرد ذكر الكتابة في القرآن الكريم : ٥١ مرة ،



(٦٠) انظر « المصادر الادبية واللغوية » للدكتور عز الدين اسماعيل : ٢١ ، والفهرست : ٦٦ - ٦٧ ، حيث يرسم ابن التديم صورة تفصيلية لما آل اليه امر المكتبات بعد هذا فيقول على مكتبة صاحب له هو محمد بن الحسين ( زمن بني حمدان ) : « أخرج لي قمطرا كبيرا فيه نحو ثلاثمئة رطل من جلود وصكاك وقراطيس وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم فيها تعليقات عن العرب وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو وال اخبار والحكايات والاسماء والانساب ، ولكنها كانت خلقة .. وكان على كل ورقة مدرج توقيع بخطوط العلماء واحدا اثر واحد ثم يقول : ورأيت في جملتها مصحفا بخط خالد بن ابي الهياج وصاحب علي ، ورأيت فيها بخط الامامين الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات وعهودا بخط أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ، وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط علماء النحو واللفة أمثال أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عمرو الشيباني » .

(٦١) معجم الادباء : ٢٥٩/٦ .

(٦٢) سيجيء الحديث عن الترجمة بشيء من التفصيل .

بن حمزة الكسائي ( ت ١٨٢ هـ ) ، محمد بن المبارك اليزيدي ( ت ٢٠٢ هـ ) النضر بن شميل ( ت ٢٠٣ هـ ) ، قطرب - محمد بن المستنير ( ت ٢٠٦ هـ ) . الخ .

(٥٤) يقال ان ابن شهاب الزهري كان يجلس في بيته ويحيط نفسه بالكتب يضمها حوله ، وكان يطوف في البلدان ومعه ألواح وصحف يكتب عليها كل ما يسمع ، وكان حجة في السنة والحديث حتى ان عمر بن عبد العزيز قال في شأنه : عليكم بابن شهاب فانكم لا تجدون احدا أعلم بالسنة الماضية منه . ولقد شغل الزهري بكتبه عما سواها ، حتى عن اهل بيته ، ولهذا قالت له امراته ذات يوم : والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر . « الفهرست : ١٣٤ ، والبيان والتبيين : ٢/٢٩٠ » .

(٥٥) الطبقات الكبرى ١٣٦/٢ .

(٥٦) الاغانى ٥٢/٤ ، وفيات الاعيان ١٧٧/٤ - ١٧٨ ، البيان والتبيين ٣٢١/١ .

(٥٧) الحيوان : ٦١/١ .

(٥٨) معجم الادباء : ٢٨١/١٨ .

(٥٩) وفيات الاعيان : ٤٦٦/٣ .









## أخناتون وبلاد الشام السلطة والمعارضة

محمود عبد الحميد أحمد

بعد أخناتون شخصية فريدة في تاريخ البشرية . فانك ما أن تسمع اسم أخناتون الا ويتبادر الى ذهنك ذكرى فيلسوف عظيم كان له السبق بالدعوة الى الوحدةانية في عصور موغلة في القدم . وأنت لتعجب حقاً لهذه الدعوة المبكرة ، وتكون بين مصدق ومعجب بهذه الشخصية الفذة . ولم يفف أخناتون عند الدعوة الى وحدانية ربه ، بل أسبغ عليه من الصفات ما يجعلنا ندهش لهذا الابداع في صفات اله كلها رحمة ومحبة وخير للبشر عامة ، في وقت كانت رحمة اله قوم أو منطقة لا تنزل الا عليهم ، وكان أي اله يسوق الآخرين أسرى ويقتلهم وينكل بهم أمام من يعبدونه .

ان شخصية أخناتون - كما سنرى - متعددة الجوانب ، فهو أول من حاول أن يجدد في عالم الدين والفكر والفن والعلاقات بين الشعوب . وقد كان أخناتون مخلصاً لمبادئه ، صادقاً في كل ما دعى اليه، على الرغم من قوة التقاليد وجبروتها، واستخدامها من قبل أعدائه ( كهنة آمون ) سلاحاً ضده . وهكذا فاني أستطيع القول بناء على كل ما جاء به أخناتون ، ان هذا المفكر العبقرى أول ثائر عالمي . لم ترهبه قوة الكهنة الاقتصادية ، ولا تغفل نفوذهم الديني والثقافي في نفوس المصريين . ولا قوة التقاليد التي كانت راسخة رسوخ الجبال في أذهان المصريين القدماء . بل مضى في طريق دعوته غير هيب ، وسان حاله يقول : لن أترك هذا الدين . وفي السطور التالية سوف أحاول كتابة قصة أخناتون من أولها الى آخرها .

### مصر قبل أخناتون :

نتج عن تحرر مصر من حكم الهكسوس في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد ( ١٥٧٥ ق.م ) نتائج عظيمة . من أهم هذه النتائج ، تحقيق الوحدة المصرية للمرة الثالثة . بعد أن كان حكام الاقاليم يحكمون اقاليمهم شبه مستقلين عن سلطة

---

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني - نيسان ١٩٩٥



الهكسوس ، حيث قبل الهكسوس بهذا الوضع ، طالما كان حاكم الاقليم يعترف بسيادتهم ويدفع لهم الجزية . وعليّ أن اشير هنا الى قانون عام في تاريخ الشعوب ، يتلخص في أنه ما من شعب حقق وحدته الا وامتلك قوة كبيرة - بالقياس لماضيه القريب - تجعله يبحث عن مكان له تحت الشمس ، وهذا ما حصل للشعب المصري بعد تخلصه من حكم الهكسوس كما سنرى . والنتيجة الثانية هي تكوين الجيش المصري فقد كان الجيش المصري قبل الان يجمع من الاقاليم ، حين تقتضي الاحوال ، كما فعل الملك بيبي الاول في الدولة القديمة . ولكننا الان ، نرى الوضع قد تغير كثيرا بعد حرب الهكسوس . فالاسطول الحربي المصري أصبح مؤسسة قائمة بذاتها ، يأتى أفرادها بأمر الفرعون . وقد بدأ هذا واضحا خلال حرب الهكسوس (١) . وأصبح الجيش البري تحت امرة الفرعون والضباط . والمرء يلمس هذا واضحا كل الوضوح في حروب ملوك الاسرة الثامنة عشر (٧) . اما النتيجة الثالثة ، فهي وجود ادارة مركزية منظمة ، ذات خبرة عظيمة ، استطاعت هذه الادارة ، أن ترسل الجيوش المصرية الى الفرات في أقصى الشمال ، والى قلب افريقية . كما استطاعت هذه الادارة ، أن تشرف على شؤون البلاد الدينية والادارية والاقتصادية والاجتماعية . فأرسلت البعثات التعدينية والتجارية الى بلاد البونت والى سيناء ، والى بلاد الشام . كما نظمت الزراعة وأشرفت عليها .

سعت الامة المصرية وقد تحررت من الهكسوس ، ورتبت البيت المصري من الداخل الى ايجاد استراتيجية تستطيع من خلالها التعامل مع شعوب المنطقة في مستقبل الايام . وبرز هنا رأيان ، وكل من الرأيين يرى أن على مصر أن تغير من استراتيجيتها السابقة تجاه الشعوب المحيطة بها . فالمناعة الالهية الطبيعية ، حيث لا تسبغ الالهة حمايتها الا على مصر ، قد فشلت بعد غزو الهكسوس . وقال أصحاب الرأي الاول والاقدم - الملكة حتشبوت وأنصارها - أن عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال التفوق الثقافي والاقتصادي على شعوب المنطقة . وقال أصحاب الرأي الثاني - الملك تحوتمس الثالث وأنصاره - أن عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال قيادة الجيوش العظيمة المدربة ، والانتصار في المعارك الحربية . وبعد صراع قصير بين المبدئين ، نجح أصحاب الرأي الثاني ، واستطاع تحوتمس وأنصاره تكوين امبراطورية تمتد من الفرات وجمال طوروس في سورية الى حدود السودان . وحمل الفراعنة الى مصر الكثير من الاسلاب والفنائم خلال حروبهم في بلاد الشام أو النوبة . كما حملت الشعوب التي أصبحت تحت السيطرة المصرية جزاها السنوية الى قصر الفرعون . ومن المؤكد أن عظمة مصر في هذا المجال وصلت الذروة في عهد الملك امنحوتب الثالث حوالي ١٤٠٥ ق.م . فالامبراطوريات الكبيرة في منطقة الشرق القديم من حثية وميتانية وكاشية وآشورية ، آمنت بأن مصر قوة كبيرة لا يمكن قهرها ، تمتلك جيشا عظيما ،



وتسيطر على بلاد الشام التي تعد من أعظم المناطق ، بسبب مرور الطرق التجارية العالمية خلالها عصرئذ . ولذلك سعت اليها تحمل الهدايا لتكسب صداقتها . وهنا التفت أمنحوتب الثالث الى متع الدنيا ، من شراب ، وبناء ، وصيد ، ونساء . وقد نتج عن وجود ملك غير محارب على رأس السلطة المصرية ، غير هيباب بأحوال امبراطوريته ، ان تحركت الاطماع للقضاء على الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . وكان من أشد الممالك عداوة لمصر ، مملكة خيتا في آسيا الصغرى ، حيث صارت تفر على الامارات السورية الواحدة تلو الاخرى وتنال منها ، والمملكة العمورية التي قامت في وسط سورية بزعامة عبدي عشرتا وابنه عزيزو ، واخذت تتوسع على حساب الممالك السورية الموالية لمصر ، الى أن وصلت الساحل السوري على البحر الابيض المتوسط . وقد كتب أمراء الامارات السورية الموالية لمصر الى الفرعون أمنحوتب (٣) أمثال جبيل ، وقطنا وغيرهما عن الفارات التي قام بها الحثيون ، وعن توسع المملكة العمورية الحليف غير المعلن مع خيتا . ولكن أمنحوتب الثالث لم يقم بأي عمل حاسم ، يضع النقاط على الحروف (٤) .

توفي أمنحوتب الثالث حوالي ١٣٦٧ ق.م ، وخلف ابنه أمنحوتب الرابع على عرش المملكة المصرية القديمة . وفي هذا الوقت ، كان وجود الامبراطورية في بلاد الشام ، يتعرض لرياح حثية قوية ، تريد أن تجتثه من جذوره وكانت أحوال مصر وامبراطوريته في بلاد الشام ، تتطلب قائدا محاربا مثل تحوتمس الثالث (٥) . ولكن الواقع جاء مخالفا تماما . فالحاكم الجديد فيلسوف ، خيالي ، حالم ، لم يعط جل اهتمامه لمجد مصر في بلاد الشام والشرق القديم . بل نراه يولي اهتمامه فكرا خلاقا ، لا عهد لمصر والشرق القديم به .

استمر أمنحوتب الرابع خلال الاربع سنوات الاولى من حكمه في تقديس كل الالهة المصرية ، وتقديم العبادات والقرايين لها . ولم يلحظ الباحثون أي تغير في أمور الدين بخاصة . ولكن يبدو أن النار كانت تحت الرماد - كما سيتبين لنا فيما بعد - اذ أن صراعا مستترا كان يدور بين فراعنة مصر وكهنة الاله آمون - أكبر آلهة مصر وقتئذ - منذ عهد جده الفرعون تحوتمس الرابع ( جد أمنحوتب الرابع ) ، وكان محور هذا الصراع السلطة في مصر القديمة . وقد تفجر هذا الصراع في السنة الرابعة من حكم أمنحوتب الرابع . ويستطيع الباحث أن يتلمس مظاهره الدينية ، والادارية ، والاقتصادية ، والفكرية بشكل واضح وجلي (٦) .



## المظاهر الدينية :

قام أمنحوتب الرابع بعدة اجراءات دينية ، الهدف الاساسي منها القضاء على ديانة آمون ونفوذ كهنة آمون . وفيما يلي يعرض الباحث لهذه الاجراءات :

**اولا - تغيير اسمه :** غير أمنحوتب اسمه الذي يعني آمون راض أو آمون في سلام الى اخناتون بمعنى المفيد لآتون - اسم الهه الجديد - أو « آتون راض » (٧) ولهذا التغيير أهمية كبيرة ، تكمن هذه الأهمية في أن الملك تخلى عن ارتباط اسمه باسم الاله المبجل في كل مصر القديمة ، والذي ساعد الفراعنة على بناء الامبراطورية المصرية في الشام والنوبة . بل وأكثر من ذلك ، فقد كانت ديانة آمون هي الديانة الرسمية للدولة في عصر الاسرة الثامنة عشرة ، لان اسم هذا الاله ارتبط بأسماء معظم ملوك هذه الاسرة ، ولانه كان اله طيبة العاصمة الامبراطورية . وهكذا فان التخلي عن اسم آمون ، يعني التخلي عن عبادة هذا الاله ، وعن معابده ، وطقوسه ، وكهنوته ، وامتيازاته . وبالمقابل فان ارتباط اسم الفرعون باسم اله جديد ، يعني الاعلان عن دين الفرعون الرسمي . ويعني الاعلان عن الاله الرسمي للدولة ويعني أن الطقوس سوف توجه اليه وان المعابد سوف تقام له .

**ثانيا : شنّ اخناتون حملة شعواء على اسم آمون .** قامر ان يمحي هذا الاسم أينما وجد ، فمحاه من اسمه ، ومحاه من اسم ابيه أمنحوتب الثالث . كما محاه من كل آثار الامبراطورية التي وجدت في طيبة . ومن المؤكد ان اخناتون بمحوه هذا ، أراد ان يمحو ديانة آمون من الوجود ومن اذهان الشعب المصري . فمحو الاسم في مفهوم الشرق القديم بشكل عام، يعني حرمان صاحبه من السعادة والخلود ، ويعني القضاء على قوته وتأثيره (٨) .

**ثالثا : أمر اخناتون ألا يشار الى الالهة بصيغة الجمع ،** فكانت تمحي الكلمة التي تشير الى الالهة بهذه الصيغة .

**رابعا : اتخذ الملك اخناتون لنفسه لقب الكاهن الاعظم لآتون ،** حيث سمي نفسه « الناظر الاعظم » M 33 WT . والناظر الاعظم هو لقب الكاهن الاعظم في مذهب هيلوبولس ( عين شمس ) الشمس . ويعني الكاهن العظيم الذي يراقب الاجرام السماوية ، لتقام الطقوس طبقا لحركاتها .

**خامسا : لقد بلغ اخناتون ذروة الاجراءات الدينية عندما نادى بعبادة اله واحد،** هو الاله آتون . وقد وصفته نصوص العمارنة ، بأنه « الاله الاوحد ، الذي لا مثيل



له « (٩) . وهو مصدر الحياة في هذا الوجود سواء للانسان أم للحيوان والنبات ، فأشعته التي رسمت على شكل أيدي منبعثة من قرص الشمس ، هي التي تمنح الحياة والخير والبركة للوجود ، حيث نرى هذه الاشعة في بعض الرسوم وهي تقدم علامة الحياة عنخ fcnh (٨٠) .

كان آتون قرص الشمس المستدير ، وهو اله قديم معروف لدى المصريين منذ أيام الدولة المصرية القديمة ، حيث ورد اسمه في نصوص الاهرام . كما عثر بالقرب من تمثال « ابو الهول » بالجيزة على لوحة من عهد الملك تحوتمس الرابع ( جد اخناتون ) ، مرسوم عليها قرص الشمس ، وهو يعطي الحياة . كما أصبح عليه الامر في أيام اخناتون (١١) .

### المظاهر الادارية :

كانت طائفة الكهنة في مصر القديمة تتمتع بميزات ادارية خاصة ، جعلت منها طبقة في المجتمع لا تدانيها طبقة . من هذه الميزات ، الثقافة العالية ، اذ كانت مهنة الكتابة سائدة بينهم ، ويكفي ان نذكر ان خطا رئيسا في الكتابة المصرية سمي باسمهم « الخط الهيراطيقي - الخط الكهنوتي » ، لندرك كم كان حظهم من الكتابة بخاصة ومن الثقافة بعامة عظيما . وتمتعت طبقة الكهنة بميزة التنظيم ، حيث كانت للكهنة مراتب أعلاها الكاهن الاكبر في معبد الاله الذي يعبد (١٢) . وكذلك تمتعت طبقة الكهنة بميزة الادارة ، وقد اكتسب الكهنة خبرتهم الادارية من واقعهم ، حيث امتلك المعبد آلاف العبيد وقطعان الماشية ، والحقول ، والذهب وغير ذلك . ولا بد أن مصروفات عديدة ، كانت تلقى على عاتق المعبد . ولهذا برع الكهنة في حساب الصادر وانوارده ، والحفظ (١٣) . وعندما قام اخناتون بالدعوة الى عبادة الاله اتن ، تبعه دون شك بعض رجال البلاط . وبعض عامة الناس . أما كهنة آمون ، فقد أخذوا يحقدون على اخناتون ودينه . ويخلقون المصاعب لادارته . بسبب الاذى الذي أصاب مصالحهم . فكان على الملك والحالة هذه ، ان يحدث تنجييرا في ادارة الدولة . فأبعد عن الادارة انصار كهنة الاله آمون ، وجعل بطانته من الذين نصره وأيدوه وامنوا بدينه الجديد . ولا يشك أي باحث ان هذا الامر قد أربك الادارة المصرية الاخناتونية ، التي أصبحت تديرها فئة من الناس حديثة العهد بفن الحكم والاضطلاع بالمسؤوليات واتخاذ القرارات ، وقد عمق هذا الاجراء الملكي الهوة بين السلطة التي رأسها اخناتون . وبين المعارضة التي كان على رأسها كهنة آمون .



## نقل العاصمة :

ومن الاجراءات الادارية التي قام بها اخناتون للحد من سلطة الكهنة ، نقل العاصمة من طيبة الى موقع العمارنة الحالي ، في مصر الوسطى بالقرب من اسيوط الحالية ، وقد اطلق على عاصمته الجديدة « آخت اتن » ، أي أفق اتن . وذلك ليصرف أنظار المصريين عن آمون وكهنته ، وليوجهها الى الهه اتون والى فكره وعاصمته (١٤) .

## المظاهر الاقتصادية :

يستطيع الباحث من خلال دراسة المصالح الاقتصادية لطرفي الصراع ( الملك اخناتون - السلطة وكهنة آمون - المعارضة - ) ، تلمس أهم أسباب الصراع الذي ساد كل عهد اخناتون ( ١٣٦٧ - ١٣٤٧ ق.م ) .

منذ مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد خاضت مصر حروبا عديدة في الداخل والخارج . ففي الداخل حارب المصريون الهكسوس . وغنموا منهم الكثير (١٥) . وفي خارج مصر ، قام ملوك مصر من بداية حكم الاسرة الثامنة عشرة - أي بعد طرد الهكسوس - بالحرب في بلاد الشام والنوبة . ومن خلال الآثار والنصوص المصرية نستنتج ، أن المصريين انتصروا في كل حروبهم ، وحصلوا على مكاسب مادية كبيرة ، حيث الغنائم والاسلاب وجزى الشعوب التي حملتها ( وهي صاغرة ) الى مصر ، نذكر من هذه الحروب على سبيل المثال ، حروب احمس الاول ( ١٥٧٥ - ١٥٢٥ ق.م ) مؤسس الاسرة الثامنة عشرة في فلسطين ، وحروب تحوتمس الاول ( ١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م ) في سورية ، حيث وصل الى نهر الفرات (١٦) ، أما تحوتمس الثالث ( ١٤٦٨ - ١٤٤٧ ق.م ) فقد قضى عمره يحارب في بلاد الشام ، اذ شن سبع عشرة حملة عسكرية عليها ، وبذلك استطاع ان يكون امبراطورية تمتد من الفرات الى حدود السودان . كما حارب في بلاد الشام كل من امنحوتب الثاني بن تحوتمس الثالث ، وتحوتمس الرابع بن امنحوتب الثاني (١٧) .

نتج عن حروب المصريين الآتفة الذكر ثلاث نتائج هامة :

اولا : ارتفاع شأن الاله آمون : ارتفع شأن الاله آمون عند المصريين كثيرا ، وذلك لانه كان الاله العاصمة التي انطلقت منها الجيوش المصرية ، وحققت الانتصارات العظيمة ، ليس بسبب قوتها ، وحسن تنظيمها ، وتدريبها ، وامتلاكها لافضل أسلحة العصر ، بل لان آمون - حسب العقيدة المصرية الدينية - أراد ذلك .



## ثانياً غنى كهنة معبد الاله امون :

كان على الملك المصري - وقد نصره الاله امون حسب العقيدة المصرية القديمة- أن يقابل احسان الاله باحسان ، وذلك بأن يخصص جزءا من الفنائم والاسلاب والجزى وارباح الحملات التجارية والتعدينية الى معبد الاله امون ، يضاف الى هذا الانعامات الملكية والنذور وتقدمات عباد امون. ولذلك أصبح كهنة امون من أغنى الاغنياء في مصر.

## ثالثا تدخل الكهنة في شؤون الدولة السياسية :

غني عن القول ان القوة الاقتصادية والسياسية عنصران متلازمان في حياة البشر لا يفرق الواحد منهما عن الآخر ، بل يلزمه ويحميه ، وعندما يسقط احد العنصرين ، يتبعه الآخر حتما . وينطبق هذا القول على وضع كهنة امون ( المعارضة ) والملك اخناتون ( السلطة ) . فقد أراد كهنة امون ، وفد امتلكوا المقدرة الاقتصادية ، ان يحموا مصالحهم الاقتصادية هذه عن طريق الهيمنة السياسية . ومن المؤكد ان طائفة الكهنة حاولت التدخل في الشؤون السياسية منذ ايام الملك تحوتمس الرابع ( جد اخناتون ) ، ولذلك لاحظ الباحثون اتجاه هذا الملك نحو تقوية العبادة الشمسية العريقة في مصر ، والتي كان مركزها في مدينة « ايون » أو « أون » ( هليو بولس ) في شمال القاهرة الحالية ، وكذلك فعل ابنه الملك امنحوتب الثالث (١٨) .

لقد قامت حرب اقتصادية حقيقية بين الملك والمعارضة ، وقد استخدم الطرفان أشد اسلحتهما مضاءً . لاضعاف الخصم اقتصاديا ، ثم القضاء عليه . فقد أدرك اخناتون ان قوة الكهنة الحقيقية نابعة من قوتهم الاقتصادية . وان النجاح في الحرب يعني امتلاك الاقتصاد الاقوى بالدرجة الاولى . ولذلك حاول منذ بداية هذه الحرب، أن يحطمهم اقتصاديا ، ويقضي على الاسباب التي جعلت منهم قوة اقتصادية . وفيما يلي يلقي الباحث الاضواء على تلك المعارك الاقتصادية :

**اولا :** امر اخناتون بعبادة اله واحد هو الاله آتن ، وحرّم عبادة الاله امون ، ومحى اسمه أينما وجد ، ولو كان في اسم أبيه . فقد جاء في النشيد لآتن ما يلي :

ما أكثر تعدد أعمالك

انها على الناس خافية

يا ايها الاله الاحد



الذي لا يوجد بجانبه إله آخر  
لقد خلقت الارض حسب رغبتك  
وحينما كنت وحيدا ( لا شيء غيرك ) :  
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان (١٩) .

كما قام اخناتون بمصادرة أملاك معبد آمون ، وأمر باغلاق هذا المعبد . وغني  
عن القول ، ان اخناتون بعمله هذا ، قد أضعف الكهنة اقتصاديا ، حيث منع عنهم  
الموارد من النذور ، والقرايين ، وغلل الحقول ، و الماشية ومنتجاتها ، والعبيد ،  
والذهب .... الخ (٢٠) .

**ثانيا نقل العاصمة :** كانت طيبة عاصمة مصر الامبراطورية منذ أيام الدولة  
الوسطى ( ٢٠٥٠ ق.م ) . وقد بلغت هذه العاصمة الذروة أيام ملوك الاسرة الثامنة  
عشرة ، حيث كانت تقصدها الشعوب حاملة الجزية الى الفرعون ، وحيث استقطبت  
التجارة العالمية عصرئذ . وبسبب هذا الازدهار السياسي والاقتصادي ، علا شأن  
الهة آمون . لانه الاله الذي نصر الفرعون ، وهى الاسباب لنجاح الحملات  
التجارية والتعدينية . ومن أجل أن يبتعد اخناتون عن كهنة آمون ومكائدهم ، وليضع  
الهمم في الظل ، نقل العاصمة الى موقع العمارنة في مصر الوسطى . وقد اطلق على  
عاصمته الجديدة اسم « أخت أتن » أي أفق أتن . وقد يظن البعض ان نقل العاصمة  
اجراء ادراي فحسب ، ولكنني استطيع القول ، ان العاصمة كان حربا اقتصادية  
قام بها اخناتون لاضعاف كهنة آمون ( المعارضة ) اقتصاديا ، والقضاء عليهم .  
ونتساءل كيف .. ؟

كان المصري القديم يعتقد ، ان الاله هو الذي ينصر الفرعون ، وان النصر  
لا يتحقق الا لان الاله راض عن الفرعون ، ولأنه منحه القوة ، وحقق له النصر على  
الاعداء . ولذلك على الفرعون الذي يعترف بفضل الاله ، ان يقابل الاحسان بالاحسان ،  
وذلك بأن يخصص جزءا من الفنائم والاسلاب لمعبده . وجزء من أرباح الحملات  
التجارية والحملات التعدينية (٢١) .

غني عن القول أن علينا أن نولي اهتمامنا في دراستنا هذه الى آمون وكهنته ،  
وتأثير نقل العاصمة الاقتصادي ، لقد بلغت مكانة آمون الذروة ، عندما استطاع ملوك  
الاسرة الثامنة عشرة وعلى رأسهم تحوتمس الثالث ، تكوين امبراطورية تمتد من الفرات  
الى حدود السودان ، ولذلك قصد ممثلو شعوب هذه الامبراطورية العاصمة طيبة ،



وهم يحملون جزاهم السنوية من ذهب ، وفضة ، وعبيد ، وتحف ، لتقديمها للفرعون . كما كانت وفود اندول الصديقة تقصد العاصمة المصرية تحمل الهدايا للفرعون ، عربون مودة وصداقة . وكانت نشوة التدين والاعتزاز ، ومحبة الاله الذي نصر الفرعون ، وجعل هذه الشعوب تأتي طائفة صاغرة الى مصر ، تجعل الفرعون يهب جزءا من هذه الجزى الى معبد كهنة الاله مون في العاصمة طيبة . وكذلك يفعل الفرعون عندما يوفق في حملاته التعدينية أو التجارية (٢٢) .

اما الان وقد تقل اخناتون العاصمة الى « آخت أتن » ، فقد صارت وفود الشعوب الخاضعة لمصر ، تذهب الى العاصمة الجديدة . وبذلك أصبحت التبرعات الملكية من الجزى ، والغنائم ، والارباح التجارية والتعدينية تجد طريقها الى معبد إله أخناتون ( الاله أتن ) . ومما زاد في خسارة كهنة امون الاقتصادية ، أن قادة الجيش ، وكبار الضباط ، وكبار الموظفين ، والتجار قد التحقوا بالعاصمة الجديدة الى جانب الفرعون ، وهكذا فان نذورهم ، وتبرعاتهم نتيجة لنجاح يصيبونه ، أصبحت تذهب الى معبد أتن . يضاف الى ما سبق الانعامات الملكية سواء من الملك أم من افراد أسرته . وهكذا استطاع أخناتون بهذا العمل البارع تغيير العاصمة ) ، ان يحرم المعارضة من اكبر مورد اقتصادي ، تسبب أصلا في نشوء قوتهم .

### المظهر الاجتماعي :

لا شك في أن اخناتون كان جبارا ، حين وقف بوجه طائفة الكهنة المنظمة القوية الغنية ، لتكون له الكلمة الاوى في سياسة الدولة اداخلية والخارجية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف قام اخناتون بحربه الدينية والادارية والاقتصادية ضد الكهنة . ولكن لئن حملت خطواته تلك أسباب اسحاق ، لكنها حملت في ثناياها أسباب الفشل . وفيما يلي يقدم الباحث دراسة عن انعكاس خطوات اخناتون الجريئة على فئات الشعب المصري من كهنة وعمال وجنود وصناع ومفكرين وغيرهم . والتي كانت سلبية في نتائجها . وقد استغلت المعارضة هذه السلبيات بشكل جيد ، واستخدمتها سلاحا بيدها ، أدى الى سقوط اخناتون .

**١ - الوجدانية واغلاق المعابد والبطالة :** دعا اخناتون الى عبادة اله واحد ( الاله أتن ) ، ولذلك أمر باغلاق معابد الاله امون - العدو الرئيسي - ومعابد الالهة الاخرى وكان على رأسهم الاله أوزير (٢٣) . وقد أشار الى هذا الاجراء خليفته الملك « توت عنخ أمون » حيث جاء في نصوصه : « وأغلقت معابد الالهة من الفنتين - عند الشلال الاول - الى مستنقعات الدلتا » (٢٤) وقد نتج عن هذا تسريح الكهنة والموظفين



وكثير من العمال والفنانين الذين كانوا في ادارة وخدمة المعابد ، وبذلك أصبحوا جزءا أساسيا في حزب المعارضة ، خلقوا الكثير من المشاكل للسلطة التي يمثلها الملك اخناتون (٢٥) .

**٢ - استراتيجية اخناتون السلمية :** حارب الجنود المصريون منذ مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد في مصر حيث طردوا الهكسوس ، وفي فلسطين وسورية وبلاد النوبة ، وقد حققوا نجاحا عظيما في حروبهم هذه ، اذ أصبحت مصر تسيطر على امبراطورية تمتد من الفرات شمالا الى حدود السودان جنوبا . وقد افاد الجند من هذه الحروب . حيث الاسلاب والفنائم ، وهبات القادة والملوك تقديرا لشجاعتهم ، أي أن الحرب كانت تعود عليهم بالفوائد المادية والمعنوية ، وكل تفسير يطرأ على استراتيجية مصر القائمة على التفوق العسكري على شعوب المنطقة ، سوف يفضب الجند ويضر بمصالحهم . وقد حدث هذا التغير فعلا في عهد الملك اخناتون ، الذي أخذ بسياسة مبنية على التسامح والسلام مع شعوب الامبراطورية المصرية (٢٦) وقد نتج عن سياسة اخناتون هذه نتجتان رئيستان ، الاولى سخط الجنود المصريين الذين اضرىوا بسبب انتهاج اخناتون للسياسة السلمية ، حيث حرّموا من ترقيات الملوك والقادة لهم ، كما حرّموا من مورد رزق كبير ، بالإضافة انهم حرّموا أيضا من تحقيق أمجاد شخصية ، نتيجة لبطولاتهم في ساح المعارك . والنتيجة الثانية ، ضياع الامبراطورية ، اذا كانت المملكة الحثية في آسيا الصغرى ، تتطلع دوما بجشع كبير الى احتلال بلاد الشام ، للسيطرة على أهم الطرق التجارية العالمية (٢٧) . ولم يحل دون تحقيق هدفها إلاّ المملكة الحورية - الميتانية التي كانت تقوم في الجزيرة السورية الحالية ، وتتخذ من واششوكاني ( تل الفخيرية بالقرب من رأس العين الحالية ) عاصمة لها ، وتهيمن على شمال سورية حتى المتوسط (٢٨) . وأضيف الى المملكة الحورية - الميتانية الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . ولكن باعتلاء اخناتون عرش مصر وقيامه باصلاحه الديني وما نجم عنه من نتائج ذكرناها آنفا ، حانت الفرص لشوبيلوليوما (٢٩) كي يحقق حلم الحثيين . فبدأ بالمملكة الحورية الميتانية حليفة مصر من أيام الملك تحوتمس الرابع ، حيث شن عليها هجوما كبيرا أيام الملك امنحوتب الثالث ، لكنه لم يفلح في هذا الهجوم الذي شنه من جهة الغرب حيث الدفاعات العظيمة لمملكة ميتاني وقد استفاد الملك الحثي من هجومه الاول ، فشن هجومه الثاني في عهد الملك اخناتون - من جهة الشرق ، ونجح في هزيمة الميتانيين ، وقضى على دولتهم ، هذه الدولة التي كانت تجبره دوماً على البقاء خلف جبال طوروس (٣٠) . ولم يقف شوبيلوليوما عند هذا الحد ، بل قام بالفارة على الممالك السورية الحليفة لمصر . وكتبت هذه الممالك الى اخناتون تصف له شراسة الفارات الحثية ، وتطلب المساعدة والنصرة . لكن ما من مجيب . واستمر الحثيون لذلك في توسعهم ، لدرجة ان



النصوص الحثية، تدعي ان نفوذ الحثيين امتد الى جبال لبنان (٢١). ولم تكن الدولة الحثية الطامعة الوحيدة بالامبراطورية المصرية في بلاد الشام . بل وجدت مملكة اخرى في وسط سورية ، هذه المملكة هي المملكة العمورية بزعامة عبيد عشترا وابنه عزيزو . وبسبب ظروف مصر الداخلية ، استطاعت هذه المملكة ان تسيطر على وسط سورية وتمد نفوذها الى الساحل السوري ، حيث سيطرت على منطقة تمتد من سميرا جنوب طرطوس ( ميناء تحوتمس الثالث المفضل ) الى مدينة جبيل ، التي كان ملكها رب عدي مخلصا لمصر حتى الموت (٢٢) . وكتب رب عدي وحكام الممالك السورية التي تضررت من الاحتلال العموري الى اخناتون ، حيث أرسلوا عشرات الرسائل يستنصرونه ، ولكن اخناتون لا مريم ما لم يجبههم الى مطالبهم (٢٣) .

وهكذا نستنتج من دراستنا السابقة ، ان الملك اخناتون اهمل ادارة الامبراطورية المصرية في آسيا ، وانه لم يستخدم الجيش في الحفاظ على هذه الامبراطورية ، على الرغم من استغاثات الحكام السوريين ، مما جعل الجيش ينحاز الى صف المعارضة ، فقائده حورم حب ( قائد الجيش في عهد اخناتون ) ، كان من أشد المتحمسين للقضاء على ثورة العمارة وما خلفته من اثار ، بعد وفاة اخناتون .

### تعاليم الاتونية واثرها على الصناعات والفنانين :

أصاب الكساد كثيرا من المهن التي كانت مرتبطة بديانة آمون بخاصة والديانات المصرية بعامة ، وذلك بسبب تعارض التعاليم الاتونية مع غيرها من الديانات المصرية القديمة ، وفيما يلي يعرض الباحث لاهم المهن والطقوس المصرية التي ابطلت وأصاب أصحابها العوز ، وبذلك ازداد عدد المعارضين لديانة اخناتون :

١ - النذور : كانت الطقوس الدينية المصرية تقضي وضع نذور من فطائر خاصة خلال أيام الاعياد ، لكن هذه النذور توقفت بحلول ديانة أتون . وبذلك لم يعد الخبازون يصنعون تلك الفطائر ، وحرموا الارباح التي كانوا يجنونها ، وأصابتهم لعنة البطالة (٢٤) .

٢ - التماثيم : لم يعد بمقدور صناعات التماثيم بيع تعاويذهم الالهية القديمة عند ابواب المعابد . أصاب هذا الكساد صناعات الجعارين والتماثيل الصغيرة « أوشابتي » ، فقد كان الكهنة يوصون للناس ، أنه عن طريق تعاويذ هذه الجعارين والاشابتي يمكن ضمان براءة المتوفى . وبحلول الاتونية اقصيت هذه التعاليم ، وصار الصناعات لا ينقشون فوق الجعارين التعاويذ السحرية لآخمداد وحي « الضمير » عند المتهم ،



بل صاروا ينقشون فوقها ادعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا للحياة المديدة وللعطف والطعام . وفي هذا الصدد ، علينا ان نذكر صانعي شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المستوحاة من كتاب الموتى ، فقد استبعدت شواهدهم لأنها أخذت من تراث الديانة المصرية غير الاتونية (٢٥) .

٣ - لفائف البردي المكتوبة : والكتاب أيضا صابتهم لعنة البطالة ، فقد كان هؤلاء يكتبون على لفائف من البردي النصوص الدينية الطويلة المنقولة من كتاب الموتى ، يصبون اللعنة من خلال كتاباتهم على كل من يسيء الى قبر المتوفى ومحتوياته . وقد ابطلت الان هذه الكتابات ، لأنها ضمت اسماء الالهة المصريين القدامى ، أو أنها كانت تضم كلمة الالهة بصيغة الجمع (٢٦) .

٤ - التمثيليات الدينية : كان كهنة مصر يمثلون أحداثا خاصة بالالهة قبل حلول عهد اخناتون . أما في عهد اخناتون فقد صاروا يطردون من الاماكن المقدسة في مواسم التمثيليات ، نذكر من هذه التمثيليات على سبيل المثال « تمثيلية مأساة أوزير » ، وتمثيلية انتقال الاله امون من معبد الكرنك الى زوجته الالهة « موت » في معبد الاقصر (٢٧) . ونضيف الى ما سبق طوائف الحجاج الذين كانوا يحجون الى أبيدوس - حيث الاعتقاد بوجود قبر أوزير - ويمثلون هنا « حياة أوزير وموته وبعثه بعد الموت » (٢٨) .

٥ - نحت التماثيل : حرّم اخناتون تجسيد الاله أتون بشكل انساني أو حيواني ، كما حرم عبادة الاله اوزير والالهة المصرية . لذلك أصيب نحاتو تماثيل الالهة بضربة موجعة ، وتكدست تماثيلهم في معاملهم دون ان يشتريها احد (٢٩) .

### المظاهر الفكرية :

تتجلى الحرب الفكرية بين اخناتون والمعارضه في تعاليم دينه ، فالدراس لهذه التعاليم ، يستنتج ، أنها كانت تهدف الى تنزيه الدين الجديد عن كل تقيضه ، والسمو به ليكون رحمة لكل البشر ، والابتعاد عن السحر والشعوذة والدجل ، وبهذا كانت تعاليم الدين الجديد ، تسمو على ما كان قائماً ، وتنزهه عن كل كذب وسحر وشعوذة يمارسها كهنة أمون . وفي كل هذا حرب لا هوادة فيها على ديانة أمون ، وكسب مؤيديه جدد في داخل وخارج مصر . وفيما يلي يورد الباحث مزيدا من مبادئ هذه الديانة ، التي قطعت الطريق على سحر وشعوذة ودجل الكهنة .

**أولا التوحيد ؛ سبق وأن قمنا ببحث هذا الموضوع مفصلا .**



**ثانيا الماعت (٤٠) ؛** مارس كهنة أمون كثيرا من السحر والشعوذة لضمان براءة المتوفى ، عن طريق وزن قلبه ، والاشابتي ، والتعاويد كما سعى الكهنة الى تجديد وتعميق الورع الديني عند الناس عن طريق تمثيل مأساة اوزير ، وانتقال الاله أمون الى معبد الاقصر ، وغير ذلك . كما كانت العقيدة الدينية المصرية تأمر المصريين ، بأن يكون تمثال الشخص خال من المرض والعيوب ، ويجسد صاحبه وهو في شرح الشباب ، لتستطيع الروح التعرف اليه والعودة . لكن تعاليم الديانة الجديدة نسخت كل ما تقدم وأبطلته كما رأينا في التمثيلات والسحر ، وأنكرته في النقش والنحت أيضا ، وقد كان اخناتون مخلصا لهذا المبدأ ، ولو كان الامر يتعلق بالفرعون نفسه ، حيث نرى الفرعون وقد رسم برأس غير متناسق ، ورقبة رفيعة ، وشفتين غليظتين ، وبطن متدل ، وأفخاذ كبيرة غير متناسقة ، وذراعين رفيفتين أيضا .

**ثالثا : الديانة العالمية :** ارتفع شأن الاله أمون ، منذ أيام الاسرة الثانية عشرة ، حيث ارتبط اسمه مع اسم مؤسس هذه الاسرة الملك أمنمحات الاول ( ١٩٩١ ق.م ) . وزادت قدسية الاله أمون ، عندما استطاعت طيبة أن تطرد الهكسوس وتكون امبراطورية مترامية الاطراف تمتد من الفرات الى حدود السودان الشمالية ، لأن أمون إله طيبة ، هو الذي حقق كل هذه الانتصارات والانجازات . وكما رأينا سابقا بقي أمون مقدسا الى أيام الملك أمنحوتب الرابع ( ١٣٦٧ ق.م ) . وبذلك يكون قد مر على عبادة أمون قرون طويلة ، تغيرت خلالها ظروف مصر كثيرا . فمنذ تكوين الامبراطورية المصرية ( ١٤٦٧ ق.م ) ، انفتحت مصر على بلاد الشام بخاصة وعلى البلاد المجاورة لها بعامة ، فأخذت من حضارات هذه البلاد وأعطت ، سواء في مجال اللغة أم الديانة أم التجارة أم الصناعة أم الفن . ووفدت الى مصر جماعات الاسرى بأعداد كبيرة جدا ، جعلت بعضهم يقول أن خلقة المصريين تحسنت نتيجة لذلك (٤١) .

وهكذا نستنتج مما سبق أن أجيالا نشأت في مصر ، قد اطلعت على ثقافات الامم الاخرى ، فأصبحت لها ثقافتها الخاصة ، وأصبحت لها نظريتها الخاصة في معالجة شؤون الحياة . وكان الى جانب هذه الطبقة المستنيرة ، الطبقات الشعبية وعامة الناس وكهنة أمون . هذه الطبقات المحافظة ، التي ترى دوما أن صلاح الامة وازدهارها يتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد القديمة ، والتمسك بحرفية تعاليم الديانات التي أوصلت مصر الى بناء امبراطورية عظيمة . وقد ساعد واقع مصر هذا الملك اخناتون ، الذي كان على رأس الفئة المستنيرة ، والتي كانت على درجة من الثقيف والتعليم (٤٢) ، على ابداع ديانة جديدة لا تسود مصر وحدها ، ولكن تسود كافة أرجاء الامبراطورية المصرية . وربما كان هدفه سياسيا ، وهو السيطرة على أرواح شعوب الامبراطورية ، وربطهم ثقافيا وروحيا بمصر ، وبذلك يسهل على مصر ادارة امبراطوريتها المرتبطة



روحيا بمصر ، وبمبدعها الروحي أخناتون(٤٣) . وشاهدنا فيما نقول أناشيد أخناتون التي تتضمن توجهها عالميا ، ما وجد في أي عصر من عصور تاريخ مصر .

« ان آتون » خلقهم ( لنفسه هو ) .

فجميع الاراضي واهل بحر ايجة يحملون  
ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم الى الذي  
أوجد حياتهم والذي بأشعته تحيا البشر  
وتستنشق الهواء(٤٤) .

استطيع ان اضيف الى ما سبق ، ان أناشيد اخناتون لربه يستطيع ان يتغنى بها السوري والنوبي . الخ . حيث ذكرت في هذه الاناشيد الشعوب التي كانت تحت السيطرة المصرية ، كما وان نظرة الكبرياء والتعالي ، التي كان ينظر بها المصريون نحو تلك الشعوب أصبحت كأنها لم تكن(٤٥) . فالناس كلهم أبناء الله ، هو الذي خلق الوانهم ولغاتهم ، ووضعهم في أقاليمهم المختلفة ، والله رحيم بهم جميعا يعطيهم حسب ظروفهم الاقليمية ، فهو يخلق لمصر نيلا في الارض ، ولكنه يخلق لاهل الشام نيلا في السماء :

ما أكثر تعدد أعمالك  
انها على الناس خافية  
يا أيها الاله الأحد  
الذي لا يوجد بجانبه اله آخر  
لقد خلقت الارض حسب رغبتك  
وحينما كنت وحيداً ( لا شيء غيرك )  
خلقت الناس وجميع الماشية والفلان  
وجميع ما على الارض  
مما يمشي على رجليه  
وما في عليين مما يطير بأجنحته  
وفي الاقطار العالمية سورية  
وكوش وارض مصر  
فانك تضع كل انسان في موضعه



وتمدهم بحاجاتهم  
وكل انسان لديه قوته  
وأيامه معدودات  
والألسنه في الكلام مختلفة  
وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم  
لأنك تخلق الاجانب مختلفين .  
انت تخلق النيل في العالم السفلي  
وانت تأتي به كما تشاء  
ليحفظ اهل مصر أحياء  
لأنك خلقتهم لنفسك  
وانت سيدهم جميعاً  
وانت الذي تنهك نفسك من أجلهم  
وانت رب كل قطر  
وانت الذي تشرق من أجلهم  
وانت شمس النهار عظيم الافتخار  
وجميع الاقطار العالمية القاصية  
انت تخلق حياتها ايضاً  
لقد وضعت نيلاً في السماء  
وحينما ينزل لهم يصنع أمواجاً فوق الجبال  
مثل ( أمواج ) البحر  
فيروي حقولهم في قراهم .  
ما أكرم مقاصدك يا رب الأبدية  
ويوجد نيل في السماء للاجانب  
ولأجل غزلان كل الهضاب التي تتجول على أقدامها  
أما النيل فإنه يأتي من العالم السفلي لمصر (٤٦) .



وهكذا كما رأينا ، فان حماية ورحمة ورعاية الاله المصري ، لم تعد مقتصرة على مصر فقط ، بل امتدت لتشمل سورية ومصر وكوش والنوبة والصحراء والعالم كله . ولم تعد مهمة الاله قهر الشعوب غير المصرية لصالح الفرعون المصري ، وربط تلك الشعوب الى مركبة الفرعون لتجرها ورائها بشكل مهين ، بل صار الاله ينزل لها نيلا من السماء ليروي حقولها في قراها ، ويجعلها تعيش في سعادة ورخاء . باختصار ان الاله أتون أصبح إلهاً للجميع لا يفضل شعبا على شعب . ولا يختار شعبا ويخصه برحمته ورضاه ، وفي هذا سبق حضاري وانساني يرجع الى حوالي ١٣٦٧ ق.م أي قبل حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة وواحد وستين عاما . وهنا يكمن سر عظمة أخناتون .

### موقف المعارضة من عالمية أخناتون :

من المؤكد أن المعارضة ، وقفت ضد هذا الاتجاه ( عالمية دين أخناتون ) . طالما أن التعاليم السامية لهذا الدين ، سوف تؤدي الى نجاحه وانتشاره في مصر وكافة أقطار الامبراطورية المصرية . وهذا يعني القضاء على ديانة أمون الى الابد .

### ايام أخناتون الاخيرة :

واجهت دعوة أخناتون صعوبات جمة في انتشارها ، حيث كان كهنة أمون ( المعارضة ) وراء هذه الصعوبات . وما أن وافت السنة الثانية عشرة من حكم أخناتون حتى ساءت أحوال مصر الداخلية والخارجية ، لارتباط الواحد منهما بالآخر ارتباطا وثيقا . ففي الداخل تفرقت الامة الى شيع وأحزاب متناحرة ، وقد كرس أخناتون كل اهتمامه لهذا الصراع ، ولم يول الامبراطورية في سورية أي اهتمام ، مما شجع الحثيين والعموريين على اقتسام النفوذ المصري في سورية ، حيث نتج عن هذا الاقتسام انقطاع جزى الممالك الشامية عن مصر ، وانقطاع تجارة مصر مع بلاد الشام ، وهكذا أصبحت مصر تعاني من الضعف السياسي والاقتصادي .

أحست الملكة « تي » أم أخناتون بوضع ابنها ووضع البلاد الذي لا يسر صديق ، وأدركت المصير السيئ الذي ينتظر ابنها والبلاد المصرية ، فزارته في عاصمته في عام حكمه الثاني عشر . وبسطت أمامه أمور البلاد الداخلية والخارجية ، وطلبت منه أن يهادن كهنة أمون .

فتحت هذه الزيارة عيني الملك على حقيقة حال البلاد المصرية والامبراطورية المصرية . وتدل تصرفات أخناتون بعد هذه الزيارة ، أنه اقتنع بآراء أمه ، فسعى الى التخفيف من غلواء دعوته تجاه كهنة أمون . بل والى الصلح معهم . ولذلك أرسل



شريكه في الحكم سمنخ كارع زوج ابنته الكبرى الى طيبة ليجس نبض كهنة أمون ، وليجد أفكارا تصلح لأن تكون أساسا للصلح . لكن قرائن الاحوال تدل على أن المعارضة ، أدركت ان وضع اخناتون أصبح ضعيفا في الداخل والخارج . ولذلك لم يقبل كهنة أمون بأقل من اجتثاث جذور الثورة الاتونية . وقد ساعدهم القدر على هذا ، وكان لهم ما أرادوا . فاخناتون ملهم هذه الثورة وسمنخ كارع شريكه في الحكم توفيا . وصعد الى سدة الحكم في « آخت أت » « توت عنخ أن » زوج ابنة اخناتون الثانية ( غنخي - ان - با - أت ) . وقد قبلت المعارضة بهذا الطفل ملكا على مصر ، لانه سيكون العوبة بأيدي كهنة أمون . فلا الخبرة متوفرة ، ولا الارادة حرة ، ولا القوة لديه موجودة . والأدلة على هذا كثيرة ، نشير الى بعضها على سبيل المثال ، لقد أجبر الملك بعد فتر وجيزة على هجر العمارنة والعودة الى طيبة ، يضاف الى هذا أن الملك غير اسمه من توت عنخ أت الى توت عنخ أمون ، وفي هذا اعلان رسمي عن عودة الديانة الامونية لتكون ديانة الملك الرسمية . وبهذا تكون ثورة العمارنة قد وصلت الى النهاية . وأستطاعت المعارضة ( الكهنة ) أن تقضي عليها القضاء المبرم . وتعود ديانة أمون الى مكانتها المميزة ، ونفوذها في المجتمع المصري القديم (٤٧) .

وهكذا فشل حكم اخناتون ، وفشلت معه ديانته الاتونية . ومن دراستنا السابقة يتضح لنا بجلاء أن أسباب هذا الفشل يعود الى ثلاثة محاور رئيسة . المحور الاول يتضمن مقاومة كهنة امون وأنصارهم من كهنة الآلهة الاخرى . والمحور الثاني يتضمن النتائج التي نتجت عن اجراءات اخناتون ، حيث أصبح الجيش غير راض عن سياسة اخناتون السلمية . وزاد عدد العاطلين نتيجة لاجلاق المعابد . وانقطعت التجارة المصرية مع غيرها من البلدان المجاورة ، كما انقطعت عن مصر جزى الشعوب التي كانت خاضعة لمصر ، مما زاد في ضعف مصر الاقتصادي . أما المحور الثالث فيتضمن تعليم الديانة الاتونية نفسها . فقد كانت تعاليم محصورة بشخص الملك ، الذي يتلقى التعاليم من الاله أت ، وعنه يأخذ البشر ، وبذلك لم تصل هذه الديانة الى قلوب المصريين ، ولم يعايشوها . فقد جاء في النشيد لأتن ما يلي :

ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك اخناتون

لقد جعلته عليماً بمقاصدك وبقوتك .

يضاف الى ما سبق أن الديانة الاتونية كانت ديانة غير شعبية - كما بينا سابقا - فمبدع هذه الديانة كان ملكا ينتمي الى أعلى الطبقات المثقفة المتعلمة ، ولم يكن من الفقراء الضعاف الاقرب الى الطبقات الشعبية العريضة . كما ان الديانة كانت ديانة أكثر تجريدا مما سبقها من الديانة المصرية ، التي عاشت في ضمير ووجدان المصري



لثبات عديدة من السنين ، والذي تعود على عبادة الهة متجسدة بشكل حيواني أو انساني . وشدته عاطفته الدينية الى موروثة الايماني ، ومنعته من ان يرقى بفكره الى ادراك الأفكار الوجدانية المجردة . ولذلك كان من الصعب على المصري ، ان يترك العادات والتقاليد والايمان الموروث بمدة وجيزة لا تتجاوز مدة حكم اخناتون ( ١٧ سنة ) ، بل ربما أحس المصري القديم بشيء من تأنيب الضمير ، عندما كان يرى معابده المقدسة وقد أصابها الخراب والاهمال والعبث وأوصدت أبوابها . وربما كان ينظر الى اماكن الاحتفالات الدينية فيجدها صامتة لا حركة فيها - كما مر معنا سابقا - فتملاً الحسرة قلبه . ومن المؤكد أن الآلهة كانت أثيرة لدى الشعب المصري وخاصة الاله أوزير ، الذي كان مسؤولاً عن سعادة المتوفى في الحياة الآخرة ، حيث كان المحامي عن الاموات امام كل خطر ، أصبح منفياً من مصر ، ولا يستطيع انسان ان يذكر اسمه في عهد الملك اخناتون ، نتيجة لكل ما ذكرنا ، ابتعد الانسان المصري عن اخناتون وعن ديانته ، وأدى هذا الابتعاد الى فشل الديانة الاتونية .

### المعارضة في السلطة :

عادت المعارضة الى سابق عهدها بعد فشل ثورة العمارنة . واحتلت مكانتها المميزة في المجتمع المصري القديم ، وتمتعت بكل الامتيازات السابقة (٤٩) . وقد واجهت المعارضة مشكلتين رئيسيتين ، الاولى اعادة ترتيب البيت المصري من الداخل ، والقضاء على كل ما خلفته ثورة العمارنة من آثار . والثانية اعادة الامبراطورية المصرية الضائعة في بلاد الشام ولو جزئياً .

أما فيما يتعلق بالمشكلة الاولى ( ترتيب البيت المصري من الداخل ) ، فقد بذلت المعارضة جهوداً جبارة للتشهير بأختاتون ، فنسبت اليه كل مظاهر الضعف والخراب التي سادت مصر . فقد جاء في نص يعود الى عهد الملك توت عنخ آمون ما يلي :

« انه الحاكم الطيب (٤٩)

الذي قام بأعمال عظيمة لوالد كل الآلهة (٥٠)

والذي أصلح كل ما كان مخرباً حتى صار آثاراً خالدة

ومحيت من أجله الخطيئة في الارضين ( عصر ) وبذلك دامت العدالة وجعل الظلم شيئاً تمقته البلاد كما كان الحال في البداية (٥١) .

لم تكتف المعارضة بالتشهير بأختاتون ، ووصمه بالكذب والدنس ، بل سعت



جاهزة لان تحرمة الراحة الابدية ، وذلك عن طريق عدم ذكر اسمه ضمن اسماءملوك مصر الغابرين ( القوائم الملكية ) ، التي كانت تسجل على الاثار ، كحجرة الاجداد في معبد الكرنك من عهد تحوتمس الثالث وغيرها . وعندما كانت الاشارة الى اسمه ضرورية في الوثائق الرسمية في عهد الفراعنة الذين اتوا بعده كان يسمى « مجرم اختياتون » . ولابراز مدى حقد الكهنة على اخناتون نورد القصيدة التالية :

انك تصل الى من يبغى عليك

والويل لمن يهاجمك

مدينتك تبقى

ولكن من يهاجمك يهوي

وشمس من لا يعرفك تغيب . . يا أمون !

وأما من يعرفك فانه يضيء

ومعبد من هاجمك في ظلمه

بينما جميع الارض في نور(٥٢)

وأخيرا حاولت المعارض ان تنحي باللائحة على اخناتون في سقوط الامبراطورية المصرية في بلاد الشام « واذا أرسل قوم الى سورية لم حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط »(٥٣) . ولكن مهما ربطت المعارض بين اخناتون وضياع الامبراطورية المصرية في بلاد الشام فان هذه الادعاءات تبقى للدعاية ضد اخناتون . قام بها اعداء اخناتون أنفسهم ، فقد قامت امبراطوريات في التاريخ مثل الامبراطورية الاكدية ، والبابلية ، والميتانية ، والحثية ، والكاشية ، والاشورية ، والكلدانية ، والفارسية والرومانية ، الاسلامية ، والبريطانية ، وسقطت كلها دون ان يظهر فيها اخناتون واحد . انها سنة الحياة ، طفولة وشباب وكهولة وسقوط .

أما فيما يتعلق بمحاولة اعادة الامبراطورية الضائعة في بلاد الشام(٥٤) ، فقد أدركت المعارضة ، عنف الهزة التي أصابت مصر ، جراء ثورة اخناتون الدينية ، كما أدركت مدى التغير الدولي الكبير ، فقد بلغت الدولة الحثية ذروة مجدها ، وأقصى توسع لها في بلاد الشام . ولذلك أثر قائد الجيش حورم حب ، الرجل الذي كانت له السلطة الفعلية في مصر ، الاهتمام بشؤون مصر الداخلية قبل السعي لاعادة الامبراطورية ، فسن التشريع ، الذي نظم الادارة والقضاء وشؤون الجيش (٥٥) .

وهكذا فقد ملأ اخناتون الدنيا وشغل الناس ، لا في القديم فحسب ، بل في عالمنا



الحديث أيضا ، فقد كان اخناتون فيلسوفا ملتصقا ومفكرا مبدعا ، هدته ثقافته وفلسفته الى ابداع فكر عظيم . لقد كان فكر اخناتون ظاهرة مبكرة جدا في تاريخ الفكر الانساني ، أساسه الوجدانية ، والسلام بين الشعوب ، والصدق في سلوك البشر ، وحب الطبيعة ، وحب الانسان ، لقد كتبت النزعة الانسانية في فكر اخناتون مميزة وواضحة ، فرحمة الله - حسب دينه - لا تخص شعبا بعينه ، أو أن الله يختار قوما ليخصهم بامتيازات على سائر البشر ، جاء كل هذا منذ ثلاثة الاف وثلاثمائة سنة . لكل ما سبق سيبقى اخناتون وفكره في ذاكرة البشرية ، ما دامت الحياة ، تكبره وتعجب به الاجيال .

### المراجع :

- ١ - أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٢ - ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة .
- ٣ - برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٤ - جاردنر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ .
- ٥ - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضاره مصر الفرعونية ، الجزء الاول ، ١٩٧٨ .
- ٦ - محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة .
- ٧ - محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ .
- ٨ - ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٩ - الموسوعة المصرية ، نخبة من الاساتذة .
- ١٠ - Baeasted, H., Ancient Records of Egypt , Chicago 1906 .
- ١١ - Gardiner, A., Egyptian Grammar, London 1959.
- ١٢ - Geotze, A., Shoppiliumash Destroys the Kingdom of Mitanni , A. N. E. T.
- ١٣ - Wihson, J., Yut - ankh - amon- Restoration after the amarna Revolu tion, A. N. E. T.



## الحواشي :

توجه أخناتون نحو الاله أتن خطرا يهدد مصالحهم الاقتصادية ، ويقضي على نفوذهم .  
- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ١٩٢ .

برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٩٩ .

عمد موظفو الملك الى الارشيف الملكي ، فمحوا اسم آمون . وكذلك عمدوا الى محو أسماء سائر الالهة الاخرى .

- محمود عبد المجيد ، سلسلة العلاقات ، ص ١٧٤ .

- برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ .

كان أمور اله الهواء ، وكان يعني اسمه « الخفي » وهو في هذا عكس أتن الاله الذي يتجلى للناس يوميا وبوضوح تام .

ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٢ .

— Gardiner , A., Egyptian Grammar, London, 1959, p. 625.

الموسوعة المصرية ، نخبة من الباحثين ، الصورة ٣١٨ .

سمى امنحوتب الثالث الزورق الذي كان يستخدمه في النزهة مع الملكة في بحيرة قصره بطيبة « اتون يشع » . وبناء على كل ما سبق يرى بعض الباحثين أن نوعا من التعبد كان يقام لأتن في طيبة فعلا ، انظر :

- جارونر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(١) Breasted, J, H., Ancient Records of Egypt- Chicago, 1906 .

(٢) حارب احمس الاول في فلسطين ، كما حارب تحوتمس الاول في بلاد الشام ووصل الى الفرات ( منطقة نهارين ) . كما حارب الملك

تحوتمس الثالث في بلاد الشام حيث شن عليها سبع عشرة حملة عسكرية ، وقد كانت جيوشهم برية . - محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السوية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٨٦-٤١ .

(٣) حصل هذا في أواخر أيام الملك امنحوتب III

(٤) للاطلاع على أحوال مصر القديمة قبل أخناتون انظر : محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، وسيشار اليه فيما بعد هكذا ، محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات .

(٥) تحوتمس الثالث ( ١٤٦٨ - ١٤٤٧ ق.م. ) من أعظم فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ، حيث يعد مؤسس الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . انظر :

محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات ، ( مرجع سابق ) ، ص ٦٩-١٠١ .

(٦) يرى بعض الباحثين أن اخناتون لم يبدأ العداءة ضد كهنة آمون ، بدليل انه أعلن اثر اعتلائه العرش ، أن الهه أتن ما هو الا « رع حور أختي » ( اله الشمس ) الذي يتجلى في الافق باعتباره النور الذي في الكوكب أتن . وبهذا قدم اخناتون الاله أتن على أنه اله شمسي ربط الى اله شمسي آخر عظيم ، وهذا شائع في الديانة المصرية مثل ( آمون - رع ) . لكن الكهنة وقد أحسوا بتوجيه ملوك هذه الاسرة الى العبادة الشمسية ، بمحاولتهم تمجيد أتن رأوا في



— برستد ، فجر الضمير ( مرجع سابق ) ،  
ص ٣٣٠ .

(٢١) من أجل حصول الكهنة على حصتهم من  
الاسلاب والفنائم ، كان يرافق الجيش المصري  
في غزواته كاتب — كان في أغلب الاحيان كاهن  
تسميه النصوص S<sup>v</sup>sms<sup>v</sup>c ( كاتب  
الجيش ) . وكانت مهمة هذا الكاتب تسجيل  
الاسلاب والفنائم ، ولذلك لاحظ الباحثون أن  
هذا الكاتب ، كان يهتم بتسجيل الاسلاب  
والفنائم أكثر مما يهتم بأحداث المعركة .

(٢٢) عندما شاهدت الملكة حتشبوت ارباح حملتها  
التجارية الى بونت ، تبرعت فوراً بجزء منها  
الى الاله آمون . انظر :

— Breasted J., Ancient Records  
of Egypt. Vol II, Chicago, pp270 ff.

(٢٣) الفئ اخناتون عبادة الاله أوزير ، وكان لهذا  
الالهاء أثر سلبي بعيد المدى في نفوس  
الطبقات الشعبية المصرية بخاصة . وذلك  
بسبب المكانة العظيمة التي يحتلها هذا الاله  
في نفوس الناس كاله شعبي وكاله رمز  
لعقيدة المصريين في حياتهم الدنيا ، وفي بعثهم  
بعد الموت . وقد غزت عقيدة أوزير نفوس  
المصريين منذ أواخر الاسرة الخامسة ، حيث  
جعلت هذه العقيدة نصيباً للطبقات  
الشعبية بنعيم الخلد في دولة أوزير رب  
الابدية ، بل اعتقد المصريون في عصر الدولة  
الوسطى ، أن كل متوفٍ سيصبح أوزير  
في الحياة الآخرة — وهنا سوف يتمتع الجميع  
بنعيم الحياة لا فرق بين غني وفقير أو بين  
حاكم ومحكوم ، وكان أوزير على رأس اثنين  
وأربعين الها يحكمون المتوفي في قاعة كبيرة .

— الموسوعة المصرية ، ( مرجع سابق ) ،  
ص ١٢٩ — ١٣٠ — ٣٦١ — ٣٦٢ . عبد المنعم  
عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ،  
( مرجع سابق ) ، ص ١٣٧ — ١٤٦ ، ١٩٣ .

(٢٤) برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق ، ص ٣٣٠ .

— أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ،  
١٩٧١ ، ص ٢٠٧ .

(١٢) ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد  
المنعم أبو بكر ، القاهرة ، ص ٢٠٨ — ٢١٦  
٢٢٥ — ٢٢٦ .

(١٣) كان قضاة مصر على الاغلب من الكهان ،  
وكانت الدعاوى تحفظ وتمد مع مكان حفظها  
من المقدسات .

(١٤) ان نقل العاصمة يدخل أيضاً ضمن اجراءات  
الحرب الاقتصادية التي شنّها اخناتون على  
كهنة آمون — كما سنرى .

(١٥) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات  
( مرجع سابق ) ، ص ٤٥ .

(١٦) أطلق جنود تحوتمس على نهر الفرات اسم  
« النهر ذي المياه المقدسة » وذلك قياساً على  
اتجاه مجرى النيل .  
— B. A. R., vol, II

(١٧) فيما يتعلق بحروب ملوك مصر . انظر :  
محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات ،  
ص ٤١ — ١١٥ .

(١٨) انظر المظاهر الدينية في هذا البحث .

(١٩) برستد ، فجر الضمير ( مرجع سابق ) ،  
ص ٣٠٤ .

(٢٠) جاء في نص مصري يعود الى عهد « تون عنخ  
أمون » ( الملك الذي حكم مصر بعد اخناتون  
وارتد عن الاتونية ) ، وصف لحالة المعابد  
في عهد اخناتون كما يلي : « وأغلقت معابد  
الالهة من — الفئتين » ( أي الشلال الاول )  
الى الدلتا ...

وهجرت أماكنهم المقدسة ، ونبت فوق دمنها  
المرعى . وصارت معابدهم كأن لم تكن بالأمس  
وبيوتهم صارت طرقاً معبدة ، والبلاد كانت  
في مأزق سيء . وأما الالهة فقد هجرت هذه  
الأرض .



Goetze, A., Shoppiliumash Destroys The Kingdom of Mitanni, A. N. E. T, P. 318 .

محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات ( مرجع سابق ) ، ص ١٦٢-١٦٣ .

تقع جبيل على الساحل السوري الى الشمال من بيروت الحالية ، وتعد من اهم الموانئ الفينيقية التي كان لها صلات تجارية كبيرة مع مصر منذ عصور مبكرة جدا .

أما سميرا « Symura » فتقع على الساحل السوري أيضا الى الجنوب من مدينة طرطوس الحالية ، ربما تل الكزل الحالي .

محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات ( مرجع سابق ) ، ص ١٦٤ - ١٧٠ .

— استطاع عزيرو أن يسيطر على بيروت بعد جبيل وبذلك امتد حكمه على الساحل من سميرا الى بيروت .

تمائيل الاوشابني ، تماثيل صغيرة ، توضع مع الميت في غرفة دفنه ، كانت تقوم باجابة الالهة بدلا من الميت عندما يتطلب الموقف ، وتسميتها قريبة من المصدر العربي «اجابة» . — برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص ٣٣٠ .

برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٢٨ .

— برستد ، فجر الضمير ، ( مرجع سابق ) ، ص ٣٣٠ .

برستد ، فجر الضمير ، ( مرجع سابق ) ، ص ٣٣٠ . محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

احمد فخري واخرون ، الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، القاهرة ص ٧٧ - ٧٨ .

برستد ، فجر الضمير ، ( مرجع سابق ) ، ص ٣٣٠ .

(٢٥) ويلسون ، الحضارة المصرية (مرجع سابق) ، ص ٣٧٢ .

(٢٦) ربما كانت هذه السياسة نابعة من ثقافة وطبع وفلسفة اخناتون الدينية ، فقد جاء في رسالة بعث بها الى عزيرو الزعيم العموري ما يلي : « أنت تعرف أنني أكره الحرب ولا أريد أن اذهب لاقتل الناس في آسيا » . أو ربما بسبب حربه مع المعارضة ، هذه الحرب التي فرقت الامة الى حزبين كبيرين ( حزب الملك ، وحزب الكهنة ) ، أو ربما بسبب تضليل اخناتون من قبل حاشيته ، اذ يمتد ان هذه لم تكن مخصصة لخناتون ، وبالتالي فلم تطلعه على حقيقة الوضع في سورية بشكل خاص .

— محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات . ( مرجع سابق ) .

(٢٧) الحثيون من الشعوب الهندو - اوربية . هاجروا الى اسيا الصغرى في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وتغلبوا على الشعب الذي سبقهم اليها واحتلوا عاصمتها خاتي في منعطف نهر الهالس الذي يصب في البحر الاسود ونسبوا اليها . — محمود عبد الحميد ، سلسلة العلاقات ، (مرجع سابق) ، ص ١٢٠ - ١٢٣ .

(٢٨) الشعب الحوري - الميتاني ، شعب هندو - أوربي ، وصل الى منطقة الجزيرة السورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ، حيث أسس دولته ، واتخذ من واششوكاني ( تل الفخيرية بالقرب من رأس العين الحالية ) عاصمة له .

— محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات ( مرجع سابق ) ، ص ١٢٣-١٢٧ .

(٢٩) بعد شوبيلوليوما Suppilumas من أعظم ملوك الامبراطورية الحثية الحديثة . وقد امتدت فترة حكمه من حوالي ١٣٩٠ ق م الى ١٣٥٤ ق م .

— Pritchard, A.N.E.T., P. XVIII .



— محمود عبد الحميد أحمد ( المرجع السابق )  
ص ١٧٦ .

تكونت المعارضة ضد اخناتون من كهنة آمون والجيش ، والمواطنين عن العمل ، وكانت السلطة محور الصراع . وعلى الرغم من عنف معارضة كهنة آمون لثورة العمارة ، فقد استطاعت المعارضة العسكرية الوصول الى الحكم قبل الكهنة ، — كما رأينا — اذ كان قائد الجيش حورم حاكم مصر الفعلي بعد اخناتون ، الى أن أصبح ملك مصر رسميا . لكن المعارضة الكهنوتية لم تفقد الأمل واستمرت تسمى الى الحكم سعيًا حثيثًا ، الى أن وصلت الى عرش مصر حوالي ١٠٨٧ ق.م ، حيث تولى الكاهن حريحور الحكم ، وبذلك عد مؤسسًا للأسرة الحادية والعشرين .

(٤٨) « تحوت عنز آمون » .

(٥٠) الاله آمون .

(٥١) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص ٣٢١ .  
ص ٣٢١ .

(٥٢) القصيدة تخاطب آمون وتشفى من اخناتون والله ومعبدته ، ( برستد المرجع السابق ص ٣٢١ ) .

(٥٣) برستد ، فجر الضمير ( مرجع سابق ) ،  
ص ٣٣٠ . ( النص من عهد الملك توت عنخ

(٥٤) تعد بلاد الشام مقدمة لمصر ، كما تعد مصر عمقا لبلاد الشام ، وكل حدث عظيم يقع في احدهما ، فان آثاره تنعكس على البلد الآخر . وقد أدرك المصريون هذه الحقيقة ، لذلك وجدنا المعارضة في أول أيام توت عنخ آمون خليفة اخناتون ، تسمى الى انقاذ ما يمكن انقاذه من بلاد الشام ، فبمشت حورم حاكم قائد الجيش الى فلسطين الحالية وقد حقق بعض النجاح هناك .

(٥٥) أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، ( مرجع سابق ) ، ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

(٤٠) الماعت في اللغة المصرية القديمة تعني الصدق أو الحقيقة

— Gardiner , op. cit , P. 567 .

(٤١) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات ( مرجع سابق ) ، ص ١٩٧ — ٢١٣ .

(٤٢) يرى بعض الباحثين أن اخناتون كان فيلسوفا ملهما ، وقد هدته ثقافته التي ابداع ديانته . وهكذا فان هذا الابداع لم يكن وحيا الهيا ينزل على الفقراء الضعفاء كما في الديانات السماوية بل هو اجتهاد بشري ، لا يبدعه الا من كان مثقفا ومتعلما .

(٤٣) يقول برستد أن اخناتون اسس في النوبة مدينة لاتون مشابهة لـ « آخت آتن » في موقع العمارة بمصر ، ومن المحتمل جدا ، انه اقام مدينة اخرى لذلك الاله في اسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الاجزاء العظيمة التي تتألف منها الدولة وهي مصر وسورية والنوبة مقر للذهب « أتون » .

— برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص ٣٠٠ .

(٤٤) برستد ، فجر الضمير ( مرجع سابق ) ،  
ص ٣١٢ .

أي الناس ، البشر .

(٤٥) اطلق المصريون على انفسهم تسمية « rmt »  
— Gardiner, A. . Op. cit, P.578.

(٤٦) برستد ، فجر الضمير ( مرجع سابق ) ،  
ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

— أحمد فخري ، مصر الفرعونية ( مرجع سابق ) ، ص ٣١٢ .

(٤٧) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات ( مرجع سابق ) ص ١٧٦ .

— من فحص مومياء الملك توت عنخ آمون تبين انه في التاسعة من عمره حين تسلم عرش مصر القديم .



## حول زيارة امين الريحاني لليمن وهل كان متنكرا؟!؟

د. محمد ثنيان الثنيان

### مقدمة :

سافر الريحاني الى امريكا صبيًا ، وهناك تأمر ك ، تجنسا وثقافة . لكنه بفطرته العربية السليمة حن الى ثقافة آبائه واجداده ، فنهل من ينبوعها العذب ، وعرف شيئًا من أخبار الرحالة الغربيين ، المتنكرين غالبًا ، الذين جابوا أرجاء الجزيرة العربية ، فشعر وهو ابن العرب الاقرب والاجدر بجوب ديارهم ، بالفن والمرارة وغدا طموح الرحلة حلم يراوده ، حتى تحقق وقام برحلته العربية الكبرى ، والتي زار فيها العراق ، وبعض مناطق الخليج العربي كالكويت والبحرين ، وزار قلب الجزيرة نجد ، وكذلك الحجاز ثم اليمن المعنية بهذا البحث .

الحجاز كتاب مفتوح قراه الريحاني في الصحف العربية والاجنبية قبل قدومه . والعراق ودول الخليج هذه كانت تحت الاستعمار البريطاني ، فأخبارها قريبة متناولة ، لا جديد ولا غريب فيها . أما اليمن ، فشد الرحال اليها له بريق وتميز لا يعد له الا المسير الى نجد .

اليمن كانت منفلكة ، منعزلة ، وكانت بغية الريحاني التوغل في المجهول . واليمن ، جل بقاعها وعرة موحشة ، يكمن فيها الخطر ، وفي هذا اثبات للجسارة والتحدى لديه . اليمن ، يمن التراث وعبق التاريخ ، كانت وجهة لرحالة غربيين سبقوه اليها ، اكبرهم الريحاني بل غبطهم ، وبدا ، ففي زيارته لها تحقيق لذاته وارضاء لطموحاته في رحلة يطاله منها صيتا ، وتبقى له ذكرا .

وكانت اليمن اكثر بقاع الجزيرة تخلفا ، وكان حافزه الشخصي من رحلته العربية تطوير وتنوير اخوته العرب .

---

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني - نيسان ١٩٩٥



ونظرا لارتباطه الوثيق بأمريكا فقد وقفت بريطانيا - خوفا من منافستها - ضد زيارته ووضعوا الكثير من العراقيل والعقبات أمامه ، خصوصا في اليمن حيث كانت تربض متحفزة على بوابته في عدن .

ولعل إثارة قضية تنكر الريحاني القوي الصلة بهذا التناقض والتنافس لعله يلقي ضوءا عليه ، حيث ستكون مسألة التنكر مطية لهذا البحث ، ليس لأهميتها بحد ذاتها فقط ، - وان كان المتكرون هم جيوش الليل الذين مهدوا للاستعمار - وانما لأنها ستوصل الى غايات ومآرب أخرى أكبر وأهم . سيقضي البحث هذه القضية ويتابعها ، ويدرس جذورها ، وحقيقتها وصولا الى أسبابها ومسبباتها ، كل ذلك في سياق سيفضي الى حقائق تساعد في وضع رحلة أمين الريحاني لليمن في نصابها ومسارها التي كانت من أجله .

في رحلة أمين الريحاني للجزيرة العربية<sup>(١)</sup>، والتي جاب فيها صحاريها وافيائها، وجبالها وسهولها ، في هذه الرحلة ، مكانان أو منطقتان كانتا بالنسبة لفيلسوف الفريكة صعبة المنال أو بالأحرى الوصول اليهما كان من المشقة بمكان جعل هذا الرحالة ، وهو الفيلسوف المفكر ، يحار في أمره بل يخشى ويرتاع .

احتار في أمر الوصول الى نجد ، بعد ان حاول من يسيطر على البحار منعه ، ووصلها بعد أن دعاه حاكمها وسلطانها ، وسهل له ما توعد وتعسر من الدرب اليها<sup>(٢)</sup>.

أما اليمن وجبالها وسهولها فكان له معها قصة أخرى ، قصة حفت بها المخاطر في جل جوانبها ، غير أنها لم تخل من مسرات وفرحات في جوانب أخرى . واجه الريحاني في رحلته لليمن معظم الصعاب والعقبات التي يتوقع أن يواجهها رحالة غريب عن البلاد مثله . وواجه من الاجواء وأحوال الطقس وتقلباته : من برد وحر ما كان متناقضا تماما ، جمع بين حر الاستواء وبرد شتاء لبنان ، كما قال ، في ساعة واحدة ، ومن الدروب ما كان أشد تناقضا في علوه وهبوطه ، صعد الى سطح اليمن على جبال كبوعان وحراز ووصل ، جبال لا يسمع فيها الا صفير الرياح الباردة التي لا تنبئ الا بزمهرير الشتاء وبرده القارس . وهبط الى أسفل اليمن بل الى قبوه وجحيمه، حيث سار في شعاب ووديان كمفحق وحجام ، حيث أشعة الشمس الحارقة يعاونها هواء الاستواء الحار<sup>(٣)</sup> .

من سمات رحلته الى اليمن أيضا ، الغموض والمجهول ، وبالتالي الخوف والرعب . أجل لقد كان للريحاني مواقف في هذا الشأن تذكر لتكتب ، ان رحلته في



اليمن لقصة طريفة فيها من المدهشات الكثير ، ومن المفزعات أكثر ، جلها ومعظمها معروف رواه الريحاني في كتبه ومؤلفاته ، وطرفا آخر منها لا يزال طي الكتمان سترويه الوثائق الامريكية .

### التنكر :

يقول القنصل الامريكي ، في عدن ( ريموند ديفز ) في تقرير رفعه الى الخارجية الامريكية بواشنطن بتاريخ ١٩٢٢/١١/٢١ ما يلي :

« الان أصبح من الممكن أن أعطي وصفا لزيارة أمين الريحاني لامام اليمن ، كما رواها الشخص الذي رافقه في الرحلة .

« مباشرة بعد مغادرة، ماوية، النقطة الاولى في حدود الامام على تخوم الحواشب، تقمص الريحاني اجواء الدين متنكرا بشخصية سيد ، لقب تحمله سلالة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، وطلب من صديقه قسطنطين بأن يدعي أنه تركي ، ومع أنه قد نصح من قبل ابن الوزير حاكم الامام على ماويه ، والذي يعرف كل شيء عن الريحاني والفرض من زيارته ، أن يترك عنه الخدع ويظهر ويسافر كمسيحي . لكنه مع ذلك ، سافر كسيد ، حتى وصل صنعاء ، حيث كشف الامام ، حالا شخصيته الحقيقية » (٤) .

ويبدو أن هذه الرواية – ضمن غيرها – أتت مكتوبة للقنصل اما بواسطة هذا المرافق نفسه أو بواسطة شخص آخر ولعله احد الموظفين في القنصلية حيث ان سياق هذا التقرير بعد ذلك يوحي بهذا . . « ويظهر ان التقرير أيضا يؤكد الشائعات السابقة والتي تقول بأنه . . » .

فالقنصل الامريكي اذن تلقى تقريراً مكتوباً يفيد بأن الريحاني قد تلبس بالدين منتحلاً شخصية سيد من السادة مخفياً بذلك شخصيته ودينه الحقيقي ، وبان رغم من نصح أحد المسؤولين اليمنيين له بعدم التنكر فقد استمر على هذه الحال حتى وصل صنعاء حيث كشف امام اليمن يحيى حميد الدين أمره .

فنحن اذن امام وثيقة رسمية تفيد بأن الرحالة أمين الريحاني قد اخفى شخصيته ولبس قناع شخصية أخرى وعليه، فقد تنكر مثله مثل الكثير من الرحالة الغربيين الذين سبقوه الى الجزيرة العربية (٥) . ولا شك في ان مثل هذا القول ، أو الرواية التي تبديها



هذه الوثيقة ليعد امرا جديدا ، بل ومستغربا . وبقينا ، ان القاريء ، وخصوصا ، القاريء العربي سيقف مشدوها امام رواية كهذه ، لان ما عرف وما اشتهر عن أمين الريحاني ، حتى الان ، سواء في مؤلفاته وكتبه هو نفسه ، او في المؤلفات الاخرى ، انه خلال رحلته في الجزيرة العربية كلها ما تنكر ولا استبدل شخصيته بغيرها ولكن ، ايضا ، ومن ناحية اخرى ، فالوثيقة تقول بالحرف الواحد كما تقدم : « . . كما رويت من قبل شخص رافقه في الرحلة » فناقل خبر تنكره ، طبقا لهذه الوثيقة ، شاهد عيان بل واكثر من ذلك ، مرافق له في الرحلة .

— فهل يا ترى فعل الريحاني هذا ؟

— هل تنكر ؟ . وهل كان هناك ضرورة لان يخفي شخصيته الحقيقية ؟ . .

للإجابة عن هذه الاسئلة لعل الامر يقتضي متابعة فيلسوف الفريكة في رحلته اليمانية هذه ، واقتفاء أثره ، خصوصا من النقطة التي ذكرت فيها الوثيقة بداية تنكره ، وهي بلدة ماويه أو بلد في حدود الامام يحيى حميد الدين .

### التحذير والتصميم :

قدم الريحاني من مصر ، ووجته الجزيرة العربية ، ميمماً مدينة جدة ، حيث هناك صديقه قسطنطين يني<sup>(٦)</sup> . ومع رفيق رحلته قسطنطين هذا ابهر جنوباً الى عدن . عدن !؟ لله انت يا عدن ! كانت على الريحاني جحيماً لا يطاق . في نيويورك ، حذر يمني ونهاه عن زيارة اليمن ، وهول له الاخطار ، وبالحق فيها<sup>(٧)</sup> ، وفي مصر كان قول الاديب نعوم شقير ، ضغثاً على اباله ، زيادة في الفزع والخوف<sup>(٨)</sup> أما عدن فقد كان فيها التهويل لا الهول نفسه ، حيث كان لاهل الحول والطول في عدن ، الانجليز مع الريحاني التخويف والتحذير قصة طويلة يقول القنصل الامريكي في أحد تقاريره : « بعد زيارة مصر مر الريحاني على جدة وقابل الشريف . بعدئذ ، قدم هو ويني الى عدن ، حيث أعطيا اذناً ، على مضض ، بزيارة اليمن ، واحلت الحكومة ( حكومة عدن البريطانية ) نفسها من تبعات كل المسؤوليات عن أي شيء قد يحدث لهما في الرحلة »<sup>(٩)</sup> .

الانجليز لم يكتفوا باخلاء مسؤوليتهم عن أي خطر قد يداهم الريحاني ورفيقه في رحلتهما لليمن ولكنهم تعدوا ذلك الى تحذيره .

هو ذا أمين الريحاني في دار المفوضية البريطانية في عدن — عندما اتى اليها طالبا الاذن بزيارة اليمن — في حوار مع الجنرال سكوت ، الوكيل البريطاني والحاكم المدني والعسكري في عدن . وبعد مقدمة في حديث من الشعر والادب قال « فجهرت



بقصدي فقال : او لا تهلك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكن في السفر الى اليمن خطرا أكيدا ، خطرا كبيرا على المسيحيين ونحن لا نستطيع ان نحملك في ما تجاوز حدودنا .

فقلت : يا حضرة الجنرال ... فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي ايجوز لي ان اطلبها منكم ؟ . اني مسافر الى صنعاء يا حضرة الجنرال وليس لي مهمة سياسية . لا علاقة لي بأي حكومة من حكومات العالم ... وأني أجهر امامك وأمام قنصل اميركا بذلك لعلمي اننا كحكومة وكأمة لا يهمنا اليمن ولا مطامع لنا في البلاد العربية ..

فقال الجنرال ، ... اما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوف بالاعطال وخصوصا اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا أذننا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعا عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود » (١٠) .

سكوت العارف ببواطن الامور يؤكد له وجود خطر في اليمن لا مفر منه ، ان هو صمم على السفر اليه . ولكن لا تلين قنائة من كانت الاخطار هي لذة الاسفار لديه ؛ كانت اجابة الريحاني ، كمن باع نفسه لهذا الخطر ... « فقلت وهل تريد ان اكتب لكم صكا أتنازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلا : سأنظر في الامر واكتب اليكم قريبا » (١١) .

وبالفعل فقد نظر سكوت في الامر ، ولكن مليا ، وبكل تودة واحتياط . فبعد استقصاء واستفسار عن الريحاني وهويته والغرض من رحلته ، خصوصا من واشنطن ، كما نصت على ذلك وثائق الخارجية الامريكية ، واقوال الريحاني أيضا (١٢) ، أرسل اليه الانكليز خطابا أو بالاحرى صكا . نعم اذا كان الريحاني قد وعد الانكليز بكتابة صك يتنازل فيه عن حياته ، فما بخلوا عليه هم ، بدورهم ، بصك يعلنون فيه البراءة التامة من هذا الذي يريد أن يزج بنفسه في أتون خطر محقق . تسلم بعد طول انتظار خطابا من ريلي المعاون الاول للحاكم البريطاني بعدن هذا نصه : « قد كتب الحاكم الى سلطان لحج يسأله أن يرفقكم أنت وقسطنطين يني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل . ولكنه رغب اليّ أن أعلمكم بأن البلاد في اضطراب ، وأن السفر فيها خطرا على المسيحيين ، وأنه وان كان قد سأل السلطان أن يرفقكم بالحرس الى الحدود فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة . وليكن معلوما لديكم بأن الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم ... » (١٣) هذا هو خطاب الموافقة أو الاذن على مضض الذي اشارت اليه الوثائق الامريكية . حيث غسل الانجليز أيديهم من الريحاني ورفيقه وتبرؤا منهما ، ونتيجة لهذا فقد داخل الريحاني ، ولا شك ، شيء من الفرع والرعب



من المصير المجهول ، وهو ، الى حد ما ، محق في هذا ، كيف لا ، وهو مقبل على بلد أهله كلهم مسلحون ويتحاربون أولا ثم يستفسرون بعد ذلك عن سبب القتال ! هكذا حدث الريحاني سيد من سادات اليمن (١٤) وللريحاني ، في التاريخ ، سابقة وعبرة . ألم يتلع اليمن قبله بعضا من الرحالة ؟ وما قصة هلاك الالماني ( سيتيزن ) (١٥) عن مخيلة رحالة العرب وفيلسوفها ببعيدة . ولكن هذا لم يجد سوى رحالة جسور . سافر بعد أن ترك وراءه عنوانين ، في بيروت وفي نيويورك لينعى على الاقل الى أهله (١٦) . واذا كان هذا قدر الريحاني ، فمن ذا يرد القدر ؟ قال : « لست أدري وأنا أعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب فيّ على ذلك الترويع اذا لم يكن ثباتي على أحد أمرين وهما ثقتي التامة بأخواني العرب وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة الدراسية » (١٧) .

ما خاب ظنه باخوانه العرب ، ولا خذلوه ، في ثقته التامة بهم . . . » ولكن كلمة قالها القاضي عبد الله العرشي بصفته الرسمية - اذا لم يكن الامن موجودا فنحن نوجده من اجلكم - وكلمة كتبها تطردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل « (١٨) . فالكلمة التي قالها العرشي هي تأمين الامن والحماية ، حيث احاطه اليمنيون بحراسة قوية لحمايته في الطريق الى صنعاء . أما الكلمة التي كتبها العرشي في خطاب التوصية الذي حمله الريحاني معه الى الامام . وكانت تلك الكلمتان بالاضافة الى رسول العرشي الذي ندبه مع الريحاني مرافقا له في رحلته وخطاب التوصية والتعريف الذي كتبه أيضا الى أمير ماويه ، وحمله الريحاني أيضا معه ، كانت كلها مع المصباح المنير والنبراس الهادي لفيلسوف الفريكة في رحلته حتى صنعاء (١٩) . وكان العرشي أيضا قد أخبر الريحاني كتابيا بموافقة الامام على الزيارة (٢٠) .

### المسير الى صنعاء :

استقل الريحاني من عدن قطارا بخاريا قديما ، متجها الى لحج (٢١) ، حيث مكث فيها اسبوعا (٢٢) في ضيافة سلطانها عبد الكريم فضل (٢٣) ينتظر موافقة الاتكليز على امداده بالحرس اللازم حتى نهاية محمياتهم وبعد ماطلة شديدة ، تم له ما أراد (٢٤) . فغادرها في سيارة صغيرة الى الدكيم ، آخر نقطة في حدود سلطنة لحج من الشمال حيث كانت القافلة ، ومعها الحرس ، تنتظر الريحاني فتحركوا نحو المسيمر ، قاعدة بلاد الحواشب واستقبل فيها من قبل سلطانها الذي أكرم وفادته وزوده بحرس حتى ماوية . وكان الريحاني قبلا ، قد توقع الخطر كل الخطر في هذه المنطقة لكثرة ما حذر منها . وما وقع فيها من أحداث دموية قبيل مروره بها ، ولكن على عكس ما توقع فقد كان له مع الحواشب قصة في الكرم عجيبة غريبة ، نسيها بعد أن استجد عليه أغرب منها (٢٥) . قال فيلسوف الفريكة ، مخاطبا زوجة السلطان : « أكثر الله أيتها السلطنة من فخارك ،



وجعلنا السنة فخارك ... كيف لا وانت السيف في اكرام الضيف ... تروعين  
أيتها الحوشية الالمية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضع اعجابنا حتى في بلاد  
الزيود ، ... وقد تنسى الغريبة الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول  
بلد من بلدان الزيود ... دخلناها في أصيل ذلك النهار ... (٢٦) .

ماويه ، النقطة الاولى في حدود امام اليمن ، وهي بالتأكيد العتبة الاولى في سلم  
ضيق صاعد متعرج موحش لكن في النهاية يقضي الى بيت القصيد ، الى صنعاء .

### مسألة إيقاف الريحاني :

ولكن يا ترى ما هي غريبة ماويه الجديدة تلك التي أنسته غرائب الحواشب .  
أهي تلك التي أشارت اليها احدى الوثائق الامريكية ؟

القنصل الامريكي ( ريموند ديفيز ) في تقريره السري :

وبعد أن أورد الشق الاول منه ، وهو عبارة عن حديث للقنصل مع الريحاني  
نفسه وما قاله عن رحلته لليمن قال القنصل :

« والحكاية ، طبقا للرأي العام المحلي في عدن مختلفة تماما ... بعد المكوث  
اسبوعا كضيوف لدى سلطان لحج ، واصلا الى ماوية ، والتي هي النقطة الاولى في  
حدود الامام . هنا ، أوقفا حتى أتى الامر من الامام - والذي استلم أخيرا ، عن هذه  
الرحلة المرتقبة ، رسالة من العرشي - بأن يترك ليتابعا » (٢٧) .

طبقا لهذا التقرير ، اذا فالريحاني ورفيقه قسطنطين يني ، هنا ، في ماوية قد  
أوقفوا . والعبارة الانكليزية التي استخدمتها هذه الوثيقة لـ « أوقفا » هي :  
They Were Held والتي تتفاوت فيما تعنيه من مجرد الاعاقة ، والتوقيف ، الى  
الحبس والاعتقال ، فهل تعرض فيلسوف الفريكة لواحد من معانيها المرة ؟ هل حبس حقيقة  
أو سجن في ماوية ؟ أو اذا أحسن الظن بأخوته العرب ، هل على الاقل ، أوقف أو سئل ؟

### ماوية مجلس ابن الوزير :

وقبل مناقشة ما جاء في هذه الوثيقة والتي قبلها ، حري بنا أن نرافق الريحاني  
في ماية ، لنطلع أولا على ما جرى له فيها .



قال وهو على مشارفها ، بأنه سمع صوتا جميلا شنف أذنيه ، وكان لشدوه وقعا في طريق موحش وعر ، ولما شد ورفاقه في الصعود وبلغوا العقبة من الجبل ، تبينوا جنديا على سطح ، ومعه البوق ينفخ فيه، ترحيبا بقدمهم باسم أمير الجيش في ماوية: ابن الوزير . قال الريحاني : « وكانت فاتحة الالطاف » (٢٨) وكان لفاتحة الالطاف هذه الالطاف أخرى تبعتها .

أقول قبل سرد هذه الالطاف، انه قد أجري له في ماوية استقبالا، أو على وجه الدقة استقبال ذا وجهين أحدهما جرى خارج القصر وكان مفرحا مبهجا ، كان متمم الالطاف . أجل لما دنا الريحاني من القصر سمع فرقة الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الوطني انيمني . كما رأى فرقة أخرى من جنود النظام مصطفىة خارج السور للاستقبال ، وكان في مقدمتها ضابط ترتي ، ممن تبقى من عسكر الدولة العثمانية من أولئك الذين غدر بهم الزمان وسفى عليهم التراب فترجل الريحاني ورفاقه من على ظهور بغالهم ليردوا التحية بمثلها . ودخلوا فناء القصر ومشوا بين صفوف من عساكر اليمن المسترسلي الشعور ، واللابسين القمصان والعمائم المصبوغة بالنيل ، وكانوا مسلحين بالبنادق والجنبات . وكان يتقدم الريحاني ورفاقه، كاتب سر الأمير واثنان من رجاله حتى وصلوا باب القصر حيث أوقفهم الحارس الذي نادى بكلمة ، حارسا آخر داخل القصر فجاء الجواب بالدخول (٢٩) .

دخل القصر ، فبدأت مراسم استقبال من نوع آخر ، الوجه الثاني للاستقبال ، يبدع وصفه من أجري له وعائنه وعاناه، قال فيلسوف الفريكة : « دخلنا وكانت بداءة الرعب والكرب ، صعدنا في درج لولبي ، مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحد أو اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك في أجسامهم كنت وأنا اتمس طريقا اتمثل القلعة بل السجن في ذاك القصر واتصور نفسي اسيرا فيه ، فجاء الاضطراب مع التقرز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري » (٣٠) .

عندما دخل هذا القصر أو على الاصح هذه القلعة ، قال بأنها كانت بداية الرعب والكرب والامر لا شك كذلك ، فقد أفضى به المدخل الى درج لولبي ملتو مظلم ذا ردهات بها عسكر مسلح . منظر بالتأكيد لا يسلم الا الى التوجس والترقب خوفا . وكان مضطربا ولا لوم . وتخيل نفسه اسيرا في هذه القلعة أو السجن . فهل كان في غير الخيال كذلك ؟ هل اوقف أو سجن في ماوية ، كما روت الوثيقة ؟ وتكون هذه القلعة الحصينة المنيعة المظلمة المكان المشؤم ؟!



ولكن ليكمل الريحاني قصته مع هذه القلعة أو القصر فما سيأتي كان أدهى وأمر ، وكما كان هناك فاتحة الطاف فهنا فاتحة على نقيضها : « وما هي الا فاتحة الكروب ، فعندما وصلنا الى الطابق الاخير أوقفنا الحارس ثانياً أمام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، وهواؤها وقد امتزج بالدخان الكثيف الفاسد ، وأرضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة حيطان عمائم بيضاء كبيرة ، أصحابها جالسون على الارض صفوفاً ملزوزة ، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون وفي الزاوية عند منضدة صغيرة ، الى جانبها مداعة ، بين أكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد على بن الوزير (٢١) أمير جيش الامام في لواء تعز .

صافحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فأشار الى فتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين ينظر الينا شزراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر ، وما أظن أننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح أو التساهل (٢٢) .

ان الداخل على مجلس كهذا ، سيصاب ولا شك بالانقباض والتوتر ، خصوصاً اذا سلك طريقاً لا يقل هيبة عن هيبة ورزاة هذا المجلس الموقر ! واذا قوبل الضيف القادم بشيء من عدم الاكتراث وحرمة بعضاً من حقه لياقة الاستقبال والتوديع ، ومن أبسطها النهوض له والبشاشة في وجهه عند المصافحة ، وما حظى الريحاني الا بالاخيرة منها ، فانه ولا شك سيزداد وحشة على وحشته ، ولكن كما قال الريحاني : « في مجالس القات تقل الترهات » (٢٣) .

ولكن عدم الاكتراث يهون عند الاحراج ، ذلك الاحراج الذي ضاهى الاستجواب . وأين ؟ في غياهب قلعة موحشة كالسجون . ففيلسوف الفريكة بدل أن كان الضيف المحتفى به غدا الغريب المجهول المشكوك في أمره أو بالاحرى قد فهم خطأ وفي الحالتين هو الريب الذي لا يقين فيه ، « هل أنت حسني أو حسيني ؟ » .

لندعه يتولى زمام الحديث عن موقفه هذا العصيب وما لاقاه فيه من مباغته ومفاجأة ، قال : « بعد ان سلمنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبد الله العرشي وفيه يعرفه اما خطأ واما تلطفاً ، الى السيد أمين الريحاني ، فظنني حضرته من أشرف المسلمين واراد ان يعرف الى أي الفرعين أنتسب ، فسألني قائلاً : هل أنت حسني أو حسيني ؟ .



وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، قبلبل خاطر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق وصور كلها سود تنذر بائلاء ، فلم ينذرنا الانجليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرنا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلمائهم ، وفي قلعة ظلماتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العمائم بل أحد ، ولا تزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل أنت حسني أو حسيني ؟ « (٢٤) .

من عظم الصدمة صار فيلسوف الفريكة يحدث نفسه وكأنه يهدي حاشا ماكان يهدي ، بل كان يحاول ان يهدي نفسه الى مخرج سليم منج من هذا المأزق . وهو يحاور نفسه ، كان كفريق يبحث عن قشة لينجو بها ، وهذا طرف منه : «جاوب يافتى . هل تكذب على الامير فتنتسب ، اذكر اني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذ حقبة دينك - اصدقه بالخبر يا رجل ولكن - هل تعلن امام الجمع الزيدي الرهيب مارونيتك او مسيحيتك او درزيتك ، قد يوقفونك فيأسرونك ..

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهرباء ، وانا اثناءذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفطور» (٢٥) .

جرت هذه الصدمة في أعماق فيلسوف الفريكة ، مجرى الكهرباء حتى قبل ان عرف اليمن عصر الكهرباء ! ولكن يظل السؤال هو السؤال كيف تخلص من هذا الموقف الحرج ؟ هل كذب وانتسب ؟ أم صدق واحتسب ؟ والصدق منجاة . أم انه وهو بين جمع ربما ضم بين صفوفه غلاة متعصبين ، لاذ بالمدارة فواري ؟ أجل دارهم ما دمت في دارهم . هل فعل هذا وحدثهم من الامر ما يعقلون ؟ راغ الفيلسوف الى عمله ، الى فكره ، فما وجد سوى ذاكرته وبديته منجدتان مسعفتان . قال كلمة ، وان كانت ليست كل الحقيقة ، الا انها كانت صافية صادقة وأمانة ، واردفها ببیت من الشعر كان فيه التأييد والتعصيد . قال الريحاني ، وهو يتوق الى الخلاص : « ولكنه سبحانه ، بعد أن غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح علي فقلت مجيبا : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائما في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :

ولكل ربع من ربوعك حرمة      وهوى تغفل في صميم فؤادي (٢٦)

هل اقتنع ابن الوزير بهذا الجواب او فهم مغزاه ؟



يقول الريحاني في هذا الصدد : « اظن ان الامير استحسن الجواب او انه احسن امام العلماء المداراة » (٢٧) .

« استحسن الجواب » الاستحسان ، ولا شك ، درجة من درجات القبول ، وليس القبول كله . و « احسن المداراة » فكما كان الريحاني لبقا مداريا في اجابته ، نعل ابن الوزير كان أيضا كذلك ، ولكن القبول التام لم يحن بعد . ويقض الله له رجلا مال اليه قلبه مذكرا أول وهلة ، فكان له في هذا المجلس ، نعم النصير وخير المعين . قال الريحاني : « وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بشى لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامة ، وتبادلنا وياها الثقة والولاء . فقال يعقب على جوابي مخاطبا الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والافتناع وغير الحديث .. (٢٨) .  
اخيرا افتنع الامير ، أو على الاصح تبين له أمر الريحاني وشخصيته الحقيقية . وقد جاء هذا صراحة ، فيما بعد ، على لسان الريحاني حيث قال ذات مرة وهو في صنعاء : « وبيننا انا افكر ذات يوم في ما أقول لمولاي الامير في ماوية وقد سألني احسني انت أم حسيني ، وعرف بعدئذ اني مسيحي » (٢٩) .

أيد هذا وأكده ختام هذه الجلسة ، كان ختامها مسك ، الصلاة ، حان وقت المغرب . فاستأذن ليفادر ورفيقه قسطنطين المجلس ، فما عجب الامير ولا دهش لذلك ، وفي هذا اشارة لمعرفته باختلاف الدين ، حيث لم يطلب منهما البقاء لمشاركتهم صلاة الجماعة . قال الريحاني : « ثم قلت وأنا أتوق الى الهواء : قد يريد الامير أن يصلي المغرب . فأذن لنا بالانصراف وأمر كاتب سره ورجاله أن يصحبونا الى المضيف ، ويعتنوا بأمرنا . صافحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف أحد من العلماء » (٤٠) .

غادر المجلس بعد أن أنعم عليه في أول الجلسة بلقب ما برح أن فقده في آخرها ولكنه فاز من الفنيمة بالاياب خلص من المجلس خلاصا عده فوزا مبينا . وغادر الى حيث قصر الضيافة ؛ قلعة أخرى ، شاهقة مظلمة . وناما فيها تلك الليلة .

### هل أوقف الريحاني فعلا في ماوية ؟

هنا وقد أشرف على مغادرة ماوية يجدر مناقشة ما جاء في تقرير القنصل الذي قال فيه بأنه قد أوقف فيها .



بالقاء نظرة عليه في هذه البلدة وخلاصة ما حدث له فيها وانطباعاته عنها ، يلاحظ انه ما كان أبدا مرتاحا ، ولا هدا منه البال ، بل كان منقبض النفس مضطرب الخاطر ، ولعل ذلك راجع الى سببين :

**الاول -** انه عندما أشرف على ماوية ووصلها ، كان أصلا مهيتا نفسيا لاي اضطراب أو قلق ، كان مهيتا نظريا وواقعا . نظريا ؛ من نيويورك مرورا بالقاهرة وعدن وحتى لحج ، كلها نذير وتحذير ، عن اليمن وجبال اليمن ، حتى تشرب هذه الافكار وتسقلت الى أعماق نفسه ، فتوقع أن يد المنون أقرب اليه من جبل الوريد . . . واذا كان هذا عن اليمن عموما ، فقد كان يحمل فكرة سيئة سوداء عن علي بن الوزير نفسه (٤١) . أما واقعا ، فقد واجه الخطر أو ما اعتقد ، خطأ ، انه الخطر ، في بلاد الحواشب ، وكان كما تقدم قد حذر كل التحذير منهم ومن ديارهم .

**الثاني -** احداث ماوية فبعد انتهاء مراسم الاستقبال خارج القصر ، وبمجرد أن دلف الى داخله ، بدأ الاضطراب والقلق يعود اليه ويزداد كلما توغل في صعود ذلك الدرج المظلم حتى كانت طامة الختام في ذلك المجلس غير المريح أبدا ، والذي بدا فيه متوترا .

لا شك أن هذا المجلس المرير ولد وحشة بينه وبين الامير بل بينه وبين البلدة عموما .

بيد أن ما قالته الوثيقة عن أنه قد أوقف أو حبس فيها أمر لا أساس له من الصحة ولا تؤيده احداث اقامته التي بدأت وانتهت بشكل عادي وان شأبها ، كما تقدم ، بعض المواقف المحرجة والالتباس ، فهناك عدة عوامل ستذكر لاحقا ، تنقض ما جاء في هذه الوثيقة .

### **الريحاني . لماذا حسني أو حسيني ؟!**

وبعد أن غادر تلك القلاع والحصون ، واصل الريحاني السير والتصعيد في جبال اليمن السعيد ميمما شطر مدينة قديمة عريقة ؛ مدينة اب .

ولكن قبل أن يوغل في السير والسرى يقتضي الامر التريث للنظر في الوثيقة التي قالت بتنكره بشخصية سيد ، هنا عند مفادته ماوية .

وقبل هذا ، ولما يبدو بينهما من ارتباط وصلة ، قد يسأل المرء نفسه لماذا سأل ابن الوزير ، الريحاني ذلك السؤال المحرج ، هل أنت حسني أم حسيني ؟ مع علمه ومعرفته التامة به وبرحلته ؟



هل بدر منه ، مثلاً ، قول أو عمل أوجب مثل هذا السؤال ؟ الريحاني ، كما تقدم ، أجاب بأن الأمر التبس على ابن الوزير ، بعد أن قرأ خطاب توصية العرشي به والذي لقبه فيه ، أما خطأ أو تلطفاً ، بـ « السيد » فظنه من أشرف المسلمين وأراد أن يعرف إلى أي الفرعين ينتسب إلى أحسن أم الحسين ، وهكذا كان . وهذا كلام معقول مقبول إلى حد ما ، فالمرء أحياناً ، مهما كان عنده من معرفة وإطلاع مسبق ، يتجاوب مع حاضره ، مع ما قد يباغته ، فلهذه سؤال كان عفو الخاطر واللحظة عابراً ، معبراً عما تبادر إلى ذهنه عندما قرأ هذه العبارة ، « السيد أمين الريحاني » فجاء سؤالاً تلقائياً ما أعطاه عمقاً لا في التفكير ولا التذكر ضارباً صفحاً عما لديه من معلومات لعلها تشوشت بهذه المفاجأة ، ولعل كلمة « سيد » تفاعلت مع ما كان متخمراً ومترسخاً في فكرة من عرف وتقليد .

نعم ألم يكن آنذاك ، جل كبار أهل اليمن ، بل وكل زعيم ، في أغلب الحالات ، سيد من السادات ؟ .

تم ألم يكن أمين الريحاني ، في تلك المناسبة ، له شأن ومقام رفيع ، كيف لا ، وهو الضيف والزائر لكبير السادات هناك : لإمام اليمن . ثم ها هو ذا سفيره وممثله في عدن يلقيه فوق بالسيد . فلعل ابن الوزير فهمه وأخذه مأخذاً قريباً من تصويره وما اعتاد عليه ؛ سيد من السادات . ويزيد في هذا الالتباس غموضاً كون الريحاني عربياً ، فما الفرق ؟ هذا ، بالإضافة إلى احتمال آخر ، فلعل المعلومات التي وصلت إلى ابن الوزير ، عن الريحاني ، لم تشر إلى دينه ، وهو أمر عادي ، بل أشارت فقط إلى فضله وريادته في حب العرب ووحدتهم ، وما جاء في خطاب توصية العرشي به إلى الإمام مثال على ذلك (٤٢) .

فهل يا ترى هذه الأمور جميعاً ، متداخلة ، حامت على رأس الأمير في ساعة من مجلس القات ، فجادت قريحته بهذا السؤال ؟ وأنت سيد من السادات فإلى أي منها يا فتى تنتسب ؟ وعادة الانتساب ، في الجزيرة العربية ، أمر معروف ومألوف ، فعادة ما يسأل المضيف ضيفه إلى أي قبيلة أو فخذ ينتسب وأحياناً ينتسب الضيف من تلقاء نفسه ولا غضاضة في كلتا الحالتين . وعل ابن الوزير في سؤاله ذهب هذا المذهب ، فبعد أن تصور خطأ أنه سيد أراد أن يعرف ، فقط ، إلى أي فرع يرجع . والريحاني ، وهو بعد حديث عهد بالجزيرة العربية وطباع أهلها ، حيث كانت رحلته الأولى إليها ، ربما جهل هذه العادة فكبر عليه السؤال وضاق به ذرعاً . فأتت برقية ابن الوزير ، التي قال الريحاني أنه تلقاها منه وهو في اب (٤٣) والتي أعلن فيها أسفه لفراقه ، مشيرة من طرف خفي إلى أسفه أيضاً عما بدر منه تجاه الريحاني في مجلس القات ذاك ، وسؤاله الذي كان في غير محله .



والخلاصة ، ان الريحاني خلص من ذلك المجلس ، بل من ماوية كلها بشخصيته الحقيقية ، التي لا لبس فيها ولا تنكر . اما ظن ابن الوزير ، وفهمه الخاطيء ، في اول المجلس ، اياً كان ، فهذا شأنه ، ولا دخل للريحاني فيه ، حيث لم يدع ، ولم ينتحل اي شخصية اخرى حتى الان .

### في الدرب بعد ماوية

اما حاله وهو يغادر ماوية حيث بدا بالتنكر طبقا للوثيقة ، فقد كانت ، والحق يقال ، حال لا تسر خاطر ، جللتها الكآبة ، وحف بها التعب والسأم من كل جانب ، وهاكه يصف طرفا منها : « سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال ... مصحوبين بحرس من جنود الامير . . فتهدنا في ضوء القمر ساعة عادت فيها اليّ الاحلام ، وأنا على ظهر اللدابة شطران ، شطر نائم و شطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فأظنه في قارة وانا في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله يامقدم ، فيخيل الي اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها اشباح تتكلم العربية » (٤٤) .

واصل فيلسوف الفريكة على حاله البئيسة هذه ، السير ، بل السرى حتى وصل الى قرية « الشيخ صلاح » في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وقد أخذ منه التعب والجوع كل مأخذ ، فنام ورفاقه ساعتين لاغير ثم أدلج ثانية حتى شروق الشمس . اشرق يوم جديد ، وكان يوم مشرق على الريحاني وقافلته . أجل مع اشراقة ذلك اليوم سار وربعه في اراض خضراء تفوح من ادغالها روائح النباتات العطرة ، ومر بواد من أجمل الاودية وأخصبها ، يجري الماء النمر فيه سلسبيلا ، كيف لا ، وهو وادي الذهب . وعندما صعد من هذا الوادي في ثقل المحرس زاد الحسن والجمال ، فبعد أن كانت ، بالامس مكفهرة عابسة ، اشرقت الدنيا في وجهه واخضرت ، وتموجت ربيعا طلقا ضاحكا ، داعب مشاعر واحاسيس فيلسوف الفريكة فذكره بوادي الفريكة ونسيمها ، ذكره بلبنان وجبالها الخضر . فقال ، بعد أن وعي ما قال : « ... فأشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول المزروعة ، ومن القمم الخضر والجرد دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما يدعى « نجد الاحمر » . . . وتعددت حولنا النباتات والرياحين التي ذكرني بعضها بلبنان فهو ذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادغال شجيرات من البطم والفار » (٤٥) .

### على مشارف اب

واجمل من هذا رأي من على قنة هذا النقيض ، « اب » تلك المدينة الاصلية



الكريمة التي سعد فيها الريحاني وتنفس الصعداء . واذا كان يومه هذا مشرقا ، فقد كانت أيامه في أب كلها سعد واشراق ، أجل فقد استقبله أميرها في ساحة الاستقبال وأكرم وفادته .

أقام الريحاني في ضيافته يومين اثنين ، قضاها ورفاقه في بحبوحة من العيش ويسر الامر ، وبعدها كان الوداع والرحيل . وكما كان لأب ساحة استقبال ، كان لها ساحة مفادرة ووداع . سار الريحاني وصحبه صوبها يصحبهم أمير البلدة اسماعيل باسلامه ، حيث ودعهم وزودهم بما يؤمنهم ويطمئنهم من وحشة الطريق ، قال الريحاني مقتبضا : « . . . وأرفقنا الى دمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط تركي فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى أن يزداد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء » . (٤٦) .

### أين التنكر؟!

والآن وقد غادر اب ، قد يسأل المرء نفسه أين التنكر ؟ ونجيل النظر فيما مضى من الدرب ويرتد الطرف بالنفي المطلق .

ولكن بالرغم من هذا ، فالقنصل ، يصر على تنكره ، واستمراره بهذه الهيئة التنكرية « . . . ومع ذلك ، سافر كسيد ، حتى وصل صنعاء ، حيث كشف الامام حالا شخصيته الحقيقية » .

وبين عوامل النفي والاثبات ، لا يجد المرء بدا من الاستمرار في متابعة المشوار ، وسبر غور هذا الامر حتى منتهاه .

### يريم

واصل الريحاني رحلته في الجبال ، ميمما مدينة يريم مارا بوادي المرفد ، الذي يفوق وادي الذهب جمالا وخصبا ، أجل فقد شاهد فيه لأول مرة شجرة البن . تلك الشجرة التي تغوص جذورها في أعماق يمن الماضي السعيد . ان شجرة البن هذه او شجيرتها ، لا تذكر الا باليمن ، ومخا اليمن ، وغابرها التليد . ثم صعد الى أعلى نقيلا ، نقيلا جبلا سمارة ، حيث شاهد تحته لوحة ربانية من الاودية والقيعان الجميلة الخضراء والجرداء منها على السواء ، ومن بينها تبين يريم والتي فيها ، وعلى مشارفها ، كان له من التشريف فوق ما كان ، قال وقد وصل المدينة : « اما استقبلنا في يريم التي كانت تدعى مريمة في عهد حمير فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . فقد خرج لملاقانا أولاد المدرسة مع شيخهم الفقيه فاصطفوا الى جانب الطريق ينشدون ويهللون مرحبين » (٤٧) .



## ذمار

وفي انيوم التالي ، قبل الفجر ، غادر الى ذمار (٤٨) . حيث وصلها عند الظهر ، وكان يوم جمعة ، فلم يتمكن من مقابلة عبد الله بن الوزير (٤٩) ، أمير الجيش على لواء صنعاء ، والذي ندب لاستقباله ، على مشارف المدينة ثلة من الجنود ، وبعض الاعيان ، والفرسان الذين كانوا يمتطون صهوات جيادهم ، وكان استقبالا فخما ، شعر الريحاني ، وهو على بغله المتعب الواهن ، بالهون والصغار (٥٠) . دخل المدينة وقصد قصر الضيافة حيث استراح ، وفي المساء ذهب لمقابلة عبد الله بن الوزير في مجلسه ، وكما فعل ابن عمه علي بن الوزير ، في ماوية فعل هو نفس الشيء اذ ظن الريحاني مسلماً ، ولكن هذه المرة ، دونما احراجات (٥١) .

وعلى كل فاقامته في ذمار ، لم تطل . فبعد هذا المجلس لم يذكر أي شيء آخر يتعلق باقامته فيها ، حيث غادر في صبيحة اليوم التالي .

## واخيرا ... هاهي ذي صنعاء

واصل الريحاني رحلته ، منطلقا ، هذه المرة ، لا يلوي على شيء ولا يثنيه شيء ، صوب ربيعة الجبال ، وناطحة السحاب ؛ صنعاء .

في هذه المرحلة الاخيرة من الطريق ، لم يتوقف الا مرتين مرة في وعلان ، وهي قرية صغيرة تبعد عن صنعاء خمسة عشر ميلا ، بات فيها (٥٢) ، وغادر في الصباح الباكر ، حيث وصل حزيز ، وقت الضحى فاستراح فيها ورفاقه ، وتناولوا طعام الفطور ، وحزيز هي المحطة الاخيرة على الطريق قبل صنعاء . وقد وصلها في الثامن عشر من شهر نيسان عام ١٩٢٢ ، وكان قد غادر عدن في الاول منه . ثمانية عشر يوما أمضاها في السفر ، ستة منها قضاها منعما ، مع الهم والكرب ، في لحج ، وما تبقى صحبته في شد وضعن ، وسير في بطون أودية متشعبة ، وتصعيد في جبال عالية وعرة ، لله أنت يا فيلسوف الفريكة ! لا بد من صنعاء وان طال السفر (٥٣) .

اجل اثنا عشر يوما قضاها في رحلة ، كما قال : « مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من الحسنات والمستغربات » (٥٤) ولكن الامور كلها ، معقودة ومرهونة ، في النهاية ، بخواتمها ، ونتائجها . فبعد جهد ، وطول عناء ، هاهي ذي ، في الافق البعيد ، تتلألا عاصمة اليمن كله قديمه وجديده مدينة صنعاء . فهل تنسى المشقات بهجة الظفر بما كان السبب فيها ؟ الظفر ببلوغ صنعاء . وهل يذكر غمرة الفرح برؤيتها ما كاد ان



ينساه فيلسوف الفريكة من الحسنات والمستغريات ؟ نعم ان تلك النفيسة الجديدة ، صنعاء قد أنسته جل غرائب الطريق ، كما أنسته كل وعشاء السفر وشدائده ... « اثنا عشر يوما في المشقات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها » (٥٥) .

وصل امين الريحاني ، ومن في معيته صنعاء ، في رائعة النهار ، وقت الظهر قال : « وصلنا الى صنعاء الظهر فلاقانا على مسافة ميل خارج السور رجال الامام وثلة من جنوده » (٥٦) .

وقد جرى له في صنعاء ، استقبال رسمي لائق ، في الابهة والفخامة يماثل ما سبقه من استقبالات أو يزيد عليها . كما أعد له نزلا كريما يناسب مقامه . وقد كان الامام عند وصول الريحاني الى صنعاء متفيا عنها ، حيث ظل في نزله بضعة أيام ينتظر عودته (٥٧) .

### الريحاني في مجلس الامام

وبعد أن عاد الامام هيا الريحاني نفسه للقاء المرتقب المهيب . فعلى أي صورة ياترى تهيأ ليمثل بين يدي هذا الامام ؟ أعلى صورة سيد مفضل ، كما قال القنصل الامريكي ؟ ان كان كذلك فسيكون يومه يوما عصيبا وحسابه فيه سيكون جدا عسيرا ، فسيكشفه الامام ، ويضيق به المكان ، ويكون حقا حديث الوثائق والركبان ! .

امين الريحاني و قل في هذا المقام فيلسوف الفريكة ، وهو يخطو الخطوات الاخيرة نحو مواجهة الامر الذي كان من أجله ولأجله ، كل ما مضى من جهد وما تكبد من مشقات ، وهو يصعد العتبات الموصلة الى مجلس الامام ، واصل هذه الطريق القصير ، حيث كان نزله جناحا في نفس القصر (٥٨) ، قائلا أنه لم يشاهد أيا من تلك الابهة العسكرية التي شاهدها في طريقه الى صنعاء (٥٩) حاجب واحد فقط ، فتح نه الباب فاذا هو وجها لوجه أمام إمام اليمن وحاكمها المتوكل على الله يحيى حميد الدين (٦٠) . قال يصف الامام ، وقد رآه لأول مرة : « دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه ، له فم كفم الطفل صغير بارز ، الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طورا منك وتارة تبعده » (٦١) .

أما عن المصافحة والسلام ، فقد كان ، رحم الله الامام ، دون قدر الضيف والمقام .. « صافحناه مسلمين فرد السلام مرحبا بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش .. » (٦٢) .



وهكذا كان قدر فيلسوف الفريكة لا قدره ، أن يعامل ضمن فئة الدرجة الثالثة في سلم الاستقبال ، كما سيأتي ، ولا فخر ولا تشريب عليه .

هو ذا اذن أمين الريحاني ، والامام يحيى حميد الدين وثالثهما قسطنطين ، في ايوان ، بل ديوان صنعاء جلوسا ، متقابلين . كان في نية فيلسوف الفريكة ، عند المثل أمام الحضرة الشريفة ، كما قال ، أن يصول ويجول في خطبة حماسية تليق بحرارة الاستقبال ، ولكنه ، وقد وجده بردا وسلاما ، عدل عن هذا ، فحدثه بها جالسا (٦٣) ، ومما قاله فيها : « فاني ، وان كان لبنان وطني الصغير ، وسوريا وطني الكبير ، أنتسب ائى البلاد العربية ، وطني الاكبر .. وأني ، وان كانت المسيحية ديني ودين أجدادي ، أدين بدين كل من أقام حقا وأزهق باطلا .. ولا غرو اذا جئت بلاد اليمن حاجا .. وقد منعت عني تلك المقدسة كعبة الاسلام الاولى » (٦٤) .

ثم واصل خطبته أو كلمته مبينا شيئا من أغراض رحلته وذاكرا بعض الشيء ، عن رفيق هذه الرحلة ، صديقه قسطنطين ، وختمها بشكر الامام على ما لاقاه من حفاوة واکرام ، وهو في الطريق الى صنعاء ، فبادله الامام انشكر بالشكر ، ثم قام قسطنطين ، وألقى قصيدة عصماء قابلها الامام بالاستحسان والثناء (٦٥) ثم .. ثم ماذا ؟ ثم كانت فاتحة الكرب والصعاب ، حان دور تقديم الكتاب ، كتاب التوصية والتعريف بالريحاني من الملك حسين ، كتاب تعريف لله دره ! خلا من أهم ركن فيه . ! قال الريحاني متحدثا عن سبب من أسباب نكبته ومحنته في صنعاء : « ثم قدمنا نحضرته كتابا من جلالة الملك حسين ففضه وقراه ثم قال : ولكن الكاتب أهمل الاسم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضا أو ذهولا . أما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جدة كان قد كتب كتاب تعريف أحمله الى حضرة الامام ، فلم يستحسنه جلالة الملك ، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب كتابا آخر ؟ يعرف فيه الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ الفاضل والعربي الصميم الخ وأغفل عمدا اسمي لاسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئا من غوامض السياسة الهاشمية .

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ ، ونحن ، لخاطر جال في ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، نقاسي ما سيجيء ذكره » (٦٦) .

وكتاب تعريف وتوصية كهذا ، لا شك سيكون من كتب من أجله لا محالة ، مدعاة للشك والريب ، وهو الامر الذي حدث بالفعل ، كما سيأتي في نهاية المجلس . ولكن بالرغم من هذا فقد اتصل الحديث بين الامام والريحاني ، وكأن شيئا لم يكن .



واصل حديثه عن العروبة والعرب قائلا : « وأنا نحن المسيحيين في سوريا مثل العرب المسلمين تجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم ، ولا يجمعنا الدين » (٦٧) .

واستمر الحديث بينهما على هذا المنوال ، ثم بدأ الريحاني في الانتقال من البديهيّات في القول ، إلى الجوهر وبيت القصيد منه ، . . « ثم انتقلنا من التعميم إلى التخصيص - من مجمل القضية إلى اجزائها - فكان الامام أكثر اهتماما لذلك . . . واني اذكر كلمته عندما اشرنا إلى المهمة التي انتدبنا انفسنا لها فسالنا قائلا : هل عندكم كلام مضبوط ؟ » (٦٨) غير أن دخول الزائرين ، حيث كان الامام في مجلس عام ، قطع حبل الحديث ، كله المضبوط منه وغير المضبوط منه وذلك بعد مرور الامام يده على فمه ، مشيرا بالسكوت ، فتحول الريحاني إلى المجلس ومن دخل المجلس متأملا الزائرين وهيئاتهم ، كما بين كيفية استقبال الامام لهؤلاء حيث كانت متفاوتة متباينة ، حسب الدرجة والمقام ، أجل فالناس مقامات ! فأحد فز الامام لمقدمه ، واستقبله ، استقبال الند للند واقفا ، وآخر كان استقبله بنصف وقفه ، وآخرون استقبلهم ، وهو مستوٍ على الطنافس بأرض الله قاعدا ، وآخرون بعد ذلك شرفوا ما أبه الامام لمقدمهم ولا التفت اليهم (٦٩) .

قال الريحاني ، وهو يعدد الزائرين الداخلين : « . . ثم ذلك الا فرنجي أي النمساوي الموكل بمعمل الخرطوش ، أي ( جرجي ) المشهور في اليمن ، فقدمه الامام الينا قائلا : هذا منكم . » (٧٠) يعني مسيحي مثلهم ، حيث لم يكن عربيا . وهو الوحيد الذي قدمه الامام اليهم .

كان اليوم الاول من وصول الامام إلى عاصمته ، وكان الوجهاء والاعيان يتوافدون عليه للتشرف بالسلام والتهنئة بالسلامة . وكان الامام ، وهو الممسك بزمام الحديث في المجلس ، يعرف الزوار بالغربيين فيه ، الريحاني ورفيقه قسطنطين قال : « غصت القاعة بالمهنيين ، وكان حضرته يعرفهم الينا فيقول : هذا امين ، وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان » (٧١) .

وان غص المجلس بالزوار والمهنيين ، وانقطع الحديث الخاص بين الامام وضيّفه ، فما انقطع العام منه .

تجاذب الامام والريحاني أطراف الحديث ، وكان ذا شجون ، تطرق إلى اليمن وحموده ، وسكانه ، ثم تدرج إلى السياسة العربية ، وتطور أكثر ، فطال أوربا ، وعبر



المحيط الى السياسة الامريكية ، مستقرا في البيت الابيض ، حول رئيس 'مريكا الاول جورج واشنطن . كل هذا والامام يحيى حميد الدين مطرق منصت ، فيلسوف الفريكة ، وهو يجيب على أسئلته في حديث شيق رائع ، أو على رأي أهل اليمن « باهي ناهي » أبرق له جبين الامام وأشرق (٧٢) وما توقف اثناء ذلك ، كما قال الريحاني ، عن تخزين القات ، وشرب الماء والنظر في الكتب والعرائض التي تقدم اليه، تلك التي كان من بينها واحدة كان انشؤم طالعها! ما استبشر الريحاني بها ولا بعرضها. قال ، وقد أوجس منها خيفة : « ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها أنظر اليه وأراقب عينيه ، وفيهما يبدأ الانفجار أو ما يشير اليه . انما الغريب أن قد تشهر العين الحرب عليك في حين أن الفم ، مثل رسول السلم ، يبسم لك مطمئنا . كثيرا ما شاهدت هذه السيماء المتناقضة فيه . ولكنه في ذلك الحين تغير تماما فساد الغضب في نظريه ، وقلص العنف شفتيه فأستأذنا بعد أن فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فأشار بيده اشارة سريعة جافية أن اذهبوا اذهبوا ، ولم يفه بكلمة سلام واحدة . خرجنا كالمطرودين ، وبقينا في أمر هذا الامام حائرين (٧٣) .

ختم المجلس كان مسكا ، ولا تنافس فيه ، بل كان أشد وقعا على فيلسوف الفريكة من برودة الاستقبال في أوله . أجل غادره بحال لا تليق بمن طوى الليالي والايام في السر والسري ، مصعدا في جبال اليمن من أجل اقوصول اليه ؛ الى هذا المجلس ، وصاحب المجلس . ومرد هذه المغادرة غير السارة ، كما هو واضح ، أمران آخران لا علاقة لهما بالتنكر ولا المتكرين ، فما كان هناك متنكرا ليكتشفه الامام ويكشفه كما ادعت الوثيقة .

### الرد والتنفيذ :

تابع القاريء أمين الريحاني حتى خروجه من هذا المجلس فما وقف على اثر لتنكر على الاطلاق . وبذا تكون هذه الرواية مجرد تهمة لا تثبت أبدا أمام الشواهد التالية التي تدحضها :

١ - بادىء ذي بدىء ما ابطن الريحاني التنكر ولا نواة أصلا ، والا فبأي صفة أرسل من بور سودان برقيته التعريفية الى العرشي؟! (٧٤) .

٢ - الهيئة والمظهر : اتجه من مدينة جدة ، هو في لبسه الافرنجي المعرب ؛ بدلة افرنجية وعلى رأسه غترة وعقال ، ورفيقه قسطنطين في زي ضابط رسمي . واستمر



على هذه الهيئة حتى صنعاء ، وبعدها في الجزيرة كلها (٧٥) . ويثبت هذا صوره  
العديدة ، ومن أهمها صورة له ، بهذا الهندام ، في مدينة اب مع أميرها بإسلامه (٧٦) .  
وهذه المدينة كما مر ، تقع في قلب المنطقة التي زعم تنكره فيها . وما لفت انتباه أطفال  
صنعاء الذين تجمهروا عليه في السوق الا هذه البدلة ، ولو كان مندسا بجلباب سيد  
فماذا سيثد انتباههم ، وهم كل يوم يشاهدون السادة في كل حي وزقاق (٧٧) .

٣ - التصرف قولا او فعلا : مجلسا ابن الوزير والامام دخل وخرج منهما  
بشخصيته المعروفة لا تلبس فيها ولا انتحال ، لا قولا ولا عملا . وهكذا كان على  
طول الطريق .

٤ - رحلته ، عبر جبال اليمن وحتى صنعاء ، كانت بكل مقاييس ذلك العصر ،  
رحلة يسودها النظام والترتيب ، والاعداد المسبق والتنسيق فهناك المراسيل التي  
تسبق القافلة لاشعار أمراء وحكام البلدان على الطريق بقرب قدومها ، ثم هناك  
كانوا معه منذ بداية الرحلة ، كمرسول العرشي ، وبعض السادة اليمنيين الآخرين .  
الاستقبالات الرسمية التي لا تجرى الا لمعرف معروف (٧٨) .

٥ - يصعب التنكر بل ربما يستحيل مع وجود مرافقين رسميين وشبه رسميين  
بالإضافة الى هذا فقد كان بين حرسه بعض الجنود النابيين الذين لا يتوقع المرء لأي  
تنكر أن يمر بينهم بسلام . كما كان الريحاني ، في الطريق من مأوية الى صنعاء في قافلة  
تشبه الموكب هو كبيره ، وكل الانظار متجهة اليه فأنى له التنكر أو حتى التفكير فيه (٧٩) .

٦ - عند استعراض بعض مؤلفات المؤرخين اليمنيين الهامين نجد مؤرخا مشهورا  
كالواسمي ، بالرغم من معاصرته لرحلة الريحاني ، وتطرقه لأخبارها خصوصا تلك  
المتعلقة بالامام يحيى ، الا أنه لم يأت على أي ذكر لقصة التنكر المزعومة (٨٠) .

وحكاية غريبة عجيبة كهذه لا يتوقع أن يجهلها أو يتجاهلها مؤرخ كالواسمي ولكن  
كيف يتأتى لمؤرخ صادق تدوين خبر حادثة ما حدثت قط ؟!

٧ - هناك نقاط ضعف تقبع في ثنايا الوثيقة نفسها ، فهي تتهم الريحاني بالتنكر  
مباشرة بعد مغادرته لمأوية ، ولكنها أيضا تقول بأن ابن الوزير ، حاكم مأوية ، نصحه  
بأن لا يفعل ذلك ، وأن يسافر مظهرا شخصيته الحقيقية ، وهنا تناقض فكيف علم ابن  
الوزير بتنكر الريحاني الذي لم يقدم عليه الا بعد مغادرته البلدة ؟ وبالتالي كيف تمكن  
من نصحه ؟ وهذا يعني عدة افتراضات فأما أن يكون الريحاني ، وهو بعد في مأوية ،



تصرف قولاً أو عملاً أمام ابن الوزير أو علم به أو بدر منه ما ينبغي على التنكر مستقبلاً، الأمر الذي لم يحصل قط . أو أن يكون ، قبل مغادرته أيضاً ، أسر إلى ابن الوزير بنية التنكر ، وهذا إلى الاستحالة أقرب ، فكيف يشق به . وما كان بينهما إلا النفور والوحشة؟! أما الاحتمال الأخير فلعل ابن الوزير رافق الريحاني إلى خارج البلدة مسافة لوداعه ، وبذا يكون شاهد هذا الأمر بنفسه وبالتالي نصحه ، ولكن المصادر لا تذكر أنه ودعه ولا حتى داخل البلدة . وبذا تنتفي معرفة الأمير لا بالتنكر المزعوم ، ولا بنية الإقدام عليه . والنتيجة تظهر نقطة ضعف وتناقض في الوثيقة .

ولكن هل كان الريحاني بحاجة إلى أن يتنكر؟ ومظهره وجوهره عربي يماني صميم لا يحتاج إلى تغيير ولا استبدال؟ والأمن ، قطع العرشي على نفسه عهداً بإيصاله إلى صنعاء آمناً سالماً ، وبر الرجل بوعده فزوده بالحرس الكافي ، الذي جلب إليه الأمن والاطمئنان . ولا يمكن أن يفكر في التنكر أبداً من أمن مخاطر الطريق . فما من متنكر إلا وكان الخوف يحدوه ، وعدم الأمان .

أما منشأ التهمة ، فإن المنطقة التي زعم تنكره فيها امتدت بين مجلسي ابن الوزير والإمام ، وبذا فقد حامت أطرافها حولهما . ولعل أحداث مجلس ابن الوزير كانت الشرارة الأولى في التهمة وتلبسه لقب سيد . وما جرى في مجلس الإمام ، وخروجه غير السار كان سبباً في القول بكشف تنكره ، خصوصاً عند العامة وبسطاء الناس ، والذين ظنوه بالفعل « سيداً » (٨١) ، حيث كانت شخصيته وظروف زيارته ملائمة لظنهم وتصورهم هذا ، فقد كان عربياً والسادة عرب خلص ، وكان كبير القافلة والموكب ، وضيافاً لكبير السادات عندهم ؛ فما عسى أن يتبادر إلى أذهانهم ، وقد اعتادوا بأن لا يكون كل زعيم وكل كبير لديهم إلا سيد من السادات . فلعل تهمة التنكر نمت بهذا الجو المهيأ لها ، بالإضافة إلى دور بعض المناوئين للريحاني، والذين تربطهم علاقة مع البريطانيين ، الراغبين في النيل منه وتلطيح سمعته .

أما مسألة إيقافه أو حجزه في ماويه ، فأمر ، كما تقدم ، غير صحيح وذلك للأسباب التالية :

١ - الوثيقة تروي بأن الريحاني ورفيقه احتجزا أو أوقفا في ماوية حتى أمر الإمام - بعد أن تلقى خطاباً من العرشي بشأن الريحاني ورحلته - بإطلاق سراحهما . ورداً على هذا فإن الريحاني لم يغادر لحج إلا بعد أن تمت جميع ترتيبات الرحلة ، ومن بينها تسلمه ، عن طريق العرشي ، خطاب موافقة صريحة ، من الإمام ، على زيارته له في صنعاء ، وما ذلك إلا بعد أن زوده العرشي بالكافي من المعلومات المسبقة عنه



ورحلته (٨٢) . وبذا يكون قدم ماوية ليس كمسافر عادي ، وانما كأحد ضيوف الامام البارزين ، ولهذا أعد له استقبالا رسميا ، كما مرت ، والذي يوضح معرفة ابن الوزير بأمر الرحالة ورحلته قبل وصوله اليه ، والا لما أعد له استقبالا رسميا على مشارف ماوية . والقنصل الامريكي ، القائل بايقافه ، يثبت معرفة ابن الوزير التامة به ورحلته « يعرف كل شيء عن الريحاني ورحلته » وبذا يناقض نفسه فطالما انه يعرف كل شيء فلا شك انه يعرف أهم شيء ، وهو ان الريحاني كان ضيف الامام ووجهته اليه ، فهل يعقل ، مع هذا ، ان يوقفه أو يعرقل مسعاه ؟!

٢ - ولو سلمنا جدلا ، بايقاف أو حجز كهذا ، فان الريحاني ، بالاضافة الى معرفة ابن الوزير السابقة ، كان يحمل خطابين زوده بهما العرشي ، الاول خطاب تعريف الى ابن الوزير نفسه ، والثاني خطاب توصية الى الامام ، فلو حس بمحاولة عرقلة أو ايقاف لابرزهما حالا ، لاسيما وأنه كان يعرف مضمونهما حيث تسلمها في لحج مفتوحين (٨٢) . بالاضافة الى مرسول العرشي المرافق له ، والذي لا شك ، سيكون له أثر وتأثير في موقف كهذا لو حصل فعلا (٨٤) .

٣ - وخير دليل يبرهن على أن اقامته في ماوية كانت عادية اختيارية ، لم يشبها شيء من الاجبار ، انه غادرها في الوقت الذي حدده هو لا قبل ولا بعدا (٨٥) .

والآن وقد انتهينا من الرد على تهمة تنكره ، وزعم ايقافه نعود الى امر قوي الصلة بهما ، وهو غضب الامام وخروج الريحاني من مجلسه المطرود . ولعل قضايا كهذه تكمن خلفها قضايا اكبر فعسى ان يكون حل هذه الالغاز أو بعضها باستكمال قصة الريحاني مع الانجليز في عدن . فعندما خوفوه من اليمن وجبالها ، هل كانت فعلا سلامته وحياته هما فقط ما أهم ما قلق هؤلاء . وعنوه بتحذيرهم اياه ؟ ان الخطر ، وان كان حقيقة موجودا ، الا انه حق أريد به باطل . فلا سلامة الريحاني ، ولا حياته بأمر ذي بال لدى الانجليز ، وبالتالي فلا الخطر كان معنيا لذاته ، ولا التحذير منه كان خالصا . ان الخطر كل الخطر عند الانجليز ، وعليهم ، هو تمكن هذا العربي المتأمر من اتمام مهمته في زيارة صنعاء ، ولذا صوروا له الاخطار الجسام ، والموت الزؤام ان هو يمم شطرها . وهكذا مر الريحاني بتجربة عصبية معهم ، بدأت بالتخويف والتحذير ، وتدرجت الى المماطلة والتسويق ، وكاد أن يكون الرفض ختامها .

اما لماذا كان كل هذا الرفض لزيارة الريحاني لليمن ، فانه طبقا لما اثبتته الوثائق الامريكية فقد كان له ، عندما قام برحلته العربية ، علاقة وارتباط مع الخارجية



الأمريكية . وكان من ضمن أهدافه الرئيسية ائترويج والدعوة للامتيازات والشركات الأمريكية ، وإيجاد فرص لها في بلاد العرب (٨٦) ، وأمريكا ، تجاريا كان يربطها علاقات قديمة باليمن متمثلة بتجارة البن في مخا ، حيث أن بعض التجار الأمريكيين النشطين من : «مساتشوستس» في مطلع النصف الأول من القرن التاسع عشر استطاعوا أن يصلوا بسفنهم الى جنوب البحر الاحمر ، وحتى ميناء مخا ، وتمكنوا من احتكار تجارة البن اليمني ، واستطاع الأمريكيون بهذا منافسة البريطانيين ، تجاريا ، في اليمن . ولكن البريطانيين وقفوا ضد هذه المنافسة ، وتمكنوا في نهاية المطاف من إنهاء الاحتكار الأمريكي ، وذلك باحتلالهم لعدن سنة ١٨٣٩ م ، وتشجيعهم لنقل تجارة البن من ميناء مخا الى عدن ، لتكون تحت سيطرتهم واحتكارهم المباشر (٨٧) .

وفترة مجيء الريحاني لليمن ، وما بعدها ، تمثل خروج أمريكا التدريجي من عزلتها التقليدية ، وبناء علاقات تجارية وسياسية مع بلدان المشرق العربي ، ومن بينها اليمن . وكان الامام يحيى حميد الدين يعتمد على دول المحور في صراعه مع البريطانيين ، وبعد هزيمتها واختفائها في الحرب العالمية الثانية وجد في أمريكا البديل . وبريطانيا ، بالطبع ، لا يسرها أبدا هذا التقارب اليمني - الأمريكي ، حيث يتناقض ، تماما ، مع مصالحها في مدّ واحكام طوقها الاحتكاري للمنطقة ، تجاريا وسياسيا . خصوصا أن أمريكا ، بعد خروجها من عزلتها تلك ، حاولت جاهدة كسر هذا الطوق ، والمشاركة في الغرف من خيرات العرب (٨٨) . ومن هنا تفهم حقيقة معارضة بريطانيا في المنطقة لزيارة الريحاني لليمن .

وصل عدن فجبهته أولى بوادر الرفض البريطاني قال : « وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد أن اطلع على جوازاتنا احتفظ بها قائلا : بأمر من الحاكم فقلت : وهل هو أمر عام أو أنه يختص بنا فقط ؟ فأجاب : هو عام يا سيدي . ثم أخذ عنواننا ووعدنا بأن يعيد الجوازات الينا في ذاك اليوم ولكن ذاك اليوم والايام الثلاثة التالية شهدت على الانكليزي فتيقنا أنه لا يبر دائما بوعده » (٨٩) . ولم يعد البريطانيون الجوازات الا بعد تدخل القنصل الأمريكي . وتجلسوا عليه في عدن ووضعوه تحت مراقبة الشرطة (٩٠) . وعندما تبينوا حتمية سفره الى صنعاء ، رضوا أم أبوا ، حاولوا ثنيه عن ذلك باقناعه - عن طريق بعض العرب الذين يتحدثون اللغة الانجليزية - بأن السفر عن طريق الحديد أسلم وأسهل وذلك حتى يزور الادريسي صديقهم أولا ، ويرى من تهامة اليمن ما قد يغنيه عن زيارة صنعاء (٩١) . ولكن الريحاني قطع عليهم حبل هذه الخطة ، بطلبه زيارة لحج ، حيث سافر الى هذه المحمية يرافقه القنصل الأمريكي ، وحلوا ضيوفا على سلطانها عبد الكريم فضل ومكث الريحاني فيها



أسبوعاً ، جرت خلاله ، بينه وبين الانجليز مراسلات ومكاتبات بشأن الاذن له بزيارة صنعاء ، وذلك بأرفاقه بالحرس اللازم حتى آخر حدود محمياتهم (٩٢) .

وقد قيد الانجليز اقامة الريحاني في لحج ، حيث حظروا عليه تجاوز حدودها قال : « واطلعتني السلطان ذات ليلة على كتاب من الحاكم ( البريطاني ) : لا تأذنوا لفلان و فلان أن يتجاوزا الحدود قبل أن يجيئهم الاذن منا . . . وقد بقينا أسراء في القصر بلحج » (٩٣) . بل وصل الانجليز في التعنت مع الريحاني الى الدرجة التي منعه حتى من التجول خارج هذه المحمية ، اذ ذكر بأنه تسلم ، عن طريق القنصل الامريكي ، كتاباً من الحاكم البريطاني جاء فيه : « أن التجول خارج حدود لحج محظور وممنوع » (٩٤) والذي يريده الريحاني ، بالتحديد ، من الانجليز ، هو ارفاقه بحرس من نهاية حدود لحج وحتى بلدة ماوية ، أي على امتداد بلاد الحواشب ، وهي منطقة خطيرة لا يجرؤ الريحاني على اجتيازها بدون حرس (٩٥) ، لذا ماطله الانجليز ، وسوفوا عليه عليهم يفتون في عضده ، ويشنونه عن التوجه الى صنعاء . وقد بالغ الانجليز في التشدد والعناد ، مع أنهم ، كما قال الريحاني ، لا يملكون الا خمس الامر (٩٦) وهو ارفاقه بالحرس عند عبوره بلاد الحواشب فقط - فما بالك لو ملكوا الامر كله ؟! - حتى هذا الخمس ، يبدو أنه ما كان ليحظى به لولا تدخل القنصل الامريكي بكل ثقله ونفوذه .

القنصل الامريكي ، على ما ظهر ، وطبقاً لمجريات الوقائع والحوادث ، لعب دوراً هاماً وبارزاً في تمكين فيلسوف الفريكة من بلوغ صنعاء ، فجميع الاتصالات والمكاتبات بين الريحاني ولانجليز تمت عن طريق القنصلية الأمريكية في عدن . ليس هذا فحسب ، بل قام القنصل شخصياً بعدة زيارات للمفوضية البريطانية ، حيث اجتمع مع الحاكم العام ونائبه ، وذلك من أجل رحلة الريحاني . وهو الذي استعاد الجوازات من الانجليز ، كما مر . وأهم من هذا وذاك ، سافر هذا القنصل بنفسه مع الريحاني الى لحج ، وما ذلك الا زيادة في التأكد والحرص على تسهيل أموره وانجازها (٩٧) .

ولعل البريطانيين ، وهو أمر ربما كان مؤكداً ، لم يرضخوا ، وينصاعوا أخيراً لرغبة الريحاني ، لولا هذا القنصل والدولة التي تقف وراءه . قال الريحاني ملمحاً الى ذلك : « . . . وأنهم ، أي الانكليز اذا شأوا أن يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراما لقنصل أميركا ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبد الله ( العرشي ) بأن يقول لي ان الطريق الى صنعاء محفوفة بالاعطال ، فلا يستطيع أن يرفقني بالحرس ، اللازم ، . . . » (٩٨) وقد ثبت بالفعل زيارة العرشي للمفوضية البريطانية في عدن ، وشك الريحاني أنها من أجل هذا الامر (٩٩) .



مما ذكر يتضح مدى الدور والغرض الأمريكي في زيارة الريحاني لليمن ، ورد الفعل البريطاني عليه ومعارضتها . ولعل من نافلة القول ، التأكيد بأنه لولا خشية « الجون بول » من « العم سام » لظلت زيارة فيلسوف الفريكة لصنعاء حلم بعيد المنال !! ..

ولما فشل البريطانيون في منعه اتجهوا ، كعادتهم ، الى حبك الدسائس في الخفاء . تابعوه بالعيون والجواسيس ، واحد منهم ، على حد تعبير الريحاني ، تاب الى الله : « عندما صدر الاذن بسفرنا استخدمت الوكالة البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتجسس اخبارنا ، ويدون احاديثنا كلها .. ولكن الرجل تاب في اخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة » (١٠٠). ولعلها ما كانت توبة نصوحا بل كانت مصطنعة بظلمها على آخرين وتخفيفهم . وما يدري الريحاني بأن ناقل أو ملحق تهمة تنكره كان واحداً من هؤلاء .

أما ما حدث في مجلس الامام فبالإضافة الى عزلة اليمن آنذاك ، وطبيعة الشك والحذر التي تميز بها الامام حتى قيل بأنه كان « أحذر من غراب » (١٠١) ، فإن كتاب الشريف حسين كان بداية الشك ، والعريضة الطويلة كانت ذروته وقاصمة الظهر فيه ، بل كانت على الريحاني ، في مجلسه المتفائل كأم قشعم ، ويقول بأنها كتبت من قبل أحد المداهنيين أو المتواطئين مع المفوضية البريطانية في عدن ، والذي أرسلها من هناك الى صنعاء ، ليشوه سمعته لدى الامام (١٠٢) . وقوله هذا معقول ومقبول ، فقد وقف البريطانيون ، كما تقدم ، في وجه الريحاني ورحلته الى اليمن ، واتصاله بالامام ، كما تجسسوا عليه . وموقفهم هذا – لما تقدم من أسباب – ليس بغريب . بالإضافة الى مناوأتهم للريحاني ، لما اتصف به من ريادة ، وسعى لدعوة العرب وقادتهم الى الوحدة والاخذ بمعطيات الحضارة والعلم . والوثائق الامريكية تشير بجلاء الى عداة البريطانيين له ووقوفهم ضده (١٠٣) .

أما كتاب الشريف حسين ، فبالإضافة لما تقدم ، يقول الريحاني عنه أيضاً : « .. فاذا ، كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى أن تكون نتيجة كتاب التحذير » (١٠٤). وكأنه أراد أن يقول رمزا أنه كتاب تحذير لا توصية ! ولكن لماذا ؟! ربما لان الشريف حسين – منذ أن كاتب الريحاني ، من أمريكا ، قسطنطين لمرافقته في الرحلة – كانت رغبته حصرها في الحجاز ، ولعله ، وهو في خريف علاقته مع البريطانيين ، أراد أن يستأثر بالريحاني وبمن يمثلهم . ومن ناحية أخرى فالشريف حسين ، وقد وعدته بريطانيا ، خادعة اياه بالطبع ، بالزعامة على العرب ، لازال يحلم بها ، ويخشى من أي تقارب امريكي مع



.....  
أي زعيم عربي آخر قد يقوى به ؟ ويبزه فيما تمناه . ولعل طلب الريحاني منه السماح  
لقسطنطين بمرافقته في الرحلة (١٠٥) ، وافق هوى ورغبة لديه ليكون الريحاني تحت  
ناظريه أين ما كان .

وهكذا يتضح أن عريضة الانجليز ، وكتاب الشريف حسين يصبان في مصب  
واحد ، وهدفهما واحد ، وهو افشال رحلة الريحاني لصنعاء ، وقد أديا بعض الغرض  
حيث شك الامام ، وخرج الريحاني كالمطرود من مجلسه . وظل في صنعاء أياما  
— شبهها بأدوار الحمى (١٠٦) — تحت طائلة هذا الشك ووطأته ، حتى تبين للامام  
حقيقة الامر ، قال البرت شقيق الريحاني : « أنزله سمو الامام يحيى حميد الدين حاكم  
اليمن مع صديقه الشيخ قسطنطين يني في بيت حكومي وتركهما أسيري الرقابة  
لعشرة أيام ، وذلك لريبه وشكه بأغراض الريحاني . وبعد ان تبين عكس  
ما ظن .. » (١٠٧) وبذا يكون محتوى العريضة والكتاب ، وزعم الايقاف والتنكر كله  
زور وبهتان ، مصدره الانجليز وحلفائهم . وينجح الريحاني في مهمته ، وتجنّي ثمارها  
أمريكا ، فلعل ما قام به كان توطئة لمجيء رجل الاعمال والسياسي الأمريكي ( تشارلز  
كراين ) لليمن فيما بعد (١٠٨) .

\* \* \*



## الحواشي :

Frank Cass and Company  
Limited , 1968 ) , p. vi ;

جوهان لودفيج بوركهارت ، مواد لتاريخ  
الوهابيين ، ترجمة الدكتور عبد الله الصالح  
المشيم ، الطبعة الاولى ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ /  
١٩٨٥ م ، ص ٣-٥ ؛ جاكين بيرين ،  
اكتشاف جزيرة العرب « خمسة قرون من  
المغامرة والعلم » ترجمة فدي قلعجي ،  
( بيروت ، دار الكاتب العربي ، د.ت ) ،  
ص ١٥٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢١٦ - ٢١٧ ،  
٢٢٨ ، ٢٣٣ .

كاتب وصفي لبناني ، من أصل يوناني ،  
وقد كان رفيق الدرب لامين الريحاني في  
رحلته الى اليمن . عنه انظر :

الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٧٢ ؛  
Ameen Rihani , **Arabian Peak  
and Desert, «Travels in Yemen»**,  
( New York : Caravan Books ,  
1983 ) , pp. 3 , 28 , 40 , 44 ;

امين الريحاني ، رسائل امين الريحاني  
( ١٨٩٦ - ١٩٤٠ ) ، الطبعة الثانية ،  
( بيروت : دار الجيل ، ١٩٩١ ) ، ص ٤٧  
، ٤٠٣ .

الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٧٨-٧٧ .

المرجع نفسه ، ص ٧٨ . ونعم شقيرو هو:  
نعم بك بن بشارة نقولا شقيرو ، ( ١٢٨٠ هـ /  
١٨٦٣ م - ١٣٤٠ / ١٩٢٢ م ) وهو مؤرخ  
لبناني ، وحديثه مع الريحاني عن اليمن لم  
يكن من فراغ فقد ذكر الزركلي ان له مؤلف  
عن تاريخ اليمن لم يتمه . الاعلام ، ج ٨ ص  
٢٩ .

(١) عن ترجمة حياته انظر : البرت الريحاني ،  
اين تجد امين الريحاني ( بيروت : المؤسسة  
العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ م ) ،  
ص ٢١ - ٦٣ ؛ خير الدين الزركلي ،  
الاعلام ، ( بيروت : دار العلم للملايين  
١٩٨٦ م ) ، ج ٢ ، ص ١٨-١٩ .

(٢) انظر نص الخطاب الذي أرسله الملك عبد  
العزيز الى امين الريحاني بهذا الخصوص .  
امين الريحاني ، ملوك العرب ، ( بيروت :  
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،  
١٩٨٦ م ) ج ٢ ، ص ٥١٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٤) The National Archives of The  
United States , Document No  
032 . R 44 « Experiences of  
Amin Rehani in the Yemen »  
A Report written by Raymond  
Davis American Consul in Aden,  
Arabia , Dated November 21,  
1922 .

(٥) ومن هؤلاء الرحالة على سبيل المثال :  
( دومنجو باديا اي بلخ ) الذي تسمى بـ  
علي بك السياسي ، والرحالة ( نيبور ) الذي  
كان يتنكر بلباس تركي ، والرحالة ( بوركهارت )  
الذي ظهر كأحد علماء المسلمين وتسمى  
بالشيخ ابراهيم بن عبد الله الشامي وغير  
هؤلاء كثير . انظر :

(٨) Richard Trench , **Arabian  
Travellers : The European  
Discovery of Arabia** ( London :  
Macmillan London Limited ,  
1986 ) pp. 52 - 53 , 59 , 60 - 61 ,  
64,69 ; John Lewis Burckhardt,  
**Tarvels in Arabia** ( London :



- (١٨) المرجع نفسه ، ص ٨٨ ؛  
Rihani, **Arabian Peak and Desert**,  
p. 17.
- والقاضي عبد الله العرشي هو وكيل الامام  
ومعتمده في المفاوضات مع الانجليز في عدن .  
عينه عام ١٣٣٨ هـ ، وأعادته الى صنعاء في  
عام ١٣٤٠ هـ بعد فشل المفاوضات . عبد  
الواسع الواسمي اليماني ، تاريخ اليمن  
فرجة الهموم والحزن في حوائث وتاريخ اليمن ،  
( صنعاء : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ،  
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ) ، ص ٣٣٢ .
- (١٩) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ٨٥ -  
٨٦ ، ٨٩ .
- (٢٠) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .
- (٢١) المرجع نفسه ، وقد غادر عدن بالتحديد بعد  
ظهر السبت الاول من نيسان (ابريل) ١٩٩٢م؛  
Rihani , **Arabian Peak and  
Desert**, p. 9.
- (٢٢) National Archives of the U.S.  
A., Document No . 032 . R 44  
« Ameen Rihani » A despatch  
Sent by P.Knabenshue, Consul  
in Charge, Beirut,Syria,August  
14, 1922.
- (٢٣) هو عبد الكريم بن فضل بن علي بن محسن  
العبدلي ، أحد سلاطين لحج في فترة  
الاستعمار البريطاني . عنه انظر الزركلي ،  
الاعلام ، ج ٤ ، ص ٥٤ .
- (٢٤) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٨٧ ؛  
Rihani , **Arabian Peak and  
Desert**, p. 16.
- Ibid, pp. 17, 19 - 20, 26 ;  
الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ص
- (٩) The National Archives of the  
U. S. A., Document No. 032. R  
44«Movements of Ameen Rihani  
and Interior » Areport sent By  
R. Davis During Visit to Aden  
the American Consul in Aden,  
Arabia , July, 19, 1922 .
- (١٠) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص  
٨٠ - ٨١ .
- (١١) المرجع نفسه ، ص ٨١ .
- (١٢) المرجع نفسه ، ص ٨٣ .
- The National Archives of the  
U S.A. Document No. 532. R44  
« a letter sent form the British  
Embassy in Washington State  
Department Concering Ameen  
Rihani, May, 6, 1922».
- (١٣) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٨٧ .
- (١٤) المرجع نفسه ، ص ١١٦ .
- (١٥) هو :  
( Ulrich Jasper Seetzen ) (1768  
- 1810)  
عنه انظر :
- Robin Bidwell, **Travellers in  
Arabia**, ( London: The Hamlyn  
Publishing Group Limited ,  
1976), pp. 120 - 121 ; Trench,  
**Arabian Travellers**, pp. 55-57 .
- (١٦) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٨٧ ؛  
Rinani , **Arabian Peak and  
Desert**, p. 16 .
- (١٧) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص  
٨٧ - ٨٨ .



- (٢٥) المرجع نفسه .
- (٢٦) المرجع نفسه ، ص ص ١٠١-١٠٢ . والشاعر صاحب هذا البيت هو فؤاد الخطيب ، صديق الريحاني ، عن ترجمته انظر : الزركلي ، الاعلام ، ج ٥ ، ص ١٦٠ .
- (٢٧) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
- (٢٨) المرجع نفسه .
- (٢٩) المرجع نفسه ، ص ص ٢٣٠-٢٣١ .
- (٤٠) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .
- (٤١) Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 30-31 .
- (٤٢) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٨٩ .
- (٤٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٦ .
- (٤٤) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ ، وعن حاله هذه أيضا انظر :  
Rihani , Aradian Peak and Desert, pp. 43-44 .
- (٤٥) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
- (٤٦) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ . أيضا انظر :  
Rihani , Aradian Peak and Desert, p. 54 .
- (٤٧) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٠٩ .
- (٤٨) Rihani , Aradian Peak and Desert, p. 58.  
وتقع مدينة ذمار في الجنوب الشرقي من صنعاء على بعد ١٠٠ كم تقريبا . سميت باسم ( ذمار علي ) الملك الحميري . وهي قاعدة محافظة ذمار . أبو العباس أحمد الرازي ، تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق حسين العمري ، ط ٣ ، ( دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ) ص ٦٦٩ .
- (٤٩) هو عبد الله بن أحمد ابن الوزير ، يعد
- ٨٨ ، ٩١ ، ٩٤ . وعن هذه القصة انظر :  
الصفحات ٩٦ - ٩٧ .
- (٢٦) المرجع نفسه ، ص ٩٧ .
- (٢٧) The National Archives of the U. S. A., Document No. 032. R 44 « Movements of Amin Rihani During Visit to Aden and Interior » A Report sent by American Consul in Aden, Arabia, July, 19, 1922 .
- (٢٨) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٩٧ .
- (٢٩) المرجع نفسه ، ص ص ٩٧-٩٨ .
- (٣٠) المرجع نفسه ، ص ٩٨ .
- (٣١) هو ابن عم عبد الله بن الوزير ، الذي قاد ثورة عام ١٩٤٨ م ضد الامام يحيى حميد الدين ، وقد سجن ثم أعدم بعد هذه الثورة . عنه وعن نهايته الاليمة : انظر : أحمد بن محمد الشامي ، رياح التغيير في اليمن ، الطبعة الاولى ، ( جدة : المطبعة العربية ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م ) ص ص ٣٥٣ ، ٣٥٧ - ٣٥٨ ؛ محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية ، ( بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ م ) ، ص ٢٧٣ .
- (٣٢) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص ٩٩ - ١٠٠ .
- (٣٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .
- عن مجالس القات . انظر : المرجع نفسه ، ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ هانز هولفريتز ، اليمن من الباب الخلفي ، ترجمة خيري حماد ، الطبعة الثانية ، ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦ م ) ص ص ١٠٩ - ١١٧ ؛  
Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 35-38 .
- (٣٤) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٠١ .



(٦١) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ١٣٠ ،  
أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 93 .

(٦٢) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٣٠ ؛  
Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 94.

قارن مع قول هانز هولفريتز ، اليمن من  
الباب الخلفي ، ص ١٥٦ .

(٦٣) Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 94.

(٦٤) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص  
١٣٠ - ١٣١ ، قارن مع :

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, pp. 94-95.

(٦٥) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٣١ .  
(٦٦) المرجع نفسه ، ص ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٦٧) المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .

(٦٨) المرجع نفسه ،

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ص ١٣٢ - ١٣٤ ؛

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, pp. 96-98 .

(٧٠) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ١٣٣ ؛  
أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 97 .

(٧١) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٣٤ ؛

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 97 .

(٧٢) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ص ١٣٤  
١٤٥ ، أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, pp. 98 - 100.

واحدا من أكبر رجالات اليمن في السياسة  
والحكم والعلم أيضا . وقد تزعم ثورة عام  
١٣٦٧هـ - ١٩٤٨ م والتي أودت بحياة الامام  
يحيى ، وحياته هو أيضا . عن ترجمته .  
انظر : الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ص ص ٧٠  
٧١ - وعن نهايته الاليمة انظر : الشامي ،  
رياح التغيير في اليمن ، ص ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .  
انظر : (٥٠)

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 60.

Ibid., p. 62 (٥١)

Ibid , pp. 69 - 70 . (٥٢)

(٥٣) لا بد من صنعاء وان طال السفر ##  
لطبيها والشيخ فيها من دبر

بيت من الشعر تغنى به الحداة . والشيخ  
المقصود هنا هو ابراهيم ابن عباد الدبري ،  
كان من بلدة دبر بالقرب من صنعاء . الرازي،  
تاريخ مدينة صنعاء ، ص ٢٣٥ .

(٥٤) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ١١٨ .

(٥٥) المرجع نفسه ، ص ١١٩ .

(٥٦) المرجع نفسه ، ص ص ١٢٠ - ١٢١ أيضا انظر :

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 79.

Ibid., pp. 80-81 , 83 ; (٥٧)

الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص  
١٢١ - ١٢٢ .

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, pp. 89 , 92 ; (٥٨)

الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٥٩) المرجع نفسه ، ص ١٢٩ ، قارن مع وصف

هانز هولفريتز ، اليمن من الباب الخلفي ،  
ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٦٠) عن الامام يحيى حميد الدين انظر : الواسمي،  
تاريخ اليمن، ص ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، ٤٢٨ - ٤٣٤ .



The National Archives of U.S. A., Document No. 032. R 44 « a Letter from Ameen Rihani, to H.P. Fletcher. Under Secretary of State, Concerning his trip to Arabia, October, 18, 1921 ».

أبازة ، العلاقات البريطانية اليمنية ، ص ص ١٤٧ - ١٤٨ .

المرجع نفسه ، ص ص ١٤٨ - ١٤٩ .

الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٧٩ .

المرجع نفسه ، ص ص ٨٢ - ٨٣ ، ٨٩ - ٩٠ .

المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

المرجع نفسه ، ص ص ٨٢ - ٨٣ ، ٨٦ - ٨٧ .

المرجع نفسه ، ص ٨٦ .

المرجع نفسه ، ص ٨٢ .

المرجع نفسه ، ص ٨٨ .

المرجع نفسه ، ص ٨٦ .

المرجع نفسه ، ص ص ٧٩ - ٨٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ .

المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

المرجع نفسه ، ص ٨٥ ؛

Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 11-13 .

(١٠٠) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .

(١٠١) الدكتور حسين بن عبد الله العمري ، المنار

واليمن ( ١٣١٥ - ١٣٥٤ هـ / ١٩٩٨ -

١٩٣٥ م ) دراسة ونصوص ، الطبعة الاولى ،

اليمن شماله وجنوبه ، ص ٥٣ ؛ فتوح عبد

الحسن الخترش ، تاريخ العلاقات السعودية

اليمنية ، الطبعة الاولى ، ( الكويت : ذات

السلاسل ، ١٩٨٣ ) ، ص ١٢١ .

(٧٣) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٧٤) المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

(٧٥) المرجع نفسه ، ص ٧٩ .

(٧٦) ( ملحق الصور )

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 2 .

(٧٧) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٧٨) المرجع نفسه ، ص ص ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٦ ؛

Rihani , Arabian Peak and Desert, pp. 25, 56 .

(٧٩) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ص

١١٢ ، ١١٤ ؛ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص

٢٩٤ ؛ فاروق أبازة ، العلاقات البريطانية

اليمنية بين الحريين العاليتين ( ١٩١٩ -

١٩٣٩ ) ، ( القاهرة : دار المعارف ، د.ت. )

ص ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٨٠) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ص ٣٥ ، ٣٨ ،

١٢٩ . بدأ الواسعي في تدوين أحداث تاريخه

عام ١٣٢٦ واستمر حتى بعد عام ١٣٦٧ هـ -

١٩٤٨ م ، وبدا تكون رحلة الريحاني لليمن

في قلب هذه الفترة . ص ص ٨ ، ٢٨ ،

وما بعدها .

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 63 .

(٨١) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١١١ ؛

(٨٢) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ص ص ٨٤ - ٨٦ .

(٨٣) المرجع نفسه ، ص ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٨٤) المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٨٥) المرجع نفسه ، ص ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛

Rihani , Arabian Peak and Desert, p. 43 .



وقد كتبت « التحذير » في ملوك العرب ،  
خاط « التحرير » انظر وقارن مع :

Rihani , Arabian Peak and  
Desert, p. 106.

(١٠٥) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(١٠٦) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .

(١٠٧) البرت الريحاني ، أين تجد أمين الريحاني ،  
ص ٤٧ .

(١٠٨) حسين العمري ، المنار واليمن ، ص ١١١ .

Rihani , Arabian Peak and (١٠٢)  
Desert, p. 1100 .

The National Archives of U.S. (١٠٣)  
A. Document No. 032 . R 44 .

« Movements of Amin Rihani  
During Visit to Aden and  
Interior» a Despatch sent by the  
American Consul in Aden ,  
Arabia , July 19, 1922 .

(١٠٤) الريحاني ، ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .









## تاريخ غور الاردن الشمالي من خلال المسوحات والحفريات الاثرية الاخيرة

د. جمعة محمود كريم

مؤنة ص.ب ٧

تعني هذه الدراسة الجزء الشمالي من غور الاردن بشكل خاص ، الممتد من نهر اليرموك شمالا وحتى وادي راجب جنوبا وبمسافة يبلغ طولها ٥٥ كم ( انظر الخارطة رقم ١ ) . كما سيستعرض الباحث تاريخ غور الاردن بشكل عام ، والممتد لمسافة ١٠٥ كم ، على محاذاة نهر الاردن ، من نهر اليرموك شمالا وحتى مصبه في البحر الميت جنوبا .

ويعتمد الباحث في دراسته على ما يلي :

- ١ - نتائج المسوحات الاثرية التي اشرف عليها الكاتب في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات ( انظر الخارطة رقم ١ و ٢ و ٣ ) .
- ٢ - نتائج الحفريات الاثرية التي اشرف عليها الكاتب في موقعي تل قدسيه وذراع الخان ( انظر الخارطة رقم ١ و ٥ و ٦ ) .
- ٣ - نتائج المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن .
- ٤ - نتائج الحفريات الاثرية السابقة في غور الاردن .
- ٥ - المصادر التاريخية والجغرافية بالاضافة الى ما نشر عن سجلات الطابو العثمانية .
- ٦ - ملاحظات الرحالة الاوروبيين ، الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي .

يتفاوت عرض ارضية غور الاردن في صفته الشرقية ، فنرى انه ضيق في الشمال ( حوالي ٦ كم ) ومتسع في الجنوب ( حوالي ٢٠ كم ) (١) . كما تتسم هذه

---

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني - نيسان ١٩٩٥



المنطقة بانخفاضها الشديد عن مستوى سطح البحر ، يزداد هذا الانخفاض كلما اتجهنا جنوبا . فيبلغ انخفاض غور الاردن ٢١٢ مترا عند بحيرة طبريا ، و ٣٩٢ مترا عند البحر الميت (٢) .

ويعتقد فريق من الباحثين الجيولوجيين أن غور الأردن ، والمثل جزءا من حفرة الانهدام ، قد تكون نتيجة لحركات تكتونية أفقية (٣) ، بينما يرى فريق آخر بأنه قد تكون نتيجة لحركات تكتونية رأسية (٤) . ويمتد هذا الصدع من البقاع شمالا الى غور الاردن ووادي عربة والبحر الاحمر ووسط افريقيا جنوبا (٥) . كما يعتقد بعض الجيولوجيين بأن غور الاردن قد غطي بالمياه منذ نشأة تكوينه ، ثم بدأت هذه البحيرة الكبيرة بالجفاف ، وذلك منذ فترة البليستوسين ( منذ مليون سنة من الآن ) (٦) مخلفة وراءها بعض السبخات والبحيرات ، منها العذبة في الشمال ، كبحيرة طبريا ، والمالحة في الجنوب كالبحر الميت .

كما ان انخفاض نسبة الامطار الساقطة في جنوب غور الاردن وارتفاع درجة الحرارة فيه ، أدت الى ارتفاع نسبة الملوحة في تربته ، بينما أدى ارتفاع نسبة الامطار الساقطة وانخفاض درجة الحرارة في جزئه الشمالي الى انخفاض نسبة الملوحة في تربته (٧) . ويبدو أن الاختلاف في نسبة ملوحة التربة بين شمال غور الاردن وجنوبه ، بالإضافة الى تواجد مواقع أثرية متمدنة كيسان وطبقة فحل وأم قيس في الجزء الشمالي لغور الاردن ، وقرب هذا الجزء من طرق المواصلات الرئيسية ، الواصلة بين الحضارات القديمة في مصر وسورية وما بين النهرين ، أدت الى ارتفاع نسبة تواجد مواقع الاستيطان البشري في شمال غور الاردن وانخفاضها في جنوبه .

يمكن تقسيم أرضية غور الاردن الى ثلاثة أجزاء ، الاول يمثل الجزء الملاصق لنهر الاردن ويدعى بالزور . يغطي هذا الجزء - وحتى وقت قريب - النباتات البرية ، كما أنه معرض لفيضانات نهر الاردن في فصل الشتاء (٨) . أما الجزء الثاني فهو عبارة عن شريط ضيق من التلال تسمى الكتار ، يلي هذا الشريط ، الجزء الثالث من غور الاردن والمكون من أرض زراعية خصبة ومنحدرة باتجاه شرق - غرب ، ويدعى هذا الجزء بالغور ، وتتركز الزراعة المروية فيه منذ القدم ، حيث تسقى أراضيها من مياه العيون والودية الجارية (٩) . وتكثر الودية الدائمة الجريان في الجزء الشرقي من غور الاردن ، ويمكن ترتيبها من الشمال الى الجنوب كما يلي: وادي العرب ، ووادي زقلاب ، ووادي الجرم ، ووادي اليابس ، ووادي كفرنجة ، ووادي الزرقاء ، ووادي شعيب ، ووادي الكفرين (١٠) . ويبدو أن صلاحية أراضي الجزئين الثاني والثالث من غور الاردن للزراعة المروية قد عكس أثره على أماكن الاستيطان البشري فيهما ، منذ أقدم العصور



وحتى الآن ، حيث تزداد نسبة تواجد المواقع الاثرية في هذين انجزئين ، وتقل في الجزء الاول ، مما دفع بعض الدارسين للتوزيع المكاني للمواقع الاثرية في غور الاردن الى الاعتقاد بوجود عدة بحيرات في منطقة الزور ، وذلك حتى فترة العصر الحجري الحديث ، نذكر منها بحيرة بيسان (١١) .

### المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن :

يعتبر نلسون جلوك أول من أجرى مسوحات أثرية في منطقة شرق الأردن ، وذلك من الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ م ، وما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٧ م . اهتم جلوك بدراسة وتوثيق المواقع الاثرية الكبيرة الحجم ، وخاصة تلك التي حملت على سطحها مخلفات أثرية عائدة لفترات زمنية مبكرة ، في حين أهمل كثيرا من المواقع الاثرية التي تعود للفترات الاسلامية ، وقد أشار الى المخلفات الحضارية التي تعود للفترات الاسلامية في مواقع أثرية استوطنت في فترات سابقة بمصطلح « العصور الوسطى » ، وهو تعبير أوروبي مأخوذ من كلمة Medieval . وقد سجل جلوك عدة مواقع أثرية في منطقة جسر الشيخ حسين هي : تل فندي ، وتل الاربعين ، وتل قدسية ، وخربة الشيخ محمد (١٢) . أما في منطقة سليخات فقد سجل جلوك المواقع الاثرية التالية : ظهرة ام المرار ، وخربة عين البيضاء ، وتل هنيذة ، وخربة سليخات ، وتل العقارب ، وتل دحنون ، وتل حندقوق (١٣) . وقد بلغ مجموع المواقع الاثرية التي سجلها جلوك في المنطقة الممتدة بين نهر اليرموك شمالا ووادي راجب جنوبا ، (٥٨) موقعا . واعقبه ملارت عام ١٩٥٣ م بمسح ورصد المواقع الاثرية الواقعة في غور الاردن وحوض نهر اليرموك ، المهتدة بالتدمير نتيجة لشق قناة الغور الشرقية والقنوات المتفرعة عنها . سجل ملارت في منطقة جسر الشيخ حسين موقعي تل الاربعين (١٤) وخربة الشيخ محمد (١٥) . أما في منطقة سليخات ، فلم يسجل ملارت ايا من المواقع الاثرية ، لانها تقع في منطقة تعلو منسوب قناة الغور الشرقية (١٦) . كما كتب دي كونتسون تقريراً لاحقاً يستكمل فيه ذكر المواقع المهتدة بالتدمير الناتج عن شق قناة الغور الشرقية . سجل هذا الباحث ثلاثة وعشرين موقعا أثريا ، وكان منها في منطقة جسر الشيخ حسين : تل الاربعين وتل ابو عرابي (١٧) . أما في منطقة سليخات فقد سجل دي كونتسون موقع تل حندقوق (١٨) .

ونظرا لما يشهده غور الاردن من ازدهار زراعي وعمراني منذ العقد السادس من هذا القرن ، وما قد ينجم عن ذلك من تدمير بعض المواقع الاثرية ، فقد أجري في هذه المنطقة في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ م ، مسح أثري منظم ودقيق شمل المنطقة الممتدة من العدسية شمالا وحتى البحر الميت جنوبا . وقد أشرف على هذا المسح ، الاساتذة :



معاوية ابراهيم ، ممثلا لدائرة الآثار العامة ، وخير ياسين ، ممثلا للجامعة الاردنية ، وجيمس سور ، ممثلا للمركز الامريكي للابحاث الشرقية . وقد سجل أعضاء هذه البعثة في منطقة جسر الشيخ حسين المواقع الاثرية التالية : تل فندي ، وتل الاربعين ، وخربة الشيخ محمد وتل قدسية ، وخربة الشيخ حسين (١٩) . أما في منطقة سليخات فقد سجلت البعثة نفسها المواقع الاثرية التالية : أم البعر ، وظهرة أم المزار ، وخربة هجيجة ، وتل هجيجة ، وتل هنيذة ، ومقبرة سليخات ، وخربة سليخات ، وتل أبو المقارب ، وتل دحنون ، وتل حندقوق (٢٠) . وتجدر الإشارة الى أن هذه البعثة قد سجلت ٢٢٤ موقعا أثريا في غور الاردن عامة ، غطت فترات زمنية تمتد من الألف السادس قبل الميلاد وحتى الوقت الحاضر دون انقطاع يذكر . أما المنحدرات المطلّة على غور الاردن فقد مسحت أثريا عام ١٩٨٥م بإشراف د. مجاهد المحيسن . وقد رصدت الكهوف والملاجيء وأماكن استقرار الإنسان الذي عاش في العصور الحجرية على هذه السفوح ، والممتدة من وادي الجرم شمالا ووادي الكفرين جنوبا . وقد سجلت المواقع التالية في منطقة سليخات : تل حندقوق ، ومقابر تل حندقوق ، ومنحدرات وادي سبرة ، ومنحدرات سليخات ، ومقبرة سليخات ، وعين هنيذة ، وهجيجة (٢١) .

كما قام كل من بلمبو ومابري عام ١٩٨٧م بمسح أثري لمنطقة حوض وادي اليابس ، والواقعة ما بين منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات . وقد سجلت هذه البعثة موقعا أثريا واحدا يقع في حدود منطقة سليخات ، وهو خربة سبرة (٢٢) . كما قام متمان بمسح أثري للمواقع الاثرية الواقعة في شمال الاردن عام ١٩٦٨م وسُجل في هذا المسح موقع سبرة ، حيث عثر على شقف فخارية تعود للعصر البيزنطي في الطرف الغربي لهذه الخربة وشقف فخارية أخرى أرجعها للعصر الحجري النحاسي ، عثر عليها في الطرف الشرقي من الخربة (٢٣) .

كما اهتم هذا الباحث بدراسة طرق المواصلات المارة عبر غور الاردن ، وتمكن من دراسة النقوش على الشواهد الحجرية الدالة على هذه الطرق ، والتي عثر عليها في منطقة تل الاربعين وبالقرب من موقع طواحين السكر ، والقرن ، ووادي كفرنجة ، وعمتا . وقد دلت قراءة هذه النصوص على أن هذه الشواهد الحجرية قد وضعت في القرنين الثاني والثالث الميلاديين (٢٤) .

### الحفريات الاثرية السابقة في غور الاردن

كشفت المسوحات الاثرية السابقة الذكر في غور الاردن عن رصد مجموعة كبيرة من المواقع الاثرية الهامة ، التي تغطي فترات استيطان بشري عبر عصور مختلفة .



كما أوصى المساحون الاثريون السابقو الذكر ، بإجراء حفريات أثرية في مناطق أثرية، اتصفت بأنها مواقع استيطان كبيرة الحجم وذات طابع مدني ، في حين أن المواقع الصغيرة الحجم – القرى الزراعية – بقيت مهملة حتى بداية العقد الثامن من هذا القرن . وتجدر الملاحظة أيضا بأن اهتمام المنقبين الاثريين في غور الاردن قد تركز على اختيار المواقع الاثرية القديمة ؛ تلك التي تعود الى ما بين الالف السادس قبل الميلاد والقرن السادس قبل الميلاد ، في حين أن المواقع الاثرية العائدة للفترات الكلاسيكية والاسلامية ، قد أهملت الى حد بعيد . كما أجريت تنقيبات أثرية منظمة في مواقع متعددة من غور الاردن ، وذلك منذ بداية العقد الرابع من هذا القرن . ويمكن ترتيب هذه المواقع الاثرية جغرافيا من الشمال الى الجنوب كما يلي (٢٥) :

### تل الشونة الشمالي (٢٦) :

دلت الحفريات الاثرية بهذا الموقع على انه قد استوطنت في العصر الحجري الحديث – المرحلة اليرموكية ( الالف الخامس قبل الميلاد ) ، وفي العصر الحجري النحاسي ( الالف الرابع قبل الميلاد ) ، وفي العصر البرونزي المبكر بمراحله الثلاث الاولى ( الالف الثالث قبل الميلاد ) ، وفي العصر الهلنستي ( ٣٣٢ قبل الميلاد – ٦٣ ميلادي ) ، وفي العصر الايوبي / المملوكي ( ١١٧١ – ١٥١٦ ميلادي ) .

### تل الحيات (٢٧) :

أشارت الحفريات الاثرية في هذا الموقع الى تواجد شقف فخارية عائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ( ٢٤٠٠ – ٢٠٠٠ قبل الميلاد ) ، ولكن لم يعثر على بقايا معمارية ممثلة لهذه الفترة في هذا الموقع . وتمثل فترة العصر البرونزي الوسيط ( النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ) ، مرحلة الاستيطان الرئيسة في هذا الموقع ، حيث أمكن التعرف على أربعة مراحل سكنية عائدة لنفس الفترة . وأهم ما كشف عنه في الموقع ، معبد أعيد بناؤه أربع مرات ، وقورن مع معابد أخرى في فلسطين وابلا في سوريا . كما عثر على بقايا أثرية متنوعة على السطح، كحفر الخزين وشقف فخارية وقطع عملة يعود تاريخها الى ما بين العصر الفارسي والعصر البيزنطي .

### تل ابو هاييل (٢٨) :

كشفت الحفريات الاثرية المبكرة في هذا الموقع عن حفر سكنية وأدوات حجرية وآنية فخارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، وقورنت بما عثر عليه سابقا في تليلات غسول وأريحا .



### تل أبو حامد (٣٩) :

أظهرت الحفريات الاثرية المنظمة والدقيقة في هذا الموقع ، تواجد أبنية سكنية من الطوب الطيني على أساسات حجرية . كما عثر أمامها على ساحات مكشوفة ، مورست بها النشاطات اليومية . وقد أرخت جميع المكتشفات الاثرية في هذا الموقع الى العصر الحجري النحاسي ( نهاية الالف الخامس – بداية الالف الرابع قبل الميلاد ) ، واعتبر هذا الموقع من القرى الزراعية الكبيرة العائدة لهذه الفترة .

### تل أبو الحز (٣٠) :

عثر في هذا الموقع على مخلفات حضارية عائدة للعصر الحجري النحاسي ، والعصر البرونزي المبكر بمرحلتيه الاولى والثانية ، والعصر البرونزي الحديث ( النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ) ، والعصر الحديدي بمرحلتيه الاولى والثانية ، والعصر الروماني .

### تل أبو النعاج (٣١) :

يعتبر هذا الموقع من المواقع الاثرية الهامة في غور الاردن ، حيث كشفت الحفريات الاثرية فيه عام ١٩٨٥ م ، على تواجد أبنية سكنية مبنية بالطوب الطيني تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي القديم .

### وادي اليابس (٣٢) :

كشفت الحفريات الاثرية المبكرة في هذا الموقع عن تواجد مخلفات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث – المرحلة اليرموكية .

### تل اسعيدية (٣٣) :

أكدت الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع على تواجد مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، والعصر البرونزي المبكر ، والعصر البرونزي الوسيط ، والعصر البرونزي المتأخر ، والعصر الحديدي ، والعصر الفارسي . كما عثر على منشأة معمارية كبيرة اعتقد بأنها استخدمت كخان في العصر الاموي .



### تل المزار (٣٤) :

أبدت الحفريات الاثرية المنظمة في هذا الموقع على أنه استوطن في العصر الحديدي  
بمرحلتيه الاولى والثانية ، وفي العصر الفارسي . ويبدو أن هذا الموقع قد هجر مع  
بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

### تل ابو سربوط (٣٥) :

كشفت الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع على أنه قد استخدم كقرية  
زراعية « العصرين الايوبي والملوكي » . فالى جانب الانشاءات المعمارية السكنية، فقد  
عثر في هذا الموقع على أعداد كبيرة من الشقف الفخارية التي استخدمت في تصنيع  
السكر في « العصر الايوبي والملوكي » كما دلت هذه الحفريات على أن الطرف الشرقي  
من هذا الموقع قد استوطن في العصر البيزنطي .

### تل ابو قعدان (٣٦) :

واعتقد أن هذا التل الاثري قد هجر مع بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة .  
كما عثر في قمة التل على مجموعة مقابر تعود للعصر الايوبي/الملوكي . ويبدو أن هذا  
لكونه أحد المراكز الهامة لتصنيع السكر في العصر الايوبي / الملوكي . واعتقد فرانكن  
على أن هذا الموقع قد هجر في القرن السادس عشر الميلادي .

### تل دير علا (٣٧) :

من خلال الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع ، ظهر وجود مخلفات حضارية  
تعود للعصر الحجري النحاسي ، والعصر البرونزي الوسيط ، والعصر البرونزي  
المتأخر ، والعصر الحديدي ، والعصر الفارسي ( ٥٣٩ - ٣٣٢ قبل الميلاد ) .

واعتقد أن هذا التل الاثري قد هجر مع بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة .  
كما عثر في قمة التل على مجموعة مقابر تعود للعصر الايوبي / الملوكي . ويبدو أن هذا  
الموقع الاثري قد ازدهر في نهاية العصر البرونزي المتأخر ، حيث عثر على معبد أرخ  
لهذه الفترة، وبداخله مجموعة من الآنية الفخارية والمرمرية المستوردة من موكناي  
ومصر ، ومن المكتشفات الهامة في هذا المعبد قارورة من المرمر تحمل اسم الملكة المصرية  
تاوسرت ( ١٢٠٥ - ١١٩٤ قبل الميلاد ) ، زوجة الفرعون المصري سيتي الثاني . كما



د. جمعة محمود كريم .

عثر في هذا الموقع على كتابات بالخط الآرامي تذكر اسم الكاهن « بلعم » وأرخت هذه الكتابات لما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

### كتارة السمر (٣٨) :

كشف في هذا الموقع عن مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، والمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر ( ٣٢٠٠ - ٢٩٠٠ قبل الميلاد ) ، وللعصر البرونزي الوسيط ، وللعصر البرونزي المتأخر . كما عثر في هذا الموقع على مجموعة من المقابر العائدة للعصر البرونزي المتأخر ، وبداخلها مجموعة من الآنية الفخارية المصنعة محليا وأخرى مستوردة من جزر البحر الابيض المتوسط .

### تل أم حماد (٣٩) :

أظهرت الحفريات الاثرية في هذا الموقع عن مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، والمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر . وتكمن أهمية هذا الموقع في كونه يمثل أحد مواقع الاستيطان القليلة ، والتي تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر في جنوبي بلاد الشام .

### طوال الشرقي (٤٠) :

يقع على الجانب الجنوبي من موقع تل أم حماد . وكشف فيه عن مجموعة كبيرة من المقابر العائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر .

### تل نهرين :

عثر عام ١٩٨٠م على الطرف الغربي من هذا التل على كنيسة كسيت أرضيتها بالفسيفساء . ويعود تاريخ انشائها للقرن السادس الميلادي ، واستمر استعمالها مع بعض الإضافات المعمارية طيلة العصر الأموي (٤١) . كما أجريت في هذا الموقع أعمال تنقيب أثرية منظمة ، وذلك منذ عام ١٩٨٩م . تم التعرف من خلالها على أسوار دفاعية ، وبيوت سكنية تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر . أما المنشآت المعمارية التي تعود الى ما بين العصر الروماني والعصر الإسلامي المتأخر فقد أصابها التدمير نتيجة لأعمال التجريف على سطح هذا الموقع (٤٢) .



### تل إكتانو(٤٣) :

كشفت الحفريات الاثرية في هذا الموقع عن قلعة تعود للعصر الحديدي ، وقد أحيطت بجدران دفاعية ، يبلغ سمكها ١ م . الا أن أهم ما كشف عنه في هذا الموقع ، مجموعة انشاءات معمارية سكنية ، ومجموعة من الافران التي استعملت لتصنيع الأنية الفخارية ، وهي جميعا تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر .

### غروبة(٤٤) :

أجريت في هذا الموقع الاثري حفريات أثرية من قبل ملارت ، وكشف عن مخلفات أثرية تعود للمرحلة الاخيرة من العصر الحجري الحديث ( الحضارة اليرموكية ) ، ومن العصر الحجري النحاسي .

### سهل السرايط(٤٥) :

أجريت في هذا الموقع حفريات أثرية - لموسم واحد - كشفت عن مخلفات أثرية عائدة للعصر العباسي ، والعصر الايوبي/المملوكي . واعتمادا على كثرة الكسر الزجاجية التي عثر عليها في هذا الموقع ، اعتقد المنقبون أنه قد استخدم لتصنيع الأنية الزجاجية في العصر الاسلامي الوسيط .

### تليلات غسول(٤٦) :

يغطي هذا الموقع الاثري مساحة اجمالية مقدارها ثمانون دنما . وقد دلت الحفريات الاثرية المتتالية في هذا الموقع ، انه قد استوطن في فترتين متتاليتين ، هما : العصر الحجري الحديث « المرحلة اليرموكية » والعصر الحجري النحاسي . وقد مثلت المرحلة اليرموكية من العصر الحجري الحديث بيوت سكنية جاءت على شكل حفر ، ومجموعة من الادوات الحجرية والأنية الفخارية . وتعتبر هذه الأنية الفخارية الاقدم تاريخيا لنوعها في جنوب بلاد الشام . أما المرحلة اللاحقة - العصر الحجري النحاسي فقد جاءت بيوتها السكنية مبنية من الطوب الطيني على أساسات حجرية . وقد دعت المخلفات الحضارية الاتية من هذا الموقع بالحضارة الفسولية ، نسبة الى اسم هذا الموقع .

### زيارات الرحالة الاوربيين لغور الاردن :

نشط الرحالة الاوروبيون بالتوافد الى بلاد الشام منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، وسجلوا ملاحظاتهم حول التعداد السكاني واماكن الاستيطان والثروات



الاقتصادية والطبيعية والجغرافية والبقايا الاثرية . وتعتبر مدونات الرحالة هذه هامة لاكمال حلقة التسلسل التاريخي لغور الاردن ، في ظل معرفتنا القليلة للبقايا الاثرية العائدة للفترة العثمانية ، ولقلة التاريخ المكتوب والمنشور عن هذه الفترة .

زار بيركهاردت عام ١٨١٢ م المنطقة الشمالية لغور الاردن وسجل تواجد قريتين اساسيتين في هذه المنطقة ، هما : معاذ ، وتل الاربعين (٤٧) . كما عبر بيركهاردت نهر الاردن في نفس العام قاصدا مدينة السلط ، وخلال مروره بغور الاردن سجل بعض المواقع مثل وادي الموز ( وادي الجرم حاليا ) ، وادي اليابس ، ومزار شرحبيل ، وتل قرن الحمار ( القرن حاليا ) ، وعمتا ( قرية ابو عبيده حاليا ) ، ومزار ابو عبيدة ، حيث يتواجد حوله بعض البيوت الطينية (٤٨) . ومن الملاحظات الهامة التي سجلها ، أن منطقة غور الاردن توفر أرضا رعوية خصبة لعدد من القبائل البدوية ، بعضها استقر في غور الاردن ، والبعض الآخر قادم من المرتفعات الشرقية أو الغربية ، كما شاهد هذا الرحالة بعض الحقول المزروعة بالقمح والشعير والذرة (٤٩) .

أما بكنفهام فقد زار غور الاردن عام ١٨١٦ م وذكر مجموعة من المواقع وصفها بأنها قرى مهدامة أو مهجورة ، نذكر منها : تل الاربعين ، وخربة مرقعة ، وقبر الشيخ حسين ، وخربة هجيعة ، وفقارس ( قرية كريمة حاليا ) ، وعمتا (٥٠) . وفي عام ١٨٢٨ م زار ( ج.هـ ) الجزء الجنوبي من غور الاردن ( غور نمرين ) وشاهد بعض الحقول المزروعة بالقمح (٥١) . كما زار روبنسون منطقة وادي اليابس وطبقة فحل في عام ١٨٣٨ . وشاهد أثناء مروره بمنطقة وادي اليابس مجموعة من الفلاحين ، الذين أتوا اليها من المنطقة الجبلية ( من قرية فارة ) ، وبنوا لانفسهم أكواخا من القصب على الجانب الجنوبي من وادي اليابس (٥٢) . كما زار وارن الجزء الجنوبي من غور الاردن ، وشاهد حقول القمح ، التي زرعها السكان الاصليون للمنطقة ( دعاهم بالفوارنة ) (٥٣) . وفي عام ١٨٧١ م زار نورثي المنطقة الجنوبية لغور الاردن ومنطقة مجلون ، وشاهد هذا الرحالة حقول القمح المزروعة في غور الشونة الجنوبية وفي منطقة ابو عبيدة (٥٤) . وفي عام ١٨٨٢ زار الرحالة الالماني فان دي فلده غور الاردن الشمالي ، وسجل وجود قرية صغيرة وحديثة في طبقة فحل (٥٥) . كما زار لو سترانج المنطقة الشمالية من غور الاردن عام ١٨٨٤ م ، وشاهد حقول القمح المزروعة في السهول الممتدة بين طبقة فحل وبيسان (٥٦) . أما شوماخر فقد زار الجزء الشمالي من غور الاردن عام ١٨٨٦ م ، وسجل تواجد مجموعة من القرى الزراعية المأهولة بالسكان . ولقد تركز تواجد هذه القرى الزراعية في المنطقة الممتدة بين نهر اليرموك شمالا وطبقة فحل جنوبا (٥٧) . واكد سميث ملاحظات شوماخر سابقة الذكر ، حيث زار هذا الرحالة غور الاردن عام ١٨٩١ وسجل وجود مجموعة من القرى الزراعية المتواجدة



على أرضية غور الاردن (٥٨) . أما شتوير ناجل فقد زار منطقة عجلون عام ١٨٩٨ وسجل مجموعة من المواقع الاثرية في منطقة سليخات هي : خربة إهنيدة ، وخربة فلاح ، وخربة سبيرة ، وخربة القرن ، وسليخات ، وتل حندقوق ، وفقارس . كما سجل أن منطقة سليخات كانت تقصدها عائلات آتية من خربة الوهادنة في فصل الشتاء وترجع ثانية في فصل الصيف بعد ان تتم عملية الحصاد (٥٩) .

## المسوحات الاثرية الاخيرة في غور الاردن :

### ١ - المسح الاثري لمنطقة جسر الشيخ حسين (٦٠) :

تقع منطقة جسر الشيخ حسين في الجزء الشمالي من غور الاردن ، على بعد ١١ كم الى الشمال الغربي من مدينة طبة فحل الاثرية ، وعلى بعد ١٣ كم الى الجنوب من بلدة الشونة الشمالية ، وعلى بعد ٤٥ كم الى الجنوب الغربي من مدينة اربد .

هدف العمل الميداني الاثري في هذه المنطقة الى الكشف عن استمرارية او عدم استمرارية الاستيطان ، وطبيعته فيها ، كجزء ممثل لغور الاردن ، كما رمى هذا العمل الميداني الى محاولة الربط بين المواقع الاثرية التي تم التعرف عليها في المنطقة مع موقع تل قدسية ، الذي أظهرت المسوحات الاثرية السابقة فيه، فترات الاستيطان الكلاسيكي والاسلامي . تكون العمل الميداني الاثري في هذه المنطقة من جزئين مكملين لبعضهما بعضا ، الاول : مسح اثري منظم ودقيق للمنطقة ( بمساحة اجمالية تبلغ ١٦ كم ٢ ) ، والثاني ، الحفر الرأسي في موقع تل قدسية ، بغرض اظهار التسلسل التاريخي لهذا الموقع ، وربطه مع المواقع الاثرية التي أمكن التعرف عليها في منطقة المسح .

يتميز العمل الميداني الاثري في مناطق محدودة المساحة ، كم منطقة جسر الشيخ حسين ، بدقة رصد المواقع الاثرية الصغيرة المساحة ، والتي تقل مساحتها عن خمسة دونمات ، ولذلك فقد أمكن التعرف على ثلاثة مواقع أثرية لأول مرة في هذه المنطقة، وهي : خربة الشيخ محمد صالح الفزاوي ( وتسمى ايضا خربة سليم اليوسف ) ، وتل ابو عرابي الشمالي ، وتل يرفا .

أما المواقع الاثرية التي تم تسجيلها في منطقة جسر الشيخ حسين ( انظر الخارطة رقم ٢ ) ، والفترات التاريخية التي أظهرتها ( شاهد اللوحة رقم ٣ ) ، من خلال دراسة المخلفات الحضارية الظاهرة على سطحها ، فهي :



## ١ - تل فندي :

قسم هذا الموقع نظراً للاختلاف الواضح في تاريخ المخلفات الحضارية الظاهرة على السطح ، الى قسمين هما :

### ١ - تل فندي الشمالي ( الموقع A ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ( Grid Strategy ) ١٠٥٦ شقفة . ودلت دراسة هذه الشقف الفخارية والادوات الصوانية على ان هذا الموقع قد إستوطن بشكل أساسي في العصر الحجري النحاسي / المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر ( الالف الرابع قبل الميلاد ) حيث مثلت هذه الفترة ٩٨٩ شقفة فخارية ( بنسبة مئوية ٩٣٦٥ / من المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة ) . أما الشقف الفخارية الباقية فقد ارجعت للعصور التالية : العصر البيزنطي ( ٥ شقفة ) ، والعصر الايوبي/الملوكي ( ١٢ شقفة ) : والوقت الحاضر ( ٥ شقف ) .

### ب - تل فندي الجنوبي ( الموقع B ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٦١ شقفة ، وقد اُرخت جميعها للعصر الايوبي/الملوكي . ومما يلاحظ أن جميع الكسر الفخارية الملتقطة ، وتلك الظاهرة على سطح الموقع ، هي من تلك الجرار التي استخدمت في عملية تصنيع السكر في العصر الايوبي / الملوكي . وفي ظل غياب المرفقات الانشائية الخاصة لهذا الغرض في هذا الموقع . وظهورها في موقع آخر في منطقة البحث ( موقع تل ابو عرابي الشمالي ! ، والعثور على طوب محروق في موقع تل فندي الجنوبي ، والذي يعتقد أنه استخدم في بناء الافران الخاصة لحرق الآنية الفخارية ، يرجح الباحث ان هذا الموقع استخدم لتصنيع الآنية الفخارية المعدة لتصنيع السكر .

## ٢ - خربة الشيخ محمد صالح الفزاوي ( خربة سليم اليوسف ) :

لقد قسم هذا الموقع نظراً لكبر مساحته والاختلاف الواضح في طبوغرافيته ، الى ثلاثة اقسام هي :



أ - خربة الشيخ محمد صالح الفزاوي ( الموقع C ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٧٦٢ شقفة . وقد دلت دراسة هذه الشقف الفخارية على ان هذا الموقع قد استوطن في العصور التالية : العصر البرونزي المبكر ( ٣ شقفة ) ، والعصر الايوبي / الملوكي ( ٢١ شقفة ) ، والعصر العباسي / الفاطمي ( ٣١ شقفة ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( ٢٦٧ شقفة ) . ومن خلال استعراض عدد الشقف الفخارية المثلة لكل فترة ، فانه يمكن القول ان هذا الموقع قد استوطن بشكل اساسي في الفترة الممتدة بين القرن التاسع والقرن السادس عشر الميلادي .

ب - خربة الشيخ محمد صالح الفزاوي ( الموقع D ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف « Purposive Random Sampling » ٢٢٠ شقفة . وقد اُرخت هذه الشقف الفخارية للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر ( ١٠ شقف ) ، والعصر البيزنطي ( ٣ شقف ) ، والعصر العباسي / الفاطمي ( ١٠١ شقفة ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( ١٦ شقفة ) . كما ان هناك عشر شقف فخارية لم يتمكن من تحديد تاريخها ، لصغر حجمها .

ج - خربة الشيخ محمد صالح الفزاوي ( الموقع E ) .

لقد جُمعت ٣٧٣ شقفة فخارية عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف . وَاُرخت جميع هذه الشقف للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ( ٢٣٠٠ - ٢٠٠٠ قبل الميلاد ) . ويلاحظ ان جميع هذه الشقف هي من جرار ، كتلك التي عثر عليها في المقابر المنسوبة لهذه المرحلة ، الا انه لم يلاحظ وجود مثل هذه المقابر نظرا لأعمال التجريف الواسعة بالمنطقة ، لغايات استصلاح الاراضي للزراعة المروية .

٣ - تل الاربعين :

نظرا لمساحة هذا الموقع الكبيرة فقد قُسم الى أربعة مواقع ، هي :

أ - تل الاربعين ( الموقع F ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال



طريقة المخطط الشبكي ، ١٠٤٢ شقفة ، وأرخت هذه الشقف للعصور التالية : نهاية العصر الحجري الحديث ( المرحلة اليرموكية ) / العصر البرونزي المبكر ( ٨٢٩ شقفة ) ، والعصر البرونزي الوسيط ( ٥ شقف ) ، والعصر البرونزي المتأخر / العصر الحديدي ( ١٩٧ شقفة ) ، والعصر البيزنطي ( ٧ شقف ) ، والعصر الايوبي/الملوكي ( ٥ شقف ) والوقت الحاضر ( ٣ شقف ) .

ب - تل الاربعين ( الموقع G ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٤٩٦ شقفة . وقد مثلت هذه الشقف الفخارية العصور التالية : المرحلة اليرموكية من العصر الحجري الحديث / العصر البرونزي المبكر ( ٢٩٣ شقفة ) ، والعصر البرونزي المتأخر / العصر الحديدي ( ١٨٠ شقفة ) ، والعصر البيزنطي ( ١٢ شقفة ) ، والعصر الايوبي / الملوكي ( ٥ شقف ) والعصر العثماني ( ٣ شقف ) ، والوقت الحاضر ( ٣ شقف ) .

ج - تل الاربعين ( الموقع H ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المسح العشوائي الهادف والمسح العشوائي الثابت الحدود ، ١٦٣ شقفة . وقد أرخت هذه الشقف للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر ( ٧ شقف ) ، والعصر العثماني / البيزنطي ( ٧ شقف ) والعصر الايوبي/الملوكي ( ١٤ شقفة ) ، والعصر العثماني ( ٥ شقف ) ، والوقت الحاضر ( ١٥ شقفة ) . كما أنه لم يتمكن من تحديد تاريخ ٥٥ شقفة فخارية نظرا لصغر حجمها .

د - تل الاربعين ( الموقع I )

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المسح العشوائي الهادف والمسح العشوائي الثابت الحدود ، ٢٠٢ شقفة . وأرخت هذه الشقف للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر ( ٧٤ شقفة ) ، والعصر البيزنطي ( ٧ شقف ) ، والعصر الايوبي / الملوكي ( ١٤ شقفة ) ، والعصر العثماني ( ٣ شقف ) ، والوقت الحاضر ( ٦٥ شقفة ) - أما الشقف الفخارية الباقية فلم يتمكن من تأريخها لصغر حجمها . كما رصد في هذا الموقع أساسات لبوت حجرية تعود للقرن التاسع عشر الميلادي ، ويعتقد أنها تلك التي سجلها الرحالة الاوروبيون مثل بكنفهام في ١٨١٧م (٦١) وشوماخر في عام ١٨٨٧م (٦٢) .



#### ٤ - تل أبو عرابي الشمالي ( الموقع J ) .

بلغ المجموع العام للشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المخطط الشبكي ، ٣٤٠ شقفة . اُرخت جميع هذه الشقف للعصر الايوبي / المملوكي وهي جميعا من تلك الجرار المستخدمة في تصنيع السكر خلال تلك الفترة .

كما عثر في وادي زقلاب ، الواقع على الطرف الجنوبي لهذا الموقع الاثري ، على سد حجري . ويعتقد بأنه أنشئ لتحديد مسار مياه هذا الوادي، وذلك لاستخدامها اما لسقاية الحقول المزروعة بقصب السكر في منطقة جسر الشيخ حسين ، او لادارة طاحونة لاستخراج السكر. الا انه لم يعثر على سطح هذا الموقع على المرفقات الانشائية الاخرى المستعملة في تشييد مثل هذه الطواحين والمنتشرة في غور الاردن .

#### ٥ - تل يرفا ( الموقع K ) .

جُمعت ٥٤ شقفة فخارية عن سطح هذا الموقع ، وذلك باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، وأُرخت هذه الشقف الفخارية للعصور التالية : العصر البيزنطي ( ٥ شقف ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( ٤٤ شقفة ) ، واوقت الحاض ( ٥ شقف ) .

#### ٦ - خربة الشيخ محمد

قسم هذا الاثري ، نظرا لكبر مساحته ، الى قسمين هما :

#### أ - خربة الشيخ محمد ( الموقع L ) .

اُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المخطط الشبكي والمسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ( ١٠١١ شقفة ) ، والعصر البرونزي الوسيط ( ٥٤ شقفة ) ، والعصر البيزنطي ( ٣ شقف ) ، والوقت الحاضر ( ١٤ شقفة ) .

#### ب - خربة الشيخ محمد ( الموقع M ) .

اُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المخطط الشبكي والمسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحجري الحديث / العصر الحجري انحاسي ( ٤٤٤ شقفة ) ، والعصر البرونزي الوسيط ( ٣٦ شقفة ) ، والعصر البيزنطي ( ٣ شقف ) ، والوقت الحاضر ( ٣ شقف ) .



٧ - تل قدسية ( الموقع N ) .

جُمعت عن سطح هذا الموقع ٢٠٠٩ شقفة فخارية ، وذلك باستخدام طريقة المخطط الشبكي . وقد أُرخت هذه الشقف للعصور التالية : العصر البيزنطي المتأخر ( ٩٦٢ شقفة ) ، والعصر البيزنطي / الأموي ( ٥٧٧ شقفة ) ، والعصر الأموي ( ٢١٩ شقفة ) والعصر العباسي / الفاطمي ( ١٩١ شقفة ) ، والعصر الأيوبي / المملوكي ( ٥٧ شقفة ) ، والعصر العثماني ( ٣ شقف ) .

٨ - خربة الشيخ حسين الموقع O ) .

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الأيوبي / المملوكي ( ٢٣٩ شقفة ) ، والعصر المملوكي / العثماني ( ١٤ شقفة ) .

٢ - المسح الاثري في منطقة سليخات :

تقع منطقة سليخات في الجزء الجنوبي من غور الاردن الشمالي ، وعلى بُعد ٧٢ كم الى الجنوب الغربي من مدينة اربد ، وعلى بُعد ١٦ كم الى الجنوب من مدينة طبقة فحل الاثرية ، وعلى بُعد ١٧ كم الى الشمال الشرقي من موقع تل دير علا (٦٣) .

كان هدف العمل الميداني الاثري في هذه المنطقة تحديد المواقع الاثرية وتاريخ الاستيطان فيها ، والربط بين المواقع الاثرية الموجودة في هذه المنطقة ومصادر المياه . كما هدف هذا المسح ، كجزء من مشروع إثنو أثري ، الى توثيق المنشآت المعمارية وانظمة الري العائدة للفترات القديمة والحديثة على حد سواء .

اسفر المسح الاثري في هذه المنطقة عن تسجيل أربعة عشر موقعا اثريا ، منها ثلاثة مواقع امكن التعرف عليها لأول مرة ، وهي السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليخات ، والسفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات ، والسفح السفلي لتل هجيبة . اما المواقع الاثرية التي تم رصدها في منطقة البحث فهي (٦٤) :

١ - قرية سليخات .

نظرا لكبر مساحة هذه القرية والمنطقة المحيطة فيها ، فقد قسمت الى ثلاثة اقسام هي :



## أ - السفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المسح العشوائي الهادف والمسح الثابت الحدود ، للعصور التالية : العصر الحجري النحاسي ( ١١ شقفة ) ، والعصر الحديدي ( ٣ شقف ) ، والعصر البيزنطي ( ٧ شقف ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( ٢٢ شقفة ) ، والعصر العثماني ( ٣ شقف ) . كما عثر في هذا الموقع على بقايا لمصرة نبذ ، نحتت بالصخر الطبيعي ، وتعود للعصر البيزنطي . كما عثر في هذا الموقع على خمسة كهوف ، ويعتقد ببناء على دراسة الادوات الصوانية المنتشرة على سطح الموقع ، بأنها قد سكنت في العصر الحجري الحديث .

## ب - السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليخات :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقتي المسح العشوائي الهادف والمسح العشوائي الثابت الحدود ، للعصور التالية : العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ( ٨ شقف ) ، والعصر الروماني / البيزنطي ( ٦ شقف ) ، والعصر الايوبي المملوكي ( ١٧ شقفة ) ، والوقت الحاضر ( ٤ شقف ) . وبناء على دراسة الادوات الصوانية الملتقطة عن سطح هذا الموقع، يعتقد بأن مجموعة الكهوف الصخرية المتواجدة به قد سكنت في العصر الحجري الحديث.

## ج - قرية سليخات :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر البيزنطي ( ٨ شقف ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( ٧٢ شقفة ) ، والعصر العثماني ( ٤ شقف ) ، والوقت الحاضر ( ٤ شقف ) . كما عثر في وادي سليخات ، الواقع في الطرف الشمالي بهذه القرية ، على ثلاث معاصر استخدمت في العصر الايوبي / المملوكي لعصر قصب السكر . ولم تستخدم المياه الجارية في وادي سليخات وتلك المجمعة من عيني هنيذة وهجيبة لادارة طواحين السكر هذه فقط ، وانما استخدمت لسقاية تلك الحقول المزروعة بقصب السكر في العصر الايوبي / المملوكي ، حيث عثر على قناة حجرية استخدمت لتجميع مياه عيني هجيبة وهنيذة في بركة اصطناعية ، وبعد استخدام هذه المياه لادارة هذه الطواحين، يعاد استخدامها عبر قناة حجرية اخرى لسقاية حقول قصب السكر في المنطقة .



## ٢ - موقع مقبرة سليخات :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي المبكر ، والمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ، وللعصر البرونزي الوسيط . كما عثر على مجموعة من الأدوات الحجرية تمثل اجزاء لاجران ومدقات وثقالات نسيج ، أرخت للعصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي .

## ٣ - تل ابو العقارب :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي المبكر ( ٤ شقف ) وللعصر الحديدي ( ٣٨ شقفة ) . كما عثر على قمة هذا الموقع على أساسات حجرية لبيت مستطيل الشكل . ولقد حصن هذا البيت ببرجين مربعي الشكل ، يقع الاول على الجانب الشمالي للمدخل ، أما الآخر فيقع على الطرف الجنوبي الغربي . وبناء على دراسة الشقف الفخارية الملتقطة عن السطح ، والدراسة المقارنة بين التخطيط المعماري لهذا البيت المحصن وبيوت اخرى مشابهة عثر عليها في صحراء النقب (٦٥) ، يعتقد بأنه يعود للعصر الحديدي .

## ٤ - تل دحنون :

لقد أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصر الحديدي ( ٢٥ شقفة ) . كما يظهر على السطح أساسات حجرية لبيوت سكنية ، ويلف هذا الموقع جدار تحصيني بسماكة متر واحد ، تتخلله أبراج مربعة الشكل على الاطراف الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية . ومن أجل تدعيم الجدار التحصيني فقد بنيت دعائم استنادية على الجزء الاوسط من المنحدر الواقع على الطرف الغربي للموقع ، وقد أُرخت هذه المنشآت المعمارية للعصر الحديدي .

## ٥ - تل حندقوق :

أُرخت جميع الشقف الفخارية ( ١٠٥ شقف ) الملتقطة عن سطح الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي المبكر ، كما أجرى الباحث مابري (٦٦) مجسات اختبارية في هذا الموقع ،



تم التعرف من خلالها على التسلسل التاريخي للاستيطان به، والتي شملت المرحلة الأخيرة من العصر الحجري النحاسي ، والعصر البرونزي المبكر بمراحله الأولى والثانية . كما يستدل من خلال دراسة آثار الاختتام الأسطوانية التي عثر عليها مابري (٦٧) وكاتب هذا التقرير ، ان هذا الموقع ارتبط بعلاقات تجارية مع مواقع سورية كتل الجديدة، في العصر البرونزي المبكر .

## ٦ - خربة هجيحة :

نظرا لاتساع مساحة هذه الخربة والمنطقة المحيطة بها ، وللتباين الواضح في تأريخ البقايا الأثرية الظاهرة على السطح ، فقد قُسمت الى ثلاثة اقسام هي :

### أ - خربة هجيحة :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الروماني ( ٤ شقف ) ، والعصر البيزنطي ( ٣٧ شقفة ) ، والعصر الأموي ( ١٦ شقفة ) ، والعصر العباسي ( شقفتان ) ، والعصر الأيوبي / المملوكي ( ٦ شقف ) ، والعصر العثماني ( ٤ شقف ) ، والوقت الحاضر ( شقفتان ) .

أمكن تأريخ بقايا جدران حجرية لمنشآت معمارية سكنية ، تقع أسفل البيوت الحديثة وفي ساحاتها ، الى العصر البيزنطي / الأموي ، وذلك من خلال دراسة الشقف الفخارية الملتقطة من المقاطع المجاورة لاساسات هذه الجدران .

كما كُشف في هذا الموقع عن كنيسة ، رصفت أرضيتها بالفسيفساء ، وألحقت بها حجرتان على الجانب الجنوبي . أما المنشآت المعمارية التي تعود للعصر المملوكي / العثماني فقد جاءت على شكل أبنية كبيرة الحجم ( ١٠ x ٦ م ) ، بنيت من الحجارة الكبيرة . واستخدم الملاط الطيني والحجارة الصغيرة في تثبيت مداмик هذه الجدران . وعثر على خزان للماء (القطر ٣ م ، العمق ٥٠ سم ) يعود لهذه الفترة ، بنيت جدرانها من حجارة المرحلة السابقة . وتشير الوثائق العثمانية العائدة لعام ١٥٩٦ م ، والمتعلقة بجمع الضرائب ، الى ان سكان هذا الموقع ( دُعيت تحت اسم مزرعة حجج ) كانوا يدفعون الضرائب بمقدار ( ١٥٠٠ ) آقجة ، وهي ضمن تيمار (٦٨) يتبع اسماعيل بن عثمان وشريكه (٦٩) . ولعل ذكر الوثائق العثمانية لهذه الخربة يؤكد ما ذهبنا اليه من تأريخ هذه المنشآت المعمارية لنهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني .



أما المنشآت المعمارية التي تعود الى ما بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٥٠م فقد جاء تخطيطها المعماري على شكل جناحين ، الجناح الشرقي ، وقد استخدم للمعيشة ويتكون من حجرة واحدة أو حجرتين ، وأما الجناح الجنوبي فقد استخدم للتخزين ( من قمح وشعير وتبن ) ، ويتكون هذا الجناح من حجرة واحدة تنتهي في طرفها الجنوبي بتجويف صخري ( مغارة ) . ويبدو أن هذا التخطيط المعماري يتناسب مع ما ذكره الرحالة الاوروبيين من أن هذه الخربة لم تكن مأهولة بالسكان بشكل مستديم في مطلع هذا القرن ، حيث كانت تؤمها عائلات قليلة العدد في فصل الشتاء من خربة الوهادنة ، الواقعة على المرتفعات الجبلية ، للاشتغال بالزراعة أو الرعاية ، وتعود هذه العائلات مرة أخرى من حيث جاءت في فصل الصيف . وبالتالي يمكن القول ان التخطيط المعماري لهذه المساكن يتناسب وطبيعة الاستيطان الموسمي في هذه الخربة في مطلع هذا القرن .

#### ب - تل هجيبة :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع للعصور التالية : نهاية العصر الحجري النحاسي / العصر لبرونزي المبكر ( ٣٩ شقفة ) ، والعصر الحديدي ( ٦٠ شقفة ) ، والعصر البيزنطي ( ٤٢ شقفة ) ، والعصر الاموي ، ( ٨ شقف ) . كما عثر على أساسات حجرية لبناء مربع الشكل ( ١٠ x ١٠ م ) يعلو قمة التل . ونظرا لكثرة الشقف الفخارية العائدة للعصر البيزنطي المنتشرة بالقرب من هذا المبنى ، يعتقد أنه أحد الحصون العسكرية العائدة لهذه الفترة . أما النظام التحصيني الذي عثر عليه في الاطراف الجنوبية والشرقية فهو مكون من جدار دفاعي ( عرض ١٦٠سم ) تدعمه دعائم مبنية من الحجارة ( ١٠ x ١٠ م ) ، كما دُعمت الزوايا بدعامات حجرية أصغر حجما ( ٢ x ٢ م ) .

#### ج - سفح تل هجيبة السفلي :

أرخت الشقف الفخارية الملتقطة من سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر الحديدي ( ٨ شقف ) ، والعصر الروماني ( ٥ شقف ) ، والعصر البيزنطي ( ١٠١ شقفة ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( شقفة واحدة ) . كما ظهر على سطح هذا الموقع أساسات حجرية لبناء مؤلف من حجرتين يتقدمها ساحة امامية مكشوفة ومسورة . وبناء على كثافة الشقف الفخارية العائدة للعصر البيزنطي ، يعتقد ان هذا المبنى يعود لهذه الفترة .



## ٧ - تل ابو البعر :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة من سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر البرونزي المبكر ( شقفتان ) ، والعصر الحديدي ( ٢٥ شقفة ) ، والعصر الروماني ( شقفتان ) ، والعصر البيزنطي ( شقفة واحدة ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( شقفتان ) . وتظهر على سطح هذا الموقع أساسات لجدران حجرية تشكل مجموعة وحدات سكنية ، الا أنه لم يلاحظ وجود أسوار دفاعية حول الموقع . وبناء على كثافة الشقف الفخارية العائدة للعصر الحديدي بمرحلتيه الاولى والثانية ، يعتقد بأن هذه المساكن تعود لهذه الفترة .

## ٨ - تل مرار :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ( ١٨٠ شقفة ) ، والعصر الروماني ( ٣ شقف ) . كما عُثر على جدران حجرية ، يعتقد بأنها تعود للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر . وتبين من خلال تفحص الحفر الواقعة على قمة التل ، ان الشقف الفخارية العائدة للعصر البرونزي المبكر - المرحلة الرابعة - قد تواجدت على أرضية التل المبكر ، ليدل ذلك على أن هذا الموقع قد استوطن لأول مرة خلال تلك الفترة .

## ٩ - خربة عين البيضاء ( او خربة فلاح ) :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة عن سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف ، للعصور التالية : العصر البيزنطي ( ٧٠ شقفة ) ، والعصر الاموي ( ١٢ شقفة ) ، والعصر الايوبي / المملوكي ( شقفتان ) ، والعصر العثماني ( شقفتان ) والوقت الحاضر ( ٣ شقف ) . كما عُثر على السطح جدران لبيوت سكنية طلي الوجه الداخلي لها بالقصارة . وبناء على ارتفاع نسبة الشقف الفخارية العائدة للعصر البيزنطي وقطع الحجارة المنتظم ، يعتقد بأنها تعود لهذا العصر .

## ١٠ - خربة سيرة :

أُرخت الشقف الفخارية الملتقطة من سطح هذا الموقع ، باستعمال طريقة المسح العشوائي الهادف وطريقة المسح العشوائي ذات الحدود الثابتة ، للعصور التالية :



د. جمعة محمود كرم .....

العصر الحجري الحديث / عصر الحجري النحاسي ( ٢٤ شقفة ) ، والعصر البرونزي المتأخر ( ٧ شقف ) ، والعصر الحديدي ( ١٩ شقفة ) ، والعصر الروماني ( ٤ شقف ) ، والعصر البيزنطي ( ١٤ شقفة ) ، والعصر الأموي ( ٥ شقف ) ، والعصر الأيوبي / المملوكي ( ٦ شقف ) ، والعصر العثماني ( ٧ شقف ) ، والوقت الحاضر ( شقفتان ) .

### الحفريات الأثرية الأخيرة في شمال غور الأردن

أشرف كاتب هذا التقرير على حفريتين أثريتين في غور الأردن الشمالي ، هما تل قدسية في منطقة جسر الشيخ حسين ، وموقع ذراع الخان ، الواقع على بعد ٥ كم إلى الجنوب الشرقي من بلدة الشونة الشمالية ، وستسهم نتائج هذه الحفريات الأثرية في تدعيم معرفتنا التاريخية عن منطقة البحث في الفترات الكلاسيكية المتأخرة والإسلامية .

#### ١ - تل قدسية (٧٠) :

هدف الباحث من أعمال المسح الأثري في منطقة جسر الشيخ حسين ، والحفر الرأسي في موقع تل قدسية إلى التعرف على كثافة وطبيعة الاستيطان في هذه المنطقة، الممثلة لغور الأردن ، خلال العصور الإسلامية عامة والعصر الأموي خاصة . وتبين من خلال مسح هذه المنطقة أثريا ، أن موقعا واحدا فيها ، قد أظهر على سطحه مخلفات حضارية تعود للعصر الأموي ، وهو موقع تل قدسية . ولذلك اقتضت الحاجة إلى إجراء حفريات أثرية فيه ، أظهرت أن هذا الموقع قد استوطن في الفترات التالية :

أ - العصر العثماني : لقد أظهرت مخلفات هذه الفترة في السوية العلوية من هذا الموقع ، وهي تمثل أجزاء لجدران مبنية من الحجارة المتوسطة الحجم ، وشقف فخارية مزججة وأخرى بصناعة يدوية « Village Ware » . كما عثر على قطعة عملة فضية في هذه السوية تحمل اسم السلطان العثماني سليمان بن سليم ( ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ ) .

ب - العصر الأيوبي / المملوكي : لقد عثر على السوية الممثلة لهذا العصر أسفل سوية العصر اللاحق . كما عثر عليها في جميع مربعات الحفر ، وفي المقاطع الرأسية المتواجدة في الموقع ، كنتيجة لتجريف أجزاء منه لأغراض الزراعة المروية . وبالرغم من عدم العثور على قطع عملة في هذه السوية ، تعود لهذه الفترة ، إلا أن الدراسة المقارنة للشقف الفخارية المزججة ، وتلك المصنعة محليا « Village Ware » تثبت صحة



تأريخها . أما المنشآت المعمارية المثلة لهذه الفترة فقد جاءت على شكل أجزاء لجدران مبنية من الطوب الطيني .

ج - العصر العباسي / الفاطمي : عثر على سوية هذا العصر أسفل سوية المرحلة السابقة، في جميع مربعات الحفر . مثلت هذه الفترة بالقطع الفخارية المزججة واللامعة « Luster Ware » والشقف الفخارية المعروفة باسم « Raqqa Ware »

د - عثر على السوية المثلة لهذه الفترة في المربعين ١ و ٢ . وقد مثلت هذه الفترة منشآت معمارية بنيت بالطوب الطيني . كما يظهر من خلال دراسة مادة البناء المستعملة في المنشآت المعمارية أن هنالك فترة مبكرة لهذا العصر . استعملت فيها الحجارة كمادة بناء . ويبدو أن هذه الحجارة قد أعيد استخدامها من المرحلة السابقة - البيزنطية - . كما عثر على مجموعة كبيرة من الشقف الفخارية العائدة لهذه الفترة، قورنت مع مثيلات لها ، عثر عليها في عدة مواقع ، نذكر منها طبقة فحل وجرش . كما عثر على طابون في المربع رقم ١ ، يعود لهذه الفترة ، يدل ذلك أن السوية المثلة لهذه الفترة في هذا المربع تقع في ساحة أحد البيوت السكنية .

هـ - العصر البيزنطي : لقد عثر على السوية المثلة لهذه الفترة أسفل السوية المثلة للمرحلة اللاحقة في المربعين ١ و ٢ . ولقد مثلت هذه الفترة بجدران مبنية من الحجارة المشذبة وأرضيات من البلاستر ، ومجموعة كبيرة من الشقف الفخارية العائدة لهذا العصر .

وقد اقتضى الهدف من الحفريات الاثرية في هذا الموقع، توقف الباحث عن الحفر الراسي في جميع المربعات والمقاطع مع عثوره على المخلفات الحضارية المنسوبة للعصر البيزنطي ، ولذلك لم يتوصل الى أرضية الموقع البكر ، ولذلك تبقى معرفتنا عن فترات الاستيطان المبكرة بالموقع مجهولة .

## ٢ - ذراع الخان (٧١) :

يقع موقع ذراع الخان على بعد ٢ كم للجنوب الشرقي من تل الشونة الشمالي، وعلى بعد حوالي ١٥ كم للشمال من موقع طبقة فحل وعلى بعد ٣٣ كم الى الغرب من مدينة أربد . دلت المسوحات الاثرية السابقة على تواجد بقايا منشأة معمارية كبيرة، اعتقد على انها تمثل خانا يعود للعصر المملوكي أو العثماني (٧٢) .



رمت الحفريات الاثرية التي اجراها كاتب هذا التقرير في هذا الموقع التوصل الى الاهداف التالية : ١ - الحصول على تاريخ دقيق لهذه المنشأة المعمارية وتوضيح وظيفتها ، ٢ - محاولة ايجاد مميزات دقيقة تفصل المخلقات الحضارية العائدة للعصر المملوكي عن تلك التي تعود للفترة السابقة او اللاحقة لها ، ٣ - تحديد اثر خطوط التجارة على أنظمة وكثافة الاستيطان القروي في غور الاردن . ومن أجل تحقيق هذه الاهداف ، اعتمد الباحث ثلاث طرق للحفر في هذا الموقع ، هي : ١ - طريقة الحفر الراسي في المربعات C1 ، C2 ، B6 ، B9 ، B10 ، ٢ - طريقة الحفر الافقي في المربعات D1 ، D2 ، D3 ، D4 ، D5 ٣ - اعادة القطع الراسي للمقاطع الموجودة بالموقع ، وتشمل : B-Tr1 ، B-Tr2 و C-Tr2 ، C-Tr3 ، C-Tr4 .

وتم حفر ما مساحته ٢٣١٢ م<sup>٢</sup> والى عمق حوالي ٢٥ م ، وذلك باستخدام طريقتي الحفر العمودي ، واعادة القطع الراسي ، و ١١٠ م<sup>٢</sup> وذلك باستخدام طريقة الحفر الافقي .

لقد عثر الباحث في هذا الموقع على ١٢٤ قطعة عملة ، التقطت ١٧ منها على السطح ، كان لها أهمية كبيرة في تأريخ المخلقات الحضارية الاخرى بدقة كبيرة . وتراوح تأريخ قطع العملة التي عثر عليها في طبقات أثرية ما بين فترة حكم السلطان قلاوون ( ١٢٨٠ - ١٢٩٠ م ) والسلطان جقمق ( ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م ) . أما قطع العملة التي تعود لفترات متأخرة ، كفترة حكم السلطان قانصوة الغوري ( ١٥٠١ - ١٥١٦ م ) والسلطان العثماني مراد الثالث ( ١٥٧٤ - ١٥٩٥ م ) فقد جاءت من سطح الموقع .

لقد جاء المخطط العام لهذه المنشأة المعمارية مستطيل الشكل ( ٦٤ x ٥٤ م ) . بنيت جدرانها بصفين من الحجارة المشذبة ، واستخدم الملاط الكلسي في تثبيتها . دُعمت هذه الجدران بدعامات حجرية مربعة او مستطيلة الشكل أحيانا . ويستدل من خلال دراسة الشقف الفخارية ، استخدم الجناح الشمالي لهذه المنشأة لأغراض التخزين ، حيث عثر فيه على أعداد كبيرة من الشقف الفخارية الخاصة بجرار التخزين ، في حين عثر على الاطباق المزججة وجرار الطبخ في حجرات الجناح الشرقي ، ليدل ذلك على أن هذا الجناح قد استخدم لأغراض السكن . وأما الجناحان الاخران الجنوبي والغربي ، فلم يتمكن من تحديد وظيفتهما ، ولعل الحفريات المستقبلية فيه توضح هذه الوظيفة .

ومن خلال دراسة قطع العملة التي وجدت على الارضيات ، ودراسة الاختلافات الموجودة في البناء ، من حيث الاضافات ، تبين أن هذه المنشأة ( الخان ) قد بنيت ،



أو أعيد بناؤها ، في مرحلتين : تعود الاولى الى فترة حكم السلطان قلاوون ( ١٢٨٠ - ١٢٩٠ م ) والثانية الى الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد ( ١٣١٠ - ١٣٤٠ م ) . كما يبرز العثور على شقف فخارية مستوردة من سوريا ومصر والعثور على قطعتي عملة صليبية وقطعة عملة الخانية ، أهمية هذا الموقع على خطوط التجارة الواصلة بين دمشق والقاهرة في العصر المملوكي .

ومن الجدير ذكره أيضا ، أن المحطات التجارية - الخانات - الواقعة على الخط التجاري الواصل بين حاضرتي العالم الاسلامي في العصر المملوكي ، دمشق والقاهرة ، قد ذكرت من قبل بعض المؤرخين المسلمين كالقلقشندي (٧٢) وابن تغري بردي (٧٤) ، ومن هذه المحطات التي ذكرها هؤلاء المؤرخون على هذا الخط ، محطة القصر (الشونة الشمالية) . وبما أنه لم ترصد لنا المسوحات الاثرية السابقة في منطقة الشونة الشمالية ، الواقعة على بعد ٥ كم للشمال الغربي من موقع ذراع الخان عن أي منشأة معمارية تعود لهذه الفترة يحتمل أن تكون خانا ، غير موقع ذراع الخان فانه يعتقد بأن محطة القصر هي نفسها موقع ذراع الخان . ولقد اهتم سلاطين المماليك وأمرأؤهم بهذا الخط التجاري ، خاصة الأمير الدمشقي سيف الدين تنكيز ، والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لإنشاء هذا الخط التجاري في عام ١٣٤٠ م .

### المعطيات التاريخية لغور الاردن الشمالي من خلال الاعمال الاثرية الميدانية

عثر على الادوات الحجرية التي صنعها انسان المرحلة الاولى من العصر الحجري القديم ( ١٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ سنة من الان ) في عدة مواقع تقع على قمة المرتفعات المطلة على غور الاردن كموقع تل أبو هابيل (٧٥) الذي يقع على بعد ٣ كم الى الشمال من منطقة سليخات وفي موقع تل أبو الخس (٧٦) ، الذي يقع على بعد ١٧ كم الى الشمال من منطقة سليخات ، وعلى بعد حوالي ١٠ كم الى الجنوب الشرقي من منطقة جسر الشيخ حسين . اما الادوات الصوانية التي تعود للمرحلة الثانية من العصر الحجري القديم ( ١٠٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة من الان ) فقد عثر عليها في عدة مواقع واقعة على المرتفعات المطلة على غور الاردن ، وبين منطقتي سليخات وجسر الشيخ حسين ، نذكر منها السخنة والمرزة الجنوبية ومنحدرات تل أبو علوبة (٧٧) . كما ظهرت الادوات الصوانية التي تعود للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم ( ٤٠٠٠ - ١٧٥٠٠ سنة من الان ) في عدة مواقع تقع ايضا على المرتفعات المطلة على غور الاردن بين منطقتي سليخات وجسر الشيخ حسين ، نذكر منها وادي المرزة ووادي أبو علوبة (٧٨) ، كما ظهرت هذه الادوات بالقرب من طبقة فحل وعلى بعد حوالي ٧ كم للجنوب الشرقي من طبقة فحل كما في وادي الحمة ، المواقع رقم ٣٢ و ٣٤ (٧٩) . تميزت المرحلة اللاحقة من العصر الحجري القديم ( المرحلة الانتقالية بين الانسان



الصيد والانسان المنتج ) ، ( ١٧٥٠٠ - ٨٥٠٠ ق.م ) بظهور أدوات حجرية جديدة كالمنجل والسهم ، وأدوات ثقيلة للهرس والجرح ، بالإضافة الى أبنية حجرية تعكس لنا مدى تفاعل انسان هذه الفترة مع تغيرات جديدة في بيئته الطبيعية ، ومعطياتها ، بالإضافة الى انتهاء العصور الباردة (٨٠). ولعل أشهر المواقع الاثرية المكتشفة على المرتفعات المطلّة على غور الاردن ، التي تعود لهذه الفترة موقع وادي الحمة رقم ٢٦ . كشفت التنقيبات الاثرية في هذا الموقع عن بقايا لمنشآت معمارية دائرية وبيضاوية الشكل ومجموعة كبيرة من الادوات الصوانية والآنية البازلتية (٨١) .

لم تسجل لنا المسوحات الاثرية السابقة او الحالية في منطقة البحث عن تواجد للادوات الصوانية التي صنعها انسان العصور الحجرية القديمة ، تلك التي تسبق الالف التاسعة قبل الميلاد . ولعل انسان هذه الفترة كان يرتاد أو يعيش في مناطق أكثر ارتفاعا ، أي تلك المناطق التي تعدت حدود المسح لأرضية غور الاردن . ومما يؤكد ذلك ، ان الادوات الحجرية التي صنعها انسان العصر الحجري القديم ، قد عثر عليها على قمة المرتفعات المطلّة على غور الاردن ، حيث انه من المعتقد أن غور الاردن حتى نهاية هذه الفترة ، كانت تغطيه بحيرة ، دعيت ببحيرة اللسان (٨٢) .

تميزت فترة العصر الحجري الحديث ( ٨٠٠٠ - ٤٠٠٠ قبل الميلاد ) بظهور القرى الزراعية في جنوب بلاد الشام . وطور انسان هذه الفترة أدواته الحجرية ومنشآته المعمارية لتناسب ومعطيات حياته الاقتصادية الجديدة ، التي تعتمد بشكل رئيسي على الزراعة - كما صنع انسان المرحلة الاخيرة من هذا العصر - المرحلة اليرموكية - آنية فخارية ، تعتبر الاقدم تاريخا من نوعها في المنطقة (٨٣) . وقد بينت الحفريات الاثرية في غور الاردن ، أن انسان هذه الفترة قد سكن داخل حفر بيضاوية الشكل ، وقد عثر على هذه المساكن في مواقع عدة ، نذكر منها تل الشونة الشمالي (٨٤) وابو هابيل (٨٥) ، وغروبة (٨٦) ، وتليلات غسول (٨٧) . كما كشفت المسوحات الاثرية السابقة عن وجود نسبة استيطان مرتفعة تعود للعصر الحجري الحديث (٨٨) . ولقد سجل جلوك موقعا أثريا واحدا في منطقة البحث وقد ظهر على سطحه أدوات حجرية تعود للعصر الحجري الحجري الحديث (٨٩) ، بينما سجل معاوية ابراهيم ورفاقه ٣٣ موقعا أثريا ( تمثل ما نسبته ٣١٪ من مجموع المواقع المسجلة في منطقة البحث ) ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي (٩٠) . اما في منطقة جسر الشيخ حسين فقد عثر على المخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة في أربعة مواقع ، كما ظهرت هذه المخلفات في أربعة مواقع أيضا في منطقة سليخات (٩١) .

يعزو دارسو فترات العصر الحجري القديم - المرحلة الاخيرة ( ١٩٠٠٠ -



١٠٠٠ ر. قبل الميلاد ) ، والعصر الحجري الحديث ، تحركات الانسان من المناطق المرتفعة - الجبال المطلة على غور الاردن - الى المناطق المنخفضة - سهل الفور - الى الجفاف الذي صاحب هاتين الفترتين (٩٢) . ويظهر ذلك من خلال توزيع مواقع العصور الحجرية ، حيث وجد أن هناك تدرجا تنازليا في مواقع استيطان الانسان من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة . ان التوزيع المكاني للمواقع التي اظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري الحديث في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات - حيث ظهرت هذه المواقع على السفوح المطلة على قرية سليخات في منطقة سليخات ، وعلى التلال الواقعة في السهل الفوري في منطقة جسر الشيخ حسين - يتفق مع ما ذهب اليه كوكي وسميث (٩٢) من وجود بحيرة تغطي السهل الزوري في هذه الفترة ، أسمياها بحيرة بيسان ، التي أخذت تجف في الفترات اللاحقة - العصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي المبكر - لتشكل مستنقعات مائية صغيرة الحجم . كما يستدل من كثرة المواقع الاثرية التي تعود للعصر الحجري الحديث في منطقة البحث عن ملائمة هذه المنطقة مناخيا ووفرة المصادر الغذائية اللازمة لاعاشة سكان مجموعة من القرى الصغيرة .

ظهر في الفترة التالية - العصر الحجري النحاسي ٤٠٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م - توسع ملحوظ لقرى الالفين السابع والسادس قبل الميلاد ، ويتضح ذلك جليا من خلال استعراض المساحة الاجمالية لمواقعها ، كما هو عليه الحال في موقعي تل أبو حامد وتليلات غسول . وأخذت هذه المواقع ، وحسب موقعها الجغرافي ، ووفرة مصادرها المائية والزراعية والرعية ، تشكل نواة لتكوين نظام دويلات المدن في الفترة اللاحقة - العصر البرونزي المبكر ، كما تميز انسان العصر الحجري النحاسي ، الذي عاش في غور الاردن ، بأنه بنى لنفسه بيوتا مستطيلة الشكل من اللبن الطيني المرفوع على أساسات حجرية ، وفوق مستوى سطح الارض ، بدلا من استعمال الحفر كبيوت سكنية في العصر السابق . كما عثر على ساحات مكشوفة أمام هذه البيوت ، مورست فيها النشاطات اليومية المتعددة . وكشف عن هذه البيوت في موقعي تل أبو حامد (٩٤) وتليلات غسول (٩٥) . كما لجأ انسان هذه الفترة للعيش داخل الكهوف ، حيث ظهرت المخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة في كهوف سحاب ، حيث عثر المنقب في هذه الكهوف على مجموعة سويات متتالية تعود لهذه الفترة ، واستدل الباحث من ذلك أن الاستيطان فيها كان موسميا (٩٦) .

سجلت المسوحات الاثرية السابقة لغور الاردن أعدادا كبيرة من المواقع التي اظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي . وجاءت هذه المواقع موزعة ما بين المرتفعات المطلة على غور الاردن وحتى التلال المنخفضة ( الكتار ) الموجودة أسفل



السهل الغوري والمشرقة على السهل الفيضي ( الزور ) المجاور لنهر الاردن . ولقد عثر جلوك على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الحجري النحاسي على سطح ثمانية مواقع (٩٧) ( تمثل ما نسبته ١٣,٨ ٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ) . اما معاوية ابراهيم ورفاقه فقد سجلوا (٣٣) موقعا اثريا (٩٨) ( تمثل ما نسبته ٣,١٣ ٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ) وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي .

وتؤيد نتائج المسوحات الاثرية في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات ، ارتفاع نسبة المواقع المسجلة فيها ، والتي اظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر الحجري النحاسي ، ففي منطقة جسر الشيخ حسين ، سجلت اربعة مواقع اثرية وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود لهذه الفترة (٩٩) ، في حين سجلت ثمانية مواقع اثرية في منطقة سليخات تعود لهذه الفترة (١٠٠) .

كما عثر على مجموعة من الكهوف على السفح الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي لقرية سليخات . ونظرا للعثور على ادوات حجرية وشقف فخارية تعود لهذه الفترة ، والفترة السابقة بالقرب من هذه الكهوف ، فانه يحتمل انها قد سكنت من قبل الانسان الذي عاش في العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي . ان معرفتنا الحالية عن النمط المعيشي والحياة الاقتصادية للانسان الذي استخدم الكهوف للسكن في العصر الحجري النحاسي محدودة جدا ، فهل قام انسان هذه الكهوف في هذه الفترة بالزراعة ام انه اعتمد في حياته الاقتصادية على الرعي ، وماهي العلاقة الاقتصادية بين ساكني الكهوف وساكني البيوت الطينية المستطيلة في هذه الفترة ؟ ، ان الدراسات التي نعالج مثل هذه الفرضيات لم تظهر بعد ، وعلى ذلك يقترح الكاتب اجراء حفريات اثرية في احد كهوف منطقة سليخات ، لاجراء المقارنة اللازمة مع موقع تل ابو حامد ، الذي يقع على بعد ٢,٥ كم الى الغرب من قرية سليخات .

سكن انسان المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر ( ٣٢٠٠ - ٢٩٠٠ قبل الميلاد ) في بيوت مبنية من الطوب او الحجر وفي مستوطنات صغيرة المساحة ، غير مسورة ، حيث جاءت هذه القرى بالقرب من المصادر المائية وفي اماكن يسهل الدفاع عنها . وتجدر الاشارة الى ان انسان هذه الفترة اعتمد في حياته الاقتصادية على الزراعة (١٠١) .

ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر في عدة مواقع في منطقة البحث ، نذكر منها تل الشونة الشمالي (١٠٢) وتل السعيدية (١٠٣)



وتل حندقوق (١٠٤) كما أظهرت المسوحات الاثرية السابقة زيادة ملحوظة في نسبة الاستيطان في منطقة البحث خلال المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر . فقد سجل جلوك أربعة عشر موقعا (١٠٥)، تمثل ما نسبته ٢٤٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات اثرية تعود لهذه المرحلة . أما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ م ، فقد سجلت ثمانية وأربعين موقعا (١٠٦) ، تمثل ما نسبته ٤٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة للمرحلتين الاولى والثانية من العصر البرونزي المبكر . كما عثر على شقف فخارية عائدة للمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر في موقعين ، تل فندي ( الموقع A ) وتل الاربعين ( الموقعين F ، G ) ، في منطقة جسر الشيخ حسين (١٠٧) . أما في منطقة سليخات فقد عثر على شقف فخارية عائدة للمرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر في موقع تل حندقوق (١٠٨) .

نمت بعض القرى التي ظهرت في المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر لتصبح مدنا كبيرة في المرحلتين التاليتين من العصر البرونزي المبكر ( ٢٩٠٠-٢٣٠٠ ) قبل الميلاد . كما ظهرت في هاتين المرحلتين أنظمة سياسية واقتصادية متطورة شكلت النواة الاولى لنشوء ما يدعى بنظام « دول المدن » حيث يبدو ان هناك مجموعة عوامل سياسية واقتصادية ودينية وراء تطور مجتمع القرية في المرحلة الاولى من العصر البرونزي المبكر الى مجتمع المدينة في المرحلتين التاليتين لها (١٠٩) . بنيت حول هذه المدن اسوار حجرية عريضة ، تصل الى سبعة أمتار ، ويتخللها مجموعة أبراج دفاعية وتليها من الخارج جدران استنادية ، كما هو الحال في موقع الزيرقون ، الواقع على بعد ١٢ كم للشرق من مدينة اربد (١١٠) . أجريت في غور الاردن حفريات اثرية في عدة مواقع تعود لهذه الفترة ، نذكر منها تل السعيدية (١١١) وتل ابو الخرز (١١٢) .

وقد كشفت المسوحات الاثرية السابقة عن تواجد المخلفات الحضارية العائدة للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر في مواقع عدة ، فقد سجل جلوك سبعة مواقع (١١٣) ، تمثل ما نسبته ١٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة لهذه المرحلة . كما سجلت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ م (١١٤)، ثمانية وأربعين موقعا، تمثل ما نسبته ٤٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه المرحلة . أما في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات فقد رصدت مواقع كبيرة الحجم تحيط بها مجموعة من المواقع الصغيرة ، التي تعود لهذه المرحلة . ان اكبر المواقع المسجلة في منطقة جسر الشيخ حسين هو تل الاربعين ( لم تجر في هذا الموقع اية حفريات اثرية ) وقد ظهر على سطحه كثافة واضحة للمخلفات الحضارية العائدة للعصر البرونزي



المبكر . يحيط بهذا الموقع عدة مواقع صغيرة ، تعود لهذا العصر ، هي : خربة سليم اليوسف ؟ (المواقع C ، D ، E) وخربة الشيخ محمد ( الموقع M ) . اما في منطقة سليخات ، فقد ظهر تل حندقوق ، الموقع المحصن الوحيد ، والعائد لهذه المرحلة ، وتحيط به مجموعة من المواقع الصغيرة المساحة غير المحصنة . هي مقبرة سليخات ، وتل ابو العقارب ، وتل هجيحة ، وتل ابو البعر . جاءت المواقع الصغيرة ( القرى الزراعية ) في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات تحيط بالمدينة الام ، تل الاربعين وتل حندقوق ، لتزودها بالمنتجات الزراعية والثروات الحيوانية .

إنهار نظام « دول المدن » في المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ( ٢٣٠٠ - ٢٠٠٠ قبل الميلاد ) ، وانتقل الناس من الحياة داخل مدن مسورة الى مواقع أخرى اشبه ما تكون بالمخيمات . يرى بعض دارسي هذه الفترة ان تدمير المدن المسورة ناتج عن هجمات متتالية لقبائل بدوية على مراكز التمدن ، دعيت بالقبائل الامورية (١١٥) . ويرى فريق آخر أن هذا التحول في النمط المعيشي راجع الى الاخلال بالعلاقة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين المجتمع الرعوي ومجتمع المدينة (١١٦) بينما يرى آخرون أن هذه الفترة شهدت كوارث طبيعية كالجفاف والزلازل ، الامر الذي أدى الى تحول في النمط المعيشي وهجرة المدن المسورة (١١٧) .

كما يرى فريق من المشتغلين بحقل الآثار وبناء على الدراسات المقارنة ، أن هناك مجموعات بشرية آتية من القوقاز عبر سوريا الى جنوب بلاد الشام خلال هذه الفترة ، حاملة معها تراثا حضاريا جديدا (١١٨) . كما درس براغ التوزيع المكاني لمواقع هذه الفترة في جنوب بلاد الشام ، ووجد أن مواقع هذه الفترة قد جاءت في المناطق التي تسقط عليها الامطار وبمعدل سنوي ما بين ٣٠٠ - ٣٥٠ ملم . وبناء على ذلك ، يرى هذا الباحث أن المردود الزراعي مثل جزءا هامشيا من الحياة الاقتصادية لانسان هذه الفترة ، بينما مثلت الرعاية الجزء الاساسي لها (١١٩) .

اظهرت الحفريات الاثرية في غور الاردن ، المخططات الحضارية العائدة لهذه المرحلة في عدة مواقع ، نذكر منها تل ابو النعاج (١٢٠) وطوال الشرقي (١٢١) وتل أم حماد (١٢٢) وتل اكتانو (١٢٣) . توزعت مواقع هذه الفترة على المرتفعات المطلية على غور الاردن والهضاب (الكتار) الموجودة على أرضية غور الاردن ، وبالقرب من مصادر المياه والاودية (١٢٤) . اظهرت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث انخفاضا في نسبة المواقع الممثلة لهذه الفترة . فقد سجل جلوك عشرة مواقع (١٢٥) ، تمثل ما نسبته ١٢٪ من المجموع انعام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، أما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ ، فقد سجلت ٢٥ موقعا (١٢٦) ، تمثل ما نسبته ٢٣٪ من المجموع انعام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد اظهرت على سطحها مخلفات حضارية عائدة



لهذه المرحلة . ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر في موقع واحد ، خربة سليم اليوسف ( الموقع E ) ، في منطقة جسر الشيخ حسين . كما ظهرت هذه المخلفات في موقعين بمنطقة سليخات هما : مقبرة سليخات ، وتل مرار (١٢٧) . كما يظهر من خلال تفحص المقاطع الرأسية لبعض الخنادق الموجودة على سطح موقع تل مرار ، أن الشقف الفخارية ، العائدة للمرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ، قد وجدت على الأرضية المبكر ، ليدل ذلك على أن هذا الموقع قد استوطن لأول مرة خلال هذه الفترة . ويبدو من البقايا المعمارية الظاهرة على السطح ، أن سكان هذا الموقع ، خلال هذه الفترة ، قد بنوا لأنفسهم بيوتا ذات أساسات حجرية ، وبذلك يعتبر هذا الموقع من المواقع الهامة في غور الاردن .

شهدت الفترة التالية - العصر البرونزي الوسيط ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ قبل الميلاد - توسعا لمفهوم دول المدن ، الذي ظهر في المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر ، لما يدعى « بامارات الدول » . أرجع بعض دارسي هذه الفترة ظهور هذا النظام في جنوب بلاد الشام الى قدوم جماعات بشرية جديدة للمنطقة من الساحل السوري او عبر سوريا تدعى بالعموريين والهكسوس (١٢٨) . كما يعزى لهذه الجماعات ايجاد نظام تحصيني جديد مثل الاسوار الحجرية المحيطة بالمدن والبوابات ذات المداخل المتعددة والجدران الطينية الزلقة (١٢٩) . كما شهدت هذه الفترة في جنوب بلاد الشام ، وجود علاقات تجارية واسعة مع ساحل بلاد الشام ومصر (١٣٠) . وظهرت في نهاية هذه الفترة حملات عسكرية مصرية منظمة الى جنوب بلاد الشام ، ادت الى القضاء على سلطة الهكسوس (١٣١) . ومن مصادر معرفتنا عن هذه الفترة ، النصوص المصرية المعروفة بنصوص اللعنات . يصف أحد هذه النصوص طبقة فحل والسهل الغوري المجاور لها من الناحية الغربية بما يلي « هي منطقة تلال رملية تشرف على منطقة زراعية خضراء » (١٣٢) وبذلك فان هذا النص يشير بشكل واضح الى النشاط الزراعي الواسع في غور الاردن خلال هذه الفترة .

اظهرت التنقيبات الاثرية في منطقة البحث عن المخلفات الحضارية العائدة للعصر البرونزي الوسيط في موقع تل الحيات (١٣٣) وتل السعيدية (١٣٤) . كما بينت المسوحات الاثرية السابقة ان عدد المواقع الاثرية التي اظهرت مخلفات تعود للعصر البرونزي الوسيط في منطقة البحث تساوي تقريبا عدد المواقع العائدة للفترة السابقة . فقد سجل جلوك عشرة مواقع (١٣٥) ، تمثل ما نسبته ١٧٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود لهذه الفترة . اما بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ (١٣٦) ، فقد سجلت في منطقة البحث ٢٤ موقعا ، تمثل ما نسبته ٢٢٦٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه



الفترة . كما ظهرت المخطفات الحضارية العائدة للعصر البرونزي الوسيط في منطقة جسر الشيخ حسين في ثلاثة مواقع هي : تل الاربعين ( الموقع F ) ، وخربة الشيخ محمد ( الموقع L ) ، وخربة الشيخ محمد ( الموقع M ) وظهرت هذه المخطفات في منطقة سليخات في موقع واحد وهو مقبرة سليخات (١٢٧) . ولقد توزعت مواقع هذه الفترة ما بين المرتفعات المطلّة على غور الاردن وحتى السهل الفيضي - الزور المجاور لنهر الاردن (١٢٨) . كما جاءت مواقع هذه الفترة في غور الاردن صغيرة الحجم وبدون اسوار دفاعية ، ليدل ذلك على أنها قرى زراعية .

خضعت منطقة جنوب بلاد الشام للسيطرة المصرية التامة خلال المرحلة الاولى من العصر البرونزي المتأخر ( ١٥٠٠ - ١٤٠٠ قبل الميلاد ) ، وذلك نتيجة لحملات عسكرية متتالية على هذه المنطقة (١٢٩) . وبالرغم من عدم ذكر المصادر الكتابية المصرية لآعمال تدمير من قبل الجيش المصري في جنوب بلاد الشام (١٤٠) ، إلا أن بعض الدارسين الاثريين يرون أن هذا الجيش الملاحق لفلول الهكسوس في المرحلة الاخيرة من العصر البرونزي الوسيط ، قد دمر بعض مدن هذه الفترة في جنوب بلاد الشام (١٤١) . أما في الفترة الثانية من العصر البرونزي المتأخر ، والمسماة في مصر بعصر العمارنة ، ( ١٤٠٠ - ١٢٠٠ قبل الميلاد ) فقد شهدت منطقة جنوب بلاد الشام ثورات متتالية ضد السلطة المصرية ، أو تلك المتعاونة معها . نذكر من هذه الثورات ، ثورة مدن الفور الشمالي ، المؤلفة من تحالف امراء مدن الحمة وبيسان وطبقة فحل ، ولكن تمكن الفرعون المصري سيتي الاول ( ١٢٩٤ - ١٢٧٩ قبل الميلاد ) من القضاء على هذا التحالف ، وخلص انتصاره هذا على مسألة تذكارية عثر عليها في بيسان (١٤٢) . ومن مصادر معرفتنا التاريخية عن هذه الفترة ، رسائل تل العمارنة ، التي توضح لنا ما آلت اليه منطقة جنوب بلاد الشام من دمار وخراب نتيجة للصراعات المحلية بين الامراء وغزوات القبائل البدوية على المناطق الزراعية والمدن في ظل غياب السلطة العسكرية المصرية أو ارسال الامدادات العسكرية للمدن الموالية للسلطة المصرية (١٤٣) . وبالرغم من هذه المؤشرات السلبية ، تشير المخطفات الاثرية المكتشفة في كثير من المواقع الى أن هذه المنطقة شهدت نشاطا اقتصاديا وتجاريا ملحوظا ، وامتد الاتصال التجاري بين مدن جنوب بلاد الشام ليصل الاناضول وجزر بحر ايجه ومصر (١٤٤) . فقد عثر على بعض الصناعات المستوردة من هذه البلدان أو تلك المقلدة لها في عدة مواقع في منطقة البحث ، نذكر منها تل السعيدية (١٤٥) .

اظهرت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث انخفاضا ملموسا في عدد المواقع الاثرية المثلة لهذه الفترة . فقد سجل جلوك ثمانية مواقع (١٤٦) ، تمثل ما نسبته ١٤ر٨٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه



الفترة . أما بعثة مسح غور الأردن عام ١٩٧٥م (١٤٧) ، فقد سجلت ستة عشر موقعا ، في نفس المنطقة ، تمثل ما نسبته ١٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد أظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر البرونزي المتأخر . كما عثر على شقف فخارية عائدة للعصر البرونزي المتأخر على سطح أربعة مواقع في منطقة جسر الشيخ حسين ، هي : تل الأربعين ( الموقعين F ، G ) ، وخربة الشيخ محمد ( الموقعين L ، M ) (١٤٨) . أما في منطقة سليخات ، فقد ظهرت هذه المخلفات في موقع واحد ، هو : خربة سبيرة (١٤٩) .

يرى بعض دارسي فترة القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، أن مواقع هذه الفترة، المملثة لنهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية المرحلة الأولى من العصر الحديدي ، أصبحت صغيرة المساحة كما قلت التحصينات الدفاعية المحيطة بها ، كما هو الحال في موقعي تل حسان وتل العمري الواقعين للجنوب من عمان (١٥٠) . ورأى آخرون أنه مع بداية العصر الحديدي ( ١٢٠٠ - ١٠٠٠ قبل الميلاد ) ظهرت تغيرات كبيرة في المنتجات الفخارية وقل ظهور الفخار المنسوب للعصر البرونزي المتأخر (١٥١) .

تعتبر التوراة من المصادر التاريخية الرئيسة التي تزودنا بمعلومات هامة عن فترة العصر الحديدي ( ١٢٠٠ - ٣٣٠ قبل الميلاد ) ، حيث تصف المنازعات والحروب بين العبرانيين والسكان الأصليين لفلسطين - الكنعانيين - ومع ما تصفهم بالقادمين الجدد لفلسطين - الفلسطينيين - ومع ممالك شرق الأردن كالعمونيين والأدوميين والمؤابيين (١٥٢) .

ويعتبر نقش الملك المؤابي ميشع ، الذي عثر عليه في ذيبان ، مصدرا تاريخيا هاما عن هذه الفترة ، حيث يروي هذا النقش علاقات الملك المؤابي - ميشع - مع مملكة الشمال العبرانية وعن منشآت معمارية له في المنطقة (١٥٣) .

ويبدو أنه مع غياب السلطة العسكرية المصرية عن جنوب بلاد الشام مع بداية الألف الأول قبل الميلاد ، ظهرت فترة عسكرية جديدة تتركز في منطقة ما بين النهرين، متمثلة بالامبراطوريتين الآشورية والبابلية الحديثة . وأخذت هذه الدول ترسل حملات عسكرية متتالية الى بلاد الشام عامة . وتروي لنا الكتابات الآشورية والبابلية عن أخبار حملات عسكرية للوكهاتين الدولتين ضد الممالك التي ظهرت في جنوب بلاد الشام ، وتلى ذلك حملات عسكرية فارسية على المنطقة (١٥٤) . وكنتيجة لذلك فقد تأثرت منطقة جنوب بلاد الشام بالتأثيرات الحضارية الآتية إليها من منطقة ما بين النهرين وبلاد فارس ، المتمثلة بالابنية التذكارية والقلاع العسكرية والمنتوجات



الفخارية (١٥٥) والاختام الاسطوانية التي عثر على مجموعة منها في حفريات تل المزار (١٥٦) الواقع في حدود منطقة البحث .

كشفت التنقيبات الاثرية في منطقة البحث عن تواجد المخلقات الحضارية العائدة للعصر الحديدي في عدة مواقع نذكر منها تل السعيدية (١٥٧) وتل أبو الخرز (١٥٨) كما كشفت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث عن زيادة كبيرة في نسبة الاستيطان خلال العصر الحديدي . فقد سجل جلوك (١٥٩) ٢١ موقعا ، تمثل ما نسبته ٢٦٢٪ من المواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الحديدي . كما سجل فريق مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ (١٦٠) ، ثلاث وثلاثين موقعا ، تمثل ما نسبته ٣١٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تعود لهذه الفترة . كما ظهرت المخلقات الحضارية العائدة للعصر الحديدي في أربعة مواقع في منطقة جسر الشيخ حسين ، هي : تل الاربعين ( الموقعين F ، G ) ، وخربة الشيخ محمد ( الموقعين L ، G ) (١٦١) . أما في منطقة سليخات ، فقد ظهرت مخلفات هذه الفترة في سبعة مواقع هي : السفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات ، وتل أبو العقارب ، وتل دحنون ، وتل هجيعة ، وسفح تل هجيعة السفلى ، وتل أبو البعر ، وخربة سبرة (١٦٢) .

ويبدو أن حالة عدم الاستقرار السابقة الذكر ، قد انعكس تأثيرها على المنشآت المعمارية العائدة لهذه الفترة في منطقة سليخات . فجاءت مواقع هذه الفترة محاطة بالأسوار التحصينية والابراج المربعة والجدران الاستنادية المستعرضة ، كما هو عليه الحال في مواقع تل دحنون ، وتل أبو العقارب ، وتل هجيعة .

شهدت بلاد الشام ومصر منذ بداية العقد الرابع قبل الميلاد غزوا حضاريا وثقافيا جديدا أتيا من بلاد اليونان (١٦٣) . وقد ابتدأ هذا الغزو بقدوم الاسكندر المقدوني الى الشرق بحدود عام ٣٣٢ قبل الميلاد . انقسمت امبراطورية الاسكندر الكبير بعد وفاته بين قادته العسكريين ، فكان نصيب الاسرة السلوقية شمال سوريا واما مصر وفلسطين فكانت تحت سيطرة الاسرة البطلمية . الا ان هذه الحدود بين الاسرتين لم تكن ثابتة ، نتيجة لاستمرار الحروب بينها (١٦٤) ، وبذلك وقعت كل من فلسطين والاردن بين قوتين متناحرتين ، مما كان له اثر سلبي على سير خطوط التجارة والامن العام بالمنطقة . انتعشت منطقة جنوب بلاد الشام في الفترة الهلنستية المتأخرة ، منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وتأسست فيها مجموعة من المدن دعيت بالمدن العشر ، نذكر منها في غور الاردن طبقة فحل وبيسان (١٦٥) . واستمر انتعاش هذه المدن والمدن العشر - خلال المرحلة الاخيرة من العصر الهلنستي وخلال الفترة الرومانية ( ٦٣ ق.م



— ٣٣٠ م). ونتيجة لذلك ، فقد ظهر هناك تركز سكاني في هذه المدن ، وذلك نظرا لوجود ووفرة المرافق العامة فيها كالمعابد والحمامات والاسواق والملاعب ، كما هو عليه الحال في عمان (١٦٦) وجرش (١٦٧) .

كشفت التنقيبات الاثرية عن المخطات الحضارية العائدة لهذه الفترة في عدد قليل من المواقع الاثرية ، نذكر منها موقع تل السعيدية (١٦٨) . الا ان التنقيبات الاثرية في مواقع اخرى بغور الاردن أكدت ان بعض المواقع الرئيسية قد هجرت مع بداية غزو الاسكندر المقدوني للمنطقة ، كما هو عليه الحال في موقعي تل المزار وتل دير علا . كما ان المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث ، سجلت اعدادا قليلة تعود للعصر الهلنستي . فقد سجل جلوك (١٦٩) في منطقة البحث عشرة مواقع أثرية ، تمثل ما نسبته ١٧٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، تحمل مخطات تعود للعصر الهلنستي . أما بعثة مسح غور الاردن (١٧٠) . فقد سجلت أربعة عشر موقعا ، تمثل ما نسبته ١٣٢٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، تحمل مخطات ، تعود لهذا العصر . كما جاءت الانشاءات المعمارية العائدة لهذه الفترة ، والآتية من طبقة فحل — تل سبارطا ، على شكل قلعة عسكرية مستديرة (١٧١) . كما قسمت مواقع هذه الفترة ، التي سجلتها بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ ، الى قسمين : الاول تركز وجودها على المنحدرات المطلّة على غور الاردن ، وأظهرت طابعا عسكريا ، ليستدل على انها مراكز لحاميات عسكرية ، كما في تل ابو علوبة الواقع على الطرف الجنوبي من بلدة المشارع ، اما القسم الثاني فيمثل مجموعة من المواقع الصغيرة الواقعة على ارضية الوادي ، لعلها تمثل قرى زراعية (١٧٢) . لم تسجل المسوحات الحالية في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات وجود المخطات الحضارية العائدة للعصر الهلنستي .

كما سجلت المسوحات الاثرية السابقة في منطقة البحث ، زيادة كبيرة في عدد المواقع التي أظهرت مخطات حضارية عائدة للعصر الروماني ؟ ٦٣ ق.م — ٣٣٢ م) . فقد سجل جلوك ثمان وثلاثون موقعا (١٧٣) ، تمثل ما نسبته ٦٥٥٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، تحمل مخطات تعود للعصر الروماني ، اما بعثة مسح غور الاردن لعام ١٩٧٥ ، فقد سجلت ٥٠ موقعا (١٧٤) ، تمثل ما نسبته ٤٧٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخطات حضارية تعود لهذه الفترة ، وقد توزعت هذه المواقع على جميع اجزاء الوادي .

يبدو أن انتعاش المدن التي تأسست في الفترة الهلنستية والتي استمر استيطانها في الفترة الرومانية ، قد صاحبها ظهور مجموعة كبيرة من القرى الزراعية التي تزودها



بمستوجاتها الزراعية والحيوانية . اضافة الى انتعاش التجارة وطرق المواصلات التي تربط هذه المدن . ولم تكن منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات بعيدة عن هذه الطرق ، فقد عثر على الشواهد الحجرية الدالة على هذه الطرق ، على ارضية الغور في تل الاربعين وبالقرب من طواحين السكر والقرن وعلى وادي كفرنجة وعمتا (ابو عبدة حاليا) (١٧٥) ، كما سجلت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م الشواهد الحجرية الدالة على هذا الطريق بالقرب من موقع سليخات ( الموقع رقم ٨٠ ) وفي موقع الحمرا ( الموقع رقم ٩٨ ) (١٧٦) . تمكن متمان (Mittmann, S.) من قراءة النصوص المنقوشة على هذه الشواهد وارجعها للقرنين الثاني والثالث الميلاديين (١٧٧) . وبالإضافة الى هذا الطريق التجاري ، المار عبر غور الاردن ، فقد رصدت شواهد حجرية أخرى على الطريق التجاري الواصل بين جرش وعجلون وطبقة فحل ، الذي يعود للقرن الاول الميلادي (١٧٨) . ان مرور طرق المواصلات عبر غور الاردن واستتباب الامن في الفترة الرومانية قد عكست أثرها على عدد القرى الزراعية في غور الاردن . وقد اكدت المسوحات الاثرية في منطقة سليخات ، هذه النتيجة ، حيث عثر على المخلفات العائدة للفترة الرومانية في ستة مواقع هي : السفح الجنوبي الشرقي لقرية سليخات ، وخربة هجيجة ، وسفح تل هجيجة السفلي ، وتل أبو البعر ، وتل مرار ، وخربة سبيرة . اما في منطقة جسر الشيخ حسين ، فقد عثر على مخلفات هذه الفترة في موقع واحد هو تل قدسية (١٧٩) .

واجهت الامبراطورية البيزنطية ( ٣٣٢-٦٣٦ ميلادي ) مجموعة مخاطر خارجية ، فقد واجهت خطر الامبراطورية الساسانية في الشرق ، حيث تمكنت هذه الاخيرة من احتلال سوريا والاردن وفلسطين في بداية القرن السابع الميلادي (١٨٠) . كما فقدت الامبراطورية البيزنطية سيطرتها على شمال افريقيا حيث احتلتها قبائل الفندال الالمانية منذ بداية القرن الخامس الميلادي (١٨١) . وتمكنت القبائل القوطية الالمانية من احتلال ايطاليا منذ بداية القرن الخامس الميلادي (١٨٢) . اضافة الى ذلك هاجمت القبائل السلافية والبلغارية والهونية منطقة البلقان والعاصمة نفسها (١٨٣) .

وبالرغم من ذلك ، تشير المكتشفات الاثرية في الاردن ، زيادة كبيرة في عدد المواقع الاثرية التي تعود للفترة البيزنطية (١٨٤) . فقد استمر الاستيطان في المدن الرومانية واهست أعدادا كبيرة من الكنائس (١٨٥) . كما سجلت المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن ، زيادة كبيرة في عدد المواقع التي اظهرت مخلفات حضارية تعود للعصر البيزنطي . فقد سجل جلوك في منطقة البحث ، ٤٩ موقعا (١٨٦) ، تمثل ما نسبته ٨٤٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود للعصر البيزنطي . اما بعثة مسح غور الاردن ١٩٧٥م ، فقد سجلت في منطقة البحث ٦٣



موقعا (١٨٧) ، تمثل ما نسبته ٥٩٤٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة ، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر البيزنطي . وأيدت المسوحات الاثرية الاخيرة في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات هذه النتائج . حيث سجلت في منطقة جسر الشيخ حسين ، ثمانية مواقع ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود لهذه الفترة (١٨٨) . اما في منطقة سليخات فقد ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للعصر البيزنطي على سطح تسعة مواقع (١٨٩) . ومن المكتشفات الهامة التي عثر عليها في منطقة سليخات ، معصرة للعنب وقد نحتت في الصخر الطبيعي ، في السفح الشمالي الشرقي لقرية سليخات . كما عثر الرحالة الالماني شتوير ناجل عام ١٨٩٨م (١٩٠) ، على بقايا معصرة زيتون في خربة هنيذة الواقعة على بعد ١٢ كم للشمال من قرية سليخات . ان العثور على مثل هذه المعاصر يدل بشكل واضح على أهمية شجرتي الزيتون والكرمة في الثروة الاقتصادية الزراعية لمنطقة سليخات خلال العصر البيزنطي . كما أن العثور على كنيسة في خربة هجيحة يعتبر من المكتشفات المعمارية الهامة في منطقة سليخات . وأرخت هذه الكنيسة ، اعتمادا على الشقف الفخارية وتخطيطها المعماري العام ، لنهاية الفترة البيزنطية ( القرن السادس الميلادي ) . كما يحتمل انها قد استخدمت خلال الفترة اللاحقة - الاموية - حيث عثر على شقف فخارية عائدة لهذه الفترة في المنطقة المحيطة بها . كما أن كثيرا من الكنائس البيزنطية قد استمر استخدامها في الفترة الاموية (١٩١) ، نذكر منها في غور الاردن ، الكنيسة التي عثر عليها في الشونة الجنوبية (١٩٢) ، والتي تشبه في تخطيطها المعماري العام كنيسة هجيحة .

انتهى الحكم البيزنطي لغور الاردن على أثر هزيمة القوات البيزنطية في معركة فحل عام ١٣هـ / ٦٣٥م أمام قوات الفتح الاسلامي (١٩٣) ، كما دخلت فلسطين والاردن في الحكم الاسلامي بعد معركة اليرموك . ونتيجة لذلك فقد قسمت بلاد الشام الى خمس ولايات ، سميت كل واحدة منها باسم جند . دخل الجزء الشمالي لغور الاردن ضمن جند الاردن وعاصمته طبريا (١٩٤) ، أما الجزء الجنوبي منه ( الذي يقع الى الجنوب من البحر الميت ) فقد دخل ضمن الاراضي التابعة لجند فلسطين . ويستدل من المعطيات الاثرية - التنقيبات والمسوحات الاثرية - الى استمرارية انتعاش جند الاردن خلال الفترة الاموية (١٩٥) . كما استمر استيطان المواقع الرئيسية للفترة السابقة - البيزنطية - في حين ظهر هناك انخفاض في عدد المواقع الصغيرة في الفترة الاموية عن تلك التي سكنت في الفترة البيزنطية ، ويظهر ذلك واضحا من خلال دراسة منطقة الكرك (١٩٦) .

ظهرت المخلفات الحضارية العائدة للعصر الاموي ( ٤٠-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م ) في عدة مواقع في غور الاردن نذكر منها تل قدسيه (١٩٧) وتل أبو قعدان (١٩٨) . ولقد سجل



المشرفون على مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م ، تسعة عشر موقعا (١٩٩) ، وقد ظهر على سطحها بقايا اثرية تعود للعصر الاموي ، وتوزع تواجدتها على جميع اجزاء الوادي . كما ظهرت هذه المخطفات في موقع واحد ، تل قدسيه ، في منطقة جسر الشيخ حسين ، في حين ظهرت هذه المخطفات في اربعة مواقع في منطقة سليخات هي : قرية هجيجه ، وتل هجيجه ، وخربة عين البيضا ، وخربة سيرة (٢٠٠) .

تمكن العباسيون من انتهاء سلطة الامويين ونقل عاصمة الخلافة الاسلامية من دمشق الى بغداد . اتصف العصر العباسي (١٣٢-٧١٥ هـ / ٧٥٠-١٢٥٨ م) بسيطرة العناصر الاسلامية ، غير العربية ، على الدولة وضعف نفوذ السلطة منذ نهاية القرن التاسع الميلادي (٢٠١) وكنتيجه لذلك فقد تأسست مجموعة دويلات سيطرت على اجزاء متعددة من الدولة لاسلامية ، نذكر منها الاغالبه والطولونية والسامانية والفاطمية والبويهية وانسلاجقة (٧٠٢) .

دلت تقارير المسوحات والحفريات الاثرية في الاردن على تقلص واضح في المخطفات الاثرية المنسوبة الى الفترة العباسية . ودعا هذا الامر بعض المشتغلين في حقل الآثار الى وصف هذه الفترة في الاردن « بالفترة المظلمة » أو « عصر الانحطاط » (٢٠٢) ولكن اعتمادا على الحفريات الاثرية الاخيرة في مدينة طبقة فحل ثبت بطلان هذه النظرية (٢٠٤) .

وصف جغرافيو القرن العاشر الميلادي غور الاردن ، وذكروا كثرة قراه الزراعية (٢٠٥) ، كما وصفوا كثرة محاصيله الزراعية التي كانت تشكل جزءا هاما من صادرات بلاد الشام مثل النيلة والبلح والسكر والارز (٢٠٦) .

ظهرت المخطفات الاثرية العائدة للفترة العباسية في عدة مواقع بغور الاردن ، نذكر منها في منطقة البحث موقعي تل قدسية (٢٠٧) وتل ابو قعدان (٢٠٨) . ويلاحظ من خلال نتائج المسوحات الاثرية السابقة انخفاضاً شديداً في عدد المواقع المنسوبة للعصر العباسي . فقد سجل المشرفون على مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م (٢٠٩) ، سبعة مواقع ، تمثل ما نسبته ٦٦٪ من المجموع العام لمواقع الاثرية المسجلة في منطقة البحث ، وقد أظهرت مخطفات حضارية عائدة لهذه الفترة . كما أمكن التعرف على المخطفات الحضارية العائدة للعصر العباسي / الفاطمي على سطح ثلاثة مواقع في منطقة جسر الشيخ حسين (٢١٠) . أما في منطقة سليخات فقد رصدت هذه المخطفات على سطح موقع واحد (٢١١) .



تمكن الصليبيون من تأسيس مجموعة ممالك في بلاد الشام ، وذلك منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي . وكانت المملكة اللاتينية في القدس من أشهرها ، حيث تمكنت من توسيع حدودها لتشمل الجزء الجنوبي من الاردن ، وأقيمت فيه مجموعة من الحصون العسكرية (٢١٢) . وفي سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م أسس الايوبيون قلعة الرض في عجلون (٢١٣) . كما أسست مجموعة قلاع عسكرية صليبية على الممر الرئيسي الواصل بين دمشق والقاهرة عبر وادي الاردن ، نذكر منها قلعة طبريا وقلعة الطور وقلعة بيسان (١٢٤) كما أسست قلاع صليبية أخرى في الجزء الجنوبي من غور الاردن كقلعة أريحا وقلعة خربة المصرية (٢١٥) . وتحدث بعض الوثائق الصليبية عن سيطرة المملكة اللاتينية على أجزاء من شمال الاردن مثل السواد ( الجزء الشمالي من غور الاردن ) وم قيس وحرثا وزحر وبيت راس وسال والغور (٢١٦) .

ويبدو واضحا من خلال استعراض هذه النبذة التاريخية عن لفترة الصليبية ان غور الاردن قد خضع لسلطة المملكة اللاتينية في القدس . لكن لم يتمكن دارسو الآثار حتى الان من تمييز المخلفات الحضارية العائدة للفترة الصليبية عن تلك التي تعود للفترة التي سبقتها أو تلك التي لحقتها . وعلى ذلك لم تسجل لنا المسوحات الاثرية السابقة في غور الاردن تواجدا للمخلفات الحضارية العائدة لهذه الفترة كما لم يتمكن من تسجيل هذه المخلفات في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات .

يبدو ان النشاط الايوبي في تشييد القلاع العسكرية ، كقلعة الرض في عجلون، قد ساهم في استتباب الامن في المنطقة المحيطة بها ، حيث كانت هذه المنطقة تحوي سبعة وعشرين خربة من ضمنها خربة عمّا ( أبو عبدة ) . وقد ضمت هذه القرى ضمن اقطاع الامير عز الدين اسامة باني قلعة الرض (٢١٧) . ثم ازدهر غور الاردن بعد معركة حطين سنة ١١٨٧ م ، ويتضح ذلك من كثرة المدن الادارية مثل بيسان وطبقة فحل والقصر ( الشونة الشمالية ) وعمّا ( ابو عبدة حاليا ) ودامية واريجا وزغر ( غور الصافي ) (٢١٨) . وقد شهد غور الاردن خلال الفترة اللاحقة - العصر المملوكي ( ١٢٥ - ١٥١٦ م ) ازدهارا اقتصاديا ونموا سكانيا كبيرا نظرا لمرور طرق المواصلات الرئيسية في الدولة المملوكية والواصلة بين مدينتي دمشق والقاهرة خلاله (٢١٩) ، وهذا الامر ساعد على نقل المنتجات الزراعية من غور الاردن الى مراكز التمدن وتقسيم غور الاردن الى مجموعة وحدات اقطاعية (٧٢٠) ، وانتعاش الزراعة الصناعية المتمثلة قصب السكر فيه (٢٢١) .

ان زراعة قصب السكر تتطلب جهودا بشرية منظمة ومدربة وكبيرة العدد ، لذلك فقد جلب الأمراء الايوبيون والمماليك أعدادا كبيرة للاشتغال بحقول قصب السكر



وبناء الطواحين - المعاصر - اللازمة لتصنيع السكر (٢٢٢) . ويستفاد من كثرة المكتشفات الاثرية التي تعود للفترة الايوبية / المملوكية على كثرة القرى الزراعية التي تعود لهذه الفترة ، فقد عثر على المخلفات الاثرية التي تعود لهذه الفترة في كثير من المواقع في غور الاردن ، نذكر منها ذراع الخان (٢٢٣) وتل ابو سربوط (٢٢٤) وتل قدسية (٢٢٥) وتل قعدان (٢٢٦) . كما سجلت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ م ، ٥٩ موقعا (٢٢٧) ، تمثل ما نسبته ٥٥.٦٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة البحث ، وقد ظهر على سطحها مخلفات تعود للعصر الايوبي / المملوكي . ولقد توزعت هذه المواقع على جميع اجزاء غور الاردن ، كما وصفت بعضها على انها قد أسست لغراض تصنيع السكر ، وذلك من خلال العثور على كميات كبيرة من الشقف الفخارية التي تخص اواني تصنيع السكر أو العثور على انشاءات معمارية استخدمت كمعاصر لقصب السكر (٢٢٨) . أما في منطقة جسر الشيخ حسين ، فقد عثر على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الايوبي / المملوكي في ١١ موقعا (٢٢٩) . وقد قسمت هذه المواقع الى قسمين ، استخدم الاول منها لغراض السكن كموقعي تل قدسية وخربة الشيخ حسين ، في حين استخدم القسم الثاني كمراكز لتصنيع السكر من قصب السكر ، كموقعي تل فندي ( الموقع B ) وتل ابو عراب الشمالي (الموقع L) (٢٣٠) . كما عثر على ثمانية مواقع في منطقة سليخات وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الايوبي / المملوكي (٢٣١) . وكشف في هذه المنطقة عن ثلاث معاصر استخدمت خلال هذه الفترة لاستخراج السكر من قصب السكر .

ان ضعف السلطة المركزية في العصر المملوكي ، خاصة منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادي ، أدى الى غزوات متكررة للقبائل البدوية على مراكز التمدن والقرى الزراعية في جنوب بلاد الشام ، ومنها القرى المنوادة في غور الاردن (٢٣٢) . من العوامل الهامة الاخرى التي أدت الى تدمير أو انخفاض عدد القرى الزراعية في غور الاردن خلال هذه الفترة - نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادي - انتشار وباء الطاعون والحميات وتكرار حدوثها في سنوات متلاحقة (٢٣٣) . نتج عن هذه الوبئة وفاة عدد كبير من مزارعي غور الاردن ، بالإضافة الى موت أعداد كبيرة من الحيوانات المدربة لغراض الحرث والنقل وإدارة الطواحين (٢٣٤) ، الامر الذي أدى الى تدهور زراعة قصب السكر في غور الاردن (٢٣٥) . كما تحولت طرق المواصلات الواصلة بين دمشق والقاهرة ، والمارة عبر الجزء الشمالي من غور الاردن ، لتمر عبر هضبة الجولان في القرن السادس عشر (٢٣٦) ، مما أدى الى صعوبة كبيرة في تصدير منتوجات غور الاردن الزراعية الى مراكز التمدن .

شهدت بلاد الشام في بداية العصر العثماني ، استقرارا سياسيا وأمنيا أدى الى



انتعاش اقتصادي وزيادة سكانية (٢٣٧) . وقد تمكن الباحثون من رصد القرى الزراعية التي تعود للقرن السادس عشر الميلادي من خلال مراجعتهم للسجلات العثمانية (٢٣٨) . ففي غور الاردن ، سجلت ستة عشرة قرية ، نذكر منها في منطقة سليخات ، قريتي فقارس ( قرية كريمة حاليا ) وكرمة ( خربة كركمة حاليا ) (٢٣٩) . كما ذكرت مجموعة من القرى الزراعية ، الواقعة في غور الاردن ، في دفتر طابو عجلون ، والعائدة لعام ١٥٩٦ م . وفي هذا الدفتر ذكرت القرى والمزارع التالية : قرية فقارس ، ومزرعة صلحات أو صليحات ( قرية سليخات حاليا ) ، ومزرعة حجج ( خربة هجيبة حاثيا ) ومزرعة سبيرة ( خربة سبيرة حاليا ) (٧٤٠) . تبعت كلاً من مزرعة صلحات (سليخات) ومزرعة سبيرة ومزرعة حجج ( هجيبة ) لتيمار اسماعيل بن عثمان وشريكه (٢٤١) . بينما تبعت قرية فقارس ( كريمة ) لزعامه بنام خندان وكاتب ابراهيم (٢٤٢) . وعلاوة على ذلك ، فقد حدد دفتر طابو عجلون لسنة ١٥٩٦ م ، عدد دافعي الضرائب في قرية فقارس ب ٤٧ خانة ( اي ٤٧ رب أسرة ) ، كما أن الضرائب في هذه القرية كانت تدفع على المحاصيل الزراعية المتمثلة بالحنطة والشعير والنيلة والسمسم وعن الحيوانات مثل الجاموس والماعز (٢٤٣) . الا أن هذا الدفتر لم يسجل فيه تعداد دافعي الضرائب او المحاصيل التي دفعت عنها الضرائب لكل من خربة سليخات وخربة هجيبة وخربة سبيرة . ولكن يستدل من نسبة الضرائب المدفوعة من هذه القرى ، أن اكبرها كانت قرية سليخات ، حيث دفعت ٢٥٠٠ أقة ، وتليها خربة هجيبة ، حيث دفعت ١٥٠٠ أقة ، وأخيرا خربة سبيرة ، حيث دفعت ٥٠٠ أقة (٢٤٤) .

ولعل ارتفاع نسبة الضرائب المدفوعة من قرية سليخات في القرن السادس عشر الميلادي راجع الى استمرارية نمو هذه القرية من الفترة السابقة - المملوكية - عندما حولت اليها مياه عيني هجيبة وهنيذة، واعتبارها احد المراكز الرئيسة لتصنيع السكر خلال الفترة المملوكية .

ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ضعفت السلطة المركزية العثمانية ، مما ادى الى بروز ولاية محليين كظاهر العمر ( ١٧٥٠ - ١٧٧٥ م ) واحمد الجزار ( ١٧٧٧ - ١٨٠٤ م ) والذين استطاعوا ان يحكموا جنوب بلاد الشام باستقلالية جزئية عن الدولة العثمانية (٢٤٥) . واعتمد هؤلاء الولاة في مدخولاتهم الاقتصادية على الضرائب المدفوعة من القرى الزراعية او تلك التي يدفعها التجار (٢٤٦) ، لذلك اتصفت سياسة هؤلاء الولاة بحرصهم على حماية القرى الزراعية وطرق المواصلات من غارات البدو والمتمركزين في غور الاردن ، كقبائل السردية ، والصقر ، وصخور الفور ، بالتحالف معهم أحيانا أو استعمال القوة العسكرية ضدهم أحيانا أخرى (٢٤٧) . ويستفاد من ملاحظات الرحالة الاروربيين الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القرن



التاسع عشر أن قرى ومزارع غور الاردن ، اضافة الى تلك التي ذكرتها الوثائق العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي ، مهدمة ومهجورة (٢٤٨) . ويبدو أن المنطقة الواقعة للشمال والجنوب من طبقة فحل قد انتعشت مرة أخرى ، وذلك منذ النصف الثاني من القرن الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث شاهد بعض الرحالة (٢٤٩) حقول القمح المزروعة في غور الاردن واعادة بناء القرى الزراعية . كما يستدل من ملاحظات الرحالة الالماني شتويرناجل ، الذي زار منطقة سليخات عام ١٨٩٨ ، أن الاستيطان في الاستيطان في قرى هذه المنطقة ، وقت زيارته لها ، كان استيطاناً موسمياً ( خلال فصل الشتاء ) تقوم به بعض هذه المنطقة ، وقت زيارته لها ، كان استيطاناً موسمياً ( خلال فصل الشتاء ) تقوم به بعض العائلات القادمة اليها من خربة الوهادنة وقرية فارة (٢٥٠) . أما الاستقرار الدائم في قرى منطقة البحث ، كما يشير الى ذلك التاريخ الشفوي ، فلم يتم قبل العقد الثالث من هذا القرن .

أسفر المسح الاثري في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات عن تسجيل خمسة عشر موقعا في المنطقة الاولى وأربعة عشر موقعا في المنطقة الثانية . وقد غطت هذه المواقع الاثرية حقبة تاريخية طويلة تمتد منذ الالف السادس قبل الميلاد حتى الوقت الحاضر ، وبدون انقطاع يذكر . ان منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات كانتا وما زالتا مناطق زراعية نشطة ، وذلك لخصوبة تربتها وتوفر المياه ، من وادي زقلاب ، ووادي سليخات فيها . ومما زاد من اهمية هاتين المنطقتين واستمراريتهما الاستيطان فيهما ، وموقعهما الجغرافي الهام ما بين السهل الفوري والمنطقة الجبلية ، مما وفر تنوعا في المحاصيل الزراعية والى بعد نسبي عن المناطق المنخفضة - الزور - من غور الاردن ، حيث تزداد خطورة الاصابة بالمalaria . كما ساعد قرب هاتين المنطقتين من خطوط المواصلات الرئيسة على ازدهارهما اقتصاديا خلال الفترات الكلاسيكية والاسلامية الوسيطة .

كما أن منطقة البحث كجزء من غور الاردن ، والذي بدوره يمثل جزءا من منطقة اكبر ، بلاد الشام ، فقد تأثر ايجابيا أو سلبيا بالموثرات السياسية والامنية والاقتصادية والبيئية التي أثرت على بلاد الشام عامة وجنوبه خاصة ، وذلك منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى الان . ويتضح ذلك جليا من خلال تمثيل مختلف العصور ، حيث نرى أن هنالك فترات يزداد فيها الاستيطان في أكثر من موقع ، كما هو الحال في العصر الحجري النحاسي ، والعصر الحديدي ، والعصر الروماني ، والعصر الأموي ، والعصر الأيوبي / المملوكي ، بينما نرى أن هنالك فترات تمثلها مواقع محدودة ، كما هو الحال في المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر ، والعصر البرونزي المتأخر ، والعصر الهلنستي ، والعصر العباسي ، والعصر العثماني .



كما يتضح أثر المؤثرات السابقة الذكر ، على نمط الاستيطان في منطقة البحث ، حيث نرى انتشار القرى الزراعية بالقرب من المصادر المائية ، في العصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ، في حين نرى انه يوجد هناك تركيز سكاني في مواقع محدودة العدد ، وكبيرة الحجم ومحصنة دفاعيا ، في العصر البرونزي المبكر ، والعصر البرونزي الوسيط . ويبدو أن التأثيرات السياسية العسكرية التي شهدتها منطقة بلاد الشام في المرحلة الثانية من العصر الحديدي ، قد أدت هي الأخرى الى تواجد استيطان قروي محصن ، كما هو الحال في مواقع : دحنون ، وتل ابو العقارب ، وتل هجيحة ، الواقعة في منطقة سليخات . ويبدو أن نزعة التوسع في النفوذ بين الاسرتين السلوقية والبطلمية ، هي الأخرى قد أدت على نمط الاستيطان في ، منطقة البحث ، حيث يمكن تقسيم المواقع الممثلة لهذه الفترة الى قسمين هما : ١ - قلاع عسكرية تقع على المنحدرات المطلّة على غور الاردن ، و ٢ - قرى زراعية تقع على أرضية غور الاردن . ويبدو أن استتباب الأمن وانتشار المدن الإدارية في الفترات التلاسيكية والاسلامية المبكرة قد انعكس أنرها على نظام الاستيطان في غور الاردن ، حيث انتشرت في منطقة البحث القرى الزراعية ، والواقعة على جميع اجزاء الوادي .

وازدھر غور الاردن في الفترة الايوبية / المملوكية ، فقد مثل الانتاج الزراعي العماد الاقتصادي لامراء هذه الفترة . ويستدل من خلال دراسة المعطيات التاريخية والاثريّة ، ان منطقة البحث كانت تشتهر بزراعة قصب السكر خلال العصر الاسلامي الوسيط . وأمكن تقسيم المواقع الاثريّة العائدة لهذه الفترة ، في منطقة البحث ، الى نوعين ، هما : ١ - قرى زراعية كبيرة الحجم و ٢ - مواقع صناعية استخدمت لاستخراج انسكر من قصب السكر ( طواحين السكر ) ، أو مواقع استخدمت لتصنيع الانية الفخارية اللازمة لتصنيع السكر ) .

ويبدو أن الزراعة الصناعية التي سادت في منطقة البحث خلال العصر الايوبي / المملوكي ، قد انتهى استخدامها في العصر اللاحق ( العصر العثماني ) ، وحلت محلها زراعة الاكتفاء الذاتي . ويتضح ذلك من خلال استخراج المحاصيل الزراعية التي دفعت عليها الضرائب للدولة العثمانية ، حيث لم يسجل في هذه السجلات قصب السكر كأحد المحاصيل الزراعية في غور الاردن . كما أن نظام الاستيطان ، في منطقة البحث ، قد تركّز تواجدّه على أسفل المنحدرات المطلّة على غور الاردن في القرن السادس عشر الميلادي . ولعل أهم الأسباب المؤدية الى ذلك ، هو الخلل السكاني في المنطقة ، نتيجة لانتشار الاوبئة والطاعون في العصر المملوكي المتأخر ، الامر الذي أدى الى انخفاض سكاني كبير ، ومن ثم اهمال اجزاء كبيرة من غور الاردن . وانتشار الملايا في الاراضي المنخفضة .

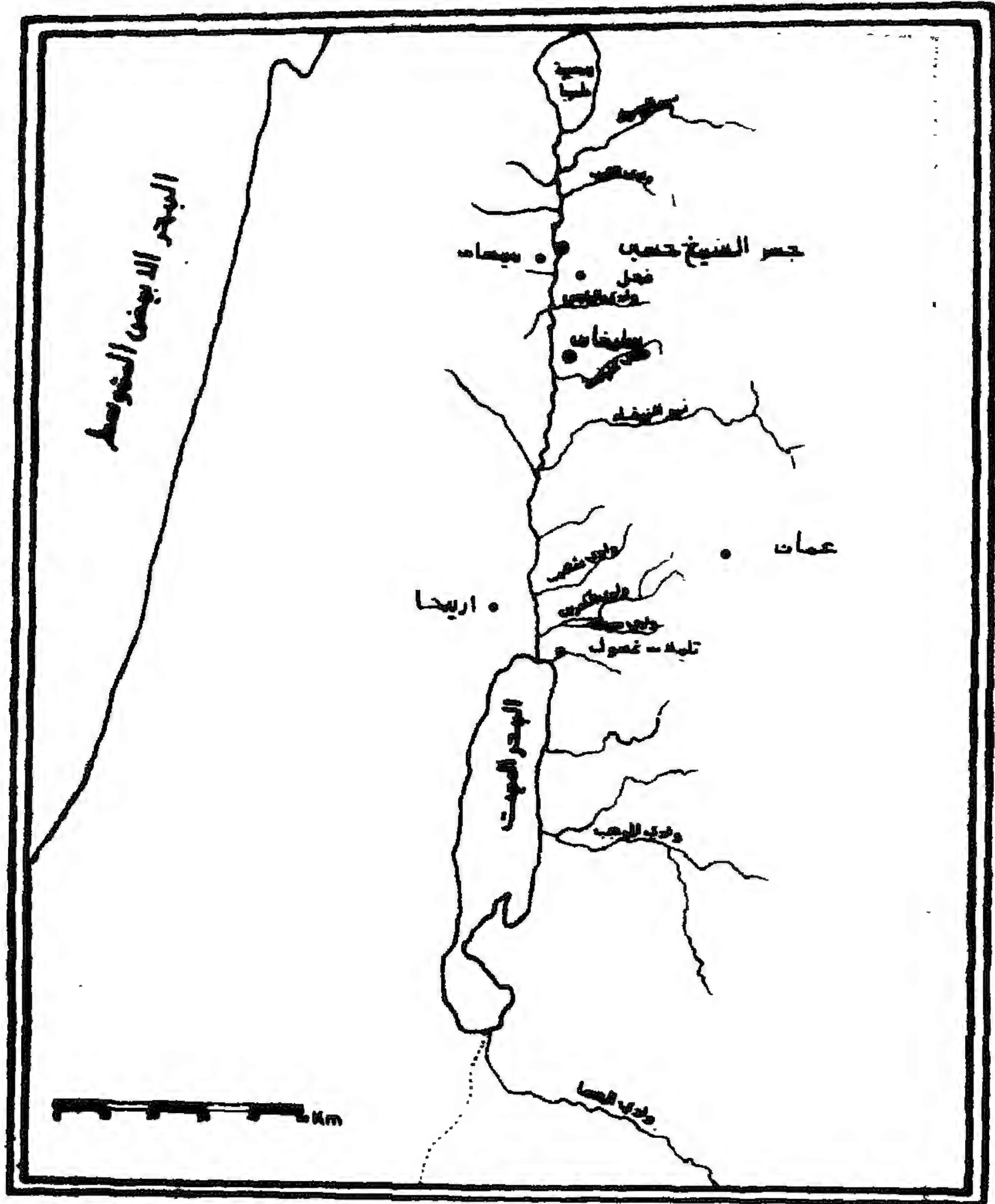


ذهب كثير من الرحالة الاوربيين الى وصف قرى غور الاردن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بأنها مهدامة ومهجورة . ويتضح جليا من خلال نتائج الاعمال الميدانية في منطقتي جسر الشيخ حسين وسليخات ، ان نظام الاستيطان خلال هذين القرنين ، قد تحول من استيطان دائم الى استيطان موسمي . ويعني ذلك ان منطقة البحث لم تهجر نهائيا خلال العصر العثماني المتأخر ، كما ذهب اليه بعض الرحالة الاوربيين ، وانما ظهر نظام استيطان جديد ، يقوم اساسا على قدوم عائلات للاشتغال بالزراعة في غور الاردن من قرى كبيرة الحجم ، وواقعة في المنطقة الجبلية ، في الشتاء ، وتعود هذه العائلات من حيث اتت في فصل الصيف . كما ان القبائل البدوية التي ذكرها الرحالة الاوربيون ، قد استقرت هي الاخرى في غور الاردن، واشتغلت بالزراعة لتكون المالكة لمعظم اراضي غور الاردن حاليا .

ويتضح جليا ، من خلال استعراض نتائج الاعمال الميدانية الاثرية في منطقة البحث ان الاستيطان البشري قد استمر ، مع بعض التغيرات في انظمة الاستيطان ، وبدون انقطاع منذ آلاف السنين وحتى الان .



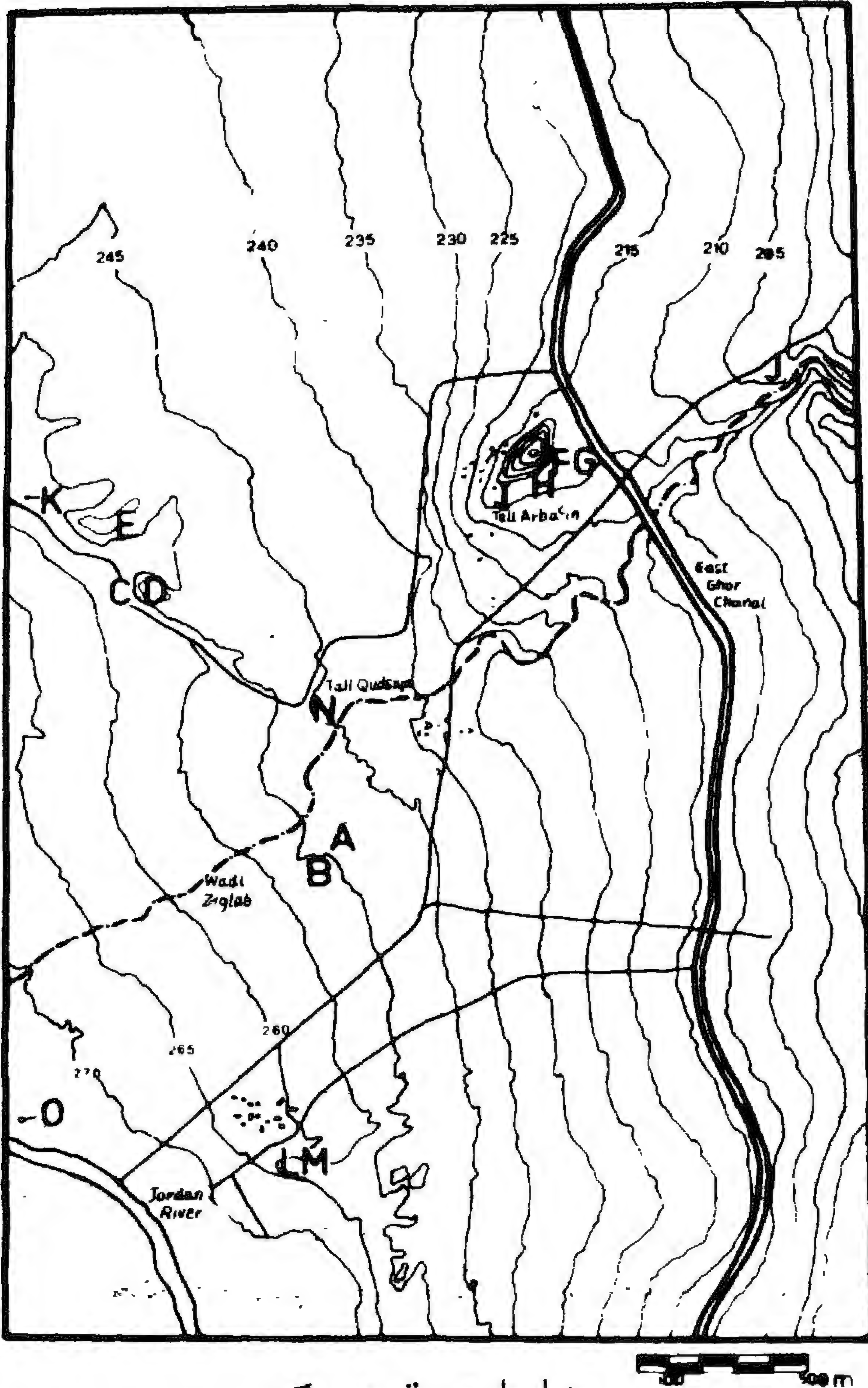




خارطة رقم ١ -  
موقع منطقتي جسر الشيخ حسين وعلبيخان



المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين

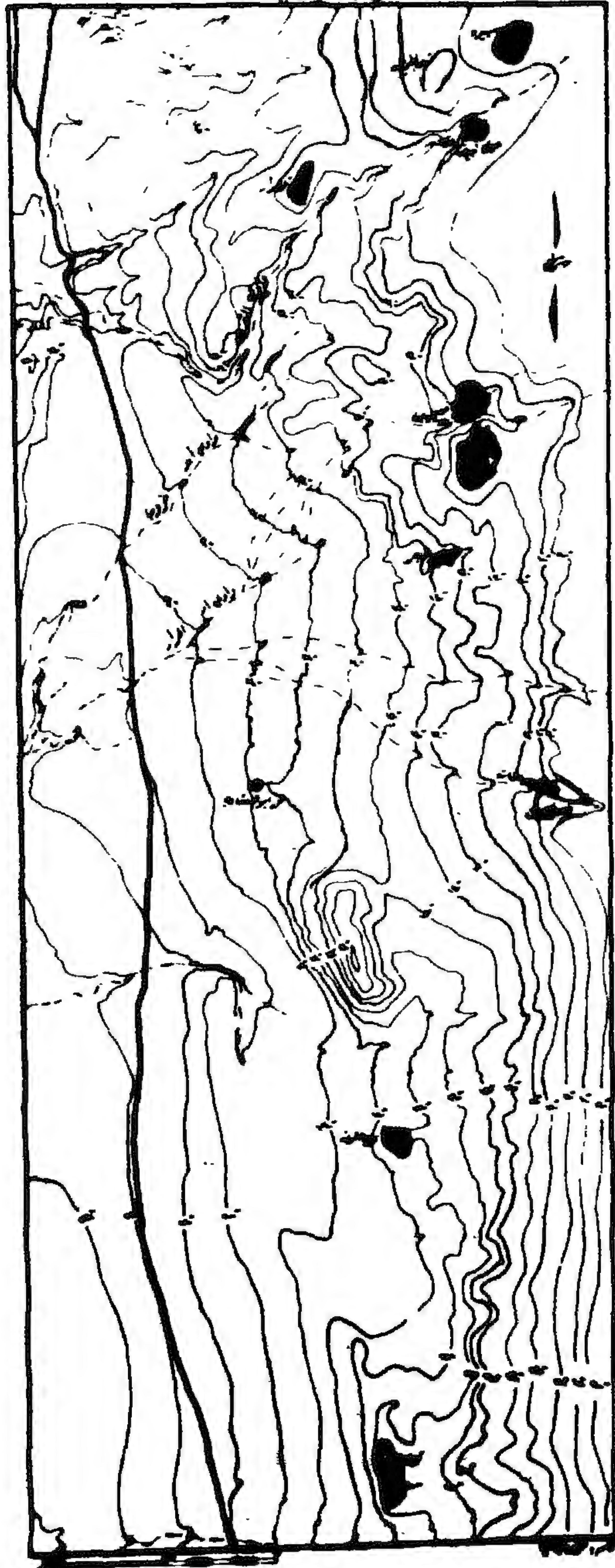


خارطه رقم ٢-

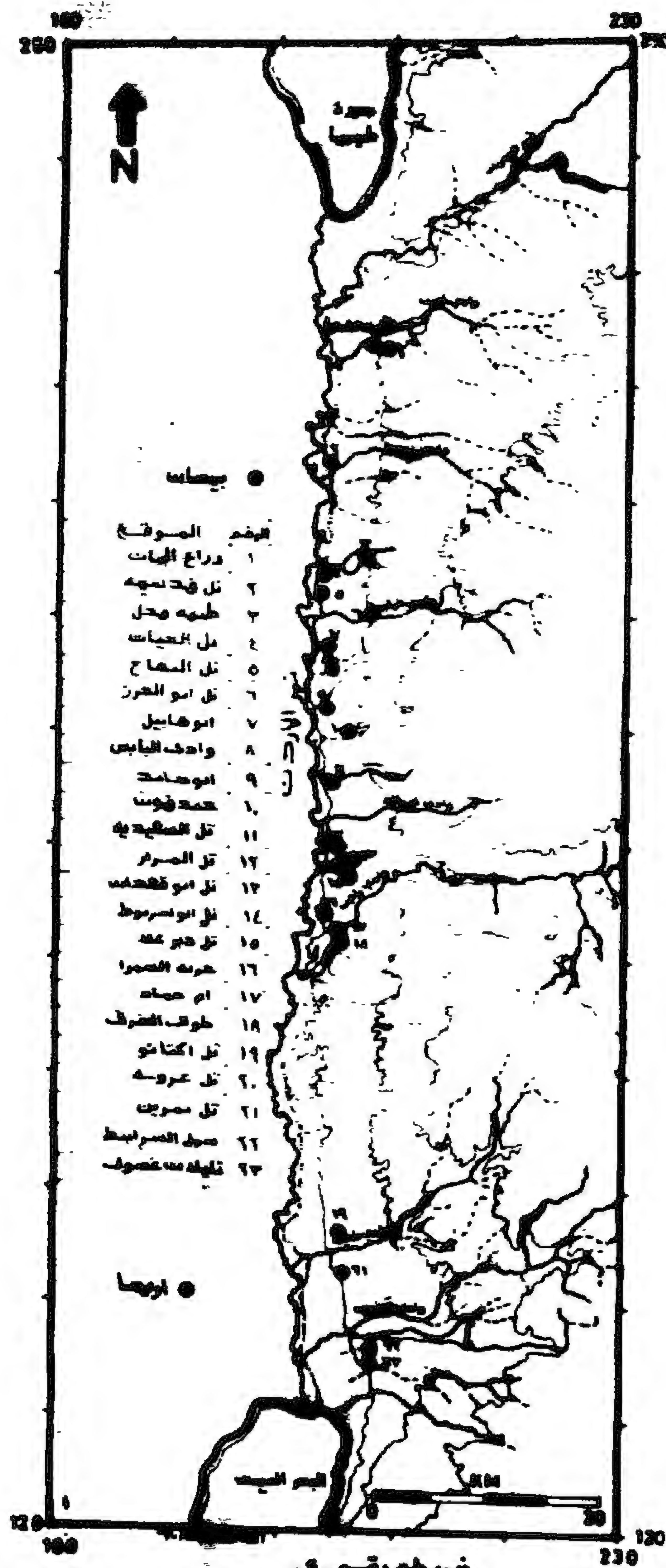
خارطه كنتوريه لمنطقة جسر الشيخ حسين



خارطه رقم ۳

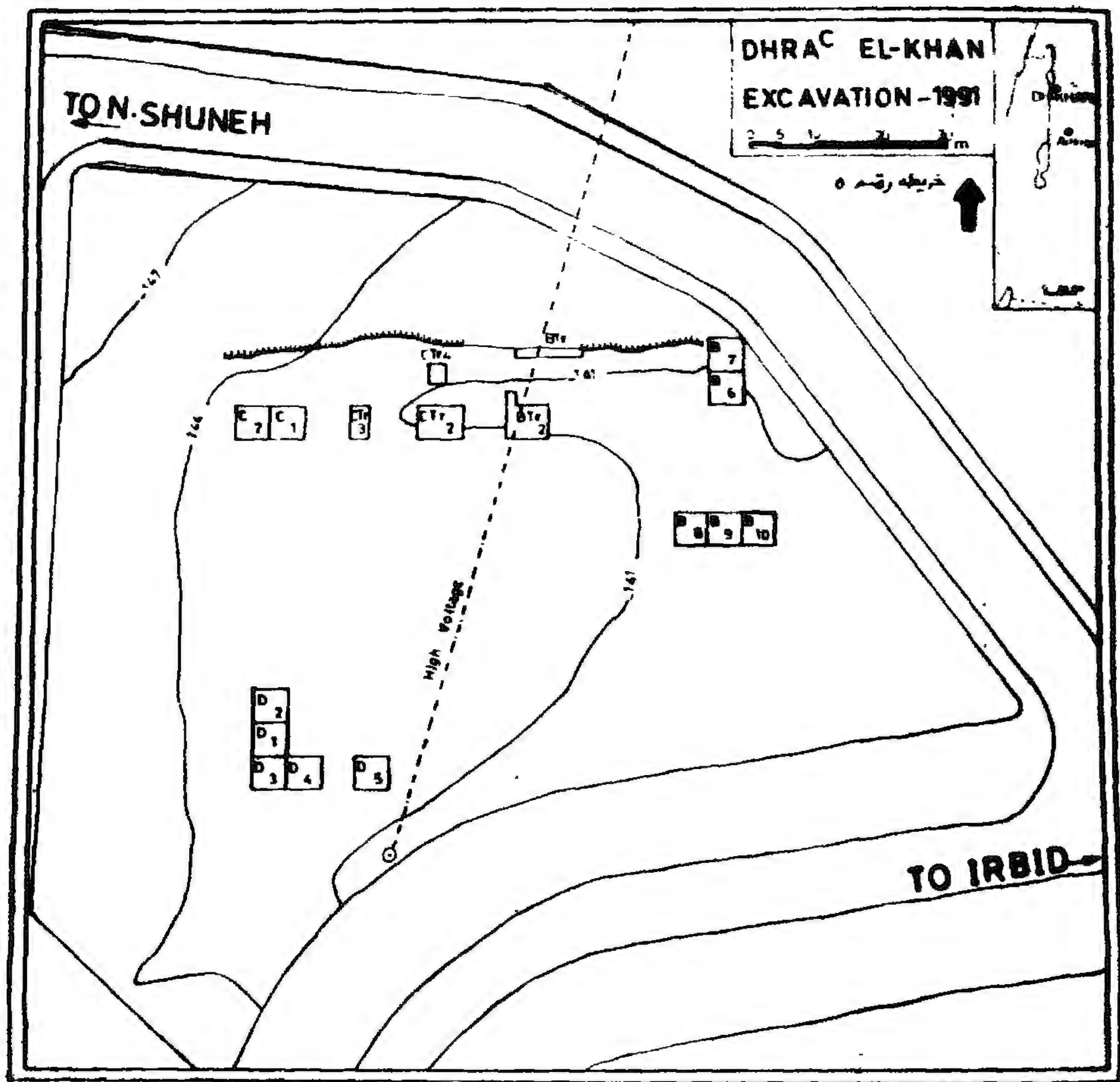






خريطة رقم 8 -  
مواقع المعينات القارية في غور الأردن

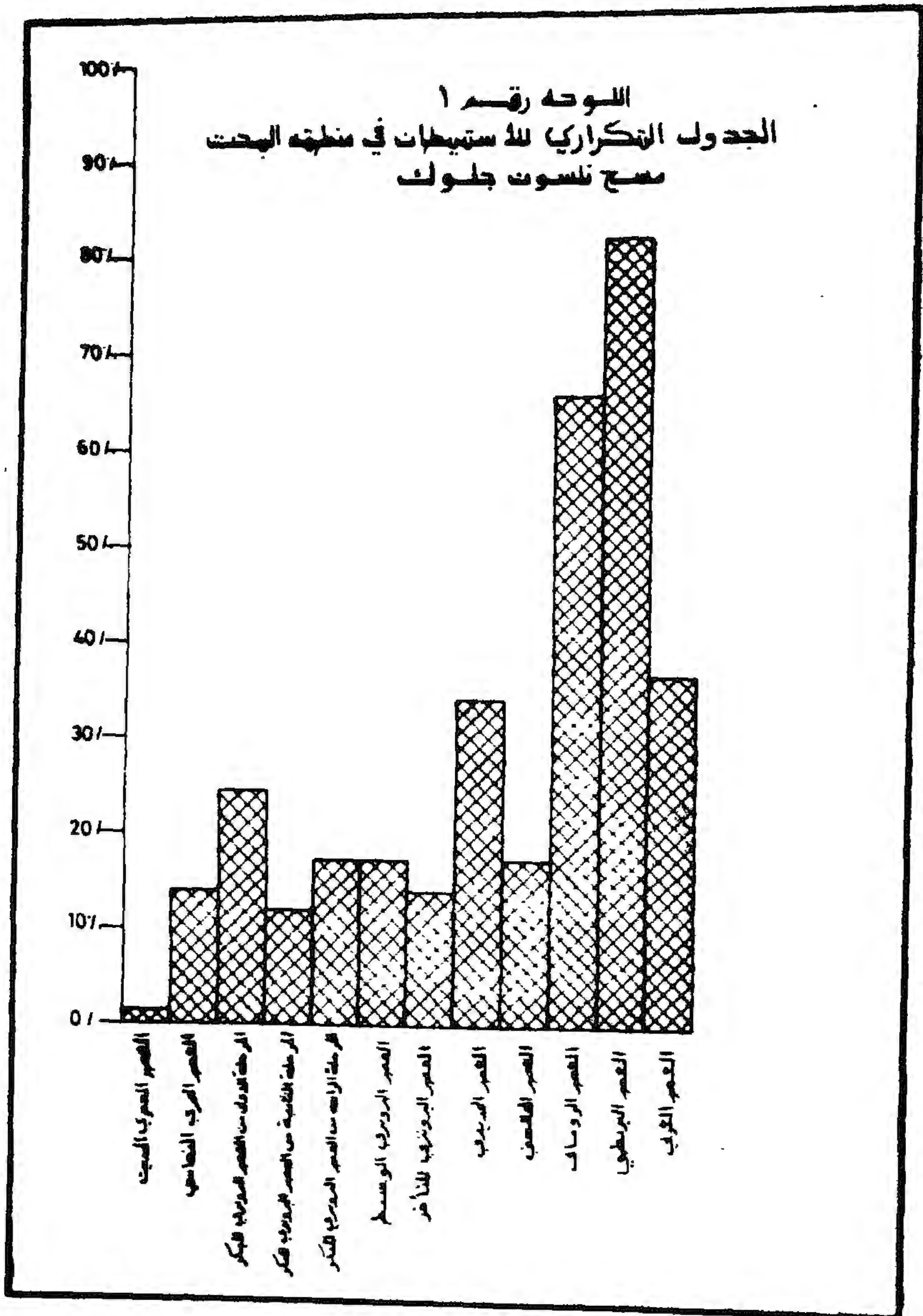




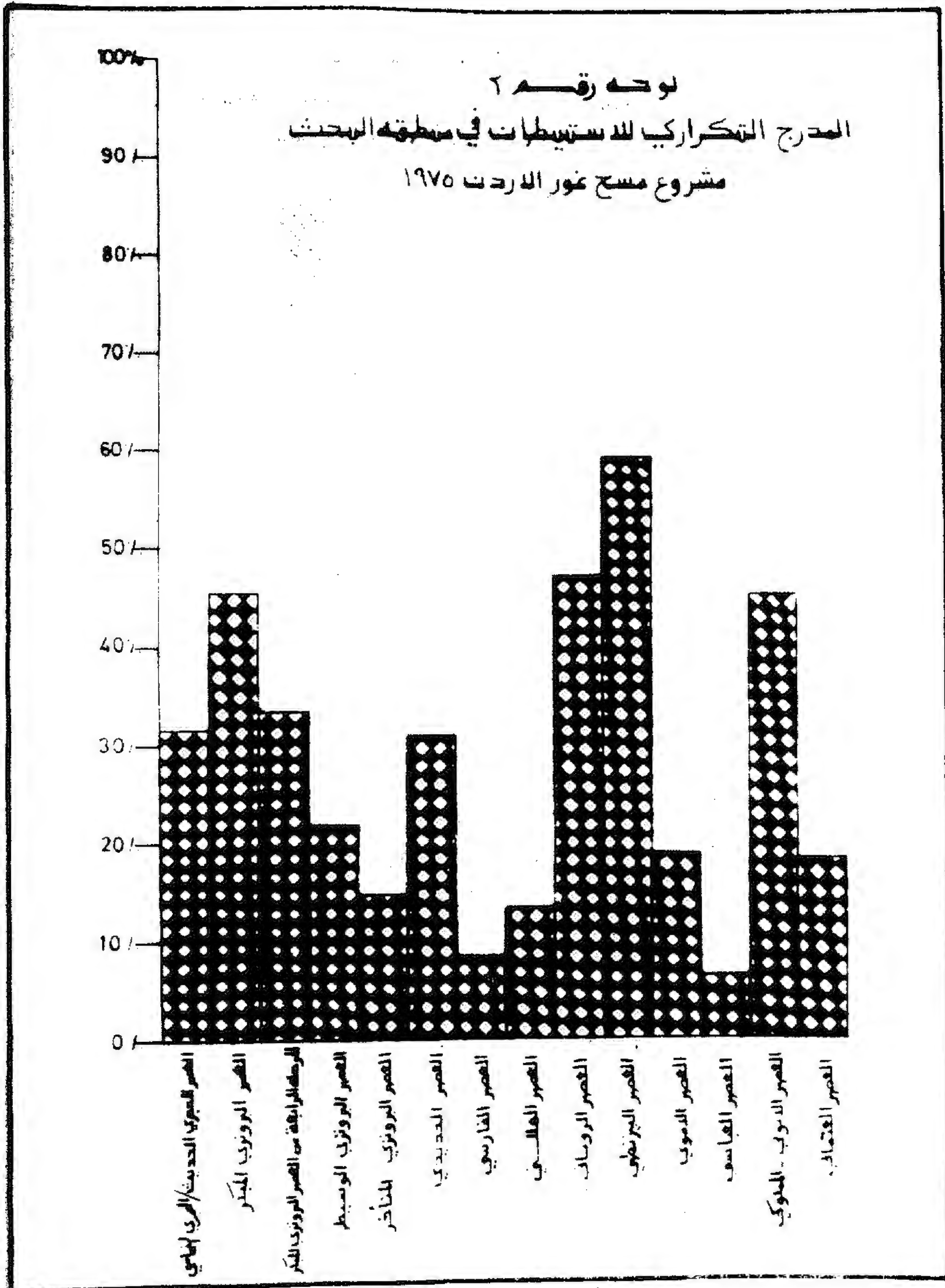


















- ۱۲۸ -



تنويه

نعتنر من القارئ الكريم للقفز في الارقام

من : ١٤٠ - ١٤٤ وشكرا .

هيئة التحرير







1. عابد ، عبدالقادر . حفرافية الاردن . دار النهضة ، عمان ، ١٩٨٢ . ص ١٣٢  
 Schattner, I. "The Lower Jordan Valley". Scripta Hierosolymitana, (SH) vol. XI. Jerusalem, 1962. P. 13.  
 Smith Adam. The Historical Geography of the Holy Land. London, 1897. P. 482.
2. Bender, F. Geology of Jordan. Berlin-Stuttgart. 1974. P. 11.
3. Schattner, I. "The Lower Jordan Valley". SH: XI. Jerusalem 1962. PP.14-21.  
 Bender, F. Geology of Jordan. Berlin-Stuttgart. 1974. PP. 123-124.  
 Linton, D. and Moseley, F. "The Geological Ages". Cambridge Ancient History (CAH), vol. 1, part 1. Cambridge, Cambridge University Press. 1970. P. 2.
4. عابد ، عبدالقادر . ص ٨١-٨٢  
 Blanckenhorn, M. "Entstehung und Geschichte des Totenmeers". Zeitschrift des Deutschen Palastina-Vereins (ZDPV), vol. 67. Leipzig, 1896. PP. 24-26.
5. Blanckenhorn, M. "Entstehung und Geschichte des Totenmeers". ZDPV: 67. Leipzig, 1896. P. 26.  
 Smith Adam. The Historical Geography of the Holy Land. London. 1897. P. 269.
6. عابد ، عبدالقادر . ص ٨١
7. Van Zeist, W. "Past and Present Environments of the Jordan Valley". Studies in the History and Archaeology of Jordan (SHAJ), vol. II. ed. Hadidi, A. Amman, 1985. Department of Antiquities-Jordan. P. 200.
8. Saunders Trelawney. An Introduction to the Survey of Western Palestine: Its Waterways, Plains and Highlands. London, 1881. P. 155.  
 Aharoni, Y. The Land of the Bible. Philadelphia: the Westminster Press, 1967. P.31.  
 Van Zeist, W. "Past and Present Environments of the Jordan Valley". SHAJ: II. ed. Hadidi, A. Amman, 1985. Department of Antiquities-Jordan. P. 199.
9. Saunders Trelawney. An Introduction to the Survey of Western Palestine: Its Waterways, Plains and Highland, London, 1881. P. 154.  
 Aharoni, Y. The Land of the Bible. Philadelphia: the Westminster Press, 1967. P. 31.
10. Ibid. P. 31-32.
11. Koucky, F. and Smith, R. "Lake Baisan and the Prehistoric Settlement of Northern Jordan Valley". Paleorient vol. 12/2. PP. 27-36.
12. Glueck Nelson. "Explorations in Eastern Palestine IV". Annual of the American Schools of Oriental Research (AASOR), vol. 25-28. New Haven, 1951. PP. 224-226.
13. Ibid. PP. 276-288.
14. Mellaart, J. "Preliminary Report of the Archaeological Survey in the Yarmuk and Jordan Valley for the Point Four Irrigation Scheme". Annual of the Department of Antiquities of Jordan (ADAJ), vol. 6-7. Amman, 1962.P.143.
15. Ibid. P. 145.
16. Ibid. PP. 126-157.
17. De Contenson, H. "The 1953 Survey in the Yarmouk and Jordan Valleys". ADAJ: 8-9. Amman, 1964. P. 35.
18. Ibid. P. 36.
19. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey 1975". Bulletin of the American School of Oriental Research (BASOR), vol. 222. Atlanta: Scholars Press. 1976. P. 50.



- Yassine, K.; Ibrahim, M. and Sauer, J. "The East Jordan Valley Survey 1976, (second part)". Archaeology of Jordan: Assays and Reports. ed. Khair Yassine. Amman, 1988. PP. 187-206.
20. Ibrahim, M.; Sauer, Y. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey 1975". BASOR: 222. Atlanta: Scholars Press. P. 50.  
Yassine, K.; Ibrahim, M. and Sauer, J. "The East Jordan Valley Survey, 1976, (second part), Archaeology of Jordan: Assays and Reports. Khair Yassine. Amman, 1988. PP. 187-206.
21. Muheisen, M. "A Survey of Prehistoric Sites in the Jordan Valley, 1985". British Archaeological Reports (BAR) 396 (i). ed. Andrew N. Garrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. PP. 503-523.
22. Mabry, J. and Palumbo, G. with a contribution by Ian Kuijt. "The 1987 Wadi el-Yabis Survey". ADAJ: 32. Amman, 1988. P.278.
23. Mittmann, S. Beitrage zur Siedlungs und Territorialgeschichte des Nordlichen Ostjordanlands. Wiesbaden: Harrassowitz. 1970. P. 62.
24. Ibid. PP. 139-143.
25. انظر الخارطة رقم ٤
26. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-57.  
Mellaart, J. "Preliminary Report of the Archaeological Survey in the Yarmuk and Jordan Valley for the Point Four Irrigation Scheme". ADAJ: 6-7. Amman, 1962. PP. 126-153.  
Gustavson-Gaube, C. "Tell esh-Shuna North, 1984: A Preliminary Report". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 43-87.  
Gustavson-Gaube, C. "Tell esh-Shuna North, 1985: A Preliminary Report". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 69-114.
27. Falconer, S.; Magness-Gardiner, B. and Metzger, M. "The 1982 Excavations of the Tell el-Hayyat Project". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 87-104.  
Falconer, S. and Magness-Gardiner. "Preliminary Report of the First Season of the Tell el-Hayyat Project". BASOR: 255. New Haven, 1984. PP. 49-74.
28. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-57.
29. Dollfus, G.; Kafafi, Z. Coqueugniot, E.; Desse, J. and Neef, R. "Preliminary Results of the First Season of the Joint Jordano-French Project at Abu Hamid". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 353-380.  
Dollfus, G. and Kafafi, Z. "Abu Hamid, Jordanie: Premiers Resultats". Paleorient vol. 12/1. PP. 91-100.  
Dollfus, G. and Kafafi, Z. "Tell Abu Hamid". SHAJ: III. Amman, 1987. PP. 231-236.  
Dollfus, G. and Kafafi, Z. "Recent Researches at Abu Hamid". ADAJ: 25. Amman, 1993. PP. 241-256.
30. Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Expedition 1989, First Preliminary Report from Trial Soundings". ADAJ: 35. Amman, 1989. PP. 67-104.  
Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan expedition 1991, Second Season Preliminary Excavation Report". ADAJ: 37. Amman, 1993. PP. 279-306.
31. Falconer, S. "Village Pottery Production and Exchange: a Jordan Valley Perspective". SHAJ: III. Amman, 1987. P. 251.
32. Kirkbride, D. "A Neolithic Site at Wadi el-Yabis". ADAJ: 3. Amman, 1956. PP. 56-60.
33. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley, III: Tell es-



- Saidiyeh el-Tahta". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP.49-56.
- Pritchard, J. "Excavations at Tell es-Sa'ideyeh". ADAJ: 8-9. Amman, 1964. PP. 95-98.
- Pritchard, J. The Cemetery at Tell es-Sa'ideyeh, Jordan. University of Pennsylvania, 1980.
- Tubb, J. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-Sa'ideyeh, Jordan". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 131-140.
- Tubb, J. "Tell es-Sa'ideyeh 1986: Interim Report of the Second Season of Excavations". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 115-131.
- Tubb, J. "Tell es-Sa'ideyeh". Archiv fur Orientforschung (AFO), vol. 33. Berlin-Graz, 1986. PP. 212-218.
- Tubb, J. "Tell es-Sa'ideyeh: Preliminary Report on the first three Seasons of Renewed Excavations". Journal of the British School of Archaeology in Jerusalem (Levant), vol. 20. London, 1988. PP. 41-58.
- Tubb, J. "Preliminary Report on the Fourth Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh in the Jordan Valley". Levant: 22. London, 1990. PP. 21-42.
- Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. PP. 67-86.
- Tubb, J. "Preliminary Report on the Fifth (1990) Season of Excavations at Tell es-Sa'ideyeh". ADAJ: 35. Amman, 1991. PP. 181-194.
34. Yassine, K. "Tell el-Mazar, Field 1. Preliminary Report of Area G, H, L and M. The Summit". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 495-513.
- Yassine, K. Tell el-Mazar 1, Cemetery A. Amman, 1984.
- Yassine, K. "The Open Sanctuary of the Iron Age 1 Tell el-Mazar Mound A". ZDPV: 100. Stuttgart, 1984. PP. 108-115.
- Yassine, K. "Ammonite Seals from Tell el-Mazar". SHAJ: 1. Amman, 1982. PP.189-194.
35. De Hass, H.; LaGro, H. and Steiner, M. "First Season of Excavation at Tell Abu Sarbut, 1988: A Preliminary Report". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP: 323-326.
- LaGro, H. and De Hass, H. "Sugar Pots: A Preliminary Study of Technological Aspects of a Class of Medieval Industrial Pottery from Tell Abu Sarbut, Jordan". News Letter, Department of Pottery Technology, no.7/8. Leiden, 1989/1990. PP. 7-20.
36. Franken, H. and Kalsbeek, J. Poters of a Medieval Village in the Jordan Valley. New York: American Elsevier Press. 1975.
37. Franken, H. "The Excavations at Deir Alla in Jordan". Vetus Testamentum (VT), vol. 10. Leiden, 1960. PP. 386-393.
- Franken, H. "The Excavations at Deir Alla in Jordan, 2nd Season". VT: 11. Leiden, 1961. PP. 361-372.
- Franken, H. "The Excavations at Deir Alla in Jordan, 3rd Season". VT: 12. Leiden, 1962. PP. 379-382.
- Franken, H. "Excavations at Deir Alla, Jordan. Preliminary Report". VT: 14. Leiden, 1964. PP. 417-422.
- Franken, H. "Tell Deir Alla". Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land, vol. 1. Ed. Avi-Yonah. London: Oxford University Press, 1975. PP. 321-323.
- Franken, H. and Ibrahim, M. "Two Seasons of Excavations at Tell Deir Alla, 1976-78". ADAJ: 22. Amman, 1977-78. PP. 57-80.
- Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Excavations at Tell Deir Alla, Season 1979". ADAJ: 23. Amman, 1979. PP. 41-50.
- Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Excavations at Tell Deir Alla, Season



- 1982". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 577-585.
- Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Tell Deir Alla". AFO:29-30. Berlin-Graz, 1983-84. PP. 260- 263.
- Ibrahim, M. and Van der Kooij, G. "Excavations at Deir Alla, Season 1984". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 131-144.
38. Leonard, A. "Kataret es-Samra: A Late Bronze Age Cemetery in Transjordan". BASOR: 234. New Haven, 1979. PP. 253-265.
- Leonard, A. "Kataret es-Samra: A Late Bronze Age Cemetery in Transjordan". ADAJ: 25. Amman, 1981. PP. 179-195.
- Leonard, A. "The Kataret es-Samra Project: 1985". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 289-290.
- Leonard, A. "Kataret es-Samra". AFO: 33. Berlin-Graz, 1986. PP. 166-167.
39. Helms, S. "Excavations at Tell Umm Hammad esh-Sharqia in the Jordan Valley 1982". Levant: 16. London, 1984. PP. 35-54.
- Helms, S. "Excavations at Tell Umm Hammad, 1984". Levant: 18. London, 1986. PP. 25-51.
- Helms, S. "Tall Umm Hammad". AFO: 33. Berlin-Graz, 1986. PP. 228-231.
40. Helms, S. "The EBIV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley, 1983". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 55-85.
- Helms, S. "The EBIV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley". Liber Annus, (LA), no. 33. Jerusalem, 1984. PP. 407-408.
- Helms, S. "The EBIV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 55-86.
- Tubb, J. and Wright, M. "Excavations in the Early Bronze Age Cemetery of the Tiwal esh-Sharqi: A Preliminary Report". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 115-130.
41. Piccirillo, M. "A Church at Shunet Nimrin". ADAJ: 25. Amman, 1982. PP. 335-342.
- Piccirillo, M. "The Umayyad Churches of Jordan". ADAJ: 28. Amman, 1984. PP. 338-339.
42. Flanagan, J. and McCreery, D. "First Preliminary Report of the 1989 Tell Nimrin Project". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 131-152.
- Dornemann, R. "Preliminary Comments on the Pottery Traditions at Tell Nimrin, Illustrated from the 1989 Season of Excavations". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 153-182.
43. Prag, K. "Kilns of the Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age at Tell Iktanu: Preliminary Report, 1987 Season". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 59-72.
- Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, 1987". Levant: 21. London, 1989. PP. 33-46.
- Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, 1989". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 119-122.
- Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu and Tell al-Hammam, Jordan, 1990". Levant: 23. London, 1991. PP. 55-66.
44. Mellaart, J. "The Neolithic Site of Ghrubba". ADAJ: 3. Amman, 1959. PP. 24-40.
45. Suleiman, E. and Betts, A. "Rescue Excavations at Sahl es-Sarabet 1978/79". ADAJ: 25. Amman, 1981. PP. 227-234.
46. Mallon, A.; Koepfel, R. and Neuville, R. Teleilat Ghassul I. Rome, 1934.
- Koepfel, R.; Senes, H.; Murphy, J. and Mahan, G. Teleilat Ghassul II. Rome, 1940.
- Hennessy, B. "Preliminary Report on a First Season of Excavations at



- Teleilat Ghassul". Levant: 1. London, 1969. PP. 1-24.
47. Burckhardt, J. Travels in Syria and the Holy Land. London, 1822. P. 267.
48. Ibid. PP. 325-346.
49. Ibid. P. 346.
50. Buckingham, J. Reisen durch Syrien und Palastina. Weimar, 1828. PP. 9-14.
51. G. H. An Excursion from Jericho to the Ruins of Ancient Cities of Geraza and Amman. London, 1852. PP. 9-10.
52. Robinson, E. Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions, vol.III. Jerusalem, 1970. P. 317.
53. Warren, C. "Expedition East of Jordan". Palestine Exploration Fund Annual, (PEF), no. 1/6. London, 1870. P. 285.
54. Northy, A. "East of Jordan, Expedition". PEF. London, 1872. P. 71.
55. Van de Velde, C. Narrative of a Journey Through Syria and Palestine in 1851 and 1852. London, 1890. P. 356.
56. Le Strange, G. "A Ride Through 'Ajlun and the Belka during the Autumn of 1884". Across the Jordan: An Exploration and Survey of part of Hauran and Jaulan. ed. Schumacher Gottlieb. London, 1886. PP. 270-273.
57. Schumacher, G. "Abila of the Decapolis". PEF. London, 1889. PP. 71-190.
58. Smith, A. The Historical Geography of the Holy Land. London, 1897. PP. 488-489.
59. Steuernagel, C. "Der 'Adschlun". ZDPV: 48. Leipzig, 1925. PP. 343-351.
60. انظر الخارطة رقم ٢  
كريم، جمعه، المسح الاثرى لمطبعة جسر الشيخ حسين: الاعوار الشمالية لعام ١٩٨٦ احاث اليرموك .  
المجلد السادس، العدد الاول، جامعة اليرموك ، ١٩٩٠ ص ١١٥-١٥٠ .  
Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussien Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University. 1987.
- Lenzen, C.; Kareem, J. and Thorpe, S. "The Jisr Sheikh Hussein Project, 1986". ADAJ: 31. Amman, 1987. PP. 313-320.
- Kareem, J. "Tell Fandi: Jisr Sheikh Hussein Project, 1986". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 97-110.
- Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". in Studies on the History of Bilad al-Sham During the Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990. PP. 33-50.
61. Buckingham, J. Reisen durch Syrien und Palastina. Weimar, 1828. PP. 10-14.
62. Schumacher, G. "Abila of the Decapolis". PEF. London, 1890. PP. 71-72.
63. انظر الخارطة رقم ٤
64. انظر الخارطة رقم ٣
65. Rudolph, C. "The Iron Age Fortresses in Central Negev". BASOR: 236. New Haven, 1979. PP. 68-75.
66. Mabry, J. "Investigations at Tell el-Handaquq, Jordan (1987-1988)". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 59-96.
67. Ibid. PP. 74-84.
68. النيمار هو اقطاع عسكري
69. الحيت، محمد عدنان، والحمود، بوقان، دفتر لواء عجلون، طابو دفتر رقم ١٨٥ عمان ١٩٩١ ص ١٩ .
70. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. Unpublished MA Thesis. Yarmouk University.
- Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". Studies on the History of Bilad al



Sham During the Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman. 1990. PP. 40-45.

71. Kareem, J. The Settlement Patterns in the Jordan Valley in the Mid- to Late Islamic Period. Ph. D. Frei Universitat Berlin. PP. 105-180.
72. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975." BASOR 222. New Haven, 1976. P. 63.
73. القلقشندي (ابو العباس احمد بن علي) أصبح الاعشى في صناعة الانشا ج ١٤. الهيئة العامة المصرية، ١٩٧٣ ص ٣٧٠.
74. ابن تغري بردي (جمال الدين ابي المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١٦. تحقيق جمال محمد محرز وفهيم محمد شلتوت. القاهرة، ١٩٧١ ص ٤٨.
75. Muheisen, M. "A Survey of Prehistoric Sites in the Jordan Valley, 1985". BAR 396 (i). ed. Andrew N. Garrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. P. 520.
76. Villiers, L. "First Report on Palaeolithic Sampling at Abu el-Khas, Pella". ADAJ: 24. Amman, 1980. PP. 163-168.  
Villiers, L. "Final Report on Palaeolithic Sampling at Abu al-Khas, North Jordan". ADAJ: 27. Amman, 1983. P. 40.
77. Muheisen, M. "A Survey of Prehistoric Sites in the Jordan Valley, 1985". BAR 396 (I). ed. Andrew N. Gerrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. P. 520.
78. Ibid. P. 520.
79. Edwards, P.; Brouke, S.; Colledge, S.; Head, J. and Macumber, P. "Late Pleistocene Prehistory in Wadi al-Hammeh, Jordan Valley". BAR: 396 (i), ed. Andrew N. Gerrard and Hans Georg Gebel. Oxford, 1988. PP. 530-534.  
McNicoll, A.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsley, A. and Watson, P. Preliminary Report on the University of Sydney's Seventh Season of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl), 1985". ADAJ: 30. Amman, 1986. P. 158.  
Potts, T.; Brouke, S.; Edwards, P.; Richards, F. and Wightman, G. "Preliminary Report on the Eighth and Ninth Seasons of Excavation by the University of Sydney at Pella (Tabaqat Fahl) 1986 and 1987". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 116-119.
80. كفاي، زيدان عبد الكافي. الاردن في العصور الحجرية، منشورات لجنة تاريخ الاردن، ١٩٩٠. عمان ص ١٠١.
81. McNicoll, A.; Ball, W.; Bassett, S.; Edwards, P.; Macumber, P.; Petocz, D.; Potts, T.; Randle, L.; Villiers, L. and Watson, P. "Preliminary Report on the University of Sydney's Fifth Season of Excavation at Pella in Jordan. ADAJ: 28. Amman, 1984. PP. 56-61.  
McNicoll, A.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsley, A. and Watson, P. " Preliminary Report on the University of Sydney's Seventh Season of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl), 1985". ADAJ: 30. Amman, 1986. P. 160.  
Edwards, P.; Brouke, S.; Da Costa, K.; Tidmarsh, J.; Walmsley, A. and Watson, P. "Preliminary report on the University of Sydney's Tenth Season of Excavations at Pella (Tabaqat Fahl) in 1988". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 58-60.  
Edwards, P. "The Epipalaeolithic Period". Pella in Jordan 2. ed. McNicoll, A.; Edwards, P.; Hanbury-Tenison, J.; Hennessy, B.; Potts, T.; Smith, R.; Walmsley, A. and Watson, P. Sydney, 1992. PP. 2-6.



82. McNicoll, A.; Smith, R. and Hennesy, B. Pella in Jordan 1. Canberra, 1982. P. 26.
83. كعامي، ص ١٢٥-١٢٦، ١٤٠٠.
84. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-57.
85. Ibid. PP. 12-57.
86. Mellaart, J. "The Neolithic Site of Grubba". ADAJ: 3. Amman, 1956. PP. 24-40.
87. Hennesy, J. "Preliminary Report on a First Season of Excavations at Teleilat Ghassul". Levant: 1. London, 1969. PP. 1-24.
88. Kafafi, Z. The Neolithic of Jordan (East Bank). Ph. D. Thesis. Frei Universitat Berlin. Berlin.
89. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven, Cambridge, 1951. P. 276.
90. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.  
وانظر اللوحة رقم ١
91. وانظر اللوحة رقم ٢ انظر اللوحتين رقم ٣ و ٤
92. Koucky, F. and Smith, R. "Lake Baisan and the Prehistoric Settlement of the Northern Jordan Valley". Paleorient: 12/2. Paris, 1986. PP. 24-31.
93. Ibid. PP. 27-37.
94. Dollfus, G.; Kafafi, Z.; Coqueugnoit, E.; Desse, J. and Neef, R. "Preliminary Results of the First Season of the Joint Jordano-French Project at Abu Hamid". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 353-380.  
Dollfus, G.; Kafafi, Z.; Rewerski, J.; Vaillant, N.; Coqueugnoit, E.; Desse, J. and Neef, R. "Abu Hamid: An Early Fourth Millennium Site in the Jordan Valley, Preliminary Results. BAR: 396 (i). ed. Gerrard, E. and Gebel, H. Oxford, 1988. PP. 576-601.
95. Hennesy, J. "Preliminary Report on a First Season of Excavations at Teleilat Ghassul". Levant: 1. London, 1969. P. 5.
96. Ibrahim, M. "Archaeological Excavations at Sahab, 1972". ADAJ: 17. Amman, 1972. PP. 23-36.  
Ibrahim, M. "Second Season of Excavations at Sahab, 1973". ADAJ: 18. Amman, 1974. PP. 55-61.  
Ibrahim, M. "Third Season of Excavations at Sahab, 1975". ADAJ: 20. Amman, 1975. PP. 69-82.
97. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
98. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
99. انظر اللوحة رقم ٣
100. انظر اللوحة رقم ٤
101. ياسين، حير. جوبي بلاد الشام تاريخه وآثاره في العصور البرونزية. مشورات لجنة تاريخ الاردن. عمان، ١٩٩١ ص ٣٠.
102. De Contenson, H. "Three Soundings in the Jordan Valley". ADAJ: 4-5. Amman, 1960. PP. 12-31.  
Gustavson-Gaube, C. "Tell esh-Shuna North, 1985: A Preliminary Report". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 69
103. Pritchard, J. The Cemetery at Tell es-Sa'idiyeh, Jordan. Pennsylvania.  
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 65.



104. Mabry, J. "Investigations at Tell el-Handaquq, Jordan (1987-1988)". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 59-96.
105. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
106. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
107. انظر اللوحة رقم ١
108. انظر اللوحة رقم ٢
109. Schaub, T. "The Origins of the Early Bronze Age Walled Towns Culture of Jordan". SHAJ: 1. Ed. Hadidi, A. Amman, 1982. P. 74.
110. Ibrahim, M. and Mittmann, S. "Tell el-Mughayyir and Khirbet Zeraqoun". News Letter no. 4. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 3-6.  
Ibrahim, M. and Mittmann, S. "Excavations at Khirbet ez-Zeraqoun 1991". News Letter no. 12. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1991. PP. 3-5.
111. Tubb, J. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh, Jordan". ADAJ: 29. Amman, 1985. P. 140.  
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh 1986: Interim Report of the Second Season of Excavations". ADAJ: 30. Amman, 1986. P. 123.  
Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 65.  
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fourth Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh in the Jordan Valley". Levant: 22. London, 1990. PP. 33, 37-38.  
Tubb, J. "Preliminary Report on the Fifth (1990) Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh". ADAJ: 25. Amman, 1991. P. 189.  
Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. P. 83.
112. Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Excavation 1989, First Season, Preliminary Report From Trial Soundings". ADAJ: 35. Amman, 1991. PP. 77-81.  
Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Expedition 1991, Second Season, Preliminary Excavation Report". ADAJ: 37. Amman, 1993. PP. 284-287.
113. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
114. انظر اللوحة رقم ١  
Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
115. انظر اللوحة رقم ٢  
Albright, W. "Palestine in the Earliest Historical Period". Journal of Palestine Oriental Society, (JPoS), 2. Jerusalem, 1922. PP. 110-139.
116. Edzard, D. Die Zweite Zwischenzeit Babyloniens. Wiesbaden, 1957.
117. ياسين ، ص ٢٧
118. Lapp, P. The Dhahr Mirzbaneh Tombs: Three Intermediate Bronze Age Cemeteries in Jordan. New Haven, 1966.  
Richard, S. "Toward a Consensus of Opinion on the End of the Early Bronze Age in Palestine-Transjordan". BASOR: 237. New Haven, 1980. PP. 5-34.
119. Prag, K. "The Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age: An Interpretation of the Evidence from Transjordan, Syria and Lebanon".



- Levant: 6. London, 1974. PP. 69-116.
120. Falconer, S. "Village Pottery Production and Exchange: A Jordan Valley Perspective". SHAJ: III. Amman, 1987. PP. 251-252.
121. Helms, S. "The EB IV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley, 1983". ADAJ: 27. Amman, Jordan. PP. 55-85.  
Helms, S. "The EB IV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi". LA: 33. Jerusalem, 1984. PP. 407-408.  
Helms, S. "The EB IV (EB-MB) Cemetery at Tiwal esh-Sharqi in the Jordan Valley". ADAJ: 28. Amman, 1984. PP. 55-86.
122. Helms, S. "Excavations at Tell Umm Hammad esh-Sharqia in the Jordan Valley, 1982". Levant: 16. London, 1984. PP. 35-54.
123. Prag, K. "Kilns of the Intermediate Early-Middle Bronze Age at Tell Iktanu. Preliminary Report, 1987 Season". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 59-72.  
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan, 1987". Levant: 21. London, 1989. PP. 33-46.  
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu, Jordan 1989". ADAJ: 34. Amman, 1990. PP. 119-130.  
Prag, K. "Preliminary Report on the Excavations at Tell Iktanu and Tell al-Hammam, Jordan, 1990:.. Levant: 23. London, 1991. PP. 55-66.
124. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. P. 51.
125. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
126. <sup>انظر اللوحة رقم ١</sup> Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50. <sup>انظر اللوحة رقم ٢</sup>
127. <sup>انظر اللوحين رقم ٣ و ٤</sup>
128. Kenyon, K. "Palestine in the Middle Bronze Age". CAH: 2, part 1. Cambridge, 1973. PP. 77-116.  
Dever, W. "The Beginning of the Middle Bronze Age. The Biblical Archaeologist, (BA),: 15. New Haven, 1976. PP. 58-61.  
Gerstenblith, P. "The Levant at the Beginning of the Middle Bronze Age". AASOR: 2-3. New Haven-Cambridge, 1983.
129. Parr, P. "The Origin of Rampart Fortification of the Middle Bronze Age, Palestine and Syria. ZDPV: 48. Leipzig, 1968. PP. 18-45.
130. Potts, T. "A Bronze Age Ivory-Decorated Box from Pella (Pahel) and its Foreign Relations. SHAJ III. ed. Hadidi, A. Amman, 1987. PP. 59-72.
131. Kenyon, K. Archaeology in the Holy Land. 4th edition. New York, 1979.
132. Smith, R. Pella of the Decapolis 1, the 1967 Season of the Colledge of Wooster Expedition to Pella. Wooster, 1973. P. 13.
133. Falconer, S.; Magness-Gardiner, B. and Metzger, M. "The 1982 Excavations of the Tell el-Hayyat Project". ADAJ: 27. Amman, 1983. PP. 87-104.  
Falconer, S.; Magness-Gardiner, B. and Metzger, M. "Preliminary Report of the First Season of the Tell el-Hayyat Project". BASOR: 255. New Haven, 1984. PP. 49-75.
134. Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh". Levant: 20. London, 1989. PP. 23-88.
135. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
136. <sup>انظر اللوحة رقم ١</sup> Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50. <sup>انظر اللوحة رقم ٢</sup>



137. انظر اللوحتين رقم ٣ و ٤
138. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New-Haven, 1976. P. 54.
139. Pritchard, J. Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton, 1950.  
Weinstein, J. "The Egyptian Empire in Palestine". BASOR: 24. New Haven, 1981. PP. 1-23.
140. Hoffmeir, J. "Reconsidering Egypt's Part in the Termination of the Middle Bronze Age in Palestine". Levant, 21. London, 1989. PP. 181-193.  
Hoffmeir, J. "Some Thoughts on William G. Dever's Hyksos, Egyptian Destructions, and the End of the Palestinian Middle Bronze Age". Levant: 22. London, 1990. PP. 83-89.
141. Shea, W. "The Conquest of Sharuhén and Megiddo Reconsidered". Israel Exploration Journal, (IEJ),: 29. Jerusalem, 1979. PP. 1-5.  
Weinstein, J. "Egypt and the Middle Bronze IIC/Late Bronze IA Transition in Palestine". Levant: 23. London, 1991. PP. 105-115.  
Dever, W. "Hyksos, Egyptian Destructions and End of the Palestinian Middle Bronze Age". Levant: 22. London, 1990. PP. 75-82.
142. Pritchard, J. Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. Princeton, 1950. PP. 352-353.
143. Campbell, G. The Chronology of the Amarna Letters. Baltimore, 1964.  
Albright, W. "The Amarna Letters from Palestine". CAH: 2, part 1. Cambridge, 1975. PP. 88-116.
144. Nicolaaou, K. "The Mycenaeans in the East". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 121-126.
145. Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 65.
146. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
147. انظر اللوحة رقم ١  
Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
148. انظر اللوحة رقم ٢
149. انظر اللوحة رقم ٣
150. Herr, L. "Shifts in Settlement Patterns of Late Bronze and Iron Age Ammon". SAHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 175-177.
151. Dornemann, R. "The Beginning of the Iron Age in Transjordan". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 135-140.
152. ابو طالب، محمود. آثار الاردن في العصور القديمة، أضواء جديدة. وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٨.
153. ص ٧٩، ابو طالب، ص ٨٠.  
طوقان، فواز أحمد. مسلة ميشع ملك مواب. ترجمة جديدة. حولية دائرة الآثار العامة، العدد ١٥، عمان، ١٩٧٠. ص ١٩-٥١.
- Bernhardt, K. "The Political Situation in the East of Jordan During the Time of King Mesha". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 163-167.
154. ص ٨٠، ابو طالب
155. Bennett, C. "Neo-Assyrian Influence in Transjordan". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 181-186.
156. Yassine, K. "Ammonite Seals from Tell el-Mazar". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 189-194.
157. Tubb, J. "Preliminary Report on the 1985 Season of Excavations at Tell es-



- Sa'idiyeh, Jordan". ADAJ: 29. Amman, 1985. PP. 135-139.
- Tubb, J. "Tell es-Sa'diyeh, Interim Report of the Second Season of Excavations". ADAJ: 30. Amman, 1986. PP. 118-119.
- Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh: Preliminary Report on the First Three Seasons of Renewed Excavations". Levant: 20. London, 1988. P. 72.
- Tubb, J. "Tell es-Sa'idiyeh 1987: Third Season Interim Report". ADAJ: 32. Amman, 1988. PP. 43-48.
- Tubb, J. "Preliminary Report on the Fourth Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh in the Jordan Valley". Levant: 22. London, 1990. PP. 24-25.
- Tubb, J. "Preliminary Report on the Fifth (1990) Season of Excavations at Tell es-Sa'idiyeh". ADAJ: 25. Amman, 1991. P. 183.
- Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. PP. 69-74.
158. Fischer, P. "Tell Abu al-Khraz: The Swedish Jordan Expedition 1989, First Season Preliminary Report from Trial Soundings". ADAJ: 35. Amman, 1991. PP. 73-76, 79, 81.
- Fischer, P. "Tell Abu al-Kharaz: The Swedish Jordan Expedition 1991, Second Season Preliminary Excavation Report". ADAJ: 37. Amman, 1993. P. 281.
159. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
160. انظر اللوحة رقم ١  
Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
161. انظر اللوحة رقم ٢
162. انظر اللوحة رقم ٣
163. انظر اللوحة رقم ٤
164. جوزءأ مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية .ترجمة احسان عباس ،دار الشروق للنشر والتوزيع  
Simith, R. "The Southern Levant in the Hellenistic Period". Levant: 22. London, 1990. pp. 122-124. عمان ١٩٨٧ ص ٢٩-٥٠
165. Smith, R. "The Southern Levant in the Hellenistic Period". Levant: 22. London, 1990. PP. 123-129.
166. Hadidi, A. "Amman-Philadelphia: Aspects of Roman Urbanism". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 295-298.
167. Barghouti, A. "Urbanization of Palestine and Jordan in Hellenistic and Roman Times". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 209-229.
168. Tubb, J. and Dorrell, P. "Tell es-Sa'idiyeh: Interim Report on the Fifth (1990) Season of Excavations". Levant: 23. London, 1991. P. 75.
169. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
170. انظر اللوحة رقم ١  
Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
171. انظر اللوحة رقم ٢  
Smith, R. "Preliminary Report on the 1981 Season of the Sydney/Wooster Joint Expedition to Pella (Spring Season)". ADAJ: 26. Amman, 1982. PP. 331-332.
172. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. P. 58.
173. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
174. انظر اللوحة رقم ١  
Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, انظر اللوحة رقم ٢



- 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
175. Mittmann, S. Beitrage zur Siedlungs und Territorialgeschichte des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. 139-143.
176. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR, 222. New Haven, 1976. P. 59.
177. Mittmann, S. Beitrage zur Siedlungs und Territorialgeschichte des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. PP. 137-138.
178. Mabry, J. and Palumbo, G. "The Wadi el-Yabis Survey". ADAJ: 32. Amman, 1988. P. 291.
179. انظر اللوحة رقم ٣ و ٤
180. Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Padstow, 1984. P. 95.  
Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. P. 195.
181. Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. P. 104, 133, 136.  
Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Padstow, 1984. P. 58, 62, 70.
182. Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. P. 104, 114, 133.  
Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Padstow, 1984. P. 52, 54, 62.
183. Bury, J. History of the Later Roman Empire. London, 1958. P. 61.  
Vasiliev, A. History of the Byzantine Empire. London, 1958. PP. 86-87, 103, 111, 113, 140, 171-172.
184. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 32-34.
185. حوري، ميسون. الارشيات العيسفائية في كنيسة البصيلة، دراسة مقارنة مع بعض ارضيات الكنائس في شمال الاردن. رسالة ماجستير. معهد الآثار والاثولوجيا - جامعة السموك ، ١٩٩٠.
186. Glueck, N. "Explorations in Eastern Palestine, IV". AASOR: XXV-XXVIII. New Haven-Cambridge, 1951. PP. 239-303.
- انظر اللوحة رقم ١
187. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
- انظر اللوحة رقم ٢
188. انظر اللوحة رقم ٣
189. انظر اللوحة رقم ٤
190. Steuernagel, C. "Der 'Adschlun". ZDPV: 48. Leipzig, 1925. P. 343.
191. Piccirillo, M. "The Umayyad Churches of Jordan". ADAJ: 28. Amman, 1984. P. 338.
192. Piccirillo, M. "A Church at Shunat Nimrin". ADAJ: 26. Amman, 1982. PP. 335-343.
193. الطبري، ابي جعفر محمد بن حريز . تاريخ الطبري ، ج٢. القاهرة ، دار المعارف وبيروت ، دار سويدان ، ١٩٦٧ ص ٤٣٤ .  
اس الاثير ، عمر الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد . الكامل في التاريخ ، ج٢. دار بيروت ، ١٩٦٧ ص ٤٢٩ .
194. الطبري ص ١٨٦٦ .
195. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 36-38.
196. Johns, J. "Islamic Settlement in Ard el-Karak". SHAJ: IV. ed. Hadidi, A. Amman, 1992. PP. 366-367.



197. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheik Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 446-447.  
Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". Studies on the History of Bilad al-Sham During the Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990. P. 133.
198. Franken, H. and Kalsbeek, J. Pottery of a Medieval Village in the Jordan Valley. New York, 1975. PP. 67-105.
199. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
200. انظر اللوحة رقم ٢  
انظر اللوحين ٣ و ٤
201. Brockelmann, C. History of the Islamic Peoples. London, 1982. P. 156.  
Shaban, M. Islamic History, A New Interpretation 2. Cambridge, 1976. PP. 136-140.
202. Brockelmann, C. History of the Islamic Peoples. London, 1982. PP. 107-180.
203. Sauer, J. "The Pottery of Jordan in the Early Islamic Periods". SHAJ: I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 32-33.  
Smith, R. Pella of the Decapolis I, the 1967 Season of the Colledge of Wooster Expedition to Pella. Wooster, 1973.  
De Vries, B. "Urbanization in the Basalt Region of North Jordan in Late Antiquity: The Case of Umm el-Jimal". SHAJ: II. ed. Hadidi, A. Amman, 1985. PP. 249-259.
204. Walmsley, A. "Fihl (Pella) and the Cities of North Jordan During the Umayyad and Abbasid Periods". SHAJ: IV. ed. Hadidi. Amman, 1992. PP. 377-384.  
Walmsley, A. and Smith, R. "The Islamic Period". Pella in Jordan 2. ed. McNicoll, A.; Edwards, P.; Hanbury-Tenison, J.; Hennessy, J.; Potts, T.; Smith, R.; Walmsley, A. and Watson, P. Sydney, 1992. PP. 182-198.
205. الاضطحري، اسحق بن ابراهيم. المسالك والممالك. تدقيق محمد جابر عبدالعال الحبي. القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤٥٠  
اس الققيه ، ابو بكر احمد بن محمد الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، لندن ، ١٩٦٧ ، ص ٥٦  
المقدسي ، محمد بن احمد . احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن - بريل ، ١٩٦٧ ، ص ١٨٠
206. Kareem, J. "Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Djisr Shaykh Husayn Region". Studies on the History of Bilad al-Sham During the Umayyad Period. ed. Muhammad, A. Bakhit and Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990. PP. 40-45.
207. Franken, H. and Kalsbeek, J. Pottery of a Medieval Village in the Jordan Valley. New York, 1975. PP. 107-162.
208. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
209. انظر اللوحة رقم ٢  
انظر اللوحة رقم ٣  
انظر اللوحة رقم ٤
210. Beyer, G. "Civitas Ficum". ZDPV: 69. Wiesbaden, 1953. P. 76.
211. Smail, R. The Crusaders in Syria and in the Holy Land. Thames and Hudson, 1973. PP. 9-38.
212. Muller-Weiner, W. Castles of the Crusaders. New York, 1966.
213. القلقشندي ، ج ٤ ، ص ١٠٥  
اس شداد ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم . الاعلاق الحطرية في بكر امراء الشام والجزيرة . دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ٨٦



214. Smail, R. The Crusaders in Syria and in the Holy Land. Thames and Hudson, 1973. P. 100.  
Beyer, G. "Civitus Ficum". ZDPV: 69. Wiesbaden, 1953. P. 67.
215. Beyer, G. "Civitus Ficum". ZDPV: 69. Wiesbaden, 1953. P. 67.
216. Beyer, G. "Die Kreuzfahrergebiete Akko und Galilaea". ZDPV: 70. Wiesbaden, 1954. PP. 22-24.
217. ابن شداد ، ص ٨٧
218. الدمشقي ، الانصاري ، ابو عبدالله محمد . نوبة الدهر في عجائب البر والبحر . لبيز ، ١٩٢٢ ، ص ٢٠١
219. القلقشندي ، ج ١٤ - ٢٨٠
220. ابن شداد ، ص ٢٢٦
221. القرويني ، ابو زكريا محمد بن محمد ، آثار البلاد واحبار العباد ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩ ، ص ٩٥  
ابن شداد ، ص ١٢٦
222. Henninger, J. "Pariastamme in Arabien". Arabica Varia. Schweiz Orbis Biblicus Orientalis 901. Gottingen, 1989. PP. 244-246.
223. Kareem, J. The Settlement Patterns in the Jordan Valley in the Mid- to Late Islamic Period. Ph. D. Thesis. Frei Universitat Berlin, 1992. PP. 105-180.
224. De Hass, H.; LaGro, H. and Steiner, M. "First Season of Excavations at Tell Abu Sarbut, 1988". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 323-326.  
LaGro, H. "Abu Sarbut" AKKADICA: VII. PP. 118-119.
225. Kareem, J. Evidence of the Umayyad Occupation in the Jordan Valley as Seen in the Jisr Sheikh Hussein Region. MA Thesis. Institute of Archaeology and Anthropology-Yarmouk University, 1987. PP. 92-123.
226. Franken, H. and Kalsbeek, J. Pottery of a Medieval Village in the Jordan Valley. New York, 1975.
227. Ibrahim, M.; Sauer, J. and Yassine, K. "The East Jordan Valley Survey, 1975". BASOR: 222. New Haven, 1976. PP. 48-50.
228. Ibid. P. 63.  
انظر اللوحة رقم ٢
229. انظر اللوحة رقم ٣
230. Kareem, J. "Tell Fendi: Jisr Sheikh Hussein Project, 1986". ADAJ: 33. Amman, 1989. PP. 97-110.
231. انظر اللوحة رقم ٤
232. Sharon, M. "The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries". Studies on Palestine During the Ottoman Period. ed. Ma'oz, M. Jerusalem, 1975. PP. 13-17.  
Lapidus, I. Muslim Cities in the Later Middle Ages. Cambridge: Harvard University Press, 1967. PP. 27-28.  
المقريزي ، احمد بن علي . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ . تحقيق محمد زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠٨
233. المقريزي ، ج ٢ ، ص ٧٧٤  
اسنن ، ج ١٠ ، ص ٢٠٩
234. Dols, M. The Black Death in the Middle East. Princeton, 1977. P. 62.
235. Ashtor, A. "Levantine Sugar Industry in the Late Middle Ages: An Example of Technological Decline". Israel Oriental Studies, (IOS), 226-280. Jerusalem, 1977. P. 236.
236. Hartmann, R. "Die Strasse von Damaskus nach Kairo". Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, (ZDMG), 64. Leipzig, 1910. PP. 694-702.



237. Lewis, B. Studies in Classical and Ottoman Islam (7th-16th century). London, 1976. PP. 465-476.
- Hutteroth, W. and 'Abdulfattah, K. Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century. Erlangen, 1977. P. 55.
- Al-Bakhit, M. "Jordan in Perspective: The Mamluk-Ottoman Period". SHAJ I. ed. Hadidi, A. Amman, 1982. PP. 361-362.
238. Hutteroth, W. and "Abdulfattah, K. Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century. Erlangen, 1977.
239. البخت والحمود ، ١٩٩١ م.  
Hutteroth, W. and "Abdulfattah, K. Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century. Erlangen, 1977. Map no. 3.
240. البخت والحمود ، ص ٢٢٦.
241. المصدر السابق ص ١٩.
242. المصدر السابق ، ص ٢٤٧.
243. المصدر السابق ، ص ٢٤١.
244. المصدر السابق ، ص ٧٢.
245. Ma'oz, M. Ottoman Reform in Syria and Palestine During the Ottoman Period. Oxford, 1968. P. 31.
246. Cohen, A. Palestine in the 18th Century. Jerusalem, 1973. P. 31.
247. Rafeq, A. The Province of Damascus 1723-1783. Beirut, 1966. P. 130, 157, 285,  
Cohen, A. Palestine in the 18th Century. Jerusalem, 1973. P. 92, 104-111.
248. Burckhardt, J. Travels in Syria and the Holy Land. London, 1822. PP. 325-346.  
Buckingham, J. Reisen durch Syrie und Palastina. Zweiter Teil. Weimar, 1828. P. 9.
249. Robinson, E. Biblical Researches in Palestine and the Adjacent Regions. Vol. III. Jerusalem, 1970. P. 317.  
Warren, C. "Expedition East of Jordan". PEF. London, 1870. P. 285.  
Northy, A. "East of Jordan, Expedition". PEF. London, 1872. P. 71.  
Schumacher, G. "Dscherasch". ZDPV: 25. Leipzig, 1902. P. 114.  
Smith, A. The Historical Geography of the Holy Land. London, 1897. PP. 488-489.
250. Steuernagel, C. "Der "Adschlun". ZDPV: 48. Leipzig, 1925. P. 341.







## العناصر المعمارية لمساكن العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) في جنوب الاردن ( دراسة تطيلية )

د. خالد محمود أبو غنيمه

استاذ مساعد

جامعة اليرموك/معهد الآثار والأنثروبولوجيا

قسم الآثار

يعد العصر الحجري الحديث « النيوليث » من أهم الفترات التي مرت بالإنسان خلال تاريخه الطويل ، اذ استطاع أن يحقق فيها لأول مرة اعتماده على نفسه في انتاج الطعام والغذاء والاكتفاء الذاتي . واعتبر العديد من العلماء توصل الإنسان الى انتاج قوته بنفسه من أهم الانجازات التي أثرت في حياته ، وتطوره ، ورقيه فيما بعد، إذ وضع بعمله هذ نهاية لعهد طويل من الانتقال والترحال ، وأدى الى ارتباطه بالأرض واقامته الدائمة بالقرب من مزروعاته وحيواناته المدجنة ، مما أدى الى اقامة أولى القرى والمستوطنات الدائمة في تاريخ البشرية . استخدم مصطلح « العصر الحجري الحديث » بشكل كبير للدلالة على نظام اقتصادي مميز ومنظم ونظام عمراني جديد (١) ، فامتازت هذه الفترة باعتماد الإنسان في حياته الاقتصادية على الزراعة، والتي شملت أنواعا عدة من الحبوب ، والنباتات ، والصيد ، كمصدر أساسي للحصول على القوت ، كما أنه توصل الى تدجين الحيوانات وأخيرا الى اكتشاف الفخار . وتميزت مباني المرحلة الأولى من العصر الحجري الحديث باتخاذ الشكل الدائري أو البيضوي غير المنتظم شكلا مميزا لها ، بينما اتخذت مباني المرحلة الثانية الشكل المستطيل نمطا معماريا . واستخدم في بنائها المواد المتوفرة في البيئة المحلية، فجاءت غالبا مبنية من الحجارة ، أو الطوب ، أو اللبن ، أو الأخشاب (٢) . وأبرز ما امتازت به مباني هذه المرحلة استخدام القصرة بشكل كبير في تغطية الارضيات التي جاءت مصقولة في أغلب الأحيان ، كما تم دهن هذه الارضيات - غالبا - باللون الاحمر . وتعتبر هذه الخصائص قاسما مشتركا في جميع مباني هذه المرحلة المكتشفة في مواقع بلاد الشام (٣) . وعليه اطلقت كاثلين كنيون ( K. Kenyon ) على هذه المرحلة مصطلح « مرحلة الأرضية المقصورة » ( Plastered Floor Period ) (٤) .

اخترت مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الاردن كموضوع لهذا البحث بسبب اكتشاف العديد من المواقع المثلة لمراحل مختلفة لهذه الفترة في المنطقة . حيث نالت هذه المنطقة اهتماما وتركيزا كبيرين في مجال



المسوحات والتقنيات الاثرية من قبل الباحثين المحليين والاجانب وللنتائج المهمة التي اسفرت عنها هذه التنقيبات .

وسيقصر بحثنا على موضوع العمارة وما يتعلق بها من عناصر اساسية للمباني والمواد المستخدمة في انشاء هذه المباني . . وتهدف هذه الدراسة التعرف الى المواد الانشائية التي استخدمت في البناء وتأثيرها على تلك الاشكال والتعرف الى المقومات الاساسية لبناء المساكن والى محاولة استخراج الاشكال السكنية القديمة والاهتمام بالعناصر التي تتألف منها البيوت كالجدران ، والنوافذ ، والمداخل ، والارضيات والسقوف ، والاسطح وأماكن التخزين . وقد تم اختياري لموضوع العمارة في جنوب الاردن في هذه الفترة بسبب عدم وجود دراسة متكاملة للعمارة بكل عناصرها . اذ أن التركيز في التقارير على وصف المخطط وبعض العناصر الاخرى دون الالتفات الى بقية العناصر المعمارية الاخرى بالتفصيل ، اضافة الى أن القراء العرب ليسوا على اطلاع بخصوص هذه الفترة وما أظهرته المسوحات والتنقيبات الاثرية التي جرت في المنطقة من نتائج مهمة ، خاصة وأن أكثر ما كتب كان بلغات أجنبية لا يلم بها سوى القليل . أما ما كتب باللغة العربية في هذا الموضوع فليس أكثر من اشارات عابرة وردت هنا وهناك (٥) . اضافة الى قلة الابحاث المتعلقة بعمارة العصر الحجري الحديث تلك التي كتبها ادوارد باننج وبرايين بيرد ( E. Banning and B. Byrd ) حول عمارة عين غزال في العصر الحجري الحديث وكتاب البيوت القديمة في الشرق لاوليفيه اورنش ( O Aurench ) (٦) .

من المعلوم أن فن العمارة بشكل عام وفن عمارة البيوت على وجه الخصوص تطور بمرور الزمن ولا يزال تطوره مستمرا حتى الان شأنه في ذلك شأن سائر الفنون الاخرى . وعلى الرغم من هذا التطور فاننا نلاحظ أن بعض العناصر المعمارية احتفظت بطابعها القديم ، ولا سيما في المناطق الريفية في الوقت الحالي . هذا التطور في فن العمارة من ناحية الشكل وأنماط البناء ساهم بشكل كبير في دفع العلماء والباحثين الاثريين لاعتماد البقايا المعمارية كاحدى الاسس المتبعة في تمييز وتصنيف الفترات والمراحل الزمنية وخصوصا في فترات عصور ما قبل التاريخ . وتعتبر كاثلين كنيون ( K. Kenyon ) من أوائل علماء الآثار والباحثين الذين اعتمدوا على البقايا المعمارية كخصائص مميزة في تقسيم هذه المرحلة ، اذ اعتمدت على الاختلاف في شكل البقايا المعمارية ، بالاضافة الى الادوات الصوانية التي كشفت عنها في الطبقات التي احتوت على المرحلة السابقة لظهور الفخار في العصر الحجري الحديث في موقع أريحا في تقسيمها لهذه المرحلة الى مرحلتين فرعيتين ، قاطلت على المرحلة الاولى التي احتوت على بقايا بيوت دائرية الشكل مصطلح مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «أ» ( Pre-Pottery Neolithic A ) او ما اصطلح على اختصاره « PPNA » ، واطلقت على



المرحلة الثانية التي احتوت على بيوت مستطيلة ذات أرضيات مقصورة اسم ( مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» ) ( Pre-Pottery Neolithic B ) ويختصر اسمها « PPNB » (٧) . واعتمد علماء آثار آخرون على هذه الاختلافات كواحدة من الاسس التي اتخذوها في تقسيماتهم لهذه المرحلة (٨) .

ولا بد لنا قبل الحديث عن عمارة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » في جنوب الاردن من اعطاء فكرة سريعة عن تاريخ الاستيطان في المنطقة .

دلت نتائج المسوحات والتنقيبات الاثرية التي جرت في المنطقة على وجود الانسان منذ اقدم العصور ، اذ عثر على سطح العديد من المواقع على لقى اثرية ، كالفؤوس اليدوية ، والشظايا ، والقواطع التي تعود الى مرحلة العصر الحجري القديم الادنى . وترك الانسان العديد من الشواهد والادلة على استخدام الملاجئ الصخرية بالإضافة الى المواقع المكشوفة في العراء مثل موقع طور صبيحة ( J8 ( Tor Sabiheh ) ومواقع جبل كلخة ( J 407 , J 406 b , J 405 ) وانساب ، وملجأ المدمغ ، كمناطق سكن في المراحل اللاحقة وحتى بداية العصر الحجري الحديث .

وتم التعرف الى عدد كبير من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» من خلال المسوحات والتنقيبات التي جرت في منطقة جنوب الاردن . ففي المسح الاثري الذي اجراه كل من اليك كيربرايد و لانكستر هاردنج ( A. Kirkbride and L. Harding ) لمنطقة وادي رم عام ١٩٤٧ تم التعرف الى موقع عين ابو نخيلة الذي أرخ حينذاك على أنه معاصر لأريحا ، السوية الثامنة ، بناء على دراسة موسى ستيكلس ( M. Stekelis ) للأدوات الصوانية (٩) ، الا ان دراسة نتائج الحفريات التي قامت بها ديانا كيربرايد (D. Kirkbride) في فترة لاحقة للموقع نبهت الى وجود خطأ في التأريخ ، وأشارت الى ان الموقع يعود الى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» (١٠) . وقامت ديانا كيربرايد (D. Kirkbride) بالكشف والتنقيب عن موقع البيضا في ثمانية مواسم من ١٩٥٨ – ١٩٦٧ وعام ١٩٨٣ ، فعثرت على ست قرى ( سويات ) تعود الى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» ، بالإضافة الى سوية نظوفية ( Natufian ) (١١) . ومع منتصف السبعينات ازداد الاهتمام بفترة عصور ما قبل التاريخ وخصوصا فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في الاردن بشكل عام وجنوبه بشكل خاص ، حيث قام العديد من العلماء والباحثين باجراء مسوحات وتنقيبات اثرية منظمة ومنهجية في مناطق مختلفة من جنوب الاردن .

ويعتبر المسح الاثري لمنطقة رأس النقب باشراف دونالد هنري ( D. Henry ) اعتبارا من عام ١٩٧٩ من اوائل المسوحات المنظمة لمنطقة الجنوب . وعلى الرغم من



الكشف عن العديد من مواقع العصور الحجرية في منطقة رأس النقب والحسمى ، إلا أنه لم يعثر سوى على موقع واحد أرخ لفترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» (١٢) . وإبان المسح الاثري لوادي عربة وفيدان عام ١٩٧٧ بإشراف ت. ريكس ( T. Raikes ) عن وجود بعض المواقع التي تعود الى العصر الحجري الحديث (١٣) . وقامت كريستال بنت ( C. Bennet ) سنة ١٩٧٩ بحفر بعض المجسات في موقع الذراع الذي أرخته الى مرحلة العصر الحجري الحديث الفخاري «ب» ويختصر [ PNA ] مع الإشارة الى وجود رؤوس سهام خيامية (١٤) . ويعتبر المسح الاثري لمنطقة وادي الحسا الذي بدأه بيرتون ماك دونالد ( B. Macdonald ) من عام ١٩٧٩ ولغاية ١٩٨٣ ثم أكمله جيفري كلارك ( G. Clarck ) من عام ١٩٨٤ وحتى الآن من أهم المسوحات التي أغنت معلوماتنا عن مواقع ما قبل التاريخ في الاردن عموما والجنوب بشكل خاص، اذ أكدت نتائج المسوحات عن وجود عشرات من مواقع العصر الحجري الحديث في تلك المنطقة (١٥) . وأشار هانس جيبيل ( H. Gebel ) الى وجود العديد من مواقع العصر الحجري قبل الفخاري [PPN] في منطقة البتراء وذلك من خلال المسح الاثري الذي أجراه لهذه المنطقة (١٦) . وتشير نتائج المسوحات التي جرت في مناطق الطفيلة ، ووادي فينان ، والحميمة ، ووادي رم ، والعقبة ، ووادي الموجب الى وجود مواقع تعود للعصر الحجري الحديث ( خريطة رقم ١ ) .

ونستطيع من خلال النتائج التي حصلنا عليها من المسوحات والتنقيبات الاثرية استنتاج العديد من النقاط حول المواقع والعمارة في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» :

١ - ان الكثافة العددية لمواقع المرحلة «ب» يقابلها قلة واضحة في عدد مواقع المرحلة «أ» ، فلا يتجاوز مجموع عدد مواقع المرحلة «أ» عدد اصابع اليد الواحدة ، وهي بمجملها مواقع سطحية اعتبرت معسكرات، أو محطات صغيرة استخدمت لغايات الصيد ، ولم يتم العثور على أية بقايا عمائية فيها ، وتم التعرف اليها من خلال وجود بعض رؤوس السهام الخيامية (١٧) .

٢ - على الرغم من أن العديد من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري لم يتم استغلاله بشكل كامل ، لكن وجود هذه المواقع قريبة من بعضها بعضا ، وامتداد بعض هذه المواقع على مساحات واسعة يشير بشكل واضح الى الاستيطان المركز والكثيف لمنطقة جنوب الاردن في هذه المرحلة .

٣ - أوضحت النتائج الاولية للمسوحات والتنقيبات الاثرية وجود تعدد في أنماط الاستيطان في جنوب الاردن ، فجاءت بعض هذه المواقع على شكل معسكرات أو محطات



صغيرة احتوت على بعض الاكواخ ، واستوطنت لفترة قصيرة من سكان يعتمدون على الصيد ، ويعشون حياة شبه مستقرة ، كما هو الحال في موقع عين ابو نخيلة (١٨) ، وجاءت بعض هذه المواقع محطات صغيرة سكنت لفترة قصيرة من جماعات تعتمد على الصيد وجمع الطعام ، كما هو الحال في صبرا « ١ » (١٩) وموقع J24 (٢٠) ، وأخرى اعتبرت قرى زراعية سكنت دوما ، واحتوت على عدد كبير من البيوت ، وأماكن التخزين ، والأماكن العامة كموقعي البيضا والبسطة . والنمط الاخير هو المواقع التي تخصصت في صناعة الادوات الصوانية ، كموقع لذرّاع (٢١) .

٤ - تشير النتائج الاولى للتنقيبات الى ان معظم هذه المواقع يشتمل على بقايا عمائرية واضحة المعالم ، حيث تحتوي على بيوت دائرية ، أو مستطيلة ، وأرضيات مقصورة ، بعضها مدهون باللون الاحمر ( خريطة رقم ٢ ) .

٥ - تشير الدلائل الاثرية الى تنوع النماذج المعمارية المكتشفة في هذه المرحلة، حيث كشف النقاب عن وجود نماذج لبيوت سكنة مبنية حول ساحات ( البيضا ، السويتان الثانية والثالثة ) أو بيوت ذات وحدات منفصلة ( البيضا السوية الخامسة) أو وجود غرف صغيرة مبنية حول ممرات ( البيضا ، السويتان الثانية والثالثة) (٢٢)، بالإضافة الى وجود مجمعات سكنية كبيرة ( البسطة ) ، كما وجدت نماذج لبيوت دائرية الشكل الى جانب البيوت المستطيلة في بعض المواقع ( البيضا ، السويتان الخامسة والسادسة ) وعين ابو نخيلة .

٦ - الامر اللافت للنظر في مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري في جنوب الاردن بشكل خاص والاردن بشكل عام أنه باستثناء الإشارة التي أوردها هانس جبل ( H. Gebel ) عن احتمال وجود تتابع زمني من المرحلة « أ » من العصر الحجري الحديث قبل الفخاري الى المرحلة « ب » في موقع صبرا « ١ » (٢٣)، فإن غالبية مواقع هذه الفترة المكتشفة في جنوب الاردن بشكل عام لم تقدم أي تتابع زمني من مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » الى المرحلة «ب» من هذا العصر . فغالبية هذه المواقع أنشئت اما مباشرة فوق الارض البكر ( البسطة ، عين ابو نخيلة ) أو احتوت على سوية نظوفية (البيضا) (٢٤) .

سيتم التركيز على ثلاثة مواقع تمثل مراحل مختلفة للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» أفضل تمثيل وهي البيضا والبسطة وعين ابو نخيلة . علما بأن أعمال التنقيب في موقعين من المواقع الثلاثة قد توقفت نهائيا ( البيضا وعين ابونخيلة)، بينما في الموقع الثالث ، فعمليات التنقيب ستستكمل في مواسم لاحقة (البسطة). هذه المواقع أرخت الى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . واستنادا



الى نتائج الكربون المشع فان موقع البيضا أقدم هذه المواقع . وتعتقد المنقبة بأن الموقع استوطن لفترة قصيرة لا تزيد عن ٥٠٠ سنة (٢٥) . أما موقع البسطة فالتواريخ التي تم الحصول عليها من عبتين فترجه الى قبل ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد (جدول رقم ١) (٢٦) . أما موقع عين أبو نخيلة فلم يتم الحصول على أية تواريخ مطلقة وأرخ من قبل المنقبة الى نهاية الالف السابع وبداية الالف السادس قبل الميلاد (٢٧) .

### مواد البناء الاولى :

استخدم بناؤو العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» جميع المواد الاولى المتوفره في البيئة المحلية أو التي أمكن توفيرها من المناطق المجاورة في تشييد المستوطنات في جنوب الاردن واقامتها . ويعتبر الحجر ، والطين ، والخشب والجص من أول المواد الاولية التي استخدمها تشييد مبانيه في المنطقة الجنوبية وذلك لتوفر هذه المواد بكثرة في الطبيعة .

**١ - الحجر :** الاستخدام الواسع النطاق للحجر في مواقع جنوب الاردن من السمات المميزة لعمارة الابنية في هذه المنطقة ، لتوفره بكثرة في المنطقة ، وخصوصا الحجارة الكلسية ، والجيرية ، والبازلت ، والجرانيت . وهو مؤشر على استغلال الانسان للبيئة المحلية . واستخدام الانسان الحجارة بشكل عام دون تشذيب ، أي الحجارة الفقل في تشييد مباني مواقع هذه المرحلة . واستخدام الانسان القديم الحجارة بأشكال مختلفة حسب توافرها بالبيئة المحلية ، فاستخدام الحجارة الرملية ، والجيرية بدون تشذيب : أي الحجارة الفقل بأحجام متوسطة في تشييد مباني السويات الست في البيضا ، وخربة الحمام ، وشكارة مسعيد ، كما استخدم هذا النوع من الحجارة في اقامة القنوات التي وجدت تحت أراضي المباني في موقع البسطة واستخدم الألواح العريضة (البلاطات) كمناضد أو طاولات في مباني الممرات في البيضا . واستخدم الألواح الحجرية العريضة كأساسات لبعض المباني ، كما هو الحال في بعض مباني السوية الرابعة في البيضا (٢٨) . أو كدرجة في الدرج الحجري الذي تميزت به مباني البيضا . واستخدم الحجارة على شكل رقائق مستطيلة استخرجها من طبقات الصخور الكلسية الموجودة في المنطقة ، وقام بتشذيبها وتشكيلها في تشييد بعض جدران مباني السوية الرابعة في البيضا ، وفي مباني المجمعات السكنية في البسطة . وتشير بعض التقارير الاولى الى أن موقعي الضمان وبعجة «١» قد شيدا بحجارة مشذبة (٢٩) .

**٢ - الطين :** استخدم الطين كمادة رابطة بين حجارة الجدران ، كما استخدم في رصف بعض أراضي بعض الغرف في موقع البيضا وكان الطين في هذه الحالة مضغوطا . واستخدم كفرشة لتغطية الاغصان التي كانت تغطي الاسقف .



**٣ - الخشب :** لم تظهر التنقيبات الاثرية أي أثر للمواد الخشبية بين اتقاض المباني في القرى الاولى لكونها أكثر قابلية للتلف مع مرور الزمن . ومع ذلك فهناك أدلة مكنت الانريين من معرفة أنواع الاخشاب واستخداماتها التي استعملت في سقف المباني ، أو كدعائم لحمل السقوف . وفي الواقع ليست لدينا أدلة أثرية مباشرة على استخدام الخشب في مباني هذه المرحلة باستثناء ما عثر عليه في السوية السادسة بموقع البيضا ، حيث عثر على تجاويف عمودية متوازية على مسافات متساوية في جدران البيوت الدائرية الشكل (٢٠) . كما تم التعرف الى استخدام الانسان للبلوط مما يجعلنا نعتقد أنه استخدم كأعمدة في تلك التجاويف (٢١) والأدلة الأخرى على استخدام الخشب معظمها افتراضات مستندة الى وجود آثار أخرى، خاصة المنافذ والشبابيك . ويعتقد بأن السكان استخدموا نوعا من العوارض الخشبية لسقف البيوت ، ولكننا لا نملك أي دليل يثبت ذلك ، باستثناء بقايا خشبية متفحمة في السوية السادسة في البيضا (٢٢) .

**٣ - الجص :** مادة الجص من المواد البنائية التي استخدمها الانسان القديم في الاردن من بداية استقراره وحتى يومنا هذا ، وذلك بسبب توافرها في معظم أنحاء الاردن ، وخاصة منطقة الوسط والجنوب ، ولسهولة الحصول عليها من مقالع قرب سطح الارض ، أو حتى على سطح الارض ، وكذلك استخدامها السهل ، وسرعة جفافها ، ومقاومتها الجيدة للعوامل الطبيعية (٢٣) . ويظهر أن سكان البيضا عرفوا استخدام الجص منذ بداية استقرارهم ، فنلاحظ تطورا في مراحل استخدام الجص، اذ تشير المرحلة الاولى الى استخدامه مخلوطا بالطين الرملي وذلك في طبقات الاستقرار الاولى ( السويات السادسة - الرابعة ) ، بسبب عدم معرفة واتقان سكان البيضا لتقنية استخراج الجص وتنقيته ، ولصعوبة الحصول على كميات كافية من الجص النقي . ولوحظ استخدام الاسلوب الثاني للجص في السويات ( الثالثة والثانية ) فلو حظ ارتفاع نسبة الجص حتى وصلت أخيرا الى استخدام الجص النقي فقط في كسو الارضيات والجدران (٢٤) . وتذكر المنقبة أن امكانية حصول سكان البيضا على الجبس متوفرة من منطقتين، الاولى عن طريق الحصول عليه من طبقات الحجر الجيري الموجود في جبال الشراة التي تبعد حوالي الساعة مشيا على الاقدام ، أو من ترسبات الترافرتين الموجودة بالقرب من الموقع بمنطقة بير أبو رجا (٢٥) . كما نجد استخداما آخر للجص في هذه المرحلة ، وهو طلاء جمجمة الميت المفصولة عن الجسد بطبقة من الجص كنوع من إعادة تشكيل الوجه .

### **البقايا البنائية : ( شكل ١ : ٢-١ ) ( شكل ٢ : ٢-١ )**

تكونت البيوت الاولى من غرفة واحدة أو غرفتين ، دائرية أو مستطيلة . وكان



يقتصر استخدام الغرف للمبيت ، ولاتقاء تقلبات المناخ ، وخطر الحيوان . ولعبت حاجة الانسان الى مرافق جديدة دورا مهما في تطور شكل التصميم . ومع ازدياد عدد أفراد العائلة ، وازدياد الحاجة الى مساحات أوسع من الارض للسكن ، وأماكن خاصة لتلبية الاحتياجات الجديدة التي اقتضتها ضرورات الحياة ، قام الانسان ببناء غرف أخرى استخدمها لأغراض جديدة ظهرت في حياته لأول مرة ، كالمخازن ، وزرائب الحيوانات . وقد يختلف شكل الغرف الجديدة عن الغرف القديمة ، فمثلا تكون الغرف المستخدمة للتخزين في معظم الحالات أصغر من الغرف المخصصة للنوم . ويمكن تحديد وظيفة الغرف من حجم الغرفة ، ووجود المواقد ، والادوات المنزلية ، والمصاطب في داخلها ، ووجود مدخل لها أو خلوها منه وموقعها بالنسبة لتصميم المنزل .

ان من أهم مميزات العمارة في مرحلة العصر الحجري قبل الفخاري «ب» شيوع استخدام المباني المستطيلة التي انتشرت في جميع مواقع هذه المرحلة بالإضافة الى المباني الدائرية . ويمكننا تصنيف مباني هذه المرحلة من ناحية الشكل الى شكلين رئيسيين هما : ١ - المباني الدائرية ، ٢ - المباني المستطيلة .

### ١ - المباني الدائرية :

وهي مبان ذات مخطط أرضي دائري ، تتكون من غرفة واحدة ، وتتميز بكون جدرانها الخارجية دائرية وفيها فتحة صغيرة استخدمت مدخلا ولها سقف يحتمل انه كان على شكل قبة ، ربما صنع من ألواح خشبية متشابكة تستند من وسطها على دعائم خشبية ويعتبر استخدام المباني الدائرية في هذه المرحلة مؤشرا لاستمرار وتوارث للتقنية المعمارية للفترات السابقة لهذه المرحلة . وظهر هذا الشكل من المباني في جنوب الاردن ، ومن أحسن الامثلة على هذا النوع بقايا بيوت اكتشفت في السوية السادسة في البيضا ، صفت الى جانب بعضها بعضا كخلية نحل . وتم الكشف عن خمسة بيوت دائرية متلاصقة وأرضياتها تحت مستوى سطح الارض بحوالي ٥٠ سم ، وينزل اليها بثلاث درجات . وكانت الجدران الدائرية تحتوي على تجاويف عمودية متوازية على مسافات متساوية . ووجد في اثنين من البيوت حفر في وسط الغرف كركيزة لحمل السقف . ويبلغ قطر هذه البيوت الدائرية ٤م تقريبا . واستخدم الجبس في كسو الجدران والأرضيات (٢١) . وتعتبر هذه المباني المشيدة تحت مستوى الارض أقدم المباني المشيدة في البيضا ، والمعروف ان المباني الدائرية كانت الصفة المميزة لعمارة مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » في الشرق ، وحيث انه لم يتم العثور على اية بقايا تعود الى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » في البيضا ، فهذا يدعو الى الاعتقاد بان هناك استمرارية داخل جماعات العصر



الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» لتقليد بناء المرحلة السابقة قبل حدوث التغيرات التي جرت في الشرق . وظهر مبنى دائري آخر في عين ابو نخيلة . هذا المبنى لم يبق من جدرانها سوى عدة مداميك وهو مبني تحت مستوى الارض . الا انه لا يعتبر الاقدم حيث تشير المنقبة الى وجود المباني الدائرية بجانب المباني المستطيلة في نفس الطبقة . مما يشير الى احتمالية تزامن وجود مباني دائرية الى جانب المباني المستطيلة (٢٧) . وذكر هذا الوضع سابقا في موقع المريط (السوية الثالثة ) والشيخ حسن في سوريا (٢٨) . كما ظهرت في السوية الخامسة من البيضا أيضا بيوت دائرية تختلف عن سابقتها بكونها منفردة ولا تشكل جزءا من المجموعة ، ولم تستخدم فيها التجاويف العمودية المتوازية . وتذكرنا أرضية الغرفة وجدرانها بيوت مرحلة ما قبل الفخاري «أ» في أريحا ، ما عدا أنها كانت مطلية بالجص في البيضا . وظهرت نماذج مماثلة لهذه المباني في مواقع مختلفة ، ففي موقع نحال ايسارون [ Nahal Issaron ] في صحراء النقب ، يبعد ٦٠ كم من موقع البيضا ، عثر في الطبقة O على مبان دائرية تشبه مباني السوية السادسة في البيضا . شيدت المباني منفردة من الواح حجارة كلسية ، لا تزال جدرانها قائمة على ارتفاع ٧٥ سم وتبلغ مساحة هذه المباني بين ٢ الى ٣٥ م<sup>٢</sup> . ولا يقتصر التشابه على المخطط وانما ينسحب أيضا على المواد الانشائية المستخدمة ( الحجارة والاختشاب ) . ويعتقد المنقب أن الموقع استوطن موسميا ولفترة قصيرة (٢٩) . وكشفت التنقيبات الاثرية عن مبان دائرية في موقع وادي الضباعي «ب» في المنطقة الشرقية من الاردن والذي يبعد ٦٠ كم الى الشرق من عمان (٤٠) . أما بالنسبة لوظيفة هذه البيوت فقد استخدمت لأغراض سكنية وذلك بالاستناد الى حجم هذه الغرف وما عثر عليه بداخلها من مخلفات منزلية ، مثل المواقد ، والادوات الثقيلة ، كالاجران ، والمدقات ، والادوات الصوانية .

## ٢ - البيوت المستطيلة :

وهي بيوت ذات مخطط ارضي مستطيل ويمكن تقسيمها حسب الابنية الملحق بها الى مايلي :

١ - البيوت المستطيلة العادية ، ٢ - ابنية الممرات ، ٣ - ابنية المجمعات .

### ١ - البيوت المستطيلة العادية :

يتكون هذا النوع من المباني من غرفة او أكثر مستطيلة متباينة المساحات ، وتتألف غرفها من أربعة جدران مستقيمة ، ويمكن أن تكون بعض جدرانها منحنية قليلا . اكتشف هذا الشكل من المباني في معظم مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري



«ب» الى جانب اشكال البيوت الاخرى . وتدل المخلقات التي تم العثور عليها في هذه المباني المتمثلة المواقد . والادوات الصوانية ، وغيرها الى انها كانت مباني سكنية اعتيادية . ففي البيضا ظهر هذا النوع اعتبارا من السوية الرابعة حتى الثانية . وتمثلت مباني السوية الرابعة ببيوت مستطيلة ذات زوايا دائرية ، مكونة من غرفة واحدة تحت مستوى الارض ينزل اليها بثلاث درجات حجرية ( شكل ٢:٣ ) . وتبلغ ابعاد الغرفة  $6 \times 5$  م وجدرانها محدبة قليلا . شيدت الجدران بحجارة رملية ، وطلبت الارضية والجدران بملاط من الجص ، وخصص بعضها بموقد (٤١) . وأظهرت مباني السوية الثالثة والثانية تطورا في أساليب البناء ، فاحتوت على بيوت أكثر تعقيدا . ففي السوية الثانية وجدت بيوت كبيرة الحجم وبلغت مساحة الغرفة  $7 \times 9$  م ، ينزل اليها بثلاث درجات حجرية وتحتوي موقدا كبيرا له حافة بارزة من الحجر . طلبت الارضية والجدران بملاط من الجص ، وتظهر على بعض طبقاتها حروز من الخطوط الحمراء على مسافة ٢٥ سم من الحائط ، ثم تمتد الى أسفله شريطا تزيينيا تذكرنا ببيوت شاتال هيوك [ Çatal Höyük ] وهاجيلار ( Hacilar ) في الاناضول (٤٢) . وقد تم التعرف على مواقع أخرى في جنوب الاردن تحتوي على بقايا معمارية مستطيلة كموقع عين ابو نخيلة الذي عثر فيه على مبان مستطيلة بالإضافة الى المباني الدائرية (٤٣) . وأشار هانس جبل ( H. Gebel ) الى وجود مبان مستطيلة مبنية من الحجر الكلسي في موقع البعجة ، وذكر أن بعض الجدران كانت منحنية (٤٤) . وتم التعرف في خربة الحمام الى مبان مستطيلة مبنية من الحجارة ومقصورة ومدهونة من الداخل باللون الاحمر (٤٥) . وهناك اشارة الى وجود مبان مستطيلة مبنية من الحجارة في الضمان (٤٦) .

## ٢ - أبنية الممرات :

تتكون هذه المباني من ممر طويل (  $1 \times 8$  م ) يفضي الى مجموعة من الغرف الصغيرة المتقابلة . تبلغ مساحة الغرفة الواحدة (  $1 \times ٥$  م ) ، تفصلها عن بعضها بعضا حواجز حجرية سماكتها متر وتتعداه أحيانا ، وطلي أعلاه بالجص . وقد عثر على أمثلة لهذا النوع في السوية الثانية من البيضا الى الجنوب والغرب من البيت الكبير ووراء الساحات . وتقع هذه المباني تحت مستوى الارض ، وينزل اليها بثلاث درجات ومغطاة أرضياتها بالجص . وتحتوي بعض هذه الغرف على مصاطب حجرية ونعتقد بأن هذه المباني استخدمت كمبان ذات وظائف عامة ، حيث يستدل من حجمها ومن محتوياتها على أنها كانت مراكز تجارية وصناعية لصناعة المنتجات الصناعية وبيعها كالجواهر ، والمذاقات ، وأدوات الزينة ، والادوات الصوانية والعظمية (٤٧) . وكشفت التنقيبات الأثرية في المنطقة الجنوبية في عين غزال عن وجود نموذج مماثل



المباني الممرات أرخ الى فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ج» PPNC ويشير جاري رولفسون ( G. Rollefson ) الى أن ارضيات مباني الممرات في عين غزال تحتوي على ارضيات مقصورة بالجص (٤٨) .

### ٣ - أبنية المجمعات ( شكل ١:٣ ) :

ظهر نموذج هذه المباني في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في البسطة . يتألف هذا النوع من وحدات سكنية مكررة بنيت بتخطيط مسبق ، فكل وحدة سكنية تحتوي على ساحة مركزية محاطة بثلاثة أو أربعة صفوف من الغرف صغيرة المساحة على ثلاث جهات ، بينما احتوت الجهة الرابعة صفين من الغرف الصغيرة متعاكسة الاتجاه . ويبدو أن المدخل الى الساحة كان في الجهة الجنوبية للمبنى . وتبلغ مساحة الساحة المركزية ٦ x ٣ م ، بينما لا تتعدى مساحة الغرف الصغيرة المتر المربع الواحد . وتتصل هذه الغرف بالساحة المركزية عن طريق نوافذ صغيرة في الجدار المواجه للساحة ، ترتفع حوالي ٦٠ سم عن أرضية الغرف . وعثر بالقرب من أحد الأعمدة في أحد أركان الساحة على مكان لايقاد النار ، كما عثر بالقرب من نفس العمود على اناء مصنوع من الطين غير المشوي ، الجزء الاسفل منه كامل ، ولا ينقصه سوى القبة والحافة . وقد استخدمت في بناء هذه المباني الحجارة الكلسية التي استخرجت من المنطقة بشكل رقائق تم تشذيبها ، ووجدت بحالة جيدة وحافظت تقريبا على ارتفاعها الاصلي حيث عثر على جدران بارتفاع ١٩٠ سم (٤٩) . وقد طليت جدران وأرضيات الغرف والساحة المركزية بالجص حيث عثر على قطع كبيرة من القفصارة تحمل تشكيلات هندسية ملونة بالاحمر والاسود على خلفية ذات لون بيج فاتح (٥٠) . ويبدو أن وظيفة هذه المباني كانت عامة ، حيث استخدمت لل تخزين بدليل العثور على أدوات الطحن ، والجرش ، والمدقات بكثرة بالإضافة الى حجم المباني (٥١) .

نلاحظ مما سبق ذكره عن وجود تعدد في أنماط المباني في المواقع المختلفة في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . ومهما كان مدلول مباني الممرات أو مبنى الحرم في البيضاء أو مباني المجمع « ب » في البسطة ، فإننا نستطيع التحدث منذ الآن عن وجود تعدد في النمط العمائري في فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في الموقع الواحد . حيث نلاحظ في هذه الفترة عن تشييد مباني - وللمرة الاولى - تختلف عن المباني السكنية في حجمها أو في وظيفتها . وأن كان من الصعوبة التحدث عن وظائف دينية أو اجتماعية لهذه المباني . إلا أن هذا الاختلاف يجعلنا نتحدث عن امكانية وجود تطور اجتماعي في فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . هذا التطور ادى بالتالي الى وجود طبقات اجتماعية مختلفة . ومن خلال هذا السياق نستطيع القول بان مواقع جنوب الاردن لعبت دور هام وحاسما في هذا الموضوع .



## الخصائص المعمارية :

لابد أن الانسان استعان في تصميم البيوت التي شيدها بعد هجره لمناطق سكناه التقليدية وبداية استقراره بما اخترنته ذاكرته وما انطبع في ذهنه من العناصر الاساسية للكهوف والملاجئ الصخرية . احتوت هذه البيوت على العناصر التي تتألف منها الكهف وهي : المدخل ، والجدران ، والسقف . ومع مرور الزمن ، وتطور خبرة الانسان ، وازدياد تجاربه في إنشاء المباني وتشييدها ازداد عدد العناصر التي احتواها بيته ، وذلك لازدياد حاجة الانسان ومتطلباته . وتتمثل العناصر المعمارية التي عثر عليها في مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الاردن بما يلي :

١ - المداخل ، ٢ - المرافق السكنية ، ٣ - الجدران والدعائم ، ٤ - النوافذ ، ٥ - الكوات [ الحنايا ] ، ٦ - الارضيات ، ٧ - السلالم والدرج ، ٨ - السقوف والاسطح .

### ١ - المداخل :

على الرغم من أن بعض المواقع الاثرية كشفت عن بقايا لمخلفات عمائرية اشتملت على أسس أو جدران قليلة الارتفاع ولا تظهر فيها المداخل ، الا اننا نعتقد بأن المدخل كان من اقدم العناصر التي ظهرت في تصميم البيوت الاولى التي شيدها الانسان . فالغرض من وجود المدخل والدور الكبير الذي يؤديه يجعل وجوده ضروريا ومرافقا للبيت منذ البداية . ومثل هذا الدور يلاحظ في تحديد سعة فتحته التي لا بد ان تكون كافية لدخول الانسان . لقد كشفت التنقيبات الاثرية النقاب عن وجود جزء من المدخل في معظم المواقع الاثرية . أما موقع المدخل بالنسبة للبيت فقد حددته الظروف الطبيعية أو العلاقات الاجتماعية التي عاصرها ذلك الانسان ، فقد يطل المدخل على ساحات مكشوفة أو شوارع ضيقة ، ولهذا يكون موقعه مختلفا من بيت لآخر . وتعتبر مداخل مباني السوية الثانية والسادسة في موقع البيضا من أفضل الامثلة على اختلاف وتعدد مواقع مداخل البيوت (٥٢) . وعلى الرغم من أن البقايا العمائرية المكتشفة في السويات الست في موقع البيضا تختلف في هندستها وبنائها الواحدة عن الاخرى ، الا أنها تشترك جميعها بصفة عامة مشتركة وهي أنها دون مستوى الارض ويتم النزول اليها بثلاث درجات حجرية (٥٣) .

يتألف المدخل من عتبة عليا وجانبين وعتبة سفلى ، ويعتبر العنصران الاول والثاني ضروريين لبناء المدخل ، في حين يمكن الاستغناء عن العنصر الثالث عند بناء مدخل البيت ، حيث يمكن بناء المدخل بدون عتبة سفلى ولكن لا نستطيع بناء مدخل الا بتشييد الجانبين والعتبة العليا . أما في ما يتعلق بالعتبات العليا للمداخل فلم تكشف التنقيبات الاثرية في أي موقع من مواقع جنوب الاردن عن أية مداخل تشتمل



على عتبات عليا ، وذلك بسبب قلة ارتفاع الجدران المتبقية . ولكننا ومن خلال ما لاحظناه في العتبات العليا لنوافذ المجمع البنائي بالمنطقة «ب» في البسطة وفي الحنية المكتشفة في البيضا ، نستطيع ان نفترض بأن عتبات المداخل لا تختلف كثيرا عن تلك العتبات ، حيث تكونت من ألواح حجرية طويلة أو مجموعة من الحجارة .

أما بالنسبة لجانبي المدخل فقد كانا بشكل عام عموديين ومشيدتين من عدة صفوف من الحجارة . وعلى الرغم من صعوبة التحدث عن استخدام الانسان لآلواح الخشبية لتغطية جانبي المدخل بالشكل الذي نلاحظه في وقتنا الحاضر بسبب عدم اكتشاف أية دلائل أثرية مباشرة تدل على هذا ، الا أن معرفة الانسان القديم للخشب وأهميته واستخدامه له في السقف ، والاعمدة ، وغيرها يجعلنا نعتقد أنه ربما استخدمه أيضا في تغطية جوانب المدخل وعمل الابواب . وقد شيد الانسان أحيانا جانبي المدخل بلوح حجري ، كما هو الحال في أحد بيوت السوية الخامسة المكتشفة في البيضا ، حيث يبلغ ارتفاع اللوح الحجري حوالي ١٥ م (٥٤) . وكشفت التنقيبات الأثرية في مواقع جنوب الاردن عن بناء مداخل بدون عتبة سفلى . وتلاحظ هذه الظاهرة في بيوت البيضا وعين أبو نخيلة حيث ظهر أن معظم مداخلها لا تحتوي على عتبات سفلى ، كما هو الحال في أحد بيوت السوية الرابعة (٥٥) وكذلك في بيوت السوية الثانية ومداخل الغرف الصغيرة في مباني الممرات (٥٦) . وفي البيت رقم ٤ في عين أبو نخيلة يبدو مدخل البيت الدائري بدون عتبة سفلى أيضا (٥٧) .

كما كشفت التنقيبات الأثرية عن وجود عدد غير قليل من المداخل التي تظهر بها العتبات السفلى المرتفعة فوق مستوى الأرض . ففي أحد بيوت السوية الخامسة المكتشفة في البيضا ظهر مدخل يحتوي على عتبة سفلى مبنية من الحجر ترتفع قليلا عن مستوى الأرض (٥٨) وفي الغرفة رقم ١٨ في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في موقع البسطة، ظهر مدخل يحتوي على عتبة سفلى ترتفع عن سطح الأرض بحوالي ٦٠ سم (٥٩) كما وجدت عتبة سفلى في الغرفتين رقم ١٩ و ٢٠ في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في البسطة ، مرتفعة عن مستوى سطح الأرض (٦٠) .

ويعتبر الباب الذي يسد فتحة المدخل من العناصر الأساسية التي تؤلف جزءا مهما من المدخل . الا أننا لا نعرف بالضبط أشكال وتفاصيل الابواب التي استخدمها الانسان القديم لسد مداخل بيته ، اذ لم تظهر أية مخلفات لآبواب البيوت القديمة ، أو أية دلائل تشير الى نوعية وشكل هذه الابواب باستثناء الجرن الحجري الذي أعيد استعماله كمثبت للباب في البيضا (٦١) .



ولا بد أن الانسان اهتم باغلاق فتحة المدخل الرئيسي للبيت أكثر من اهتمامه بالمداخل الثانوية والداخلية ، خصوصا بعد أن ازداد عدد الغرف في البيوت الاولى ، وربما استخدم الانسان القديم الجلود لاغلاق فتحات المداخل الثانوية كما هو الحال في غرف مباني الممرات في السوية الثانية في البيضا (٦٢) .

## ٢ - المرافق السكنية :

### ٢ - ١ غرف النوم

استخدم سكان البيضا الغرف الكبيرة نسبيا للمبيت ، فالسويات الست التي اكتشفت بالموقع استخدمت ، على الاغلب ، للمبيت لكبر حجمها ، وربما استخدم بعضها للطبخ أو التخزين بدليل اكتشاف قطع عديدة من مجارش الحبوب على أرضية الغرفة . أما في عين أبو نخيلة فقد استخدمت الغرفة الدائرية للمبيت وللطبخ في نفس الوقت . ويبدو أن الانسان في البسطة فصل مناطق السكن عن مناطق التخزين ، حيث يحتمل أن المنطقة « أ » كانت منطقة السكن بسبب كبر حجم الغرف ، في حين استخدمت المنطقة « ب » للخرن ، وذلك بسبب صغر حجم تلك الغرف .

### ٢ - ٢ المخازن

احتاج الانسان بعد ازدياد خبراته والتطور الذي حصل في حياته الى أماكن خاصة لحفظ محاصيله الزراعية وتخزين الفائض منها الى الاته وأدواته التي قد تتعرض للتلف ان لم تحفظ في مكان أمين . فشيّد غرفا صغيرة استخدمها لخرن المحاصيل الزراعية والالات والأدوات ، وتلاحظ هذه الظاهرة في معظم المواقع الاثرية، حيث خصصت غرفة صغيرة أو غرف عديدة صغيرة المساحة للخرن . ونستطيع أن نميز نوعين من المخازن التي استخدمها الانسان في هذه المرحلة :

النوع الاول : غرف صغيرة تابعة لاحد البيوت استخدمت كمخزن لخرن المحاصيل الزراعية ، كما هو الحال في موقع البيضا ، حيث وجد في السوية السادسة عدة حجيرات تنحشر في الفراغات الضيقة التي تفصل الجدار الخارجي عن الغرف السكنية . ويحتمل أن يكون سكان البيضا قد استخدموا بعض الغرف للتخزين بدليل اكتشاف ثلاثة جواريش في أحد بيوت السوية الرابعة وضعت على حدة .

النوع الثاني : مجموعة من الغرف صغيرة المساحة ، كما هو الحال في البسطة، حيث عثر في المنطقة « ب » على مجموعة من المباني التي تتألف من ساحة مركزية تحيط بها ثلاث أو أربع غرف صغيرة الحجم من كل جانب . ويستدل على أن هذه الغرف استخدمت كمخازن عن طريق :



١ - مساحتها الصغيرة التي لا تكفي للسكن فيها : اذ أن مساحتها لا تكفي لشخص واحد ، اذ تبلغ ١٠ × ١ م .

٢ - عدم وجود فتحات المداخل في أغلبها ، وكان الدخول اليها يتم من خلال فتحات صغيرة في الجدران . وافترض المنقبون مخازن بدليل اكتشافهم كميات كبيرة من أدوات الطحن والجرش في هذه المنطقة . ونستطيع الافتراض ان سكان البسطة كانوا يخزنون محاصيلهم عن طريق اقترابهم من فوق حاجز منخفض أو من سطح البناء والقاء المحاصيل المراد تخزينها في تلك الغرف .

## ٢ - ٣ الساحات :

تعتبر الساحة احدى المرافق الهامة التي اضافها الانسان القديم الى مرافق بيته بعد ان ازدادت احتياجاته ، فمارس فيها أعماله اليومية . وظهرت دراسة نتائج التنقيبات الاثرية في مواقع هذه المرحلة في جنوب الاردن تميز عدة انواع من الساحات وهي : أ - ساحة تحيط بها عدة بيوت بدون انتظام . ب - ساحة خاصة بالبيت مسيجة الاطراف . ج - محاطة من الجهات الاربع . د - ساحة خارجية لكل بيت .

ظهر النوع الاول - أي الساحة التي تحيط بها عدة بيوت بدون انتظام - متمثلاً في بيوت السوية السادسة في البيضا . وظهر نموذج النوع الثاني المتمثل بساحة خاصة بالبيت مسيجة الاطراف في السوية الثانية في البيضا فيها ساحات عديدة محددة من بعض اطرافها (٦٣) . أما النوع الثالث الذي يتميز بأنه ساحة تحيط بها مجموعة من الغرف من بيوت ومباني القرية الواحدة ، فلم يظهر الا في موقع البسطة . ففي المجمع البنائي في المنطقة «ب» اكتشفت ساحات تحيط بها الغرف انصغيرة من جميع الاطراف . أما النوع الرابع فقد تمثل في السوية الرابعة في البيضا حيث احيطت كل غرفة من الغرف المستطيلة ذات الجدران المنحنية المبنية بألواح من الحجارة الرملية السميكة بساحة خاصة بها (٦٤) .

## ٢ - ٤ المواقد :

شيد الانسان القديم الموقد في قرى ومخيمات الصيادين التي اقامها في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم حيث عثر على بقايا هذه المواقد في معظم مواقع هذه الفترة ، مثل الخزانة ٤ ، ووادي الحمة ٢٧ ، ووادي الحسا ١٠٦٥ ، والسوية النطوفية في البيضا . وعندما شيد الانسان بيوته في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» حافظ على تقاليده ، فشيد الموقد داخل الغرف . وعندما ازدادت غرف البيت الواحد وازدحمت القرية بالبيوت بنى الانسان المواقد في الساحات



أو شيد لها غرفاً خاصة . وظيفياً ، لعب الموقد عند وجوده داخل الغرف دوراً مزدوجاً حيث استخدم للتدفئة والطبخ ، بينما اقتصر دور الموقد في الساحات الخارجية على عملية الطبخ .

## ٢ - ٥ زريبة الحيوانات :

اهتم الانسان بالحيوانات التي استطاع تدجينها للاستفادة من منتوجاتها اضافة الى لحومها وجلودها ، فسمى الى ايوائها في ساحات قريبة من بيته ، أو في أماكن مسيجة لحفظها وحمايتها من مخاطر الظواهر الطبيعية ، أو من الحيوانات المفترسة . ففي البيضا استخدم سكان السوية الثانية الساحة المسيجة الملحقة بالبيت لحفظ حيواناتهم المدجنة (٦٥) ، وفي فترة متأخرة حفظ سكان السوية الثانية دواجنهم في أوكار مبنية من الحجارة ، حيث عثر في الساحة المسيجة على قن مشيد من الحجارة استخدم لحفظ الطيور أو الدواجن (٦٦) .

## ٣ - الجدران والدعائم :

المواد التي استعملها الانسان في بناء الجدران كانت تحدد شكلها . فاستعمال الحجارة غير المشدبة في بناء الجدار يجعل سمكه يتفاوت من منطقة الى أخرى مما يجعل الثقل الساقط من السقف على الجدران يختلف مقداره من منطقة الى أخرى ، بالإضافة الى ذلك فان الجدار لا يبدو منتظماً لتفاوت الحجارة في الطول ، والعرض ، والسمك . ولا بد أن الانسان القديم قام بأجراء تجارب عديدة قبل معرفة أن طول الجدار وارتفاعه يؤثران في مقاومته وعدم سقوطه وخصوصاً اذا كان من غير دعائم . وعرف الانسان أن الجدران الخارجية للبيوت يجب أن تكون أعرض من بقية الجدران . والغاية من قيام الانسان ببناء الجدران كانت تقسيم المباني الى مساحات قابلة للاستخدام لغايات محددة ولمنع الاتربة والمياه من الدخول اليها ، وأخيراً للمساعدة في حمل ثقل السقف .

والدعائم حاملات أو ركائز ، ويكون العمود من الخشب أو من الحجر بأنواعه المختلفة ، مثل الكلسي ، أو الرملي الخ . ويتألف من قطعة واحدة أو من عدة قطع تتركب الواحدة فوق الأخرى بأحكام ، ويكون له قاعدة مربعة أو دائرية . أما وظيفة العمود فهي إما رفع السقف ، أو دعم الجدران ، أو واجهات البناء .

وأتاحت لنا دراسة نتائج التنقيبات في مواقع جنوب الاردن تمييز استخدام الانسان لاربعة أنماط رئيسة من الدعائم لغايات حمل السقف . وتتمثل هذه الانماط



بالدعائم الملتصقة والمفروسة داخل الجدران ، والدعائم المرتكزة داخل الارضيات ، والدعائم الافقية ، والدعائم المرتبطة بالجدران الداخلية . وتجدر الاشارة الى ان الانسان استخدم هذه الانماط اما بشكل منفرد أحياناً أو استخدم أكثر من نمط من الدعائم في نفس الوقت في احيان أخرى .

وكشفت التنقيبات في السوية السادسة في البيضا عن غرف دائرية ملاصقة لبعضها البعض مما دعا المنقب لتشبيهها بخلية النحل، وكان فيها دعائم خشبية مفروسة داخل الجدران الداخلية للغرف بشكل عمودي ( شكل ١:٣ ) . وكانت تجاويف الاعمدة ذات فسحات منتظمة ما بين ٣٠ - ٥٠ سم ، وكانت أرضيات الغرف ووجه الحائط مكسوة بملاط من الجص (٦٧) كما عثر في نفس السوية على حفر أعمدة في وسط الغرف (٦٨) .

والنمط الثاني هو الدعائم المرتكزة والمفروسة في الارضيات . وباستثناء الاشارة التي أوردتها ديانا كيركبرايد ( D. Kirkbride ) عن وجود حفر أعمدة في إحدى الارضيات الطينية التي لم يعثر على جدران مصاحبة لها (٦٩) ، فلم يعثر على أمثلة أخرى له في مواقع جنوب الاردن بالرغم من استخدام هذا النمط من الدعائم بكثرة في مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . ويتمثل هذا النمط باستخدام أعمدة خشبية مفروزة داخل حفر في مناطق مختلفة في أرضيات الغرف . وهناك نوع آخر ، وهو دعامة حجرية تقع في منتصف الغرفة ، عثر عليها في المجمع البنائي المكتشف في المنطقة «ب II » ويبلغ حجمها ٨٠ x ٩٠ سم (٧٠) .

أما النمط الثالث فهو الدعائم الافقية أو العوارض الطويلة . وهناك بعض الصعوبة في التحدث عن هذا النمط ، لان الأدلة المادية المباشرة معدومة تقريباً . ان الجدران المكتشفة في المواقع الاثرية بعلوها الحالي لا تعطينا فكرة عن طريقة وضع السقف ، ولكن عدم الكشف في بعض غرف السويات المختلفة عن انخفاض في الارضيات أو ثقب في الارضيات المكسوة بالجص لأعمدة داعمة للسقف تجعلنا نستنتج استخدام بنائي القرية لدعائم أفقية أو عوارض طويلة في أعلى الجدران لغايات حمل السقف . كما هو مستخدم في أيامنا هذه في بيوت المنطقة (٧١) .

والنمط الرابع هو الدعائم المرتبطة بالجدران الداخلية ( شكل ٢ : ١ ) . ولعل مهمة هذه الدعائم تقوية الجدران الطويلة والمساهمة مع الجدران في حمل ثقل السقف . ظهر هذا النمط في موقع البسطة ، حيث كشف النقب في المجمع البنائي في المنطقة « ب » عن أربعة أعمدة حجرية عريضة مرتبطة بالجدران الداخلية الشمالية والشرقية والغربية للغرفة التي يبلغ طولها ٦ x ٣ م ومحاطة من ثلاث جهات بصفوف من



الغرف صغيرة المساحة ومرتبطة معها عن طريق ممر ضيق . وبما أن هذه الدعائم كانت تتصل مع الجدران الداخلية للغرف الصغيرة فقد اختلف بعد المسافة بين دعامة وأخرى مما جعل ترتيبهما غير منتظم وأحجامهما غير متساوية . فبلغ الحجم  $٩٢ \times ٥٤ \times ٣١$  سم ، و  $٦٨ \times ٦٩ \times ٦٢$  سم أحيانا ، وكان بعضها أصغر حجما فبلغ  $٢٨ \times ٣١ \times ٣٢$  سم (٧٢) . كما عثر في موسم ١٩٨٨ في المجمع البنائي في المنطقة « ب ٧ » على عمود حجري مرتبط بالجدار الداخلي للغرفة ويبلغ طوله ٨٠ سم وعرضه ٨٠ سم (٧٢) ( شكل ١:٣ ) .

أما النوع الخامس من الدعائم فهو قريب الشبه من النمط الرابع . هذا النوع عبارة عن حواجز من الحجارة مرتبطة بالجدران الداخلية وظيفتها تقسيم الغرفة الى قسمين أصغر حجما بالإضافة الى مساعدة الجدران في حمل ثقل السقف . ومثالنا على هذا النوع ما عثر عليه في السوية الثانية بمباني الممرات في البيضا ، حيث عثر على حاجز مبني من الحجارة ، بلغ سمكه المتر وأكثر أحيانا ، وطلّي قسمه الأعلى بالجص ، ويرتفع حوالي المترين (٧٤) . والمثال الآخر لهذا النوع هو الحاجز الحجري المكتشف في المنطقة « ب ٧ » في البسطة ( شكل ٣ : ١ ) ، والذي يفصل بين الغرفتين ١٩ و ٢٠ ويتراوح سمكه بين ٧٠ و ٨٠ سم وارتفاعه الحالي يزيد على المتر ، بينما تبلغ مساحة المدخل حوالي ٥٦ سم (٧٥) .

#### ٤ - النوافذ : ( شكل ١:٣ )

لابد أن الانسان عرف النافذة وأهميتها لمسكنه في وقت متأخر عن الزمن الذي عرف فيه العناصر الأساسية الاولى لتصميم المنزل ، وذلك بعد أن ازدادت تجاربه وخبراته في مجال البناء وتشديد المباني ، وأصبح أكثر اتقانا ودقة في تشييد بيوته . وبالرغم من صعوبة معرفة أصل النافذة بالضبط ، إلا أننا نستطيع الافتراض أن النافذة الاولى نشأت بطريقة غير مقصودة من قبل الانسان . فمن المحتمل أن النافذة الاولى جاءت على شكل فتحة صغيرة نتيجة لتصدع جدار المنزل فقام الانسان بتوسيع هذه الفتحة لملاحظته دخول الهواء والضوء من خلالها ، وربما كانت النافذة نتيجة لمحاولة الانسان ايجاد منفذ لخراج الدخان المتصاعد من المواقد وحفر النيران داخل المنازل . أو ربما توصل الانسان الى معرفة النافذة بعد بنائه الحنايا في جدران المنازل الداخلية ، وذلك لأن التجويف الناتج من الحنايا يأخذ قدرا من سمك الجدار . وكشفت الحفريات الاثرية عن بقايا ومخلفات معمارية كثيرة في العديد من المواقع ، إلا أن القليل منها كشف عن وجود نوافذ فيها ، وربما يعود السبب في ذلك الى أن العديد من الجدران التي كشف النقاب عنها كانت قليلة الارتفاع ، بحيث لا يتبين المرء وجود نوافذ فيها . ويعتبر موقع البسطة أحد المواقع النادرة التي أبرزت التنقيبات فيها



وجود فتحات تشكل نوافذ في جدران الغرف الصغيرة التي تحيط بالنوافذ الكبيرة في المجمع البنائي في المنطقة «ب» (٧٦) . وظهرت خمس نوافذ ، ثلاث منها كاملة واثنان متهدمتان ، وبلغت أطوال النافذة في الغرفة رقم «١٠»  $54 \times 33$  سم ، بينما بلغت أطوال النافذة في الغرفة رقم «١١»  $62 \times 44$  سم ، أما نافذة الغرفة رقم «٩» ، فلم يكن بالإمكان تحديد طولها لكونها تقع في أقصى الجدار ، حيث تشكل زاوية مع جدار الغرفة رقم «١٠» ، ويبلغ عرض النافذة ٧٢ سم . أما بالنسبة للنافذتين الرابعة والخامسة ، واللتين وجدتا في الغرف «١٢ ، ١٣» فهما ناقصتان بسبب تداعي الجدران . ويبلغ عرض النافذة الرابعة ٢٧ سم ، ويرتفع جانبها الأيمن حوالي ٥٦ سم ، بينما عرض نافذة الغرفة «١٣» فبلغ ٣٨ سم (٧٧) . كما ظهرت نوافذ أخرى داخل الجدران الداخلية للغرف «١٠ و ١١» (٧٨) . وقد كشفت تنقيبات موسم ١٩٩١ عن وجود نوافذ أخرى في الغرف الصغيرة المطلّة على الغرفة الكبيرة في المجمع البنائي في المنطقة «ب» في البسطة .

وقد بنيت النوافذ على نمط المداخل أي ببناء عتبة عليا وجانبين وعتبة سفلى . كانت العتبة السفلى في الغالب لوح حجري مستطيل على امتداد عرض النافذة بينما جوانب النوافذ في الغالب من خمسة صفوف من الحجارة مختلفة الأحجام . أما بالنسبة للعتبة العليا فتتكون من حجر طويل مستطيل أو من حجرين ، وتمتد داخل جوانب النافذة (٧٩) .

#### هـ - الكوات ( الحنايا ) :

الكوة تجويف يبنى عادة في الجهة الداخلية من الجدران ، وتستخدم في استعمالات متعددة كوضع الطعام ، أو التماثيل . ان الأدلة على وجود كوى أو حنايا في جدران المنازل قليلة جدا ، كما هو الحال في النوافذ ، وذلك لقلة ارتفاع الجدران الباقية في المخلفات الأثرية . ومن الأدلة القليلة التي كشفت النقاب عنها في المواقع تلك الكوة التي عثر عليها في السوية الثانية في البيضا ، وذلك في أحد الابنية المبنية حول ممر ضيق بلغت أطواله  $1 \times 1$  م ، وبلغت أبعاد الغرفة الواحدة  $1 \times 0.5$  م ، والتي أطلقت عليها المنقبة اسم المشاغل لاعتقادها بأنها استخدمت لأغراض عامة (٨٠) . تقع هذه الكوة في أقصى طرف أحد الجدران التي يبلغ ارتفاعها حوالي المترين وهي مربعة تقريبا ، ومبنية من الحجارة (٨١) . شيدت العتبة السفلى من لوح حجري ، بينما شيدت الجوانب بثلاثة صفوف أو أكثر من الحجارة الفشيمة ، وكانت العتبة العليا لوحاً حجرياً طويلاً امتد قليلاً نحو الجوانب .



## ٦ - الأرضيات :

أبدى الانسان القديم اهتماما شديدا بأرضية البيوت التي شيدها ، حيث قام بتنظيفها من الحجارة والصخور وتسويتها ، ثم مد هذه الأرضيات في بداية الامر بطبقة من الطين أو التراب المدكوك ، وتطورت مع مرور الزمن الى تغطية الأرضيات بطبقة من الجص . ويعتبر الاستخدام الواسع للجص في طلاء الأرضيات احدى السمات المميزة لعمارة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» . حيث عثر في جميع مواقع هذا العصر على أرضيات غرف مطلية بالجص والدهونة في أغلب الاحيان ، مما دعا بعض العلماء الى تسمية هذه المرحلة باسم مرحلة الأرضيات الجصية أو الكلسية [ Plastered floor period ] . وتشير الادلة الاثرية الى أن الانسان القديم في البيضا استخدم الجص في جميع السويات الاثرية لمرحلة ما قبل الفخاري «ب» ، حيث استخدمه في تغطية الأرضيات والجدران والتي جاءت غالبا مدهونة بالالوان الاحمر ، والبني ، والزهري (٨٢) ، ففي السوية الثانية مدت أرضية الساحة الكبيرة بالجص كغطاء نهائي بسماكة ٢٥ سم بعد مد الأرضية بطبقة من الحصى الصغيرة ، والكلس ، والرماد ، كما تم طلاء أرضية ساحة اخرى في نفس السوية بالجص بعد فرشها بطبقة من الرمل والكلس (٨٣) . ونجد كذلك أن استعمال الجص في ملاط أرضيات وجدران الغرف الداخلية كان شائعا في هذه الفترة ، كما هو الحال في غرف مبنى الممرات حيث اشارت المنقبة الى أن معظم الأرضيات كانت مكسية بالجص وملاصقة لجدران الغرف ، وفي الغالب كانت تغطي الجدران من الداخل بملاط من الجص . وتشير الدلائل الى وجود هذه الظاهرة في موقع خربة الحمام ، حيث عثر على أرضيات مقصورة ومدهونة باللون الاحمر ، ومن المحتمل أن الجدران طليت أيضا بهذا اللون (٨٤) . ومن السمات الشائعة في أغلب أرضيات المباني في مواقع جنوب الاردن في هذه المرحلة استخدام الالوان المختلفة كالاخمر ، والبني والزهري وغيرها ، وان كان الاحمر هو اللون الاكثر استعمالا في طلاء هذه الأرضيات المصقولة غالبا . ويشير هانس جيبيل ( H. Gebel ) الى وجود هذه الظاهرة في موقع البعجة (٨٥) . أما في موقع البسطة فقد جاءت أغلب المباني التي عثر عليها بأرضيات وجدران مطلية بالجص ومدهونة بالوان مختلفة كالاخمر والبني (٨٦) . واستخدم الانسان مواد اخرى لتغطية الأرضيات في البيضا ، كما هو الحال في المربع T2 في منطقة الحرم [ Sanctuary ] ، حيث استخدمت الحجارة في رصف الأرضية بالحجر اللوحي بطريقة متقنة (٨٧) . كما وجد خارج أحد منازل السوية الرابعة على رصفة من الحجارة اللوحية الضخمة بشكل نصف دائري (٨٨) . كما استخدموا الحصى أيضا في تغطية احدى أرضيات مباني الحرم (٨٩) . واستخدموا الطين كذلك حيث عثر في عين أبو نخيلة على أرضيات صلبة (٩٠) .



## ٧ - السلالم والدرج :

ليس لدينا أية أدلة مادية على الوسائل التي استخدمها سكان البيضا للصعود الى الاسطح ، اذ لم تكشف التنقيبات الاثرية عن أية بقايا أو مخلفات لسلالم أو درجات في المباني التي تم الكشف عنها في السويات الست في البيضا . الا أننا نعتقد بأن عملية الصعود الى الاسطح - أو الى الطابق الثاني في مباني الممرات المكتشفة في السوية الثانية في البيضا ، والتي افترضت المنقبة أنها كانت مخصصة للسكن - كانت تتم بواسطة سلالم أو أدراج خشبية . كما يمكن الافتراض أن عملية الصعود كانت تتم بالتسلق على الجدران الخارجية من خلال أماكن خاصة لوضع القدمين ، اذ كان مستوى الجدران الخارجية أقل ارتفاعاً من الجدران الداخلية ، وذلك لأن أرضيات البيوت كانت تحت مستوى الأرض بحوالي ٥٠ سم .

واللافت للنظر أن سكان البيضا لم يقوموا بتشييد درج حجري يؤدي الى السطح رغم معرفتهم بتقنية بناء الدرج ، حيث تميزت مباني السويات الست بكونها تحت مستوى الأرض وينزل اليها بثلاث درجات حجرية ( شكل ٣ : ٢ ) . وظهر أيضاً درج حجري في الجدار الذي عثر عليه في المنطقة الجنوبية الشرقية للقريسة (٩١) . وفي البسطة عثر في المجمع البنائي « أ » على درج يربط بين المصطبة الشمالية والمصطبة الجنوبية اللتين وجدتا في إحدى الغرف الكبيرة التي تبلغ مساحتها ٢٤م × ٩م (٩٢) .

## ٨ - السقوف والاسطح :

أشرنا سابقاً الى تنوع النماذج المعمارية المكتشفة في هذه المرحلة ، فمنها الدائري والمستطيل ، والمربع ، أو البيوت متعددة الغرف . ولا بد أن تنوع هذه النماذج قد أثر على تصميم سقوفها ، فربما كان سقف البيوت الدائرية على شكل قبة غالباً ، أو مخروطياً . أما البيوت المستطيلة والمربعة أو البيوت متعددة الغرف ، فربما كانت ذات سقوف مستوية أو مائلة قليلاً . والتحدث عن أشكال السقوف التي استخدمها الإنسان في سقف بيوته في غاية الصعوبة لغياب الأدلة المادية المباشرة التي توضح شكل هذه السقوف . فالسقف ربما تألف من العوارض الرئيسية ، تعارضها جذوع معاكسة فوقها ، ويوضع فوقها طبقة رقيقة من أغصان الأشجار والقصب ، ثم تفرش بطبقة من الطين . وفي الواقع ليس لدينا أية أدلة أثرية مباشرة على طريقة صنع السقف في مباني هذه المرحلة باستثناء ما عثر عليه في المخلفات الاثرية من بقايا مواد محترقة في أحد بيوت السوية السادسة بموقع البيضا ، حيث افترضت المنقبة استخدام الخشب في عملية سقف الغرف . أما الدليل الثاني . فهو وجود حفر الأعمدة



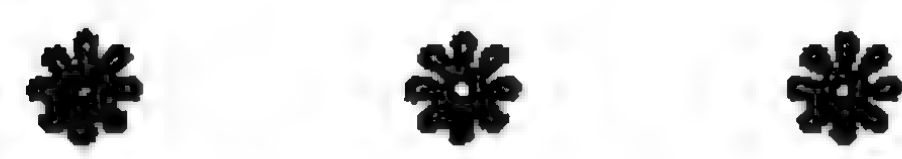
الملتصقة داخل جدران غرف السوية السادسة مع وجود عمود مركزي في وسط الغرف ، اذ افترضت المنقبة أن السقف اقيم بإيصال الاعمدة الخشبية الملتصقة داخل الجدران مع العمود الخشبي المركزي بعوارض خشبية أفقية، ثم وضع فوقها القصب والعليق ، وأخيرا غطيت بطبقة سميكة من الطين (٩٢) . وتشير المنقبة الى ان السقف كان مطليا بطبقة من الجص . أما سقوف البيوت التي لم تحتو على أية بقايا لحفر اعمدة أو انخفاضات في الارضيات فنعتقد بأن سقوفها اقيمت بعوارض خشبية أفقية كما نشاهد في قرانا اليوم . أما السطح ، فلم تكشف التنقيبات الاثرية في جميع المواقع عن أي أثر له . ونفترض أن الانواع التالية من أشكال السطوح يمكن أن تكون استخدمت في هذه المرحلة :

١ - السطح المستوي : يستخدم هذا الشكل في الوقت الحاضر في معظم القرى في جنوب الاردن . وهذا الشكل يبنى على الشكل التالي : بعد ان يسقف البيت بالعوارض الخشبية ، وتوضع فوقها الاغصان ، تغطى بطبقة من الطين ، وتسدك بالاقدام أو بأداة خاصة تستخدم لهذا الغرض . ويتم اضافة الطين سنويا الى السطح لترميمه .

٢ - السطح المقبب : ربما كان هذا الشكل هو الاكثر ملاءمة للمنازل الدائرية ، كالمباني التي وجدت في البيضا ، وعين أبو بخيلة ، ويحتمل أيضا أن يكون السطح المستوي هو الذي استخدم في المباني الدائرية خصوصا اذا استخدم الخشب في ذلك ، لان بناءه يحتاج وقتا اقل من بناء السقوف المقببة .

٣ - السطح المائل : وهو سطح يماثل السطح المستوي ، ولكن درجة ميلانه تكون اكبر ، لضمان عدم تراكم مياه الامطار فوق الاسطح .

٤ - السطح الجملوني : ويتكون من سطحين مائلين ، حيث يتم بناء هيكل خشبي مرتفع من المنطقة الوسطى ومنخفض من الاسفل ، بحيث لو قسم السطح الجملوني الى قسمين لكون كل قسم سطحاً مائلاً .





## معجم الكلمات Glossary

عربي	فرنسي	انجليزي
الارضية	sol	floor
البلاطة	dalle	flagestone
البيت	maison	house
الجص	plâtre	gypsum
الجدار	mur	wall
الجلوني	toit en batière	saddleroof
الحجر	pierre	saddleback roof stone
الحجر الكلسي	calcaire	lime stone
الخزانة	placard	cupboard
الخشب	bois	wood
الدرج	escalier	stairway
الدعامة	pilier	pillar
الركيزة	Poteau	post
الساحة	court	courtyard
السطح	toit	roof
السقف	Plafond	roof
السلم	échelle	ladder
الصومعة	silos	silos
الطين	mud	clay
العتبة السفلي	seuil	doorstep
العتبة العليا	linteau	lintel
الغرفة	pièce	room



lime	chaux	الكس
niche	niche	الكوة
slope	pente	مائل
magazine	magasin	المخزن
entrence	entrée	الداخل
flat	plat	مستو
platform	plateforme	المسطبة
benche	banquette	المصطبة
gypsum -lastered	Plâtre	مطلي بالجبص
mortar	mortier	الملاط
agglutinant	agglutnative	ملتصق
coridor	passage	الممر
free - standing	isolé	منعزل
hearth	foyer	الموقد
window	fenêtre	النافذة

\* \* \*



جدول رقم ١ : تواريخ الكربون المشع لموقع البيضا والبسطة

**البيضا :**

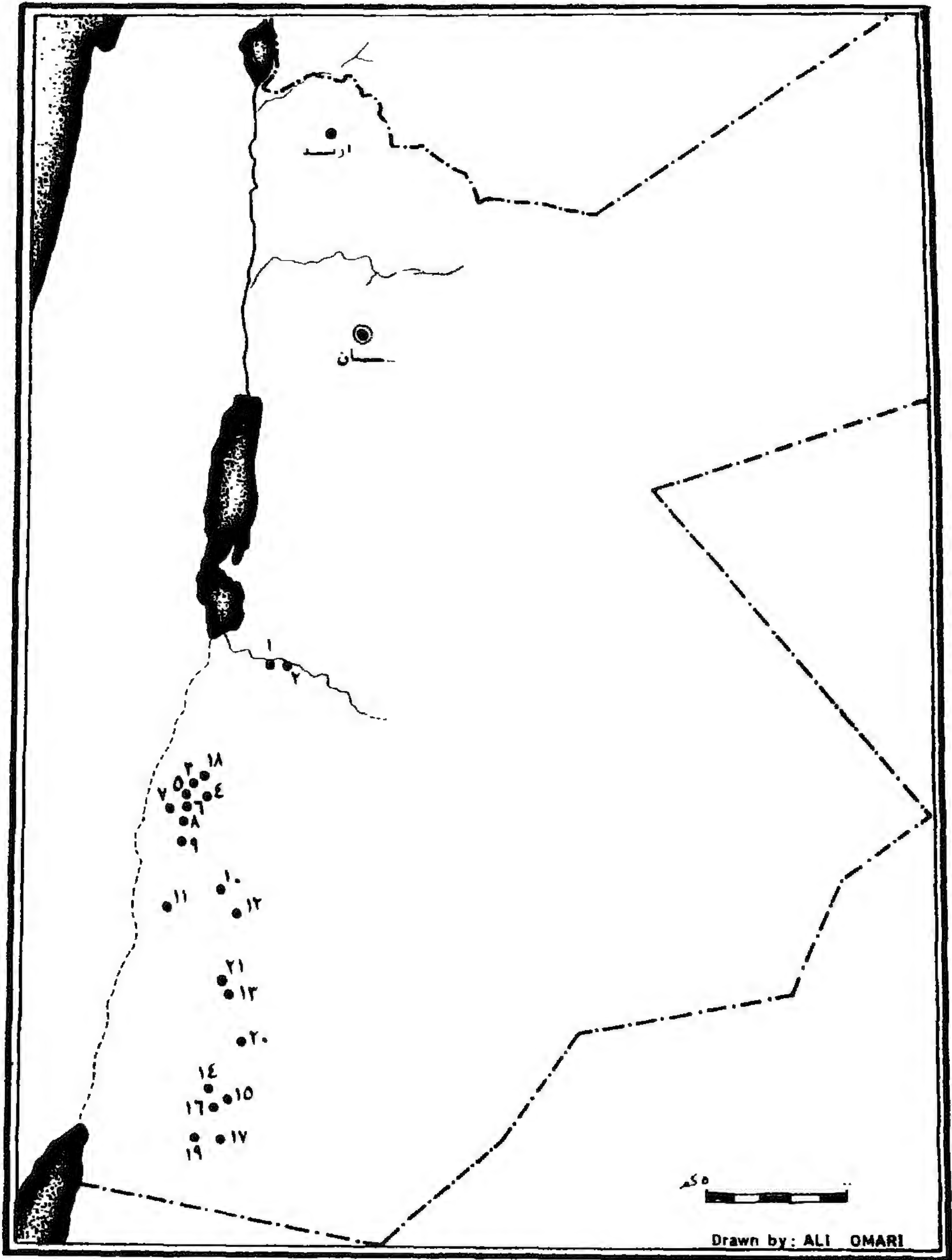
GrN — ٥.٦٣	٦٦٩. $\pm$ ٥. ق.م	السوية السادسة
K — ١٤١٠	٦٩٠. $\pm$ ١٥. ق.م	
K — ١٤١١	٦٨٢. $\pm$ ١٥. ق.م	
P — ١٣٨١	٦٨١٥ $\pm$ ١.٢ ق.م	
K — ١٤١٢	٦٧٧. $\pm$ ١٥. ق.م	
P — ١٣٧٨	٦٧٦٥ $\pm$ ١.٠ ق.م	
K — ١.٨٢	٦٧٠. $\pm$ ١٣. ق.م	
P — ١٣٧٩	٦٥٩٦ $\pm$ ١.٠ ق.م	
K — ١.٨٣	٦٦٩. $\pm$ ١٦. ق.م	السوية الخامسة
P — ١٣٨٠	٧١٧٨ $\pm$ ٢.٠ ق.م	السوية الرابعة
BM — ١١١	٦٨٤. $\pm$ ١.٣ ق.م	
P — ١٣٨١	٦٨١٥ $\pm$ ١.٢ ق.م	
K — ١.٨٤	٦٧٨. $\pm$ ١٦. ق.م	
P — ١٣٨٢	٦٩٤٢ $\pm$ ١١٥ ق.م	السوية الثانية
K — ١.٨٥	٦٦٠. $\pm$ ١٦. ق.م	
GrN — ٥.٦٣	٧.٨. $\pm$ ٥. ق.م	

نلاحظ ان التواريخ المعطاة اعلاه حدثت بين ٧.٠٠ و ٦٦.٠ ق.م ، مما يؤكد راي المنقبة بأن الموقع قد استوطن لفترة قصيرة ( Kirkbride, 1967 : 12 ) .

**البسطة :**

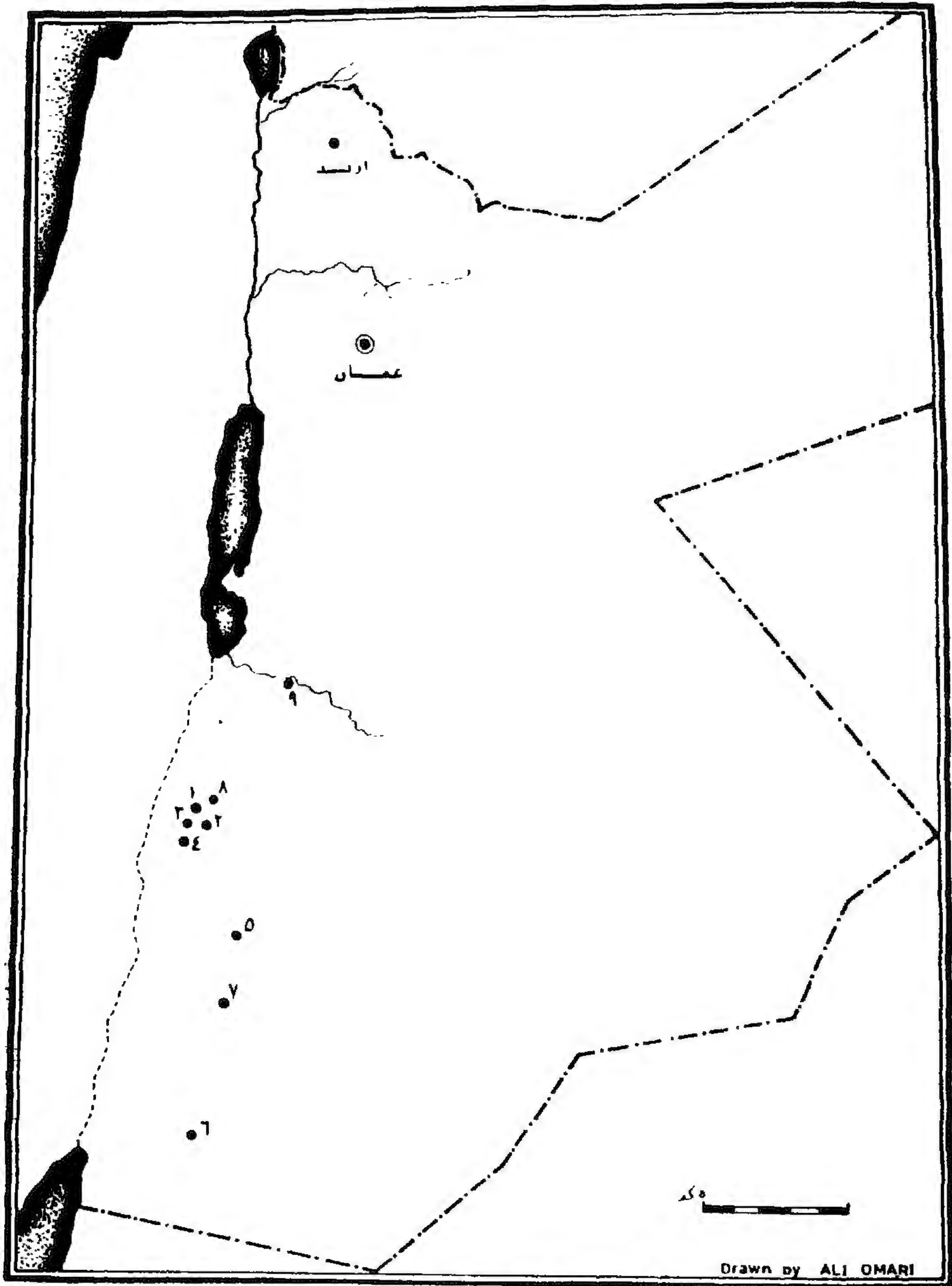
٥٠٠ شمال/٦٨٥ غرب ٢٣.٤٦.٣٣ م ٨٣٨. + ١.٠ من الوقت الحاضر ٥٣٨—GrN  
 ٥٠٠ شمال/٦٩٠ غرب (د) سوية ٧ ٨١٥٥ + ٥.٠ من الوقت الحاضر ١٤٥٣٨—GrN





خريطة (١). مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الأردن.  
 ١- وادي الحسا ٢- خربة الحمام ٣- شكايرة مساعيد ٤- بعجة «١» ٥- جابو «١» ٦- البيضا  
 ٧- بير الطيب ٨- الضمان ٩- كات شبيب ١٠- صبرا «١» ١١- ابو برقة ١٢- البسطة  
 ١٣- J24 ١٤- القصير ١٥- عين القطار ١٦- عين أبو نخيلة ١٧- ام الرصال ١٨- وادي فينان  
 ١٩- ام الموقور ٢٠- جبل راينغ ٢١- ام الحمام.



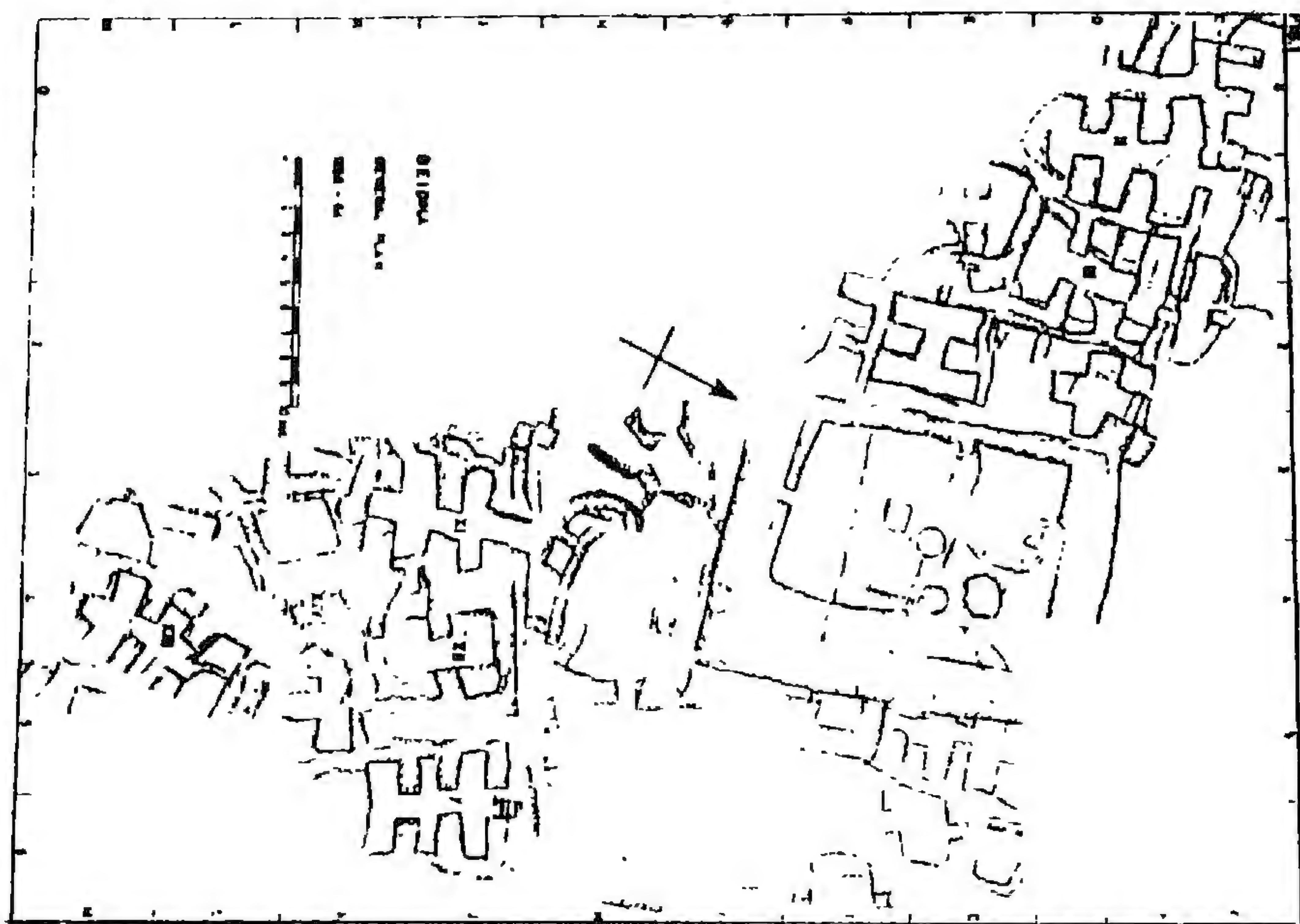


خريطة (٢) مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب» في جنوب الأردن المحتوية على بقايا عمائرية  
 ١- شكايرة مساعيد ٢- بعجة «١» ٣- البيضاء ٤- الصمار ٥- ام الحمام ٦- عين أبو نخيلة  
 ٧- البسطة ٨- وادي فينان ٩- خربة الحمام.









شكل (١) : ٢ - مخطط عام للمجمع البنائي «ب» في البسطة .





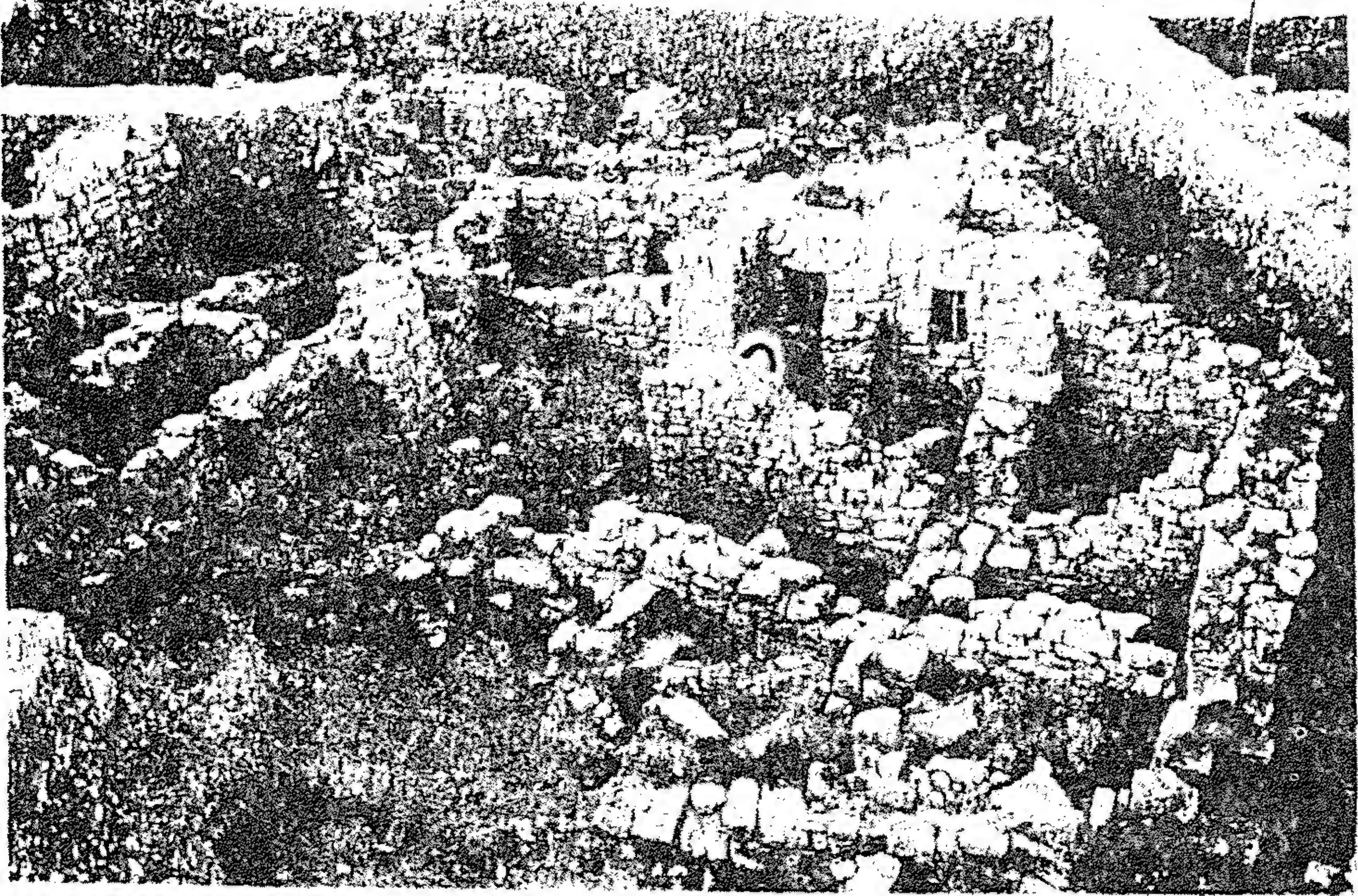
شكل (٢): ١- منظر عام لمباني السويات الست في البيضاء.



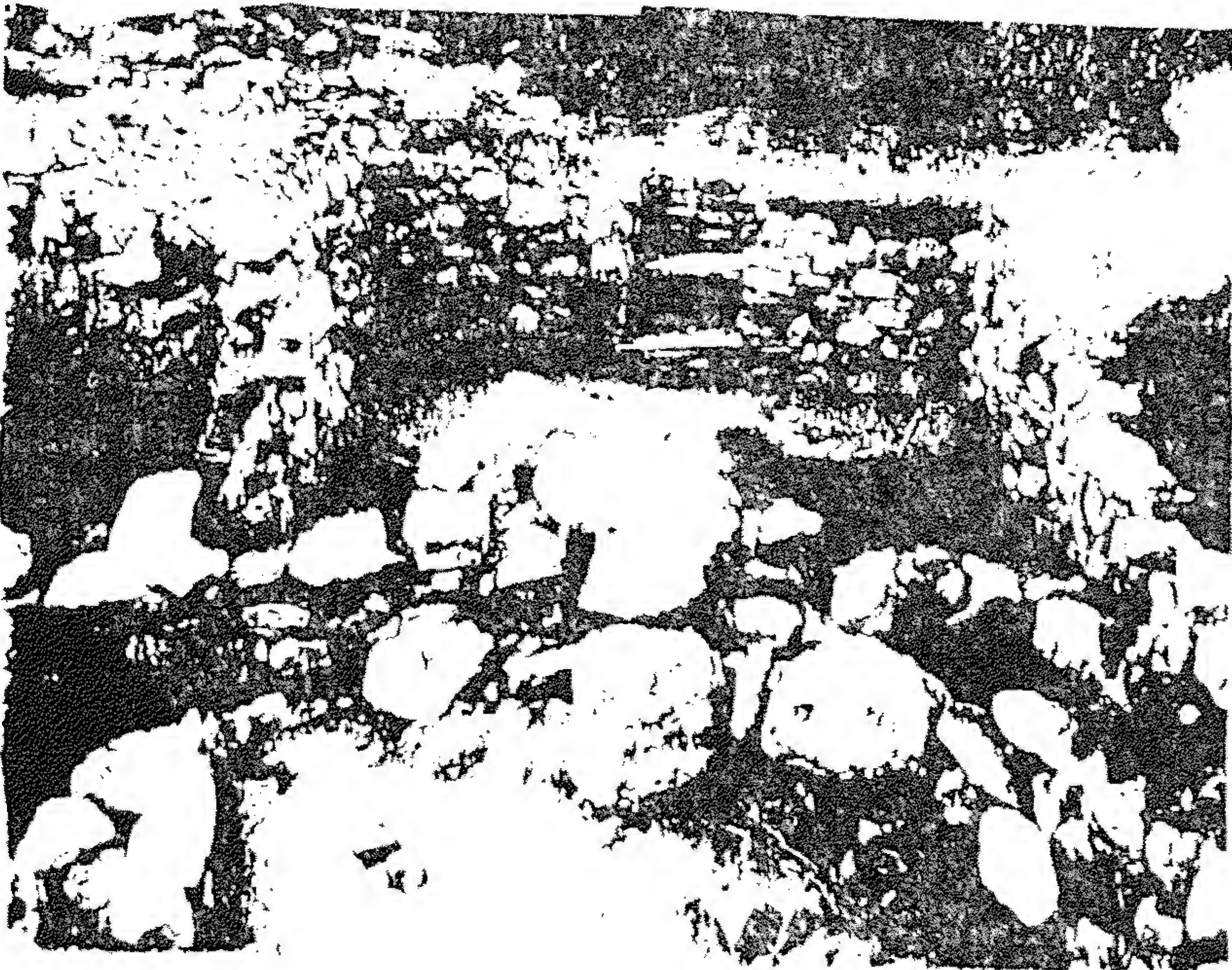


شكل (٢): ٢- منظر عام للغرف الدائرية في السوية السادسة في البيضاء. - ٣٩ -





شكل (٣) ١ - منظر عام للمجمع البنائي «ب» في البسطة.



شكل (٣) ٢ - منظر لاهد البيوت المستطيلة في السوية الرابعة في البسطة



الهوامش:

- ١- Moore, A., "The Neolithic of the Levant, I&II." Unpublished Ph.D. Thesis Submitted for the Degree of Doctor of Philosophy. Oxford University. University College. 1978: 84
- ٢- Moore, A., *ibid* 1978: 86
- ٣- Cauvin, J. "Chronologie Relative et Chronologie Absolue dans Le Neolithique du Levant Nord et d'Anatolie entre 10000-8000 B.P" Lyon, Colloque International du CNRS. Chronologie du Proche-Orient. BAR International Series 379 (i) (1987): 333
- ٤- Kenyon, K., "Excavation at Jerico, 1956". Palestine Exploration Quarterly , 1956: 72
- ٥- أبو طالب، محمود اثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة (أضواء جديدة). ١٩٧٨. ٤٣-٤٤.
- كفافي، زيدان القرى الزراعية في الأردن خلال العصر الحجري الحديث حوالي (٨٠٠٠-٤٥٠٠ ق م). مجلة أبحاث اليرموك مجلد ٢ (١٩٨٦): ٧٤-٧٥
- كفافي، زيدان الأردن في العصور الحجرية. ١٩٨٩. ١٣٧-١٣٩.
- ٦- Banning, E., and Byrd, B., "The Architecture of PPNB Ain Ghazal," Jordan. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 1984, 255: 15-20
- Banning, E., and Byrd, B., "House and the Changing Residential Unit: Domestic Architecture at PPNB, Ain Ghazal, Jordan ." Proceedings of the Prehistoric Society 1987, 53: 309-325.
- Aurenche, O. "La Maison Orientale: L'Architecture du Proche-Orient Ancien des Origines au Milieu-du Quatrième Millenaire. Tome I&II". Paris. Librairie Orientaliste Paul Geuthner S.A. 1980
- ٧- Kenyon, K., "Excavation at Jericho, 1953". Palestine Exploration Quarterly , 1953 : 83
- ٨- Moore, A., "The Neolithic in the Levant". 1978: 86.
- وانظر. Moore, A.. "A Four Stage Sequence for the Levantine Neolithic, ca. 8500-3750 B. C". Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 1982, 258: 1.
- ٩- Kirkbride, A., and Harding, L., "Hasma". Palestine Exploration Quarterly , 79 (1947): 7-27.
- Stekelis, M., "Hasma, Note on the Flint". Palestine Exploration Quarterly, 79 (1947): 26.



Kirkbride, D., "The Neolithic in the Wadi Rumm: Ain Abu Nekheileh". 1-10. in; Archaeology in the Levant, Essays for Kathleen Kenyon. edited by Roger Moory and Peter Parr, Warminster: Aris and Philips Ltd.

Kirkbride, D., "Five Seasons at the Neolithic Village of Beidha in Jordan". Palestine Exploration Quarterly 1966 (98): 56

Henry, D., "Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisma".- ١٢ in: Garrard, A., and G. Gebel, H. G., (eds.). The Prehistory of Jordan. 1986. BAR, International Series, 396: 32. 1988

Raikes, T. D., "Note on Some Neolithic and Later Sites in Wadi Araba and the Dead Sea Valley". Levant, 1980, XII: 40-60. -١٣

Bennet, C. M. "Soundings at Dhra; Jordan." Levant 1980: 39 -١٤

Macdonald, B., "The Wadi el Hasa Survey, 1980, A Preliminary Report". Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 24 (1980): 169-183. -١٥

Clarck, G. A., Lindly, J. M., Donaldson, M., Garrard, A., Coinman, N. R., Schuldenrein, J., Fish S., S., & Olszewsk, D. "Paleolithic Archaeology in Southern Levant: A Preliminary Report of Excavations at Middle, Upper & Epi-Paleolithic Sites in Wadi el Hasa West-Central Jordan". Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1987, 31: 19-78.

Clarck, G. A., Majchrowicz, D. and Coinman, N. "A Typological Study of Upper Palaeolithic Collections from the Wadi al-Hasa Survey with Observations on Adjacent Time-Stratigraphic Units. 87-127 in B. Macdonald (ed.), The Wadi al-Hasa Archaeological Survey (1979-1983), West Central Jordan Waterloo. Wilfrid Laurier University Press 1988. وانظر

Clarck, G. A., Neely, M. P., Macdonald, B., Schuldenrein, J., & Amre, K. "Wadi al Hasa Paleolithic Project 1992: Preliminary Report. " Annual of the Department of Antiquities of Jordan, 1992, 36: 13-23. وانظر

Gebel, H. G. "Late Epipalaeolithic-Aceramic Neolithic Sites in Petra". in Garrard, A & Gebel, H. G. (eds.) The Prehistory of Jordan, 1986. BAR International Series 396 (i) (1988): 67-100. -١٦

Gebel, G., & Strack, J. M., "Investigations in to The Stone Age of The Petra Area (Early Holocene Research). A Preliminary Report on the 1984 Campaigns". Annual of the Department of وانظر



Antiquities of Jordan, 1985, 29: 89-114

Bennet, C. M., "Soundings" Levant, 1980, 12: 39. -١٧

Henry, D. "The Prehistory & Palaeoenvironment of Jordan: an Overview". Paléorient 1986, 12/2: 20.

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 78.

Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant. 1978: 8-9. -١٨

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 78 -١٩

Henry, D., "Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisma". -٢.

in: Garrard, A., and Gebel, H.G., (eds.). The Prehistory of Jordan. BAR, IS, 396 (1988): 32.

Raikes, T. D. "Note on Some Neolithic and Later Site in Wadi Araba and the Dead Sea Valley". -٢١  
Levant, 1980, 12: 40-60.

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 4. -٢٢

Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 83. -٢٣

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 47. -٢٤

Kirkbride, D., "Beidha 1965: An Interim Report". PEQ, 1967, 99: 12. -٢٥

Gebel, H. G., Muheisen, M., & Nissen, H., "Preliminary Report on The First Season of -٢٦  
Excavations at Basta" In Garrard, A. and Gebel, H. (eds.). The Prehistory of Jordan. 1986. BAR IS  
396 (i) 1988 :131.

Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant 1978: 9 -٢٧

Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 19, pl.XA. -٢٨

Gebel et al "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 81-86. -٢٩

Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 8. -٣٠

Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha, Près de Petra". Revue Biblique, 1963, 72: 252. -٣١

Kirkbride, D., "Beidha: Early Neolithic Village, Life Southe of the Dead Sea". Antiquity, XLII, -٣٢  
(1968b): p. 266.

-٣٣ عابد، عبد القادر "جيولوجيا الاردن". منشورات مكتبة النهضة الاسلامية. عمان-الاردن. ١٩٨٢. ص. ١٨٠.



- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ , 1966,98: 22-23. -٣٤
- Kirkbride, D., Ibid : 23. -٣٥
- Kirkbride, D., Ibid : 6. -٣٦
- Kirkbride, D., "The Neolithic". The Archaeology in the Levant. 1978: 8. -٣٧
- Cauvin, J., "Les Premiers Villages de Syrie-Palestine de IXème au VIIème Millénaire avant J. C." Lyon. Maison de L' Orient.: 38-43. -٣٨
- Goring-Morris, A. N., "From Foraging to Herding in the Negev and Sinai: The Early to Late Neolithic Transition". Paléorient , 1993, 19/1: 68. -٣٩
- Waechter, J., and Seton-Williams, V., "The Excavations at Wadi Dhobai 1937-1938 and the Dhobanian Industry". Journal of the Palestine Oriental Society , 18 (1938): 172-186. -٤٠
- Kirkbride, D., "Beidha. 1965". PEQ , 1967, 99: 8. -٤١
- Kirkbride, D., "Beidha. An Early Neolithic Village. Jordan". Archaeology , 1966, 19: 201. -٤٢
- Kirkbride, D., "The Neolithic". The Archaeology in the Levant. 1978: 8-9. -٤٣
- Gebel, H. G., and Starck, J. M., "Investigations". ADAJ , 1985, 29: 97. -٤٤
- Rollefson, G., and Kafafi, Z., "Khirbet Hammam: A PPNB Village in the Wadi el Hasa, Southern Jordan". Bulletin of the American Schools of Oriental Research 1985, 258: 66. -٤٥
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ , 1966, 98: 55. -٤٦
- Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 81
- Kirkbride, D., "Beidha. 1965". PEQ , 1967, 99: 203-204. -٤٧
- Rollefson, G., Simmons, A., and Kafafi, Z., " Neolithic Cultures at Ain Ghazal, Jordan". Journal of Field Archaeology , 1992, 19: 50. -٤٨
- Nissen, H., Muheisen, M., and Gebel, H. G., "Report on the Excavation at Basta 1988". Annual of the Department of Antiquities of Jordan , 35 (1991): Pp. 15-16. fig. I. -٤٩
- ٥٠ - محيسن، مجاهد و نيسن هانز الموسم الرابع للحفريات الاثرية في بسطة ١٩٨٩. أنياء المعهد ٧-٨ (١٩٨٩) : ٩-١٠.
- Nissen et al., ibid. ADAJ , 1991, 35: 15-16. -٥١
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ , 1966, 98: 12. fig. 2. -٥٢



- Kirkbride, D., "Beidha. 1965". PEQ, 1967, 99: 7. fig. 8. —٥٢
- Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha". Revue Biblique, 1962, 69: 89. —٥٣
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: pl. VIIa —٥٤
- Kirkbride, D., Ibid : 12. fig. 2. —٥٥
- Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant. 1978: 6. pl. 1b. —٥٦
- Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 8. pl. III A. —٥٧
- Nissen, H., Muheisen, M., and Gebel, H. G., "Report on the First Two Seasons of—٥٨  
Excavations at Basta 1986-1987". ADAJ, 1987, 31: 93.. fig. 8b.
- Nissen et al., "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: pl 42. fig. 1. —٥٩
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 21. —٦٠
- Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: pl. IIIA.
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 16. —٦١
- Kirkbride, D., Ibid: 16. —٦٢
- Kirkbride, D., Ibid : 12. fig. 2. —٦٣
- Kirkbride, D., "Beidha". Archaeology, 1966, 19: 202.
- Kirkbride, D., "Excavation of the Pre-Pottery Neolithic at Seyl Aqlat, Beidha". Annual of the—٦٤  
Department of Antiquities of Jordan, 1962, 6-7: 11.
- Kirkbride, D., "Beidha". Archaeology, 1966, 19: 199, 201. —٦٥
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 14. pl. Va. —٦٦
- Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 6. pl. IB. —٦٧
- Kirkbride, D., "Beidha Près de Petra". Revue Biblique, 1966, 73: 554-555. —٦٨
- Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 6. pl. IA. —٦٩
- Kirkbride, D., "Beidha 1967: An Interim Report". PEQ, 1968, 100: 92. pl. XXIIIA.
- Nissen et al., "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: 16. fig. 1 —٧٠
- Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha". Revue Biblique, 1964, 71: 249. —٧١
- Nissen et al., "Report on the First Two Seasons". ADAJ, 1987, 31: 93. fig. 7. —٧٢



- Nissen et al ., "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: 16. fig. 1. -٧٢
- Kirkbride, D., "The Excavation of a Neolithic Village at Seyl Aqlat near Petra". Palestine Exploration Quarterly, 1960, 92: pl. XXVIA. -٧٤
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 15. pl. IIB.
- Nissen et al ., "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: 15-16. fig. 1. -٧٥
- Nissen et al ., "Report on the First Two Seasons". ADAJ, 1987, 31: 91-93. fig. 7. -٧٦
- Nissen et al ., Ibid: 93. fig. 8. -٧٧
- Nissen et al ., Ibid, pl. IV:2. -٧٨
- Nissen et al ., Ibid: 94. fig. 8. -٧٩
- Nissen et al ., "Report on the Excavation". ADAJ, 1991, 35: 36. pl. II2.
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 15. -٨٠
- Kirkbride, D., "A Short Account of the Excavations at Petra in 1955-56" ADAJ, 1960, 4-5: 139. -٨١
- Kirkbride, D., "Seyl Aqlat". Revue Biblique, 1960, 67: 238.
- Kirkbride, D., "Five Seasons". PEQ, 1966, 98: 23. -٨٢
- Kirkbride, D., "Seyl Aqlat, Beidha". Revue Biblique, 1962b, 69: 89. -٨٣
- Rollefson, G., and Kafafi, Z., Ibid: 66. -٨٤
- Gebel, H. G., "Late Epipalaeolithic". The Prehistory of Jordan. 1988: 86. -٨٥
- Gebel et al ., "Report on the First Season". The Prehistory of Jordan. 1988: 109-110. -٨٦
- Kirkbride, D. "Beidha 1967". PEQ, 1968, 100: 93 -٨٧
- Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1967, 99: 9. -٨٨
- Kirkbride, D., "Beidha 1967". PEQ, 1968, 100: 95. -٨٩
- Kirkbride, D., "The Neolithic". Archaeology in the Levant. 1978: 2. -٩٠
- Kirkbride, D., "Beidha 1965". PEQ, 1968, 100: 92. -٩١
- Nissen et al ., "Report on the First Two Seasons". ADAJ, 1987, 31: 88-89. -٩٢
- Kirkbride, D., "Beidha". Revue Biblique, 1966, 73: 552. -٩٣











## معطيات جديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر ( وقفية أحمد باشا )

د. محمد م. الارناؤوط

جامعة آل البيت

يتميز القرن السادس عشر بأهمية خاصة بالنسبة لدمشق وبلاد الشام بشكل عام . ففي مطلع هذا القرن ( ١٥١٦ ) انهار الحكم المملوكي في بلاد الشام أمام الجيش العثماني وأصبحت بلاد الشام في إطار دولة عالمية كبرى تمتد من حدود المجر الى حدود اليمن بعد ان كانت في إطار دولة اقليمية ( الدولة المملوكية ) . وقد تزامن القرن السادس عشر مع التوسعات والانتصارات التي وصلت فيها الدولة العثمانية الى ذروتها ، مما انعكس أيضا على الولايات الاخرى وخاصة دمشق وبلاد الشام بغامة لما أصبحت تعنيه بالنسبة للدولة العثمانية بسبب الاهمية المتزايدة لقافلة الحج الشامي وللموارد الاقتصادية التي مولت فتوحها بها ، وهكذا فقد تجسد هذا الاهتمام المتزايد بدمشق وبلاد الشام بقيام السلاطين ( سليم الاول ، سليمان القانوني ) والولاة الكبار مثل ( أحمد باشا مصطفى باشا ، مراد باشا ، سنان باشا ، وغيرهم ) ببناء المنشآت الاقتصادية والاجتماعية الثقافية المختلفة التي أدت الى بروز ملامح جديدة لدمشق في القرن السادس عشر . ويأتي هذا البحث ليكشف بعض المعطيات الجديدة عن دمشق في منتصف القرن السادس عشر بالاستناد الى وقفية مهمة عثرنا عليها مؤخرا .

### مقدمة :

شهدت دمشق في القرن الاول في الحكم العثماني تطورا عمرانيا ملحوظا يتمثل في سلسلة من المنشآت الدينية والاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي اعطت المدينة ملامح جديدة سواء لجهة الطابع المعماري الجديد ( العثماني ) أو لجهة التوسع العمراني للمدينة باتجاه الجنوب - طريق الحج ، وهو ما كان يعكس الاهمية المتزايدة لدمشق كمركز لتجمع وانطلاق قافلة الحج التي أصبحت تعني الكثير سواء بالنسبة الى دمشق

---

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني - نيسان ١٩٩٥



أو للدولة العثمانية<sup>(١)</sup> . ويلاحظ هنا أن هذا التطور العمراني قد ارتبط بأبرز السلاطين ( السلطان سليم الاول ١٥١٢ - ١٥٢٠ والسلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦ ) وكبار الوزراء المقربين منهم الذين خدموا كولاة بدمشق في ذلك القرن ( لطفى باشا ، أحمد باشا ، مصطفى باشا ، مراد باشا ، سنان باشا وغيرهم ) . وفي هذا الاطار يلاحظ أن المنشآت السلطانية ، سواء تلك التي تعود الى السلطان سليم الاول (جامع الشيخ محي الدين والتكية السليمانية)<sup>(٢)</sup> أو الى السلطان سليمان القانوني ( المدرسة والتكية السليمانية )<sup>(٣)</sup> ، إنما بنيت خارج أسوار مدينة دمشق المعروفة في ذلك الوقت بينما قام ولاة دمشق ببناء منشآتهم داخل مدينة دمشق أو في أطرافها ، ولذلك يعود اليهم الفضل في التطور العمراني الجديد لدمشق<sup>(٤)</sup> .

وهكذا اذا استثنينا المنشآت السلطانية الكبيرة المبنية خارج دمشق والترميمات الحاصلة داخل دمشق ، بالاضافة الى المنشآت المفردة ( قبة ، ضريح ، مدرسة ، حمام ، مسجد ) ، نجد أن أول تطور عمراني يلفت الانتباه في دمشق ، يرتبط باسم الوالي أحمد باشا ، الذي بنى مجموعة من المنشآت الدينية والاقتصادية والاجتماعية ( سوق ، خان ، جامع ، مدرسة ، خانقاه وتكية ) . وعلى الرغم من الفترة الطويلة نسبيا التي قضاها هذا الوالي في دمشق ، والمعاملة الحسنة التي قربته من الدمشقيين ، والسمعة الجيدة له كشاعر على مستوى الدولة العثمانية ، والمنشآت المهمة التي بناها في دمشق ، إلا ان الباحثين الرواد ( كرد علي ، المنجد ، طلس ) اكتفوا بإشارات عابرة أو عامة عن كل ذلك ، وكرر الباحثون اللاحقون ( ربحاوي ، نعيسة ، علي وغيرهم ) تلك الاشارات مع ما فيها من اختزال وتناقض أحيانا ، دون أن يضيفوا شيئا يذكر اليها . والاستثناء الوحيد هنا نجده لدى الباحث الفرنسي جان بول باسكوال J.P. Pascual في كتابه المهم عن تطور دمشق في نهاية القرن السادس عشر ، حيث قدم معلومة جديدة تتعلق بالسوق الذي أنشأه أحمد باشا<sup>(٥)</sup> . وفي الواقع لقد أصبح في الامكان الان ، بعد أن عثرنا أخيرا على وقفية أحمد باشا ، أن نطرح بعض المعطيات الجديدة عن تطور دمشق العمراني في منتصف القرن السادس عشر . ومع هذه الوقفية المكتشفة لدينا حالة أخرى تؤكد مدى أهمية الوقفيات ، والوثائق الوقفية بشكل عام ، في التعرف على التاريخ العمراني والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة خلال الحكم العثماني<sup>(٦)</sup> .

### الواقف - الوالي أحمد باشا :

ينحدر الواقف من أسرة اسفنديار العريقة التي كانت تحكم واحدة من الامارات التركية في الأناضول ( قسطنطيني ) التي ضمتها اليها الدولة العثمانية بالتدريج ، مع



ان هناك من ينسبه الى أصل عربي قديم ينتهي الى خالد بن الوليد (٧) . وبعبارة أخرى كان الواقف من بقايا النبالة التركية القديمة التي اندثرت بالتدريج خلال القرنين ١٥-١٦ مع تشكل نخبة حاكمة جديدة من أبناء الدفثرمة (٨) . وقد التحق منذ طفولته بخدمة السلطان سليم الاول ( ١٥١٢ - ١٥٢٠ ) حيث تدرج في المناصب من أوجي باشي وبلوك آغاسي الى ان أصبح آغا السباهية ، وتولى في عهد السلطان سليمان القانوني ( ١٥٢٠ - ١٥٦٦ ) عدة ولايات في الشام والاناضول والرومللي ، وأصبح وزيرا ومصاحبا للسلطان سليم الثاني ( ١٥٦٦ - ١٥٧٤ ) مستشارا ومصاحبا للسلطان مراد الثالث ( ١٥٧٤ - ١٥٩٥ ) ، الى أن توفي في سنة ٩٨٨ هـ ( تبدأ في ١٧ شباط ١٥٨٠ م ) ودفن في اسكدار باستنبول في جوار الجامع والمدرسة اللذين بناهما هناك . وخلال هذه السنوات اشتهر أحمد باشا كشاعر مجيد وخاصة بديوانه « عنوان السعادة » ، كما يقال بأنه قد ترجم شعرا كتاب « الوقاية في فقه الامام الاعظم ابي حنيفة » من العربية الى التركية (٩) . وقد اتخذ أحمد باشا على عادة الشعراء الاتراك في ذلك الوقت لقباً شعرياً هو « شمسي » ، ولذلك فقد أصبح اسمه يرد مركباً « أحمد شمسي باشا » لتمييزه عن الولاة الآخرين الذين حكموا دمشق وحملوا الاسم ذاته - أحمد باشا (١٠) .

وفيما يتعلق بولايته على الشام لدينا اختلاف في المصادر حول السنة التي جاء بها الى دمشق والفترة التي قضاها في الولاية. فالمؤرخ الدمشقي المعاصر البوريني لم يحدد في ترجمته السنة التي وصل فيها الى دمشق إلا أنه اكتفى بالقول أنه « طالت مدته بدمشق » (١١) . وبعد حوالي قرن من الزمن نجد محمد بن جمعة المقار يذكر في مؤلفه « الباشات والقضاة بدمشق المحمية » ان أحمد باشا تولى سنة ٩٥٩ هـ ( تبدأ في ٢٩ كانون الاول ١٥٥١ م ) بعد الوالي محمد باشا وبقي فيها أربع سنوات ، وبالتحديد حتى سنة ٩٦٢ هـ ( تبدأ في ٢٦ تشرين الثاني ١٥٥٤ م ) حين جاءها الوالي الجديد خضر باشا (١٢) . أما في « سالنامة ولاية سورية » الصادرة في ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م فيضطرب الوضع نظراً لأن فترة الوالي محمد باشا المذكور تمتد خلال ٩٥٨ - ٩٦٢ هـ ، وفترة الوالي أحمد باشا تستمر خلال ٩٦٢ - ٩٦٨ هـ وتحدد بدقة ( ٦ سنوات وشهران و٢٤ يوماً ) ، بينما تقتصر فترة الوالي اللاحق خضر باشا على سنة واحدة ٩٦٨ - ٩٦٩ هـ (١٣) . وبعد عدة سنوات من صدور السالنامة نجد أن المؤرخ محمد ثريا في كتابه المرجعي « سجل عثماني » الصادر في سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥ م يحدد الفترة التي قضاها أحمد باشا في ولاية الشام خلال ٩٥٨ - ٩٦٢ هـ (١٤) ، وهي ما سنأخذ بها هنا .

ومن بين هؤلاء ينفرد البوريني المعاصر بتقديم بعض المعطيات المهمة عن السنوات



التي قضاها أحمد باشا في دمشق . وهكذا بعد أن يبرز مكانته الشعرية بكونه « من محاسن شعراء الروم ، وله ديوان شعر مشهور بينهم يتداولونه ويحفظونه » يذكر أنه « جاء الى دمشق وسار في الناس سيرة حسنة ، وكان كريم الطباع ، قليل الضرر ، كثير النفع للرعايا والاتباع » ، حتى يصل به القول الى أنه كان من الذين يفتخر بهم الزمان (١٥) . ومن ناحية أخرى يشير البوريني الى ما بناه أحمد باشا قبالة قلعة دمشق ( الخانقاه ) حيث يعتبر ذلك « من محاسن دمشق الجديدة » ، دون تفاصيل أخرى عن تلك المنشأة (١٦) .

### الوقف - منشآت أحمد باشا :

على عادة الولاة الكبار في القرن السادس عشر أنشأ أحمد باشا وقفاً ضخماً في دمشق تتضمن منشآت دينية واقتصادية واجتماعية ، وفي الحقيقة لقد كان عصب الوقف يتمثل في المدرسة - الخانقاه التي بناها في الطرف الغربي لدمشق ، والتي الحق بها تكية لتقديم الوجبات المجانية ، لأجل تغطية مصاريف هذه المنشآت بنى أحمد باشا بالقرب منها خاناً كبيراً ( خان الجوخية ) وأنشأ سوقاً مهماً في الجوار ( سوق السيباهية - الأروام ) . ونظراً لأهمية هذه المنشآت في تطور دمشق العمراني فركز بالتفصيل كل واحدة منها :

### ١ - جامع ومدرسة و خانقاه وتكية الاحمدية :

تردد في المصادر المعاصرة ، وفي المراجع الحديثة التي تعتمد عليها تعابير مختلفة للإشارة الى ما بناه أحمد باشا في دمشق . وهكذا نجد أن البوريني المعاصر يتحدث عن « خانقاه » أحمد باشا (١٧) بينما ترد هذه لدى ابن كنان اللاحق باسم « الخانقاه الاحمدية » (١٨) ، ثم نجد بين الباحثين المتأخرين من بختزل ذلك باسم « جامع الاحمدية » (١٩) « ومدرسة أحمد باشا » (٢٠) « وتكية أحمد باشا » (٢١) الخ . وفي الحقيقة ان كل هذه التعابير تتعلق بأقسام لمنشأة واحدة . وفي هذه الحالة تمثل لنا الوقفية أفضل مصدر للتعرف على هذه المنشأة من الداخل ، وبالتحديد على الهدف الذي أقيمت له وحتى على التفاصيل العمرانية التي يندر أن نجدها في أي مصدر آخر . وهكذا بالاستناد الى الوقفية الملحقه يتضح أن المنشأة الضخمة التي أقامها أحمد باشا داخل السور الجنوبي لقلعة دمشق كانت تتألف من أربعة أقسام متباينة :

آ - « مسد » في الطرف الشمالي الشرقي « ينصلى فيه الأوقات الخمسة الصلوات المفروضة وسننها ، ويقام فيه الذكر والعبادات » .



ب - « مكتب للاولاد الواردين لتعلم القرآن » في الطرف الشمالي الغربي .

ج - خانقاه في الطرف الجنوبي تتألف من عشر حجرات بالاضافة الى خمس حجرات في الطرف الشمالي لـ « يسكن فيها الرجال الأفاقية المتجربين لطلب العلم الشريف على مذهب . . أبي حنيفة النعمان » .

د - « مطبخ » في الطرف الشرقي « يطبخ فيه الطعام ويفرق » على النازلين في الحجرات ( الخانقاه ) وعلى الفقراء الواردين .

ويلاحظ هنا أن الوقفية ، كآية وقفية ، تحفل بانتفاصيل التي تتعلق بتحديد الموقع أو بالحدود الاربع . وهكذا تحدد الوقفية موقع هذا البناء المتعدد الأغراض في « مدينة دمشق المحروسة داخل باب النصر ، بالقرب من المدرسة القجماسية ، تجاه القلعة المنصورة من جهة الغرب » ، كما تذكر لاحقاً الحدود الاربع له حيث يجاوره من جهة الشرق « دار أصلان بك » ، ومن جهة الجنوب « دار بيري جلبي وبيت أصلان بك المشار اليه » ، بينما يحده من جهة الشمال الطريق الافقي الفاصل بينه وبين القلعة ، وكذلك الامر من جهة الغرب . وفي الحقيقة ان هذه الجهة ( الغربية ) تهمنا بشكل خاص ، اذ يبدو أنه لم يكن فيها شيء يستحق الذكر في ذلك الوقت ، ولذلك اكتفت الوقفية بذكر « الطريق » . كما أن الوقفية حين حاولت تحديد الموقع لم تجد في الجوار معلماً يستحق الذكر سوى « المدرسة القجماسية » التي كانت تقع الى الشمال الغربي من البناء الذي اقامه أحمد باشا . وبعبارة اخرى ان هذا ينسجم مع تصور كارل ولتسينجر وكارل واتسينجر ( اللذان لم يطلعا على الوقفية بطبيعة الحال ) لسور دمشق في هذه النقطة حيث يبدو في المخطط الذي وضعاه لدمشق في ١٩١٧ هذا البناء المتعدد الأغراض في طريق دمشق الغربي المواجهة للقلعة ، حيث يمتد السور باتجاه الجنوب (٢٢) . ومما يؤكد ذلك ان الواقف قد اختار لاحقاً هذه الجهة ( الغربية ) لبناء السوق المهم ( سوق السباهية أو الاروام ) ، وهو ما جعل دمشق تمتد الآن باتجاه الغرب في هذه النقطة حتى تتوازي تقريباً مع نهاية القلعة باتجاه الغرب .

من ناحية اخرى تحفل الوقفية بتفاصيل اخرى تتعلق بالاقسام المختلفة لهذه المنشأة . فقد عين الواقف إماماً ومؤذناً وخطيباً وفراشاً للجامع المذكور ، كما عين معلماً ومعيداً للمدرسة المذكورة . أما فيما يتعلق بالخانقاه المؤلفة من خمس عشرة حجرة فيلاحظ أنها لم تكن من النوع الذي شاع في الازهان . فالوقفية تذكر بوضوح



ان الحجرات المذكورة معدة لاقامة الاشخاص الوافدين الى دمشق لدراسة الفقه الحنفي ، وان هؤلاء كان عليهم « الاجتماع في أوقات الصلاة بالمسجد المشار اليه أعلاه والصلاة به خلف الامام مع الجماعة . وتعلم العلم ( الفقه ) والأدب من الشيخ المشار إليه ، وطريق الذكر والعبادات وما يتقربون اليه الى الله تعالى » وفيما يتعلق بـ « التكية » تجدر الإشارة هنا الى أن هذا التعبير المحلي الدمشقي قد استعمله ابن طولون لأول مرة في وصف « العمارة » التي بناها السلطان سليم الاول في قرية الصالحية بجوار الجامع الذي انشأه هناك (٢٣) ، والتي كانت مفخرة حضارية للعثمانيين في المناطق التي حكموها (٢٤) . ففي كل مدينة أقيمت « عمارة » أو أكثر لتقديم الوجبات المجانية للطلاب والفقراء وأبناء السبيل ، حيث كانت تتألف الوجبة من رغيف وصحن من الشوربة وقطعة لحم حسب المقدار الذي يحدده الوقف (٢٥) . وفي هذه الحالة نجد أن الوقفية تحدد للتكية توزيع « رغيف خبز وقطعة لحم ومغرفة من الطعام » على العاملين فيها ( الطباخ وانبواب وغيرهم ) وعلى النازلين في « الخانقاه » وعلى « الفقراء الواردين » الى هذه التكية من سكان دمشق .

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه المنشأة العمرانية الجديدة التي اقامها أحمد باشا أصبحت تعتبر « من محاسن دمشق » منذ ذلك الوقت ، وذلك على حد تعبير المؤرخ المعاصر البوريني الذي رآها « على وضع لطيف » وخاصة بما تميزت به من « بركة عظيمة وبستان لطيف واقع في وسطها » (٢٦) . ومن المثير هنا أن البوريني كان أول من أطلق على هذه المنشأة المتعددة الاغراض اسم « الخانقاه » ، مع أنها ليست كذلك ، وتابعه في ذلك المؤرخ ابن كنان ( توفي ١١٥١هـ / ١٧٣٨ ) الذي أورد لها باسم « الخانقاه الاحمدية » (٢٧) . بينما أطلق المؤرخ المعاصر المحبي ( توفي ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م ) تعبير « التكية » تارة وتعبر « العمارة » تارة أخرى على هذه المنشأة (٢٨) . ويبدو أن الجامع المذكور في اطار هذه المنشأة العمرانية ، الذي أصبح يسمى « جامع الاحمدية » قد تعرض الى ترميم في ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م كما ذكر الباحثان الالمانيان ولستينجر وواتسينسجر اللذان زاراه في مطلع القرن العشرين ( ١٩١٧ ) (٢٩) . وقد أضاف الباحثان جملة تفيد أن هذا الجامع « قد تحول الى مطبخ عسكري خلال الحرب العالمية الاولى » (٣٠) ، ولعل هذا يشير الى « التكية » التي انشئت في الاصل ضمن هذه المنشأة والتي تشير اليها الوقفية بتعبير « المطبخ » . وفي ذلك الوقت ( ١٩٢٥ ) كان قد صدر بدمشق كتاب « خطط الشام » لمحمد كرد علي الذي تحدث فيه عن بعض « المدارس المندثرة » في دمشق كـ « مدرسة أحمد شمسي باشا » وغيرها (٣١) ، بينما كانت هذه المدرسة لا تزال قائمة ضمن المنشأة المذكورة . وهكذا فقد عاصر المدرسة في أيامها الاخيرة ( ١٩٤١ ) الباحث محمد أسعد طلس ، الذي وصفها بأنها « مدرسة عظيمة لها باب بقنطرة من الحجر الاسود والابيض ، مزخرفة على النمط التركي ،



ولكنها شوهت اليوم بالاصبغة « (٢٢) . وبالإضافة الى هذا فقد وجد طلس في « الخانقاه »  
عشرين غرفة للمجاورين ، بينما كان في الاصل خمس عشرة غرفة ، ولكنه لم يشر بشيء  
الى « التكية » . ومن المثير هنا أن هذه المنشأة التي تعود الى السنوات الاولى للحكم  
العثماني هدمت بعد عدة شهور ( ١٩٤٢ ) من زيارة طلس وتوثيقه لما رآه ، دون أي  
اعتبار لقيمتها الاثرية ، حيث أقامت دائرة الاوقاف جامعا عاديا لا يمت للأصل إلا  
بالاسم - « جامع الاحمدية » (٢٣) .

## ٢ - خان الجوخية ( خان الخياطين ) :

ان أي وقف خيري من هذا النوع يحتاج الى دخل دائم لتغطية النفقات المختلفة  
( مستحقات العاملين ، مستحضرات الوجبات المجانية اليومية ، الترميم الخ ) ، ولذلك  
فقد كان الواقف يلجأ عادة الى انشاء خانات وأسواق تؤمن باستثمارها الدخل الدائم  
لمثل هذا الوقف . وهكذا فقد عمد أحمد باشا أيضا الى انشاء خان عرف حينئذ باسم  
« خان الجوخ » أو « خان الجوخية » نظرا لموقعه فيما كان يعرف وقتئذ بـ « سوق  
الجوخ » (٢٤) ، بينما أصبح يعرف في نهاية العهد العثماني باسم « خان الخياطين »  
بعد أن تغير اسم السوق الى « سوق الخياطين » (٢٥) . ويتمتع هذا الخان ، الذي  
لا يزال موجودا ، بقيمة تاريخية اذ أنه أول خان عثماني بني في دمشق . وفيما يتعلق  
بهذا الخان تفيدنا الوقفية الملحقه بمعطيات جديدة عنه . وهكذا تشير الوقفية بوضوح  
الى أن هذا الخان ، القاسارية كما تسميه بالعرف الشائع عند الدمشقيين في ذلك  
الوقت ، كان يعرف في السابق بـ « العشر » ثم تعرض الى تجديد وتوسيع حتى  
أصبح يعرف بالواقف المسمى اليه وبانشائه . وتضيف الوقفية هنا التفاصيل المعمارية  
للخان كما أصبح عليه الان ، اذ أصبح يتألف من طابقين ، وبالتحديد من « أرضية  
مبلطة بالبلاط الاسود بوسطها بركة يجري اليها الماء من نهر القنوات » ، و « مخازن  
سفلية مستديرة بها بكل واحد منها باب خاص يفتح على ساحة القاسارية المذكورة  
وشباك حديد لطيف مطل الى أرض القاسارية » ، و « مخازن علوية مستديرة بها ..  
بكل واحد باب خاص وشباك لطيف بحديد » . وقد اهتم بهذا الخان خلال الستينات  
الباحث عبد القادر ربحاوي ، ضمن دراسته عن خانات دمشق ، ووثق لحسن الحظ  
الواجهة الحجرية الاصلية لهذا الخان بما في ذلك النقش المثبت على الباب الذي يحدد  
تاريخ بنائه سنة : ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢م (٢٦) .

## ٣ - سوق السبائية ( سوق الاروام ) :

بالمقارنة مع المجمع العمراني ( الجامع والمدرسة والخانقاه والتكية ) والخان  
الذين بنيا خلال وجود أحمد باشا في دمشق كوال على الشام ( ٩٥٨ - ٩٦٢ هـ /



١٥٥١ - ١٥٥٥ م ) ، نجد أن هذا المجمع التجاري المهم ( سوق السباهية أو سوق الاروام ) قد بني في وقت لاحق . فقد ضم هذا المجمع كملحق الى الوقفية التي بين أيدينا والتي تعود الى سنة ٩٨٣ هـ / ١٥٧٤ م ، أي في الوقت الذي كان فيه الواقف قد عاد الى استنبول ليستقر فيها بعد أن تنقل في أكثر من ولاية . وفي الحقيقة تعتبر الوقفية الملحقه مصدرا مهما لأنها تكشف عن عدة تفاصيل مهمة بالنسبة الى تطور هذه المساحة من دمشق ، بعد أن انتقلت منها « دار السعادة » الموروثة من العهد المملوكي وأصبحت تضم الآن دكاكين السوق الجديد ( السباهية ) الذي ستأخذ شكله الحالي ( الحميدية ) لاحقاً . وهكذا تمثل لنا الوقفية المصدر الوحيد الذي يسمح بما يتضمنه من تفاصيل مثيرة باعادة تصور هذا السوق الجديد . فقد كان هذا السوق أو المجمع التجاري على شكل مربع تتوسطه « ساحة سماوية لطيفة بها بحرة ماء مثمرة يجري إليها الماء من نهر بانياس » ، تمتد حولها « بالجهات الأربع حوانيت عدتها ثمانية وثلاثون حانوتا : وفي الجانب الشرقي سبعة عشر ، وفي الجانب الشرقي أربعة ، وفي الجانب الغربي ستة ، وفي الجانب الجنوبي عشرة . وبالإضافة الى ذلك فقد كان في الجانب الغربي مسجد و « مكان معد لطبخ القهوة » ، أي ما يمكن أن نعتبره أقدم مقهى معروف في دمشق (٣٧) . ومن ناحية أخرى تكشف لنا الوقفية عن وجود « طريق عام يشق السوق من الشرق الى الغرب » ويفصل معه الجانب الشمالي عن الجانب الجنوبي ، إلا أنه كانت له بوابة في كل طرف مما كان يحفظ للسوق وحدته .

ولا بد من الإشارة هنا الى أن الوقفية تشير بعض القضايا لدى تحديد انجهاث الأربع لهذا السوق ، فهي تذكر أن خندق القلعة كان يشكل الحد الشمالي ، أي أن الجانب الشمالي من هذا السوق ( ١٧ حانوت ) كان لا يفصله عن السور الغربي للقلعة إلا الخندق المشار إليه ، والذي توثق الوقفية وجوده حتى ذلك الحين . ومن ناحية أخرى تشير الوقفية الى السوق المجاور من الشرق ( سوق لا لا مصطفى باشا ) الذي كان قد بني في ذلك الوقت أيضا (٣٨) ، بينما يذكر أن الحد الغربي للسوق كان يتمثل في « الدخلة الآخذة الى ( المدرسة ) القجماسية » ، أي أن المدرسة القجماسية كانت توجد الى الغرب من السوق (٣٩) . وبالنسبة الى الحد الجنوبي لدينا معلومة تشير الى وجود خان آخر أنشأه وكيل الوقف « حضرة مولانا مثلاً آغا » ، ولا زال تنقصنا المعطيات عنه .

ومع أن الوقفية تنسب هذا السوق الى الواقف ، دون أن تسميه باسم معين ، إلا أنه في نهاية القرن السادس عشر كان قد اشتهر باسم « سوق الاسباهية » . وهكذا نجد أن وقفية سنان باشا الموثقة في سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م تشير الى تجديد سنان باشا للمسجد الموجود في « السوق المعروف بسبياهي بازراي » (٤٠) . وفي الوقت



نفسه نجد أن المؤلف الدمشقي المعاصر موسى الانصاري ( توفي بعد ٩٤٦هـ / ١٠٠٢م ) حين يتحدث عن أحمد باشا يذكر أنه « عمر السوق المعروف بسوق الاسباهية تجاه القلعة قبلها » (٤١) . ولكن في نهاية القرن اللاحق ( السابع عشر ) أخذ هذا السوق يحمل اسماً آخر - « سوق الاروام » . فقد ذكره بهذا الاسم ( سوق الاروام ) المحبي في معرض حديثه عن الوالي أحمد باشا (٤٢) .

ومن المثير أن المؤرخ الدمشقي ابن كنان كان قد ذكر في مسودته الاولى لـ « المواكب الاسلامية » التي أنجزها في سنة ١١٢٧ هـ / ١٧١٤م « باب النصر » ضمن حديثه عن أبواب دمشق ، بينما أضاف في النسخة المصححة التي أنجزها في ١١٥٢ هـ / ١٧٣٨ عبارة « باب سوق الاروام الآن » (٤٣) ، مما يوحي بشهرة السوق في ذلك الوقت ومما يؤكد ذلك أن البديري الحلاق قد ذكره أيضاً بهذا الاسم ( سوق الاروام ) في حوادث سنة ١١٦٥ هـ / ١٧٥١ (٤٤) . ومع هذا فقد بقيت المصادر خلال القرن الثامن عشر تشير أحيانا الى هذا السوق باسم مركب يجمع بين القديم والحديث « سوق السباهية والاروام » (٤٥) ، بينما تلاشى الاسم القديم وبقي الاسم الجديد للسوق خلال القرن التاسع عشر . وحين زاره الباحثان واتسينجر وولستينجر في اوائل القرن العشرين ( ١٩١٧ ) وجداه بسقف حديث العهد ، وفي حالة متهدمة الا انه مع ذلك كان يقوم بالخدمات (٤٦) . وقد أدخلت بعض التعديلات - الترميمات على هذا السوق بعد نهاية الحكم العثماني ، حيث تحول الى فرع لسوق الحميدية متخصص في بيع المفروشات والسجاد القديم كشأنه الآن (٤٧) .

### الوقفية :

تحتفظ المكتبة الوطنية في باريس بالوقفية الاصلية تحت رمز Supp. ar. No. 473 ولدينا الآن نسخة مصورة عنها في مركز الوثائق والمخطوطات للجامعة الاردنية (٤٨) . وتتضمن هذه الوقفية ١٥ ورقة مكتوبة بخط نسخي حسن القراءة ، ولكن تتضمن بعض الاخطاء النحوية والاملائية . وفي الواقع ان ما نورده هنا يمكن اعتباره الوقفية الثانية التي حررت ووثقت في سنة ٩٨٣هـ / ١٥٧٤م بعد ان اكتمل الوقف المذكور باضافة سوق السباهية - الاروام ، بينما كانت الوقفية الاولى قد حررت ووثقت في سنة ٩٦٤هـ / ١٥٥٦م كما يتضح منها .

وبالاضافة الى ما مر معنا من معطيات مهمة تتعلق بالمنشآت المذكورة تمدنا الوقفية بمعطيات أخرى تستحق التنويه هنا :



١ - كشف للعاملين في بعض المنشآت كالتكية مثلاً ، والاجور التي كانوا يتقاضونها ، مما يساعد على تصور المستوى المعيشي للسكان في دمشق خلال ذلك الوقت .

٢ - وصف دقيق لما كانت تشتمل عليه بعض المنشآت من أدوات وخدمات كالفرن الذي كان يقوم مقابل حمام الناصري والطاحون المجاور له .

٣ - ذكر لمجموعة من قضاة دمشق في ذلك الحين ممن يصعب أن نجد معطيات عنهم في المصادر الاخرى .

٤ - الكشف عن بعض المعالم المجاورة لدمشق التي كان يعتقد أنها « مثةثرة » ك « دير الباليسي » حيث تساعدنا هذه الوقفية على تحديد موقعه بشكل تقريبي .

### هوامش :

- |   |  |
|---|--|
| <p>(٤) حول هذه المنشآت انظر :<br/>صلاح الدين المنجد ، ولاية دمشق في العصر العثماني ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٦٤-٦٥ من المقدمة .<br/>Jean - Paul Pascual , Damas à la fin du XVI<sup>e</sup> siecle , Damas 1983 , pp. 16-19 .<br/>د. محمد م. الارناؤوط ، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر ، دمشق ١٩٩٣ ، ص ٥٦ - ٥٨ .<br/>Pascual , Damas , p. 107 .<br/>انظر على سبيل المثال كتاب باسكوال « دمشق في نهاية القرن ١٦ » الذي يعتمد على ثلاث وثائق ، وكتاب الارناؤوط « معطيات عن دمشق » الذي يعتمد على وثيقة واحدة .<br/>الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ج ١ ، دمشق ١٩٥٠ ، ص ١٨٨ .</p> | <p>(١) حول قافلة الحج الشامي وأهميتها بالنسبة لدمشق وبلاد الشام انظر :<br/>جان سوفاجيه ، دمشق الشام ، تعريب فؤاد افرام الستاني ، دمشق ١٩٨٩ ، ص ٩٩-١٠٢ .<br/>د. عبد الكريم رافق ، « قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني » ، دراسات تاريخية عدد ٦ ، دمشق ١٩٨١ ، ص ٥-٢٨ .<br/>Karl K. Barbir, Ottoman Rule in Damascus 1708 - 1758 . Princeton 1980, pp. 108 - 110 .</p> <p>(٢) للمزيد من التفاصيل حول هذه انظر :<br/>عبد القادر الريحاوي ، « التكية السليمية في الصالحية » ، الحوليات الاثرية مجلد ٨-٩ ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ ، ص ٦٧-٧٤ .</p> <p>(٣) حول هاتين المنشأتين انظر :<br/>عبد القادر الريحاوي ، « التكية والمدرسة السليمانتان بدمشق » ، الحوليات الاثرية السورية ، مجلد ٧ ج ١-٢ ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ - ١٣٤ .</p> <p>(٥) للمزيد من التفاصيل حول هذه انظر :<br/>عبد القادر الريحاوي ، « التكية السليمية في الصالحية » ، الحوليات الاثرية مجلد ٨-٩ ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ ، ص ٦٧-٧٤ .</p> <p>(٦) للمزيد من التفاصيل حول هذه انظر :<br/>عبد القادر الريحاوي ، « التكية والمدرسة السليمانتان بدمشق » ، الحوليات الاثرية السورية ، مجلد ٧ ج ١-٢ ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ - ١٣٤ .</p> <p>(٧) للمزيد من التفاصيل حول هذه انظر :<br/>عبد القادر الريحاوي ، « التكية والمدرسة السليمانتان بدمشق » ، الحوليات الاثرية السورية ، مجلد ٧ ج ١-٢ ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ - ١٣٤ .</p> |
|---|--|



- (٨) حول مفزى هذا التحول الذي حدث حينئذ في الدولة العثمانية انظر :  
د. محمد م. الارناؤوط ، دراسات ووثائق حول الدفترية ، اربد ١٩٩١ ، ص ٧-١١ .
- (٩) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج ١ ، ص ١٨٨ - ١٩٠ ، اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين من اسماء العارفين واثار المصنفين ، ج ٥ ، بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ١٤٨ ، محمد ثريا ، سجل عثماني ، جلد ٢ ، استنبول ١٣١١ ص ١٧٠
- (١٠) في القرن السادس عشر لوحده لدينا ثلاث ولاء في دمشق يحملون الاسم ذاته : احمد باشا الذي تولى منصبه في ٩٤٥ هـ / ١٥٣٧ ميلادي ، والثاني الحاج احمد باشا في ٩٧٨ هـ / ١٥٦٩ ميلادي ، والثالث احمد باشا ، صاحب الوقف . انظر المنجد ، ولاء دمشق . ص ١٦-١٣ .
- (١١) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج ١ ، ص ١٨٨ .
- (١٢) المنجد ، ولاء دمشق ، ص ١٤ .
- (١٣) سالنامه ولايت سورية ، اون التنجي دفعة ، شام شريف ١٣٠٣ هـ ، ص ٣٠-٣١ .
- (١٤) محمد ثريا ، سجل عثماني ، جلد ٣ ص ١٧٠ .
- (١٥) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج ١ ، ص ١٨٨ .
- (١٦) المصدر السابق ، ص ١٨٨-١٨٩ .
- (١٧) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .
- (١٨) محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي المواكب الاسلاميه في الممالك والمحاسن الشاميه تحقيق ودراسة د. حكمت اسماعيل ، ج ١ ، دمشق ١٩٩٢ ، ص ٣٤٧ .
- (١٩) اكرم حسن العلبي ، خطط دمشق ، دمشق ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ ، ص ٣٠٦ .
- (٢٠) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق (٢١) د. يوسف جميل نميسة ، مجتمع مدينة دمشق ١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ / ١٧٧٢ - ١٨٤٠ م ، ج ١ ، دمشق ١٩٨٦ ، ص ١٦٢ .
- (٢٢) كارل ولتسينجر - كارل واتسينجر ، الانار الاسلاميه في مدينة دمشق ، تعريف قاسم طوير ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ١٣٦ .
- (٢٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٩-٨٠ ، ٨٥ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد احمد دهمان ، ج ٢ دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ .
- (٢٤) E. Ca. « Imaret » , Enciklope - dija Jugoslavije, novo izdanje, Vol. 5, Zagreb 1988, s. 548 .
- (٢٥) Ibid ; Enciklopedija likovnih umetnosti, Vol. 2, Zagreb 1962, s. 674 ; K. Oto-Dorm, Islamska umetnost, Novi Sad 1971, s. 190
- (٢٦) البوريني ، تراجم الاعيان ، ج ١ ، ص ١٨٨ .
- (٢٧) ابن كنان ، المواكب الاسلاميه ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .
- (٢٨) المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، بيروت ١٩٦٦ ، ج ١ ، ص ١٨ ٢٠٩٤ .
- (٢٩) ولتسينجر - واتسينجر ، الانار الاسلاميه ، ص ١٣٦ .
- (٣٠) المصدر السابق .



العلبي ( ص ٤٨٠ ) بتثبيت التاريخ الهجري فقط .

(٣٧) لدينا قبل ذلك عند ابن طولون اشارات الى وجود « حوانيت للقهوة » ثم « بيوت للقهوة » ، كما كانت تسمى حينئذ ، خلال النصف الاول للقرن السادس عشر قبل ان تمنع القهوة وتطلق المقاهي في منتصف القرن ( ١٥٣ هـ / ١٥٤٦ م ) . وفي عهد الوالي لا مصطفى باشا ( ١٧١ - ١٧٦ هـ / ١٥٦٣ - ١٥٦٨ م ) سمح بشرب القهوة ثانية واخذت « بيوت القهوة » تفتح من جديد . وهنا لدينا أول مقهى محدد الموقع من هذه الفترة . للمزيد حول هذا انظر :

د. محمد م. الارناؤوط ، « بدايات انتشار القهوة والمقاهي في بلاد الشام الجنوبية » ، اليرموك عدد ٣٥ ، اربد ١٩٩٢ ، ص ٣٠-٣٣ ، الارناؤوط ، معطيات عن دمشق ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٣٨) من الواضح هنا ان هذا السوق الجديد بني في الفترة الفاصلة ما بين انجاز « خان الجوخية » وانشاء « سوق السباهية » ، أي خلال وجود الوالي لا مصطفى باشا في دمشق ( ١٧١ - ١٧٦ هـ / ١٥٦٣ - ١٥٦٨ م ) . للمزيد عن هذا السوق انظر التفاصيل الواردة في وقفيته :

كتاب وقف الوزير لا مصطفى باشا ، وقف على طبعه خليل مردم بك ، دمشق ١٩٢٥ ، ص ١٩-٢٠ .

(٣٩) بنى المدرسة القجماسية نائب الشام قجماس الاسحاقي خلال فترة وجوده في دمشق ٨٨٦-٨٩٢ هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨٦ م . ويذكر المؤرخ الدمشقي المعاصر النعيمي ( توفي ٩٧٨ هـ / ١٥٧٤ م ) ان موقعها كان « داخل باب النصر وباب السعادة » دون ان يضيف اية تفاصيل اخرى . وقد لحقها في السنة الاخيرة لوجودها ( ١٩١٦ ) الباحثان الالمانيان ولتسينجر

(٣١)(٣١) كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٩٩ .

(٣٢) يوسف بن عبد الهادي ، ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، تحقيق محمد اسعد طلس ، بيروت ١٩٤٣ ، ص ١٩١ من الدليل .

(٣٣) المصدر السابق .

(٣٤) يرد هذا الاسم عند ابن الهادي في نهاية العهد المملوكي باسم « سوق الجوخين » : يوسف بن عبد الهادي ، نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق ، تحقيق حبيب زيات ، المشرق مجلد ٣٧ ، بيروت ١٩٣٩ ، ص ٢٢ .

(٣٥) عبد القادر ربحاوي ، « خانات مدينة دمشق » ، الحوليات الاثرية العربية السورية مجلد ٢٥ ، ج ١-٢ ، دمشق ١٩٧٥ ، ص ٦١ . ومع ان الباحثين اللاحقين استفادوا من هذا البحث الرائد الا ان د. نعيمة ( ج ١ ، ص ١٧٩ ) يتحدث عن « خان الجوخ » و « خان الخباطين » كخانين مختلفين ، بينما يذكر العلبي ( ص ٤٨٠ ) الاسم الاول ( خان الجوخية ) والثاني ( خان الخباطين ) كاسمين لخان واحد الا انه يضيف « ويقال انه من بناء والي دمشق أحمد شمسي باشا » ، دون ان يسوق ما يدفعه الى هذا التشكيك .

(٣٦) انظر البحث المذكور في هامش ٣٥ . وتجدر الاشارة الى ان الباحثين الالمانيين ولسينجر و واتسينجر ( ص ١٦٠ ) كانا قد اشارا الى وجود هذا النقش ، ولكن دون ان يسجلا ما فيه من كتابة .

(٣٩) ومن المثير ان التاريخ الذي سجله الريحاوي من النقش ظهر كاملا في الهجري ( ٩٦٠ ) وناقصا في الميلادي ( ١٥٥ ) ، ولذلك فقد اجتهد الباحثون اللاحقون في تحديد التاريخ الذي بني فيه هذا الخان . وهكذا فقد ظهر تاريخ بناء الخان ١٥٥٠ م لدى د. نعيمة ( ج ١ ، ص ١٧٩ ) ، و ١١٥٢ م لدى طوير ( ص ١٦٠ ) وهو دون شك خطأ مطبعي ، بينما اكتفى



- وواتسينجر ، الا انها حددا موقعها الى  
الشمال الغربي من باب النصر في المربع  
C3 . وفيما بعد حدد الباحث ربحاوي  
موقعها الى الشرق من « دار السعادة » ،  
وبالتحديد ما بين المدرسة التي بناها احمد  
باشا و « سوق السباهية » ( الاروام ) ، بينما  
يتردد العلبي في تحديد موقع المدرسة ما بين  
« لصيق دار السعادة من الشرق تماما »  
وما بين البناء رقم ٤ في مربع D4 لدى  
ولتسينجر - واتسينجر . وعلى كل حال  
تأتي الان هذه الوقفة لتشير من جديد لغز  
المدرسة القجماسية :
- عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في  
تاريخ المدارس ، ج ١ ، بيروت ١٩٩٠ ، ص  
٤٣٤ ، ولتسينجر - واتسينجر ، الآثار  
الاسلامية ، ص ١١٢ ، عبد القادر الريحاوي ،  
« قصور الحكام في دمشق » ، الحوليات  
الاثرية العربية السورية مجلد ٢٢ ، ج ١-٢ ،  
ص ٧١ ( الخريطة ) ، العلبي ، خطط دمشق ،  
ص ٢٠٨ .
- (٤٠) الارناؤوط ، معطيات عن دمشق ، ص ٥٦-٥٧ .
- (٤١) الانصاري ، نزهة الخاطر ، ج ٢ ، ص ١٧٠-١٧١ .
- (٤٢) المحبي ، خلاصة الاثر ، ج ١ ، ص ١٨ .
- (٤٣) ابن كنان ، المواكب الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢١٢ .
- (٤٤) احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق  
اليومية ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ / ١٧٤١-١٧٦٢ م ،  
تنقيح محمد سعيد القاسمي وتحقيق د. احمد  
عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٦٨  
Pascual , Damas , p. 107 .
- (٤٦) ابن عبد الهادي ، ثمار المقاصد ، ص ١٩١  
- ١٩٢ من الدليل .
- (٤٧) د. قتيبة الشهابي ، دمشق تاريخ وصور ،  
دمشق ١٩٨٦ ، ص ٢٣٣ .
- (٤٨) الجامعة الاردنية - مركز الوثائق والمخطوطات ،  
رقم الفيلم ١٧٢ ، الرقم المتسلسل ١١١٩ .

\* \* \*



( وقفية احمد باشا )  
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ( هو ) مثير الواقف على بابه ثواباً جزيلاً ، ومنيل القاعد في ساحة أحبابه نيلاً جليلاً ، مجزي المتصدق ابتغاء وجه ربه الكريم جزاء حسناً جميلاً ، وأشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له إله ، قبل الصدقة من عباده وهو غني عنها ، وضاعف لهم ثوابها في الآخرة أحسن منها ، وأشهد ان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، سيد الأولين والآخرين وحبيبه وخليفه ، أعظم الزاهدين والمتصدقين ، بعثه الله تعالى أمراً بالبر والإيثار والصدقة والاحسان ، فتصدق صلى الله عليه وسلم بأرضه المختصة به صدقة مؤبدة على مر الزمان فعامل الخلق أجمعين باللين وحسن الخلق والرفق والشفقة ، ومات صلى الله عليه وسلم ولم يترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً سوى بغلته البيضاء وسلاحه وأرضه جعلها صدقة ، فصلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً دائماً الى يوم الدين ، وبعد ..

فلما كانت الصدقة من أعظم القربات وأجل الثوبات وأفضل العبادات ، وتذهب عن واقفها السيئات وتجلب له الحسنات ، خصوصاً صدقة الأوقاف المحبسة الجاري ثوابها لواقفها بعد موته وانقضاء أجله ، المكبت أجراها في صحائفه (١) بعد اندراس أثره وانقطاع عمله ، ووفق الله تعالى سعداء الدارين لاكتسابها سابقوا اليها وعلموا ان الدنيا فانية والآخرة باقية ، واجتهدوا عليها وقدموها بين أيديهم من خالص مالهم الحلال الطيب المصون لينالوا بها البر ويدخلوا في قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٧) . ولما كانت هذه المزية العظمى والدرجة العلية التي تتضاعف بها الخيرات وتنمى رغب في اجراء هذه الصدقة العظمى حضرة من خصه الله تعالى بالنفس القدسية ، والرئاسة (٢) الانسية ، المخدم الاعظم دستور أعظم الوزراء في العالم ، صاحب السيف والقلم ، سباق الغايات في نصب رايات السعادات ، البالغ في العدل أقصى النهايات ، ناطورة ديوان الوزارة ، عين أعيان الامارة ، اللائح (٤) في غرته انغراء لوائح (٥) السعادة الابدية ، الفائح (٦) في همته العليا روائح (٧) العناية السرمدية ، ممهد قواعد الملة الربانية ، مؤسس مباني الدولة السلطانية ، من علت رتبته مراتب الدنيا والدين ، سيد الاسلام ومرشد المسلمين ، الحفوف بعون الملك العلام ، أحمد باشا بولاية الشام (٨) لا زالت أعلام العدل في أيام دولته عالية ، وقيمة العلم في آثار رتبته غالية ، وأياديه على أهل الحق فائضة (٩) ، وأعادييه من بين الخلق غائضة (١٠) . وقد



استخار الله تعالى الذي لا يخيب مستخيره ، واستجار بحرم كرمه الذي لا يخاف مستخيره ، وأشهد على نفسه الزكية الكريمة الرضية المرضية ، حرسها الله تعالى من كل سوء ووقاها وصانها من الغير ، ورعاها في صحة ذاته الشريفة وسلامة حضرته العلية المنيفة ، أعلى الله تعالى شأنها ووالى برها واحسانها وقدرها على فعل الخير وأعانها ، انه وقف وحبس وسبل وتصدق تقربا الى ربه الكريم وتقديما بين يديه للقاء خالقه العظيم ، يوم يجزي الله تعالى المتصدقين ولا يضيع أجر العاملين ، بما هو في ملكه السعيد وبيده الكريمة وحيازته الشريفة المستقرة المستمرة الى حين هذا الوقف المبرور . ويشهد له بملك ذلك المستندات الشرعية الآتي ذكرها فيه : وذلك جميع المكان أرضا وعمارة الكائن (١١) ذلك باطن مدينة دمشق المحروسة داخل باب النصر (١٢) بالقرب من المدرسة القجماسية ، المجاور لدار المرحوم أرسلان بك المدعو أصلان من جهة الغرب ، تجاه القلعة المنصورة (١٣) من جهة القبلة ، المشتمل على ساحة سماوية كبيرة بوسطها بحرة مربعة كبيرة يجري اليها الماء والى بقية حقوق هذا المكان المذكور من نهر اتقنات (١٤) ، من الطالع الذي هو وراء قناة السبيل الكائنة (١٥) شرقي باب العدل قبلي الخندق ، بحق صحيح وشرعي واجب مستمر من فرض (١٦) مساحته خمسة أصابع وربيع ، مفروض ذلك بالجانب الشرقي من الجرن المركب على الطالع المذكور بحق شرعي .

وقبين شمالتين مرصعتين من ظاهرها ، كل واحدة منهما معقودة البناء على أربعة قناطر من حجارة البلقاء (١٧) ، منحوتة باولى منها وهي الشرقية محراب قبلي بواجهة من الحجارة البلقاء المنحوتة ، ومن حوله شباكين بحديد قبلين الى مصلى سماوي وهو مرتفع من جملة الساحة المذكورة . وبالقبة خرستانان (١٨) شرقي وغربي ، وثلاث شبابيك بحديد شمالية مظلة الى الطريق والى القلعة المزبورة بواجهة من حجارة البلقاء المنحوتة (١٩) . وبداخل القبة المذكورة أبراج من الخشب المدهون ، وباب غربي يتوصل منه الى الساحة المذكورة في دركاة (٢٠) لطيفة . وتشتمل القبة الثانية وهي الغربية على ثلاثة شبابيك بحديد بواجهة من حجارة (٢١) البلقاء المنحوتة ، مظلة الى الطريق والى القلعة المذكورة ، وخرستانين بواجهة من الخشب المدهون شرقي وغربي قبلي وباب يتوصل الى ساحة سماوية لطيفة بفسقية لطيفة يجري اليها الماء المذكور بحق شرعي وثلاث مرتفعات احداها تختص بالقبة المذكورة وباقيها تختص بالساحة الكبرى المذكورة وما اشتملت عليه . ولهذه (٢٢) القبة المذكورة باب خاص من جهة الغرب . وبالجدار الغربي من المرتفعات المذكورة طالع (٢٣) الماء الذي هو من حقوق ذاك . وما بين هاتين القبتين المذكورتين اعلاه خمسة حجر معقودة البناء بالحجارة واللات (٢٤) الجديدة والمؤن ، لكل واحدة منها باب خاص يفتح الى جهة القبلة وشباك لطيف بخشب مطل الى الساحة المذكورة والى بقية حقوقها . وبالجهة القبلية من



الساحة المذكورة اعلاه عشرة حجر قبلية معقودة البناء ، لكل واحدة منها باب خاص يفتح الى جهة الشمال وشباك لطيف بخشب مطل الى الساحة المذكورة اعلاه . وشرقي هذه الحجر العشرة المذكورة اعلاه دار لطيفة يدخل اليها من الساحة المذكورة في باب خاص من جهة الشرق ، معدة لسكن (٢٥) الامام الاتي ذكره فيه . وتشتمل هذه الدار المذكورة على ساحة سماوية لطيفة وبيتين ومطبخ ومرتفق وبئر ماء معين (٢٦) ومنافع ومرافق وحقوق شرعية . بالجانب الغربي من الحجر العشرة القبلية المذكورة اعلاه بيت معدة للحطب ، بداخلها (٢٧) بيت الكيلار ويدخل اليها من الساحة المذكورة من باب غربي ، ولذلك منافع ومرافق وحقوق شرعية . وللساحة المذكورة اعلاه باب غربي مقنطر بواجهة من الحجارة البيض المنحوتة يدخل منه الى الساحة المذكورة اعلاه والى بقية ما اشتملت عليه في دهليز ، عن يساره (٢٨) باب يدخل منه الى المرتفعين الذين هما من جملة المرتفعات الثلاثة المبنية غربي الساحة المذكورة اعلاه . ولذلك جميعه منافع ومرافق وحقوق شرعية وحدود اربعة : من القبلة دار بيري جلبي وتمامه بيد اربابه (٢٩) وبيت اصلان بك المشار اليه ، ومن الشرق دار اصلان بك المزبور ، ومن الشمال الطريق وفيه الباب الكبير الذي هو بالواجهة البلقائية (٣٠) المذكورة واليه شبابيك (٣١) الحديد المذكورة اعلاه ، ومن الغرب الطريق وفيه الباب الغربي المذكور اعلاه وباب المكتب المذكور اعلاه . ويشهد للواقف المومى اليه بجريان قرار أرض ذلك في ملكه بالابتياح الصحيح الشرعي من محمد جلبي ابن اصلان بك المذكور بالثمن الحال المقبوض حاله المستند بالبيع الصحيح الشرعي ، المؤرخ بثنائي عشر (٣٢) ذي القعدة الحرام من شهور سنة ثلاث وستين وتسعمائة الثابتة ، المحكوم فيه من قبل مفخر قضاة الاسلام اشرف ولاة الانام مولانا نجاتي بن سليمان الحنفي الحاكم خلافة بدمشق المحروسة (٣٣) ، ادام الله تعالى تأييده . ويشهد له أيضا بحق هذا المكان المذكور اعلاه من الماء المعين اعلاه ، المبين مقداره اعلاه وقدر ذلك خمسة أصابع وربيع على الوجه المشروح اعلاه ، المستند الشرعي المؤرخ برابع عشر شهر رمضان المعظم قدره من شهور سنة أربع وستين وتسعمائة الثابتة ، المحكوم من قبل مفخر الخلفاء المعتمدين مولانا محمد بن مراد الحنفي (٣٤) ، أيده الله تعالى ، المتصل ذلك ثبوتا وتنفيذا شرعيا آخر بمولانا وسيدنا الحاكم الذي سيشار اليه فيه ، أحسن الله تعالى اليه .

وجميع القاسارية المعروفة قديما بالعشر ، ويومئذ تعرف (٣٥) بالواقف المومى اليه (٣٦) دامت النعم عليه وبانشائه ، الكائنة باطن مدينة دمشق المحروسة بالصف الشرقي من سوق الجوخ ، والطوابق المستجدة البناء أرضا وعمارة ، والبعض من أرضها محتكر يأتي ذكره وبيانه فيه على حكم التفصيل الذي سيبين . وتشتمل هذه القاسارية المذكورة اعلاه على أرضية مبلطة بالبلاط الاسود ، بوسطها بركة يجري الماء اليها والى بقية حقوق القاسارية المذكورة من نهر القنوات بحق صحيح شرعي مستمر ،



واجب الجريان اليها دائما ابدا ما دام الماء جاريا في النهر المذكور اعلاه بالطريق الشرعي ، ومخازن سفلية مستديرة بها بكل واحد منها باب خاص يفتح الى ساحة القاسارية المذكورة وشباك حديد لطيف مطل الى ارض القاسارية المذكورة ومينطة (٣٧) من جهة الشرق ، ومخازن علوية مستديرة بها معقودة البناء جميعها بكل واحد منها باب خاص وشباك لطيف بحديد . ويعلو ذلك قبتان كبيرتان (٣٨) كل واحدة منها معقودة البناء على أربعة قناطر من الحجارة البيضاء المنحوتة . وبين القبتين اعلاه قنطرة من حجارة البلقاء (٣٩) ، ممتدة البناء قبله بشمال محمول البناء العلوي المذكور المطل الى ارض القاسارية المذكورة على احد عشر عضادة مبنية بالحجارة البيضاء المنحوتة ، وعمودين من الحجارة البيضاء من جهة الغرب ، وباب كبير غربي يواجهه من حجارة البلقاء المنحوتة (٤٠) يدخل منه الى القاسارية المذكورة في دركات بها سلمين من الحجارة يصعد منها الى المخازن العلوية المذكورة اعلاه . وعلى كل ركن من ركني الباب المذكور فسقية لطيفة من حجر ابيض ، يجري اليها من الماء المذكور وبحق شرعي . ولذلك جميعه منافع ومرافق وحقوق شرعية منتقلة (٤١) . وأرض تلك القاسارية (٤٢) المعروفة بالعرش التي حدها من القبلة قاسارية ابن مزلق المعروفة بالساعات وتماه من جهة الشرق القاسارية (٤٣) الخراب التي أضيفت الآن الى ذلك الاتي ذكر انتقالها فيه ، ومن الشرق الدار المعروفة بابن بكار وتماه المدخلة وفيها الباب الشرقي المسدود يومئذ ، ومن الشمال دار المرحوم القاضي تاج الدين ، ومن الغرب السوق المذكور اعلاه وفيه الباب الشرقي المذكور اعلاه .

(و) قطع (٤٤) الارض التي هي محتكرة وأضيفت (٤٥) الى القاسارية (٤٦) المذكورة اعلاه . منها قطعة وهي الخرابة التي حدها من القبلة الحوانيت وقف القويضي وتماه سوق الخواصين (٤٧) ، ومن الشرق الزقاق وفيه الباب الكبير والبابان كذلك اللذان كانا للمخزين فيها (٤٨) ، ومن الشمال بيد أربابه ، ومن الغرب قاسارية ابن المزلق جارية في استئجار الواقف المشار اليه للبناء والتعلي والبقاء والاحترام على الدوام ممن له ولاية ايجارها وقبض أجورها بالطريق الشرعي ، بمقتضى حجة شرعية مؤرخة بخامس عشر شهر شوال سنة اثنين وستين وتسعمائة . وقطعة أرض من جهة الشمال جارية في استئجاره أيضا للبناء والتعلي والبقاء والاحترام على الدوام ممن له ولاية ايجارها وقبض أجورها بالطريق الشرعي ، حدها من القبلة القاسارية الجديدة المذكورة اعلاه ، ومن الشرق وقف ابن المزلق ، ومن الشمال قيمها ، ومن الغرب القاسارية المذكورة وتماه قبة ايوان الدار المعروفة بوقف القاضي تاج الدين (٤٩) ، الشاهد بذلك الحجة الشرعية المؤرخة (٥٠) بعشري المحرم الحرام من شهور سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل فخر القضاة والنواب مولانا القاضي ابو اليسر محمد بن جريل الغرب المالكي الحاكم خلافة سابقا بدمشق المحروسة (٥١) .



ورؤس الجدر(٥٢) المشتمة على حوانيت من جملة حوانيت السوق المذكور المعروف بالخواصين من جهة الغرب ، الملاصق كذلك ذرعها قبله بشمال من باب القاسارية ستة عشر ذراعا ، جار ذلك أيضا في استئجار(٥٣) الواقف المومى اليه احسن الله اليه للبناء والتعلي والبقاء والاحترام ممن له ولاية وقبض أجوره بالطريق الشرعي بمقتضى الحجة اشريعية المؤرخة(٥٤) في ثامن عشر شهر شوال المبارك من شهور سنة اثنين وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل سيدنا القاضي أبو اليسر المالكي المشار اليه أعلاه .

وقطعة أرض من جهة الشمال حدها من القبلة القاسارية المذكورة ، ومن الشرق وقف ابن المزلق ، ومن الشمال قسيمها ، ومن الغرب القاسارية المذكورة ، جارية في استئجار(٥٥) الواقف المومى اليه للبناء والتعلي والبقاء والاحترام كما عين أعلاه ممن له ولاية ايجارها وقبض أجورها بالطريق الشرعي بمقتضى الحجة الشرعية المؤرخ بتاريخين، أولهما عشر المحرم من شهور سنة ثلاث وستين وتسعمائة وثانيها سابع عشر الشهر المذكور من السنة المذكورة ، الثابتة المحكوم فيها سيدنا القاضي ابو اليسر المالكي المشار اليه أعلاه .

وقطعة أرض من جهة الغرب ذرعها قبله بشمال ثمانية وعشرون ذراعا ، وشرقا بغرب ذراعتان ونصف ذراع من الحائط(٥٦) الشرقي ، منتقلة اليه بمقتضى الحجة الشرعي المؤرخة في مستهل ذي الحجة الحرام من شهور سنة اثنين وستين وتسعمائة، الثابت المحكوم فيها من قبل مفخرة القضاة والنواب مولانا محمود بن احمد الحنفي الحاكم خلافة سابقا(٥٧) بمحكمة الباب(٥٨) بدمشق المحروسة .

وقطعتين أرض من جهة الشرق حدهما من القبلة والشرق والشمال قسيمها بيد زيد الدين بن ابراهيم الحريري ، ومن الغرب وهو القاسارية المذكورة ، منتقلتين بالاستئجار(٥٩) الشرعي لحضرة الواقف المشار اليه دامت النعم عليه للبناء والتعلي، كما عين أعلاه من زين الدين المذكور أعلاه ، بمقتضى الحجة الشرعية المؤرخة برابع عشرين ذي الحجة الحرام من شهور سنة اثنين وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل سيدنا القاضي ابي اليسر المالكي المشار اليه أعلاه .

وقد ضمت هذه الاراضي المذكورة أعلاه وأضيفت الى القاسارية المذكورة أعلاه، واستقر ما بها من البناء المستجد من جملة حقوق هذه القاسارية المحدودة ، الموصوفة أعلاه بالطريق الشرعي .



وجميع عمارة الفرن الكائن ظاهر دمشق المحروسة تجاه حمام الناصري (٦٠) ، بالقرب من محلة تحت القلعة ، المشتمل على داخل به بيت نار وكوشة وأنزال ومعاجن بيت وبيت للرقيد ، وساحة سماوية بها بركة تجري الماء اليها من نهر بانياس (٦١) بحق شرعي واجب مستمر ، حده من القبلة ملك الحاج علي ، ومن الشرق الزقاق غير النافذ (٦٢) ، ومن الشمال الطريق وفيه الباب والشباك ، المنتقل ذلك الى ذلك الواقف المشار اليه بالبيع الشرعي من الشيخ عبد الرحمن بن يونس ، خادم المقصورة بالجامع الاموي ، بالثمن الحال المقبوض حالة البيع بمقتضى الحجة الشرعية المؤرخة بسادس عشرين شهر رجب من شهور سنة اثنين وستين وتسعمائة ، الثابت المحكوم فيها من قبل مولانا القاضي محمود بن احمد الحنفي المشار اليه اعلاه .

وجميع الطاحون المجاورة للفرن المذكور من جهة الغرب ، المشتملة على حجرين مطبقين لطحن الغلال وبيت بقنطرة به سلم حجارة يصعد منه الى طبقة منافع ومرافق وحقوق شرعي ، ويتوصل من بيت الطحن المذكور الى ساحة سماوية قبلية لطيفة جار فيها الماء من نهر بانياس والقنوات ، الذي منه دوران الحجرين المذكورين بحق صحيح شرعي واجب مستمر ، الساقط ذلك على فراشها . ويعلو المسقطين بها سقيفة علوية ولها منافع ومرافق وحقوق شرعية وحدود اربعة : من القبلة بيت الحاج (٦٣) علي بن مصطفى الرومي ، ومن الشرق الفرن المذكور ، ومن الشمال الطريق فيه الباب ، ومن الغرب بيت بالي جلبي كاتب المرج .

وجميع عمارة الطاحون المعروفة بالعراة ، لارض دير البالسي (٦٤) من غوطة دمشق المحروسة ، المشتمل على حجرين لطحن الغلال واسطبل ومنافع ومرافق وحقوق وحدود اربعة : من القبلة الطريق ، من الشرق النهر الخارج من تحتها وتمامه الطريق وفيه الباب ، ومن الشمال ارض دير البالسي المذكورة ، ومن الغرب نهر عقربا (٦٥) الساقط عليها الذي منه دوران حجرها ، المنتقلة هذه الطاحون المذكورة الى ملك الواقف المرمي اليه اعلاه بالبيع الشرعي من فخر الزعماء علي بك بن عبد الله بن عبد الله أحد الزعماء بدمشق المحروسة ، بالثمن الحال المقبوض بيده منه حالة البيع بمقتضى كتاب البائع (٦٦) الشرعي المتقدم التاريخ على تاريخه بحق ذلك كله وطرقه ومنافعه ومرافقه وأوصافه ، وبجميع ما اشتمل عليه من الحقوق الشرعية الداخلة فيه والخارجة عنه والمعرفة به المنسوبة اليه العلم الشرعي .

( قد وقف كل ذلك ) وقفا صحيحا شرعيا وايقافا صريحا مرعيا وصدقة جارية على الدوام لا ينقطع حكمها ولا يندر رسمها ، بل يستمر على ممر الشهور والاعوام .  
(و) انشأ الواقف المومى اليه ، تقبل الله تعالى منه بره وصدقته وأدام عزه ورفعته ،



وقفه هذا منجرا على ما يفصل ويتبين (٦٧) فيه . فاما القبة الشرقية التي بها المحراب المذكور اعلاه فانه جعلها مسجدا لله تعالى يصلى فيه الأوقات الخمس الصلوات المفروضة وسننها ، ويقام فيه الذكر والعبادات . والقبة الثانية ، وهي الغربية ، فانها جعلها مكتبا للاولاد الواردين لتعلم القرآن . والحجرات المذكورات ليسكن فيها من الرجال الافاقية المتجربين لطلب العلم الشريف على مذهب امام الأئمة وسراج هذه الامة الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه . والبيت الذي هو شرقي الساحة المذكورة اعلاه فانه جعلها تكية ومطبخا يطبخ فيه الطعام ويفرق على من يذكر فيه على ما سيشرح ويبين فيه . وباقي الاماكن المحدودة الموصوفة بالعالية جعلها وقفا صحيحا شرعيا يصرف ريعها ومتحصلها وأجورها ومنافعها وغلاتها على مصالح المسجد والتكية والمكتب المبين ذلك جميعه بأعلاه ، وعلى مصارفه الشرعية على ما يتبين (٦٨) فيه . وعين لها شيئا يكون اماما وناظرا على ذلك كله ، ومتوليا ، وكاتبا ، ومعلما يعلم القرآن بالمكتب المذكور ، وخليفة له ، ومؤذنا ، وقارئاً (٦٩) يقرأ ما تيسر قراءته على الكرسي بالمصحف الشريف بالمسجد المشار اليه بعد صلاة (٧٠) الظهر ، وطباخا ، وكيلارجيا (٧٠ب) ، وبوابا ، وشغالا ، ومستحفظا للزبادي والصحون يسمى جنقجي (٧١) ، وبازاره كيدن (٧٢) .

وشرط ان يبدأ من له النظر والتولية عليه بعمارة الموقف المعين أعلاه وترميمه واصلاحه وصلاحه ، وما فيه البقاء لعينة والمزيد لاجوره وغلاته ، ودفع ما على بعضه من الحكر لمستحقه . وما يفضل بعد ذلك يصرف في كل ستة دراهم عثمانية للشيخ الامام الناظر على ذلك ، ويصرف في كل يوم خمسة دراهم عثمانية للمتولي على ذلك ، ويصرف في كل يوم أربعة دراهم للشيخ المعلم بالمكتب المذكور ، ويصرف أيضا في كل يوم ثلاثة (٧٣) دراهم عثمانية للكاتب المذكور ، ويصرف في كل يوم درهما عثمانيان للقارئ على الكرسي المذكور ، ويصرف في كل يوم درهما عثمانيان للمؤذن ، ويصرف في كل يوم ثلاثة (٧٤) دراهم عثمانية للطباخ المذكور أعلاه ، ويصرف في كل يوم للكيلارحجي النقيب درهما عثمانيان ، ويصرف في كل يوم درهما عثمانيان للبواب الفراش ، ويصرف في كل يوم درهما عثمانيان للجنقجي وبازار كيدن ، ويصرف أيضا في كل يوم درهما عثمانيان للشغال .

ويصرف أيضا في كل يوم مبلغ أربعين درهما عثمانيا يشري منه بعشرين عثمانيا من اللحم الضان ، ويشري بعشرين درهما من الخبز الطيب من خبز الحنطة ، ويصرف في كل يوم عشرة دراهم (٧٥) عثمانية يشتري بها من الرز الطيب ويصرف أيضا في كل يوم ثمانية دراهم عثمانية يشتري بها من الحطب والملح والبصل وبقية ما يحتاج اليه الطعام الذي يطبخ بالمطبخ المذكور . ويصرف أيضا في كل يوم أربعة دراهم عثمانية



في ثمن شمع وحصر وقناديل . ويطبخ اللحم مع الارز في كل يوم بالمطبخ المذكور ، ويفرق منه كل يوم للشيخ الامام الناظر رغيبيان وقطعتان (٧٦) من اللحم ومغرفتان (٧٧) من الطعام ، وللمتولى على ذلك في كل يوم رغيغ وقطعة لحم ومغرفة طعام ، وللطباخ رغيغ وقطعة لحم ومغرفة طعام ، وللكيلارجي النقيب رغيغ وقطعة لحم ومغرفة طعام ، وللرباب الفرائش رغيغ وقطعة لحم ومغرفة طعام ، للجنقجي بازاره كيده رغيغ وقطعة لحم ومغرفة طعام . ويفرق ذلك في كل يوم بمعرفة الشيخ المشار اليه اعلاه . ولكل واحد من السكان بالحجرة المذكورة رغيغ وقطعة لحم ومغرفة من الطعام ، وما يفضل من الطعام المذكور يفرق على الفقراء الواردين الى المكان المذكور اعلاه .

وعلى سكان (٧٨) الحجرات المذكورة الاجتماع في اوقات الصلوة بالمسجد المشار اليه اعلاه والصلوة (٧٩) به خلف الامام مع الجماعة ، وتعلم العلم والادب من الشيخ المشار اليه وطريق الذكر والعبادات وما يتقربون به الى الله تعالى ، وقراءة ما تيسر من القرآن العظيم مع التكبير والتهليل والصلوة والسلام ، على خير الانام سيدنا محمد عليه الصلوة والسلام ، واهداء ذلك الى الحضرة الشريفة (٨٠) النبوية ، والى روح سيدي بلال الحبشي رضي الله عنه تعالى ، وفي صحائف (٨١) الواقف المومى اليه وامواته واموات المسلمين . وكل من حصل منه تكاسل وتقصر فيعزله الشيخ المشار اليه اعلاه وتقرير مكانه من هو في اهليته لذلك .

وعلى البواب المذكور ان يباشر فرش المسجد المذكور والمكتب ، وتنظيف ذلك وكنسه وسائر (٨٢) ما يحتاج اليه اسوة امثاله . وعلى الشغال المذكور ان يشعل في كل ليلة شمعتين عند المحرب ، واربعة قناديل بداخل المسجد المشار اليه ، وقنديلا بباب الحرم من داخله ، وقنديلا بالمرتفات المذكورة اعلاه . وعلى كل واحد من بقية ارباب الوظائف (٨٣) المذكورة اعلاه مباشرة وظيفة المعينة اعلاه في ذلك ، من غير تهاون ولا تكاسل ولا تقصر اسوة امثاله في مثل ذلك كما عين وبين فيه .

وما يفضل بعد ذلك جميعه من ريع الموقوف المذكور بعد المصاريف المعنية اعلاه على المشروح اعلاه يشتري به من ثياب الخام ويفصل ذلك قمصانا وترسل الى الحرم الشريف ، على الحال به افضل الصلوة واتم السلام ، صحبة أحد من الاتقياء المتوجه صحبة الركب الشريف الشامي ، يفرق ذلك على الفقراء المجاورين بالحرم الشريف المشار اليه اعلاه ، ويكتب بذلك حجة شرعية بترقة ذلك ويحضرها الى الناظر المشار اليه وهو مفخر العلماء والمدرسين مولانا مصلح الدين بن محمد بن الحنفي زيد فضله (٨٤) ، الذي قرره في ذلك مولانا الواقف المشار اليه اعلاه .



وقرر في التولية على ذلك فخر الصالحين حاجي علي بن مصطفى، وأن لا يتصرف في شيء من ذلك الا بمعرفة الناظر المشار اليه أعلاه. وعلى الناظر والمتولي المشار اليهما أعلاه تفقد المكان المذكور أعلاه، والتردد الى المسجد والمكتب والمطبخ المذكور أعلاه، والاشراف على ذلك وعلى بقية الاماكن المذكورة أعلاه، والنظر في أمر ذلك كله والقيام بمصالح ذلك ومصالح ما هو موقوف عليه، ومباشرتهما لسائر (٨٥) ما يحتاج ذلك اليه من غير تكاسل فيه ولا تقصير، والسعي في تحصيل غرض الواقف المومي اليه فيه بحيث ان يستمر احكام ذلك جارية على قواعد الشرعية والمناهج الصحيحة المرضية.

وأخرج الواقف المومي اليه، خلد الله نعم السعادة عليه وأقبل بوجهه الكريم اليه، وقفه هذا عن ملكه الصحيح، تقبل الله تعالى منه ذلك وأثابه عليه الجنة، وأبانه عن حيازته الشرعية ورفع عنه يد ملكه الكريمة، وجعله وقفا صحيحا شرعيا على الوجه أعلاه «فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم» (٨٦). وسلم للمتولي المشار اليه أعلاه أمر التسجيل فيه بعدما قرره في التولية عليه، فتسلمه منه تسلما حاويا لشرائط (٨٧) الشرعية المحررة المرضية، وثبت ذلك لدى الصدر العالي، عنبر السادة العظام الموالي، حسنة الايام والليالي، شيخ مشايخ الاسلام، الامام قطب دائرة الانام، حبر الامة، بحر السنة، مجمع الافتاء والارشاد، حجة الله على العباد، كاشف الدقائق (٨٨)، مبين الحقائق (٨٩)، سلطان علماء الشرق والصين، وارث علوم الانبياء والمرسلين، المحفوف بعناية الملك المعين، مولانا وسيدنا حسن افندي بن عبد المحسن القاضي بدمشق الشام (٩٠)، أمتع الله بوجوده الانام وأفاض عليه من جلايب الكرم والانعام، أعلى الله تعالى شأنه ورفع الى العليا مكانه، بشهادة شهوده آخره ثم بصريح اعترافه بذلك لديه ثبوتا شرعيا معتبرا مجردا مرعيا بطريقه الشرعي.

ثم بعد تمام ذلك ولزومه، واستقراره على الوجه المشروح ونفوذه، أراد الواقف المومي اليه - أحسن الله تعالى اليه - أن يرجع عن الوقف المشار اليه ويرده الى ملكه السعيد كما كان قبل الواقف عليه، متمسكا بعدم اللزوم فيه على قول امام الأئمة وسراج هذه الامة الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، رضي الله عنه تعالى وأرضاه وجعل الجنة مأواه (٩١)، فعارضه المتولي المزبور فيه ونازعه في ذلك بين يدي مولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه، أحسن الله تعالى اليه وأقبل بوجهه الكريم المتولي المشار اليه في ذلك بصحته ولزومه واستقراره على شروط وسائر أحكامه على قول الامامين (٩٢) الجليلين المعظمين المكرمين أبي يوسف ومحمد، رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما وجعل الجنة مثواهما. فنظر بينهما مولانا الحاكم المومي اليه، دامت النعم عليه، في ذلك كله نظرا أنيقا وتأمله تأملا شافيا حقيقيا، وكان نظره



السعيد الموفق السديد في محل النزاع ، وشاهد في جانب المتولى رحجانا قويا ، وأن العمل بالقول الصريح على قول الامامين السعدين أعلاه ، وتحرر صحة ذلك عنده واتضح ، وصح لديه لزوم هذا الوقف المبرور ، فحكم أيد الله تعالى أحكامه بموجب ما ثبت عنده من ذلك بصحة الوقف (٩٢) المشار اليه ولزومه ونفوذه ، والعمل بسائر (٩٤) أعماله وشروطه ، وسجله تسجيلا حاويا لسائر مقدماته ومسوغاته الرعية ، وأجاز ذلك وأمضاه وقضى (٩٥) به وارتضاه ، وألزم العمل بمقتضاه على قاعدة مذهبه الشريف ومعتقده الظاهر المنيف ، علما باذلا فيما هو فيه من ذلك ، حكما صحيحا شرعيا مرعيا مستوفيا لشرائطه (٩٦) الشرعية لا واجباته المحررة المرعية ، بعد ثبوت مقدماته وجميع مسوغاته وما يعتبر شرعا .

وجرى أو حرر في تاريخين أولهما في أوائل شهر رمضان المبارك سنة أربع وستين وتسعمائة ، وثانيهما ثامن عشر شوال من السنة المذكورة ، حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

هذا ما وجد بصورة أصل كتاب الوقف المنقولة باذن مولانا شاه محمد بن أيوب الحنفي (٩٧) حيثما وقع أعلاه الصورة المذكورة : « الذي قرأته أعلى (٩٨) هذه صورة ما وجد في السجل المحفوظ ، نقلت عن أصلها بلا زيادة ولا نقصان ، حرره الفقير شاه محمد بن أيوب المولى بدمشق المحمية خلافة عفى الله عنها ، وبإذن علامة الحاكم (٩٩) ختم على العادة وبإذني ذلك » وشهود الحال مكتتبه أسمائهم (١٠٠) بخط كاتب الصورة : فالاول شاكري جلبى بن اسحاق ، والثاني الحاج عبد القادر الترجمان والحاج حمزة ابن نصوح الترجمان وعامر جاوش بن اسحق ، وكاتب السجل محمد بن الزرعى وغيرهم من الحاضرين ، وذلك بعد تقديم الاذن الكريم العالي من قبل عين أعيان السادة ، المولى شيخ مشايخ الاسلام العلماء الاعلام ، مميز الحلال من الحرام ، خادم شريعة سيد الانام عليه افضل الصلاة (١٠١) وأتم السلام ، الحاكم (١٠٢) العادل ، الفاصل بين الحق والباطل ، المختص بمزيد عون عناية المعين ، مولانا محي الدين جلبى أفندي قاضى القضاة بدمشق الشام (١٠٣) ، الذي سيضع خطه الكريم بآخر هذه الصريح المبارك في نقل ذلك من الصورة المذكورة ، وثبوت المقابلة لديه بشهادة من سيضع خطه في هذا الصرح المبارك الثبوت الشرعي ، وصار معمولا به لصحته وموافقته للاصل المذكور واعتبار ما وجب شرعا .

ثم بعد تمام ذلك أشهد عليه الوكيل الشرعي (١٠٤) عن حضرة مولانا الواقف المومى (١٠٥) اليه ، خلدت السعادة عليه ، وهو قدوة الاكابر والاعاظم ، مستجمع جميع



المحامد والمكارم ، حضرة مولانا منلا آغا دام مجده ورفعته ، الثابت توكيله عنه في ذلك بشهادة مولانا محي جلبي بن علي ، وفخر الاكابر المعتبرين عين أعيان الجاوشية بالباب العالي ابراهيم بك بن البدر بن حسن الشهر نسبه الكريم بابن طالو ، وفخر الاكابر مستجمع المحامد مولانا عبد الجبار بن عمر الثبوت الشرعي ، اشهادا شرعيا بأنه الحق بوقفه المتقدم ذكره في هذا الصريح المسطور جميع السوق الكائن (١٠٦) باطن دمشق المحروسة بالقرب من مدرسة القجماسية المعروف بانشاء الواقف الموكل المومي اليه ، دامت النعم عليه ، المشتمل كاملة على ساحة سماوية لطيفة بها بحرة ماء مثمنة ، يجري اليها الماء من نهر بانياس بحق واجب معلوم ، وبالجانب الاربع حوانيت عدتها ثمانية وثلاثون دكانا : منها بالجانب القبلي عشرة حوانيت ، وبالجانب الشمالي سبعة عشر حانوتا ، وبالجانب الشرقي أربعة حوانيت ، وبه باب يتوصل منه الى أربعة طباق راکبة على الحوانيت الشرقية ولكل واحد منها منافع ومرافق وحقوق شرعية ، وبالجانب الشمالي ستة حوانيت وبه مكان معد لطبخ القهوة ذات منافع شرعية ، وبالجانب الغربي خزانة ذات منافع شرعية . ولكل من الحوانيت المذكورة فناء ، واغلاق ، ومنافع شرعية . وبالسوق المذكور مسجد لأجل اقامة الصلوات (١٠٧) الخمسة من جهة الغرب . ويفصل بين الحوانيت الشمالية والقبليّة طريق عام آخذ شرقا بغرب ، يتوصل منه الطريق السلطاني تجاه دار السعادة (١٠٨) ، ويفلق على ذلك بوابتان لكل منهما قوس من الحجارة البيض المنحوتة (١٠٩) . ويحصر ذلك جميعه من القبلة الخان الذي هو من انشاء الموكل المومي اليه خلدت السعادة عليه ، ومن الشرق السوق المعروف بانشاء حضرة (١١٠) مولانا مصطفى باشا ، يسر الله له من الخيرات ما يشاء ، وتمامه الطريق السلطاني المتقدم ذكره ، ومن الشمال الخندق ومن الغرب الدخلة الآخذة الى المدرسة القجماسية وتمامه الى الطريق الآخذ الى تكية الواقف المومي اليه ، خلدت السعادة عليه ، بحق ذلك وهو لذلك من الحقوق الشرعية الواجبة لذلك شرعا ، الحق كل ذلك الحاقا شرعيا وجعله وقفا شرعيا على مقتضى شرط وقف الموكل المومي اليه ، دامت النعم عليه ، في الحال والمال والتعذر والامكان . والنظر والاستحقاق بالطريق الشرعي .

وشرط الوكيل ايضا بالوكالة عن موكله المومي اليه ، خلدت النعم عليه ، ان يبدأ من له النظر في امر وقفه السابق وهذا اللاحق باصلاحه وصلاحه ، وما فيه النماء والمزيده لأجوره وغلاته . ومهما فضل بعد ذلك يصرف منه في ثمن ابطال خبز من خبز الحنطة ثلاثة قطع فضة ، وفي شراء رطلان لحم من اللحم الضأن خمسة قطع ، مضاف ذلك الى ما هو معين بالوقف السابق المحكي في هذا الصريح المزبور . وأن يصرف ايضا لشيخ الطعام في كل يوم قطعة واحدة زيادة على ما هو مقرر له بالوقف السابق المشروح فيه ، وللجاني في كل يوم قطعة فضة ، وللرباب عثماني زيادة عن ما مقرر لهما بوقفه



السابق المزبور . وما فضل بعد ذلك جميعه من ريع الموقوف المذكور ، بعد المصارف المشروحة فيه ، يشتري من ثياب الخام ريفصل مائة قميص وترسل الى الحرمين الشريفين على الحال ، بهما افضل الصلاة (١١١) والسلام ، لمكة المشرفة والمدينة المنورة (١١٢) صحبة أحد من الاتقياء المتوجه صحبة الركب الشريف الشامي ، ويفرق ذلك على الفقراء المجاورين ، وتكتب بذلك حجة شرعية ويحضرها الى المتولي على ذلك ، زيادة عن ما هو معين بوقفه السابق المشروح في هذا الصريح المزبور .

ثم بعد تمام ذلك كله ولزومه وابرامه (١١٣) على شرح ما فيه ، أراد وكيل الواقف (١١٤) المومى اليه أن يرجع عما وقفه محتجا بعدم اللزوم عندما أتم شروط الوقف المذكور على النسق المسطور والنمط المذكور ، وسلمه لفخر الاعيان الاعتباريين عمر جلبي الذي جعله شريكا في التولية الى أن يتم أمر التسجيل في هذا الوقف ، وفوضه اليه فقابلته المتولي بالامتناع عن رده اليه محتجا بلزومه على قول كثير العلماء عليهم رضوان خالق الارض والسماء ، فتنازعا وتخاصما حتى ترافعا في هذا الامر الى عين اعيان السادة الموائى ، سلطان العلماء المحققين ، برهان الفضلاء المدققين ، ينبوع الفضل واليقين ، وناصر ارباب الشريعة الفراء ، مظهر آيات الملة الحنفية البيضاء ، الذي بيده العقد والتنفيذ والامضاء ، وهو الحاكم الموقع بخطه بذيل هذا الصريح الشريف الميمون المستطاب ، لا زال باباً لأولي الالباب . فنظر حضرة مولانا وسيدنا الحاكم المومى اليه ، خلدت السعادة عليه ، في هذه المسألة (١١٥) المختلف فيها تأملا جزيلا . فلما كان جانب الوقف راجحا عنده على جانب الملك حكم - أدام الله احكامه - على وجه الوكيل بصحة الوقف الملحق على ما عين وبيت بلزومه على قول من جوز لهذا القدر من الشرائط (١١٦) من الائمة المجتهدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، عالما بالخلاف الجاري في مسألة (١١٧) الوقف بين أهل الاجتهاد الذين هم أشرف خواص العباد ، حكما صحيحا شرعيا جامعا لشرائطه (١١٨) المعتبرة اللازمة شرعا ، وحاوليا لضوابطه المهمة الواجبة اصلا وفرعا ، وسجله بتسجيل شرعي فصار الوقف المزبور وقفا لازما ، مسجلا متفقا عليه بلحوق حكم الحاكم المومى اليه ، بحيث لا يباع ولا يرهن ولا يبدل ولا يغير ، بل يجري على أصله المؤبد (١١٩) ويقام على شرطه المخلد ولا يحل لأحد ممن يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويعلم أنه الى ربه الكريم سائر (١٢٠) ، نقض هذا الوقف المزبور ، ومن بدله بعد ماسمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم ، واعتبار ذلك بعد ما وجب اعتباره شرعا .



د. محمد م. الارناؤوط .....

تحريراً في شهر من شهور سنة ثلاثة وثمانين

وتسعمائة ، حسبنا الله تعالى

ونعم الوكيل

مطابق لفرعه ممضي مختوم ، حرره الفقير أحمد الصديقي

القسام العسكري بمدينة الشام

عفى عنه

( الخاتم )

\* \* \*



## هوامش :

- (١) في الاصل : صحايفه .
- (٢) القرآن الكريم ، آل عمران ٩٢ .
- (٣) في الاصل : الرياسة .
- (٤) في الاصل : اللايح .
- (٥) في الاصل : لوايح .
- (٦) في الاصل : الفايح .
- (٧) في الاصل : روايح .
- (٨) في الاصل : شام .
- (٩) في الاصل : فايزة .
- (١٠) في الاصل : غايزة .
- (١١) في الاصل : الكاين .
- (١٢) أحد ابواب دمشق الحديثة ، فتحه الملك الناصر من الجهة الغربية للسور المحيط بدمشق القديمة ، ولا يزال يسمى باسمه الشارع الرئيسي المواجه لدخل سوق الحميدية : ابن كنان ، المواكب الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢١٢ ، صلاح الدين المتجد ، دمشق القديمة ( اسوارها ، أبراجها ، ابوابها ) ، دمشق ١٩٤٥ ، ص ٦١ .
- (١٣) المقصود هنا قلعة دمشق التي لا تزال قائمة في مكانها . حول هذه القلعة انظر : عبد القادر ريحاوي ، قلعة دمشق : تاريخها واثارها وفنونها المعمارية ، دمشق ١٩٧٩ .
- (١٤) أحد فروع نهر بردى السبعة الذي يتفرع عنه في الشادروان ، ويعتبر من أهم الفروع التي تروي مدينة دمشق بالمياه : د. صفوح خير ، مدينة دمشق - دراسة في جغرافية المدن ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
- (١٥) في الاصل : الكاينة .
- (١٦) في الاصل : حجارة بلقا ، وهي نسبة الى منطقة البلقاء المشهورة بحجارتها .
- (١٨) « الخرستان » أو « الخرستانة » في القاموس الدمشقي هي واحدة من خزائن المطبخ وتجمع على « خراستين » ، بينما تدل هنا عن المكان ( ستان ) الذي يأتي منه الفسوء ( الشمس ) .
- (١٩) في الاصل : الحجارة البلقاء المنحوتة .
- (٢٠) تعبير فارسي بمعنى السدة وهو مركب من « در » ( باب ) وكاه ( محل ) : السيد ادى شير ، معجم الالفاظ الفارسية العربية ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٦٢ .
- (٢١) في الاصل : الحجارة .
- (٢٢) في الاصل : ولهذا .
- (٢٣) الطالع في القاموس الدمشقي هو موزع الماء ، ويكون على شكل مربع حجري يوزع الماء الوارد اليه من أحد فروع بردى الى عدة اتجاهات : رضا مرتضى ، « تطور توزيع المياه في مدينة دمشق » ، الممران عدد ١٣ - ١٤ - ١٥ ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ٧١ - ١٨ .
- (٢٤) في « القاموس المحيط » يسرد من معاني « يلت » الخلط ، ولذلك قد تعني « اللات » الخليط الذي يستعمل ما بين الحجارة أو على الحجارة : الفيروز بادى ، القاموس المحيط ، ج ١ ، بيروت د.ت ، ص ١٦٢ .
- (٢٥) في الاصل : يسكن .
- (٢٦) في الاصل : معير .
- (٢٧) في الاصل : بداخله .
- (٢٨) في الاصل : عن يسره .
- (٢٩) هامش زائد .
- (٣٠) في الاصل : البلقاء .
- (٣١) في الاصل : النسابيك .
- (٣٢) في الاصل : العشر .



د. محمد م. الارناؤوط

ما يضاف من ملحقات وأبنية على الوقف  
الأصلي ويعطى صاحبه حقا خاصا : محمد  
ابو زهرة ، محاضرات في الوقف ، القاهرة  
١٩٧٢ ، ص ١١٠ - ١١١ .

- (٥٣) في الاصل : استيجار .  
(٥٤) في الاصل : المؤرخ .  
(٥٥) في الاصل : استيجار .  
(٥٦) في الاصل : الحايط .  
(٥٧) لم نعثر له على ترجمة .  
(٥٨) احدى محاكم دمشق الستة في العهد  
العثماني ، التي كانت الاهم نظرا لكونها مقر  
القاضي الحنفي ، حيث كانت تقع مقابل  
المدرسة النورية الكبرى ولذلك كانت  
تسمى احيانا بـ « محكمة النورية الكبرى » :  
A. K. Rafeq, The Province of  
Damascus 1723 - 1783, Beirut  
1966, p.  
(٥٩) في الاصل : الاستيجار .  
(٦٠) حمام الناصري البراني بني في منطقة  
السجقدار المجاورة للقلعة من قبل نائب  
النظام تنكر الناصري سنة ٧٢١هـ / ١٣٢٠م ،  
وجعله وقفا على جامعة . جدده حفيده صلاح  
الدين سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م . هدم سنة  
١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م :  
العلبي ، خطط دمشق .  
(٦١) احد فروع نهر بردى ، يتفرع عنه في الربوة  
ويمر من شارع النصر ليدخل في قلعة دمشق ،  
حيث يتفرع هناك بدوره الى عدة فروع :  
خير ، مدينة دمشق ، ص ١٠٠ - ١٠١ .  
(٦٢) في الاصل : الغير نافذ .  
(٦٣) في الاصل : بين حاج .  
(٦٤) اعتبر كرد علي دير الباسي من الديور  
المنذرة التي لم يعد لها ذكر في الكتب ،  
ولذلك تفيدنا هذه التوقية في تحديد تقريبي

- (٣٣) لم نعثر له على ترجمة .  
(٣٤) لم نعثر له على ترجمة .  
(٣٥) في الاصل : يعرف .  
(٣٦) في الاصل : مومي اليه .  
(٣٧) المنيطرة .  
(٣٨) في الاصل : قبتين كبيرتين .  
(٣٩) في الاصل : الحجارة البلقا .  
(٤٠) في الاصل : حجارة بلقا منحوتة .  
(٤١) في الاصل : المنتقل .  
(٤٢) في الاصل : ذلك .  
(٤٣) في الاصل : القاسرية .  
(٤٤) في الاصل : القطع الارض .  
(٤٥) في الاصل : واضيف .  
(٤٦) في الاصل : القسارية .  
(٤٧) من المؤكد انه كان احد فروع « سوق الجوخ »  
حيث لدينا في هذا السوق ما يسمى « خط  
الخواصين » . والخواصون هم الذين يطرزون  
الملابس بخيوط من الذهب : العلبي ، خطط  
دمشق ، ص ٤٣٨ .  
(٤٨) في الاصل : والباين كذا الذين كانا للمخزنين  
بها .  
(٤٩) في الاصل : التاج الدين .  
(٥٠) في الاصل : المؤرخ .  
(٥١) قد يكون لدينا هنا خطأ في النسخ ، اذ وجد  
في ذلك الوقت محمد بن أحمد المغربي المالكي  
الذي تتلمذ على الفقيه والقاضي المعروف  
بدمشق علاء الدين المالكي وناب عنه في القضاء  
بعد سفره شيخه : الغزي ، لطف السمر  
وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى  
من القرن الحادي عشر ، تحقيق محمود  
الشيخ ، ج ١ ، ص ٩٥ - ٩٨ .  
(٥٢) قد توحى للوهلة الاولى انها جمع جدار ،  
وربما تكون تحريفا في النسخ لـ « جدك » وهو



- له إذ يفترض ان يكون خارج باب توما على امتداد نهر عقربا : محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٥٨٥٧ .
- (٦٥) نهر عقربا او العقرباني ، نسبة الى قرية عقربا ، احد فروع نهر بردى ، وهو يتفرع عنه في ساحة المرجة ليسر بمحاذاة السور الشمالي لقلعة دمشق حتى يخرج من باب توما ليروي بعض بساتين الغوطة : خير ، مدينة دمشق ، ص ١٠٣
- (٦٦) في الاصل : البايح .
- (٦٧) في الاصل : وتبين .
- (٦٨) في الاصل : وتبين .
- (٦٩) في الاصل : وقارءا
- (٧٠) في الاصل : صلوة .
- (٧١) تعبير مركب يوناني - تركي ، اذ ان «الكيلار» من اصل يوناني وتعني غرفة المؤونة، والحقب بها « جي » التركية التي تتعلق بالمهنة. وقد استعمل حينئذ في الوقفيات تعبير اخر مركب ( كيلاردار ) بالمعنى ذاته : الارنساؤوط ، معطيات عن دمشق ، ص ١٩٢ .
- (٧١) جنقجي **çanakci** تتألف من « جنق » **çanak** أي الصحن و « جي » الدالة على المهنة ، وهي تعني ما أراده الواقف « المستحفظ على الصحن والزبادي » .
- (٧٢) بازاره كيدن **Pazara giden** تعني حرفيا « الذي يذهب الى السوق » ، ويراد بها هنا « المتسوق » أي الذي يكلف بشراء الحاجات الضرورية للوقف من السوق .
- (٧٣) في الاصل : ثلث .
- (٧٤) في الاصل : ثلث .
- (٧٥) في الاصل : عشر درهما .
- (٧٦) في الاصل : رغيفين وقطمتين .
- (٧٧) في الاصل : مفرقتين .
- (٧٨) في الاصل : السكان .
- (٧٩) في الاصل : الصلوة .
- (٨٠) في الاصل : الشريف .
- (٨١) في الاصل : صحايف .
- (٨٢) في الاصل : ساير .
- (٨٣) في الاصل : وظائف .
- (٨٤) لم نعثر له على ترجمة .
- (٨٥) في الاصل : لساير .
- (٨٦) القرآن الكريم ، سورة البقرة ١٨ .
- (٨٧) في الاصل : لشرابطة .
- (٨٨) في الاصل : الدقايق .
- (٨٩) في الاصل : الحقايق .
- (٩٠) لم نعثر له على ترجمة .
- (٩١) في الاصل : مأوية .
- (٩٢) في الاصل : امامين .
- (٩٣) في الاصل : الواقف .
- (٩٤) في الاصل : بساير .
- (٩٥) في الاصل : وقضا .
- (٩٦) في الاصل : لشرابطة .
- (٩٧) لم نعثر له على ترجمة .
- (٩٨) في الاصل : أعلا .
- (٩٩) في الاصل : للحاكم .
- (١٠٠) في الاصل : اسماهم .
- (١٠١) في الاصل : الصلوة .
- (١٠٢) في الاصل : للحاكم .



د. محمد م. الارناؤوط

- |                                  |  |
|----------------------------------|--|
| (١١١) في الاصل : الصلوة          | (١٠٣) لم نعثر له على ترجمة .   |
| (١١٢) في الاصل : المنور .        | (١٠٤) في الاصل : وكيل شرعي .   |
| (١١٣) في الاصل : وانبرامه .      | (١٠٥) في الاصل : مومي .  |
| (١١٤) في الاصل : الوكيل الواقف . | (١٠٦) في الاصل : الكاين .  |
| (١١٥) في الاصل : المسئلة .       | (١٠٧) في الاصل : الصلوة .  |
| (١١٦) في الاصل : الشرايط .       | (١٠٨) « دار السعادة » او دار الامارة التي كانت مقرا للنواب في العهد المملوكي وللولاة في مطلع العهد العثماني . للمزيد من التفاصيل انظر : ربحاوي ، قصور الحكام في دمشق ، ص ٦٠ - ٧٠ . |
| (١١٧) في الاصل : مسئلة           |  |
| (١١٨) في الاصل : لشرايطه .       |  |
| (١١٩) في الاصل : المؤيد .        | (١٠٩) في الاصل : نحيث .  |
| (١٢٠) في الاصل : ساير .          | (١١٠) في الاصل : حضرت .  |







## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي منيب الرافق على بابه ثواباً جزيلاً ومنيل القاء  
في ساحة احبابه نيله جليله وحجزاً للتصدق ابتغاء وجه  
ربه الكريم جزاء حسناً جميله واشهاداً لا اله الا الله  
وحد لا شريك له اله قبل الصدقة من عبادده وهو غني عنها  
وضاعف لهم ثوابها في الآخرة احسن منها واشهاداً  
سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله سيد  
الأولين والآخرين وحبيبه ونحيلة اعظم الزاهدين  
والمصدقين بعثة الله تعالى أمراً بالبر والايثار والصدقة  
والاحسان فتصدق صلى الله عليه وسلم بأرضه المختصة  
برصدقة مؤمنة على ممر الزمان فعامل الخلق جميعين باللين وحسن  
لخلق والرفق والشفقة ومات صلى الله عليه وسلم ولم يترك ديناً  
ولا دينها ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً سوى بغلة البضاء وسلاحه

الصفحة الأولى من الوقفية



Directeur de la Revue	Abdul Gani Ma' Al Bared Recteur de l' Université de Damas
Directeur de la Rédaction	Mouhammad Mouhaffel
Rédacteur en Chef Adjoint	Abdul Karim Ali

**Revue Historique éditée par le Comité de Rédaction de l' histoire Arabe :**

Dr. Abdul Gani Ma' Al Bared  
 Dr. Adel Awwa  
 Dr. Nour el-din Hatoum  
 Dr. Chaker Fahham  
 Dr. Mouhammad Kheir Fares  
 Dr. Hamed Khalil  
 Dr. Khairieh Quasmieh  
 Dr. Taib al Tizini  
 Dr. Soultan Mouhaissen  
 M. Mouhammad Mouhaffel  
 Dr. Souheil Zakkar  
 Dr. Moufid Al Abed  
 Dr. Faisal Abdulah  
 Dr. Ali Ahmad  
 M. Abdul Karim Ali



# دراسات تاريخية

## مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق

السنة السادسة عشرة، العددان ٥٢ و٥٤ تموز - كانون الاول - ١٩٩٥

للطلاب	للمؤسسات	للافراد	الاشتراكات
(١٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(٢٠٠) ل.س.	في القطر العربي السوري
	(٤٠) دولار امريكي	(٢٠) دولار امريكي	في الاقطار العربية
	(٦٠) دولار امريكي	(٣٠) دولار امريكي	في البلاد الاجنبية

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبديل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق  
المكاتيب: جامعة دمشق، هاتف / ٢٢٢٢٤٦١ /.



تصدرها وتشرف على تحريرها  
لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول

أ.د. عبد الغني ماء البارد  
رئيس جامعة دمشق

رئيس التحرير

أ. محمد محفل

مدير التحرير

أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والاشراف:

د. سهيل زكار	د. حامد خليل	د. عبد الغني ماء البارد
د. عيد مرعي	د. خيرية قاسمية	د. عادل العوا
د. فيصل عبد الله	د. طيب تيزيني	د. نور الدين حاطوم
د. علي احمد	د. سلطان محيسن	د. شاكر الفحام
أ. عبد الكريم علي	أ. محمد محفل	د. محمد خير فارس

تصميم الغلاف د. بشينة ابو الفضل



## شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص، وايضاح مآلفه الغموض، وتصحيح مآشوه وكشف الزيغ ان وقع، وكل مايمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترحا ورأي يساعد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

- أ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.
  - ب - ان لا يكون البحث منشورا من قبل.
  - ج - ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.
  - د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئيا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.
- وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة. ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:



#### أ - في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى):

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحت خط، عدد المجلدات أو الاجزاء، اسم المحقق ان وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

#### ب - في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملا، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملا، اسم المحرر او المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

#### ج - في المجلات:

اسم الباحث كاملا، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملا وتحت خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.  
ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية:

#### د - في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كاملا، عنوان المخطوط كاملا، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (أ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( )، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة \*. وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادر خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.



## **محتويات العدد**

**★ في تصنيف لغة إبلا**

**ف. فون زودن**

————— **ترجمة د. فاروق اسماعيل —————**

**★ طرز العمارة والبناء في الاردن وفلسطين**

**خلال الفترة الهلنستية**

————— **د. زيدون المحيسن —————**

**★ القضاة الاندلسيون والمغاربة**

**في بلاد الشام في عصر المماليك**

————— **د. ابراهيم زعرور —————**

**★ انتقال العلوم العربية من الشرق الى الغرب**

**وتأثيرها في أوروبا**

————— **د. علي دياب —————**



## ★ تاريخ الدراسات الادبية المقارنة في سورية

———— د. غسان بديع السيد ————

## ★ اشكالية [ اللفظ ] في النقوش والكتابات القديمة

———— محمد بهجت قبيسي ————

## القضاء في المغرب والاندلس منذ الفتح وحتى نهاية القرن التاسع الهجري

———— د. علي احمد ————

### تنويه:

● الآراء الواردة في المحلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها  
● ترتب الحقوق بوضع الاعتبارات الفنية



الى قرائنا الاعزاء:

يتزامن صدور العدد الثالث والخمسين من مجلة دراسات تاريخية التي تصدر بإشراف لجنة كتابة تاريخ العرب وذكرى العيد الفضي لقيام الحركة التصحيحية في القطر العربي السوري التي قامت بها جماهير شعبنا بقيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

ونحن نعلم ان من حق كل الشعوب ان تفخر بأمجادها وان تعتز بانجازاتها وشعب سورية العربية يؤكد للعالم ككل ان هذه الحركة المباركة شكلت نقطة انعطاف كبرى في التاريخ المعاصر ليس بالنسبة للقطر العربي السوري وحده وانما في التاريخ العربي وحتى العالمي ايضا من خلال تأثيرها وفعاليتها في مسيرة الاحداث وفي صنع القرارات.

وأهمية هذه الحركة تأتي بالدرجة الاولى من خلال حملها لرسالة الامة العربية تلك الرسالة الانسانية الحضارية التي حملها العرب عبر تاريخهم والتي تتمحور حول الحب والخير للانسان اينما وجد الانسان وايماناً من سورية بهذا الدور الحضاري. اخذت على عاتقها متابعة حمل رسالة الامة العربية رسالة الخير لشعبها ولشعوب العالم أجمع

وقد كرس لها السيد الرئيس حافظ الأسد كل امكانياته وأعطى لهذا الامر كل حياته سواء في الدفاع عن وطنه وأمتة أو في ترسيخ أسس السلام والعدل في العالم. فالسلم والحرب في فكر وسلوك القائد الأسد مكرسان لخدمة السلام والعدل، ونحن اذا نفقتم هذه المناسبة التاريخية المجيدة فاننا نوجه الى شعبنا العربي وإلى شعوب العالم بشكل عام وإلى قرائنا الاعزاء بشكل خاص بطاقة حب وتحية من سورية ومن شعب سورية ومن لجنة كتابة تاريخ العرب آمليين أن يتحقق السلام وأن تتوطد عرى الصداقة والتعاون بين الشعوب وأن يحقق المجتمع الانساني المزيد من التقدم والازدهار

رئيس لجنة كتابة التاريخ العرب  
الاستاذ الدكتور عبد الغني ماء البار  
رئيس جامعة دمشق







*[The page contains extremely faint, illegible markings and bleed-through from the reverse side.]*

# فد تظنيف

## لغة إلام







## في تصنيف لغة إبلا ف.فون زودن\*

ترجمة: د. فاروق إسماعيل  
جامعة حلب

لم يُتفق بَعْدُ بشكل تام على وجود أسرة لغوية خاصة هي «السامية الشمالية» ضمن إطار فصيلة «اللغات السامية».

لقد كان ب.لندس برجر B.LANDBERGER - قبل ستين عاماً - أول من رأى أننا لانستطيع تقسيم أسماء الأعلام السامية التي كانت شائعة في العهد البابلي القديم إلى أسماء أكديّة وأمورية - أو حسب اصطلاحه كنعانية شرقية - فحسب. وقد أظهر رأيه هذا تأثيراً واضحاً في كتاب ت.باور TH.Bauer المعنون بـ «الكنعانيون الشرقيون» (١).

لقد عرض الكتاب المذكور (ص ٤٢ وما بعدها) مجموعتين من الأسماء الكنعانية الشرقية التي يمكن أن تصنف في قسمها الأكبر كأسماء أكديّة وأمورية في آن واحد. وهي الأسماء المنتهية باللاحقة (أنوم) والمبينة بالتكرار نحو بوز بوز (م)، ديج ديج (م) وغيرهما. ولم يزعم آنذاك أن جميع أسماء تلك المجموعتين ذات أصل واحد.

بعد ذلك بزمن قصير أكد م.نوت (٢) M.Noth مع اختلاف في التفاصيل الجزئية - أن المرء يميز بين الأسماء السامية العائدة إلى الألف الثاني ق.م أكثر من مجموعتين مختلفتي الأصل. وقد استخدم آنذاك مصطلح «الآرامية الأولى» الذي تبناه فيما بعد ليفي Lewy J ولامجال هنا لمناقشته وأكتفي بالإشارة والتوجيه إلى دراسة د.واذرارد D.O.EDZRD «ماري والأراميون» (٣).

لقد طرحت كثير من الأسئلة الجديدة عندما اتضح وجود أسماء كثيرة أقدم تعود إلى العهد الأكدي القديم. ونحن مدينون بالشكر لـ ي.جلب I.J.Gelb لجمعه إياها في كتابه «مسرد اللغة الأكديّة القديمة» (٤).



لقد بينت الدراسة الأولية لكتابه هذا أننا لانستطيع بأي شكل من الأشكال عدّ جميع الأسماء السامية العائدة إلى العهد الأكدي وعهد سلالة أور الثالثة أسماء أكديّة، بل يجب النظر إلى كثير منها على أنها شواهد لغة سامية أخرى.

لقد أشرت إلى ذلك في مقالتي «حول تصنيف اللغات السامية» (٥)، وبينت اعتراضى على تحديد ثلاث أسر لغوية فقط ضمن اللغات السامية، واقترحت تسمية الأسرة اللغوية التي أضفتها بـ (الأمورية القديمة)، لكنى تراجع عن اقتراحي ذاك فيما بعد لأنه شاع مع الزمن إطلاق تسمية (الأمورية) على اللغة الكنعانية المبكرة العائدة إلى عهد حمورابي (٧).

إننى أفضل تسمية (الكنعانية المبكرة) على (الأمورية) أو (الكنعانية الشرقية)، لأنها تعبر بوضوح أكثر عن حقيقة انتماء هذه اللغة. ولكن ذلك - كما يبدو - لايلقى قبولا.

لقد اقترحت تسمية (السامية الشمالية) للأسرة اللغوية السامية الثانية التي ظهرت في الألف الثالث ق.م - لأول مرة - في دراستي حول اسم الإله (يهوه) (٧)، ولكن ليس المهم في الأمر هو تسمية المجموعة لغوية؛ وإنما التساؤل المطروح: هل من الضروري حقاً تحديد لغة أو أسرة لغوية سامية أخرى بين لغات الشرق الأدنى القديم؟

لايمكن تقديم إجابة مفصلة تسلط الضوء على جميع جوانب المسألة إلا في دراسة تفصيلية معمقة. ولكن يمكن - ضمن إطار هذه الندوة - تقديم تقرير قصير يبين بعض النقاط الأساسية بإيجاز.

في البدء، تجب الإشارة باختصار شديد إلى الصعوبات المرتبطة بمصطلح «أسرة لغوية» لأنه لا يوجد على حد علمي تحديد تام له.

لقد قسمت المجموعات اللغوية الأساسية الكبرى كالسامية والهندو جرمانية منذ زمن بعيد إلى أسر لغوية، ولكن اكتشاف لغات مجهولة ميته في هذا القرن دفع إلى التفكير بوجود أسر لغوية أخرى وإلى ضرورة التفكير بوجود أسر لغوية أخرى وإلى ضرورة التفكير بتصنيف عام جديد. وقد استغرق الاتفاق على أسر لغوية جديدة كـ (اللغات الحثية) زمناً طويلاً.

ثمة تساؤل تردّد ويجب أن يستمر هو: ماهي الحالات التي تتطلب بالضرورة تحديد أسرة لغوية جديدة للغة ما حديثة الاكتشاف؟

إن صعوبات الأمر قليلة جداً فيما يتعلق باللغات الهندو جرمانية لأنها وفيرة العدد ومنتشرة جغرافياً بشكل أوسع ومتمايزة عن بعضها بوضوح. ولكن كيف وعلام نعتمد في تحديد أسرة لغوية جديدة من اللغات السامية؟ هل تكفي الفروق الكبيرة بين صيغ الضمائر أو أنماط بناء الاسم أو صيغ الجمع أو البناء الفعلي أو التصريف؟ وأية أهمية نوليها للثروة اللغوية المعجمية؟ وهل لها حقاً أهمية قليلة بسبب كثرة الكلمات المستعارة منها إلى اللغات المجاورة بشكل خاص؟

أخشى ألا نصل إلى الاتفاق على جواب محدد على هذه التساؤلات؛ ولا سيما إذا كانت



النصوص المتوافرة لاتسمح بإنجاز دراسة نحوية مفصلة ومعجم شامل يجمع القسم الأكبر من الثروة اللغوية. وعندها ربما يكون من واجب المرء الاكتفاء بمجرد طرح آراء ذرائعية واقعية.

قبل أن تدخل لغة إبلا دائرة معارفنا قبل سنوات كانت هناك — خلال المئة والثمانين سنة الأخيرة — على الأقل اثنتا عشرة لغة مختلفة معروفة إذا صح تعدادي لها — مكتشفة ضمن الإطار الجغرافي المحصور بين فلسطين وإيران، وتعود تاريخياً إلى ما قبل العهد الهلنستي. لقد بقيت تلك اللغات قروناً كثيرة ميتة مجهولة تماماً للغرب والشرق على السواء، وهي لغات مدونة غالباً بالكتابة المسمارية. ونشير إلى أن تلك اللغات الاثنتي عشرة لا تشمل لهجات كثيرة — ولا سيما الأكديّة — وتتطلب بعضها دراسات استنتاجية جديدة لها.

خلال هذا الزمن الطويل استطاع العلم أن يجني تجارب متنوعة عدة من دراسة لغات أمكن إعادة فهمها وإحيائها رغم عدم تواصلها مع تراث لغوي حي. وهي تجارب مختلفة؛ فقد لقي بعضها النجاح وأخرى النجاح الجزئي، وأخفقت بعضها. وفي جميع الحالات تطلب الأمر ربطها مع لغات معروفة جيداً، مستخدمة أو غير مستخدمة، وذلك لإيجاد مدخل لفهمها.

لقد تجلّى مراراً أن الاستفادة من اللغات المعروفة لم تقُد بالضرورة إلى معرفة صحيحة كثيرة. بل أدت أحياناً إلى أخطاء لم تميز بسرعة. وغالباً ما ميزت بشكل خاص وأبعدت عنها بسرعة التفسيرات الدلالية الخاطئة للكلمات. وغالباً ما لاحظ المرء بشكل متأخر أن الفروق بين اللغات المستخدمة أكبر مما هو ظاهر ولا سيما إذا كان ذلك متعلقاً بلغات من فصيلة واحدة ولكن من أسرتين مختلفتين مثل الأكديّة والعبريّة أو الحثيّة واللاتينية، هنا يجب علينا الابتعاد عن ذكر الأمثلة لأنها تحتاج عادة إلى شروح. ولكن ماذا تعني هذه التصورات بالنسبة للغة إبلا التي ستطول الدراسات الأولية حول تصنيفها بالتأكيد سنوات أخرى؟

ما أقصده هو أن بعض التجارب ذات الأساليب الخاطئة التي جرت عند تصنيف لغات مسمارية أخرى يجب أن تدفعنا إلى التحذير من السرعة في ضم لغة إبلا إلى أسرة لغوية محددة من فصيلة (اللغات السامية). وهذا يعني — بشكل محدد — أنه يتوجب علينا ألا نحدد الآن انتماء لغة إبلا إلى الأسرة الشمالية الغربية وقربها الشديد من اللغة الكنعانية، كما يفعل ج. بيتيناتو G. Pettinato معتمداً على رأي ج. جاربيني G. Garbini الوارد في الصفحة (٦٤) من كتابه عن إبلا، رغم وجود مظاهر لغوية وفيرة قد تدفع إلى ذلك.

وسيكون أيضاً من مخاطر التقدير المتسرع غير المحكم للمظاهر اللغوية إذا ما اعتمدنا على سمات لغوية أخرى، وصنفنا بسرعة لغة إبلا في أسرة اللغات السامية الشمالية الشرقية، وعددناها شكلاً من أشكال الأكديّة الغربية.

وإذا ما حاولنا تفسير كلمات لغة إبلا فيمكن لنا الاستعانة بالمعجم العبري، ولكن من ناحية ثانية قد يكون المعجم الأكدي أيضاً مصدراً مفيداً لا غبار عليه. أما إذا تحاشينا الآن تصنيف



لغة إبلا على أنها سامية شمالية غربية أو سامية شمالية شرقية فإننا نربح بذلك المسافة النقدية الضرورية تجاه جميع معاجم اللغات السامية الأخرى. إنه من الممكن لنا بل الواجب علينا أن نستفيد منها جميعها، ولكن بدون مجازفة تقود إلى التأثير بإحداها دون تروّ وتمحيص.

معلقة هذه التصورات المنهجية مع التساؤل المطروح: هل وجدت أسرة لغوية سامية شمالية إلى جانب الأسر اللغوية السامية المعروفة؟

أنا أقصد من ذلك الكثير، لأن مسألة نسب لغة إبلا إلى الأسرة السامية الشمالية يجب أن تعرض للنقاش مادمننا نفكر في مواجهة تصنيفها في الأسرة الشمالية الغربية أو الشمالية الشرقية.

سيبرز بالتأكيد مباشرة الاعتراض التالي: ألا تسري التصورات التي اعتمدناها في إنكار وصف لغة إبلا بـ (الكنعانية الأولى؛ أو (الأكدية الغربية) أيضاً ضد تصنيفها في أسرة اللغات السامية الشمالية؟ وصحيح أنها قد لا تسري بعد بقوة، ولكن السبب في ذلك هو أن السامية الشمالية - بالنسبة لنا - مازالت ذات مساحة واسعة غير محددة الأطر! إنني إذ أرحب بهذا الاعتراض أذكر أمرين أساسيين متعلقين به، هما:

١- إن احتمال ألا تشكل لغة إبلا مع لغة الأسماء العائدة إلى الألف الثالث وبداية الثاني ق.م المسماة مبدئياً بالسامية الشمالية أسرة لغوية واحدة احتمال قائم. ولكنه في الوقت نفسه ليس مرجحاً وجود أسرة لغوية رابعة - إلى جانب الأسر الثلاث التي أشرنا إليها - في الإطار الجغرافي نفسه وفي الفترة التاريخية نفسها تقريباً.

٢- لا يوجد حتى الآن معجم لغوي أو مسرد ألفاظ يضم جميع الأسماء (الشمالية الغربية) يمكن أن يحثنا على الإسراع في عملية تحديد معاني مفردات لغة إبلا بالاستفادة من تلك الأسماء.

إننا إذا ما أردنا صياغة منطلق عمل نظري - رغم كل الضوابط التي عرضناها - على نحو: «تشكل لغة إبلا مع لهجات لغة أو عدة لغات يمكن استخلاصها من أسماء ومفردات معينة وأساليب بنائية ضمن الأكدي المبكرة، وعلى الأرجح مع اللغة الأجرينية (الأوغاريتية) أسرة لغوية مستقلة ضمن اللغات السامية القديمة» فإننا لا نفعل بذلك شيئاً إطلاقاً، بل يمكن أن يضر بشكل جدي تصميمنا على معالجة أمر لغة إبلا.

لدينا تصور معين عن الفروع المتأخرة لهذه الأسرة اللغوية وكذلك عن الأجرينية، ولكننا لا نريد أن نستمد من الأجرينية نتائج عميقة واسعة تتصل باللغات السامية الشمالية الأقدم بكثير، لأنها (أي الأجرينية) تأثرت بالكنعانية في مجال البناء اللغوي والثروة المعجمية، وذلك بسبب العلاقات المتنوعة لسكان أجرت مع المجموعات الكنعانية. إنه ليس مستبعداً أن تكون لغة إبلا مرحلة لغوية مبكرة من الأجرينية، ولكن يجب - في اعتقادي - ألا يكون ذلك منطلقاً



للبحث.

لم أتفق أبداً مع رأي كثير من الباحثين في أن الأجرينية لغة كنعانية، فرغم الاشتراك في البناء اللغوي والثروة اللغوية هناك أيضاً اختلافات كثيرة جداً. وأود الإشارة هنا إلى أمر واحد يتعلق بالمعجم، وهو أن الأجرينية لا تستخدم لأداء معنى (يرى) المفردة الكنعانية (رأى) ولا الأكديّة (أمارم) ولا الآرامية (حزا)؛ وإنما فعلاً مختلفاً تماماً هو (فوه - بتشديد الفاء -). بالمقابل تجدر ملاحظة أن جميع اللغات السامية - على خلاف ما سبق - تتفق في امتلاك جذر لغوي واحد لفعل (يسمع) هو (ش م ع).

لقد قلت في البداية أن ت. باور قام قبل أكثر من خمسين عاماً في كتابه عن الكنعانيين الشرقيين بتحليل مجموعات من أسماء الأعلام في العهد البابلي القديم وهي أسماء لم يكن ممكناً تفسيرها بالإعتماد على اللغة الأكديّة ولا الكنعانية.

سأتعرض الآن إلى الأسماء المنتهية باللاحقة (آنوم) لأنها لافتة للنظر من بينها، وسنرى إلى أية درجة صار واقع المشكلة معقداً.

لنقارن قائمة باور وبعض مسارد الأسماء الواردة في المؤلفات التي تتضمن نشرًا لوثائق بابلية قديمة مع الأسماء المفهرسة في الجزء الثالث من كتاب جلب الذي يختصر بـ MAD (٨) - وهي أسماء تعود إلى العهد الأكدي وعهد سلالة أور الثالثة - والأسماء الواردة في نصوص إبلا حسب المصنف الذي نشره ج. بيتيناتو (٩)، وكذلك مع أسماء واردة في نصوص أجريت مماثلة في طريقة بنائها (١٠) وسوف نلاحظ بوضوح فروقاً كبيرة بينها من حيث كميتها العددية ونماذج بنائها (١١).

كانت تلك الأسماء مازالت قليلة في إبلا وبابل خلال العهد الأكدي، ولم تكن متنوعة في نماذجها، وغالباً ما كانت اللاحقة (آنوم) مسبوقة بجذر لغوي مكون من مقطع واحد. ولم أعثر على شواهد أخرى مماثلة تماماً لأسماء إبلا وبابل تلك.

في عهد سلالة أور الثالثة تزداد الأسماء المنتهية بـ (آنوم)، وتُظهر نماذج بناء متشابهة مع نماذج العهد البابلي القديم، وثمة عدد من تلك الأسماء نعرفها سابقاً في نصوص العهد الأكدي، نذكر منها على سبيل المثال (شرخانوم).

لقد كانت الجذور اللغوية المكونة من مقطع واحد والسابقة لللاحقة شائعة في عهد أور الثالثة، ولكن المكونة من مقطعين لم تكن نادرة أيضاً.

ومما يجدر ملاحظته - اعتماداً على كتاب جلب MAD - إن أغلبية الأسماء المنتهية باللاحقة (آنوم) هي أسماء أناس من الـ (مارتو)؛ أي غالباً أسماء أناس من سورية. لم أعثر على أسماء نساء تنتهي بـ (آنوم)، أي صيغة التأنيث من اللاحقة)، ولكنني لأريد أن أزعّم بذلك أنها لم تكن موجودة البتة.

توجد أيضاً أسماء أكديّة منتهية بـ (آنوم) مثل ققدانوم «أي: ذو الرأس الضخم»، ولكنها



ليست كثيرة العدد، أما التساؤل: كم من هذه الأسماء المنتهية بـ(آنوم) تحتل الأصل اللغوي الكنعاني؟ فما زال بحاجة إلى دراسة.

إذا ما تأمل المرء أسماء الأعلام في إبلا وفي بابل قبل العهد البابلي القديم بشكل عام فسوف يلاحظ - رغم عدم وجود دراسة مفصلة بعد - تنوع نماذج بنائها.

واعتماداً على ذلك ثمة افتراض يطرح نفسه ويتلخص في أن تلك الأسماء لا تمثل اللغة الأكديّة - التي تراجع استخدامها في إبلا - ولا لغة أو لغتين كنعانيتين مبكرتين أو لغة سامية شمالية معينة فحسب؛ وإنما تشير إلى تنوع لغوي كبير.

لقد تعرّضت اللغات السامية الشمالية لتبدلات عبر تعاقب القرون بدءاً من أواسط الألف الثالث ق. م، وامتازت إلى عدة لغات، ولا نستطيع التعمق أكثر في هذه المسألة قبل أن يتم نشر القسم الأكبر من نصوص إبلا.

في إبلا وبابل وكذلك في النصوص الآشورية القديمة، نجد أسماء كثيرة تبدأ بـ(إنّام، إنّوم)، وتكتب في إبلا بصيغة مقطعية (إن، نا) - حسب مصنف بيتيناتو المذكور في الحاشية (٩) - ولأنّ العنصر (إنّام، إنّوم) يبدو غريباً دخليّاً في الأكديّة فربما يكون مستعاراً من السامية الشمالية.

الأمر نفسه يسري على كلمة (مُشكينم) التي جرى حولها نقاش طويل. فالأصل فيها حسب الأساليب الكتابية الرمزية السومرية هو (مَشكاً إنوم)؛ أي أنها كانت مبنية بالسابقة (مَ) الدالة على الفاعلية والغربية على الأكديّة. أما الحكم بأن الفعل (شوكينوم) والأفعال الأخرى المصبوغة على وزن المتعدي بالشين، نحو: شوقلّوم «يعلّق»، شوبرروم «يوسّع»... إلخ (١٢) أفعال غير أكديّة الأصل فما زال بحاجة إلى دراسة.

ولكن إذا ما طرح التساؤل: هل يفيد لغة إبلا حقاً التسليم بأن مجموعات أسماء بابل وماري المشار إليها واللغة الأجرينية تشكل أسرة لغوية خاصة، يمكن للمرء أن يدعوها الآن (السامية الشمالية) أو غير ذلك؟ فأعتقد أنه لا يمكن تقديم جواب مرضٍ عنه في جمل قليلة.

إنني أقصد من ذلك الإشارة إلى أن الملاحظات النحوية التي عرضها ج. بيتيناتو في كتابه عن إبلا (ص ٦٧ وما بعدها) تظهر اختلافات واضحة بين لغة إبلا واللغتين الكنعانية والأكديّة في آن واحد، وتستدعي لذلك ضرورة تحديد أسرة لغوية خاصة بها.

لأود الحديث مبدئياً عن المظاهر الصوتية، لأن بعضاً منها مازالت غامضة بسبب عدم اطراد نظام الكتابة المسمارية وعدم معرفتنا الكافية ببعض القيم الصوتية الخاصة في لغة إبلا. أما فيما يتعلق بالصيغ النحوية فأرغب في ذكر الضمير (أَنْتَنْ) أي: أنتم... - ويلاحظ أنه يرد بنون بدل الميم على خلاف الصيغة العبرية أتم -.

إنه يرد بشكل متقابل لافت للنظر مع اللاحقة الضميرية الخاصة بالمتنّى (-كُما) (١٣) في رسالة من إبلا غير منشورة بعد (١٤).



أما أحرف الجر فنفتقد بينها عدداً من أحرف الجر السامية الغربية مثل (لِ، بِي، من)،  
ويجد مقابلها حروفاً أخرى معادلة محورة عن الأكديّة مثل: (ي نا ويقرؤها بيتيناتو: لي نا، إن،  
أَشْتُ أو أَشْتُ) . كما نجد صيغة (شين) المماثلة جزئياً لظرف الزمان في الأكديّة، وصيغة  
(إشكي) المشابهة للحرف الاثيوبي (إسك) بمعنى «حتى».

فيما يتعلق بالفعل نجد أن عدد الصيغ التي تأكد تفسيرها مازال قليلاً، وذلك بسبب كثرة  
استخدام الرموز السومرية بدلاً عن المقطعية. ومما يجدر ملاحظته هو أن القوائم المعجمية  
تستخدم صيغة المصدر الأكدي (أكالوم: يأكل)، كما ظهرت فيها شواهد على أفعال مصوغة في  
وزن المزيد بالشين والتاء (١٥).

ثمة ضرورة لإنجاز أبحاث خاصة ليست غريبة حول السابقة الفعلية (تـ...) التي تظهر في  
صيغ الغائب، لأنها ليست غريبة عن الأجرينية والعبرية. أما السابقة (يـ...) فكانت قد تطورت  
سابقاً إلى ياء ساكنة (يـ...) كما في الأكديّة. وبما أن الكنعانية احتفظت قروناً عدة بالصيغة  
المفتوحة (يـ...) فلا يمكن أن تكون لغة إبلا لغة سامية شمالية غربية.

تظهر القوائم المعجمية أن الكلمات الدالة على أكثر الأفعال والمفاهيم استعمالاً هي غالباً  
كلمات ليست أكديّة ولا كنعانية. أما الرسائل والوثائق والنصوص الأخرى فسوف تقلل  
بالتأكيد صعوبات الفهم الكثيرة التي نقابلها فيها إذا مالجأنا إلى الكنعانية والأكديّة في تفسير  
معاني مفرداتها.

وفي الختام أشير إلى أنني لم استطع في بحثي الموجز هذا تقديم أكثر من بعض الملاحظات  
التي يمكن أن تغني أعمال البحث التالية. وأود أخيراً الإشارة باختصار شديد إلى أنه لا يمكن  
مناقشة مسألة الأسر اللغوية ضمن (اللغات السامية) بعيداً عن التصورات التاريخية، كما  
سبق أن ألمحت عام ١٩٦٠ في دراسة لي (١٦) وفي مواضع أخرى. فمن الواجب التحقق من  
أصل مؤسسي مملكة إبلا، ألم يؤسسها ساميون يشكلون موجة بشرية ناطقة بـ(السامية  
الشمالية؟) أليسوا هم أنفسهم صاروا فيما بعد ذوي مكانة تاريخية متميزة في بلاد بابل،  
وأوجدوا الأسس الممهدة لقيام مملكة سرجون في أكد؟.

إضافة:

اعتماداً على عدد من الأبحاث التي ألقيت في الندوة؛ ولاسيما بحث ج. بيتيناتو حول القوائم  
ثنائية اللغة في إبلا ومعلوماته المثيرة حول الكلمات المترادفة وجدت نفسي — مع غيري — أعتقد  
بأن لغة إبلا من خلال نصوصها وصلتنا بلهجات عدة تظهر اختلافات لافتة للنظر؛ ولاسيما  
في مجال الضبط الصوتي ولفظ الأصوات الصغرى.

وقد قادني هذا إلى التفكير بأن كثرة استخدام الرموز السومرية في الكتابة — وهي مزعجة  
لنا، وكنا نتمنى بدلاً عنها استخدام الكتابة المقطعية — له أسباب مبررة على الأرجح. فتلك  
الرموز تستوعب الاختلافات اللهجوية، وتعين القارئ الابلائي على أن يقرأ أو يلفظ حسب



لهجته، ويبقى المعنى مفهوماً موحداً بين كل اللهجات. وهذه مفيدة إذا ما علمنا أن استخدام الكتابة المقطعية في لهجة ما، كالتى تستخدم أحياناً الضم في موضع الفتح، يمكن أن تعرض القارئ في البداية لصعوبات جمّة (١٧).

إن الافتراضات التى قدمناها هنا تحتاج إلى صياغة محددة دقيقة وربما إلى تصويبات. ولكن لا يمكن تحقيق ذلك ريثما تتوافر بين أيدينا بشكل مفصل جميع الكلمات المترادفة التى ظهرت في النصوص، وترتب حسب موضوعاتها ودلالاتها.

ومن اللافت للنظر أيضاً وجود أشكال كتابية متنوعة لأسماء الأعلام (الأشخاص والأماكن)، وفي الحقيقة لم يتح لي الوقت للاستفادة من كتاب جلب الضخم عن الأسماء الأمورية الصادرة مؤخراً (١٨).

\* \* \*



## الحواشي

\* المؤلف W.von Soden من شيوخ علماء اللغات الشرقية (السامية) القديمة، يبلغ من العمر / ٨٧ / مواليد / ١٩٠٨ / . أستاذ متقاعد في معهد الدراسات الشرقية القديمة بجامعة مونستر MUNSTER (ألمانية). له كتب وأبحاث كثيرة جداً في لغات الشرق القديم ولاسيما (المسمارية) وآدابه ومعتقداته الدينية. ألقى هذا البحث في ندوة عالمية حول لغة إبلا نظمت في نابولي بإيطالية (نيسان ١٩٨٠)، ثم نشر ضمن أعمال الندوة في .

L.Cagni (ed.):La lingua di Ebla. Naples 1981,pp.533-361.

والعنوان الأصلي للبحث هو: اللغات السامية الشمالية في بلاد بابل وسورية. (المترجم)

Th.Bauer: Die OSTKANAANAER. Leipzig 1926\_١

M.Noht:Die israelitischen Personennamen im Rahmen der gemeinsemitischen Namengebung. Stuttgart 1928

D.O. Edzard:Mari und ARAMAER?. ZA54(1964)142ff \_٢

I.J.Gelb:Glossary of Old Akkadian(Materials for the Assyrian Dictionary,No.3,Chicago 1957.

W.von Soden:Zur Einteilung der semitischen Sprachen. WZKM. 56(1960)177ff

٦- انظر بشكل خاص:

H.B.Huffmon:Amorite Personal Names in the Mari Texts. Baltimore 1965

W.von SODEN : JAHWE "Er ist,-V-

ER ERWEIST SICH".WO3(1966)177ff

٨- مختصر الكتاب المذكور في الحاشية / ٤ / . (المترجم).

G.Pettinato:Catalogo dei testi cuneiformi di Tell Mardikh-Ebla.Napoli 1979

Fr. Grondahl :Die Personennamen der Texte aus Ugarit. \_١٠ Roma 1967.

١١- لا يمكن تحديد عدد الأسماء الأكديّة القديمة الإبلائية المنتهية باللاحقة (آنوم) تحديداً تاماً، لأننا لانعرف بالضبط كيفية قراءة العلامة Lum في الأسماء المنتهية بها، فهي تقبل القراءتين Lum و num. ومما يزيد الأمر



صعوبة هو أن الكتابة المقطعية المفصلة لها (-Lu-um) أو (-nu-um) نادرة في تلك النصوص. فيما يتعلق بأسماء إبلا أيضاً فقد لاحظت أن بيتيناتو يقرأ العلامة دائماً Lum، ولكن توجد بينها أيضاً أسماء تنتهي بـ (-a-nu) أو (-an)، وهي على الغالب ليست سامية. أيضاً هناك شك في أسماء الأماكن المنتهية بـ (-a-nu) أو (a-Lum) أو (-an)، ولا يمكن الجزم بأنها سامية أو من أصل آخر.

١٢- انظر كتاب فون زودن الأساس في قواعد اللغة الأكديّة. ويختصر بـ GAG، الفقرة / ١٠٩ /.

١٣- كما في العربية تماماً (المترجم).

١٤- معلومة أخوية شفوية من ج. بيتيناتو.

١٥- انظر كتاب فون زودن GAG، الفقرة / ٩٤ /.

١٦- راجع. WZKM 56,183 ff.

١٧- قدم فون زودن بحثاً مفصلاً عن «القوائم ثنائية اللغة في إبلا وفي العهد البابلي القديم، في ندوة عالمية تالية حول (الثنائية في نصوص إبلا)، نابولي، نيسان ١٩٨٢، وقد نشر في

L.Cagi(ed):Il Bilinguismo a Ebla . pp. 51-64.

١٨- I.J.Gelb:Computer-Adid Analysis of Amorite. As 21,1980.



طرز العمارة والبناء  
في الأردن وفلسطين  
خلال الفترة الفارسية والفترة الهلنستية







# طرز العمارة والبناء في الأردن وفلسطين خلال الفترة الفارسية والفترة الهلنستية

الدكتور زيدون المحيسين  
أستاذ مشارك - جامعة آل البيت  
معهد العمارة والفنون المرق - الأردن

## مقدمة

تبدو المعلومات التاريخية المتعلقة بالفترة الفارسية ضئيلة مقارنة بالفترات الأخرى . وبالمقابل نجد الشواهد الأثرية من المواقع الممثلة لهذه الفترة متفاوتة في مرافقها المعمارية ، فالبعض يمثل مظهراً جيداً والآخر يعتريه كثير من التدمير ، والسبب في ذلك يعود إلى العوامل الطبيعية والبشرية .

جاء استعراض المواقع العائدة لهذه الفترة في الأردن محدوداً ، والمواقع الممثلة لها قليلة ، بعكس المواقع الفلسطينية ، التي أمكن تتبع العديد من العناصر المعمارية في كثير من المواقع ، وأمكن التوصل إلى مخطط عام يظهر المرافق المعمارية للفترة الفارسية . ومن خلال دراسة العناصر المعمارية يتضح بعض التقنيات المستخدمة في البناء ، سواء في المواقع الأردنية أو الفلسطينية ، والتي تظهر اتصالاً مع الساحل السوري والفينيقي من جهة ، والأصول السابقة من جهة أخرى .

أما في الفترة الهلنستية ، فإن المواقع الممثلة لهذه الفترة في الأردن ، جاءت محددة بسبب الاستيطان الذي طرأ على تلك المواقع ، في الفترات اللاحقة ، مما حال دون ابقائها على مخططها الأصلي ، ولكن ذلك لا يعني عدم الاستقرار في الأردن خلال هذه الفترة ، كما اعتقد البعض ولمدة طويلة ، إلى أن أظهرت الاكتشافات الجديدة أهمية تلك الفترة ، وخاصة التنقيبات الأثرية في مواقع عراق الأمير ، جرش ، طبقة فحل ، البصيلة وأم قيس .

---

دراسات تاريخية ، العددان ٥٢ / ٥٤ ، تموز - كانون الأول ١٩٩٥



## الفترة الفارسية

شهد الشرق الأدنى في منتصف القرن السادس قبل الميلاد تحولات سياسية جديدة ، نتيجة انتهاء السيطرة البابلية ، على يد الملك الفارسي ( كورش - CYRUS ) عام ٥٣٩ قبل الميلاد . (١) والذي أسس امبراطورية عظيمة ومترامية الاطراف ، امتدت من مرتفعات ايران . إلى حدود مصر التي ضمت فيما بعد إلى الامبراطورية عام ٥٢٥ قبل الميلاد على يد الملك قمبيز (٢) وادعى كورش بانه ملك العالم ، وملك بابل ، وسومر ، واكاد ، وملك الحواف الأربع للأرض (٣)

لقد تميز الحكم الفارسي بالتسامح ، واحترام التقاليد الدينية للشعوب المسيطر عليها بهدف كسب تأييدهم . (٤)

ولكن تجدر الإشارة بان العديد من اليهود ، قد فضلوا البقاء في بابل ، حيث تمتعوا بالحضارة هناك ، في حين اظهر اليهود المحليون عداءاً شديداً تجاه اليهود العائدين الذين اتهموا بانهم من دماء مختلطة (٥) .

وفي ما يتعلق بتاريخ الأردن وفلسطين في الفترة التي تلت سقوط الدولة البابلية ، وخصوصاً في الفترة الفارسية فهي ضئيلة (٦) رغم وجود المصادر الكلاسيكية المتعلقة بتاريخ المنطقة ، مثل اعمال هيرودوت وسترابو وديودوروس الصقلي ويوسفوس وبعض النقوش والكتابات من القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، ومن سفري ( نحemia - NEHEMIAH وعزرا EZRA ) (٧) .

وقد ضمت سورية والأردن ، وفلسطين إلى الامبراطورية الفارسية ، دون ابداء مقاومة بعد أخضاع الامبراطورية البابلية حيث لا توجد مصادر مكتوبة تذكر حدوث معارك في فلسطين ضد الفرس (٨) .

لقد اتبع الفرس النظام الاشوري والبابلي ، من الناحية الادارية ، في تقسيم المناطق إلى ولايات ( المرزبانية ) ولي عليها احد النبلاء من الفرس . وقسمت هذه الولايات إلى مقاطعات اصغر ، نصب عليها حاكم فارسي والبعض منها ولي عليها احد النبلاء المحليين (٩) فيذكر هيرودوت بان الامبراطورية قسمت إلى عشرين مقاطعة ، في عهد ( داريوس الأول ، DARIUS 1 ) الذي حكم من عام ٥٢٢ — ٤٨٦ قبل الميلاد (١٠) وكانت مقاطعة « خلف النهر » المقاطعة الخامسة في الامبراطورية ، وحدودها من البسيط في شمال سورية ، إلى حدود مصر ، ويقع ضمنها كل من الأردن وفلسطين (١١) .

لقد كشفت الحفريات الاثرية التي اجريت في العديد من مواقع هذه الفترة ، عن تدهور في الحياة العمرانية ، فاصبحت المدن تفتقر إلى التنظيم ، كما أن المباني العامة والتحصينات المتعلقة بالنظامين الاداري والعسكري قليلة حيث غلب الطابع الريفي على هذه المواقع (١٢) انتهت الفترة الفارسية عام ٣٣٢ قبل الميلاد بمجيء الاسكندر الأكبر ، الذي انهي السيطرة



السياسية الفارسية على المنطقة لتحل محلها السيطرة اليونانية وبدأ ما يعرف بالعصر الهلنستي ( ١٣ )

لقد دأب العديد من الآثاريين على دمج الفترة الفارسية ضمن العصر الحديدي ، فقد اطلق ( البرايت ALBRIGHT ) على الطبقة الممثلة لهذه الفترة ، في الطبقة الأولى في ( بيتيل BETHEL ) العصر ( الحديدي الثالث IRON III ) من عام ٥٥٠ — ٣٣٠ قبل الميلاد ( ١٤ ) في حين حددها ( رايت WRIGHT ) ضمن الفترة الزمنية ، الواقعة بين الاعوام ٥٣٩ — ٣٣٠ قبل الميلاد ، واطلق عليها اسم الدور الثالث ( الفارسي ) ، اما ( فردريك وفرانكن FREDERICQ AND FRANKEN ) فاتبعوا في دراسة الفخار التقسيم من عام ٥٣٩ — ٣٣١ قبل الميلاد ، وهو التقسيم الأكثر شيوعاً ( ١٥ )

### مواقع الفترة الفارسية :

#### أ) الاردن: ( خارطة رقم ١ )

انحصرت المواقع الفارسية في الاردن في عدد محدود من المواقع التي عثر فيها على بقايا معمارية واضحة ومكتملة. وبالرغم من تحديد عدد كبير منها ضمن المسوحات الاثرية، كتلك التي أجريت في وادي الاردن، مثل مواقع تل ابو كامل، وتل الصوان، وخربة المركع، وتل الحيات، وغيرها (١٦) وتمثلت المواقع الفارسية ضمن طبقات بعض المواقع غير المترافقة مع بقايا معمارية، والبعض الآخر وجدت ضمن المدافن، العائدة لهذه الفترة، مثل موقع المقابلين والتي أرخت الى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، (١٧) وتل المزار المقبرة A، وأم اذينة. (١٩).

يعتبر موقعا تل السعيدية الطبقة الثالثة (٢٠) وتل المزار الطبقة الثانية (٢١) من أفضل المواقع الفارسية المترافقة مع بقايا معمارية، بالإضافة إلى مواقع أخرى تمثلت البقايا المعمارية فيها بأجزاء محددة، مثل تل الخليفة بالقرب من خليج العقبة (٢٢) ودير علا الطبقة الرابعة والخامسة، (٢٣) ومواقع أخرى مثل عمان، وحسبان، وتل المغير، وطبقة فحل. ومن أبرز المواقع الاثرية التي تمثل الفترة الفارسية في الاردن:

#### ١- تل السعيدية:

تتمثل الفترة الفارسية في الموقع في الطبقة الثالثة التي تقع في الجزء العلوي من التل، حوالي ٢٠ متراً الى الشرق، حيث عثر في هذه البقعة على مبنى مربع يتألف من سبع غرف بنيت حول ساحة مبلطة. (٢٤) تخطيط المبنى مربع الشكل تقريباً، حيث يبلغ محوره الشمالي - الجنوبي ٢١,٩٥ متراً والمحور الشرقي الغربي ٢٢,٠٥ متراً. استخدم الطوب في بناء الجزء العلوي منه، باللونين الرمادي المخضر والبني، بقياس (٤٥×٤٥×١٤ سنتيمتراً) وتم استخدام الاخشاب لتطويق الجدران الطوبية عند المدخل، والجهة الداخلية من عتبة الباب الغربية. (٢٥)



يتكون المبنى في مخططه من الحجرات التالية : —

الغرفة — ١٥١ — : ساحة مستطيلة الشكل ، مبلطة بحجارة كبيرة ، ومتوسطة الحجم ، اصطفت بشكل منتظم ، وتم ملء المسافات بينها بالحجارة الصغيرة والحصى ، ويتم الدخول إلى الساحة عبر مدخلين ، الأول من الجهة الجنوبية ويؤدي إلى الساحة عبر الغرفة — ١٠٢ — ، والثاني عبر الغرفة — ١٠٩ — ، (٢٦) وتحتوي الساحة على قناة لتصريف المياه في الزاوية الجنوبية الشرقية ، وتمتد أسفل الأرضية عبر الغرفة — ١٠٩ — ، فالجدار الشرقي ، وتنتهي خارج البناء على بعد ٣١٥ متراً . وغطيت القناة بحجارة على نفس مستوى الحجارة التي تغطي أساسات الجدران الشرقية والغربية للغرفة — ١٠٩ — ( ٢٧ )

وتتميز جدران الساحة الغربية والشمالية والجنوبية بكونها متجانسة ، حيث بلغ سمك كل منهم حوالي ١,٢٥ متراً ، وبنيت بصفين ونصف من الطوب أما الجدار الجنوبي فتبلغ سماكته ١,٦ متراً ، وبنى من ثلاثة صفوف ونصف من الطوب ، وربما كان هذا الجدار لدعم المبنى العلوي في الجهة الجنوبية. (٢٨)

الغرفة — ١٠٢ — : المدخل الرئيسي لهذه الغرفة عبر الساحة في الجهة الشمالية ، وترتفع أرضية الساحة ١٤ سنتماً عن أرضية هذه الغرفة المبلطة بحجارة صغيرة ، ووجدت بالأرضية أربعة أفران طينية ، ويبدو أن هذه الغرفة كانت مسقوفة لعدم العثور على تصريف للمياه فيها أما الجدار البارز شمالاً في الزاوية الشرقية ، فربما يمثل جزءاً من بناء لبرج أو جداراً يقسم الغرفة إلى وحدة أخرى صغيرة (٢٩) .

الغرفة — ١٠٣ — : تمتاز هذه الغرفة بكونها مرصوفة جيداً ، وتلعب دور رواق يؤدي إلى الغرف والساحة الرئيسية ويفضي هذا الرواق إلى الغرفة — ١٠٤ — بمدخل بعرض أقل من الرواق نفسه . وتمثلت عتبة الباب بحجر اساس للجدار الرئيسي الشرقي — الغربي أما المدخل الثاني يفضي من الرواق إلى الغرفة — ١٠٢ — وعتبة هذا المدخل هي استمرارية للأرضية المرصوفة ، وأهم ما يميزه استخدام الأعمدة الخشبية . (٣٠) .

الغرفة — ١٠٤ — : يتم الدخول إليها عبر الغرفة — ١٠٣ — من الجهة الجنوبية ، وأرضيتها من الطين المضغوط ، ويحمل الجزء المتبقي من الجدار الشرقي للغرفة آثاراً للجبص ، وقد تعرضت الغرفة للتدمير نتيجة لحريق ، وجدت آثاره في الرماد والفحم ، وكذلك لون الجص الأسود ( ٣١ ) .

أما الغرفة — ١٠٥ — : فهي صغيرة الحجم ومستطيلة الشكل ، استخدمت الحجارة الكبيرة في تبليطها ويتم الدخول إليها عبر مدخل من الغرفة — ١٠٤ — وعثر في الجزء الشمالي — الشرقي من الغرفة على مخزن مخروطي الشكل ، شيد من الطين ، وتحتوي على بعض الكسر الفخارية وعظام الحيوانات والأصداف . ( ٣٢ ) وتحتوي هذه الغرفة كذلك على مدخل يفضي للغرفة — ١٠٦ — التي لم تبين ضمن المخطط الأصلي للبناء .



الغرفة — ١٠٧ — : غرفة طويلة وضيقة ، لها مدخل من الغرفة — ١٠٨ — عتبه من التراب المضغوط وكذلك أرضيتها أما الغرفة — ١٠٩ — فتحتوي على مدخلين ، الأول يؤدي إلى الغرفة — ١٠٨ — والثاني إلى الساحة — ١٠١ — أرضية الغرفة مبلطة بالحجارة ، باستثناء المساحة الملاصقة للجدار الغربي ، والأرجح أنها تمثل أساسات لدرج يؤدي إلى البرج في الجهة الجنوبية من الداخل ، ولكن هذا الرواق ضيق جداً لهذه الغاية فاعتقد بأنه يمثل مقعداً (٣٣) .

الغرفة — ١١٠ — : تقع في الجنوب الشرقي من المبنى ، وتم تقوية الجدار الجنوبي ببناء جدار بنفس السماكة من الداخل ، وتميزت الغرفة أيضاً باحتوائها على جدار جنوبي شمالي اعتقد بأن هذا يمثل برج يرتفع عن اجزاء البناء الأخرى ، يصعد إليه عن طريق درجات داخلية من الغرفة — ١٠٩ — ( ٣٤ )

#### وظيفة المبنى وتاريخه :

يبدو أن البناء الضخم قد صمم بهدف دفاعي ، لأن المدينة لم تكن محاطة بسور دفاعي ، فكان تصميم هذا المبنى كحماية ذاتية من أي هجوم ، أما نمط البناء حول ساحة مكشوفة ومحاطة بالغرف فيعرف باسم ( Open - court building ) الذي عرف في الفترة الفارسية بعدد من المواقع ، فاعتمد تاريخه على التشابه المعماري مع المواقع الأخرى ، وذلك لقلة المخلفات التي عثر عليها بداخله ، وبالمقابل اعتمد في تاريخه على المذبح الذي احتوى على كتابات آرامية مشابهة للخط السائد ، في القرن السادس — الرابع قبل الميلاد ، وهذا ما أكدته أيضاً العينات التي ارخت بطريقة ( الكربون المشع ١٤ C 14 ) ، واعطت نفس التاريخ مما يشير إلى أن البناء يعود إلى الفترة الفارسية . ( ٣٥ )

#### ٢ — تل المزار :

يقع تل المزار في وسط وادي الأردن في وادي راجب الشمالي ، ويبلغ حجم التل ٣٠٠ متر مربع ، ويرتفع ٢٤ متراً عن السهول المحيطة به . ويقع بالقرب من التل عدد من التلال الأثرية مثل تل دير علا ( ٢ كيلو متر إلى الجنوب ) وتل السعيدية ( ٦,٥ كيلو متر إلى الشمال ) ( ٣٦ ) بدأت المراحل الاستيطانية في التل منذ العصر البرونزي المتأخر الفترة الثانية ( L B II ) واستمرت إلى الفترة الهلنستية أي منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ( ٣٧ ) .

جاءت مباني الفترة الفارسية من الطبقة الثانية ( القرن الخامس ) . والمتمثلة بمبنى يتألف من ساحة مركزية مكشوفة ، محاطة بوحدات معمارية — غرف — في الجهتين الشمالية والشرقية ، وبسبب عوامل الانجراف التي تعرض لها الجزء الجنوبي ، فيمكن الافتراض بأن هذا الجزء احتوى أيضاً على صف من الغرف ( ٣٨ ) تم تحديد ثلاث وحدات سكنية في الجهة الشمالية هي ( أ ) ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ( ب ) ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ( ج )



٢١٠، ٢١١. (٣٩)

لقد استخدمت الحجارة المشذبة في بناء الوحدة المعمارية الأولى ، ولكن من الصعب تحديد المادة المستخدمة في الجزء العلوي منها ، وكذلك الحال في أساسات الجدار الغربي للغرفة — ٢٠٧ — هذا وقد عثر في الغرفة — ٢٠٩ — على طابونين بجانب الجدار الشرقي وكذلك في الغرفة — ٢١١ — (٤٠).

وبالرغم من عمليات الانجراف، إلا أن مخطط البناء يبدو منتظماً، فالساحة المركزية يبدو أن أرضيتها كانت مبلطة بالحجارة، واستخدم الطوب الرديء الصنع الذي حضر باستخدام التبن والأتربة من التراكمت السكنية السابقة، في بناء الجدران، من جهة أخرى استخدم القصب كأرضية تحت الجدران قبل بنائها، لتجنب هبوطها وتصدعها، فهي تعمل كأساسات وتقوي السطح المراد البناء فوقه، (٤١) تبدو وظيفة البناء أنها صناعية لحفظ الاواني والمخلفات المصنعة، حيث عثر على العديد منها بداخله كاملة. (٤٢)

فالبناء في مخططة يتكون من ساحة مركزية مكشوفة ومحاطة من الجهات الأربع بالغرف.

**ب) فلسطين: (خارطة رقم ١)**

كشفت الحفريات الاثرية عن العديد من المواقع الفارسية في فلسطين، والتي اعتمد في تأريخها على الفخار المستورد من اثينا والمسكوكات كذلك. (٤٣) وأهم هذه المواقع (تل الدوير chish) الطبقة الأولى، (٤٤) وتل أبو حوام الطبقة الثانية، (٤٥) وتل المبارك (مفراك Mevorak) الطبقات الرابعة والخامسة والسادسة، (٤٦) وعين جدي الطبقة الرابعة، (٤٧) وتل القصيلة الطبقة السادسة، (٤٨) و (سبسطية Samaria)، (٤٩) والعديد من المواقع الأخرى مثل تل القدح، تل المتسلم، تل جمعة وغيرها من المواقع.

أن دراسة البقايا المعمارية من الأردن جاءت من تل السعيدية وتل المزار، في حين اعتمد على العديد من المواقع الفلسطينية لدراسة نمط تخطيط المدن الفارسية، للحصول على تصور عام عن مرافق المدينة الفارسية وعناصرها.

### تخطيط المدينة الفارسية في فلسطين:

بالرغم من العثور على العديد من البقايا المعمارية، العائدة لهذه الفترة في فلسطين، إلا أنها لا تعطي صورة كافية عن تخطيط المدينة في هذه الفترة، مما دعى العديد من الآثاريين أمثال (البرايت Albright، فاتزنجر Kenyin وWatzinger) للاعتقاد بأن انقطاعاً قد طرأ على الحياة المدنية، وحلت محلها الحياة الريفية القروية. (٥٠)

ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار العوامل التي تعرضت لها البقايا المعمارية الفارسية مثل عوامل التعرية، والانجرافات أو إعادة استيطان بعض المواقع في الفترات اللاحقة، فتعرضت البقايا المعمارية للدمار، فتلك العوامل مجتمعة تبين الأسباب لعدم تكوين صورة واضحة عن المدينة الفارسية في المواقع التي تم التنقيب فيها. (٥١)



بالمقابل يمكن تتبع بعض الأمثلة على نمط تخطيط المدينة من بعض المواقع الفلسطينية التي حافظت على بقايا معمارية جيدة، ففي موقع تل ابو حوام الطبقة الثانية تطل واجهات المباني على ممر يسير بشكل مماثل لمحور المدينة الطولي، (٥٢) وفي تل السمك (شكمون Shiqmona)، فان الحي السكني، يقع بين طرفين متقاطعين مع بعضهما البعض في الزاوية اليمنى، وتُظهر المنازل تماثلاً كبيراً فيما بينها. (٥٣) وفي تل (مجديم Megdim) يقع الربع السكني بشكل متقاطع مع الطريق المستقيمة والواسعة، فالمنازل الكبيرة تقع على جانبي الطريق وتتخللها ممرات تقع بشكل عمودي مع الطريق الرئيسي. وقسمت المباني نفسها إلى العديد من الوحدات المعمارية المتجانسة (٥٤) كالذي كان شائعاً في اليونان في هذه الفترة مثل مخطط مدينة (اولينثوس Olynthus) - مخطط رقم ١ - التي شيدت عام ٤٣٠ قبل الميلاد. (٥٥)

## العناصر المعمارية للمدينة الفارسية:

### ١- التحصينات

الشواهد المعمارية التي تمثل نمط التحصينات في هذه الفترة، جاءت من المواقع الساحلية، فالسهل الساحلي، مثل موقع أبو حوام، حيث يتمثل النمط التحصيني بسور المدينة، والمحتوي على زوايا متعددة تتمثل بشكل واضح في الجزء الجنوبي، وبقي من ارتفاع السور مدمكان، ويظهر استقامة في امتداده مع وجود بعض التغير الطفيف، حيث استخدمت الحجار الطويلة لدمجها مع الدبش، للحصول على التماسك بينها، (٥٦) ويظهر ذلك بشكل واضح في ثلاث نقاط، حيث يغير السور اتجاهه، فاستخدمت الحجارة المربعة الطويلة والمتصلة مع الدبش في البناء. (٥٧)

وفي تل (مجديم Megadim) حصن الموقع بسور يحيط بمنطقة مستطيلة، مساحتها ١٥ / ديم بني من الطوب فوق اساسات من الحجارة، تم الكشف عن ثلاثة اجزاء من السور في الجهات الغربية والشمالية والجنوبية، دلت على نمط السور المنيع المؤلف من جدارين داخلي وخارجي، وعلى طول الجدار من الداخل اصطففت العديد من الغرف السكنية وغرف الخزين (٥٨).

### ٢- البوابات

اهم النماذج للنمط المعماري للبوابات جاءت من تل الدوير - مخطط رقم ٢ - (السوية الاولى)، حيث بنيت البوابة العائدة لهذه الفترة فوق نفس مخطط البوابة العائدة للسوية الثانية. وتتكون البوابة من بوابة خارجية بقي منها العتبة فقط والبوابة الداخلية، اما الجدران التي تصل بين البوابة الداخلية والخارجية فقد دمرت أيضاً وتم توسيع البوابة الداخلية الخارجية، واصبحتا تشكلان برجين بداخلهما ادراج بقي منها خمسة إلى الجنوب من البوابة. (٥٩)



### ٣- العمائر المنزلية

ان معظم المباني الفارسية تظهر نمطاً تخطيطياً موحداً، سواء في العمائر العامة او الخاصة. وتميز هذا النمط في المنزل ذي الساحة المكشوفة، والذي يتألف من ساحة مكشوفة محاطة من عدة جوانب او جميعها بالغرف، (٦٠) ان هذا النمط المعماري كان محورياً للعديد من الدراسات المتعلقة بأصله، حيث اتفق على كونه رافدي الاصل (اشوري، بابلي)، ادخل الى فلسطين في نهاية الفترة الآشورية، واستمر استخدامه بعد ذلك في الفترتين البابلية والفارسية. (٦١) جاءت الامثلة على هذا النمط المعماري من العديد من المواقع الفلسطينية، ففي عين جدي (السوية الرابعة) تم العثور على مبنى ضخم مكون من ٢٣ - غرفة تحيط بساحة مركزية، بالاضافة إلى غرف الخزين وباحجام مختلفة وساحة خارجية، فيبدو المبنى بتخطيطه كأنه وحدة واحدة، ولكن يمكن تمييز ثلاثة أجزاء منفصلة:

أ - الجزء الغربي يتضمن الغرف ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦ بالاضافة إلى الغرفة المستطيلة الواسعة - ٢٣١ - التي تنخفض بشكل قليل عن باقي الغرف. اما الغرفة - ٢٢٩ - فقد بنيت بارتفاع نصف طابق اعلى، وقسمت الى وحدتين منفصلتين تم بناء جدار بينهما. اما مدخل هذه الغرفة فيقع عبر الساحة الصغيرة التي تقع الى الغرب. (٦٢).

ب - الجزء الشرقي يتكون من العديد من الغرف تحيط بغرفة مستطيلة واسعة رقم ٢٤٨ -، تميزت الغرف الجنوبية منها (٤ غرف) بمستوى مرتفع لحوالي الطابق. (٦٣).

ج - الجزء الشمالي يتكون من ساحة مغلقة، وثلاث غرف مستطيلة، وممر يصل بين الساحة المغلقة والثلاث غرف والجزء الشرقي من المبنى. اما المدخل الرئيسي فقد كان عبر الساحة الخارجية، ثم خلال الغرفة - ٢٥٤ - ومنها إلى الساحة المغلقة، (٦٤) وغطيت ارضيات البناء والجدران وجزء من السقوف، بطبقة سميكة من الجص واستخدمت جذوع شجر البلوط لتدعيم السقف، وفي الدرجات والسلالم، وتميز البناء بحجارته البنائية الصلبة. (٦٥) أرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية الآتيكية (Attic sherds) الى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث وصلت المدينة إلى قمة ازدهارها زمن (ارتاكسركس الاول Artaxerxes I) عام ٤٦٥-٤٢٤ قبل الميلاد، وفي زمن داريوس الثاني عام ٤٢٤-٤٠٥ قبل الميلاد، وتراجعت حوالي عام ٤٠٠ قبل الميلاد (٦٦)

وفي تل الدوير شيد المبنى العائد لهذه الفترة، على انقاض السويتين الثانية والثالثة، ويتمثل البناء بمبنى مستطيل ضخم، ربما يشير إلى كونه مركزاً ادارياً وشيد بحجارة كلسية وجدت متراكمة في منطقة الساحة، وحمل بعضها آثاراً لتشذيب مقوس، وهي تختلف عن الحجارة المستخدمة في بناء الجدران الداخلية والخارجية، التي يشير موضعها إلى استخدامها في بناء قناطر برميلية الشكل ذات مدا ميك مائلة. (٦٧) اما حجارة السقف فكانت بحجمين (١٥×٢٥×٥ سنتيمتراً) و (١٥×٣٥×٧٠ سنتيمتراً) واستخدم الطين المضغوط في ملء الفراغات



بين الحجارة. ويتبع البناء في مخططه المباني المؤلفة من ساحة مركزية، احيطت من الجهات الاربع بغرف مقنطرة. فقد احيطت الساحة في الجهة الجنوبية والغربية بدرجات تؤدي الى الغرف المختلفة، وعلى عرض الساحة في الجهة الغربية وجدت قاعدتا عمودين مربعتا الشكل، بقي من العمود الجنوبي قاعدته. (٦٨) وخلف الرواق المعمد (Portico) يوجد غرفتان كبيرتان تحويان على غرفتين صغيرتين أيضاً (٦٩)

استخدمت الحجارة النارية المشذبة في بناء الجدران وغطيت بالجبص، وثبتت مع بعضها بواسطة المونة. اما الارضيات فكانت من الجص الذي استخدم في تجصيص قواعد الاعمدة ايضاً. (٧٠) وقد امكن عمل مجسم منظوري للمبنى، يظهر كيفية بنائه بالقناطر. وأرخ المبنى اعتماداً على الفخار الذي يعود إلى الفترة الواقعة بين عام ٤٥٠ - ٣٥٠ قبل الميلاد. (٧١)

ومن النماذج المعمارية السكنية الاخرى تل القصيلة، حيث بلغ الاستيطان في الموقع أوجه في الفترتين الحديدية والفارسية. وتمثلت البقايا الفارسية في الطبقة السادسة بمبنى وساحة خارجية (G6) في الجزء الجنوبي للتل. (٧٢) يتألف المبنى من ساحة داخلية محاطة بالغرف من ثلاثة جوانب، غرفة مربعة في الزاوية الشمالية (G4) وغرفة مستطيلة بينهما (G3). اما المدخل الرئيسي للساحة الداخلية (G1) و (G2) فكانت من الجهة الغربية. وتم الكشف في الجهة الشرقية عن اساسات للساحة الخارجية (G6) للبنى من الدبشش، وعثر في ارضيتها على كسر فخارية وجرار فارسية وأرخ البناء بناء على ذلك وبناء على الكسر الفخارية التي تعود إلى الفترة الفارسية (القرن الخامس قبل الميلاد). (٧٣)

الموقع الأخير ممثل ببناء ضخم عثر عليه في الطبقة الرابعة في تل المبارك (مفراك Mevorakh) - مخطط رقم ٢ - حيث قسم الى ثلاثة مرافق معمارية:

- ١- الجدار في الجهة الشمالية من المبنى تم بناؤه من الحجارة المربعة.
- ٢- الجزء المتاخم للجدار المنيع ويتكون من الغرف ٢٧، ٢٨، ٢، ٣، ١، ٢٩، ٢٦٥.
- ٣- الجزء الرئيسي في المبنى والمؤلف من ١٦ غرفة. (٧٤)

يتضح من البقايا المعمارية ان المبنى قد شيد ضمن مخطط محدد احيط بجدار منيع مستطيل الشكل، اما بالنسبة للتقسيمات الداخلية فيبدو أنه قد طرأ عليها التعديل حسب اعتبارات وظيفية. (٧٥)

فيما يتعلق بالارضيات فقد استخدمت الحجارة في رصفها كما هو واضح في البقع المتواجدة في موضع ١٠٢ - وموضع ٢١٤ - التي ربما كانت تشكل جزءاً من الساحة الرئيسية وباقي الارضيات كانت من التراب المضغوط. (٧٦)

وعلى ما يبدو ان الغرفتين ٢٧-٢٨ كانت نواة لبرجين تدعمان غرفة السلم او كانتا جزءاً من بيت السلم فقط وإذا صح ذلك فمن المحتمل وجود طابق ثان في الجزء الغربي من المبنى على الأقل. (٧٧) وباختصار، يمثل المبنى النمط الشائع في الفترة الفارسية، والمتمثل بساحة



مكتشوفة محاطة بالعديد من الغرف ويبدو ان المبنى عبارة عن عزبة زراعية كبيرة. أرخ المبنى الى القرن الرابع عام ٣٣٢ قبل الميلاد، اعتماداً على الكسر الفخارية. (٧٨)

#### ٤- المعابد

تم تحديد ثلاثة مبانٍ تعود للفترة الفارسية، وفسرت من قبل المنقبين بكونها معابد في تل الدوير، يافا، ومكميش. وافضل هذه النماذج جاءت من تل الدوير السوية الأولى التي اطلق عليها اسم معبد شمس مخطط رقم ٤. ويقع المعبد الى الشمال الشرقي من المباني السكنية، وهو مبنى صغير ابعاده (١٧×٢٧ متراً) ومحوره الاساسي باتجاه شرق - غرب. (٧٩) ويتكون المعبد في مخططة من ساحة مربعة تحتل نصف مساحة المبنى، ويتفرع عنها في الجزء الشرقي صف من الغرف الصغيرة (٥ غرف)، وفي الجهة الغربية يقع الجزء الرئيسي للمعبد، اما المدخل فيقع في النهاية الشرقية للجدار الشمالي. (٨٠)

يخترق المعبد بشكل عرضي ضمن منطقة الساحة خمس درجات، ربما امتدت على عرض الساحة تؤدي إلى غرفة مستطيلة رقم ١٠٥. وتقع على مستوى مرتفع عن باقي اجزاء المعبد، وخلف هذه الغرفة يوجد ثلاث درجات تؤدي الى غرفة قدس الاقداس رقم ١٠٢. (٨١) غطيت جدران المبنى بطبقة سميكة من الجص، وحملت بعض الاجزاء اثاراً لجص ملون. اما الارضيات فقد استخدم الجص في تغطيتها. ومن جهة اخرى فان وجود الحجارة الطباشيرية المربعة تشير الى ان سقف المبنى كان معقوداً او مقنطراً (Vaulted). (٨٢)

تأريخ المبنى محط جدل العديد من الآثاريين، فمنهم من يؤرخه للفترة الفارسية اعتماداً على الكسر الفخارية التي وجدت بداخله، (٨٣) بينما (أهاروني Aharoni) الذي اعاد التنقيب فيه أرخه للفترة الهلنستية. (٨٤) وبينت حفريات مخطط البناء بشكل واضح، فكشف عن عتبة الباب في الجدار الشرقي للغرفة ١١٠. بالإضافة للكشف عن مجموعة من الحجارة خارج الجدار، ربما كانت اساسات للدرجات أو ممراً مرصوفاً يؤدي للبوابة. (٨٥) وفي الجدار الغربي للغرفة ١٠١ - كشف عن مدخل بعرض ١,٣ متراً تم اغلاقه في فترة لاحقة. وعلى طول الجدار الغربي للغرفتين ١٠٩ - ١١٠ - يوجد مقاعد أو رفوف صخرية، يفصل بينها جدار. وبينما حددت (تفنل Thafnell) مدخل البناء في النهاية الشرقية للجدار الشمالي، في حين وجد (أهاروني Aharoni) بأن مدخل البناء يقع في الجهة الشرقية وعبر الغرفتين ١٠٩ - ١١٠ -، حيث يوجد ممر ضيق في الزاوية الغربية للغرفة ١١٠ - يؤدي إلى الساحة. (٨٦) وباختصار فإن تاريخ البناء كان محط جدل من قبل (تفنل Thafnell) وستاركي (TARCKY) اللذين أرخا البناء للفترة الفارسية، بينما أرخه أهاروني اعتماداً على آنية الطبخ التي عثر عليها اسفل الجدار، والمؤرخة للفترة الفارسية، مما دعا الى تأريخ المبنى للفترة الهلنستية. (٨٧) ولكن المخلفات العديدة التي عثر عليها في المبنى مثل الاواني الدينية، والمذبح الكلسي، والمصباح البرونزي أرخت جميعها للفترة الفارسية، مما يشير بأن المبنى من



حيث الوظيفة هو معبد اسس في الفترة الفارسية في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد واستمر استخدامه في الفترة الهلنستية. (٨٨)

والمعبد الآخر يقع في (مكميش Makmish) مكون من غرفتين احدهما كبيرة إلى الجنوب، واخرى صغيرة الى الشمال، ومحور البناء باتجاه شمال — جنوب ويبلغ طول المبنى ١٥×٦,٥ متراً. (٨٩)

### تقنية المباني الفارسية:

استخدم في العمارة الفارسية تقنية البناء المعروفة باسم (حجر طولي يتبعه حجر عرضي Heaker-stretcher)، حيث استخدمت في بناء المباني الكبيرة، فالجدار الخارجي مبني بهذه الطريقة في تل المبارك (Mevorakh ٩) اما الشبائح الحجرية الكلاسيكية المستخدمة، فكانت محددة الاطراف وناتئة في الوسط، وتم بناء جدران الحجرات المنيعه بخليط من الحجارة المشذبة وحجارة الدبش. (٩١)

اما تقنية الدعائم فكانت باستخدام الشبائح الحجرية، وملء المسافة بين الدعائم بالدبش. وهذه الطريقة وجدت في العصر الحديدي الثاني، في كل من فلسطين، والساحل الفينيقي، واستمر استخدامها في البناء حتى الفترة الهلنستية. (٩٢) ويعتقد البعض ان استخدام هذه الطريقة كان لاسباب جمالية، كما اعتبرها (برتشارد)، والآخر يعتبرها لتقوية الجدران، في حين يعتقد (دوثان) بان هذه التقنية في البناء هو ذات اصل فينيقي. (٩٣) اما الأرضيات فاستخدم في رصفها الشبائح الحجرية، وهذا الاسلوب من اصل فينيقي، بقي استخدامه معروفاً حتى الفترة الهلنستية، في حين حملت بعض الارضيات اثاراً للجص عليها. (٩٤)

### تأريخ المباني الفارسية:

اعتمد في تأريخ المباني العائدة لهذه الفترة على فخار (اتيكي Attic) المستورد من اليونان، والذي شاع استيراده في القرن الخامس قبل الميلاد، بالاضافة الى الكسر الفخارية او الاواني الكاملة المحدد تأريخها للفترة الفارسية. (٩٥)

ولكن غالبية المواقع حدد تأريخها لفترة واحدة غطت العصر الفارسي جميعه. في حين نجد انه في موقع ابو حوام، تم تمييز مرحلتين فيه عائدتين لهذه الفترة، المرحلة الاولى A أرخت من نهاية القرن السادس حتى بداية القرن الرابع قبل الميلاد، اعتماداً على فخار اتيكا في حين المرحلة B عيّد فيها تجديد البناء، ودام حتى مجيء الاسكندر الكبير عام ٣٣٢ قبل الميلاد (٩٦) وحدد في تأريخ بعض المواقع، الاواني الكاملة والمؤرخة للفترة الفارسية، كالتى عثر عليها في حفر (Pits) في المناطق المحيطة في بيسان. (٩٧) وفي وادي الدالية حدد تأريخ



الفخار الذي عثر عليه في الكهف رقم ١ بدقة الى الفترة الفارسية المتأخرة وبداية الفترة الهلنستية، استنادا الى قطع المسكوكات المترافقة مع هذه الاواني، فأصبحت دراستها مهمة في تحديد تأريخ المواقع الاخرى. (٩٨)

### الفترة الهلنستية:

تبدأ الفترة الهلنستية في الاردن وفلسطين، باحتلال الاغريق على يد الاسكندر الكبير للمنطقة، والذي انهى السيطرة الفارسية عام ٣٣٢ قبل الميلاد. (٩٩) وبإخضاعه للامبراطورية الفارسية، نُصِبَ الاسكندر حاكماً للعالم، واصبح الغرب مهيمناً على الشرق. وسهل هذا الاخضاع انتشار الثقافة الاغريقية في الشرق، فأصبحت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في ارجاء الامبراطورية، ولغة التجارة والثقافة ولغة الدين. (١٠٠) وبوفاة الاسكندر الكبير قسمت المنطقة بين البطالمة والسلوقيين، فسيطر البطالمة في الفترة ما بين عام ٣٠١ - ١٩٨ قبل الميلاد على جنوب سورية والاردن وفلسطين ومصر. اما السلوقيين فحكموا المناطق الآسيوية المتبقية، (١٠١) ويعاصر هذه الفترة ظهور الانباط كقوة مستقلة، بقيت محافظة على استقلالها ونشاطها التجاري المنطلق من عاصمتهم البتراء، رغم مهاجمتهم عام ٣١٢ قبل الميلاد من قبل (انتيجونوس Antigonus). (١٠٢)

وزالت السيطرة البطلمية عن الاردن وفلسطين في حوالي عام ٢٠٠-١٩٨ قبل الميلاد، بعد هزيمة بطليموس الخامس في معركة (بانيون Panion)، بقيادة انطوخوس الثالث وهو تأريخ تدشين العهد الهلنستي المتأخر. وبهذا سيطر السلوقيون على الاردن وفلسطين، في حين نالت بعض المدن استقلالها في جنوب بلاد الشام. (١٠٣) فتمكنت سلالة طوبيا من المحافظة على استقلالها في حين خضع اقليم عمان الى سيطرة (يهوذا المكابي Judas Macabeus). (١٠٤) الشواهد التاريخية المتعلقة بهذه الفترة، جاءت من المؤرخ (يوسفوس Josephus) والوثائق التاريخية اليونانية، التي احتوت على معلومات تاريخية عن المنطقة، في فترة حكم البطالمة في القرن الثالث قبل الميلاد. (١٠٥) وكذلك من المؤرخ (بولوبيوس Polubius) الذي تحدث عن العديد من المدن والاقاليم في الاردن وفلسطين، او سجلات (زينون Zenon)، و(سترابو Strabo) والمؤرخ (اقتارخيدس Agtharchides) الذي اشار بأن خلفاء الاسكندر اخذوا بالتنازع على الممالك وكانت النتيجة نشوب العديد من الحروب. (١٠٦)

تقسم الفترة الهلنستية بدورها الى الهلنستي المبكر، والهلنستي المتأخر، أو ما يطلق عليها فترة البطالمة، وفترة السلوقيين والحشمونيين. (١٠٧) هذا التقسيم انتهجه (لاب Lapp) وقسمه الى الهلنستي المبكر (البطالمة) من عام ٣٣٠-١٩٨ قبل الميلاد، والهلنستي المتأخر (السلوقيون) من عام ١٩٨-١٦٥ قبل الميلاد، والحشمونية المبكرة من عام ١٦٥-١٠٠ قبل الميلاد، والحشمونية المتأخرة من عام ١٠٠-٦٣ قبل الميلاد. (١٠٨)



.....  
انتهت الفترة الهلنستية في الاردن وفلسطين عام ٦٤-٦٣ قبل الميلاد، على يد القائد الروماني بومبيوس، نتيجة لانقسام المملكة السلوقية وانشغالها بالصرعات الداخلية. (١٠٩)  
**مواقع الفترة الهلنستية:**

تتميز المعلومات الأثرية عن الفترة الهلنستية المبكرة، بكونها قليلة في كل من الاردن وفلسطين، وبينما تأخذ المعلومات بالاطراد في الفترة المتأخرة. والسبب يرجع من الناحية التاريخية الى الحروب والمشاكل، التي كانت قائمة بين البطالمة والسلوقيين بعد موت الاسكندر الكبير. (١١٠)

### **أ) الاردن: (خارطة رقم) «٢»**

تمثلت مواقع هذه الفترة في الاردن في عراق الامير، (١١١) وتل السعيدية الطبقة الثانية، (١١٢) وفي جبل (سرطبة Sartabe) على بعد ٢,٢ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من طبقة فحل، (١١٣) وفي ام قيس، وجرش، وعمان، واليصيلة، وتل الذهب، وحسبان، وتل الخليفة، وتل المزار والعديد من المواقع التي تم الكشف عنها اثناء المسوحات الاثرية في وادي الاردن، مثل ابو علوية، وتل ابو كامل، وتل عماتا، وتل ابو هابيل، وخربة الحمة، وتل الاربعين وغيرها من المواقع. (١١٤)

من أبرز المواقع الاثرية التي تمثل الفترة الهلنستية في الاردن:

#### **١- عراق الامير:**

يقع موقع عراق الامير في منطقة وادي السير بالقرب من عمان، وعلى بعد ٢٠ كيلومتراً باتجاه نهر الاردن، تم اكتشاف الموقع والمباني الهامة فيه في القرن التاسع عشر من قبل (أربي ومانغليس Irby, Mangles)، وتم تحديد مبنى قصر العبد من قبل (بانكو Banko)، وفي عام ١٨٦٢ ميلادي قام الفرنسي (ديفوك D'avoque) بدراسة القصر بصورة منفصلة، وأرخه للفترة الهلنستية، وحدد وظيفة المبنى كقصر. في حين اعتقد (سولسي Saulcy) بأن المبنى كان يشغل وظيفة دينية وبالتحديد معبداً اعتمداً على وجود تمثيل الاسود، واستنتج بأن المبنى مقدم لآلهين (مولوخ وكاموش Mplach, Qamos) وأرخه بذلك للفترة الفارسية، (١١٥) ولكن الحفريات التي اجريت عام ١٩٧٦ ميلادية، من قبل (فيل ولارشيه Will, Larche) بينت ان البناء يعود للفترة الهلنستية، وان وظيفة البناء كانت قصراً وليس معبداً كما ذكر يوسفوس، (١١٦) أما البقايا المعمارية في الموقع تمثلت بـ:

#### **أ- قصر العبد:**

يذكر يوسفوس بأن القصر تم بناؤه على يد (هركانوس Hurcanus) واستخدمت الحجارة البيضاء في ذلك، وزخرف بتمثيل الاسود، ولكن (ديسو Dussaud) اعتقد بأن المبنى معبد عموني، ولكن المبنى لا يشير الى كونه كذلك. اما الاسم الحالي فيرجع الى اسطورة متداولة بين



السكان المحليين مفادها بأنه كان لأمر المنطقة بنت، تركها في عهدة أحد العبيد، والذي احبها وطلبت الفتاة منه بناء قصر لها، وسمي بذلك قصر العبد. (١١٧).

تبلغ مساحة القصر (٣٧×١٨,٥ متراً) - مخطط رقم ٥ - تم بناؤه من الحجارة الكلسية البيضاء، المستخرجة من المناطق المجاورة، والقصر بني وسط منخفض كانت تحيط به بحيرة اصطناعية. وأرخ القصر الى الفترة الهلنستية، اعتماداً على النظام الكورنثي، المستخدم في زخرفته، وكذلك البروز المستطيل في الافريز المشيد على الطراز الدوري، والعتبة الكورنثية والكورنيش. ودلت التحاليل المعمارية، على أن البناء شيد في وقت واحد، وأنه لم يتم الانتهاء من تنفيذه، فتبع البناء صاحبه حيث كلاهما تبعاً نهاية قاسية عام ١٧٥ قبل الميلاد. (١١٨)

يتكون البناء في مخططه من وحدة مركزية محاطة بممر على شكل حدوة الفرس، يؤدي الى الحجرات في الجهتين الشرقية والغربية، وإلى ثلاث حجرات أخرى في الجهة الجنوبية، بالإضافة الى حجرات للخرن في الزاوية الجنوبية، والشرقية والجنوبية الغربية. (١١٩) يضم المبنى طابقين ذات ارتفاعات متساوية، الطابق الارضي ويضم ممراً ذا اعمدة في الشمال، يقوم على جانبيه بئر، ودرج من الشرق يؤدي للطابق العلوي، وحجرة صغيرة في الغرب. ويؤدي هذا الممر الى ممر آخر داخلي يقوم على جانبيه حوضان يفرغان ماءهما خارجاً بواسطة افواه فهدين ضخمين في قاعدة الجدران، وفي الجهة الشرقية والغربية من القصر، توجد سبع حجرات كبيرة (مخازن للحبوب) مقسمة بواسطة الاعمدة للسماح بدخول الضوء. (١٢٠)

اما الطابق الثاني او العلوي، فكان يتم الصعود اليه عبر سلم، ومخططه متصل مع جدران الطابق السفلي، ويحوي على العديد من الحجرات المزخرفة. ولعدم استكمال البناء - يتضح ذلك من الزخارف غير المكتملة - مايدعو للاعتقاد بأن المبنى لم يسكن، وذلك لعدم وجود النوافذ، وحلقات الابواب. ويحوي البناء في الجهة الجنوبية على ممر وهمي ذي اعمدة يقوم على جانبيه حجرتان صغيرتان، ويبلغ ارتفاع المبنى ١٤ متراً، ويشبه في تصميمه المباني الشرقية. (١٢١)

#### ب - البوابة التذكارية:

تقع على بعد ١٥٠ متراً الى الشمال من القصر، وبقي منها اربعة مداميك، وامكن ترميم البوابة لارتفاع ٩ أمتار. من على مستوى الارض فان البناء يتكون من ركيزتين محاطتين ببوابة بعرض ٣,٧ متراً تفتح البوابة على سياج تشكل جدرانه من الخارج منحني بزاوية يمنى. وليس هنالك علاقة بين اتجاه البوابة واتجاه القصر، وتتصل البوابة مع محور الطريق الممتد بشكل مستقيم لمسافة تقارب ١٠٠ متر، ومحاذية للجدار المحيط بالبركة الاصطناعية حول القصر. (١٢٢)

امكن التعرف على تقنيتين في بناء البوابة، حيث استخدمت الحجارة الضخمة في بناء الواجهة، فهي متميزة من حيث حجمها وكذلك في معالجتها عند الحواف، مما يمنحها طابع



القوة وكذلك للحفاظ على المبنى. كما استخدمت تقنية (التثبيت بالتلسين Mortises and tensons) في البناء، وخصوصاً في الحجارة الضخمة لتماسكها مع بعضها البعض. وهذا الأسلوب المعماري معروف في العمارة اليونانية ويظهر بشكل خاص في المواقع المتأثرة في الأسلوب المعماري الشرقي. (١٢٣) التقنية الثانية المستخدمة، تتكون من مداميك قليلة الارتفاع (٥٨ سنتمترًا)، فالارتفاع المحدد للحجارة اللوحية يجعلها أكثر ثباتاً دون الحاجة إلى استخدام المعدن المصهور لتثبيتها مع بعضها البعض. (١٢٤)

أما طريقة البناء واختيار المواد اللازمة في بناء البوابة، فتدلان على مكانة وقوة مالكيها، فقد زخرفت البوابة بالمنحوتات الحيوانية، مثل الحيوانات البرية، (النسور) التي تحتل مكانة بارزة في زخرفة القصر أيضاً. أما زخرفة الحيوانين (السنوري Feline) فقد تم وضعهما بشكل متناسق متجهين باتجاه البوابة، مما يشير إلى كونهما حاميان للممر، أما الأسد والنسر فيشيران إلى القوة الملكية أو المقدسة للتغلب على الأعداء. (١٢٥)

واستخدم الجص الملون والابيض في زخرفة جدران القصر، والمباني السكنية في عراق الأمير، مما أعطى أهمية في التعرف على أهمية البناء الذي وجدت عليه، وكذلك فهم أسلوب الحياة في الموقع؛ فالجص الابيض استخدم في زخرفة الجدار الداخلي، المكون من طبقة سميكة بنية اللون، ممزوجة بحصى صغيرة الحجم ثم تغطي بطبقة رقيقة من رمل الكوارتز. (١٢٦) ولم تقتصر المرافق على المباني العامة، بل تعدى ذلك إلى وجود المرافق الزراعية، كالمصاطب والجدران الاستنادية، وقنوات الري، فقد لعب جدول المياه الدائم في وادي السير، إلى جذب الاستيطان في الموقع، فعلى ما يبدو أن الموقع جذب هركانوس للاستيطان فيه لمكانته الاقتصادية. (١٢٧)

## ٢- تل السعيدية:

تحتوي الطبقة الثانية في التل على بناء مستطيل الشكل، بنيت أجزاء منه فوق البناء العائد للفترة الفارسية، وتبلغ أبعاد المبنى ١٣,٣ × ٢١,٢ متراً، ويتراوح سمك جدرانها الخارجية (٩٠ سنتمترًا)، في حين يبلغ سمك الجدران الداخلية (٦٠ سنتمترًا)، وبنيت الجدران فوق أساسات من الحجارة، واستخدم الطوب في بناء الجزء العلوي منه. والملفت للنظر في تقنية البناء استخدام القصب في البناء، فبعد الانتهاء من وضع أساسات البناء الحجرية، قام المعماري بوضع طبقة من القصب بشكل تقاطعي على طول الجدار، ثم غطيت بطبقة من البلاستر (الجص)، ثم يستكمل البناء باستخدام الطوب فوق طبقة القصب. (١٢٨)

الطوب المستخدم في البناء كان بحجمين، الأول كبير بقياس (٤٠ × ٤٠ × ١٥ سنتمترًا) والثاني صغير بقياس (٢٠ × ٤٠ × ١٥ سنتمترًا). أما الجدران الداخلية (٦٠ سنتمترًا) فقد بنيت بصف من الطوب الكبير، اصطف بجانب صف آخر من الطوب الصغير الحجم، أما الجدران الخارجية فيبلغ سمكها (٩٠ سنتمترًا)، وقد بنيت بمداميك



اختلفت بين صفين من الطوب الكبير، ومدماك من طوبتين صغيرتين، وطوبة كبيرة في المركز، وقد استخدم الجص في تغطية الجدران الداخلية للمبنى. (١٢٩)

البناء في مخططه يتكون من ساحة -٢٠١-، يتم الدخول اليها عبر مدخل عريض (١,٦ متر) في الجهة الشمالية. ويحوي ايضاً على مدخلين، الاول يفضي الى الرواق -٢٠٢- والثاني للغرفة -٢٠٣- ويستدل من العوارض الخشبية المتفحمة التي وجدت في أماكن مختلفة على الارضية، وعند مدخل الغرفة في الجزء الشمالي، ان المبنى كان مسقوفاً. (١٣٠) ويتم الدخول عبر الساحة -٢٠١- الى رواق يؤدي الى خمس غرف في الجهة الغربية، باستثناء الغرفة -٢٠٦- التي يتم الدخول اليها عبر الغرفة -٢٠٧- اما الغرفة -٢٠٣- فتحتوي على مدخلين، الاول من الجهة الشرقية عبر الغرفة -٢٠١- والآخر عبر الرواق -٢٠٢- وتعتبر هذه الغرفة من افضل الامثلة التي تحوي على أرضية مرصوفة بالحجارة. اما الغرفة -٢٠٤- وهي اصغر الغرف الموجودة، فيتم الدخول اليها عبر الرواق -٢٠٢- الذي يؤدي ايضاً الى الغرفة -٢٠٥- (١٣١)

يمتاز الجدار الشمالي للغرف -٢٠٦- الى -٢٠٨- كونه سميكا (٩٠ سنتمتر)، بعكس الجدران الداخلية الاخرى، ولذلك ربما يشير الى وجود طابق ثان للمبنى. (١٣٢) وبشكل عام يتكون البناء من ساحة تقابلها من جهة واحدة ست غرف.

### ٣- طبقة فحل (Pella):

تم الكشف خلال موسم التنقيب عام ١٩٨١، عن بناء مستطيل ابعاده ٩×٥,٥ متراً، أرخ الى الفترة الهلنستية (القرن الثاني قبل الميلاد)، وبنيت جدران المبنى من الطوب المجفف فوق اساسات من الحصى، ترتفع حوالي المتر عن مستوى الارضية. (١٣٣)

قُسّم المبنى من الداخل بجدارين الاول يتصل مع الجدار الشرقي وهو ضمن مخطط البناء الاصلي، لكونه يحتوي على طبقة من الجص في الجزء الشمالي، وكذلك مبنى بشكل قوي وثابت، فلهذا قُسّم البناء الى جزئين: غرفة داخلية واخرى خارجية، اما الجدار الداخلي الثاني فتم اضافته في فترة لاحقة، ويقسم الغرفة الخارجية الى قسمين. وعلى ما يبدو ان وظيفة الغرفة الخارجية مخالفة للداخلية، لكون الاخيرة مبلطة ببلاطات حجرية، مما يشير الى نفس وظيفة الساحة المجصصة في الجهة الغربية. (١٣٤)

لقد ساعدت قطعنا العملة في تأريخ المبنى، فقد أُرُخت القطعة الاولى الى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، والثانية تعود الى الفترة الحشمونية. (١٣٥)

وعلى بعد ٣,٢٠٠ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من طبقة فحل، عثر في جبل سرطبة على تحصينات مؤرخة للفترة الهلنستية، فموقع التل مميز بكونه يشرف على الطرقات سواء القديمة ام الحديثة، ويمتاز ايضاً بصعوبة الوصول اليه، مما حفظ حجارته المبنية من العبث. (١٣٦) المبنى في مخططه مربع الشكل يبلغ طول كل جانب حوالي ٦٠ متراً، ويتكون السور من ثمانية أبراج تتوزع كالتالي: برج في كل زاوية وفي منتصف الجدار، وتظهر الابراج



عدم تماثل فيما بينها، فقد تراوحت الغرف الداخلية المكونة للابراج من غرفة الى ثلاث غرف داخلية. ويتم الدخول عبر السور خلال اربع بوابات، واحدة في كل جانب، وتقع البوابات بالقرب من البرج (١٣٧) وفي داخل الحصن يوجد بئران تم حفرهما في الصخر الطبيعي، ويشير حجمهما الى عدم كفاية استخدامهما لفترة طويلة، وبالمقابل فان سماكة الترسبات الموجودة في قاع البئر، تشير الى استخدامه لفترة قصيرة، لعدم استخدامهما بشكل حقيقي. (١٣٨)

ان سبب بناء الحصن غير محدد بالضبط، لأنه من غير المعقول بناؤه من قبل سكان طبقة فحل، لكونه لا يشكل عاملاً مهماً في حماية مدينتهم، ولكن ربما تم بناؤه من قبل أحد القادة السلوقيين وربما (انطيوخس الثالث Antiochus III) حيث تذكر المصادر اهتمامه بأقليم طبقة فحل، (١٣٩) وأكثر الاحتمالات تشير الى انشائه في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، حيث يذكر (يوسيفوس Josephus) بأن انطيوخس الثالث كان له نشاط عسكري في الاردن في ذلك الوقت (نهاية القرن الثالث قبل الميلاد). وفي المقابل فان الاسبار التجريبية داخل الحصن اظهرت عدم استيطانه، فأرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية الى الفترة الهلنستية، وعلى بعد ٦٠ متراً الى الجنوب الشرقي من الحصن عثر على برج منعزل يعاصر فترة بناء الحصن. (١٤٠)

#### ٤- اليصيلية:

##### المبنى الإداري

بدأ العمل في المنطقة - ب - من موقع اليصيلية الأثري في الموسم الثاني عام ١٩٨٩، واستمر العمل في موسم عام ١٩٩٠، وفي الموسم الرابع عام ١٩٩١، كشف عن المبنى الإداري في هذه المنطقة بالكامل. بني هذا المبنى بشكل مستطيل طوله ١٩ متراً وعرضه ٩,٥ متراً - مخطط رقم ٦ - وبلغ ارتفاع بعض الجدران الداخلية حوالي مترين. يحتوي هذا البناء على خمس حجرات، ثلاث كبيرة تقع في الجهة الغربية، وتتصل ببعضها بعضاً عن طريق بوابات، وحجرتان تقعان في الجهة الشرقية.

##### وصف الحجرات

الحجرة الأولى: أطول هذه الحجرات ٥,٧ × ٥,٧ متراً، فهي أكبر الحجرات مساحة، وتفضي بوابة البناء الرئيسة اليها مباشرة، وتقع البوابة في جدارها الجنوبي، أما الجدار الغربي فقد بني معظمه على شكل نصف دائري منحني بارز الى الخارج. وتوجد في الجدار الشمالي بوابة تتصل مع الحجرة المجاورة الشمالية، ويبدو ان هذه الحجرة كانت صالة الاستقبال الرئيسة لهذا المبنى.

الحجرة الثانية: تقع الى الجهة الشمالية من الحجرة الأولى، وتتصل معها عن طريق بوابة داخلية في جدارها الجنوبي. وهذه الحجرة ثانية من حيث المساحة بعد الحجرة الأولى، اذ تبلغ مساحتها ٣,٨ × ٤,٧ متراً. وتتميز بوجود مدخل او بوابة على شكل قوس خماسي يقع في



الجدار الغربي ويفضي الى خارج البناء، كما توجد بوابة في الجدار الشمالي لهذه الحجرة تتصل مع الحجرة الثالثة المجاورة.

الحجرة الثالثة: بنيت على شكل شبه منحرف أطوالها ٣,٨٥ × ٣,٤ أمتار. وقد تعرضت معظم جدران هذه الحجرة للتهديم، ونقلت حجارتها الى أماكن أخرى في الموقع وخارجه، وأعيد استعمالها.

الحجرة الرابعة: حجرة مستطيلة أطوالها ٣,٨٥ × ٢,٤ أمتار. مايميز هذه الحجرة خلوها من البوابات، ولعلها استخدمت عن طريق فتحة في سقفها تصلها بالطابق الاول العلوي من المبنى. ويمكن ان يكون هناك درج (سلم)، ربما كان مصنوعاً من الخشب، يؤدي الى هذه الحجرة التي كانت تستعمل للخرن او لحفظ المياه.

الحجرة الخامسة: بنيت بشكل شبه منحرف أطوالها ٤,٧٥ × ١,٧ أمتار. تخلو هذه الحجرة كذلك من البوابات، فقد تكون استخدمت بنفس الطريقة التي كانت تستخدم فيها الحجرة الرابعة.

يتضح من خلال الدراسات الأولية ان هذا المبنى لم يستعمل للسكن، اذ لم يعثر فيه على مخلفات مادية تشير الى استعمالات منزلية، بل كان يستعمل مقرأً إدارياً او رسمياً. وقبل تشييد هذا المبنى حفر المكان، وأزيلت التربة حتى وصل الى الطبقة الصخرية التي أزيلت منها بعض الاجزاء ايضاً، وخاصة في الجهتين الغربية والجنوبية ليصبح المكان مستوياً. وشيدت حجارة هذا المبنى فوق أساسات على شكل بلاطات ضخمة وضعت فوق الارضية الصخرية المستوية، وقد برزت أجزاء هذه البلاطات بطول ١٠ سنتيمترات من داخل المبنى وخارجه. وحجارة هذا المبنى مقطوعة من الصخور الجيرية الموجودة بكثرة في هذا الموقع. وكانت طريقة البناء باستعمال حجر عريض يليه حجر طويل بصورة متوالية (Header-Strecher)، وكانت الحجارة تثبت بعضها ببعض بواسطة مونة «إسمنت» مازالت محافظة على متانتها. وكانت الفتحات الموجودة بين الحجارة تعبأ بحجارة صغيرة مخلوطة مع هذه المونة او الاسمنت. وتشير ضخامة حجارة البناء، والوصول الى الأرضية الصخرية لقطع الاساسات الحجرية عليها، وطبيعة بناء الحجرات الخمس سالفة الذكر تشير الى وجود طابق آخر أو أكثر فوق حجرات التسوية مما يدل على أهمية هذا البناء. ويعزز افتراض وجود طابق أو أكثر. وتم العثور على العديد من حجارة هذا المبنى التي اعيد استعمالها في بناء جدران الكنائس الموجودة في الموقع، حيث استدل على هذه الحجارة من الحروف اليونانية التي نحتت على معظم حجارة هذا المبنى. ونقلت اعداد كبيرة من حجارة اليصيلية الى القرى المجاورة كحوارة، وبشرى، وسال، واستعملت في بناء المنازل حتى فترة قريبة. وقد حصر نوعان من الارضيات داخل هذا المبنى، ارضية اقيمت فوق الصخور مباشرة، وأرضية علوية كانت على مستوى البلاطات الضخمة التي تشكل اساس المبنى، ويتراوح سمك الارضيات ما بين ٥ الى ١٠ سنتيمترات،



وتتكون من خلطة اسمنتية من الجير المطحون والمحروق، والرماد، وبعض كسر الحجارة الصغيرة، والرمل.

تعود طريقة بناء حجارة هذا المبنى الى الفترة الهلنستية، كما ان العثور على كسر الفخار التي تعود الى الفترة الهلنستية، قرب الاساسات يؤكد انه بني في هذه الفترة. واستخدم البناء في الفترة الرومانية. وربما رمت القصار «المونة الاسمنتية» الداخلية في الفترتين الرومانية المبكرة والمتأخرة، وعثر على الكسر الفخارية الرومانية المتأخرة والبيزنطية في الطبقات العلوية من البناء. كما اظهرت المربعات التي حفرت في الجهة الشمالية من المبنى بناء آخر يعود الى الفترة البيزنطية مكوناً من حجرات صغيرة استعملت للسكن. (١٤١)

### ٣- تل المزار:

ارخت الطبقة الأولى من التل الى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وتمثلت بهذه الطبقة العديد من الحفر الدائرية والعميقة، بالإضافة الى مخازن العلف، وقد اتخذت هذه الحفر عدة اشكال واحجام، واختلفت طرق بنائها والمواد المستخدمة في ذلك، فالبعض منها استخدم الطوب في تشييدها، وفي حالات قليلة استخدمت الحجارة في المداميك السفلى وأحياناً الطوب، ومن ثم الحجارة في المداميك العليا. ومن حيث الشكل فتعدد بين الاسطواناني والبرميلي والمخروطي، وخصوصاً تلك التي لم تستخدم الحجارة او الطوب في بنائها. كما استخدمت الشبائح الحجرية في رصف ارضيات بعض الحفر والبعض الآخر استخدم الطوب في ذلك، او الطين المضغوط. (١٤٢)

وتشير المخلفات التي وجدت في مخازن العلف، الى استخدامها لخزن كميات كبيرة من الحبوب والتبن كنوع من الوقاية خلال اوقات الجفاف، او استخدامه لتزويد قوات عسكرية، فيبدو ان الموقع كان على اتصال مع موقع (عماتا Ammata) الذي يبعد حوالي ٣ كيلومترات الى الشرق من تل المزار في الفترة الهلنستية. (١٤٣)

### ب - فلسطين: (خارطة رقم ٢)

هنالك العديد من المواقع التي تعود للفترة الهلنستية في فلسطين ومنها تل (عنافا Anafa)، (١٤٤) و (ماريسا Marisa) والتي كشف فيها عن مدينة هلنستية مكتملة التخطيط، (١٤٥) و (بيتيل Bethel) عثر فيها على بقايا معمارية، (١٤٦) وسبسطية مخطط رقم ٧، وتل بلاطة، وتل النصبة وعثليت، وتل اسدود، وتل السمك (شكمونا Shiqmona)، وتل ابو شوشه، و (رامات رحيل RAHEL-RAMAT)، وغيرها من المواقع. (١٤٧)

ابرز المواقع التي تمثل الفترة الهلنستية في فلسطين، جاءت من موقع (ماريسا Marisa) على بعد ٣٠ كليومتراً الى الجنوب الشرقي من عسقلان، فقد حلت المدينة في هذه الفترة محل تل الدوير كمدينة رئيسية، وخلال الحروب الحشمونية كانت قاعدة للهجوم



على (اليهودية Judea) التي بقيت المدينة تحت السيطرة الحشمونية حتى مجيء  
(بومبيوس POMPEIUS) عام ٦٣ قبل الميلاد. (١٤٨)

جرت الحفريات الأولى في الموقع على يد كل من (بليس وماكليستر Macalister and Bliss) عام ١٩٠٠ ميلادي، تم خلالها تحديد ثلاث طبقات، طبقتان أرختا للفترة الهلنستية،  
وواحدة للعصر الحديدي. المدينة العائدة للفترة الهلنستية كانت في تخطيطها مربعة  
الشكل ١٥٨×١٥٢ متر تغطي مساحة حوالي ٢٤ دونماً، ومحاطة بسور يتخلله عدد من الابراج  
المستطيلة والمربعة موزعة: ثلاث في الجدار الغربي، وثلاثة في الجدار الجنوبي، وواحد في  
الجدار الشرقي. (١٤٩)

بنيت جدران المدينة على اساسات من الحجارة الضخمة، وجزء منها مبني من الحجارة  
الكلسية، قطعت على شكل الطوب وبنيت بتقنية (حجر طولي يتبعه حجر عرضي Header-  
Stretcher). مخطط المدينة يتكون من شارعين متماثلين، يتجهان من الشرق الى الغرب،  
وثلاثة شوارع متعامدة من الشمال الى الجنوب، تتقاطع مع الشارعين الرئيسيين في الزاوية  
اليمنى. تدل بعض الشوارع على أنها كانت مبلطة وتحتوي على بقايا صرف المياه، يحيط  
بالشوارع اثنا عشر مبنى، احداها يقع بالقرب من الجدار الشرقي. وتمثلت المباني بمبنى  
ديني، واداري، وعسكري. اما المركز التجاري فمخططة مربع الشكل، ويحوي في المركز قاعة  
محاطة بعدد من الغرف والقاعات باحجام مختلفة، والى الغرب يوجد صف من ست غرف  
باحجام متساوية، وتطل على الشارع، ومبنى مربع في تخطيطه ويتألف من قاعتين احدهما  
تمتد على طول الشارع وكانت مبلطة بالحجارة، والاخرى تقع الى الجنوب من القاعة الاولى، تم  
التعرف على نمطين من المباني في المدنية من المباني الكبيرة، وتتكون من قاعدة محاطة بالعديد  
من الغرف، والنمط الثاني يتكون من مبان صغيرة تتكون من غرف منتظمة في  
تخطيطها. (١٥٠)

تم تحديد مرحلتين تاريخيتين في المدينة، الاولى تؤرخ الى الفترة الهلنستية المبكرة (الطبقة  
الوسطى)، والطبقة العليا للفترة السلوقية. (١٥١) لقد شجع الحكام في الفترة الهلنستية سواء  
المبكرة او المتأخرة، على بناء التحصينات واسوار المدن والحصون. ففي سبسطية سور  
المدينة العليا (الفترة الهلنستية المبكرة) بقي محافظاً على حاله وتتخلله ثلاثة أبراج دائرية  
سميكة شيدت في زمن (بيرديكاس Perdikkas) عام ٣٢١ قبل الميلاد، او زمن (بطليموس  
الاول PTOLEMAIOS I) عام ١٣٢ قبل الميلاد. (١٥٢) وفي تل دور استعيض عن الابراج  
الدائرية باخرى مربعة الشكل. اما خربة الكرك فيحيطها سور طويل مبني على اساسات من  
الحجارة البازلتية، وفي تل عنافا في الجليل الأعلى، تم تمييز ثلاث مراحل معمارية في التل،  
تعاصر الفترة من عام ٢٢٠-٧٥ قبل الميلاد، عندما سقطت على يد (اسكندر  
يانئوس Janneus). واحيطت المدينة بسور بلغ سمكه حوالي مترين، وأرخ الى النصف الثاني



من القرن الثالث قبل الميلاد، وفي المرحلة الهلنستية المتأخرة استخدمت الحجارة المغطاة بطبقة من الجص، في تشييد المباني السكنية، التي كانت أرضيتها من الطين، وجزء من الساحة مرصوف بالحجارة. (١٥٣)

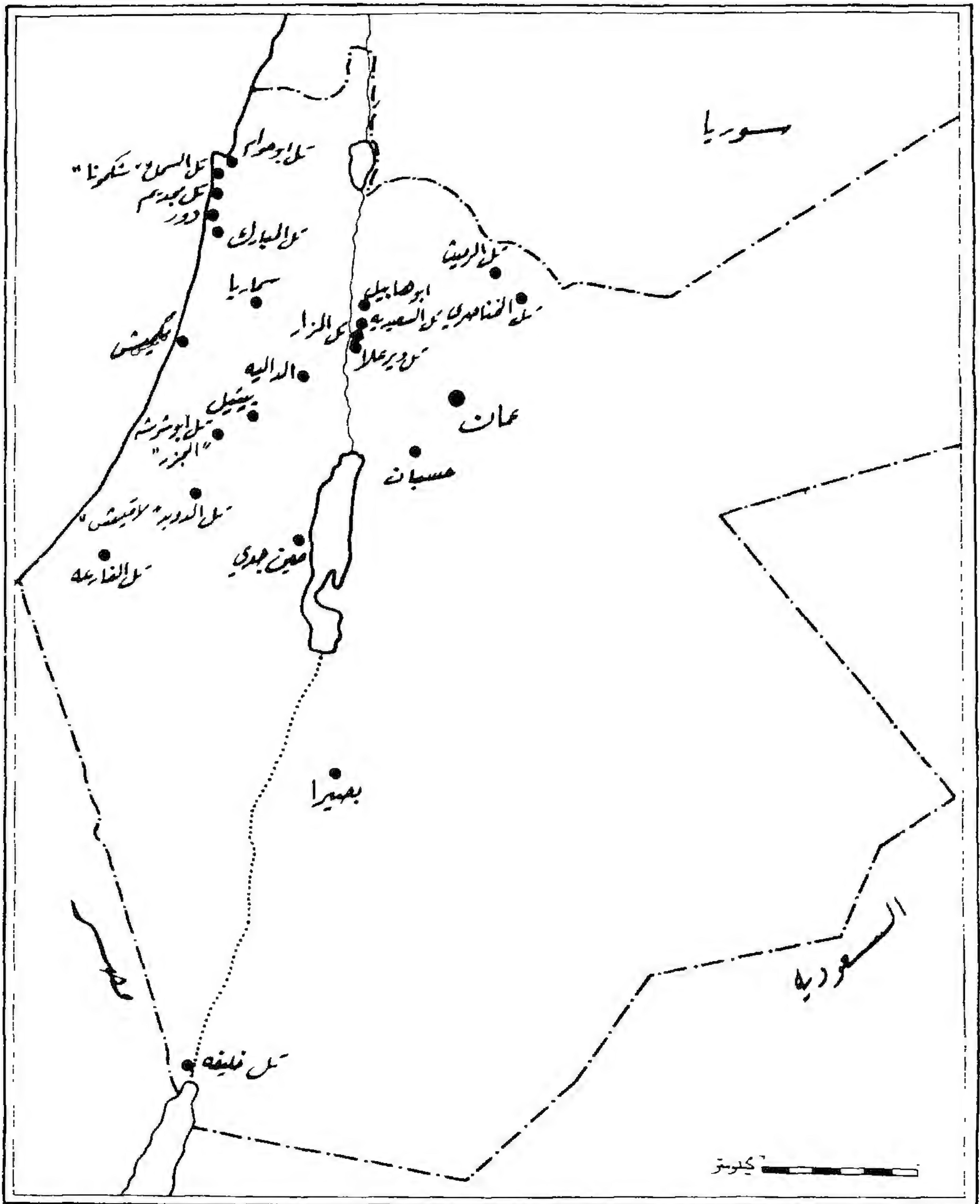
يتضح من خلال استعراض دراسة العمائر الفارسية والهلنستية في الاردن وفلسطين، المكانة الحضارية التي كانت تتمتع بها منطقتنا، رغم قلة معلوماتنا من الناحية التاريخية عن هاتين الفترتين، الا ان الشواهد المعمارية، اصبحت تلقي مزيداً من الضوء على هاتين الفترتين. فقد اتبع في تخطيط المنازل في الفترة الفارسية، نظام الساحة المكشوفة المحاطة بالعديد من الجهات بالغرف، وهذا النمط المعماري وجد له سابقة في الفترة الآشورية والبابلية، فقد كشف في العديد من المواقع الاردنية والفلسطينية، عن مثل هذا النمط المعماري، وتجلى ذلك بوضوح في موقع تل السعيدية، وعين جدي، وتل الدوير، وتل المزار، وغيرها من المواقع. ومن خلال دراسة تقنية المباني تم التعرف على استخدام تقنية (حجر طولي يتبعه حجر عرضي-Header stretcher) في المباني التي تعود للفترة الهلنستية، وكذلك رصف الارضيات بالبلاطات الحجرية، كما ويظهر في الفترة الهلنستية نمط بناء المنازل، حول ساحة مركزية محاطة بالعديد من الغرف.

اما تخطيط المدن في الفترة الفارسية، فقد جاء من خلال دراسة العديد من المرافق المعمارية في فلسطين، والتي امكن تتبع بعض المخططات المعمارية فيها، وكيفية تمركز المباني بالقرب من سور المدينة.

وفي الفترة الهلنستية نجد موقع (ماريسا Marisa) يمثل نمطاً معمارياً كاملاً، يشير الى نظام تخطيط المدن في هذه الفترة، والمتمثل بالنظام الشطرنجي، وتمثلت الانظمة التحصينية ببناء الاسوار والابراج المستديرة والمربعة.

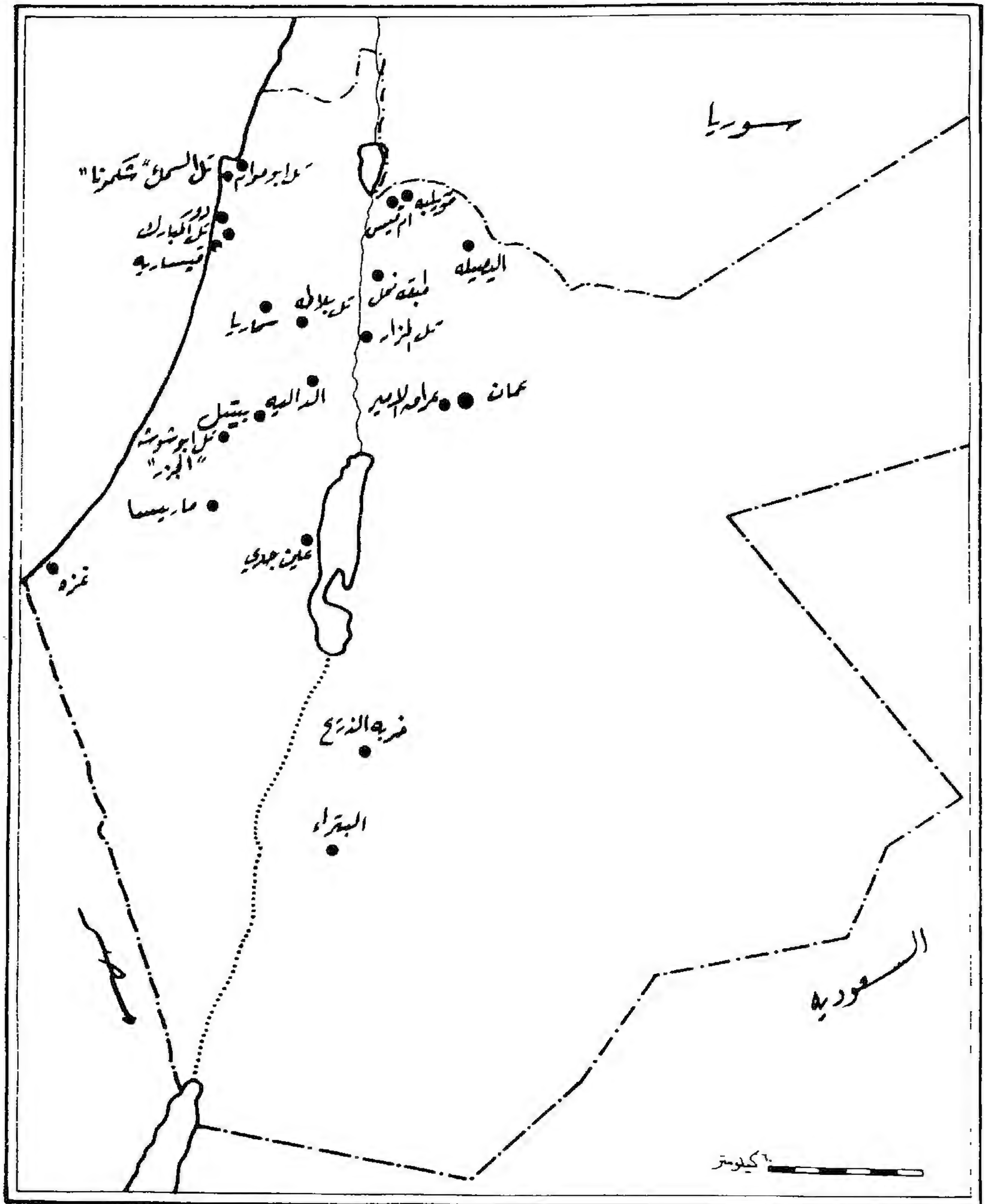


فأرسله تبين أهم المواقف في الفترة الفارسية في كل من الأردن وفلسطين

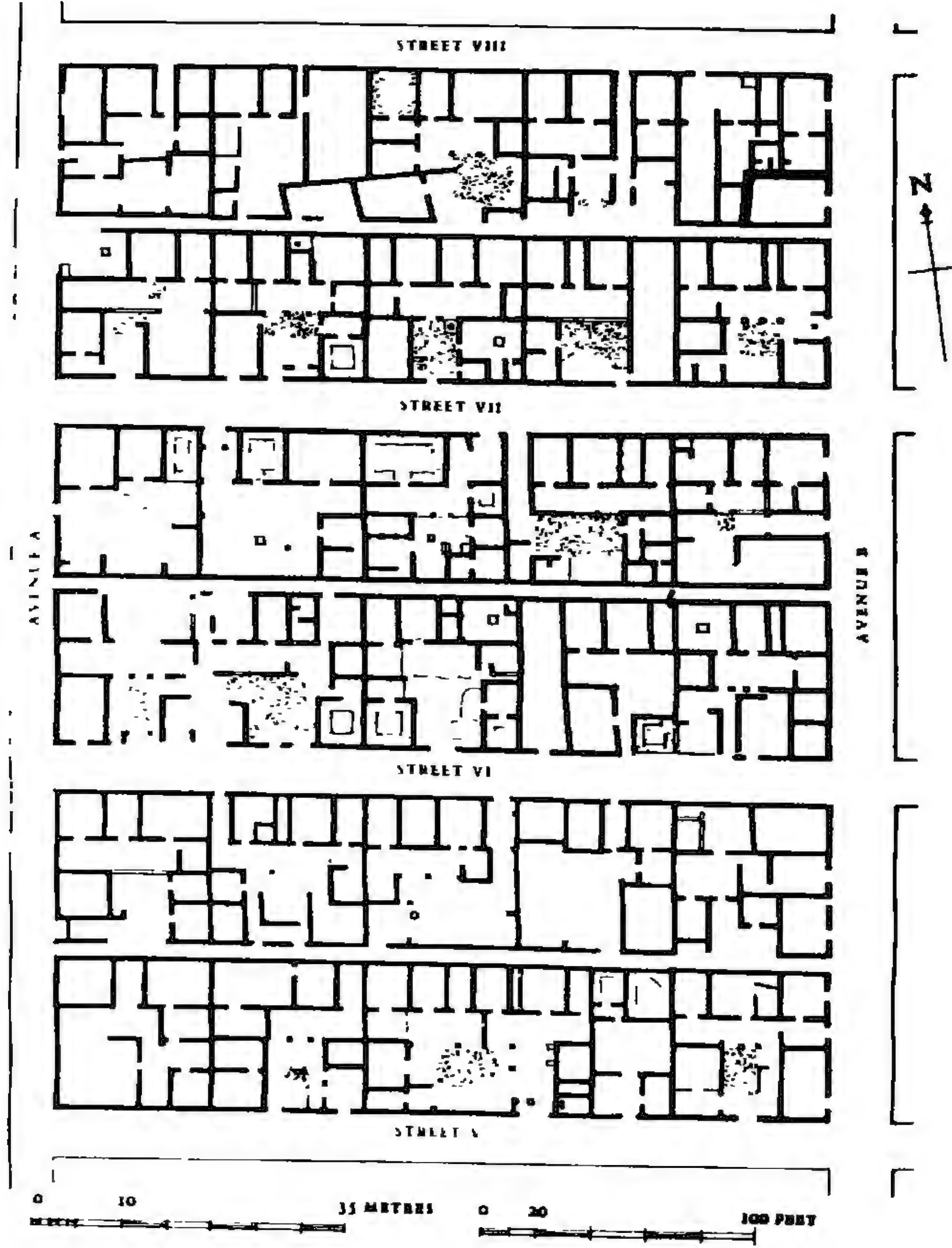




خارطه تبين اهم المراكز في الفترة الهلنستيه في كل من الاردن وفلسطين





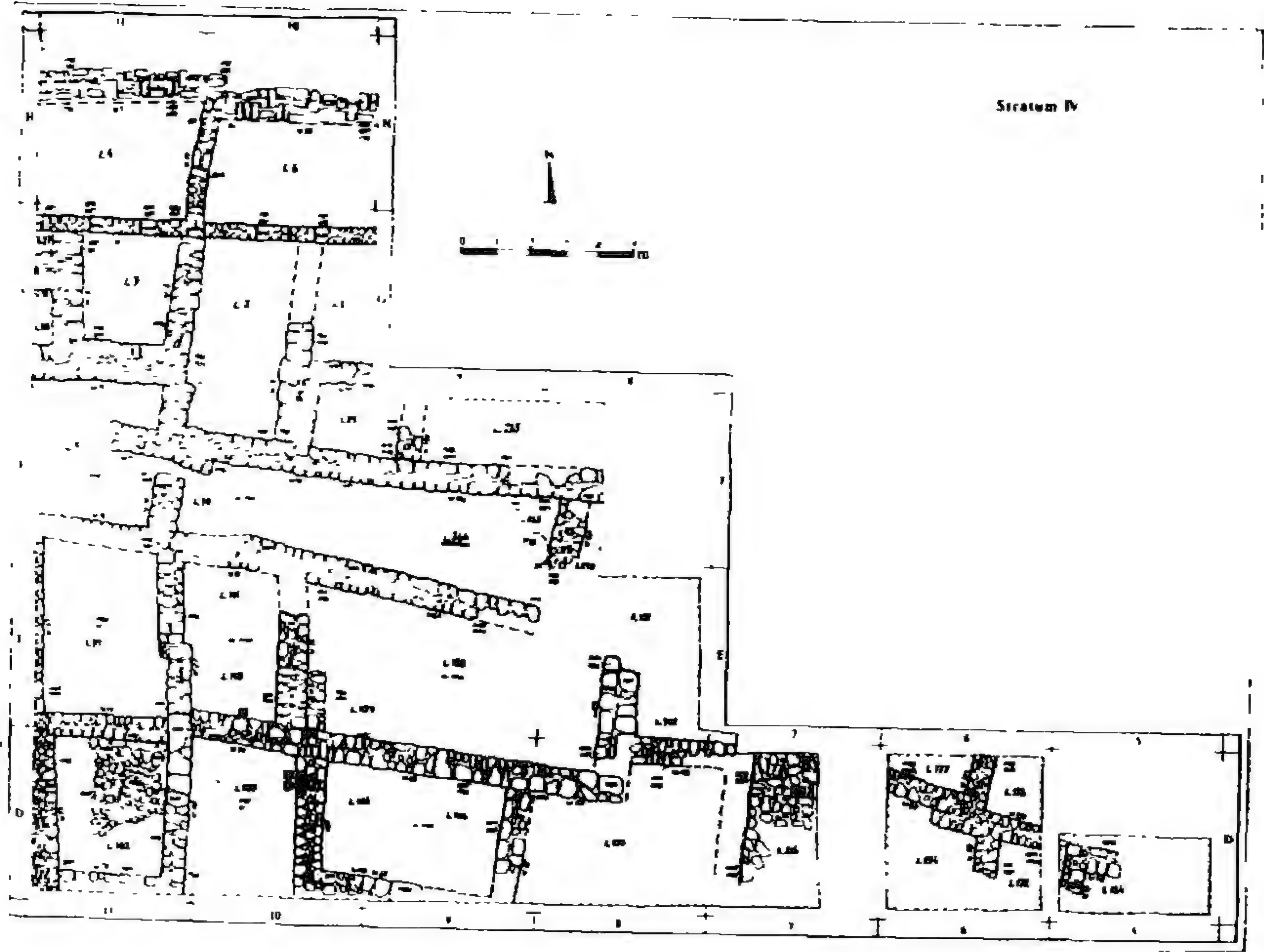


مخطط رقم (١) مخطط لمدينة أولينثوس (Olynthus) عام ٤٣٠ قبل الميلاد  
(Lawrence 1983: Fig 312)



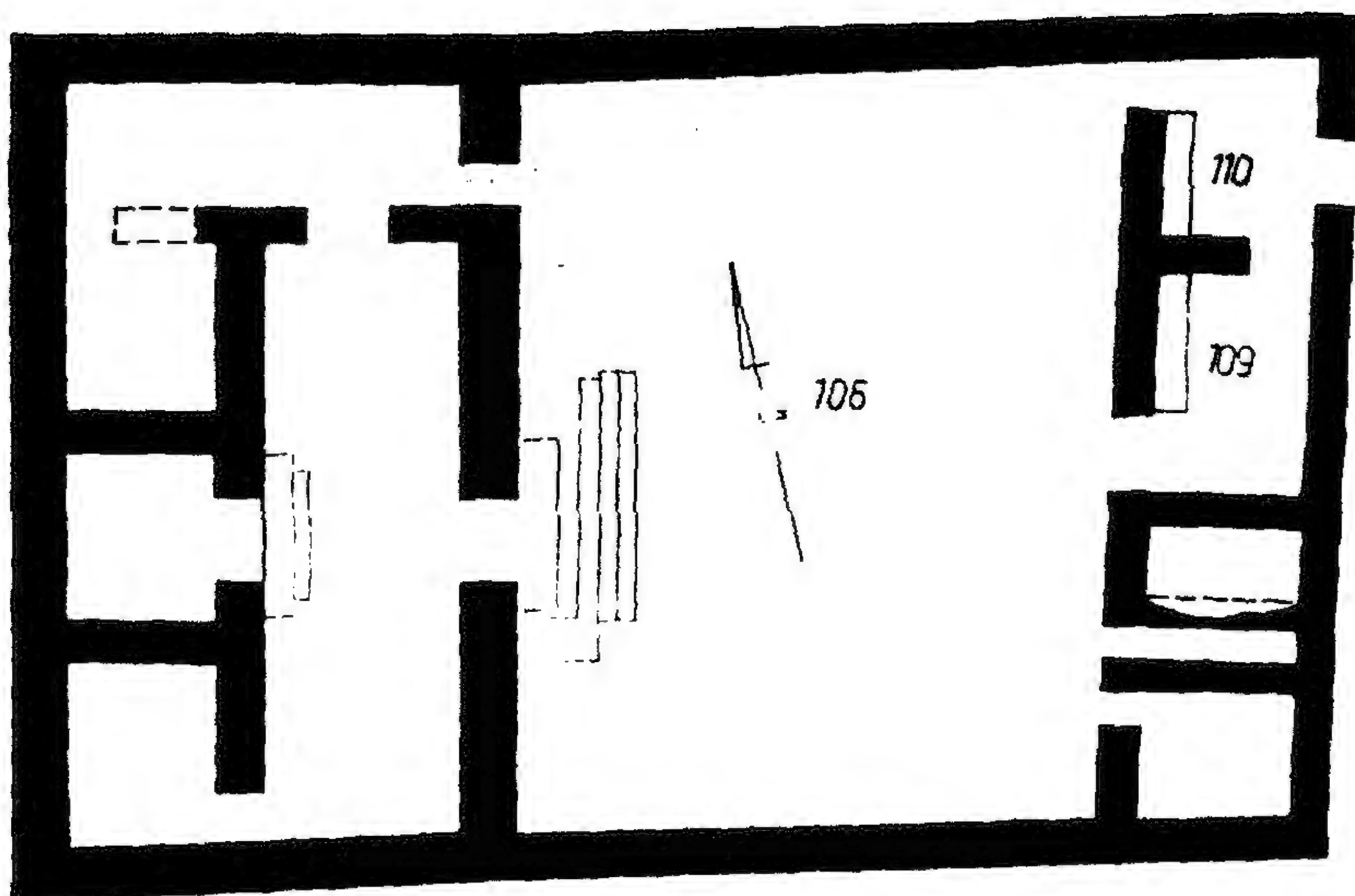






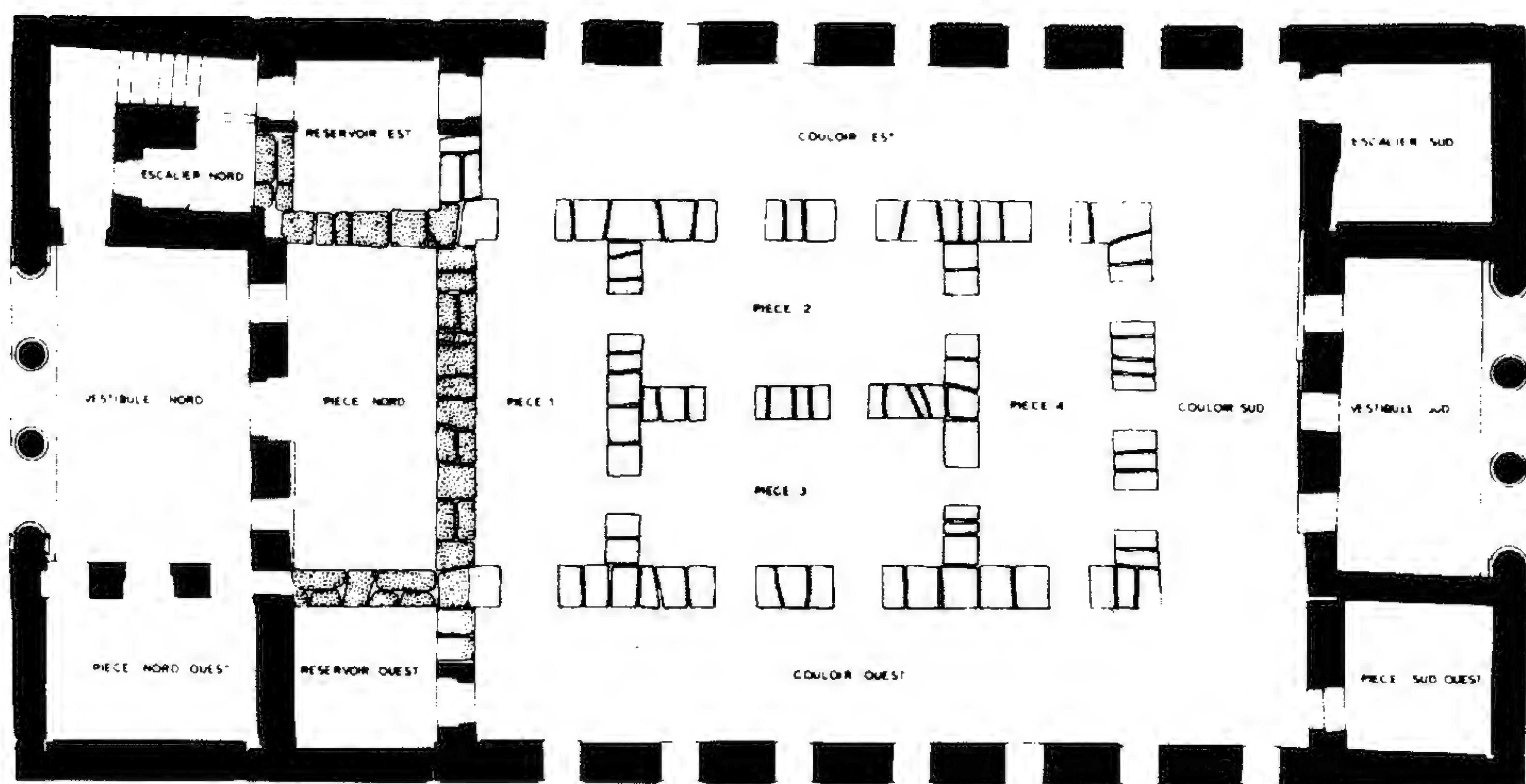
مخطط رقم (٣) · مخطط لمبنى تل المبارك (مفراك Mevorakh) يعود للفترة العرسية  
(Stern 1978: Fig 261)





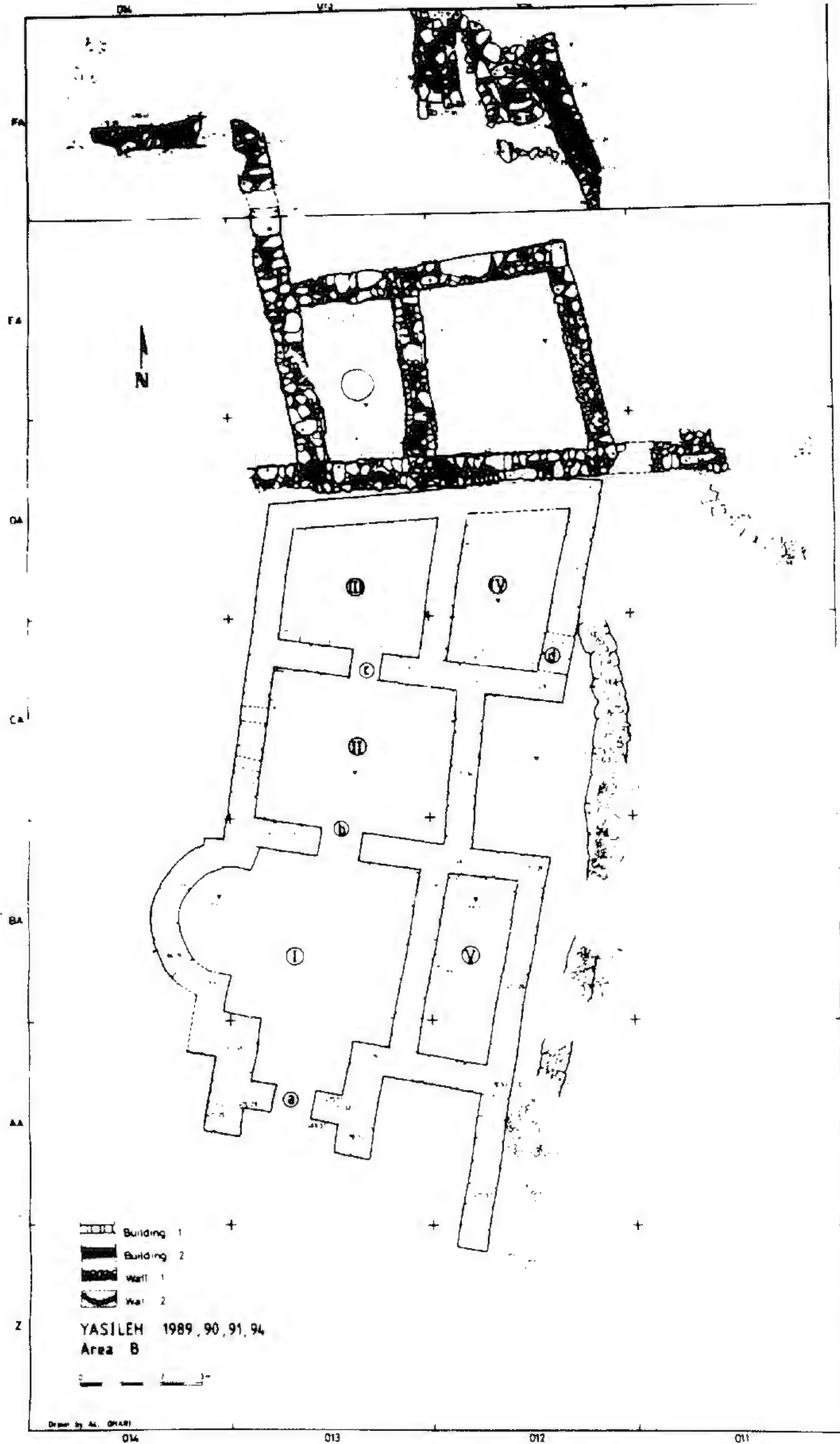
مخطط رقم (١) مخطط معبد الشمس في تل الدوير يعود للفترة الهلنستية.  
(Aharoni 1968: Fig 19)





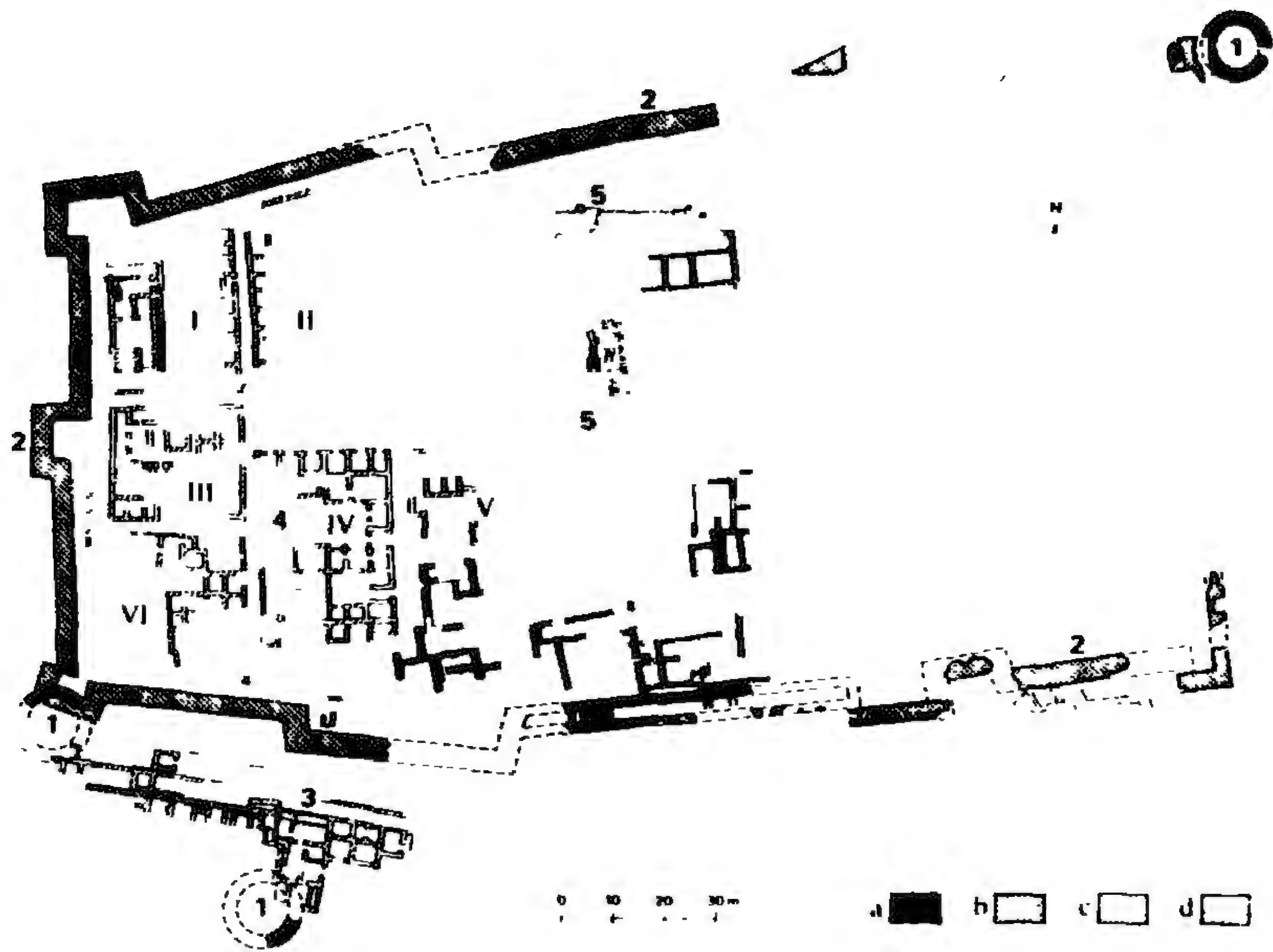
مخطط رقم (٥) : مخطط للمبنى الهلنستي في وادي السير - قصر العبد-  
 (Will and Larché 1991: II, 8, Fig 2)





مخطط رقم (٦) : مخطط للمبنى الهلنستي في موقع اليصيلة.





مخطط رقم (V) : مخطط لمدينة سبسطية في الفترة الهلنستية.  
(Kuhnen 1990: Fig 2)



## الحواشي

- (١) Fredericq , D and Franken , H . , Pottery and Potters - Past and present : 7000 years of Ceramic art in Jordan , Atempo verlag , Tubingen , 1986 , P . 174 .
- ( ٢ ) Aharoni , V . , The land of the Bible , London , 1979 , P . 411 .
- (٣) Pritchard , J . , Ancient Near Eastern texts relating to the Old TESTAMENT Princeton , 1969 , P . 316 .
- (٤) Fredericq , D . , OP . Cit . 1986 , P . 174 .
- (٥) Kenyon , K . , Archaeology in the Holy Land , London , 1979 , P . 306 .
- ( ٦ ) أبو طالب ، محمود ، آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة ، أضواء جديدة ( ١٩٥٢ — ١٩٧٧ ) ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٨ .
- (٧) Miller , J . M . and Hayes , J . H , A HISTORY of Ancient Israel And Judah, Philadelphia , 1986 . P . 437 .
- (٨) Aharoni , V . , OP . Cit , 1979 , P . 411 .
- (٩) Ibid , P . 411 .
- ( ١٠ ) Miller , J . M . , OP . Cit . 1986 , P . 463 .
- ( ١١ ) Aharoni , V . , OP . Cit . 1979 , P . 412 .
- ( ١٢ ) Stern , E . , “ Material Culture of the Land of the Bible in the Persian Period “ , Exploration Society , 1985 , P . 47 .
- ( ١٣ ) AIBRIGHT , W . , The Archaeology of Palestine , Penguin , 1971 , P . 146 .
- ( ١٤ ) Ibid , P . 143 .
- ( ١٥ ) Fredericq , D . , OP . Cit . 1986 , P . 174 .
- ( ١٦ ) Ibrahim , M . Sauer , J . and Yassine , Kh . , “ The East Jordan Valley Survey “ , BASOR , 249 , 1983 , P . 56 .
- ( ١٧ ) Harding , G . L . , “ An Iron - Age Tomb at MEQABELEIN” , QDAP , Vol . XIV , Oxford , 1950 , P . 45 .
- ( ١٨ ) Yassine , Kh , Tell el - Mazar 1 : Cemetery A . Amman , 1984 , P . 50
- ( ١٩ ) Hadidi , A . , “ An Ammonite Tomb at Amman “ , LEVANT , Vol . X1X , London , 1987 . P . 101 .
- ( ٢٠ ) Pritchard , J . , Tell Es - Sa'idiayeh . Excavations on the Tell . 1964 - 1966 Philadelphia , 1985 , P . 60 .
- ( ٢١ ) Yassine , Kh . , “ Tell el - Mazar , field I . Preliminary Report of Area G “ , ADAJ , 27 ,



AMMAN , 1983 , P . 501 .

( ٢٢ ) Glueck , N . , " The First Campaign at Tell el - Kheleifeh " , BASOR , 17 , 1938 , P . 4 .

( ٢٣ ) Kooij , V . , and Ibrahim , M . , Picking up the Threads , A continuing review of excavations at Deir Alla . Jordan , Leiden , 1989 , P . 90

( ٢٤ ) Pritchard , J . , OP . Cit . 1985 , P . 60

( ٢٥ ) Ibid , P . 60

( ٢٦ ) Ibid , P . 61 .

( ٢٧ ) Ibid , P . 61 .

( ٢٨ ) Ibid , P . 61 .

( ٢٩ ) Ibid , P . 61 .

( ٣٠ ) Ibid , P . 62 .

( ٣١ ) Ibid , P . 63 .

( ٣٢ ) Ibid , P . 63 .

( ٣٣ ) Ibid , P . 64 .

( ٣٤ ) Ibid , P . 64 .

( ٣٥ ) Ibid , P . 66 .

( ٣٦ ) Yassine , Kh. , Op . Cit . 1983 , P . 491 .

( ٣٧ ) Ibid , P . 497 .

( ٣٨ ) Ibid , P . 501 .

( ٣٩ ) Ibid , P . 501 .

( ٤٠ ) Ibid , P . 501 .

( ٤١ ) Ibid , P . 503 .

( ٤٢ ) Ibid , P . 503 .

( ٤٣ ) Stern , E . , Op . Cit . 1985 , PLXVIII .

( ٤٤ ) Tufnell , O . , Lachish III . The Iron Age , London , 1953 , P . 44 .

( ٤٥ ) Hamilton , R . W . , " Excavations at Tell Abu Hawam " , ODAP , Vol . IV , Oxford , 1934 , P . 1 .

( ٤٦ ) Stern , E . , " Tell Mevorakh ,

( ٤٧ ) Mazar , B . , and Dunayevsky , I . , " En - Gedi , Third Season of Excavation , Preliminary Report " .

( ٤٨ ) Maisler , B , " The Excavations at Tell Qasile : Preliminary Report - 1 " .

( ٤٩ ) Crowfoot , J . Kenyon , K . and Sukenik , E . , Samaria - Sebaste 1 : The Buildings , London , 1942 , p . 123 .

( ٥٠ ) Stern , E . , Op . Cit . 1985 , p . 47 .

( ٥١ ) Ibid , p . 48 .



- (٥٢) Hamilton,R.W.,Op.Cit.1934.p.2.
- (٥٣) STERN,E.,Op.Cit.1995,p.48
- (٥٤) Ibid,p.48.
- (٥٥) Lawrence,A.W.,Greek ARCHITECTURE, London,1983,p.3,
- (٥٦) Hamilton,R.W.,Op.Cit.1934.p.2.
- (٥٧) Ibid,p.3.
- (٥٨) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.50
- (٥٩) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.150.
- (٦٠) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.54
- (٦١) Amiran,B.K.and Dunayevsky,I.,”The Assyrian Open-Court Building and its Palestinian Derivatives”,BASOR,149,1958,pp31-32.
- (٦٢) Mazar , B . , and Dunayevsky , I . , “ En - Gedi , FOURTH of EXCAVATION , Preliminary Report “ .
- (٦٣) Ibid,p.135.
- (٦٤) Ibid,p.136.
- (٦٥) Ibid,p.137.
- (٦٦) Mazar,B.,Op.Cit.1964.p.126.
- (٦٧) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.131.
- (٦٨) Ibid,p.132.
- (٦٩) Ibid,p.132-133
- (٧٠) Ibid,p.131.
- (٧١) Ibid,p.135
- (٧٢) Maisler,B.,Cit.1950-51,p69.
- (٧٣) Maisler,B.,”Report-II”
- (٧٤) Stern,E.,”The Excavations at Tell Mevorakh I, the Hellenistic, Persian and early strata”,QEDEM,9,1978,p.26.
- (٧٥) Ibid,p.26.
- (٧٦) Ibid,p.26.
- (٧٧) Ibid,p.27.
- (٧٨) Ibid,p.27-28.
- (٧٩) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.141.
- (٨٠) Ibid,p.141.
- (٨١) Ibid,p.141.
- (٨٢) Ibid,p.143.
- (٨٣) Ibid,p.143.
- (٨٤) Aharoni,Y.,”Trial EXCAVATION in the Solar Shrine at Lachish”, Preliminary Report.



- (٨٥) Ibid,p.159.
- (٨٦) Ibid,p.159.
- (٨٧) Ibid,p.160.
- (٨٨) Stern,E.,Op.Cit.1958,p.36
- (٨٩) Avigad, N., "Excavations at Makmish,1958, Preliminary Report"
- (٩٠) Stern,E.,Op.Cit.1978,p.29
- (٩١) Stern .E., "The PHOENICIAN Architecural Elements , in Palestine during the late Iron Age and the Persian period",Exploration Society, 1992,p.302.
- (٩٢) Ibid,p.303.
- (٩٣) Ibid,p.304
- (٩٤) Ibid,p.308.
- (٩٥) Albright, W., Op.Cit. 1971,p.143.
- (٩٦) Stern,E. "the dating of statum II at Tell Abu Hawam
- (٩٧) Tsori, N., "A contribution to the problem of the Persian period at Bethshan",PEQ, 1977,p.105.
- (٩٨) Lapp,N., "The Late Persian Pottery, discoveries in the Wadi Eddaliyeh" AASOR, XLI,1974,p.30.
- (٩٩) Albright ,W.,Op.Cit.1971,p.146.
- (١٠٠) Van ELDEREN, B.,Hellenistic Period, In the Archaeological periods and Site(East Bank) ,Vol.1. Department of Antiquities, Jordan,1973,p.30.
- (١٠١) Kuhnen, H.P.,PALASTINA in Griechisch-romischer Zeit, Band2,Munchen,1990,pp,32-33.
- (١٠٢) Fredericq, D.,Op.Cit.1986,p.178.
- (١٠٣) Smith , R . H . , " The Southern Levant in the Hellenistic period , LEVANT , VolXXII , 1990 , P . 123 .
- (١٠٤) Fredericq , D . , OP . Cit , 1986 , P . 178 .
- (١٠٥) Aibright , W . , Op . Cit . 1971 , P . 146 .
- (١٠٦) Smith , R . H . , OP . Cit , 1990 , P . 123 .
- (١٠٧) Kuhnen , H , P . , OP . cit , 1990 , P . 38 .
- (١٠٨) Lapp , P . , " Palestinian Ceramic Chronology 200 B . C - 70 A . D " . AASOR III , NewHaven , 1961 , P . 40 .
- (١٠٩) Smith , R . H . , OP . cit . 1990 , P . 124 .
- (١١٠) Ibid , P . 123 .
- (١١١) Will , E . , " The Recent French Work at Araq el - Emir , The Qasr el - Abd Re-discovered , " The Excavations at Araq el - Emir , Vol. 1 , AASOR 47 - 48 , 1980 - 81 , P . 149 .
- : لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر :  
Will , E. and Larche , F . Iraq al Amir , B . A . H . T.CXXXII , Paris , 1991 .
- (١١٢) Pritchard , J . , Op . Cit . 1985 , P . 69 .



- (١١٣) Smith , R . H . McNicoll , A . W . and Hennessy , J . B . , " The 1980 Season at Pella of the Decapolis " , BASOR , 249 , 1983 , P . 71 .
- (١١٤) Ibrahim , M . Sauer , J . and Yassine , Kh . , " The East Jordan Valley Survey , 1975 " , BASOR , 222 , 1976 , P . 58 .
- (١١٥) Will , E . , Op . Cit , 1980 - 81 , PP . 44 - 50 .
- (١١٦) Ibid , P . 151 .
- (١١٧) Conder , C . , The Survey of eastern Palestine I . London , 1889 , P . 78 .
- (١١٨) Will , E . , Op . Cit . 1980 - 81 , P . 152 .
- (١١٩) Ibid , P . 152 .
- (١٢٠) Ibid , P . 152 .
- (١٢١) نيف . فرانسوا . « عراق الأمير » الهيئة المشاركة الفرنسية للآثار ، المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى ، عمان ، ١٩٨٤ ، ص ٩ .
- (١٢٢) Dentzer , J . , Villeneuve , F . and Larche , F . , " The Monumental Gateway and the princely Estate of Araq el - Emir " , The Excavations at Araq el-Emir , Vol . 1 , AASOR , 47-48 , 1980 , PP . 132-146 .
- (١٢٣) Ibid , P . 137 .
- (١٢٤) Ibid , P . 138 .
- (١٢٥) Ibid , PP . 147 - 148 .
- (١٢٦) Groot , J . , " Wall Decoration " , The Excavations at Araq el-Emir , vol. I , AASOR , 47 - 48 , 1980 , PP . 76 - 77 .
- (١٢٧) Dentzer , J . , Op , Cit . 1980- 81 p . 147 .
- (١٢٨) Pritchard , J . , Op , Cit . 1985 , P . 69 .
- (١٢٩) Ibid , p . 69 .
- (١٣٠) Ibid , p . 70 .
- (١٣١) Ibid , P . 70 .
- (١٣٢) Ibid , p . 71 .
- (١٣٣) Smith , R . H . McNicoll , A . W . and Hennessy , J . B . , " The 1981 Season at Pella of the Decapolis " , BASOR , 243 , 1983 , p . 71 .
- (١٣٤) Ibid , p . 7 - 8 .
- (١٣٥) Ibid , p . 8 .
- (١٣٦) Smith , R . H . , Op. Cit , 1983 , p . 71 .
- (١٣٧) Ibid , pp . 71 - 72 .
- (١٣٨) Ibid , p . 71 .
- (١٣٩) Ibid , p . 71 - 73 .
- (١٤٠) Ibid , p . 73 - 74 .
- (١٤١) Al - Muheisen , Z . , "L'archeologie de la periode Hellenistique dans le Nord de La Jordanie : problemes et perspectives " , TRANS , 8 , Paris , 1994 , pp . 29 - 34 , pls . I-V .



- .....
- لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر : —
- Al- Muheisen , Z . , “ Yasileh , A New site in Northern Jordan “ , ADAJ , XXXV , Amman , 1991 , pp . 341 - 346 .
- Tarrier , D. and Al-Muheisen , Z . , “ La Necropole de Yasileh et les Tombeaux du Nord de la JORDANIE “ , ARAM , Vol . 4 . No . 1 - 2 , 1992 , Oxford , pp . 229 - 244 .
- (١٤٢) Yassine , Kh . , Op . Cit . 1983 , pp . 497 - 498 .
- (١٤٣) Ibid , p . 498 .
- (١٤٤) Weinberg , S . , “ Tell Anafa , The Hellenistic Town “ .
- (١٤٥) Avi-Yonah , W . , “ Mareshak ( Marisa ) , in Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land , Vol . 111 , 1977 , p . 782 .
- (١٤٦) Albright , W . and Kelso , J . , “ Bethel in the Persian and Hellenistic periods “ , The Excavations of Bethel ( 1934 - 60 ) , ASOR , XXXIX , 1968 . p . 39 .
- (١٤٧) Kuhnen , H . P . , Op . Cit , 1990 , pp . 40 - 42 .
- (١٤٨) Avi-Yonah , W . , Op . Cit , 1977 , p . 782 .
- (١٤٩) Ibid , p . 783 .
- (١٥٠) Ibid , p . 783 .
- (١٥١) Ibid , p . 788 .
- (١٥٢) Kuhnen , H . P . , Op . Cit , 1990 , p . 43 .
- (١٥٣) Weinberg , S . , Op . Cit . 1971 , pp . 89 - 91 .

## مختصرات أسماء المراجع والمصادر

AASOR : Annual of the American Schools of Oriental Research .  
ADAJ : Annual of the Department of Antiquities of Jordan .  
B . A . H : Bibliotheque Archeologique et Historique .  
BASOR : Bulletin of the American Schools of Oriental Research .  
PEQ : Palestine Exploration Quarterly .  
QDAP : Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine .  
TRANS : Transeuphratene .



القضاة الأنكليسيون  
والمغاربة في بلاد الشام  
في عصر المماليك







# القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك

الدكتور ابراهيم زعرور  
قسم التاريخ - جامعة دمشق

مقدمة:

منذ اتمام عملية فتح المغرب والاندلس، قامت علاقات بينها وبين بلاد الشام على أكثر من صعيد، وقد تفاوتت هذه العلاقات من حيث أهميتها ونشاطها، فكانت ذات زخم كبير ووتيرة عالية في الميدانين الاقتصادي والثقافي؛ ففي الميدان الاقتصادي؛ ازدهرت التجارة بكل أنواعها وتفرعاتها؛ بين بلاد الشام والمغرب والاندلس، وكذلك الأمر في الميدان الزراعي والصناعي، حيث تبودلت الخبرات والعلوم والمعارف حول ذلك، فنقلت إلى الاندلس زراعات شامية ومشرقية كثيرة، مثل الحمضيات والرمان والارز والباذنجان والارضي شوكي والقطن والسكر وغيرها، كما أن عدداً من الصناعات تبودلت بين البلدين، مثال ذلك صناعة الحرير وصناعة الخزف والطواحين المائية وغيرها، حتى أن بعض هذه الصناعات نقل فيما بعد إلى أوروبا كما هو معروف.

وفي الميدان الثقافي، نشطت حركة قوية بين البلدين، ذلك لأن الاندلس والمغرب كانتا بحاجة ماسة إلى ثقافة وعلوم المشرق، وظلت هذه الحاجة قائمة حتى وقت متأخر من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، عندما استقل المغاربة والاندلسيون، وراحوا يشقون طريقهم معتمدين على أنفسهم. وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، وتفوقوا على المشاركة في عدد من الأمور الثقافية، وعلى الرغم من أنهم ظلوا ينظرون إلى المشرق نظرة احترام واعجاب وتقدير. أما في الميدان السياسي، فلم يكن الأمر كذلك، فقد كانت القطيعة بين البلدين شبه كاملة، باستثناء فترة قصيرة سيطر خلالها الفاطميون على المغرب العربي، وعلى الرغم من هذا الواقع المحزن، فقد كانت تتم في السر عمليات اتصال بين البلدين، هدفها السيطرة على المشرق وضمه إلى الاندلس.

ومن المقرر، أن العلاقات بين بلاد الشام والمغرب والاندلس كانت طيبة وطبيعية خلال



فترة ما قبل القرن الخامس الهجري أو القرن السادس ، واستقبل المغاربة والاندلسيون في بلاد الشام على هيئة طلبة علم وتجار وزائرين خلال هذه الفترة، لتختلف الصورة خلال الفترة التالية، وتصبح بلاد الشام من أهم أقطار المشرق العربي بالنسبة للمغاربة والاندلسيين الذين قصدوها، واستقروا فيها وأصبحوا من رعاياها بلا معارضة أو قيود.

فما الذي حدث على الساحة الاندلسية والمغربية، حتى لجأت فئة من سكانها إلى المشرق، خاصة إلى بلاد الشام، وما العوامل التي شجعت على ذلك؟

للإجابة عن ذلك، يمكن القول أن ما حدث وبخاصة في الاندلس، كان بفعل عدد كبير من العوامل القاهرة، التي كان أقسامها على الإطلاق، فقدان الاندلسيين لأوطانهم ومدنهم من جراء التقدم الإسباني، الذي سيطر على رقعة واسعة من الاندلس؛ فلم تأت سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٣ م حتى كانت معظم معاقل العرب في الاندلس، تحت السيطرة الإسبانية بشكل أو بآخر، الأمر الذي أجبر الغالبية العظمى من العرب إلى هجر بلدانهم والتوجه إلى بلاد متعددة في المشرق والمغرب، وكانت بلاد الشام من ضمنها، وكان قدوم المغاربة والاندلسيين إليها نشيطاً ومميزاً، لأنها كانت تتوافق مع أوضاعهم العامة؛ فمن الناحية السياسية، وافقت السلطات الشامية على مقدم الاندلسيين والمغاربة، وكذلك بالنسبة للأمور الاقتصادية والطبيعية وما إلى ذلك، حتى أنه يمكن القول في هذا الصدد، أن بلاد الشام كانت البديل المناسب لكثير من الاندلسيين والمغاربة، الذين فقدوا أوطانهم أو حق الإقامة فيها لسبب أو لآخر، وقد اشتغلوا بحرية تامة في كل المجالات العامة، دون أن يواجهوا أدنى عقبة، حتى أنهم فضلوا في أحيان كثيرة على الشاميين أنفسهم، وسنقتصر في بحثنا على العاملين الاندلسيين والمغاربة في ميدان القضاء.

## ١- القضاء على المذهب المالكي:

لم يكن منصب القضاء على المذهب المالكي قد عرف في وقت مبكر في بلاد الشام، كما كان الحال بالنسبة لبعض المذاهب الأخرى؛ ولعل مرد ذلك يعود إلى ندرة العاملين في هذا المذهب في الشام. وقد ظهر هذا المنصب، بعد أن بدأ الاندلسيون والمغاربة يفدون إلى الأرض الجديدة (بلاد الشام) بقصد الاستقرار والاستيطان، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء على المذهب المالكي، في الفترة الأولى من وصولهم.

لكن الشيء المؤكد، أن اعتماد قاضٍ مالكي، لم يؤخذ بصورة رسمية إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وأول ما بوشر باعتماد هذا المنصب، كان في مدينة دمشق سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م. ففي هذه السنة جعل بدمشق أربعة قضاة لأول مرة في تاريخها، هم القاضي الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي (٢) وهكذا فقد بدأت هذه العادة



بالانتشار تباعا في بقية المدن الشامية الاخرى. ففي مدينة حلب، أول ما اعتمد فيها قاض مالكي، كان في سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٧م، حيث عين لهذا المنصب شهاب الدين بن أحمد الرياحي (٣).

أما بقية المدن الشامية الاخرى، فسنأتي على ذكر سنة استحداث هذا المنصب فيها، ضمن الحديث عن القضاة. لكن وقبل البدء في ترجمة الاندلسيين المغاربة، الذين شغلوا منصب قاضي القضاة في بلاد الشام، فإن من الجدير التنويه ببعض الملاحظات الهامة في هذا المجال، تتجلى احداها، بأنه خلال فترة حكم الزنكيين والايوبيين، لم يكن هناك ما يسمى بالقاضي المالكي، كما ذكرت قبل قليل، ولا يستبعد أن يكون سبب ذلك قد عاد إلى أن الجالية الاندلسية، كانت ماتزال قليلة العدد، وبالتالي لم يشتهر أمرهم، وذلك إذا ما قورنوا بالفترة التي تلت، وهي فترة حكم المماليك، التي شهدت هجرة أندلسية مغربية كثيفة إلى بلاد الشام، بفعل الاحداث والكوارث المؤثرة، التي نزلت بالعرب في الجناح الغربي من الدولة العربية الاسلامية. ويمكن طرح سؤال مفاده، كيف كان الاندلسيون والمغاربة يحلّون مشاكلهم الخاصة والعامة؟ فالقول بأنهم كانوا يلجأون إلى قضاة المذاهب الأخرى، قول لا يخلو من الصحة أبداً، باعتبارهم مسلمين، لكن ربما كان ذلك عند حدوث مشاكل تمس الحياة العامة، بحيث لا يمكن لاحد الفصل فيها إلا القاضي. أما في المسائل العادية، كالفتوى والامور الفقهية الاخرى، فربما كان الاندلسيون والمغاربة يلجأون إلى حلها عن طريق الاكابر منهم والمعهود لهم بالعلم والمعرفة، وبخاصة الذين تسموا بـ(شيخ المالكية).

الملاحظة الاخرى التي يمكن الاشارة إليها حول هذا الموضوع، تتلخص بالقول، ان الذين تولوا هذا المنصب الهام، لم يكونوا متساوين في الكفاءة والاهلية، انما حدث في كثير من الاوقات، أن تسلّمه كثيرون منهم، مع أنهم كانوا يفتقرون إلى أدنى الشروط التي يجب توفرها، بمن يتصدى لهذه المهمة الصعبة.

وقد شغل الحكام دوراً رئيساً في هذا المجال تمشياً مع الظروف السائدة، فكانوا يصيبون أحياناً ويخطئون أحيانا أخرى. ومهما يكن من أمر، فإنه لم يكن هناك قواعد ثابتة أو بالاحرى شروط معينة ومتبعة يجب أن تتوفر بالمرشح لهذا المنصب، وان كان من الملاحظ، أنه من الواجب توفر المعرفة العميقة والواسعة بالشرعية الاسلامية، وبمذهبه بشكل خاص، الأمر الذي لم يتوفر بكل الذين تسلموا القضاء في الشام، فتباينوا من حيث الأهلية العلمية والسلوكية الاخلاقية، وانقسموا من هذه الناحية إلى فريقين : الفريق الأول، توفرت برجاله كل الشروط الواجب توفرها بالقاضي من علم وأخلاق، وإن كان الامر لا يخلو من بعض حالات شاذة، فكان أفرادهم أمثلة صالحة، عملوا من خلال مناصبهم القضائية على تحري الاحكام العادلة المنصفة وتطبيقها دون خوف ولا حرج. كما برهنوا من جهة أخرى، على احترام منصب القضاء وجعله مستقلا عن ارادة الحكام ومشيتتهم، يحدوهم في ذلك، معرفتهم



الشرعية العالية في المذهب المالكي. وتشاء الظروف، أن يكون أول قاضٍ مالكي في بلاد الشام من هذه الفئة، والذي تمثل بزين الدين محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، المولود بمدينة بجاية سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م أو التي قبلها. قدم مصر سنة ٦١٥هـ / ١٢١٩م حيث درس علم القراءات وغيرها، ومن مدينة الاسكندرية انتقل إلى الشام، فاستقر بمدينة دمشق سنة ٦١٦هـ / ١٢٢٠م، وتصدر مشيخة التدريس بترية أم الصالح بالصالحية، وبالجامع الأموي الكبير، وعندما استحدثت مناصب القضاة الأربعة بدمشق، أكره على تسلم منصب قاضي قضاة المالكية، فظل يقوم بهذه الوظيفة على مضض فترة تسع سنوات متتالية، بدءاً من سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م. عاد بعدها إلى مهنة التدريس، حتى وافته المنية سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٣م (٤) ودفن في مقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، شارك في تشييعه نائب الشام نفسه. ويقول ابن قاضي شهبة، أن قبره مقصود بالزيارة، وهذا دليل ثقة الناس به لمكانته الكبيرة؛ (٥) ويعد الزواوي هذا من الشخصيات النادرة والفريدة تقريباً ممن تسلم قضاء الشام من المالكية، لرفضه تقاضي أي راتب لقاء عمله كقاضي قضاة المالكية (٦). وإذا كان عبد السلام هذا رفض تسلم منصب قاضي القضاة في البداية، فإن ابن عمه جمال الدين يوسف بن عبد الله بن عمر أبو يعقوب الزواوي، كان على العكس تماماً. فقد بذل جهداً كبيراً في حياة عبد السلام، كي يحل محله، ذلك أنه كان يعمل نائباً له في القضاء. وتحققت ارادة جمال الدين هذا، بأن أسفرت جهوده عن الفوز بمنصب قاضي قضاة مدينة دمشق على المذهب المالكي، حتى وافته المنية وهو بطريق الحج سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٦م (٧). وتناقلت الشخصيات القضائية من آل الزواوي بدمشق، حيث خلف القاضي متقدم الذكر قاض آخر، هو محمد بن سليمان، الملقب بجمال الدين أيضاً. ولد سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م. قدم الاسكندرية ودرس على بعض علمائها، لينتقل بعد ذلك مابين القاهرة ومدينتي الشرقية والغربية، يعمل نائباً لقاضي المالكية، حين عين قاضي قضاة القاهرة فترة لا بأس بها. ولظروف غير معروفة على وجه الدقة، غادر مصر قاصداً مدينة دمشق، وفيها تسلم منصب قاضي قضائتها منذ سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م. وقد ضرب رقما قياسياً في الفترة الزمنية التي أمضاها في القضاء، فوصلت إلى نحو ثلاثين سنة، قضاه دون كلل ولا ملل. وقد عرف بصراحته وصلابته، لا يتراجع عن قراراته واحكامه.

وفي آخر أيامه، اعتراه مرض اقعده الفراش ومنعه عن الكلام فقام بعزل نفسه قبل وفاته بأيام قليلة من سنة ٧١٧هـ / ١٣١٨م بدمشق، ودفن بمقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، شارك فيها العامة والخاصة (٨) ولأدل على مكانته المرموقة، من أن غالبية الذين ترجموا له وصفوه بالاستقامة والعدل وانفرد عن كل أفراد هذه الفئة، بأن اقدم على تجديد عمارة مدرستين في مدينة دمشق، هما المدرسة الصمصامية والمدرسة النورية. وكما ذكرنا في مستهل هذا البحث، أنه بعد استحداث منصب قاضي المالكية بدمشق سنة



٦٦٤هـ / ١٢٦٦م، بدأت هذه العادة، تعتمد في المدن الشامية الاخرى . وكانت مدينة حلب هي أول المدن الشامية بعد دمشق، التي استحدث فيها هذا المنصب في سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م (٩) فكان أول قاض مالكي في مدينة حلب، من الذين امتثلوا الاستقامة والعفة، وتحلوا بحسن الاخلاق، ولين العريكة، ونشدان الحق في جميع احكامه، هو أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدميري المالكي، الملقب بصدر الدين، ولي القضاء بحلب بعد عزل شهاب الدين الرياحي فترة من الزمن، وقبل وصوله إلى حلب كان يعمل نائباً للقاضي المالكي بمصر، وظل في قضاء المالكية بحلب سبع سنوات متتالية من سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م حتى نهاية ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م (١٠).

أما النموذج الآخر من هؤلاء القضاة، فقد تمثل بشخص ابراهيم بن عبد الله ابن عمر الصنهاجي المالكي، وهو يختلف عن الذين مر ذكرهم حتى الآن، بأنه من مواليد مدينة دمشق سنة ٧١٧هـ / ١٣١٨ أو ٧١٨هـ / ١٣١٩م، وفيها نشأ وتلقى علومه على علماء، معظمهم من الاندلسيين.

وكان من الحافظين لموطأ الامام مالك. ويبدو أنه كان من الشخصيات المالكية المعروفة بدمشق، ودليل ذلك أنه كلف بتوقيع رسمي سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨٢م لان يتسلم منصب قاضي قضاة دمشق على المذهب المالكي، فلم يقبل. وحدث أن تكرر تكليفه في سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م فامتنع أيضاً؛ وعلى الرغم من حالة الرفض هذه، فقد بقي الحكّام يلحون عليه، حتى وافق بتسلم قاضي قضاة المالكية بدمشق لمدة ثلاث سنوات؛ توفي بمدينة دمشق على حين غرة سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م، حيث دفن بالمزة (١١).

ومن هؤلاء القضاة من تنقل في أكثر من مدينة شامية، كقاض لقضاة المالكية، وكنايب له. كان منهم القاضي ابراهيم بن محمد بن علي التادلي، المدعو أبو سالم، الذي تنقل بين دمشق وحلب. ويختلف عن القضاة متقدمي الذكر، أنه تكرر عزله واعادته بشكل لافت للنظر. فقد ولي قضاء حلب أول مرة سنة ٧٧١هـ / ١٣٧٠م، كقاض قضاة، علماً بأنه كان ينوب عن القاضي فيها قبل هذه السنة. وتكرر عزله واعادته خلال الفترة التي تلت هذا التاريخ. ففي سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٦م، استقر في قضاء حلب عوضاً عن ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن سري الدين المعروف بابن هانيء الاندلسي، (١٢) ثم انتقل في السنة التي تلت إلى مدينة دمشق وتسلم قضاءها عوضاً عن زين الدين أبي بكر المازوني، لكنه لم يستقر سوى فترة قصيرة عزل بعدها عن القضاء، وحل محله علم الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين القفصي، الذي بقي حتى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م، ثم عزل وأعيد مرات عديدة.

وهكذا، فإن الفترة التي أمضاها في القضاء في كل من حلب ودمشق، بلغت بمجموعها نحو ثلاثة عشر عاماً ونصف العام. وكان خلال هذه الفترة نموذجاً للقضاة، الذين توفرت فيهم القوة والتصميم والجد في العمل، اضافة إلى الشجاعة والجرأة في اصدار الاحكام، وامثال



العدالة والمساواة بين الناس. ويظهر هذا بشكل مؤكد، من خلال قصيدة أرسلها إليه أحد أعيان حلب المعروف بالبدر أبي محمد بن حبيب، عندما كان يستعد لمغادرة حلب إلى دمشق. يقول مخاطباً القاضي المذكور:

سر إلى جنة الشام دمشق  
حاكماً عادلاً رفيع المقام  
رامت القرب منك فادخل إليها  
يا أبا سالم بأنكى سلام

توفي بدمشق سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م وهو قاض (١٣).

أيضاً وفي مدينة دمشق، يمكن أن نضع قاضيين اثنين ضمن هذه الفئة، تباينت فترات استلامهما لمنصب القضاء، هما القاضي يحيى المعروف بمحي الدين المغربي، المتوفي سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٩م (١٤)، والقاضي يعقوب بن يوسف المعروف بالشرف القرشي المغربي، الذي عزل وأعيد إلى القضاء منذ سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٩ حتى وفاته في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٤م. وقد ذكر السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) أنه كان يعرفه جيداً، واطلع على بعض احكامه في سنة ٨٥٦هـ / ١٤٥٣م (١٥).

وعلى الرغم من أهمية بيت المقدس، فإن منصب قاضي المالكية ظل دون استحداث إلى فترة متأخرة إلى حد ما. ومن المحتمل أنه استحدث في السنين الأخيرة من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وذلك بالاعتماد على بعض القضاة، الذين شغلوا هذا المنصب فيها في الفترة الأولى.

والذين سنذكرهم في سياق الحديث عن الفئة الثانية من القضاة. أما الذين برهنوا على أهليتهم وصلاحياتهم للقضاء في بيت المقدس، كانوا قلائل جداً إذا ما قيسوا بالذين لم يرعوا للقضاء حرمة. ففي سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٤م قيس الله لمدينة القدس قاضياً مالكياً، لم تعرف مثيلاً له، منذ أن استحدث فيها هذا المنصب، هو عيسى بن محمد المغربي الشحمني الملقب بشرف الدين أبي الروح، الذي بقي على رأس منصبه بصورة مستمرة حتى سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥١م، ومارس الحكم خلال هذه الفترة، بكل اخلاص وعفة واستقامة، لايحابي أحداً، ولا يخاف في الله لومة لائم. ويدعمه في ذلك قوة شخصيته وصلابة مواقفه، وعدم التراجع عنها، اضافة إلى علمه ومعرفته بشؤون المذهب المالكي والشريعة الاسلامية.

ومن مواقفه الرائعة، ما حدث له مع نائب القدس مبارك شاه، الذي كان قد قرّر قتل أربعة من الفلاحين، وكلفه بشنقهم بتهمة السرقة واللصوصية، فسأله القاضي المذكور عما اذا كانت السرقة قد ثبتت عليهم بطريقة شرعية؟ فأجابه النائب نحن لانحتاج إلى اثبات شرعي. فأجابه لايمكن تنفيذ ماأمرت، إلا بعد أن تثبت الادانة، لكن النائب شدّد من تصلبه والح على قتلهم. فأجابه القاضي بقوله: «والله لو قتلتهم بحضوري، لكنت أقتلك بيدي، وأعلقك إلى جانبهم كما



أنت بخلعة السلطان» فتراجع النائب عن اصراره». (١٦).

ويبدو أن عدد الجالية الاندلسية المغربية تكاثرت في مدن فلسطين الكبرى إلى حد دفع إلى نشوء منصب القضاء فيها، وهكذا ظهر في الرملة أواسط القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وتولاه محمد بن سعيد المغراوي المالكي الملقب بشمس الدين. ولد سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م، وحفظ القرآن الكريم، واستطاع أن يتوصل إلى مرتبة قاضي القضاة في هذه المدينة، وبقي فيها فترة طويلة من الزمن انتقل بعدها إلى مدينة بيت المقدس في سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥١م، وتسلم قضاءها بعد وفاة قاضيها النزيه عيسى بن محمد المغربي الشحمني الأنفي الذكر. ومنذ ذلك الحين استقر بالقدس الشريف، يتولى قضاءها حيناً ويعزل حيناً آخر، حتى وافته المنية سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م وهو قاضيها (١٧).

ومن هؤلاء القضاة، من تنقل بين كل من دمشق وبيت المقدس. كسالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي، الملقب بأمين الدين المالكي. ولد بعد سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م ودرس الفقه وعلوم الدين في بلاده، ووصف بأنه من أهل العلم والفضل. وقد أسر سنة ٨٣٤هـ / ١٤٣١م عندما كان في طريقه إلى الشام، وظل في الأسر مدة طويلة، قصد بعدها مدينة دمشق، ليتحول بعد قليل إلى بيت المقدس، حيث شغل منصب قاضي القضاة سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م. وبعد فترة قصيرة، أعيد إلى دمشق مرة أخرى، وتسلم قضاءها، ولكن المدة التي أمضاها في هذا المنصب غير معروفة على وجه التحديد، وإن كان من الثابت، أنه لم يغادر دمشق بعد ذلك، وتوفي سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م.

وقد برهن خلال ممارسته القضاء، على عفة نفسه واستقامة احكامه ونزاهتها (١٨). وبعد ظهور هذا المنصب بمدينة الخليل، كان أول من تسلمه فيها القاضي حميد الدين محمد بدر الدين المعروف بابن المغربي، وقد اشتهر بأنه كان من حفظة القرآن الكريم، وعارفاً بالروايات، الأمر الذي ساعده، لأن يتولى قضاء عدة مدن شامية اضافة إلى الخليل، الذي تسلمه فيها لأول مرة سنة ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م، نقل خلالها إلى قضاء مدينة بيت المقدس، دون أن يتخلّى عن قضاء الخليل، وهو أول قاضٍ من الاندلسيين المغاربة، جمع بين قضاء مدينتين في وقت واحد. لكن مدته لم تدم وقتاً طويلاً في هاتين المدينتين، فقد عزل في أواخر السنة المذكورة عن قضائهما نهائياً، وتوجه إلى القاهرة، ومنها أرسل إلى طرابلس الشام، حيث ولي قضاءها. وتوفي سنة ٨٧٨هـ / ١٤٧٤م (١٩).

وربما كان آخر القضاة الاندلسيين في مدينة بيت المقدس، العلامة الغرناطي شمس الدين محمد بن علي الأزرق المغربي المالكي، الذي اختلف عن جميع القضاة الاندلسيين في الشام في ناحية واحدة، تجلت بأنه كان قاضياً للجماعة في كل من مالقة وغرناطة بجنوب الاندلس، قبل أن يأتي إلى الشام. وقد اشتهر عنه التبهر في العلم وحسن المنظر ووقار الهيئة. خرج من غرناطة، على أثر سقوطها بيد فرناندو وايزابيلا، خرج منها يستنفر حكام المسلمين، فتوجه



إلى المغرب وطلب من ملوكها نجدة بلاده، ولكن محاولته هذه باءت بالاخفاق، فتوجّه إلى مصر، حيث التقى بالسلطان الاشرف قايتباي وكان منشغلاً بمحادثة الاتراك، فحج و جاور ريثما انتهى، وطلب منه نصرة المسلمين في غرناطة، لكن الثابت أيضاً أن هذا الطلب لم يسفر عن نتيجة ايجابية كما حصل في المغرب. عند ذلك أثر البقاء في المشرق، وطلب من السلطان المذكور تأمين عمل له، فولاه قضاء المالكية ببيت المقدس بدلا من القاضي محمد ما زن الغزي، وبأشر عمله في السادس من شوال سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩١م وظل فيه حتى السابع عشر من ذي الحجة من السنة نفسها. وبذلك تكون ولايته، أقصر ولاية أمضاها أندلسي مغربي في منصب القضاء، بحيث لم يتجاوز واحدا وستين يوما، توفي بعدها بمرض مفاجيء ألم به، ودفن بمامللا ببيت المقدس. وقد كان مثال العفة والنزاهة (٢٠).

ولم يكن كل هؤلاء القضاة بالمستوى نفسه من العلم والمعرفة في شؤون الدين، وبخاصة على المذهب المالكي، فقد حدث أن توصل بعضهم إلى هذا المنصب، على الرغم من قلة علمه ومعرفته، التي غطت عليهما سمعته الطيبة وسلوكه القويم. مثال هؤلاء، مثل القاضي المالكي أحمد بن محمد المريني المغربي، الذي حل بدمشق في الفترة التي تلت سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٦م واشتغل بادئ الامر في البيمارستان النوري كإداري على أغلب الظن، فظهرت أمانته وشدة تعلقه بالدين، الامر الذي حدا بالمسؤولين لانتدابه للعمل كنائب لقاضي قضاة المالكية شهاب الدين التلمساني منذ سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٥م ، واستمر حتى سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م ثم عزل. وفي سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م ، ولي قاضي قضاة المالكية بدمشق، وبقي بشكل مستمر دون عزل حتى وافته المنية سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق (٢١).

أما الفريق الثاني من هؤلاء القضاة، فكان على النقيض تماما من الفريق الاول. فقد افتقر أفرادهم في كثير من الاحيان إلى الاهلية الشرعية والسلوكية الاخلاقية على حد سواء. فعمل بعضهم أوبالاحرى معظمهم بتأثير مصالحهم الشخصية البحتة. فأسأؤوا لهذا المنصب الجليل، بالتهافت على الرشاوي والتلاعب في الاحكام، دون وازع من ضمير ولا رادع من شرع أو دين.

والشيء الذي يظهر بوضوح ان هذا الفريق من القضاة، كان أكثر من حيث العدد من الفريق الأول. وهذا أمر طبيعي جدا ، يتجلى أثره من خلال سيرة القضاة المذكورين آنفاً، حيث أن الاقطاب منهم، لم يتسلموا القضاء الا بالقسر والاجبار، لانهم يعرفون أكثر من غيرهم حساسية هذا المنصب وخطورته، وهو الذي يوجب على صاحبه أن يكون من المتحررين للعدالة والانصاف في كل أحكامه وتصرفاته القضائية، وبالتالي يوجب الابتعاد عن كل مايسيء لهذا المنصب، من تقبل الاغراءات والرشاوى وغير ذلك من أوجه استغلاله للصالح الشخصي المحض، الامر الذي ظهر واضحا عند الكثيرين من أفراد الفريق الثاني، الذين سآتي على ذكرهم تباعاً. فأول هؤلاء القضاة، كان عمر بن سعيد التلمساني، الذي خلف القاضي أحمد بن



ياسين بن محمد الرياحي بمدينة حلب، والذي بقي فترة أربع سنوات متتالية ابتداء من سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م وهو مثال للقاضي الجاهل في أمور الشريعة والدين والقضاء، مما أثار تعجب وحيرة أهل حلب، عندما أصبح قاضياً، بعد سعي طويل لدى السلطان في مصر (٢٢).

ومن سجل مأساة بالمغرب الغربي، وصل إلى حلب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحفيد المالكي. ولد سنة ٧١٢هـ / ١٣١٣م، قدم من بلاده فأدى فريضة الحج، وتابع إلى مصر فحل بالقاهرة مدة، تابع بعدها إلى بلاد الشام، فدخل مدينة حلب، حيث اشتغل بالتجارة التي أجبرته على التنقل بين بغداد والقاهرة، ومكث فترة من الزمن، ليعود مرة أخرى إلى حلب، حيث استطاع أن يصل إلى منصب قاضي القضاة المالكية لفترة لا بأس بها، كان آخرها سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م حيث عزل وحل محله، القاضي جمال الدين النحريري. وهو نموذج للقاضي الجاهل، وهذا ما حدا بالبعض لأن يقول عنه: «أن كلامه أكثر من علمه» وقد امتزجت قلة العلم عنده وضحاياه بما هو أقسى من حدة الخلق وعدم اللين والروية واحتقاره للناس، حيث كان لا يقيم قدراً لاحد (٢٣). بينما وصفه البعض الآخر، بأنه كان راوياً للحديث، وله معرفة ضليعة بمذهب مالك، أصوله وفروعه، إضافة إلى معرفة جيدة ببعض العلوم الأخرى (٢٤). وبعد عزله عن قضاء المالكية بحلب سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م، توجه إلى دمشق، ومنها إلى غزة ثم إلى بيت المقدس، حيث توفي سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م (٢٥).

أما القاضي المالكي محمد بن يحيى بن سليمان المغربي، الملقب بجمال الدين، فإنه لم يعرف الاستقرار، فقد تنقل بين كل من حماه وطرابلس ودمشق، وعرف بتضلعه ببعض العلوم العقلية، وعدم معرفته بالعلوم الشرعية، وخاصة على المذهب المالكي، وعلى الرغم من ذلك، فإنه استطاع أن يتسلم منصب قاضي القضاة المالكية في مدينة حماه لفترة قصيرة عزل بعدها، فتوجه إلى دمشق واتصل بحاكمها طالباً منه أن يوليه قضاءها فأجيب طلبه هذا، وتصدر لقضاء المالكية، لكن طريقته لم تكن مقبولة، حيث تصدى لا يذاء الناس وإطلاق لسانه في الأكابر والأعيان. يضاف إلى ذلك، أنه برهن في مناسبات عديدة على عدم اتزانة العقلي، وفجوره وفسقه وقلة دينه، الأمر الذي يتنافى بشدة مع مركز القضاء، فحكم عليه بالعزل من منصبه كقاض غير صالح فذهب إلى مصر، وتوسط لدى السلطان، لكنه لم ينجح، ونفاه إلى الشام سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م، فتوفي بالرملة في السنة التالية (٢٦).

وقد تمثلت صورة الجهل المطبق وعدم السلوكية الأخلاقية في قاض آخر هو محمد بن محمد الدمشقي المالكي الملقب بعلم الدين القفصي، وهو يعد أيضاً من النماذج غير الصالحة لمنصب القضاء.

ويختلف عن رفاقه السابقين الذين هم من فئته، بأنه من مواليد مدينة دمشق، كان جده والد أبيه يسكن بدمشق منذ سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م، وخلال فترة وجوده فيها عمل نائباً في القضاء.



أما والد قاضينا علم الدين القفصي، فقد كان جندياً في الجيش المملوكي، وكذلك الأمر بالنسبة له، فإنه انخرط في صفوف الجيش لفترة غير قصيرة على ما يبدو، انطلاقاً من كونه، لم يركز على الدراسة والتحصيل إلا بعد أن أصبح في سن متقدمة، بعكس معظم الذن سبقوه من القضاة. وعلى الرغم مما عرف عنه من الجهل وعدم الاتزان العقلي وسوء الاخلاق والسيرة، فقد استطاع أن يتوصل إلى منصب قاضي القضاة في ثلاث مدن شامية، هي حلب وحماه ودمشق، وأمضى فترة خمس وعشرين سنة يعمل في القضاء بالمدن المذكورة، بين معزول عن القضاء وشاغل له، مثال ذلك، أنه ولي قضاء دمشق إحدى عشرة مرة، وكذلك في حماه وحلب عدة مرات. توفي وهو قاض بدمشق سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م (٢٧).

وفيما يلي نموذج آخر من القضاة المالكية، الذين عرف عنهم الجهل وعدم الاستقامة، وهو القاضي محمد بن اسماعيل بن هانيء اللخمي الغرناطي المالكي، ولد بمدينة حماه سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م أو بعدها بقليل. وقد كان صورة عكسية لوالده، الذي اشتهر بالاستقامة وعدالة الاحكام والمعرفة الشرعية الواسعة. اشتغل نائباً عن والده في قضاء حماه فترة توليه هذا المنصب (٢٨). فبينما كان والده مثالا للقاضي العادل العارف الى حد، جعل بعض من كتب عنه، يضعه في مقدمة القضاة المالكيين الذين عملوا في هذا المجال في مختلف مدن الشام. كان سيء السيرة غير محمود، ضيق الأفق قليل المعرفة لى درجة أساء لوالده الشيء الكثير. تنقل بين عدة مدن شامية، يعمل قاضيا لقضاء المالكية، ففي مدينة حماه أصبح قاضي القضاة على أثر وفاة والده، حتى كانت سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٥م حيث نقل إلى قضاء مدينة حلب، وحل محل القاضي التادلي، ومنذ ذلك الحين، ظل يتنقل بين كل من حلب وحماه وطرابلس، حتى كانت سنة ٨١٦هـ / ١٤١٤م نقل خلالها إلى دمشق وتسلم قضاءها، ولسوء سيرته بشكل ظاهر، أقصي عن قضاء المالكية بدمشق، وأرسل إلى مدينة طرابلس في سنة ٨٤٧هـ / ١٤١٥م، حيث بقي فيها يمارس القضاء عدة سنين، وفيها كانت وفاته سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥ (٢٩).

ولم يكن جميع أفراد هذه الفئة من القضاة، يفتقرون إلى الأهلية العلمية والمعرفة بشؤون القضاء، بل حدث أن وجد بعضهم، لا يقلون من هذه الناحية عن قضاة الفئة الأولى، لكنهم خالفوهم في أنهم لم يسيروا على منهجهم في تطبيق معرفتهم على صعيد القضاء، وكان على رأس هؤلاء القاضي أحمد بن سليمان بن عمر بن عبد الرحمن المعروف بابن عوجان، فقد تسلم هذا القاضي مهمته في بيت المقدس لأول مرة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م، فكان ثاني قاضٍ مالكي فيها (٣٠). وقد عرف عنه الفضل والتعمق في العلوم الشرعية على المذهب المالكي، واثقانه لصناعة القضاء على أتم وجه. وهو مثال للقاضي الذي يعرف خطر مهمته وجسامتها وتأثيرها على الناس، ولا يعمل لتحقيقها وتنفيذها. حيث افتقر إلى السلوكية الاخلاقية، التي تعد من الشروط الواجب توفرها، بمن يتصدى لهذه المهمة الصعبة. فقد عرف عنه حبه وتهافته على استلام الرشاوى، الأمر الذي اضفى على أحكامه صفة الظلم الباطل، مما أدى إلى



عزله عن القضاء فترة من الزمن، لا يعرف ان كانت طويلة أم قصيرة. لكن الشيء المؤكد، أنه أعيد في سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٥م ليخلفه بعد فترة قصيرة أحد أبنائه، الذي لم يكن بأفضل منه، بل زاد عليه سوءاً بأنه كان يعتقد بأن الشمس تستحق أن يعبدوها البشر (٣١). وربما استمر في منصبه هذا برغم سوء سيرته حتى سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٤م وقد عرفت مدينة دمشق واحداً من هؤلاء، كان يحل محل القاضي يعقوب بن يوسف المعروف بالشرف القرشي المغربي (٣٢) في أثناء عزله عن منصب القضاء وهو شهاب الدين التلمساني، الذي كان يتولى قضاء دمشق سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م، والذي عزل بالسنة نفسها وعين بدلاً عنه القاضي أبو عبد الله البيدمري المغربي المعروف بالبريكي (٣٣) وإذا كان القضاة المالكيون، الذين عرفتهم الشام خلال فترة هذا البحث، قد ألفوا فريقين متباينين من حيث الاهلية العلمية والثقافية من جهة، والسلوكية الاخلاقية من جهة أخرى، فإنهم التقوا في عدة نواح ادارية محضة لا يمكن الخروج عنها، وان كان الامر لا يخلو من بعض الحالات الشاذة. فبالنسبة لتعيين القضاة، كان يأتي بتوقيع رسمي على ما يبدو من السلطان المقيم في مصر، انطلاقاً من أهمية وجلالة هذا المنصب، ولكن تعيين القضاة، لم تكن كلها طبيعية، كثيراً ما شغلت الوساطات والمصالح السياسية، وبذل الرشاوى من قبل القضاة الطامعين في الحكم، شغلت دوراً فاعلاً في هذا المجال.

حيث أن الحكام كثيراً ما تأثروا إلى حد كبير بمواقف وآراء المقربين منهم، فكانوا يتوسطون لدى السلطان ويستميلونه بالرشاوى المالية فيصدر أمراً بتعيين قاض عوضاً عن قاض آخر، وذلك دون النظر إلى أخلاقه وعلمه، أو صلاحيته للقضاء كما أنه لم ينظر أو بالآخرى لم يحسب حساباً للنتائج التي ستنمخض عن مثل هذا التعيين. والامثلة كثيرة في هذا المضمار، منها ما أشار إليه صاحب كتاب (النجوم الزاهرة) عندما كان في صدد الحديث عن القاضي جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطي، الذي خلف القاضي الحنفي شمس الدين أبا عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي المتوفى سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م فقد ذكر أن السلطان هو الذي طلب القاضي الملطي بريد رسمي، وعلق على ذلك بالقول: «هكذا تكون ولاية قضاة الشرع الشريف بعزة وطلب واحترام، لا كمن يسعى فيها من بيت المال، والامير الكبير إلى والي القاهرة، حتى تلبى بالمال والبذل من غير تستر في ذلك، حتى انه يعرف ولايته بالبرطيل كل أحد من المسلمين حتى النصاري واليهود فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» (٣٤) ويؤكد على ذلك صاحب كتاب (الدارس في تاريخ المدارس) بصورة أوضح، إلى درجة أنه يذكر، مقدار المبلغ الذي دفعه أحد القضاة، وهو شهاب الدين التلمساني من أجل أن يعود إلى منصب القضاء في مدينة دمشق سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م، بدلاً من القاضي زين الدين عبد الرحمن ابن محمد السعيد المغربي المالكي. وقد وصل مقدار المبلغ الذي دفعه إلى خمسمئة دينار (٣٥).

أما بخصوص الراتب الذي كان يتقاضاه صاحب المنصب ونوابه، فلا يعرف عنه شيئاً.



ولم اتمكن من العثور على اشارة، تتعلق بهذا الشأن في جميع المصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذا البحث.

وكل مايمكن قوله في هذا الصدد، أن الراتب كان متساويا لجميع القضاة دون تميز بين قاضي مدينة أو أخرى، يضاف إلى ذلك أن هذا الراتب كان مغريا إلى حد كبير، ودليل ذلك، أن كثيرا ممن توصل إلى تسلّم هذا المنصب في بلاد الشام خلال فترة هذا البحث، عرفوا بسعيهم الحثيث والمتلاحق من أجل الوصول إليه والاستئثار به، فكان من هؤلاء من عمل بالتجارة، فتركها وعمل في مجال القضاء.

أما من ناحية تسمية كبير القضاة، فإن الامر اختلف في بلاد الشام عما كان عليه بالاندلس، وان كان المضمون واحدا. ففي الوقت الذي اطلق على كبير القضاة بالاندلس تسمية (قاضي الجماعة)، فقد اطلق عليه في الشام تسمية (قاضي القضاة). وكان يساعده عدد من الاشخاص على المذهب المالكي، لم يكن عددهم محددا في أغلب الاحيان، اطلق على كل واحد منهم تسمية (نائب القاضي المالكي). والجدير بالذكر، أن الذين تسلموا منصب قاضي قضاة المالكية في بلاد الشام في فترة الحكم المملوكي، لم يكونوا جميعاً من أصل أندلسي مغربي، ان ماحدث في كثير من الاحيان، أن عين لهذا المنصب، قضاة مالكيون من أصل شامي أو مصري أو غير ذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يمكن أن اذكر واحداً من هؤلاء، هو القاضي المالكي بدمشق محمد بن أبي بكر الهمداني، الملقب بشرف الدين المتوفى سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٧م، لكن هذا الأمر لم يكن مقبولا أو مرغوبا به على ما يبدو من قبل الاندلسيين المغاربة نزلاء بلاد الشام، فكثيراً ماوقفوا موقف المعارض لهذه التصرفات، مثال ذلك ماحدث سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٦م بمدينة بيت المقدس، عندما عين محمد بن احمد بن شداد المعروف بشمس الدين لقضاء المالكية فيها. حيث لم يبق سوى فترة قصيرة جدا، عزل بتأثير تعصب ومعارضة الجالية الاندلسية المغربية له (٣٧).

وقد انفرد القضاة المالكيون بكل فتاتهم عن قضاة المذاهب الاخرى، بأنهم أعطوا الحق والصلاحية التامة للمساعدة والاحسان إلى كل مالديهم من غرباء أهل مذهبهم، وبصورة خاصة أولئك الذين جاؤا من الاندلس والمغرب لكنهم غابوا من جهة أخرى عن قضاء العسكر، الذي اقتصر على قاضيين واحد من الشافعية وآخر من الحنفية (٣٩).

واذا كان هؤلاء القضاة قد تساوا على صعيد الصلاحية في اصدار الاحكام، وعلى صعيد الراتب وغير ذلك من الامور المهمة الاخرى، فإنهم اختلفوا بعض الشيء من الناحية المعنوية، بحيث كان ارفعهم مكانة في نظر الحكام والشعب، قضاة مدينة دمشق، الذين عدوا بالمرتبة الاولى، من حيث دلالة الالفاظ التي يخاطبون بها عندما توجه إليهم المكاتبات، مثال ذلك، كان يكتب: «المقر الشريف العالي المولوي القضائي الكبير الامامي العالمي الصلاحي...» بينما كان يكتب لقاضي حلب وغيرها من المدن الشامية الاخرى: «المقر الكريم العالي المولوي القاضوي



الكبير العالمي القدوي المفيد...» (٤٠).

ومن ناحية أخرى، فقد التقى القضاة الاندلسيون المغاربة جميعا على صعيد قضية هامة جدا تجلت بأنهم كانوا مصدر كل حكم تقريبا على الذين كانوا يتركون دينهم ويتحولون من دين إلى آخر، أو أولئك الذين كانوا يتعرضون للرسول (ص) والانبياء والصحابة بالشتم والسب وغير ذلك. فقد حدث في كثير من الاحيان، ومنذ أن اعتمد منصب قضاء المالكية في بلاد الشام، ان القضاة على المذاهب الاخرى، كانوا لا يبتون في قضايا الخروج على الدين، انما كانوا يحولون المارقين إلى القاضي المالكي، لينظر في قضاياهم ويصدر بحقهم الاحكام المناسبة، انطلاقا من أن المذهب المالكي يعد من المذاهب الوحيدة تقريبا، التي لا ترى غير حكم القتل والموت لكل من يخرج عن الدين الاسلامي، والذي يسمى في هذا المذهب (بالزنديق). ومثل هذا الامر الهام لابد من دراسته بشكل مستفيض في بحث مستقل.

### القضاة على المذهب الشافعي:

لم يعمل الاندلسيون والمغاربة في القضاء على المذهب المالكي فحسب، انما حول بعضهم من مذهب المالكية إلى مذهب الشافعية، وعملوا قضاة على هذا المذهب، كما كان حال الكثيرين من الاندلسيين، الذين عملوا في مجالات متعددة في الشام. لكن الشيء الملفت للنظر، أن القضاة الشافعية من الاندلسيين المغاربة، كانوا قليلي العدد إذا ما قورنوا بالقضاة المالكية وربما يعود سبب ذلك بكل بساطة، إلى ان العلماء الشافعية، أو بالاحرى أصحاب المذهب الشافعي، شكلوا الاكثريّة الساحقة لسكان بلاد الشام، الامر الذي جعل فرصة الوصول بالنسبة للاندلسيين المغاربة إلى منصب القضاء من الفرص الصعبة المنال في كثير من الاحيان: وان كان قد وصل بعضهم إلى تسلم هذا المنصب الهام، فإن ذلك لم يحدث الا في مدن صغيرة مع بعض استثناءات لا قيمة لها.

والذين اشتهروا بالقضاء على المذهب، كانوا من الذين ولدوا بالشام ونشأوا فيها، بحيث تتلمذوا ودرسوا الفقه الشافعي منذ سن مبكرة. مثل ذلك، مثل القاضي الشافعي سليمان بن عمر بن سالم، الذي ولد بأزرع من أعمال مدينة درعا سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م، وقدم إلى مدينة دمشق في سن الشباب، وفيها انكب على الدراسة والتحصيل. فكان أهم العلوم التي ركز عليها بشكل خاص، علم الحديث، الذي سمعه عن جلة من علماء دمشق، أمثال أحمد ابن عبد الدائم، والكمال أحمد بن نعمة، ويحيى بن الصيرفي، والبرازلي وغيرهم. ويظهر أن هذا القاضي، حاز على ثقافة عالية المستوى، الامر الذي ساعده لان يتوصل إلى منصب القضاء في عدة مدن شامية، كأزرع وشيزر ودمشق، فكان أول تعيين له في هذا المنصب بمدينة دمشق سنة ٧١٠هـ / ١٣١١م وهو في سن متقدمة سببا، وذلك على أثر عزل القاضي الشافعي ابن جماعة. وتنقل بعد ذلك إلى تسلم قضاء شيزر وأزرع، وأمضى في كل مدينة فترة تختلف عن الاخرى، فالشيء الثابت عنه، أنه أمضى فترة طويلة في القضاء، فقد بلغ عدد سني هذه الفترة عشرين



سنة، سبع سنوات منها في دمشق، وثلاث عشرة سنة في أزرع، والباقي وهي فترة وجيزة في شيزر.

وكانت هذه السنون الطويلة كافية لتقويمه من الناحية السلوكية، التي اتبعها خلال ممارسة عمله كقاضي قضاة الشافعية. فقد وصف بالعفة والترفع عن قبول الرشاوى، وبالحرص والصرامة في تطبيق الاحكام بحسب تعاليم مذهب التي كان يعرفها جيدا. توفي سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م، بعد عمر دام أكثر من قرن من الزمان (٤١).

أما النموذج الآخر، الذي احتوته كتب التراجم، فلم يكن في مستواه الثقافي على المذهب الشافعي، الذي تفقه عليه بعد وصوله إلى الشام، كما أنه لم يتوصل إلى قضاء عدة مدن كسابقه.

هذا القاضي هو محمد بن أحمد القرطبي نسبة إلى قرطبة، التي تقع بين قفصة وبيشة بتونس. عرف في بلاد الشام (بالمغربي) وصل الشام وهو على المذهب المالكي، الذي تحول عنه إلى المذهب الشافعي، أملا في الوصول إلى مرتبة مناسبة تكون مصدر رزقه وعيشه على ما يبدو.

فكان له ذلك، بأن توصل إلى قضاء نابلس لفترة من الزمن، لا تعرف على وجه التحديد. والنقطة التي التقى بها مع القاضي المذكور، تمثلت بمسلكه الشخصي على صعيد القضاء، فكان عفيفا، توخى في احكامه العدل والمساواة حسب ما يقتضيه الشرع. ولد سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م، أما وفاته فمختلف فيها، بعضهم يجعلها سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٥م. بعضهم يجعلها في سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م، وآخرون في سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٥م وغيرهم في سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥١م (٤٢).

وفيما عدا هذين القاضيين، لم نعثر على ترجمة لاندلسي مغربي، عمل في هذا المجال. وبهذا لا يمكن الاعتماد عليها، من أجل المقارنة بين قضاة المالكية، وقضاة الشافعية من الاندلسيين والمغاربة في بلاد الشام، سواء أكان ذلك من حيث السلوكية العامة، أو من حيث الصلاحيات الأخرى. وبالجمله فإن المغاربة والاندلسيين الذي عملوا في مجال القضاء، لم يتميزوا عن غيرهم من القضاة على المذاهب الأخرى، إلا في مسألة تصديهم للحكم على القضايا، التي كانت تمس بعض مسائل العقيدة الإسلامية، كالإقدام على شتم الرسول (ص) أو الصحابة، أو التعرض للقرآن الكريم أو الاستهزاء بالاسلام أو الارتداد عنه إلى غير ذلك من هذه المسائل.

ولم يكن هؤلاء القضاة، هم الذين يطالبون بالحكم على مثل هذه القضايا كما يخيل للوهلة الأولى، إنما الذي كان يحدث هو أن القضاة على المذاهب الأخرى، كانوا يحولون جميع مرتكبي هذه الجرائم إلى قضاة المالكية، الذين اعتادوا عدم التساهل فيها، وذلك بالاعتماد على تعاليم



.....

المذهب المالكي نفسه، هذه التعاليم التي يبدو على انها متشددة اذا ما قورنت بتعاليم المذاهب الاخرى، التي كانت تقبل التوبة من صاحب الجريمة اذا اراد ذلك.

بينما قضاة المالكية لا يبرئون المتهمين حتى ولو أعلنوا توبتهم وعودتهم عن جرائمهم التي اقترفوها عن قصد أو غير قصد.

حتى أن القاضي المالكي، اذا حضر مجلسا قضائيا مشتركا بين المذاهب على سبيل المثال، فانه كان يظهر عن غيره بتشده في أحكامه ، دون النظر إلى أي اعتبار آخر وكثيرا ما كان رأيه هو الذي يفوز ويؤخذ به، لكن ذلك لم يكن سنة أو قاعدة يجب أن تطبق على الدوام.

يتضح لنا من خلال هذا العرض عمق العلاقات بين مشرق الوطن ومغربه حيث سادت روح التعاون والتعاقد وانتقال الخبرات والتجارب والمعارف والعلوم عبر انتقال اصحابها... ومن المقرر أنهم والحالة هذه ينتقلون في إطار الوطن الواحد دون حاجة للوقوف والتوقف للتدقيق والتفتيش عن هوياتهم وشخصياتهم والأمثلة بهذا المجال كثيرة جداً جداً... فهل يتطلع العرب في الوطن العربي الواحد من مشرق الوطن إلى مغربه إلى تعزيز رسالة الامة واسهاماتها السامية في رسالة الانسانية والبشرية جمعاء.



## مصادر البحث

- ١- ابن كثير «أبو الفداء الدمشقي»، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت بدون تاريخ.
- ٢- الصقاعي، «فضل الله»، تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكين سوبله، طبعة دمشق ١٩٧٤.
- ٣- أبو الفداء، «اسماعيل الملك المؤيد»، المختصر في أخبار البشر.
- ٤- اليونيني، «موسى بن محمد»، ذيل مرآة الزمان، طبعة أولى، حيدر آباد الدكن ١٩٦١.
- ٥- ابن الجزري «محمد بن محمد»، غاية النهاية في طبقات القراء»، عني بنشره ج - برجستراير»، طبعة اولى القاهرة ١٩٣٢.
- ٦- النعمي الدمشقي «عبد القادر»، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، طبعة دمشق ١٩٤٨.
- ٧- ابن تغري بردي، «يوسف الاتابكي»، «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة»، مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر، بدون تاريخ.
- ٨- ابن حجر العسقلاني، «أحمد بن علي»، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة- طبعة أولى - حيد آباد الكل ١٣٤٨هـ.
- ٩- ابن العماد الجنبلي «عبد الحي» شذرات الذهب في أخبار من ذهب طبعة بيروت بدون تاريخ.
- ١٠- ابن قاضي شهبة، «تقي الدين أحمد»، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧ م.
- ١١- المقرئزي «أحمد بن علي» السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور طبعة القاهرة ١٩٧٠ م.
- ١٢- السخاوي «محمد بن عبد الرحمن»، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، طبعة بيروت بدون تاريخ.
- ١٣- الجنلي «محيي الدين»، الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، بدون ذكر اسم الطبعة وتاريخها.
- ١٤- ابن حجر أنباء الغمر.
- ١٥- القلقشندي «أحمد بن علي» صبحي الاعشى في صناعة الانشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٣ م.



## الحواشي:

- ١- تمت عملية فتح المغرب خلال الفترة من ٢١ - ٩٠ هـ وتمت عملية فتح الاندلس خلال الفترة من ٩٠ - ٩٢ هـ.
- ٢- ابن كثير (ابو الفداء دمشقي)، البداية والنهاية، ج ١٣ /، طبعة مكتبة المعارف بيروت بدون تا، ص ٢٤٦. الصقاعي، (فضل الله)، تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكين سوبلة، طبعة دمشق ١٩٧٦٣ ص ١٠٦.
- ٣- أبو الفداء (اسماعيل الملك المؤيد)، المختصر في أخبار البشر، ج ٤ /، دون ت ص /١٤٧.
- ٤- الصقاعي، المصدر السابق ص ١٠٥ - ١٠٦.
- المصدر السابق ص ٢٣٥ - ١٣٦
- اليونيني (موسى بن محمد)، ذيل مرآة الزمان، ج ٤ / طبعة أولى، حيدر آباد الدكن ١٩٦١، ص ١٧٣ - ١٧٤.
- ٥- ابن الجزري (محمد بن محمد)، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١ عني بنشره ج برجستراير - طبعة أولى القاهرة ١٩٣٢، ص ٣٨٧.
- ٦- الصقاعي - المصدر السابق، ص ١٠٦.
- ٧- اليونيني، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٣٩.
- ٨- ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٤ ص ٨٤ - ٨٥. النعيمي الدمشقي (عبد القادر)، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٣، تحقيق جعفر الحسيني، طبعة دمشق ١٩٤٨ ص ١٢ - ١٣.
- ٩- ابن تغري بردى (يوسف الاتابكي)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ١٠، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر بدون تا، ص ١٩٠.
- ١٠- ابن حجر العسقلاني (احمد بن علي)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ١، طبعة أولى، حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ، ص ١٧٢ - ١٧٣.
- ١١- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٦، طبعة بيروت بدون تا، ص ٣٤٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ١١ ص ٣؛ ابن قاضي شهبه (تقي الدين أحمد)، تاريخ ابن قاضي شهبه، مجلد ١ ج ٣، تحقيق عدنان درويش، طبعة دمشق ١٩٧٧، ص ٥٢٤ - ٥٢٥.
- ١٢- المقرئزي (أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣ ق ١ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٥٧.
- ١٣- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، ج ١، طبعة



- بيروت بدون تا، ص ١٥٥-١٥٦ المقرئزي المصدر السابق، ج ٣. ق ١، ص ٢٩٤ .
- ١٤- السخاوي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠٧ .
- ١٥- السخاوي، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٨٧ .
- ١٦- الحنبلي (محيي الدين)، الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج ٢، بدون ذكر اسم الطبعة ولا تاريخها ص ٥٨٥ .
- ١٧- الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٨٦ .
- ١٨- الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٥٨٤ .
- ١٩- الحنبلي، الانس الجليل، ج ٢، ص ٥٨٨ .
- ٢٠- الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٩٢ .
- ٢١- النعيمي الدمشقي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٣ السخاوي المصدر السابق.
- ج ٢ ص ٢١٨- ابن طولون (محمد)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، طبعة مصر ١٩٦٢، ص ٩٥ .
- ٢٢- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٦٧ .
- ٢٣- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٤٣ .
- ٢٤- تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد ١، ص ٢٣٠ .
- ٢٥- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٤٣، تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد ١، ص ٣٠ .
- ٢٦- ابن حجر، انباء الغمر بأبناء الغمر، ج ١، طبعة أولى، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٨ هـ . ص ٤٩٦-٢٦٤ .
- ٢٧- ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٥٣؛ ابن حجر، انباء الغمر، ج ٢، ص ٢٥٢ تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد ١، ص ٥٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٣ .
- ٢٨- المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣ ق ١، ص ٢٥٧ .
- ٢٩- السخاوي، الضوء اللامع، ج ٧، ص ١٤٢ .
- ٣٠- لقد أمضيت وقتاً طويلاً في البحث عن أول قاض مالكي لبيت المقدس فلم أوفق في الحصول عليه حتى في الصق المصادر التي تؤرخ لمدينة المقدس وهو (الانس الجليل لابن الحنبلي).
- ٣١- السخاوي، الضوء اللامع ج ١ ص ٣٠٧ .
- ٣٢- السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٣٨٧ .
- ٣٣- السخاوي، التبر المسبوك في ذيل الملوك، طبعة بولاق، مصر، ١٨٩٦، ص ٢١٠ .
- ٣٤- اين تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٥٧-١٥٨ .
- ٣٥- النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢١-٢٢ .
- ٣٦- تاريخ أبي الفداء، ج ٤، ص ١٤٧ .



- .....
- ٣٧- الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٩٥ .
- ٣٨- القلقشندي(أحمد بن علي)، صبحي الاعشى في صناعة الانشاء، ج ١١، النسخة المصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة بمصر ١٩٣ ص ٩٥ .
- ٣٩- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٩٢ .
- ٤٠- القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٢٩٠-٢٩١ .
- ٤١- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١٥٩، وما بعدها .
- ٤٢- ابن حجر، انباء ال غمر، ج ٣ ص ٥١٧ .

\* \* \*







# انتقال العلوم العربية من الشرق الى الغرب وتأثيرها في أوروبا







# انتقال العلوم العربية من الشرق الى الغرب وتأثيرها في أوروبا

الدكتور علي دياب

كلية الآداب - جامعة دمشق

قبل الشروع في الحديث عن انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا تجدر الإشارة إلى تلك العلاقة بين الشرق والغرب أو بالأحرى إلى فهمنا لهذه العلاقة عند الحديث عن الاندلس؟ وبالتالي بيان ما كان لها من فضل في تطور العلوم وتقديمها. إن من أبرز ما يستوقف أي مطلع على الثقافة العربية الأندلسية، ولاسيما في بداياتها الأولى، تأثير هذه الثقافة بنظيرتها الثقافية العربية المشرقية بشكل ملفت للنظر وفي مختلف مجالات الحياة، سواء السياسية أم الاجتماعية أم الفكرية بشتى فروعها العلمية والفنية، وربما كان قول ابن بسام في هذا الصدد خير شاهد على ذلك: «الأن أهل هذا الافق، ابوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب، بحثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصية، ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد. فغاضني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، ويتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الافق الغريب أن تعود بدوره أهله، وتصبح بحارة ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيّعوا العلم وأهله، ويارب محسن مات احسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخَصَّ أهل المشرق بالاحسان؟» (١)

والتأمل في قول ابن بسام، يؤكد ما قلناه عن تلك العلاقة ولاسيما إذا اخذنا بعين الاعتبار، الفترة الزمنية التي جاء فيها قوله، حيث عاصر فترة اواخر القرن الخامس الهجري، وفترة لا بأس بها من القرن السادس الهجري، إذ كانت وفاته عام ٥٤٢ هـ (٢)

لقد كان هذا موقف ابن بسام الذي كاد كتابه الذخيرة وبعد مرور قرابة خمسة قرون على

---

دراسات تاريخية، العددان ٥٣ / ٥٤، تموز - كانون الاول ١٩٩٥



تلك العلاقة بين المشرق والمغرب أن يكون بمثابة رد على هذه النقطة، إلا وهي تأثر المغرب بالمشرق، ساعيا إلى تنبيه أهل بلاده على أن عندهم ما يعتزون به، ويفخرون غيرهم. وربما يوافق المرء ابن بسام إلى حد ما، على ماذهب إليه، وخاصة عندما يكون الحديث متصلا بالفترة المتأخرة من عمر الثقافة العربية في الاندلس التي نضجت وتكاملت، وأضحت ذات سمات أندلسية خالصة. وهذا مايدفعنا إلى القول: إن ابن بسام ربما كان متعصبا لمغربيته التي دفعته إلى تناسي الحقائق التاريخية. ومن الطبيعي أن يكون هناك تأثير وتأثر فتلك الديار قد وطئت باديء ذي بدء من قبل القادمين من المشرق الذين قاموا بدورهم بنشر لغتهم ودينهم وثقافتهم العربية الإسلامية، لقد كانوا الاداة المنفذة لعملية النشر هذه، ولذا فمن الطبيعي أن يكون هذا النشر مطبوعا بالطابع المشرقي، الذي تضاعف تدريجيا فيما بعد. وهما هو الأديب الفرنسي المشهور هنري بيريز يقول وفي السياق أياه:

«يتطلع الأمويون في إسبانيا دائما نحو العباسيين في بغداد. والادب الذي تَكُون في قرطبة وفي تلك القصور الصغيرة حول الحكام في المحافظات ما هو إلا محاكاة».

وتقليدا لما حدث في العراق كان خلفاء قرطبة يستميلون أدباء بغداد أمثال: أبي علي القالي وهو عالم لغوي أكثر من أنه شاعر، وصاعد اللغوي الشاعر الحاذق واللغوي الشجاع الذي وصلتنا أخباره حديثا. لقد قام أمير اشبيلية ابراهيم بن الحجاج بتقريب اللغوي أبو محمد العذري وإبقائه إلى جانبه وهو من الحجاز، ولكن تأثيره لم يكن أقل قوة من الذي مورس من قبل الجواري المغنيات المتدربات في الشرق، في المدينة كما في بغداد، حيث تم شراؤهن من قبل الأمراء والحكام في إسبانيا، الذين كانوا يدفعون في بعض الأحيان اثمانا باهظة لانتزاعهن من بلاط بغداد» (٣)

وهنا نود الإشارة إلى ما ذكره المقري في نفح الطيب وهو بصدد الحديث عن رحل من المشرق إلى بلاد الاندلس.

«اعلم أن الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنا، وصيرها مسكنا، إلى أن وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالاندلس منيته» (٤).

هكذا يقوم المقري بإحصاء المعروف منهم إذ بلغ عددهم قرابة ٨٦ / ستة وثمانين شخصا، ومنهم عدد من النساء المشهورات.

ومما يجدر ذكره أن معظم الذين دخلوا بلاد الاندلس من المشرق لم يدخلوها للغرض نفسه الذي ذهب من أجله الاندلسيون إلى بلاد المشرق، وإنما جاؤوا الاندلس كفاتحين ومبشرين، سواء منهم المقاتلون والقادة العسكريون، أم المثقفون الذين سيسند إليهم التوجيه والإرشاد، فضلا عن تعليم اللغة العربية، ونشر الدين الإسلامي في تلك الأصقاع.

وإذا ما رغب المرء في عرض بعض الاسماء الالامعة على سبيل المثال لا الحصر، وذكر من



قدم من المغرب إلى المشرق، وما كان له من تأثير بشكل عام في الغرب فإنه يمكن أن يشير في مقدمة هؤلاء إلى زرياب (٥). لقد كان زرياب مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي وكان كذلك تلميذا لاسحق الموصلي في بغداد فتلقف من أغاني استاذة وهدي إلى فهم الصناعة، وصدق العقل مع طيب الصورة، وصورة الطبع الى ماكان به اسحق نفسه، وقد غنى مرة لامير المؤمنين الرشيد:

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون راح اليك الناس وابتكروا (٦)

وطرب له، وأعرب الرشيد لاستاذة اسحق عن رضاه واعجابه بهذا المغني الشاب وعن لومه له لعدم إعلامه بشأن هذا المغني وطلب منه رعايته والاهتمام به، ونتيجة ذلك خاف منه استاذة ودب الحسد فيه، فجاءه وصارحه تاركا له ان يختار بين أمرين اثنين:

إما أن يهجر تلك البلاد، وإما ان يموت اغتيالا وكان زرياب عارفا بقدرة استاذة فتركه وقصد بلاد الاندلس مع عائلته، لقد استقبل زرياب في قرطبة استقبالا مرضيا، وأمر له الأمير عبد الرحمن بن الحكم براتب جيد، وانزله مسكنا لابأس به وطلب إلى عماله ان يحسنوا اليه وكان ذلك سنة ست ومائتين للهجرة (٧).

بعد ان استقر المقام بزرياب في مكان إقامته الجديد، قام بزيادة اوتار عوده وترا خامسا، أحمر متوسطا فاكسب به عوده الطف معنى واكمل فائدة، وقد اخترع ايضا مضراب العود من قوادم النسر معتاضا به عن مرهف الخشب، فأبدع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع، وكان زرياب ايضا عالما بالنجوم، وقد جمع الى خصاله كفتان وموسيقي كثيرا من ضروب الظرف وقنون الأدب ولطف المعاشرة، حتى اتخذه ملوك أهل الاندلس وخواصهم قدوة لهم فيما سنه من آداب، ومما أخذ عنه الأندلسيون تعليمه لهم كيف يفرقون شعرهم وسط الرأس، ويعقصونها من الخلف حتى يظهر العنق ويبدو الجبين، في حال أنهم كانوا يتركونها تغطي كل هذه الاماكن الجميلة من الانسان، وهناك الكثير من العادات التي اخذها عنه الاندلسيون ولا مجال لحصرها في مثل هذه الدراسة (٨).

وخلاصة القول: إن زرياب أنشأ أول مدرسة في الأندلس لتعليم الموسيقى والغناء، وكان عماد هذه المدرسة أبناؤه وبناته وجواريه، وماتبعها من مدارس أخرى في إشبيلية وطليلة وبلنسية وغرناطة كان استمرارا لمدرسته، ويعتبر واضع حجر الاساس في فن الموسيقى الاسباني. كما كان من نتائج مجيئه للأندلس وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية، ان شاع في المجتمع الأندلسي حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة، وقد وضع زرياب نظاما للزي يقضي بأن يلبس الابيض منذ مطلع حزيران حتى نهاية تشرين وان الربيع هو الفصل الذي تلبس فيه الناس الحرير والألبسة الخفيفة وذات الألوان المتعددة، أما في فصل الشتاء فتلبس الفراء والمعاطف المبطنه.



«وكان الناس يلتمسون آراءه فيطبقونها نصا وروحا» (٩) كما شاع أيضا الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء، مما أدى إلى التورط أحيانا باللهو والمجون، والذي ساعد على ذلك تحرر بعض الامراء الذين حكموا في تلك الفترة مثل عبد الرحمن الاوسط، ومع نهاية فترة عبد الرحمن هذا ينتهي زرياب بانتقاله إلى العالم الآخر وذلك عام ٢٣٨ هـ / (١٠). وكان لزرياب أثر بالغ في بعث النهضة الفنية في أوروبا، وهناك شبه أجماع بين المؤرخين والباحثين يشير إلى أن فن التروبا دور قد نبع من أصول عربية وأندلسية. ومن الأعلام المشهورين أيضا الذين قدموا الأندلس من المشرق أبو علي القالي صاحب الأمالي والنوادر، وكان أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين، وكان يسمى بالبغدادي لوصوله إلى الأندلس من بغداد، ويقال:

إن الناصر هو الذي استدعاه من بغداد لولائه لهم (١١). ونذكر أيضا من هؤلاء العلماء أبا العلاء صاعد البغدادي (١٢) اللغوي وأصله من الموصل، دخل قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر، وظن المنصور أنه سيناهض به أبا علي القالي الوافد على بني أمية، ولكنه لم يجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهل العلم، وكان له نوادر عديدة مع المنصور، وقد أعجب مرة بما بدر منه، وراه كتاب النوادر لأبي علي القالي، وطلب صاعد من المنصور أنه إذا أراد في إمكانه أن يعد كتابا أرفع من النوادر وأجل منه، وأنه لا يورد خبراً مما يورده أبو علي، ثم ذهب وجلس بجامعة مدينة الزهراء وانجز كتابه «الفصوص» وبعد أن اطلع عليه أدباء ذلك الوقت امر المنصور بقذفه في النهر، حيث قال فيه بعض الشعراء:

قد غاص في النهر كتاب الفصوص

وهكذا كل ثقل يغوص

فأجابه صاعد:

عاد إلى معدنه، انما

توجد في قعر البحار الفصوص (١٣)

ومن الذين دخلوا الأندلس أيضا أبو الحسن الأنطاكي وفيه يقول أبو الوليد ابن الفريسي: «أَدْخَلَ الْأَنْطَاكِي الْأَنْدَلُسَ عِلْمًا جَمًّا، وَكَانَ بَصِيرًا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْحِسَابِ وَلَهُ حِظٌّ مِنَ الْفَقْهِ، قَرَأَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَسَمِعَتْ أَنَا مِنْهُ، وَكَانَ رَأْسًا فِي الْقَرَاءَاتِ لَا يَتَقَدَّمُهُ أَحَدٌ فِي مَعْرِفَتِهَا فِي وَقْتِهِ، وَكَانَ مَوْلَدَهُ فِي أَنْطَاكِيَّةِ سَنَةِ ٢٩٩ هـ وَمَاتَ بِقُرْطُبَةَ سَنَةِ ٣٧٧ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى» (١٤).

ومن الذين وفدوا أيضا إلى الأندلس من المشرق، عبد الملك بن عمر بن مروان ابن الحكم الأموي، إذ فر من الشام خوفا من أعدائه، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس فأكرمه عبد الرحمن الداخل وولاه اشبيلية، وكان يحن دائما لوطنه، ولا سيما أنه لم يأت الأندلس راضيا كغيره، وإنما أتاه فارا من خصومه في المشرق، ويروي لنا المقرئ أنه رأى نخلة منفردة في اشبيلية فتذكر وطنه بالشام وقال:



يانخل انت فريدة مثلي  
 في الارض نائية عن الأهل  
 تبكي وهل تبكي مكمة  
 عجماء لم تجبل على جبلي (١٥)  
 ومن الذين قدموا الاندلس ايضا احد الاولياء الصالحين واسمه سيدي يوسف  
 الدمشقي (١٦) وهو شاذلي الطريقة، كان يأتي مدينة وادي آش الكرة بعد الكرة لزيارة بعض  
 معارفه، وكان من الذين اخفاهم الله لايعرف به الا من تعرف له.  
 كما قدم الاندلس ايضا عدد من النساء نذكر منهن: عابدة المدنية (١٧)؛ ام ولد حبيب ابن  
 الوليد المرواني المعروف بدحون، وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة.  
 ونذكر ايضا فضل المدنية (١٨) وهي حاذقة بالغناء كاملة الخصال، واصلها لاحدى بنات  
 هارون الرشيد، نشأت وتعلمت ببغداد، ومنهن ايضا قمر جارية ابراهيم حجاج اللخمي  
 وكانت من اهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالحن ولها في مولاها:  
 ما في المغارب من كريم يرتجى  
 الا حليف الجود ابراهيم  
 إنني حلت لديه منزل نعمة  
 كل المنازل ماعداه زميم (١٩)  
 ومن النساء اللواتي دخلن الأندلس ايضا الجارية العفراء ويصفها الارقمي انها لم تكن  
 حسنة المظهر ولاجميلته، الا انها كانت مغنية بارعة ولها:  
 ياطول ليلى اعالج السقما  
 إذ حَلَّ كُلُّ الاحبة الحرما  
 ماكنت اخشى فراقكم ابدا  
 فالיום امسى فراقكم غرما (٢٠)  
 وهكذا نجد انه كان لمجموع الواقدين إلى ديار الأندلس تأثير كبير في مختلف مجالات  
 الحياة وقد ظل الأندلسيون يحاكون أهل المشرق في كل شيء وفي هذا الصدد يقول هنري  
 بيريز:  
 «إن الثقافة الأدبية التي رأيناها هكذا، بدأت في اسبانية بالشعر المشرقي وفرضت طريقة  
 استبدادية على ذهن جميع الاندلسيين، فإذا ارادوا ان يميّزوا ادبياً أو شخصية ما كانوا  
 يعودون مباشرة الى مايقابلها في ذاكرتهم المشرقية. فالمعتضد قورن بالخليفة العباسي أبو  
 جعفر المنصور، والمعتمد قورن بالوائق بالله وذلك بسبب حدة ذكائه واتساع معرفته  
 الأدبية» (٢١).  
 وفي هذا الاطار نفسه يقول شوقي ضيف:



«ارتبطت الاندلس في علمها وفلسفتها بالشرق فقد كانت تستورد منه نماذجها الثقافية، تارة يذهب أهله اليه ليتعلموا على يديه، وتارة يرسل هو إليه علماءه كأبي علي القالي على سبيل المثال» (٢٢).

وفضلاً عن الفنون والآداب، كانت العلوم في البداية ذات أصل مشرق، فقد انتقلت كما ذكرنا إلى المغرب عامة والاندلس خاصة، وبغض النظر عن تقليدية هذه العلوم في البداية فقد غدت فيما بعد أصيلة واضحة السمات والهوية، وحققت في مجالات عديدة السبق، وانتقلت من هذا الموقف الجديد إلى بقية أنحاء أوروبا، وكان ماكان من صدى لإنتاج ابن حزم وابن رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم. وربما كان من المفيد قبل أن نذكر بعض الأمثلة لنماذج تم انتقال هذه العلوم عبرها، أن نشير إلى تلك المكانة التي كانت تمثلها اللغة العربية في ذلك الوقت، وكيف انصرف إليها الجميع، لما تمتعت به من أهمية وعلى مختلف الصعد الفلسفية والفنية والأدبية وغير ذلك، وإقبال الكثيرين على تعلم هذه اللغة، وخير شاهد على ذلك هو مقالته الفرو القرطبي (ALVARO CORDOBE) عندما خاطب أبناء الإسبان مبدئياً تخوفه من انتشار العربية وتحول معظم أبناء بلده إلى العربية، ويعرب عن تأسفه حيال ذلك فيقول من جملة مايقول:

«إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً. وأين تجد الآن واحداً - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى - رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسول؟ يا للحسرة إن المهووبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم. وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالاعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم يالآلم لقد نسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي مايفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً» (٢٣).

ودون الخوض في مناقشة مفصلة لقول الفرو يمكن القول: إن ذبوع اللغة العربية وانتشارها كان كسريان النار في الهشيم أما في المناطق التي لم تصلها اللغة العربية، أو كان من الصعوبة بمكان أن يتعلم أبنائها هذه اللغة الجديدة فقد دفعت جودة الانتاج وسُمُوهُ الباحثين والمفكرين إلى ترجمة هذه الآثار الرائعة إلى اللغات الأخرى وكانت اللاتينية في مقدمتها بل وعلى رأسها، ومن خلال هذه الترجمات وصلت هذه الآثار إلى أنحاء المعمورة الأوروبية، قبل أن نذكر بعض الأمثلة كشواهد حية على انتقال العلوم العربية وانتشارها في أوروبا، نود أن نذكر



مانقله زكريا هاشم زكريا عن برفو (BRIFFAUT) في كتاب: «تكوين البشرية في القرن التاسع عشر»: (إن رئيس دير كلوني (CLUNY) كان يأسف أثناء إقامته بالأندلس، لما كان يشاهد من تهافت الطلبة من فرنسة والمانية وانكثرة على مراكز العلم العربية، كما يضيف برفو ايضا: (العلم هبة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر) كما ويذكر لنا السيد بلقاسم مولود في بحثه الذي قدمه لندوة الثقافة العربية - الاسبانية عبر التاريخ في دمشق عام ١٩٩٠ :

(ان الاستاذ الكبير يان بيلافسكي (JAN BIELAWSKI) رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة وارسو قد قال لهم أثناء انعقاد الملتقى العاشر للفكر الإسلامي في عنابة بالجزائر عام ١٩٧٦: [ان كتاب «الكليات في الطب لابن رشد» كان يُدرس في جامعة كراكوفيا -CRA) مسقط رأس البابا الحالي - حتى القرن الثامن عشر]. وجاء في مداخلة السيد بلقاسم ايضا ان الاستاذ الدكتور هيرمان لاي (HERMMANN LEY) الاستاذ بجامعة هومبولدت في برلين قال لهم:

«ان نفس الكتاب كان يُدرس في جامعة يينا (JENA) في المانية حتى بداية القرن التاسع عشر» ويضيف السيد بلقاسم ايضا: ان المؤرخ الاسباني المعاصر الكبير خوان فيرنييت (JUAN VERNET) يقول في كتابه الاخير: «الثقافة الاسبانية العربية في الشرق والغرب»: (إذا كان القرن الحادي عشر الميلادي عصر علماء الفلك الكبار في الاندلس، فالقرن الثاني عشر أعطى هذه الاسبقية للطباء والفلاسفة ففي كلا الميدانين تميز ابن رشد، بأن مؤلفاته في الميدانين، قد كان لها من التأثير في العالم الغربي (اوروبا) بحيث أصبح هذا العالم في القرن الخامس عشر، لم يعد يؤمن بأن النور يبزغ من الشرق، بل من اسبانية (الاندلس) ولقد ذكره (الشاعر الايطالي الكبير) دانتي في ديوانه الجحيم) (٢٥) ويضيف المؤلف نفسه:

«إن ابن رشد هو ربما الإسباني الذي كان له اكبر تأثير على طول التاريخ كله على الفكر البشري» (٢٦).

هذا ويخبرنا الفيلسوف الفرنسي رنان عن ابن رشد ايضا:

«ان ابن رشد، خاصة قد عظم في نظري، وباختصار فالتطور العقلي الذي احرزه العلماء العرب ظل حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي اعلى من مقام العالم المسيحي» (٢٧) ويضيف كذلك المؤلف نفسه وهو في اطار الحديث عن ابن رشد مجملا حديثه عن الفلسفة الاسلامية من خلال رأيه بابن رشد: «إنه لحق، وصحيح جدا، ان الفلسفة العربية منطلقة من أساس تقليدي قد وصلت خاصة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (الميلاديين) الى اصاله حقيقية» (٢٨).

ويعلمنا رنان في مؤلفه إياه:

«وعندما قرر الملك الفرنسي لويس الحادي عشر تنظيم التعليم الفلسفي سنة ١٤٧٣ كان



المذهب الذي أوصى به هو مذهب أرسطو وابن رشد» (٢٩) ونود الإشارة أيضا إلى أن ابن رشد كان أول من قال: أن بعض الأمراض المعدية مثل الجدري الأسود، قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة. وبذلك يتجلى لنا مدى تأثير فلسفة ابن رشد، وما تركته من بصمات بيّنة، واضحة المرتسمات في الفكر الأوروبي عامة. والمثال الثاني الذي يحضرنا هنا بعد الحديث عن ابن رشد هو ابن حزم القرطبي وهو سابق لابن رشد وما كان له من دور في انتقال العلوم إلى الغرب وسنقتصر في حديثنا عن ابن حزم على مثال واحد هو شيوخ مؤلفه الهام في الحب / طوق الحمامة / الذي سرت أفكاره في الحب وماهيته وأنواعه في الحياة العاطفية الأوروبية، وخير ما يؤيد قولنا هنا ما ذكره السيد غومس غارسيا وهو في إطار رده على الذين أنكروا أثر العذرية العربية في الأدب الأوروبي يقول:

«ان شعراء الإسلام، من بغداد إلى مرسية، أقاموا قرونا ثلاثة يتقننون بالحب العذري، ويحللونه، ويرسمون له المناهج، وتلك هي الحركة التي انتقلت من قرطبة إلى بروفانس (جنوب فرنسا) لتلهم البروفنسيين ماسموه (بالعلم البهيج) والتي أوجت إلى جويدا جينزلي (GUINIDA GUINZELI) استاذ «دانتى» أسلوبه العذب الجميل، ومع هذا فعندما أخرجت مطابع فلورنسة النص الاغريقي لكلام «افلاطون» رمى الناس العرب بالحسنة الجافية، ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك» (٣٠) لانريد ان نسهب هنا في الرد على الذين أنكروا العذرية على العرب، فتاريخ الأدب العربي حافل بها لا يحتاج إلى اثبات وبراهين وذلك بدءا من عنزة بن شداد ومرورا بجميل بثينة إلى ابن حزم الذي قيد الحب في طوقه، عارضا خلاصة تجربته في الحب والاشكال المتعددة له بحلوها ومرها، هذه الاشكال التي جاء الشعر البروفانسي الأوروبي وبعد قرن من الزمن ليتعرض اليها، وان ماتضمنه هذا الشعر من تمجيد للمرأة وخضوع لها ليس له أي جذور في الشعر الغنائي الأوروبي الذي لم يعرف قبل القرن الثاني عشر الميلادي ولم يبق امام النقاد والمؤرخين الا ان ترد هذه الجذور الى الأدب العربي عامة والاندلسي خاصة، والتي كان يشكّل فيها غرض الغزل جوهره ومركز تطوره. ونود ان نذكر هنا قول ستندال للتدليل على ذلك:

«يجب ان يبحث عن الحب الحقيقي ووطنه تحت خيمة الأعراب القاتمة» (٣١) وخير ما نختم به حديثنا من انتقال آثار ابن حزم إلى الغرب، ما أشارت إليه د. البغدادي في تقديمها لكتاب هوسا (٣٢) - الذي قامت بتعريبه - من مقارنة بين طوق الحمامة لابن حزم ومؤلفات أخرى مثل: فن الحب لاندريه لوشابيلان، وكذلك فن الحب العفيف لاندرياس كابلانوس.

حيث ظهر هذان الكتابان في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين مع ظهور الشعر الغنائي الأوروبي في اسبانية جنوب فرنسا قبل انتقاله إلى أرجاء أوروبا الغربية، مع الإشارة إلى أن آراء كثيرين ممن تعرض لهم هوسا في كتابه: شعراء التروبادور ومجالس الحب مثل:



دي سانت ديديه، ودي كابستان، وارنودي ماري، ولا بازول وغيرهم جاءت صدى وتكرارا  
بشكل أو بآخر لما تعرض له ابن حزم ونأتي بمثالين على سبيل الذكر لا الحصر مؤكدين ذلك:  
المثال الاول: يقول ابن حزم في باب طي السر:

«ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان، وجحود المحب ان سئل، والتصنع باظهار  
الصبر، وربما كان سبب الكتمان ابقاء المحب على محبوبه، وأن هذا من دلائل الوفاء وكرم  
الطبع. وفي ذلك اقول:

درى الناس أني فتى عاشق  
كئيب معنئى ولكن بمن  
إذا عاينوا حالتي ايقنوا  
وان فتشوا رجعوا في الظن

وفي كتمان السر اقول قطعة منها:

للسر عندي مكان لو يحل به  
حي إذا لاهتدى ريب المنون له  
أميته وحياة السر مبيتته  
كما سرور المعنى في الهوى الوله (٣٣)

وفي المقابل يقول ارنودي ماري مخاطبا حبيبته:

«إذا تفضلت بمنحى بعض الاحسان، أه يأعز النساء، فاعلمي انني سأتحمل الموت اولى  
من ان ارتكب اقل خطأ بافشاء السر، أه انني اطلب من الله ان يقضي على أيامي في اللحظة التي  
ارتكب فيها خطأ خيانة سر الطافكم» (٣٤)

أما المثال الثاني: فهو عندما يقول ابن حزم في باب علامات الحب:

«ومنها بهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة، ومنها  
اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك اقول  
قطعة منها:

إذا ما رأت عيناى لابس حمرة  
تقطع قلبي حسرة وتقطرا  
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا

وضرّج منها ثوبه فتعصفرا (٣٥)

وفي المقابل يقول لوشابيلان: (في قوانين الحب. القانون الخامس عشر) (على كل عاشق ان  
يمتقع لونه بحضور حبيبته) القانون السادس عشر: (على العاشق ان يرتعش قلبه في حالة  
رؤية محبوبته فجأة) (٣٦).

يقول بالنثيا في كتابه المشهور: [ويذكر ابن حزم صورا متعددة للهوى العذري.. ويقول:



«إن هناك وجوها كثيرة للقنوع بالحب، منها الاطمئنان على سلامة الحبيب (وهو أمر سيرده دانتي عندما يتحدث عن سلامة بياتريس) ويذكر حيناً آخر كيف يقنع المحب بتقبيل التراب الذي وطئه قدم الحبيب ويقول: «واخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر انه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غاية في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المنتزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر اليه، فلما بُعدت إلى المكان الذي قد اثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التي فيها اثر رجله» وهو أمر سيفعله فيما بعد شاعرنا المبدع ماثياس (MACIAS) [٣٧].

ونورد هنا بعض الابيات التي أنشدها ابن حزم على لسان تلك التي قبلت موطىء قدم الحبيب:

«يلومونني في موطىء خفه خطأ  
ولو علموا عاد الذي لام يحسد  
فيا اهل ارض لاتجود سحابها  
خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا  
خذوا من تراب فيه موضع وطئه  
واضمن ان المحل عندكم يبعد» (٣٨)

وإذا ما غادر المرء ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، فإنه يستطيع ان يذكر ما لا يحصى من الإسهامات العربية التي كانت وراء وجوه كثيرة من النهضة الأوروبية فقد سبق العرب إلى الكثير من الاكتشافات التي اقتبسها الأوروبيون عنهم ودانوا لهم بها. ففي مجال العلوم والطبيعة يمكننا الإشارة إلى ما ذكره د. عبد الحليم منتصر في بحث له نشر ضمن مؤلف يتحدث عن أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية إذ يقول:

«ويدلنا تتبع تطور الفكر العلمي على مر العصور، كيف أثر العلماء العرب في النهضة الأوروبية، وكيف تأثر علماء أوروبة بأعمال العلماء العرب، فقد بينا مثلاً أثر العرب في ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، وكيف نادى ابن مسكويه وابن خلدون وإخوان الصفاء، بنظرية التطور قبل داروين بمئات السنين، وكيف عرف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بثلاثة قرون، وكيف قال الإدريسي وابن حزم والخازن بالجاذبية قبل نيوتن بقرون طويلة بل كيف ربط الخازن بين الثقل والسرعة والمسافة مما جعل كثيراً من المحققين يقولون إن صاحب كتاب ميزان الحكمة أي الخازن كان يعرف هذه العلاقة التي وضعها نيوتن على هيئة قوانين ومعادلات، وكيف أجرى ابن الهيثم التجارب لقياس سرعة الضوء، وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار وكيف قدر بنوموس محيط الأرض وكيف قاس فلكيو الغرب أبعاد الأجرام السماوية وكيف ابتكروا الآلات الفلكية، وعرفنا أن ابن ماجد الملاح العربي، كان ربان سفينة فاسكودي جاما في رحلاته الاستكشافية في أعالي البحار، وأن جابر



بن حيان هو أول من أسس علم الكيمياء على دعائم قوية، وخلصه من التشويه والاضطراب فنقله من صورته المشوبة بالشعوذة والسحر، إلى علم له قواعده وتجاربه وأصوله، حتى قال عنه سارتون بحق، إن علماء العصر الحالي لم يقدرُوا أن هذه أعمال رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لوفرة ما بها من مادة علمية صحيحة، وشهد له «هو ليارد» العالم الكيميائي المعاصر» (٣٩) وفي مجال الطب يمكن أن نذكر بما أكده د. محمد كامل حسين من أن العرب قد بلغوا بالتنسيق الفكري للخبرة الطبية غايته على يد الرازي وابن سينا، وأن الطب العربي كان قمة الطب الوسيط حيث اعتمد على الطب القديم وبلغ به أرقى ما يمكن أن يسمح به العصر، وانتقل بحكم هذا الرقي إلى البلاد الغربية بجملة علماء وعملا (٤٠).

ويمكن كذلك الإشارة إلى الرازي صاحب كتاب الحاوي وهو موسوعة في الطب تعالج الموضوعات الطبية من عهد أبقرات حتى عصر المؤلف. وكذلك ابن النفيس الذي امتاز بالشكل وقوة النقد وكان أول من اكتشف الدورة الدموية وأكد وجودها. وابن زهر الأشبيلي الذي اكتشف حشرة الجرب وهو أول من شخص أمراض الالتهابات الجلدية ولا يمكن لأحد أيضا أن يتجاهل ابن سينا الذي سمي بالرئيس وكان أول من جعل الأدوية حبوبا، ولبسها بالسكر ليسهل تناولها، وهو أول من لاحظ أن السرطان الموضعي هو عبارة عن مرض بالسرطان للعضو، وقد اهتم بالمعالجة النفسية بالإضافة إلى العلاج بالأدوية.

وكذلك أبو القاسم الزهراوي الذي ابتدع الخياطات الجراحية، والكثير من الآلات الجراحية واستخدام الخطاف لاستئصال الزوائد الأنفية واليه يعود أيضا ابتداء المرأة المهبلية.

لقد كان العرب أول من أسس الصيدليات العامة، وقد تم تأسيس أول صيدلية في عهد أبي جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي، وظل تأثير العرب على أوروبا في الصيدلة قائما حتى القرن التاسع عشر وكان العرب قد اكتشفوا طريقة حديثة في التخدير، وهو التخدير الشامل، لتسهيل مهمة الطبيب وتخفيف آلام المريض، وبذلك خالفوا الهنود والرومان واليونان، الذين كانوا يسكرون المريض لتخفيف آلامه. ولقد أبدى العرب عبقرية خاصة في البصريّات، ويعتبر هذا العلم بحق أنه علم عربي، وقد ساعد التقدم في هذا العلم عند العرب على تقدم في طب العيون وكانوا أول من اهتم بهذا الطب، حيث يعتبر كتاب حنين اسحق أول كتاب لطب العيون. والخلاصة أن هناك كثيرا من المكتشفات والاختراعات التي تنسب ظلما وخطأ إلى الإنكليز والفرنسيين، ولكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة، هم أساتذة أوروبا الحقيقيون، وقد أخذت أوروبا عنهم كتبهم التي امتازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركه اليونان (٤١).

والمثال الأخير الذي نسوقه هنا ماجاء في كتاب تزفيتان تودوروف (فتح أمريكا) ففيه أن كولومبس قد استفاد في رحلاته الاستكشافية من بعض معلومات الفلك التي استقاها من



بعض العلماء العرب، فقد كان هناك اعتقاد سائد في عصره ان الارض كروية وان لم يكن هناك من دليل يؤكد ذلك. وقد استند كولومبس الى رأي الفرغاني الفلكي العربي الذي الف كتاب المدخل الى علم هيئة الافلاك المترجم إلى اللاتينية قبل ظهور كولومبس وتفكيره في رحلته بحوالي ثلاثمائة عام. كما يشير في كتابه بشكل صحيح الى حد ما إلى طول دائرة الارض. وعندما ترجم كولومبس طول الاميال البحرية العربية التي وضعها الفرغاني إلى الأميال البحرية الايطالية، وجد انه يستطيع القيام بهذه الرحلة. كما انه استفاد من علم الفلك العربي عندما حوَّصر من قبل الهنود الحمر على ساحل جامايكا مدة ثمانية اشهر، ولم ينج منها الا عندما لجأ الى حيلة وهي الزعم بانه سوف يسرق القمر وذلك عندما عرف بقرب وقوع خسوفه (٤٢).

وهكذا نجد ان البون شاسع بين اسهامنا الحضاري وفضل السبق الذي حققناه في مختلف ميادين الحياة في الوقت الذي كانت فيه اوروبية متخلفة عن الركب الحضاري الذي عاشته امتنا العربية والاسلامية، وفي هذا الاطار نستشهد بقول باحثة اوروبية منصفة، توضح لنا الفارق الكبير الذي كان بين اوروبية والعالم الاسلامي عامة والاندلسي خاصة اذ تقول: (كان التعليم في العالم الاسلامي ميسرا لجميع الناس، وكان الاطفال من جميع الطبقات، يقصدون المدارس الاولى، لقاء نفقات ضئيلة جدا، وفي اسبانية المسلمة كان التعليم مجانيا، وقد كانت توجد في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لاولاد الفقراء، وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين، كانت اوروبية بين القرنين التاسع والثاني عشر موطنا للأمية وقد بلغت نسبتها ٩٥٪ وكان شارلمان ملك فرنسة العظيم امياً ولم يحاول تعلم القراءة والكتابة الا وهو في سن متقدمة. حتى رجال الدين في الاديرة لم تكن بينهم غير قلة قليلة جدا، تعرف القراءة والكتابة... (٤٣).

وفي ذلك يتبين لنا بشكل جليّ الإسهام الحضاري العظيم الذي قدمته حضارتنا للحضارة العالمية وهذا خلاف ما يريده اعداؤنا ولحسن حظ العرب والمسلمين انه وجد في الغرب من انصف هذه الحضارة ورد على المفرضين الذين ارادوا النيل من تراثنا وتاريخنا. ويخطرنا هنا ما ذكره في السياق إياه جوزيف ماك كيب في مؤلف هام له عن مكتشفات العرب وانجازاتهم في مختلف مجالات العلوم والصناعات والفلك والرياضيات والفيزياء والطب... فيقول: «إن هذه الاخبار وان كانت مختصرة جدا فانها كافية للدلالة على ان عرب الاندلس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها» (٤٤).

وفي النهاية يمكن ان نجل القول: ان اللقاءات الاولى بين العرب والغرب كانت عبر المعارك العسكرية وغير العسكرية التي شهدتها شبه الجزيرة الايبيرية، ومن ثم حصل التمازج وكان التأثير والتأثير في مجال الثقافة والعلوم عامة، قد توطد، وقوي الاتصال بين الطرفين عبر قرون عدة حيث لانزال نشهد حتى يومنا اثار الحضارة العربية باقية لاتمحي ولا تزول، على



الرغم من كل ماحيك من أعداء العرب للقضاء عليها، كما كان لوجود العرب هذه الفترة الطويلة في تلك الاصقاع اثر بالغ مما ادى الى تنبيه الاوروبيين وجذبهم تجاه المؤلفات العربية في العلوم كافة: الفلسفية منها والطبية والفنية والرياضية والفلكية وغيرها، متوجهين نحو العواصم العربية التي كانت تزخر بامهات الكتب لينهلوا منها، سواء بالاخذ منها مباشرة او بترجمتها إلى لغاتهم الحية. كما نود الاشارة إلى اننا إذا اردنا الاسهاب في هذا المجال، فان الحديث يطول ويستغرق مجلدات عدة، وانما نعتبر ان ماذكرناه ليس الا اشارات سريعة غايتها تسليط الضوء على هذه الجوانب كافة، ومن ثم يمكن افراد ابحاث خاصة لكل فرع من هذه العلوم، والسير معها منذ ولادتها سواء في المشرق او الأندلس ومن ثم انتقالها من خلال الجسر الاسباني إلى أوروبا.



## اشارات :

- ١ - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الاول، المجلد الاول: ١٢ .
- ٢ - ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ١/ ٢١٧ .
- ٣ - PE'RE'S H. LA POE'SIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE P.40
- ٤ - المقرئ، نفح الطيب ٣/ ٥ .
- ٥ - اسمه: ابو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب وهو لقب غلب عليه ببلاده من اجل سواد لونه مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله ولذا فشبه بطائر اسود غرد عندهم اسمه زرياب.
- ٦ - المقرئ - نفح الطيب ٣/ ١٢٣ .
- ٧ - المصدر السابق - ١/ ٣٤٤ .
- ٨ - للمزيد من التفصيل انظر المصدر السابق - ٣/ ١٢٢ - ٣٢٢ .
- ٩ - ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس: ٥٧ .
- ١٠ - المقرئ - نفح الطيب ١/ ٣٤٧ .
- ١١ - المقرئ، نفح الطيب ٣/ ٧٠ - ٧٥ .
- ١٢ - المصدر نفسه: ٧٥ - ٧٨ .
- ١٣ - المصدر نفسه: ٧٨ .
- ١٤ - المصدر نفسه: ١٤٤ .
- ١٥ - المصدر نفسه: ٥٩ - ٦٠ .
- ١٦ - المصدر نفسه: ١٤٨ .
- ١٧ - المصدر نفسه: ١٣٩ .
- ١٨ - المصدر نفسه: ١٤٠ .
- ١٩ - المصدر نفسه: ١٤١ .
- ٢٠ - المصدر نفسه: ١٤٢ .



- ٢١ - Pérès; H. Op. cit. P. 116
- ٢٢ - شوقي ضيف - ابن زيدون: ٩ - ١٠ .
- ٢٣ - بالنثيا - تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس: ٤٨٥ - ٤٨٦ .
- ٢٤ - زكريا هاشم زكريا - فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم، ص ٣١٤ .
- ٢٥ - الثقافة العربية - الاسبانية عبر التاريخ، دراسات وابحاث: ١٨٢ .
- ٢٦ - المصدر نفسه.
- ٢٧ - ارنست رنان - ابن رشد والرشدية: ١٢ - ١٣ .
- ٢٨ - المصدر نفسه .
- ٢٩ - المصدر نفسه: ٢٤٥ .
- ٣٠ - غومس غارسيا - الشعر الاندلسي - ترجمة د. حسين مؤنس: ٨٢ .
- ٣١ - حيدر بامات مجابي الاسلام، ترجمة عادل زعير، ص ٣١١ - ٣١٢ نقلا عن ستندال «حول الحب» باريس ١٨٨٢ .
- ٣٢ - هوسا، جاك لايت، شعراء التروبادور ومجالس الحب، انظر مقدمة الترجمة.
- ٣٣ - ابن حزم، طوق الحمامة: ٣٦-٣٨ .
- ٣٤ - هوسا، شعراء التروبادور ومجالس الحب: ١٠٨ .
- ٣٥ - ابن حزم، طوق الحمامة: ١٢ .
- ٣٦ - هوسا، شعراء التروبادور ومجالس الحب: ٧٥ .
- ٣٧ - بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. مؤنس: ٢٣٣ .
- ٣٨ - ابن حزم، طوق الحمامة: ٩٧ .
- ٣٩ - القلماوي وآخرون: ٢٥٤ - ٢٥٥ .
- ٤٠ - المرجع نفسه: ٣٠٤ .
- ٤١ - حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس: ٤٠٢ - ٤٠٤ .
- ٤٢ - تودوروف، تزفيان، فتح امريكة - مسألة الآخر: ٢٥ - ٣٦ .
- ٤٣ - د. هونكه، فضل العرب على اوروبا، ترجمة د. فؤاد حسنين علي: ٢٩٧ .
- ٤٤ - ماك كيب، جوزيف، مدنية العرب في الاندلس، ترجمة د. تقى الدين الهلالي: ٥٦ .

\*

\*

\*



## مراجع البحث :

- ١- ابن بسام، الذخيرة في مجاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٨ - ١٩٧٩ .
- ٢- ابن حزم القرطبي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي وتقديم ابراهيم الابياري، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٣- ابن سعيد المغربي، المغرب في حل المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف في مصر القاهرة ١٩٦٤ .
- ٤- ارنست رُنان، ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعير، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٧ .
- ٥- بالنثيا أنخل غونثالث، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٦- تودوروف، تزفيتان، فتح امريكة — مسألة الآخر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٢ .
- ٧- حيدر بامات، مجابي الاسلام، ترجمة عادل زعير، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٨- د. حومد أسعد، محنة العرب في الاندلس، طبعة ثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٨ .
- ٩- زكريا هاشم زكريا، فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم، القاهرة ١٩٧٠ .
- ١٠- د. ضيف شوقي، ابن زيدون، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ .
- ١١- غومس غارسيا، الشعر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية.
- ١٢- القلماوي د. سهير وآخرون، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ .



- .....
- ١٣- ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس، ترجمة د. ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
- ١٤- المقرئ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨.
- ١٥- ماك كيب جوزيف، مدنية العرب في الاندلس، ترجمة د. تقي الدين الهلالي، بغداد ١٩٥٠.
- ١٦- هوسا جاك لافيت، شعراء التروبادور ومجالس الحب، ترجمة د. مريم البغدادي، دار تهامة، جدة ١٩٨١.
- ١٧- د. هونكه سيجريد، فضل العرب على اوروبة، تعريب د. فؤاد حسين علي، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤.
- ١٨- الثقافة العربية - الاسبانية عبر التاريخ، دراسات وابحات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ١٩٩١.
- ١٩- PE'RE'S , H., La POSIE andalouse en arabe classique au x SIECLE. ADRIEN - Maisonneuve. PARIS 1953 .









تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة  
في سورية







# تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة في سورية

الدكتور غسان بديع السيد  
جامعة دمشق - كلية الآداب  
قسم اللغة العربية

على الرغم من الإشكاليات الكثيرة التي أثارها ظهور الأدب المقارن كفرع مستقل من فروع المعرفة التي تتيح الدخول إلى مجاهل النصوص الأدبية، فإنه أثبت أهميته، وما زال يكسب مناطق نفوذ جديدة. ولا يختلف اثنان اليوم على أهمية الأدب المقارن خاصة في عصر تقلصت فيه المسافات، وأصبح من الصعب على أي أمة أن تتفوق على ذاتها وتكتفي بما عندها من علم وأدب وثقافة وأفكار.

ومن هنا جاء الاهتمام بدراسة التأثيرات المتبادلة بين الأمم. وعلى الرغم من أن الاهتمام بهذا الموضوع ليس حديثاً فإنه قد بلغ أوجه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة لعدد من العوامل المتعلقة بالأوضاع العامة السائدة في العالم حينذاك، مثل ازدهار حركات الكشف الجغرافي والرحلات إلى مناطق نائية ومجهولة من العالم، واتساع حروب الاستعمار التي ساعدت في التعرف على حضارات وثقافات ونظم جديدة (١).

وكان طبيعياً إذن أن تنشأ هذه الدراسات في أوروبا الغربية التي كانت تحاول في كل يوم كسب مناطق نفوذ جديدة. فبدأ الحديث عن القانون المقارن، والتشريع المقارن، واللغويات المقارنة، والأدب المقارن.

وكل هذه العلوم المقارنة كانت تنطلق من مبدأ واحد هو التسليم بوجود علاقة بين الشعوب والمجتمعات التي يتم المقارنة بين نظمها وثقافتها، ثم البحث بعد ذلك عن طبيعة هذه العلاقة وأوجه التأثير المتبادل.

---

دراسات تاريخية، العددان ٥٣ / ٥٤، تموز - كانون الأول ١٩٩٥



وما يهمننا في بحثنا هو الأدب المقارن الذي يُجمعُ النقادُ على أن نشأته كانت في فرنسة عندما ألقى فرانسوانويل وبعض مساعديه محاضرات في الأدب المقارن في السوربون بين عامي ١٨١٦ - ١٨٢٥ تركزت في معظمها على الآداب الفرنسية واللاتينية والإنكليزية والاطالية. بعد ذلك بعامين جاء من يعده النقاد رائد الأدب المقارن أبيل فيلمان الذي حاضر في جامعة السوربون صيف عام ١٨٢٧.

ومنذ أن بدأ فيلمان محاضراته ارتسمت خطوط عامة سار عليها كثير من المقارنين الفرنسيين من أمثال فان تيينم وفرانسواغويار وغيرهم. وأول ما يميز المدرسة الفرنسية هو أنها تعد العامل التاريخي شرطاً ضرورياً لإقامة الدراسة المقارنة. يقول فانتيينم: «الأدب المقارن الحقيقي يحاول، ككل علم تاريخي، أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الأصل، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة كيما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع» (٢).

ولكن هذا التعريف لم يلقَ الترحاب المناسب، فحاول المقارنون الفرنسيون الجدد تطوير تعريف المدرسة كما جاء في كتاب «ما الأدب المقارن» الأدب المقارن: وصف تحليلي، ومقارنة منهجية تفاضلية، وتفسير مركب لظواهر أدبية مختلفة بين اللغات، أو الثقافات، من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، من أجل الوصول إلى فهم جيد للأدب، بوصفه وظيفة خاصة بالعقل البشري» (٣).

وإذا كان الجيل الجديد من المقارنين الفرنسيين قد اكتفى بإدخال بعض التعديلات في المفهوم الفرنسي، فإن رينيه ويلييك قد نسب هذا المفهوم من أساسه في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر الرابطة الدولية للأدب المقارن الذي عقد عام ١٩٥٨، وعنوانها «أزمة الأدب المقارن». وكانت هذه المحاضرة أساس المفهوم الأمريكي في الأدب المقارن. ويقوم هذا المفهوم على أن الأدب المقارن هو العلم الذي لا يقتصر في دراسته للأدب على إنتاج دولة معينة دون غيرها من سائر دول العالم، بل يكسر الحدود الإقليمية الضيقة ويخترقها وهو العلم الذي يدرس العلاقة بين الأدب من ناحية وبين ميادين المعرفة الأخرى. باختصار، يتصدى الأدب المقارن، في المفهوم الأمريكي، للمفاضلة بين التعبير الأدبي وصور التعبير الأخرى.

هذا يعني أن المدرسة الأمريكية ترفض مبدأ الصلات التاريخية بوصفها شرطاً أساسياً للدراسة المقارنة. وبعد المدرسة الأمريكية جاءت المدرسة السلافية أو الماركسية التي تطالب بدراسة العلاقات بين الآداب انطلاقاً من وجهة نظر الماركسية التي تقول: إن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع اجتماعية والاقتصادية في مجتمع ما يفرز نمطاً معيناً من الأدب وهو ما اصطلح على تسميته بالبناء الفوقي. فإذا تشابهت هذه الأوضاع في مجتمعين مختلفين أو أكثر فإن البناء الفوقي «الأدب» سيتناول موضوعات متشابهة. وهذا ما يتيح لنا دراسة هذه الآداب المختلفة من باب رؤية، كيف أن مجتمعات مختلفة يجمعها الأدب تحت



ظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة.

وبعد أن ازداد الاهتمام ببحث العلاقات بين الآداب المختلفة ونجاح هذا الفرع المعرفي الجديد في اكتساب مناطق نفوذ جديدة، بدأ العرب الاهتمام به. وعلى كل حال، العرب هم أكثر من يعرف فائدة الانفتاح الثقافي على العالم خاصة بعد مجيء الاسلام واختلاط العرب بالأمم المجاورة، واطلاعهم على ما في ثقافتهم من قيم جديدة، كما استفادت هذه الأمم مما لدى العرب فتمازجت الثقافات إلى درجة جعل من المستحيل العودة إلى أصولها. هكذا كان حال العرب مع الفرس الذين أسهموا في الثقافة العربية الإسلامية.

يقول الدكتور أحمد أمين في «ضحى الاسلام»: «فلعلك تقرّ معي في هذا، أن الادب الفارسي صبغ الأدب العربي صبغة جديدة، وربما كان أدق من ذلك أن تقول إنهما تفاعلا» (٤).

من الخطأ إذن القول إن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات، وإن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية من غير أن تتأثر بغيرها. ولا يقلل هذا من قيمة ما تركه العرب، فالعلم ملك شائع ومنبع مباح يغترف منه الناس جميعا وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسة الدولية. وإنما الذي يقدر في الأمة حقا أن تغمض عيونها، وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار، أو أن يدفعها التعصب الأعمى أن تنسب لنفسها ما ليس لها، وتعزو إليها خلق ما لم تخلق، وابتداع ما لم تبتدع. وانطلاقا من هذا الفهم القائم على وحدة الثقافة الانسانية وشيوعها وعلى ضرورة الاتصال بالأمم الاخرى، شارك الرواد من المقارنين العرب في مد جسور الاتصال مع الثقافات الاخرى، خاصة الاوربية منها. لقد أتاح الاتصال المبكر بالثقافة الاوربية عن طريق البعثات العلمية والحروب الاستعمارية، الاطلاع على نمط جديد من الحياة الثقافية استوجب نظرة متفحصة مزدوجة على الذات والآخر.

ويحدد الدكتور محمد غنيمي هلال تاريخ ولادة الدراسات الأدبية المقارنة، بغزوة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨، ولكن الدرس المقارن الحقيقي تطور في الربع الثاني من هذا القرن. فيقول: «إذا تتبعنا محاولات نشأة الادب المقارن عندنا في الربع الثاني من هذا القرن وجدنا أن نشأته لم تكن نتيجة لحركة فكرية واتجاهات فلسفية، ومنحى علمي، ومنهج نقدي عميق» (٥).

ونلاحظ هنا أن الدكتور هلال حدد ولادة الادب المقارن في الوطن العربي في الربع الثاني من القرن العشرين، ولم تكن الدراسات المقارنة في هذه الحقبة من الأدب المقارن في شيء لان اصحابها قد أساءوا فهم الادب المقارن ونفروا منه وشككوا في جدواه. ويربط الدكتور هلال ولادة الدراسات العربية المقارنة بالبحث الاكاديمي في الجامعات المصرية التي أوفدت عددا من الباحثين إلى أوربة عامة وإلى فرنسة خاصة للتخصص في هذا المجال. والدكتور هلال نفسه كان أحد أولئك الذين أوفدوا إلى فرنسة وتعلمذ على يدي أحد أشهر المقارنين الفرنسيين وهو



فرانسوا غويار.

والحقيقة إن الدراسات المقارنة في الوطن العربي بدأت قبل هذا التاريخ، ومن هذه الدراسات دراسة الناقد السوري قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ - ١٩٤١)، «منهل الورد في علم الانتقاد». ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء في تسعمئة صفحة، وبدأت طباعته في مصر سنة ١٩٠٧، وانتهت عام ١٩٣٥.

والمهم بالنسبة لبحثنا هو الجزء الثالث من هذا الكتاب، الذي قسمه صاحبه إلى ثمانية عشر بابا، وخص الباب الأخير بالموازنة بين الألعبوة الإلهية (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالي دانتي ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

وتعد دراسة الحمصي من الدراسات المقارنة التطبيقية الرائدة ليس في سورية فحسب بل في الوطن العربي على رأي الدكتور حسام الخطيب في كتابه «الادب المقارن»، ج ١، ص ١٣١. والمهم في هذه الدراسة هو إقامة المقارنة بين هذين العاملين على أساس تأثيرات رسالة الغفران في الكوميديا الإلهية. وقد عد الناقد قسطاكي الحمصي الشاعر الإيطالي دانتي سارقا لفكرة الرحلة الخيالية من رسالة الغفران، ولهذا لا يعد دانتي مبدعا وإنما نقل ما وجدته في رسالة الغفران، وتصرف في بعض المسروقات تصرفا بعيدا وفي بعضه الآخر، غير الاسماء والأماكن. ويؤكد قسطاكي الحمصي على أن الإشارات التي وردت حول علوم الهندسة والتاريخ واللاهوت وآيات التوراة والانجيل جاء ليستر السرقة عن النقد. ثم ينتقل الباحث إلى المقارنة بين العاملين ويعدد المشاهد المتشابهة والتي تبرهن على اطلاع دانتي على رسالة الغفران حسب رأيه.

ونحن إذ نورد كتاب قسطاكي الحمصي لأهميته التاريخية في مجال الدراسات الأدبية المقارنة، فإننا نعارضه في ما ذهب إليه من تأثر دانتي برسالة الغفران، وفي اطلاعه عليها قبل كتابته للكوميديا الإلهية. ونظن أن قسطاكي الحمصي أخذ ماقاله المستشرق الأسباني أسين بلاسيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) في المجمع الملكي الأسباني في جلسة ١٩١٩/١/٢٦ حول «الاصول الإسلامية والكوميديا الإلهية».

فإذا عرفنا أن الحمصي قد نشر مقالته الأولى في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٢٧، ثم نشر الجزء الثالث من كتابه والذي هو موضوع حديثنا سنة ١٩٣٥، فإننا ندرك علاقته بالباحث الأسباني. وكان الدافع وراء تبني أفكار بلاسيوس هو إظهار ما للعرب من أثر في الحضارة والثقافة الغربيتين.

فيقول: «ليس قصدنا في هذه الموازنة الحط من قدر دانتي ببيان سرقة الموضوع من شعر المعري، فقد سرق شعراؤنا وغيرهم قبل دانتي وبعده، وسيسرقون إلى يوم الدين... ولكن لنعلم نفرا يجهلون مدى آداب لغتنا ويكفرون بنوابغنا» (٦).

والمجال هنا ليس للحديث عن مدى تأثر دانتي برسالة الغفران ولكن ينبغي الانتباه إلى أن



تأثر الشاعر الايطالي برسالة الغفران لايعلي من قدر الأدب العربي، كما لا يقلل من قيمته عدم تأثره بها (٧).

ويظهر هنا أن دراسة الحمصي ابتعدت عن المنهج العلمي، وقفرت إلى إطلاق أحكام عامة كلية لاتستند إلى مقدمات سليمة، أو إلى أدلة وبيانات كافية تبرر هذه الأحكام. كما أن الناقد اكتفى بوجود تشابه في موضوع الرحلة الخيالية إلى العالم الآخر ليبرر تأثير رسالة الغفران في الكوميديا الإلهية دون أن يقدم الدليل القاطع على ذلك. قد يكون دانتي قد تأثر بقصة المعراج التي ترجمت إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٦٣ هـ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللاتينية. ومن الممكن أن يكون دانتي قد اطلع على هذه الترجمة، وإن كان هذا لا يكفي للجزم بتأثره بها، ولكنها فرضية قابلة للنقاش أكثر من تأثير رسالة الغفران. وعلى الرغم من ذلك، يبقى الناقد قسطاكي الحمصي من رواد الدراسات التطبيقية في الادب المقارن في سورية وفي الوطن العربي ويكفيه ذلك فخرا. وإذا كان قسطاكي الحمصي من رواد الدراسات التطبيقية في الادب المقارن في الوطن العربي، فإنه لم يشر، في دراسته، إلى مفهوم الادب المقارن ولم يستخدم هذا المصطلح. لقد تناولت دراسته نقاط التشابه بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، دون الاعتماد على نظرية الأدب المقارن التي تهتم بدراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية مع غيره من الآداب خارج حدود اللغة القومية التي كتب بها. أما أول من استخدم مصطلح الادب المقارن في الوطن العربي فهو خليل هنداي (٨).

والحقيقة إن الدكتور حسام الخطيب يصحح في كتابه «آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا» ماتناولته المصادر المعروفة حول تاريخ الادب المقارن العربي، حيث تؤكد هذه المصادر على أن فخري أبو السعود هو أول من أستخدم مصطلح الادب المقارن في سلسلة مقالات نشرها في «الرسالة» عام ١٩٣٦.

أما الدكتور حسام فيعيد الريادة في هذا المجال إلى الاديب السوري خليل هنداي (٩) فيقول: «خلافا لكل مانشر سابقا في هذا الموضوع، يتبين من مراجعة الدوريات العربية ذات الاتجاه الأدبي منذ أوائل القرن العشرين إلى منتصفه أن أول استعمال محدد لمصطلح الادب المقارن ظهر بقلم خليل هنداي (حلب سورية) على صفحات مجلة الرسالة المصرية بتاريخ ١٩٣٦/٦/٨ (١٠).

وكان عنوان المقال هو «اشتغال العرب بالأدب المقارن» (١١) ويبدو من خلال المقالات التي نشرها خليل هنداي على صفحات مجلة الرسالة القاهرية، أن الكاتب كان واعيا لطبيعة مصطلح الادب المقارن ومعناه لأنه يميزه عن الموازنات التي كانت تقوم بين شاعرين أو كاتبين عربيين كما فعل الأمدي في «الموازنة» لابل إنه يتجاوز المفهوم الفرنسي القائم على مبدأ التأثير والتأثير، ويتحدث عن نوع من الأدب العالمي الذي لايعرف الحدود، ويحمل رسالة إنسانية تسمو فوق التعصب الفكري والنظرة الضيقة.



«ولكن الأدب - كما يبدو له - سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء لأنه أدب.... وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم... وربطت بين المفكرين ربطا لا يقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية، وإنما يقوم على رفع الفكر وإعلاء كلمة الفكر» (١٢).

وهكذا نرى أن خليل هندايي يبشر بالرسالة الانسانية للأدب المقارن الذي يعمل على تهديم الحدود المصطنعة بين ثقافات شعوب الأرض. إنَّ روح الكاتب الانسانية جعلته يستشرف آفاق المستقبل في دراسة الآداب المختلفة، ويتعد عن التعصب القومي الذي يحد الرؤيا، ويسيء إلى الفكر. إن الأدب عطاء وإبداع، فكيف يمكن حصره في زاوية ضيقة تحجب عنه أشعة الشمس؟

هذه النظرة الانسانية الشمولية جعلته ينطلق في الأدب العربي إلى فضاء رحب يقع على حدود الآداب العالمية ليستمد منها وتستمد منه، فيقول: إن دراستنا اليوم للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب، وأصبح لا يليق بنا أن نترك الأدب العربي محصورا في عزلته بحجة صيانتته ووقايته. وما الذي يُخشى عليه؟ وإنما صيانتته ووقايته في تعريضه للهواء والنور لا في حجبهما عنه وفي تقريبه من الآداب العالمية» (١٣).

مأحوج الأدب المقارن إلى هذا الفكر الذي يسمو إلى أفق إنساني لا تشوبه شائبة ولا تحده حدود، ولا يخضع لاعتبارات أنية مؤقتة تفصل الانسان عن أخيه الانسان.

تعد مقالة خليل هندايي ردا على أولئك الذين يريدون توظيف الادب المقارن لاغراض شخصية او قومية ضيقة. بعد قسطاكي الحمصي وخليل هندايي شهدت الساحة السورية غيابا للدراسات الأدبية المقارنة، على الرغم من النجاحات التي بدأت تحققها على امتداد الوطن العربي خاصة في القاهرة وببيروت وبغداد، بعد عودة عدد من الموفدين إلى الجامعات الاوربية الذين درسوا الادب المقارن وتخصصوا فيه. ومن هؤلاء الدكتور محمد غنيمي هلال الذي تتلمذ على يدي المقارن الفرنسي الشهير فرانسوا غويار.

وكان لكتبه في حقل الادب المقارن تأثير كبير على الدراسات المقارنة في الوطن العربي. وبقي الجمود مسيطرا على الساحة السورية، ماعدا بعض المقالات، حتى عام ١٩٧١ حيث أدخل مقرر الأدب المقارن إلى قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وقام بتدريس هذا المقرر الدكتور حسام الخطيب الذي أسهم بصورة كبيرة في نشر هذا الفرع المعرفي في سورية، من خلال التدريس والتأليف. فظهر له أول كتاب يحمل عنوانا من صلب الادب المقارن «سبل المؤثرات الاجنبية اشكالها في القصة السورية: دراسة تطبيقية في الأدب المقارن» (١٤).

وقد وجد هذا الكتاب اهتماما من الباحثين لأنه شكل قفزة في تاريخ تطور الدراسات الأدبية المقارنة في سورية، كما أن المعلومات المهمة الموجودة في هذا الكتاب أسهمت في تنبيه الدارسين



إلى العلاقة بين الأدب العربي في سورية وبين الآداب الأوربية، هذه العلاقة التي أنتجت اجناسا ادبية جديدة لم تكن موجودة في الادب العربي القديم مثل المسرحية والقصة والرواية. ويحمل عنوان الكتاب دلالة مهمة إذ يشير إلى منهج الكاتب في تبني المفهوم الفرنسي الذي كان مسيطراً ليس في سورية فحسب ولكن في الوطن العربي، وخاصة أن الرواد الأوائل من المقارنين العرب تتلمذوا في الجامعات الفرنسية.

ويشير الدكتور عبد النبي اصطيف في مقالته التي تقدمت الطبعة الخامسة من الكتاب عام ١٩٩١ إلى هذه المسألة، ويؤكد على أن مسألة التأثير والتأثير هي مسوغ الدراسة المقارنة. وعلى الرغم من أهمية عقد السبعينيات بالنسبة للادب المقارن في سورية، بعد إدخاله إلى الجامعة وظهور كتاب الدكتور حسام الخطيب فإنه لم يشهد انطلاقة حقيقية إلا في عقد الثمانينيات.

وكان الأمر مقتصرًا قبل عام ١٩٨٠، بالإضافة إلى الكتاب سابق الذكر، على بعض المقالات في مجلة المعرفة السورية، حيث نشر الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧٦ عرضاً مفصلاً عن مشاركته في المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للادب المقارن الذي عقد في بودابست في العام نفسه، كما نشر ثلاث مقالات في المجلة نفسها عام ١٩٧٩ حول «الأدب المقارن بين التزمّت المنهجي والانفتاح الانساني» بالإضافة إلى مقالات الدكتور حسام الخطيب خصصت مجلة المعرفة بعض الأعداد للدراسات المقارنة من الناحيتين النظرية والتطبيقية. واشترك في كتابة هذه المقالات مجموعة من الباحثين المشتغلين في مجال الأدب المقارن، ومن هؤلاء الدكتور جمال شحيد الذي نشر عام ١٩٧٧ مقالا بعنوان «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة» (١٥).

وخصص العددان ١٩١ - ١٩٢ لعام ١٩٧٨ بصورة كاملة للدراسات الأدبية المقارنة خاصة التطبيقية منها (١٦). ويأتي هذان العددان في حقبة ازداد فيها الوعي بضرورة الاستفادة من مناهج الأدب المقارن من أجل معرفة موقعنا بالنسبة للآداب العالمية. ولهذا قامت وزارة الثقافة بطباعة كتابين مترجمين. الأول ترجمة عن الانكليزية عبد الكريم محفوظ عام ١٩٨٠، وهو من تأليف هاري ليفن بعنوان «انكسارات، مقالات في الأدب المقارن». وأكثر مايركز هذا الكتاب على الدراسات التطبيقية المقارنة في الآداب الغربية. ولا يبتعد الكتاب الثاني عن الكتاب الأول، وهو من تأليف ايغريم كارانفيلوف، وعنوانه «ابطال وطباع، مقالات في النقد والنقد المقارن»، قام بترجمته ميخائيل عيد عن البلغارية وصدر عام ١٩٨٢. وفي هذا الاطار يمكن الإشارة إلى كتاب كاترينا مومسن «غوة وألف ليلة وليلة». الذي قام بترجمته الدكتور أحمد حمو وأصدرته وزارة التعليم العالي عام ١٩٨٠. ويظهر هذا الكتاب أثر ألف ليلة وليلة في شاعر المانية الكبير غوته الذي تربى منذ نعومة اظفاره على سماع حكايات أعظم قاصة في التاريخ «شهرزاد» وهذا دليل على أن التأثير لايمكن أن يكون في اتجاه واحد. على الرغم من عظمة غوته ومكانته كواحد من القمم الكبرى في الأدب الغربي فإنه اعترف بفضل الأدب



العربي عليه بالإضافة إلى القرآن الكريم الذي كان له أكبر الأثر في ظهور بعض أعمال الشاعر إلى الوجود (١٧).

إلى جانب هذه الكتب المترجمة ظهر في دمشق لأول مرة كتاب يحمل عنوان «الأدب المقارن» للدكتور حسام الخطيب. وصدر هذا الكتاب عام ١٩٨١، في جزأين عن جامعة دمشق. الجزء الأول مخصص للحديث عن النظرية والمنهج، إذ يعمد المؤلف إلى التعريف بالمفاهيم الرئيسية للأدب المقارن مع طرح العضلات التي تواجهه. ولا ينسى الحديث عن الأدب المقارن عند العرب منذ بداية عصر النهضة حتى تاريخ صدور هذا الكتاب. أما الجزء الثاني فيحتوي على كل الموضوعات التي وردت في كتابه «سبل المؤثرات الأجنبية في القصة السورية» فيقف أولاً عند علاقة الأدب العربي الحديث بالأدب الأوروبية خاصة بعد الاتصالات الكثيرة التي قامت بين هذه الآداب بفعل عوامل عديدة. لينتقل بعد ذلك إلى القصة السورية والمؤثرات الأجنبية التي أسهمت بصورة مباشرة في ولادتها. أما الفصول الأخيرة من الجزء الثاني فقد خصصت للدراسات التطبيقية حيث يقف المؤلف خاصة عند التأثيرات الوجودية في القصة والرواية في سورية.

ومعروف الآن فائدة هذه الطريقة من التأليف التي تساعد على فهم الجانب النظري، فإذا تم للقارئ ذلك انتقل به المؤلف إلى الجانب التطبيقي الذي يثبت المعلومات النظرية ويوضحها.

مما لا شك فيه أن هذا الكتاب جاء تنويجا لمرحلة كاملة من البحث المقارن في سورية وأسهم في إغناء الثقافة المقارنية وتنشيط الدراسات النقدية إزاء مشكلات نوعية متخصصة في ميادين الأدب المقارن وظهر في هذه المرحلة كتاب الدكتور محمد ألتونجي «دراسات في الأدب المقارن» وهو من منشورات اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٨٢. وكما جرت عليه العادة في الكتب السابقة، قرن المؤلف النظرية بالتطبيق، ولكنه يعتمد اعتماداً كبيراً على كثير من الموضوعات، وعدد من الكتب المختصة في الأدب المقارن. وهذا ما يعترف به المؤلف نفسه. إن هذه الكتب التي ظهرت في السنوات الأولى من مرحلة الثمانينيات تعد مؤشراً على الاهتمام المتزايد في الظاهرة المقارنية، توجت بالمؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن الذي عقد في رحاب كلية الآداب بدعوة من جامعة دمشق بين ٦-٩/٧/١٩٨٦ (١٨).

وشارك في المؤتمر باحثون من عدد من الأقطار العربية بالإضافة إلى بعض الباحثين العالميين. وكان الموضوع المركزي لهذا المؤتمر هو مجالات الأدب المقارن عند العرب نظرياً وتطبيقاً، وانقسم إلى ثلاثة محاور. المحور الأول تناول الأدب العربي المقارن، والمحور الثاني دار حول علاقة الأدب العربي المقارن بالعالم، أما المحور الثالث فخصص للدراسات التطبيقية. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن هذا المؤتمر، فإنه يمثل ظاهرة متطورة على طريق ترسيخ دعائم الدراسات الأدبية المقارنة في سورية وفي الوطن العربي. لأنه أسهم في



إثارة قضية الأدب المقارن ونشر الوعي المقارني كما يقول الدكتور حسام الخطيب رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر «إن قضية الأدب المقارن، إذ تبدأ بطرح نفسها على جمهور المثقفين والقراء إلى جانب المتخصصين، إنما تبعث في النفس أملاً وتفتح أبواباً ومجالات من البحث كفيلة بأن ترفد الأدب العربي المعاصر بدم جديد، وأن تسهم في تسهيل طريق تحقيق طموحه القومي العصري وتطلعه الانساني الشامل» (١٩).

وعقب المؤتمر شهدت المجالات السورية حركة نشطة في نشر المقالات الأدبية المقارنة، وخصصت أعداد كاملة من مجلات المعرفة والموقف الأدبي والآداب الأجنبية لنشر المقالات التي أقيمت في المؤتمر والتي ألفت أضواء جديدة على مواضع مظلمة، وساعدت على رؤية الأدب العربي من خلال المقارنة والمقابلة بالآداب الأجنبية. فنشرت مجلة المعرفة في عددها /٢٩٥/ الصادرة عام ١٩٨٦ مقالات لكتاب سوريين وعرب، ومن هذه المقالات «حول الأدب العربي وامتحان العالمية» للدكتور حسام الخطيب، و«أسطورة أورفيوس بين الآداب الغربية والشعر العربي المعاصر» للدكتور علي الشرع من جامعة اليرموك في الأردن، و«الموشح الاندلسي بين التأثير والتأثير» للدكتور رضوان الداية، و«في نظرية الأدب المقارن» للدكتور فؤاد مرعي. أما مجلة الموقف الأدبي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق فقد تناولت في عددها /١٨٦/ عام ١٩٨٦، ملف الأدب العربي في علاقاته مع الآداب الأخرى وافتتح العدد الدكتور عبد الله أبو هيف في «قصة الأدب العربي المقارن».

تلاه رأي الدكتور حسام الخطيب في المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن. بعد ذلك حاولت المجلة أن تقدم دراسات تطبيقية قائمة على النماذج الأدبية المقارنة التي تطرح كثيراً من الأسئلة المثيرة للاهتمام. فقدم الدكتور جمال شحيد بحثه حول «رواية عصر التنوير الفرنسية والحضارة العربية»، أما الدكتور عادل عبد الله فتحدث عن «ألف ليلة وليلة وفن البرلسك الانكليزي».

وبقيت الدكتور بثينة شعبان في إطار الأدب الانكليزي لتطرح قضية مهمة جداً هي «الأدب النسائي العربي والأدب النسائي الانكليزي».

وكما فعلت مجلتا الموقف الأدبي والمعرفة، فعلت مجلة الآداب الأجنبية في عددها المزدوج /٥٠ - ٥١/ الصادر عام ١٩٨٧. ومن المقالات التي قدمها الباحثون السوريون مقال الدكتور عبد النبي اصطيف بعنوان «دعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده».

وقدم الدكتور سليمان محمد أحمد بحثاً بعنوان «هاردي والعقاد». على أن المجال لا يتسع هنا لاستعراض كل البحوث التي نشرت على صفحات هذه المجالات، وإبداء الرأي فيها، ولكنها تثبت الاهتمام المتزايد الذي أولاه الباحثون السوريون والعرب لهذا الفرع المعرفي المفيد في فهم النصوص الأدبية.



ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ترجمة عارف حديفه لكتاب أس.أس. براور «الدراسات الأدبية المقارنة - مدخل» الصادر في دمشق عام ١٩٨٦ عن وزارة الثقافة.

خلال السنوات القليلة التي تلت المؤتمر عاد بعض الموفدين الدارسين في الجامعات الغربية في مجال الأدب المقارن، إلى سورية وعملوا بالتدريس في الجامعات السورية الأربع. مما لاشك فيه أن سياسة الإيفاد التي اتبعتها الجامعات السورية، أسهمت في توسيع أفق الدراسات المقارنة بسبب تعدد الجامعات وتنوعها، وامتلاك الموفدين للغات مختلفة تساعدهم على الاطلاع على وجهات النظر المتعددة والفنية. وهكذا نرى التنوع في التأليف، كما يظهر من كتاب الدكتور عبده عبود «الأدب المقارن»، الصادر عن جامعة البعث عام ١٩٩١، حيث استفاد الباحث من دراسته في المانية ومعرفته للغة الألمانية. ولهذا احتوى كتابه على موضوعات جديدة تتعلق باستقبال الرواية الألمانية في العالم العربي. كما أن توزيع الموضوعات على فصول الكتاب التسعة أسهم في إعطاء صورة شاملة للقارئ عن الأدب المقارن في المجالين النظري والتطبيقي، محاولاً في الوقت نفسه استخدام مفاهيم جديدة في دراساته التطبيقية فيقول: «وقد انطلقنا في هذا الكتاب من منحى نظري رئيسي شكل منعطفاً حاداً في نظرية الأدب وكان له أكبر الأثر على تطور الأدب المقارن وبحوثه ألا وهو نظرية الاستقبال الأدبي، دون أن يقودنا ذلك إلى إغفال الاتجاهات والتيارات النظرية الأخرى، أو تجاهلها» (٢٠).

ويسجل لمؤلف هذا الكتاب مشاركته النشطة في التعريف بالأدب المقارن عن طريق التأليف والترجمة وكتابة المقالات وإلقاء المحاضرات، مما يبشر بالمحافظة على الحماس الذي لا بد منه من أجل ترسيخ دعائم هذا الفرع المعرفي. وإذا كنا لانستطيع الإشارة إلى كل ذلك، فإنه لا بد من التذكير بكتابه «الرواية الألمانية الحديثة - دراسة استقبالية مقارنة» الصادر عن وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٩٣ ضمن سلسلة «دراسات نقدية عربية».

بالإضافة إلى الطريقة العلمية والأكاديمية التي يتبعها الكاتب في رصد الظواهر الأدبية، فإنه يقدم أيضاً طريقة جديدة في التعامل مع الظاهرة الأدبية من خلال تتبع سيرورتها من بلد المنشأ حتى تلقيها من قبل القارئ العربي.

وقبل صدور هذا الكتاب بنحو عام، صدر كتاب الدكتور حسام الخطيب «آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً» عن دار الفكر في سورية ولبنان عام ١٩٩٢. وعلى الرغم من التشابه بين هذا الكتاب والكتاب الذي صدر عن جامعة دمشق في جزأين عام ١٩٨١، بعنوان الأدب المقارن، فإن الدكتور حسام الخطيب يحاول أن يقدم هنا نظرة متكاملة تعتمد على خبرته في مجالات التأليف والتدريس وحضور المؤتمرات العربية والدولية، مستفيداً من الوثائق التي حصل عليها في إعادة تصحيح بعض الحقائق، خاصة المتعلقة منها بتاريخ الدراسات المقارنة في الوطن العربي.

قبل أن أختم بحثي هذا أريد أن أشير إلى أن كاتب هذه السطور قام بجهد متواضع في هذا



## الإطار.

وكان الكتاب الأول «إشكالية الموت في الأدب» الذي صدر في دمشق عن دار معد عام ١٩٩٣ محاولة جادة لرصد موضوع إشكالية الموت في أدب الكاتب السوري جورج سالم، وعلاقة ذلك بفكر غابرييل مارسيل وألبير كامو.

والكتاب الثاني بعنوان «الحرية الوجودية بين الفكر والواقع، دراسة في الأدب المقارن»، ونشر في دمشق عام ١٩٩٤، وإذا كان الكتاب الأول قد كرس للجانب التطبيقي، فإن الكتاب الثاني قد بدأ بفصل عن تاريخ الأدب المقارن ومدارسه في حين أن الفصلين الثاني والثالث قد خصصا للحديث عن الحرية عند بعض الكتاب السوريين والفرنسيين الوجوديين لأن الحرية هي جوهر الانسان بالنسبة إلى الفكر الوجودي لابل هي الوجود الانساني ذاته. بالإضافة إلى ذلك قمت بنشر بعض المقالات في مجلات سورية وعربية (٢١).

وفي هذا المجال لم يتوقف نشاط الباحثين السوريين كما يتبدى من خلال الأبحاث المختلفة التي تنشر في مجلات سورية وعربية.

في نهاية هذا العرض السريع، يحق لنا أن نتساءل ماذا قدمت كل هذه الدراسات من فائدة للأدب في سورية، وما هي آفاق تطورها؟ على الرغم من الجهد الواضح الذي بذله الباحثون السوريون، فإن النتائج لم تكن في مستوى الطموح. ولو ألقينا نظرة سريعة على عدد الكتب المؤلفة أو المترجمة لوجدناها لا تتجاوز عدد أصابع اليدين.

إن نشأة الأدب المقارن في سورية قد تأخر عن نظيره في البلاد الغربية بنحو قرن من الزمن. وهذه الولادة مرتبطة باتصال المقارنين السوريين الاوائل بالثقافة الغربية واستفادتهم من مناهجها الحديثة. ولكن هذه الاستفادة انحصرت في الجانب التطبيقي لا في الجانب النظري وكما يعاني الادب المقارن من أزمة في البلدان العربية كذلك الامر في سورية، ولم تستطع الجهود الكبيرة في نقله من مجرد مقرر هامشي في الجامعات يهتم عدداً محدوداً من المتخصصين إلى فرع معرفي من بين فروع المعرفة المختلفة. وإذا كان المستقبل يبشر بالخير نتيجة عدد من العوامل التي تشجع على إطلاق مثل هذا الحكم، فإننا يجب أن نتعهد هذه الانطلاقة المبشرة بالرعاية اللازمة عن طريق رسم خطط مستقبلية تكفل نشر الثقافة المقارنة وتشجع المقارنين السوريين وترعاها.

كما أنه يجب إعادة النظر في المقررات الجامعية وطرق التدريس، إن ذلك يعد اللبنة الأساسية في تطوير البحث المقارن. وهذا يتطلب التواصل المستمر مع المقارنين العرب من جهة ومع المقارنين العالميين من جهة أخرى عن طريق عقد اللقاءات والندوات التي تشجع البحث وترعاها. ويبقى الأساس في كل عملية تطوير الإنسان نفسه، فإذا توفرت النية والامكانية أمكن للبحث المقارن في سورية أن يحقق انطلاقة مهمة. أمنية صعبة التحقيق لكنها ليست مستحيلة.



## الحواشي :

- ١- أحمد أبو زيد، «الأدب المقارن»، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث (١٩٨٠) ص ٣.
- ٢- بول فان تبيغم، الأدب المقارن ٧ القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٦، ص ٢٠.
- ٣- P.Brunel, Claude Pichois, A,M,Rousseau, Qu est-ce que la litterature comparée, Paris, Armand Colin, 1983/ P.15/.
- ٤- أحمد أمين، ضحى الاسلام، ط ٢، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ص ١٢٣.
- ٥- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط ٢، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٧، ص ٨٥.
- ٦- قسطنطين الحمصي، منهل الورد في علم الانتقاد، ج ٢، حلب، مطبعة العصر الجديد، ١٩٣٥، ص ١٩٧.
- ٧- للمزيد من المعلومات، راجع كتاب، الياس سعد غالي، رسالة الغفران والكوميديا الالهية دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨.
- ٨- حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، دار الفكر المعاصر في لبنان، ودار الفكر في سورية، ١٩٩٢، ص ١٥٤.
- ٩- ولد خليل هندراوي في صيدا في جنوب لبنان عام ١٩٠٦، انتقل إلى سورية عام ١٩٢٨، وعمل مدرسا في مدارس دير الزور وحلب إلى أن عين رئيسا للمكتب الفرعي لاتحاد الكتاب العرب في حلب حتى وفاته سنة ١٩٧٦.
- ١٠- حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٥٣ - ١٥٤.
- ١١- ظهر المقال على صفحات مجلة الرسالة القاهرية عام ١٩٣٦، الاعداد: ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦.



- ١٢ - خليل هندراوي. «اشتغال العرب بالأدب المقارن!»، الرسالة، المجلد الأول، العدد ١٥٣، ١٩٣٦/٦/٨ ص ١٩٣٨.
- ١٣ - المصدر السابق، ص ٩٣٩.
- ١٤ - صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في القاهرة عام ١٩٧٣ عن معهد البحوث والدراسات العربية، ثم أعيد طبعه في دمشق عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٥ (اتحاد الكتاب العرب). وأخيرا ظهرت طبعة منقحة ومعدلة بدمشق عام ١٩٩١ تتقدمها مقالة الدكتور عبد النبي اصطيف «سبل المؤثرات من منظور مقارني».
- ١٥ - جمال شحيد، «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة»، مجلة المعرفة، العدد ١٨٢، ١٩٧٧ ص ٥٩-٧٢.
- ١٦ - خصص العدد المزدوج ١٩١ - ١٩٢، عام ١٩٧٨، بصورة كاملة للدراسات المقارنة ولذلك استحال علينا ذكر كل الموضوعات، وننصح بالعودة إلى هذا العدد من مجلة المعرفة.
- ١٧ - من المفيد العودة إلى كتاب، كاترينا مومزن، غوته والعالم العربي، ترجمة عدنان عباس علي الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٩٤، عام ١٩٩٥.
- ١٨ - لمزيد من المعلومات، راجع، حسام الخطيب، «حول المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن»، الموقف الأدبي، العدد ١٨٦، ١٩٨٦، ص ٧ - ١٤.
- ١٩ - المصدر السابق، ص ١٤.
- ٢٠ - عبده عبود، الأدب المقارن، حمص، جامعة البعث، ١٩٩١ - ١٩٩٢.
- ٢١ - من هذه المقالات، «في الأدب المقارن» مجلة علامات، السعودية، جدة، المجلد الرابع، الجزء الرابع عشر، (١٩٩٤)، ص ٢٠١.





## المصادر والمراجع في اللغة العربية :

- أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط ٢، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
- براور، اس. اس الدراسات الأدبية المقارنة. ترجمة عارف حديفة. دمشق وزارة الثقافة ١٩٨٦
- التونجي، محمد، قسطاكي الحمصي شاعرا وناقدا وفيلسوفاً. بيروت: دار الانوار، ١٩٦٩
- دراسات في الأدب المقارن، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢.
- تبيغم، بول فان. الأدب المقارن. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٦.
- الحمصي، قسطاكي. منهل الورد في علم الانتقاد، ج ٣ حلب: مطبعة العصر الجديدة، ١٩٣٥.
- الخطيب، حسام. سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، ط ٥. دمشق: مكتبة الادب القصصي في سورية، ١٩٩١.
- الأدب المقارن، ج ١-٢ دمشق: دار الانشاء، ١٩٨٢
- آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دار الفكر في سورية ولبنان، ١٩٩٢.
- عبود، عبده. الأدب المقارن. حمص: منشورات جامعة البعث، ١٩٩١.
- الرواية الالمانية الحديثة، دراسة استقبالية مقارنة. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٣.
- علوش، سعيد. مدارس الأدب المقارن، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.
- غالي، الياس سعد. رسالة الغفران والكوميديا الالهية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨.
- ليفين، هاري، انكسارات، مقالات في الأدب المقارن، ترجمة عبد الكريم محفوظ. دمشق:



.....  
وزارة الثقافة، ١٩٨٠ .

- ويليك، رينيه. مفاهيم نقدية. ترجمة محمد عصفور، الكويت، عالم المعرفة العدد ١١٠/١٩٨٧ .

- هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، ط ٣ . القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٧ .

#### المصادر والمراجع في اللغة الفرنسية

- Brunel, P.Pichois, Claude, Roussau, A.M.Qu est-ce que la littérature comparée. Paris: Armand Colin, 1983

- Guyard, Marius- Francois. La littérature comparée. Paris: P.U.F. 1969.

#### الدوريات العربية

- الآداب الأجنبية، دمشق، العدد المزدوج، ٥٠ - ٥١، ١٩٨٧ .

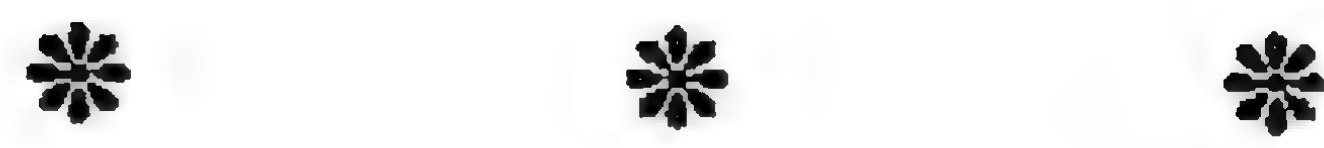
- الرسالة، القاهرة، المجلد الأول، الأعداد، ١٥٣ - ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٩٣٦ .

- عالم الفكر، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، ١٩٨٠ .

- علامات، السعودية، المجلد الرابع، الجزء الرابع، ١٩٩٤ .

- المعرفة، دمشق، الأعداد ١٨٢، ١٩٧٧، ١٩١ - ١٩٢، ١٩٧٨، ٢٩٥، ١٩٨٦ .

- الموقف الأدبي، العدد ١٨٦، ١٩٨٦ .





## ملخص البحث

يرتبط مصطلح الأدب المقارن بالنصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد محاضرات آييل فيلمان التي ألقاها صيف عام ١٨٢٧ ونشر قسم منها عام ١٨٢٨ و ١٨٢٩ .

كسب الأدب المقارن بعد « فيلمان » مناطق نفوذ جديدة، أو بالأحرى كسب شعبية في فرنسة وفي كل مكان من العالم، بما في ذلك سورية حيث نشر قسطنطين الحمصي دراسته « منهل الورد في علم الانتقاد » عام ١٩٣٥ . في السنة التالية، كتب خليل هنداوي عدة مقالات في مجلة الرسالة حيث استخدم، للمرة الأولى، مصطلح الادب المقارن.

في جامعة دمشق بدأ الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧١، بإعطاء محاضرات في الأدب المقارن. وخلال هذه السنوات، بدأ الأدب المقارن يعرف كعلم مستقل في سورية.



اشكالية (اللفظ)

في النقوش

والكتابات القديمة







# اشكالية [اللفظ] في النقوش والكتابات القديمة

محمد بهجت قيسي  
محاضر في جامعة حلب

١- إن مباحثات طابا، بين الوفد الفلسطيني والاسرائيلي، في شهر كانون الثاني ١٩٩٤ قررت: أن مسؤولية الآثار المسيحية والاسلامية تكون للفلسطينيين، أما الآثار اليهودية فتكون لاسرائيل (١).

هكذا يصادر التاريخ القديم في المنطقة ليصبح إسرائيلياً يهودياً لأغراض سياسية.  
٢- وقبلها، يصادر الصهيوني درايفر نقوش الأرض وكلماتها ليضيفها إلى قاموس جيزنيوس القديم ١٨١٥، ويعطيه نفس الاسم (قاموس جيزنيوس) عبري - إنكليزي بلعبة ذكية في الاخراج (٢) عام ١٩٥٣.

٣- والآن فإن أكثر جامعات العالم تذهب إلى لفظ النصوص بكلماتها، حسب اللفظ العبري، الذي حققه الماسوريون في القرن العاشر الميلادي [نعم في القرن العاشر الميلادي] (٣). \*

\* فمثلاً يلفظون: كلمة يادي يا وودي (مملكة آرامية عاصمتها شمال)، وكلمة فعل: فيعال ف - ع - ل، وكلمة ملك أو مالك يلفظونها: ميليك بأحرفها م - ل - ك، وكلمة آية يلفظونها إيت ويقولون ليس لها محل من الاعراب (٤)، وكلمة [أنا، كه] بمعنى أنا: يلفظونها أنوك أو أناكو بأحرف ان ك، وأهل مدينة حلب يقولون كهنة: بمعنى إكهنها، ها هي، او [كه] بنفس المعنى، وهي لا تزال مستعملة لفظاً، لكن الهاء لا تكاد تسمعها، فإن قلت (أنا، كه) اختلف الموضوع والمعنى كما اختلف اللفظ، ويلفظون جبيل جبلا وهلك هوليخ، وكلمة قرأ تلفظ قرا بمعنى نادى، وكلمة بت نعم قرأوها بتنو عام بأحرفها ب ت ن ع م وبت تعني بنت، أي بنت نعم وهو اسم أم ملك في الساحل الكنعاني الشامي تعطي صفة لنفسها. وكلمة عز بعلم يلفظها عزبي بعلم بأحرفها ع ز ب ع ل. وجملة محسم حارص ل - في أي - علبة حمرة شفاه ترعى وتحرس فمي (٥) - يقرؤها محسم حاروس لفي أي علبة حمرة ذهبية لفي. كان الكنعانيون يعتقدون ان الميت بحاجة لتزيين القم ليكون راعياً أو حارساً من الشياطين [وقد وجدت هذه العادة في قرطاجة وبحر ايجة بالإضافة إلى وضع قطع معدنية مع الميت في قبره أيضاً].

ويلفظون كلمة حوي. حفييا بالأحرف ح و ي.

وكلمة مفلت يلفظونها مفلات بمعنى أحجار فلتانة أي أنقاض (٦). و [مزرمه] = ماذا رماه (٧).

دراسات تاريخية، العددان ٥٢ / ٥٤، تموز - كانون الاول ١٩٩٥



فمشكلة اللفظ تتجلى بأمرين:

- ١- غياب اللفظ لغياب الأحرف التي تمثل الصوتيات وهي الالف والواو والياء.
- ٢- الاعتماد على ٢٢ حرف فقط لتمثل ٢٩ صوتاً.

### أولاً: غياب الأحرف الصوتية:

إن أكثر النقوش القديمة (عدا المسمارية وشيئاً من الكتابة المقدسة المصرية) كتبت بإسلوب مختزل من الأحرف الصوتية: الالف والواو والياء، بالإضافة إلى حركاتها الخفيفة الفتحة والضمة والكسرة (وإمالاتها)، وترك تقديرها للقارئ آنذاك. وكان القارئ معاصراً لما كتب فاشتركت لديه حواس: السمع بالأذن والرؤية بالعين واللفظ أخيراً باللسان، ولذلك وبهذه الحواس كان اللفظ سليماً.

يقول ابن جني [العبرة في اثبات الحرف بالنطق لا بالخط، لوجود اللفظ قبل الخط] (٨) حيث إن الكتابة ليست من جوهر اللغة فقد تكلم الناس قبل أن يعرفوا الكتابة طريقاً. أما المشكلة اليوم أننا نملك الرؤية ولا شيء سواها، وفاتنا السمع وبالتالي فقدنا اللفظ السليم.

وقبل البحث بالوسائل المقترحة للفظ، فلا بد من التذكير بالثوابت التالية:

- ١- إن أنظمة الكتابة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم عاجزة عن تلبية متطلبات الصوت (فلا يمكننا تعلم الانكليزية اعتماداً على الكتاب فقط بدون معلم).
- ٢- لابد لتعلم القراءة السليمة من شيخ يعلمه، لذا وجدنا دائماً عبر التاريخ العربي العدناني هذه الجملة الجميلة: لقد قرأ فلان عن فلان.
- ٣- إن اختلاف نمط الخط لا يعني اختلاف اللغة، فقد كتبت العربية العدنانية على سبيل المثال:

أ- بالحرف الآرامي المربع: كتب به ورقة بن نوفل (٩).

ب- بالحرف المسند: رسالة النبي (ص) إلى أهل اليمن (١٠).

ج- الحرف السرياني وسميت بالكرشونية نسبةً إلى قريش (١١).

د- وكتبت بحرف الجزم: وهو المستعمل حالياً أو ما دعي بالحرف العربي مجازاً.

هـ- كذلك كتبت بخليط من المسند والجزم والهيروغليفية (الكتابة المصرية المقدسة) نقش

رم [٢] بجبل رم شمال خليج العقبة (١٢).

كما كتبت الآرامية بالحرف الكنعاني وبالخط المسماري والمصري واليوناني والمربع (١٣).

بهذا نجد أن اختلاف نمط الخط لا يدل على اختلاف اللغة.

ونورد مثلاً آخر معاصراً، فاللغة التركية تركت حرف الجزم العدناني سنة ١٩٢٩



واستبدلته بالحرف اللاتيني، فالسؤال المطروح:

هل تغيير نمط الخط بالتركية أدى إلى اختلاف اللغة؟ بالطبع لا.

٤- الثابت الرابع هو أن وحدة الخط لا تدل على وحدة اللغة، فبالمسمارية كتبت كل من السومرية والاكادية والهورية والآرامية وغيرها من اللغات القديمة.

وبالتاريخ الحديث نجد أن الحرف اللاتيني حوى كلا من الجرمانيات واللاتينيات.

٥- الثابت الخامس والهام: نود أن نذكر بـ عالم الآرميات الفرنسي دوبون سُومر حيث يذكر في كتابه [الآراميون]:

رغم أن الآرامية تتميز بخصائص كثيرة (مثل أداة التعريف فهي ألف في آخر الكلمة) فإنها قريبة الصلة باللغتين (اللهجتين) الكنعانية والعبرية، وتشترك معهما بمصطلحات إلى حد ما. ولكنها أقرب إلى اللغة العربية (العدنانية) من غيرها ولهما مصطلحات لغوية وألفاظاً مشتركة. أي أن الآرامية قريبة الصلة بالعبرية لكنها وثيقة الصلة بالعربية العدنانية ولها ألفاظ مشتركة معها، لنلاحظ كلمة ألفاظ ما دام بحثنا عن اللفظ (١٤).

٦- الثابت السادس والهام أيضاً في موضوع اللفظ ما جاء في قاموس لسان العرب لابن منظور في مادة كنع عن اللهجة الكنعانية:

[كان الكنعانيون يتكلمون بلغة تضارع العربية] (١٥).

وعود على ذي بدء: كيف لنا أن نلفظ هذه النقوش وهذه الكلمات لفظاً هو أقرب للحقيقة ما دامت أكثرها لا تحوي أحرفاً صوتية\*.

الوسائل البادية لنا:

لدينا من اللهجات الحية مايلي:

١- العبرية ٢- السريانية.

٣- آرامية معلولا وبخعه وجب عدين (وهي خلاف السريانية).

٤- العدنانية ٥- اللهجات العامية على امتداد الوطن العربي.

٦- الوزن الشعري أو السجع إن وجد كالامثال.

وأخيراً والهام:

٧- أسماء المدن والقرى والاماكن القديمة.

ولا أظن أنه بعد هذه الوسائل السبعة شيئاً يمكن أن يعتد به من ناحية اللفظ الذي يعتمد على المسموع تحديداً.

\* - عندما نجد الالف والواو والياء في الكتابات القديمة، فهي تمثل احرفا ساكنة (صامتة) لا احرف مد، فالياء في كلمة بيت مثلاً حرف ساكن وليست حرف مد لعدم تأثيرها على حركة ما قبلها، وكذلك الواو في كلمة (موت) ايضاً، والياء والواو في كلمة (يوم) ايضاً.



## ١- العبرية:

نفرق بين عبريتين: الأولى العبرية الحديثة التي وضعها اليعازر بن يهوذا بين عامي ١٩١١ - ١٩٢٢ (١٦)، والثانية التوراتية. فالحديثة المحكية في الاذاعات الآن لا يمكن الركون إليها حيث هي خليط من التوراتية ولغة اليديش والتي بدورها خليط من البولونية والالمانية والروسية (١٧). وهي حديثة العهد ترقى إلى بداية القرن الثامن عشر (١٨) وأن متكلم العبرية الحديثة لا يستطيع فهم التوراة. تماماً كالعربي الذي يقرأ الفارسية بأحرفها العربية اليوم.

أما التوراتية القديمة:

١- نعلم جميعاً أن التوراتية هي خليط من اللهجتين الكنعانية ثم الآرامية التي نجدها في سفر دانيال وأجزاء من سفر عزرا (١٩)

٢- لنرى ما يقوله الماسوريون بعد تحقيقهم وتشكيلهم للفظ التوراة بأحرفه الصوتية وتنقيطه (التشكيل) في القرن العاشر الميلادي، فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس - ص ٧٦٣ - ما نصه:

[وقد دوّن الماسوريون الاصطلاحات التي ارتأوها على النص وجعلوها في الحاشية، تاركين للعلماء الخيار في قبولها أو رفضها بعد البحث والتدقيق] (٢٠).

اذن، ان لفظ التوراة المحقق الآن، يرجع إلى القرن العاشر الميلادي، وهو لا يسمح لنا ان نلفظ الكلمات القديمة، التي يرجع بعض نقوشها إلى أكثر من أربعة آلاف سنة قبل هذا التاريخ. بل على العكس، ما دامت العبرية التوراتية القديمة مؤلفة من لهجات اقدم وهي الكنعانية والآرامية، فما دمنا نبحث بالأصل، فباستطاعتنا ايضاً تعديل ألفاظ التوراة (شكلاً) دون المساس بأحرفها الساكنة الاصلية وستفهم فهماً آخر.

واود ان اذكر الأخوة يهود الشرق للكارثة التي اتى بها اللاهوتي بوستيل عام ١٥٣٨ في باريس في [أن العبرية هي ذاك الأصل العتيق مرفوعاً بالمؤثرات الدينية. وأخطر ما ألفه بوستيل ذاك الكتاب الذي زعم فيه انه يبحث في الأصول وفي قدم اللغة العبرية والشعب العبراني وفي تفرّع سائر اللغات عنها] (٢١).

وهذا ما دحضته النقوش والكتابات القديمة، بل على العكس فإن العبرية القديمة (عبرية التوراة) هي خليط من اللهجات الكنعانية والآرامية كما بينا. إن كارثة بوستيل سنة ١٥٣٨ كانت في تضليل فقهاء اللغة العالمين بالاضافة، إلى تضليل اليهود في العالم وخاصة العرب يهودا ومسيحيين ومسلمين، حيث يعتبر بوستيل ان العبرية أقدم اللغات والشعب العبري أقدمها (٢٢).

يقول فرّدينّ دوسوسر رائد فقه اللغة الحديث حاسماً هذا النقاش:

(إن اللغة الأقدم هي التي تحوي على كم أكبر من المفردات) مع محافظتها على جذرها



## الثنائي أو الثلاثي.

### ٢- السريانية:

لقد دونت السريانية بإشاراتھا (تشكيلھا) في القرن الثاني أو الثالث الميلادي على أبعد حد (٢٣). كما كثرت المداليل (مداليل الكلمات) في اللهجة السريانية. فمثلاً: كلمة **فِنْقِيُو**: تعني متحضر وكلمة طعونو تعني كيس حيث يطعن الكيس بأداة السبر.

ومع أن مدلول الكلمة ليس موضوع بحثنا، إلا أن السريانية كذلك حديثة العهد نسبياً في اللفظ إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. إلا أنها تبقى أحياناً وسيلة لجذر معاني الكلمات مثل ترين في التدمرية فهي تعني إثنين. ولا ننسى أن السريانية الشرقية (النسطورية) ابقت إلى حد ما بعض ملامح الآرامية وهي الالف آخر الكلمة. بينما احتفظت السريانية الغربية (اليقوبية) باللاحقة الواو والتي نعتبرها ترخيم التمويم الأكادية الوسيطة وليست ابدالاً لصوت الالف.

### ٣- آرامية معلولا وبخعة وجبعدين (جب عدين):

المشكلة الكبيرة بهذه اللهجة أنها غير مكتوبة لكننا نركن إلى لهجة بخعة وجب عدين أكثر من معلولا إلى حد ما، وذلك كون الأولتان نائيتين من الدخيل لما للأخيرة أي معلولا من إتصال دائم مع الغرباء والسياح لقدسيتهما. هذا إذا علمنا أن فقهاء العدنانية لم يأخذوا عن أهل مدينة الطائف خوفاً من الدخيل.

### ٤- اللهجة العدنانية:

كذلك فإن العدنانية نقطت وشكلت في القرنين السابع والثامن الميلاديين أي بعد السريانية وقبل العبرية.

لكننا نحترم أولئك الذين حافظوا عليها من الدخيل، فلم يأخذوا إلا من منطقة محدودة جغرافياً: الخط الشمالي من شط العرب وحتى خليج العقبة والخط الجنوبي، جنوبي مكة بمسافة لا تتجاوز المائة كم. حتى أنهم كما ذكرنا لم يأخذوا من أهل الطائف التي لا تبعد عن مكة أكثر من ٤٠ كم.

لقد حرمونا كثيراً من الكلمات خارج هذا النطاق شمالاً وجنوباً سواء من ناحية بلاد الشام أو العراق وكذلك مصر وشمال إفريقية وحتى اليمن.

ومع ذلك، اعطونا هذا الكم الهائل من الكلمات التي حافظت على جذورها الثنائية والثلاثية. علماً أننا لن نأخذها أساساً في اللفظ أيضاً كي لا نتهم بالشوفانية (من شوفان) رغم رأي دوبون سومر عالم الآراميات، أن للعدنانية والآرامية مصطلحات لغوية وألفاظاً مشتركة وأن الآرامية هي أقرب للعدنانية منها للعبرية.



إلا انه مهما تجاهلنا العدنانية من ناحية اللفظ (رغم تأكيد دوبون سومر عليها) لكننا لا نستطيع تجاهلها من حيث معاني الكلمات التي حوتها معاجمها ولا سيما معجم لسان العرب لابن منظور.

#### ٥ - اللهجات على امتداد الوطن العربي:

نستطيع الاعتماد عليها من حيث المعاني للكلمات واللفظ إلى درجة معقولة حيث لهجاتنا العربيات العامية هي بقايا الأكادية والعمورية / الكنعانية والآرامية وخلافها وليست تطورا للعدنانية فقط كما كان يدعى / ومع ذلك فقد تطورت هذه العاميات أيضاً على مر السنين.

#### ٦ - الوزن الشعري أو السجع إن وجد:

نذكر من ذلك ما جاء في الامثال الاجاريتية ما نصه:

إم يصدق بيرشيني تم ! أني ويا عقشيني

ونذكر المثل العامي المتواتر إلى الآن:

دن ° دن ° يا دنه ° كل مين ° ياخذ من دنه °

سنأتي إلى تفصيل ذلك فيما بعد

#### ٧ - أسماء المدن والقرى والانهار والاماكن:

ففي بلاد الشام آلاف الاسماء للمدن والقرى والانهار والجبال والبقاع والاماكن . في (سورية) فقط ١٠٠٠٠ اسم لمدن وقرى ومزارع (٢٤) عدا الجبال والانهار، منها ٥٠ ٪ تقريباً أسماء قديمة، جرى التواتر على لفظها منذ بداية العصر التاريخي جيلاً بعد جيل على مر السنين والأيام. فكلمة دمشق مثلاً قد سميت بـ دِمَشَق منذ نشوئها ولم تكن في يوم من الايام دماسك أو دمسك أو خلاف ذلك بل هي دمشق، وهكذا إسم قاسيون وقلمون وكفرون وحرمون وتدمر ودمر ودميرة وبيروت ومصر وعرب صاليم ومكا وحرستا وقرحتا وبردى وبيروت وجيرود ومزة وأرزة وبرزة وراقودا وكفر بطما والكفر. ويعفور وصبرا وصبورة وشقوقا فهو تواتر دائم يمكن ان نركن اليه ونحترمه. وبهذا ، وفيما إذا وصلنا إلى معاني هذه الكلمات فيمكننا ان نؤلف معجماً عمورياً كنعانياً آرامياً ممتازاً.

#### وسائل اللفظ المقترحة:

ذكرنا ان اللفظ السليم لا بد من قراءته على معلم لتتشرك ثلاث حواس مع بعضها: سماعاً بالاذن ونظراً بالعين ونطقاً باللسان، وكما قلنا، ولتصحيح عمليات النطق واللفظ للوصول إلى طريقة تتصف بالعلمية المنهجية قدر الامكان، فيجب ان نتبع ما تيسر لنا من الآثار اللغوية التالية:



١- أسماء المدن والقرى والاماكن الجغرافية.

٢- الوزن الشعري او السجع إن وجد

٣- اللهجات العامية وبتحفظ كبير.

### التفصيل:

#### وسيلة اللفظ الاولى:

فبأسماء المدن والقرى والاماكن الجغرافية على امتداد الوطن العربي وفي جغرافية [الآرامية الامبراطورية] الممتدة من السند إلى الاطلسي شرقاً وغرباً، ومن الممالك الآرامية وحتى أسوان شمالاً وجنوباً، نستطيع الحصول على لفظ سليم بهذه اللهجات بشرط أن نعرف معاني هذه الاسماء الجغرافية.

لقد ثبت لدينا، في الخبرة لا الخبر، ان أسماء هذه المدن والقرى والاماكن تحمل دلالات ثلاث لا رابع لها.

١- أسماء ذات دلالات طبيعية مثل: قاسيون - ميسلون - قلمون - كفرون - حرمون - جسرين - بردى - يبرود - صوبا - شقوقا - دمشق.

٢- أسماء ذات دلالات عسكرية: حرستا - قرحتا - - بقرحا - ماري - دمر - دامور - دميرة.

٣- أسماء ذات دلالات دينية مثل: بابل - ببيلا - سرجلا - بليرمون - قدسيا - هاببلا .

#### المنهج:

قبل البدء بتجريب تفسير هذه الاسماء لابد من الاشارة إلى قانون علمي هام للمنهج التجريبي:

يقول ابن حزم:

[والتجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل ابداً، تكريراً موثقاً بدوامه تضطر النفوس إلى الاقرار به].

ويقول ابن البيطار المالقي:

[فما صح عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لي بالخبرة لا الخبر، إدخرته كنزاً سرياً وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه، سوى الله غنياً (اي انه بهذه الحالة لن يستعين بأحد سوى الله). وماكان مخالفاً في القوى والبيئية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق، وان ناقله او قائله عدل فيه عن سواء الطريق، نبذته ظهرياً، وهجرته ملياً وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئاً فرياً] (٢٥)

قبل البدء ايضاً لابد من التذكير بالقواعد التالية:

١- ان جذر الكلمة يجب ان يكون ثنائياً او ثلاثياً. وإن كان رباعياً او خماسياً فقطعاً تكون



الكلمة مركبة، قد تنجح بمعرفتها أو لا تنجح.

٢- من أشهر اللواحق الكنعانية هي الواو والنون مثل: صيد = صيدون - خالد = خلدون - قاسي = قاسيون - حرم = حرمون.

٣- من أشهر اللواحق الآرامية أداة التعريف الالف بآخر الكلمة مثل:

البرد = بردا (بردى) - الحارسة = حرستا - الشقوق = شقوقا

٤- اللاحقة الآرامية (ين) أداة جمع في حالة النكرة مثل: شمسین - جملین - جسرین - ماردين.

٥- اللاحقة الآرامية (يا) أداة جمع في حالة التعريف حيث الالف تأكل النون وتخفيها مثل: قدسي = قدسين جمع تعريفها قدسيا أي القدسين.

٦- السوابق: ذا - ذو - ذي / د - د - د / ز - ز - ز / تا - تو - تي / وشا وشو وشي\*.

٧- السابقة (الباء) وهي ترخيم لكلمة بيت مثل: بملكة = بيت ملكة.

٨ - عرفت بعض الاسماء بصيغة الفعل فأقول: زاد تزيد يزيد - غلب يغلب تغلب - ناخ ينوخ تنوخ.

التفسير:

الاسماء ذات الدلالات الطبيعية:

- قاسيون: قاسي + ون = قاسيون وهو بالفعل جبل قاس ليس فيه نبع أو عين ماء» ونحن نعلم بأن الجبال هي خزانات مياه وقاسيون هو جبل دمشق، أي لاسم قاسيون مدلول طبيعي.

- ميسلون: بدون (ون) تكون ميسل وهي تصغير مسيل وهي منطقة دائمة السيلا بالمياه ٣٠ كم غرب دمشق (وبهذا المسيل ورواياه جرت معركة ميسلون الشهيرة) أي للاسم مدلول طبيعي.

- قلمون: قلم - قلمون - هي ثلاثة اقلام من الجبال تتجه شمال جنوب وفي القلم الغربي منها قرى معلولا وبخعة وجبعدين (جب عدين) وكلمة قلم ليست يونانية كما كان يظن بل وردت في قاموس AKKADIAN DICTIONARY بمعنى أداة للنقش وتعني عملية تقليم الاشجار ايضا. اذن الاسم ذو مدلول طبيعي.

- كفرون: كفر - كفرون - كفر في اللغة تعني غطى ولها مدلول ديني بمعنى غطى الحقيقة. والكفر هو المنطقة الجرداء التي زرعت فغطيت بالاشجار ومنها الكفار بمعنى الزراع جاء في القرآن الكريم سورة الحديد [٢٠] (٢٦).

[كغيث يعجب الكفار نباته] أي مطر يعجب الزراع نباته كما جاء في سورة آل عمران [١٩٣] (٢٧).

\* - شا في الاكادية بقيت لتعني (ذا، ذو، ذي)، أما شي و شو، فقد اخذت مدلول هي وهو (شي=هي، شو=هو)



﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ (أي غطي عنا سيئاتنا).  
وإن انتشرت الاسماء والكفور في مصر فلا ننسى الآرامية الامبراطورية في القرن السادس ق.م على أدنى حد والتأثير العموري الهيك سوسي في القرن ١٨ ق.م.  
وفي عملية اللفظ في كفر فلدينا الألفاظ التالية : كفر العواميد - كفر الزيت - كفر بطنا (بطما) وجميعها قرى حول دمشق. والكفرة في ليبيا. أي أسماء كفر - كفرون ذات مداليل طبيعية أيضا.

- جسر ين: اسم قرية بغوطة دمشق جذرها جسر والياء والنون صيغة جمع النكرة في الآرامية فيصبح معناها جسر وفعلا نجد في هذه القرية خمسة جسر لنهر بردى وأفرعه وهي:

من الجنوب إلى الشمال: جسر بردى - جسر الملك - جسر الزابون - جسر جعيطه - جسر الداعيانى.

- بردا (بردى): الألف أداة التعريف الآرامية فيصبح معناه البرد من البرودة. مدلول طبيعي.

- يبرود: جذرها برد اسم بصيغة الفعل مصغر وهي بلدة بجبال القلمون الغربية، باردة الطقس ذات مدلول مناخي طبيعي.

- جيروود: بلدة تبعد عن يبرود حوالي ٣٠ كم وهي تقع في بادية الشام، أراضيها ذات طبيعة جرداء من الناحية الزراعية، فهي ذات مدلول طبيعي. وكم من المفيد ان نلاحظ الطباق بين يبرود وجيروود تماما كما في مزه وبرزة قرى حول دمشق.

- صوبا: ذات مدلول طبيعي ايضا، سميت بهذا الاسم منطقتان الاولى غرب دمشق تبدأ من هابيللا (سوق وادي بردى) وحتى سهل البقاع ويقال أن مكان عاصمتها هي عنجر اللبنانية. جذرها (صب) والالف أداة تعريف وهي منطقة ذات خطوط مطرية تصل حتى ٨٠٠ مم في السنة علما ان دمشق مطريا تصل إلى ٢٥٠ مم. والثانية، منطقة صوبا غرب حمص، والسوريون يعرفون كمية هطول الامطار في المنطقة مابين تل كلخ وصافيتا وطرطوس فيصبح معناها الصوب / صوب / صيب / من فعل صبّ (أي سكب)، صبّ الماء سكب الماء في الكأس، جاء في القرآن الكريم: ﴿أَوْ كَصَيَّبَ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظَلَمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ منطقتان مشهورتان بكميات امطارهما وتعتبران من المناطق الاكثر هطلا في كافة انحاء سورية.

- شقوقا: منطقة في صوبا بأراضي ميسلون ومعناها الشقوق، ان ميكانيكية التربة في تلك المنطقة مختلفة كما انها ذات انفلاقات جيولوجية كبيرة، وعلى سبيل المثال فانك تجد بئرين الاول: في قمة الجبل ١٢٦٣ متر عن سطح البحر، ومستوى مياهه عن السطح الطبيعي لا تتجاوز ٥٠ مترا، ويبعد بئر اخر عن مكان البئر الاول و لمنطقة منخفضة وتبعد ١٠٠ متر



عنه فإن مستوى المياه الجوفية فيه تبلغها على عمق ١٣٠ مترا. فهي ذات مدلول جيولوجي طبيعي.

- دمشق: جذرها رباعي [د م ش ق] إذن هي كلمة مركبة فإذا حذفنا السابقة د (من ذا و ذو و ذي / ود و دود) نحصل على جذر الكلمة مشق. نبحث عن معنى مشق فنجد أنه يحمل معنى أنتج / نما / فهي أرض النمو والإنتاج و (د) واضحة المعنى (ذي) مشق مستعملة في العامية الزراعية بدمشق فتقول النسوة مشقت أغصان الملوخية أي أنتجت ما في الغصن من أوراق. ومع ذلك، هذا لا يكفي فلدينا الآن دليل لغوي فقط، لكن إذا نظرنا إلى مياه دمشق الجوفية من خانق الربوة وحتى المصب في بحيرة العتيبة نجدها بين الـ ٨ أمتار والـ ١٨ مترا فقط.

كذلك نجد أن في «السابقة الدال (د)» في كل من الاسماء التالية: دمشق - دمياط - دسوق (وليس دسوق) هكذا يلفظها أهلها ودمشقين وهي قرية جانب الفيوم يصفها ياقوت أن فيها بصل كالبطيخ (من خصوبة الأرض) (٢٨) ودمقش (٢٩) في دلتا النيل وهي قلب مكاني لدمشق ودروما ودرجرا (ياقوت الأولى ص ٢١٥ والثانية ص ٣١٨). سبعة بدايات توافر فيها التكرار لهذه السابقة (د) أما اسم مشق كما ذكرنا فاننا نجده أيضا في كل من:

دمشق - دمشقين (وهي صيغة جمع آرامية لدمشق) ودمقش - مقش كما قلنا قلب مكاني لـ مشق.

وأخيرا هناك قرية في محافظة اللاذقية ذات خصب ونمو وإنتاج اسمها مشقيتا جذرها أيضا مشق وتطورها اللغوي: مشقة = مشقيت (يت لاحقة كنعانية قديمة) مشقيتا. وهناك شجر يسمى جر مشق وهو شجر ينتج من مائه السكر (٣٠). وهنا حسب المنهج التجريبي نجد التكرار في جذر مشق ٥ مرات أيضا فاسم دمشق ذو مدلول طبيعي أيضا.

**ولنأتي الآن إلى الاسماء ذات الدلالات العسكرية:**

حرسنا: جذرها حرس والتاء للتأنيث والالف أداة تعريف آرامية إذن معناها الحارسة. وهي عبارة عن نقطة مراقبة أولية لمدينة دمشق من الجهة الشرقية الشمالية يقول (محمود محفوظ) في تاريخ حرسنا ان حرسنا لم تنج يوما من الحروب (٣١) حيث أنها على الطريق الشمالية الشرقية وهي ذات ممر اجباري استراتيجي وحرسنا المنطرة أي للمراقبة بدأت فيها حروب احتلال دمشق أكثر من مرة.

وهناك حرسنا اخرى من قرى حلب فيها حصن عظيم ومياه غزيرة (٣٢) فاسم حرسنا ذو مدلول عسكري.

قرحتا: بمعنى القرحة، الذبحة ذات مدلول عسكري.

بقرجا: بمعنى بيت القرح أي بيت الذبح، وهي قرية من قرى محافظة ادلب شمال سورية



في جبل باريشا فهي قرية مبنية داخل اضراس صخرية ترتفع بين ٣٠-٧٠ سم وهي موانع عسكرية طبيعية ضد الافراد والفرسان.

ماري: جذرها (مر)، ومعنى المر القوة، جاء في القرآن الكريم [ذو مرة فاستوى] (٣٣) أي ذو قوة فاستوى، ومعنى ماري هنا بمعنى القوي — الماري. وقد سمي المر مرة لقوة طعمه وسمي الممر مرة للقوة التي عملت به ليصبح ممرا وسمي السيد بالسريانية مار لان من صفات السيد القوة أي الماري بمعنى القوي، اسم ذو مدلول عسكري. ولاننسى أن في الامارات العربية بلد اسمها ماري.

تدمر: جذرها دَمَر، ومعنى دمر في لسان العرب دَمَرٌ حيث التشديد (التكرار) يفيد التأكيد. وقلنا ان العربيات عرفت الاسماء بصيغة الفعل:

فأقول زاد تزيد يزيد الخ... وهنا دمر يدمر تدمر فهي المدينة التي تدمر. لم لا حيث لا يصلها لوعورة طرقها وانقطاع الماء بطرقها الشرقية والشمالية والغربية والجنوبية، علما أن طول المسافة لا قرب مدينة منها ينوف عن الـ ٢٠٠ كم، فهي المدينة التي تدمر عدوها، وقد بقيت عاصمة البادية بعد دمار ابلا لفترة طويلة. وقد ذهب الى هذا التفسير أيضا شاعرنا المتنبي (٣٤).

دَمَرُ: الاسم القديم لمدينة دورا اوروبوس. وقد اعتبر البعض أن اسم دمر فيه إبدال بين الواو والميم وبذلك أصبح اسمها السابق (دور) دَمَرُ، ولا أظن ذلك: حيث لم أجد مثيلا لهذا الابدال في العربيات من الاكادية وحتى السبئية.

دُمَرُ: تقع غرب دمشق، في خانق جبلي، يقطعها نهر بردى وهي مركز استراتيجي عسكري دفاعي هام لدمشق، وهي الممر الاجباري لدمشق غربا لعشرين سنة خلت. جذرها دَمَرُ أيضا وتحمل معنى التدمير. ذات المدلول العسكري.

دامور: جذرها دمر وهي على وزن فاعول وفاروق وحاسوب وطاروق (مدلول لساقية الماء عند السقاية) وناقور\* تقع في لبنان على الساحل الكنعاني. زرتها سابقا لكني لا أتذكر موقعها تفصيلا وأظن أنها الآن موقعا حصينا لقوات الجبهة الشعبية الفلسطينية ومنطقة الناعمة تابعة لها.

أما الاسماء ذات الدلالات الدينية فاظنها معروفة لدى الكثيرين لكن لابد من التذكير بها: بابل: كلمة مركبة من باب بالاضافة الى ثيل (رب الارباب) فهي تعني باب الله. ثيل في القواميس العدنانية هو الله.

ببيلا: كلمة مركبة من باب بالاضافة إلى الله فبالادغام اصبحت ببيلا وهي قرية جنوب دمشق. وفي عاميتنا نقول (بابللا).

\* - هذا الوزن فاعول موجود بالقرآن الكريم في سورة المدثر بكلمة ناقور، ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ ٨. ٧٤



سرجلا: قرية في محافظة ادلب، مركبة من سراج بالاضافة الى الله فهي سراج الله\*. ذات مدلول ديني.

بليرمون: جذرها [ب ل ر م ن] خماسية إذن هي كلمة مركبة، يذهب محمد محفل ليفك هذا التركيب فيجد انها مؤلفة من: بـ (ثيل رم ون) أربع مقاطع فالباء ترخيم بيت كما في بقرحا وثيل هو الله ورم بمعنى العالي والواو والنون لاحقة كنعانية فيصبح المعنى بيت الله العالي. [بـ ثيل رمون] ثم اصبحت بالادغام بليرمون وهي منطقة من مناطق حلب.

وبعد، لقد رفضت المدرسة التوراتية تفسير اسماء العلم لخطورتها على لسان بول قال: درايفر في مقدمة قاموس HEBREW AND ENGLISH LEXICON OF THE OLD TEST-

MENT الذي أشرنا اليه سابقا. أي قاموس جيزنيوس.

يذكر درايفر: [ولاسباب مماثلة لم يرغبوا في اتباع طريقة بُول BUHL بالنسبة لاستبعاد وحذف تفاسير اسماء العلم رغم خطورة مثل هذه التفاسير] (٣٥) أي أن بول نصح في استبعاد تفاسير اسماء العلم كاسماء المدن والقرى لكن مجموعة درايفر لم ترغب في ذلك رغم خطورة مثل هذه التفاسير. (ومع ذلك لم نجد شيئا على الساحة اللغوية الجغرافية حتى الآن على مانعلم). هناك البعض لكنه واه.

نعم، هناك خطورة لدى التوراتيين في تفاسير الاسماء لان قواميسهم والفاظهم لن تلبي الحاجة ولانهم بحاجة لاستعمال القواميس العدنانية والتي تكمن فيها الخطورة والاعتراف بالعدنانية.

إن ٩٥٪ من تفاسيرنا لاسماء القرى والاماكن العمورية الكنعانية الآرامية التي اتينا عليها كان من القواميس العدنانية ولاسيما قاموس لسان العرب لابن منظور رغم رجوعنا إلى كافة القواميس الاخرى من عبرية وسريانية ويونانية .

وعود على ذي بدء مرة اخرى، فالاسماء الانانية للمدن لم تعرفها العربيات، لهجات المنطقة ك بحيرة فكتوريا والاحمدية مثلا، انما وجدت هذه الاسماء الشخصية الانانية مع بدايات الفتح المقدوني وسياسة تغيير الاسماء، فأطلقوا اسم انطاكية على دفنا واللاذقية على راميتا وطرطوس على قرنا والاسكندرية على راقودا وبروا على حلب وابيفانيا على حماة وفيلادلفيا على عمان وبالميرا على تدمر ودوماسكوس على دمشق وهكذا.

وعند الفتح العربي العدناني الاسلامي أعاد أهالي البلاد (وليس العرب العدنانيون) اسماء هذه المدن إلى سابق تسميتها بعد استعمار دام زهاء الالف عام.

وفي ختام بحث اسماء المدن والقرى وتطبيقا للمنهج التجريبي ولزيادة الحيطة، فلا بدلنا لتحقيق هذه الاسماء بمعانيها والفاظها من شرطين:

\* - لفظ الجلالة اللا (الله) موجود بالارامية في الاسم الارامي لمدينة رام الله في فلسطين، وهي ذات مدلول ديني بمعنى علوة الله (ارتفاع الله) من كلمة عالي، ونستعملها بعاميتنا بلفظ (اللا).



١- اتمام الزيارة الميدانية من المحقق لهذه الاماكن للتأكد من المعنى ان كان طبيعيا ام عسكريا ام دينيا.

٢- ومن شروط معنى الكلمة وتحديدها، انها إذا وضعت في الجملة يجب ان تعطي اتساقا في النص والجملة، لتعطي جملة مفيدة.

أما الجملة لتفسير اسماء المدن فهي أن تتسق وتنسق ضمن قانون اسماء المدن والاماكن، طبيعيا أو عسكريا أو دينيا بمدلولاتها الثلاثة وإن خرجت عن هذه المداليل الثلاثة فالتفسير يكون مرفوضا..

### وسيلة اللفظ الثانية:

إن الوزن الشعري كثيرا مايساعد على تسكين ماكننا نظنه متحركا أو تحريك ماكننا نظنه ساكننا وتشديد (تكرير) ماكننا نعتبره عاديا أو مد ماكننا نعتبره حركة بسيطة او العكس. لقد ورد في تراث الامثال الاجاريتية:

‘im ‘eṣdaq pi yarši ‘eni

tām ‘āni wayya ‘q ‘ṣeni

إم يصدق بي ارشي إن ي  
تام أن ي واي ي ع ق ش ي ن ي

نقرأها: إم يصدق برشيئني تم! أني ويا عقيشيني [عقش تعني جمع]

اللفظ لا يستقيم شعريا في كل من يرشيئني وفي أني بل يجب ان تدغم همزة يرشيئني لتصبح يرشيئني مثل عقيشيني. و[أنى] يجب أن تشدد بها النون لتصبح انى وبذلك يستقيم اللفظ: ام يصدق بيرشيئني تم أنى ويا عقيشيني، تم في المصريات هو فعل إثبات يراد به النفي (فعل استهزاء) (تريأه) وبذلك يصبح المعنى إم بمعنى إن.

إن يصدق بيرشيئني، تمام (تم) أنى وإياه اجمعني (لا حراجه)، مثال آخر في لفظ السجع لكنه متوارث سمعا ونظرا ولفظا عن السبئية في الحديث الشريف وأنا سمعته من مفتي سورية الشيخ أحمد كفتارو. أي أن اللفظ وصلني سماعا وليس قراءة فقط.

جاء رجل من اليمن وسأل النبي (ص) قال:

هم منم برم صيامن فيم سفر

فأجابه النبي (ص):

ليس منم برم صيامن فيم سفر

أي: هل من البر صيام في السفر

كان الجواب: ليس من البر صيام في السفر



جاء في كتاب مختارات من النقوش السبئية لبافقيه وزملائه، أن أداة التعريف في السبئية هي النون كلاحقة ، وأن أداة التنكير هي الميم كلاحقة أيضا.  
لنرجع إلى النص ، فمن ملاحظة بسيطة، يتبين أن الميم وصلت في نهايات الكلمات كلواحق إنما في واقع اللفظ هي سوابق للكلمات التي تليها فتصبح كتابتها:

هم من مبر مصيامن في مسفر

ليس من مبر مصيامن في مسفر

يقابلها اللفظ بالعدنانية بكتابة عروضية:

هل من لبر لصيامن في السفر (اللام في السفر شمسية لا تلفظ)

ليس من لبر لصيامن في السفر (اللام شمسية لا تلفظ)

هذا فعلا مانطقه بحالة الوصل أثناء التعريف بالعدنانية.

فأقرأ: قرأت في لكتاب. لكن نكتبها حسب (اصطلاحنا) العدناني الاملائي (في الكتاب) لكننا لانلفظ الالف والتي هي في المدرسة البصرية الـ : الالف للتنبيه واللام للتعريف.  
إذن، نلاحظ نقض نظرية بافقيه (الا ان كانت موجودة في السبئيات الاقدم كالحميرية. ومما يؤيد مذهبنا اليه في ان الميم هي سابقة للتعريف وليست لاحقة، هو ما جاء في آرامية معلولا فنقول:

زنبل خلبا أو زنب لخلبا

بمعنى ذنب الكلب وتلفظ بدون الف ذنب لكلب، وإذا اسقطنا السبئية عليها تصبح

زنب مخلبا او زميم خلبا.

وبهذا تكون الميم السبئية ابدال لـ لام التعريف (حسب المدرسة البصرية كما ذكرنا).

من ذلك نلاحظ أن سلامة اللفظ التي وصلتنا نستطيع أن نفسر اشياء كثيرة وبدون سماعها ولفظها لغاب عنا الكثير في فقه اللغة.

وما نريد من هذا المثال أيضا، أن قراءاتنا وقراءات المستشرقين للنصوص لا تستوفي ماكان عليه السلف، أصحاب الاكادية والكنعانية والعمورية والآرامية والمصرية والسبئية، وبالتالي غاب عنا لفظها حيث فقدنا السمع.

### وسيلة اللفظ الثالثة:

اللهجات العامية على امتداد الوطن العربي: في هذه اللهجات وهذه الطريقة يجب التحفظ بصورة كبيرة.

ورد في المثل العامي مانصه:

دن دن يادنه كل مين يأخذ من دنه

نعرف أن أكثر معنى شائع في الآرامية لكلمة دنه هو (الذي) ذا إنه لكن من سياق هذا المثل



نجد أن دنة الأخيرة تعني مثيله  
 اللذي اللذي يا الذي كل مين يأخذ من دنّه (أي مثيله)  
 وهنا نرى أن جذر دنة هو دن، ودن هي قلب مكاني لكلمة ند التي تعني مثل، لذا أصبح  
 لدينا معنى آخر لدنة والتي وردت في الكتابات القديمة (زنه) بمعنى (زاإنه).  
 ودنه بمعنى (د انه) بالنبطي وتعني (ذاإنه) أما دنة الأخيرة فهي من نده مثيله فتصبح  
 بالقلب دنة.  
 هذا المعنى الجديد واللفظ الذي حصلنا عليه من العامية ساعدنا في قراءة التعرف الجمركية  
 التدمرية فقد جاء مانصه:

٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢  
 ي ف ر ع    ل ك ل    م د ا    ن م ن    ن م و س ا    د ن ه    سطر ٧١  
 يـ فـ رـ ع    لـ كـ ل    مـ دـ ا    نـ مـ ن    نـ مـ وـ سـ ا    دـ نـ ه  
 أي : يـ فـ رـ ع    لـ كـ ل    مـ دـ ا    نـ مـ ن    نـ مـ وـ سـ ا    دـ نـ ه

و سطر آخر

٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢    ٧٤٣٢  
 ل ك ل    م ي ا    د ن ه    سطر ٨١  
 ل ك ل    م ي ا    د ن ه  
 أي : ل ك ل    م ي ا    د ن ه

ونقول في اللهجة العربية العامية الحلبية [أنا، كه] كتبت في الكتابات القديمة (أن ك)  
 ولفظوها (أناكو) بمعنى أنا، لكن تواتر اللفظ وسماعه فسر لنا معناها وصحة لفظها.  
 ومن تراثنا الغنائي العامي نجد أغنية:  
 عل يادي الـ يادي الـ يادي (ويادي تعني وادي)  
 منها نقول في إبدال الواو ياء:

يهب بمعنى وهب، ويتر بمعنى وتر، ياقوصة بـ واقوصه وكذلك يادي بمعنى وادي  
 وهي أغنية من أقدم الاغاني إذا ما عرفنا ان مملكة يادي الآرامية التي عاصمتها شمال تقع  
 فيما يسمى اليوم لواء اسكندرون وفيها الوادي اللاخ الوادي العميق، وادي العمق.  
 بذلك نكون قد حددنا لفظ يادي من التراث الغنائي والمصنف تحت اسم اللهجات العربيات  
 العامية.

بالإضافة إلى إكتشاف أقدم أغنية تاريخية عرفناها حية الاستعمال إلى الآن (كأغنية عبد



الوهاب ياجارة الوادي).  
 فيكون اللفظ يادي وليس ياؤودي حيث العبرة في اثبات الحرف بالنطق لا بالخط كما يقول  
 ابن جني (٨).  
 ومن لهجاتنا العامية كلمة:  
 هيك بمعنى هكذا في بلاد الشام  
 وهاك بمعنى هكذا في اللهجة العربية البربرية الشلحية في المغرب العربي. جاء في نقش  
 البرازيل ١٢٥ ق.م: في النص:

٣٦٩٣	٧	٦٠٦٦	٦٩	٥٦٨	٧
م	ن	م	ن	ب	ن
م	ن	م	ن	ب	ن
م	ن	م	ن	ب	ن
٣٦٩٣	٧	٦٠٦٦	٦٩	٥٦٨	٧
م	ن	م	ن	ب	ن
م	ن	م	ن	ب	ن
م	ن	م	ن	ب	ن
٣٦٩٣	٧	٦٠٦٦	٦٩	٥٦٨	٧
م	ن	م	ن	ب	ن
م	ن	م	ن	ب	ن
م	ن	م	ن	ب	ن

في اللسان لابن منظور: ١٧٨/١٥  
 أهل القارية للحاضرة وأهل البادية لأهل البدو  
 وجاءني من كل قار وباد أي كل متحضر وبدوي  
 قاريه: حضارة مدلول من قرية أو قرتا بمعنى المدينة  
 فيصبح المعنى: ها نحن بني كنعان من مدينة فرنيم حملنا الحضارة، أليس حرام أن  
 يحصل بنا هكذا.

والامر الادهي مانقابله في مدرسة الكتابات المصرية القديمة، فقد ذهبت مدارس الاستشراق  
 اللغوية للمصريات باستعمالهم عمليات الكسر (الخفض) لأغلب الأحرف الساكنة، متبعين في  
 ذلك المذهب السنسكريتي اللغوي (حيث السنسكريتية من اللغات الهندو - اوروبية)، فمثلا  
 كلمة وَبَان بمعنى أشرق تكتب وَبِن، ولو فرضنا أن كلمة مَرَوَان مدونة في الهيروغليفية  
 (بدون أحرف صوتية م ر ن فسيلفظونها حسب المدرسة  
 السنسكريتية مَرِن بدل مروان فذهب اللفظ والمعنى (٣٦).

ومن نافلة الأمثلة ماقرأه أحد المستشرقين الفرنسيين بحلب ١٩٩٢ بمدرج جامعة حلب،  
 لكلمة خبط وم، فقد قرأها خباتوم، ماذا نفهم من هذا اللفظ وهذا النطق، قطعاً لا شيء، إلا أن



حس المؤتمرين العرب في الندوة جعل أكثرهم ينادون أن خباتوم هي خبط أي خبطوم، بمعنى الضرب، وهي كلمة تحمل معنى العنف والقوة والضرب. وهي كلمة موجودة لدى ابن منظور خبط - يخطب - خبطا أي ضرب - يضرب - ضربا شديدا (٣٧)، وهي فصيحة لكنها من الكلمات المهجورة في العدنانية (الفصحى). وظننا جميعنا في حينها أنها من العاميات المتوارثة التواتر. ومما يجعل تفسير خبط (وم) أنها تحمل معنى القوة والعنف والضرب هي أنها كانت مسمى لفئة مقاتلة مرتزقة في منطقة الخابور.

### ثانيا: مشكلة الاعتماد على ٢٢ حرفا لتمثل ٢٩ صوتا:

في هذه الحالة، يغيب لدينا شكل ٧ أصوات، انما، ومن المرجح، أن هذه الاصوات ممثلة بأحد الاحرف السابقة. وبذلك تمثل بعض أشكال الاحرف الـ ٢٢ صوتين أو ثلاثة أصوات كما هو جلي لدينا في حرف الجزم (بشكل حرف الحاء) فهو يمثل (ج، ح، خ). وكذلك الدال والراء في الآرامية.

والدليل الثاني على وجود أكثر من ٢٢ صوت، ماورد في الابدادية المسمارية الاجاريتية والتي مثلت كل صوت بشكل حرف مستقل تقريبا. ففي الابدادية الآرامية، نرى غياب سبعة أصوات:

الغين	الخاء	والضاد	الذال	الظاء	الثاء	الهمزة
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

وقد يتبادر للذهن أن الاحرف التي ندعي غيابها أوجدتها عبرية الماسوريين الذين أخذوا بعضها من السريانية مثل:

عبري ماسوري (القرن ١٠ ميلادي)	سرياني غربي (القرن ٢/٣ ميلادي)
ב = 𐤁	ב = 𐤁
ג = 𐤂	ג = 𐤂
ד = 𐤃	ד = 𐤃
ה = 𐤄	ה = 𐤄
ו = 𐤅	ו = 𐤅
ז = 𐤆	ז = 𐤆
ח = 𐤇	ח = 𐤇
ט = 𐤈	ט = 𐤈
י = 𐤉	י = 𐤉
כ = 𐤊	כ = 𐤊
ל = 𐤋	ל = 𐤋
מ = 𐤌	מ = 𐤌
נ = 𐤍	נ = 𐤍
ס = 𐤎	ס = 𐤎
ע = 𐤏	ע = 𐤏
פ = 𐤐	פ = 𐤐
צ = 𐤑	צ = 𐤑
ק = 𐤒	ק = 𐤒
ר = 𐤓	ר = 𐤓
ש = 𐤔	ש = 𐤔
ת = 𐤕	ת = 𐤕

هذا الامر نشك في صحته (بالعمق التاريخي) لهذه الابدالات، ولو أوجدت العبرية بعض القواعد للفظ الكاف خاء على سبيل المثال حيث طبقت القاعدة المستحدثة على اللفظ ولم يطبق اللفظ ليصبح القاعدة، ونجد ما يخالف ذلك في التعرف الجمركية التدميرية على سبيل المثال فقد جاء في السطر ٤٦+٤٧ في عملية جباية الرسوم على بنات الهوى مايلى:



أف ي ج ب ا م ك س ا م ن ز ن ي ت ا م ن  
أوف يجبي مكسا من زانيتا من

م ن دي ش ق ل ا د ي ن ر (أ) ي ت ي ر  
من دي شقلا ديز أو يتير

دي ن ر ا ح د م ن ا ت ا  
ديزارا حد من آتية (٣٩)

الكلمات العربية الميتة الاستعمال في هذا النقش:

١ - أوف بمعنى أيضا. نجدها باقية فقط في تراثنا الغنائي.

٢ - شقلا: شغلها.

٣ - يتير: يزيد: جاء في سورة محمد الآية [٣٥] (٤٠) ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم  
الاعلون والله معكم ولم يترككم أعمالكم﴾. يترككم أعمالكم أي: ينقصكم أعمالكم، وهي من  
التضاد مثل ما جاء في الارامية: عسر = يسر، عشق = ظلم، بغض، وشب = وثب = جلس (٤١).  
يصبح المعنى: [أيضا يجبي المكس من الزانية من من التي شغلها دينار أو يزيد دينارا حد من  
الآتية (هذا العمل)].

هنا نقف قليلا لنرى، هل شقلا من (الثقل والشغل) بمعنى الاجرام شقلا من الشغل. أم لا  
هذي ولاتلك، وأن أصل كلمة شغل هي الشغل أم العكس. وإن كانت الاخيرة فهل صورة  
القاف في التدمرية تمثل أيضا صوت الغين.

ق = غ مثل: د = ر

أمور تحتاج إلى دراسة وتمحيص من قبل الباحثين العرب:

ومن التصحيحات في اللفظ التي نرى فيها مجال القرار والقطع هي:

حرمون وليس حرمون

مثل قاسيون وكفرون وميسلون وعجلون وكلها مثل خلدون هكذا لتواتر لفظها جيلا بعد

جيل وهكذا ينطقها سكانها.



كذلك كلمة جبيل وليس جبلا

ومملكة يادي وليس ياؤودي، لانزال نستعملها في تراثنا الغنائي عل يادي... بمعنى وادي وهي مثل: وهب ويهب، وتر ووتر، واقوصة وياقوصة، وكذلك كلمة [أنا، كه] أنوك أو خلافا أي توكيد لانا (أنا أكهني) أنا اقشعني - أنا انظرني امامك انا هنا، أتت في الاكادية [أنا، كو] وهو لفظ قريب من المقترح.

ومن نافلة القول، أن نذكر بأن صوت الضاد لمسناه في الكنعانية في نقش [بيض ملك] والمعروف بنقش بيحيميليك، علما ان صوت الضاد أصبح وجوده في الابلائية أكيد بكلمات وضائوم (٤٢) وحامضوم (٤٣) بمعنى وضوء وحامض. ومع ذلك:

ولكأنني استنهض اولئك العروبيين من قبورهم: أكاديين وعموريين وكنعانيين وآراميين وسببيين على اختلاف لهجاتهم، استنهضهم من قبورهم ليرنوا ويسمعوا كيف نتكلم ونلفظ لهجاتهم. وكأنني أراهم يبتسمون استظرافا بلكنتنا في لهجاتهم. لكنهم سيغشى عليهم ضحكا حين يسمعون المستشرقين (علماء الساميات) كيف ينطقون لغتهم بلكنتهم (الجرمانية أو اللاتينية) ولعلي أرى فريقا آخر، ممن بعث من القبور، يقف مشدوها فاغر الفم، وكأن الامر لايعنيه، حسبانا منهم انهم يتكلمون لغة غير لغتهم. وشكرا



## المصادر والمراجع

- ١ - إذاعة الشرق وإذاعة مونت كارلو.
  - ٢ - W. GESINIUS - Hebrew and English lexicon of the Old Testament Oxford, the Clarendon Press 1962.
  - ٣ - عبد الملك: بطرس ورفاقه - قاموس الكتاب المقدس بلا تاريخ ص ٧٦٣.
  - ٤ - أبو عساف - الآراميون طرطوس ١٩٨٨ ص ١٥٥.
  - ٥ - اللسان لابن منظور ١٢/٧ أرض محروصة: أي أرض مرعية.
  - ٦ - H.DONNER - W. RÖLLIC Kanaanäische und Aramäische inschriften. Band1 TEXT Wiesbaden 1971 P.P 1-2.
  - ٧ - أبو عساف ، الآراميون ، ص ٤٠ .
  - ٨ - د. عبد المنعم عبد العال: معجم الالفاظ العامية ، مصر ، مكتبة الخانجي . الطبعة الثانية ص ١٧ .
  - ٩ - ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ، ص ٥٩٧ عن د. محمد سعيد رمضان البوطي ، هذه مشكلاتهم ، دار الفكر ، دمشق ص ١٨٤ .
  - ١٠ - محمد علي مادون ، خط الجزم ابن الخط المسند ، دمشق ، دار طلاس الطبعة الاولى ١٩٨٩ ص ٢١٠ + ٥١ + ٥٢ شكل رقم ١١ .
  - ١١ - المجلة البطريركية، العدد ١٠٣، آذار ١٩٩١ السنة ٢٩ ، دمشق ، غريغوريوس بولس بهنام العلاقات الجوهرية بين العربية والآرامية ص ١٢١ .
  - ١٢ - مادون الشكل ٢٣ ص ١٠٧ .
  - ١٣ - روسي بيير ، تاريخ العرب الحقيقي ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ص ١٨٥ .
  - ١٤ - دوبيون سومر ، الآراميون ، تعريب ناظم الجندي . راجعه د. توفيق سليمان، دار الاماني طرطوس ، طبعة اولى ١٩٨٨ ص ١٣١ .
  - ١٥ - مادة كنع .
  - ١٦ - بيير روسي ، ص ٢٣ .
  - ١٧ - اليدش خليط من البولونية والالمانية والروسية مع عبرية حديثة.
  - ١٨ - العبرية المحكية الحديثة ، بداية القرن العشرين ، بيير روسي ص ٢٣ .
  - ١٩ - التوراة بالحرف الآرامي المربع سفري دانيال ص ١٢٥٥ وعزرا ص ١١٨٤ .
- תורה      נביאי      וכתובים



BIBLIA HEBRAICA STUTGART 1937 P.1255 P.1284

- ٢٠ - عبد الملك بطرس ورفاقه ، قاموس الكتاب المقدس بلاتاريخ ص ٧٦٣ .
- ٢١ - فايز الداية، علم الدلالة العربي ، دمشق طبعة اولى ١٩٨٥ ص ٢٤٥ .
- ٢٢ - فايز الداية ، المرجع السابق ص ٢٤٥
- ٢٣ - مشكلتا السريانية ق ٣ .
- ٢٤ - وزارة التخطيط السورية، المكتب المركزي للاحصاء، الدليل الهجائي للمدن والقرى والمزارع في سورية، سلسلة الدراسات رقم ٥٦ لعام ١٩٧٢، دمشق.
- ٢٥ - د. محمد السوسي ، العلوم العربية بالاندلس ونقلها الى أوربة ودورها في تطور العلوم، محاضرة في الندوة الدولية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ ، محاضر من تونس ، دمشق ١٩٩٠ ص ٢ .
- ٢٦ - القرآن الكريم، سورة الحديد ، آية ٢٠ .
- ٢٧ - القرآن الكريم، سورة آل عمران ، آية ١٩٣ .
- ٢٨ - بطرس البستاني ، كتاب دائرة المعارف المجلد ٨ ، دار المعرفة ، بيروت ص ٢٩ .
- ٢٩ - المرجع السابق، ص ٣٣ .
- ٣٠ - المرجع السابق، المجلد السادس ص ٤٣٩ .
- ٣١ - محمود محفوظ ، تاريخ حرستا ، دار قتيبة دمشق ، طبعة اولى ١٩٨٨ ص ٢٤ .
- ٣٢ - المرجع السابق، ص ١٠ .
- ٣٣ - القرآن الكريم، سورة النجم ، آية ٥٨ .
- ٣٤ - د. عدنان بني، خالد الاسعد، تدمر، ص ١٥ .
- ٣٥ - S.R.Driver, Preface, Vi
- ٣٦ - جورج مونان ، علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة د. نجيب غزاوي وزارة التعليم العالي ، دمشق . MOUNAN. La Linguistique du xxe Siecle P.U.F, 1972, P.7 - G ص ٤٨ .
- ٣٧ - ابن منظور، مادة: خَبَطَ
- ٣٨ - محمد محفل ، مدخل الى اللغة الآرامية ، دمشق ١٩٨٧ ، ص ٢٨ .
- ٣٩ - C.I.S., PII, T., III, P.P.35-37 .
- ٤٠ - القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية ٣٥ .
- ٤١ - وشب بالآرامية تعني جلس، ووثب بالسبئية تعني جلس.
- ٤٢ - حميدو حمادة ، الصوت والتبدلات الصوتية في لغة ابلا ، ١٩٩٠ ، ادلب ص ٢ .
- ٤٣ - قاسم طوير ، أضواء جديدة على تاريخ وأثار بلاد الشام (تعريب) طبعة اولى ، دمشق ١٩٨٩ ، محاضرة عن بيليو فرانزا رولي ، ص ٥٤ .







القضاء في المغرب والاندلس  
منذ الفتح  
وحتي نهاية القرن التاسع الهجري







# القضاء في المغرب والاندلس منذ الفتح وحتى نهاية القرن التاسع الهجري

الدكتور علي أحمد  
جامعة دمشق - قسم التاريخ

## مقدمة :

يمثل القضاء بصورة عامة ركنا من أهم الاركان ، التي يقوم عليها بناء المجتمعات والأمم في كل زمان ومكان . فاذا كان القانون هو الذي يحدد المسار العام ، الذي يجب على الجميع إحترامه والسير بمقتضاه ، فان القضاء هو الذي يشرف بأمانة على تطبيق القانون ، ويجعله دوما يسير على الطريق القويم دون محاباة لاحد مهما كانت ظروفه ومواقفه وأحواله .

وقد ثبت بالتجربة والبرهان والواقع ، أن الأمم التي نجحت وأصبحت عبر تاريخ الانسانية الطويل ذات مكانة مرموقة تحت الشمس لها وزنها واعتبارها الدولي ، ثبت أن وراء ذلك قضاءً نقياً طاهراً ، ليس عند أصحابه غير تطبيق القانون والتشريع على جميع أفراد الدولة والمجتمع . وثبت ايضاً أن وراء انهيار بعض المجتمعات وتأخرها عبر التاريخ حتى يومنا هذا كان القضاء الفاسد ، الذي لم يحترم القانون ، فرجح اصحابه الباطل على الحق ، والظلم على العدل ، فانتشرت الفوضى ، وسقطت كل القيم الانسانية العظيمة .

فالقضاء اذا منصب خطير وحساس ، يكاد يكون بمثابة القلب من جسد الانسان ، متى تعطل القلب مات الجسد ، وانتهت الحياة الى الفناء والذبول . ومن هنا جعل الاسلام هذا المنصب من المناصب الهامة في الدولة العربية الاسلامية ، وكثيراً ما ربط نجاح الدولة وتطورها بنجاح قضائها في تطبيق القانون وحسن استخدامه على طريق الحق والعدالة .

وعلى هذا فقد كان النبي العربي الكريم ، هو الذي يفصل في معظم القضايا والمشاكل ، والتي كانت تحدث في عهده وكان يرسل الى الامصار البعيدة خيرة رجاله وأتباعه ومثله فعل الخلفاء الراشدون الأربعة من بعده .

وعندما اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية بعد شوط كبير من الفتوحات ، استلزم الامر



وجود قضاة متفرغين لكثرة المشاكل والقضايا ، التي كان من الواجب ايجاد حل لها لاهميتها القصوى في الحياة العامة .

وحتى يكون القضاء ناجحاً وعادلاً ، وحتى يظل مستمرا على ذلك ، فان عملية اختيار القاضي ، كانت تطول الى حد كبير من أجل أن يتسنى للحاكم الوقوف على الصفات الواجب توفرها في شخص القاضي المرشح للتعيين ، مثل حيازة العلم والمعرفة ، وتوفير الاخلاق والدين والسيرة الحميدة والسمعة الطيبة الى غيرها من أمور .

وقد طبقت جميع هذه المعايير خلال الفترة التي تشكل محور بحثنا ونجحت الى حد بعيد ، بحيث ان جميع القضاة تقريرا تلمسوا خلال حياتهم القضائية روح العدالة والمساواة ، فأصابوا في أحكامهم في كثير من الاحيان ، ساعدهم على ذلك الخوف الشديد ، الذي كان ينتابهم عندما يولوا القضاء . حتى ان بعضهم كان يتهرب من القضاء بابدائه شتى الاعذار والحجج خشية ان لاتساعده الظروف في تحقيق العدالة وايصال المتخاصمين الى حقوقهم المشروعة ، الامر الذي ساعد في الحفاظ على تماسك الدولة العربية في الاندلس والمغرب في معظم الاوقات ، وأضفى عليها مسحة حضارية واضحة المعالم ، استفادت منها الامم المجاورة ، بينما انقلبت الصورة رأسا على عقب في بعض الفترات وفي امكنة اخرى ، كما حدث في مصر والشام خلال عصر المماليك فيها ، حيث اتسم القضاء خلال هذه الفترة بالسعي وراء تحقيق مصالح فردية بحتة دون النظر الى ادنى حق يهم الناس والمجتمع .

وقبل التفصيل في شأن القضاء الاندلسي والمغربي ، فلا بد من التنويه عن مفهوم القضاء وأهميته وصفات القاضي وما الى ذلك . تعني كلمة القضاء في اللغة ، الحكم وجمعها اقضية ، واستقضى الرجل اي اعتمد قاضيا يحكم ويقضي بين الناس . ويقال : قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ ، اذا حكم وفصل (١) .

قال الله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ﴾ (٢) بمعنى لن يتم ايمان الانسان حتى يحكم الرسول (ص) في جميع القضايا والامور ، لان حكمه هو الحق (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (٤) وفي ذلك أمر الهي واضح الى القضاة بأن يقضوا بين الناس بالعدل والحق والانصاف .

هذا ما يجعل ولاية القضاء من الولايات الجليلة ذات القدر الرفيع والذكر العالي ، لأن القاضي هو محور ومصدر الاحكام ، واليه يعود النظر في كل وجوه القضاء وحقيقته وحكمه وشروطه وأركانها .

فأما حقيقته فهي الاخبار عن حكم شرعي على سبيل الالتزام . وأما حكمه ففرض على الكفاية



بالاجمال . وأما حكمته فهي قمع المظالم ونصرة المظلوم ، وقطع الخصومات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٥).

وللقاضي شروط لا يتم القضاء الا بها، ولا تنعقد الولاية ولا تدوم الا معها، وهي عشرة، الاسلام والبلوغ، والعقل، والذكورة، والعدالة، والعلم، وكونه واحدا، وسلامة حاسة السمع، والبصر من العمى والصمم، وسلامة اللسان من البكم، ويجب أن يكون غير محدود في قذف او سرقة او زنا، وغير مطعون عليه بولادة اللعان او الزنا، وأن يكون غنيا غير هذاف وغير مستضعف ، حليما بحق الخصم، مستثيراً لاهل العلم والرأي ، سالما من بطانة السوء، ولا يبالي في الله لومة لائم، غير زائد في الدهاء ، لا يصانع ولا يضارع، بعيد التهمة، ذا نزاهة عن الطمع، كثير التحرز من الحيل، لا يطلع الناس منه على عورة، غير مخدوع لغفلة ، متأنياً غير عجول. عبوساً من غير غضب، متواضعا من غير ضعف، حاكماً بشهادة العدول، عالماً بالفقه والسنة والشروط، عارفاً بما لا بد منه من العربية ومعاني الكلام. (٦)

علق الامام مالك على هذه الشروط بالقول: ( ولا أرى خصال القضاء تجتمع اليوم في أحد ، فاذا اجتمع منها خصلتان، العلم والورع، رأيت أن يولى، فان لم يكن له علم فورع وعقل، فإنه بالعقل يسأل وبالورع يعف، واذا طلب العلم وجده، واذا طلب العقل لم يجده، وعلم القضاء ليس كغيره من العلوم (٧).

ويحدّد اختصاص القاضي في عدد من المسائل، مثل الوصايا والأحباس والاطلاق والقسم والمواريث والنظر للأيتام في أموال الغياب والانساب، والحدود والجراحات والتوصيات والتسجيل والاثبات، وقبض الخراج، وقسم الغنائم، وتفريق أموال بيت المال على المصالح ، وترتيب الجيوش، وقتل البغاة، وتوزيع الاقطاعات، واقطاع المعادن ونحو ذلك . وفي ( الجزيرة ) التي تشكل كتابا في فقه المالكية، يجعل صاحبها ابن القاسم نظر القاضي يشتمل على عشرة احكام ، مثل قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين، اما بصلح عن تراض يراد به الجواز، واما بإجبار بحكم ثابت يعترف به الوجوب ، وإلزام الولاية للسفهاء والمجانين، والتحجير على المفلسين حفظاً للأموال، والنظر في الاحباس والتفقد لحوالها وأحوال النظر فيها . وتنفيذ الوصايا على شروط الموصي إذا وافقت الشرع. وتزويج الايامى بالاكفاء اذا عد من الاولياء ودعين الى النكاح. واقامة الحدود، فان كانت من حدود الله انفرد باقامتها، إما باقرار يتصل بإقامته الحل، إما بنية أو ظهور حمل من غير زوج. والنظر في المصالح العامة من كفّ التعدي في الطرقات والافنية واخراج ما لا يستحق من الاجنحة والابنية وتصفح الشهود وتفقد الامناء واختيار من يرتضيه لذلك ووجوب التسوية بين القوي والضعيف وتوخي العدل بين المشروف والشريف. (٨)

وبالجملة فقد استوفت رسالة عمر بن الخطاب في ماهية القضاء كل الواجبات التي ينبغي للقاضي ان يتقيد بها وينفذها، حتى من يتمكن من إيصال المتقاضين الى شاطئ الامان



والسلام والاطمئنان . يقول في هذه الرسالة الى أبي موسى الاشعري: « أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق الانفاذ له، وآسي بين الناس في وجهك وعدلك ، البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما أو حرم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت لرشدك ، أن ترجع الى الحق فإن الرجوع إلى الحق خير من التماسي في الباطل. الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه ثم إعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها. واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهي اليه ، فمن أجضر بينة أخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجريا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو نسب، فإن الله عفا عن الايمان ودرأ بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإن الحق في مواطن يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر والسلام». (٩)

بدأ ظهور منصب القضاء في ولاية المغرب منذ السنين الاولى لعملية فتح المغرب (١٠) وقد كان القضاء في هذه الفترة صورة طبق الأصل لما كان عليه في كل الولايات الاموية الاخرى باستثناء بعض الامور، التي سنأتى على ذكرها فيما بعد. فقد ورث الامويون نظام العهد الراشدي في القضاء ، حيث اعتمدوا على المصادر القضائية نفسها، التي كانت عند الراشدين . فقد بقي القرآن الكريم المصدر الرئيسي للتشريع، ثم بعد ذلك تأتي السنة النبوية، ثم الإجماع والقياس في المسائل التي لا يوجد في شأنها نصوص تشريعية مكتوبة. ولهذا فاننا نرى ان قضاة العهد الاموي، اعتمدوا على النظر في حكم المسألة في الكتاب العزيز، فاذا لم يجدوا دليلا فيه، لجأوا الى السنة النبوية الشريفة، فاذا لم يجدوا بادروا الى تحكيم عقولهم وبصائرهم بالاعتماد على علومهم وفهمهم، حتى يجدوا للمسائل المطروحة أمامهم حكما عادلا مستوحى بكليته من روح الاحكام في القرآن والسنة (١١).

وبسبب ذلك عرف عن القضاة الامويين انهم من القضاة المجتهدين، الذين لا يقلدون في أحكامهم لان المذاهب الفقهية لم تكن قد عرفت او دونت، ولم تكن هناك خطة أو قواعد شرعية ثابتة يتوجب العمل بموجبها، مما جعل الامر منوطاً بالقاضي نفسه أو بمن يعادله من الفقهاء المتمكنين في العلم. (١٢)

وكانت عملية اختيار القاضي في هذا العهد، تخضع لقواعد صارمة من أجل أن يبقى منصب القضاء محافظاً على استقلاله وهيئته وتقديره وروعته، كما كان في العهد الراشدي، فكان الخليفة الأموي هو الذي ينتقي القضاة بنفسه. وفي بعض الاحيان كان يخاطب الولاة ويأمرهم بتعيين أشخاص معينين في أمصارهم. لكن المعروف بالنسبة لولاية افريقية (تونس الحالية) فقد كان الخليفة الأموي ، هو الذي يقوم بتعيين القاضي، ذلك لان افريقية جزء من ولاية المغرب ، والتي تتبع الى الدولة الأموية وتخضع لقوانينها . كذلك كان الامر بالنسبة



### لولاية الاندلس. (١٣)

وقد استمر ذلك طيلة عصر الولاة في المغرب والاندلس، الذي انتهى سنة ١٣٨هـ / ٧٥٦ بوصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وإعلانه الامارة الاموية فيها. وعلى الرغم من أن عصر الولاة تميز بالقلق والاضطراب وعدم الاستقرار، فقد ظل القضاء معروفا أكثر من غيره في ميدان الإدارة، وبقي صورة صادقة لما كان يجري في بقية الولايات العربية في ظل الحكم الاموي باستثناء التسمية التي أطلقت على القاضي. ففي حين كان يسمى في الولايات الشرقية بالقاضي، كان يسمى في المغرب والاندلس بقاضي الجند. (١٤)

وفي هذا العصر كان يعين قاض لكل ناحية أو بلدة توجد فيها قوة عسكرية تعمل تحت راية الفتح. فقد عين حسان بن النعمان القضاة للنواحي. فكانوا يفضون الخصومات ويحكمون بين الناس بكتاب الله وسنة نبيه. (١٥)

وما كان يجري في المغرب، كان يجري مثيلا له في الأندلس، التي فتحها العرب سنة ٩٢هـ / ٧٠٥ م. أما أساليب القضاة في مجالسهم القضائية، فلم تكن جميعها على وتيرة واحدة، كأن نقول، أنه كانت لهم طريقة أو قانون يسيرون بهديه ويطبقون ما يحتويه انما اختار كل منهم اسلوبه الخاص المميز من حيث متابعة القضايا، أو من حيث المكان، الذين كانوا يقضون به، أو من حيث الابهة أو المظهر العام للقاضي، الذي كان له بالغ الاثر في نفوس المتقاضين والمتخاصمين، فقد كان القاضي مهاجر بن نوفل القرشي على سبيل المثال يتبع أسلوبا رائعا في مجلس قضائه. هو أنه كان يبدأ استجواب المتهمين بتخويفهم وترهيبهم، ولا سيما الذين كانوا يدعون الباطل، بانهم سينالون عقوبات كبيرة في الدار الآخرة، ثم يقوم بعد ذلك بالبكاء المر، فكانوا يتأثرون بذلك فيلجأون الى الصلح ومسامحة بعضهم بعضا. (١٦)

ويحكى عن القاضي أبي كريب المتوفى سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م أنه كان يتوجه الى عمله راكبا حمارا، فاذا عرض له خصمان في الطريق نزل عن حماره، ونظر بينهما فيما اختصما فيه، وعندما ينتهي من النظر في القضية، كان يرفض أن يمسك برأس الحمار اثناء ركوبه، ويروى أيضا عن القاضي غوث بن سليمان أنه نظري قضية في حانوت من حوانيت السراجين صادف وجوده فيها، حينما شكت اليه امرأة مظلمة حصلت لها. (١٧)

من ذلك نستنتج أن التواضع الزائد، كان هو السمة البارزة، التي اجتمع قضاة عصر الولاة تحت رايتها، وان كنا لا نعرف على وجه اليقين، إن كان هذا التواضع حقيقيا صادقا، أو أنه متكلف مفتعل، الهدف منه حب الظهور وازفاء صفة خاصة للقضاة، تميزهم عن غيرهم من رجال الادارة في الدولة. كما يظهر من خلال تراجع قضاة هذا العصر، أن القاضي لم يكن له مساعدون او نواب يحملون عنه بعض متاعب أشغاله البالغة الصعوبة والتعقيد.

أما الفترة التالية لعصر الولاة فيمكن تقسيمها من حيث تطور القضاء الى قسمين متميزين الأول وينتهي في سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م على يد المرابطين الذين قدموا من المغرب لنصرة



الاندلسيين على لاسبان بعد أن وصلت أحوالهم الى أعلى درجات السوء والمهانة والاضطراب. وقد شهدت هذه الفترة الطويلة عدة أنواع من الحكم والدول، مثل دولة الامارة والخلافة الاموية ودول الطوائف بالاندلس وفي المغرب ظهرت دولة الاغالبة في تونس، ودول الخوارج في الجزائر والمغرب ودولة الادارسة في المغرب الاقصى. (١٨) وفي نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ظهرت دولة الفاطميين، التي تمكنت بسهولة من ازالة كل دول المغرب سابقة الذكر.

وفي هذا العصر أصبحت خطة القضاء في الاندلس والمغرب من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بامور الدين، وكون السلطان يمثل أمام القاضي عند الضرورة. (١٩) وأول ما يمكن الحديث عنه في بداية هذه الفترة هو المصادر التشريعية، التي كان يعتمد عليها القضاة ويهتدون بهديها من أجل استنباط الاحكام الصحيحة. كان في مقدمة هذه المصادر القرآن الكريم، ثم السنة النبوية الشريفة كما جاء في رسالة موجهة من عقبة بن الحجاج الى القاضي مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء ونقلها الخشني في كتابه (قضاة قرطبة) والتي تقول: (( وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد (ص) اماماً يهتدي بنورهم، وعلماء يعشو اليهما وسراجاً يستضاء بهما، فان فيهما هدى من كل ضلالة، وكشفا لكل جهالة وتفصيلاً لكل مشكل، وابانة لكل شبهة، وبرهاناً. ساطعاً ودليلاً شافياً ومناراً عالياً، وشفاء لما في القلوب وهدى ورحمة للمؤمنين)). (٢٠)

والتزم بذلك جميع قضاة الاغالبة والخوارج والفاطميين بدون استثناء. لكن الشيء الثابت أن مذهب الامام مالك هو الذي ساد في المغرب والاندلس منذ النصف الاول من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وبقي هذا المذهب وحيداً، لم تقم لغيره قائمة خلال العصور الوسطى، فكان الاندلسيون يقولون: (( لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك وسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي. وينظروهم كان الائمة اثنين أبو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب )) (٢١) وهذا ما جعل الخليفة العباسي هارون الرشيد يصر على أن يكون القاضي في القيروان من المالكية، ذلك لان المالكية تمكنت من نفوس الناس، وأنه لاقرار لادارة العباسيين ما لم يحظوا برضا المالكية، فأوصى عامله ابراهيم ابن الاغلب أن يتخذ قاضيه من الفقهاء أصحاب مالك، واحد كبار فقهاء القيروان. (٢٢)

وحرص الامام مالك في مذهبه على التمسك بالقرآن دون تأويل، وسنة النبي العربي الكريم، وأعمال الصحابة، وبآراء وأعمال أهل المدينة المنورة، فكان يرى على سبيل المثال، أنه من المتوجب الايمان بالقدر خيره وبأن الانسان حر مختار وهو مسؤول عما يفعل، ان خيراً وان شراً.

وأهم القضايا التي كان القضاة في المغرب والاندلس، ينظرون فيها بصورة عامة هي عشر قضايا أو احكام، أحدها قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين أما بصلح عن تراخٍ يراد به



الجواز، وأما باجبار بحكم. والثاني استيفاء الحق لمن طلبه وتوصيله الى يده ، اما باقرار او بينة . والثالث الزام الولاية للسفهاء والمجانين والحجر على المفلس حفظا للاموال والرابع ، النظر في الاحباس والتفقد لاحوالها وأحوال الناظر فيها، والخامس تنفيذ الوصايا على شروط الموصى اذا وافقت الشرع. والسادس تزويج الايامى من الاكتفاء ، اذا عدم الاولياء واردين الزوج، والسابع اقامة الحدود في حقوق الله. والثامن النظر في المصالح العامة من كف التعدي في الطرقات والأفنية واخراج ما لا يستحق من الاجنحة والأفنية. والتاسع تقفي الشهود وتفقد الامناء ، واختيار من يرتضيه لذلك. العاشر وجوب التسوية في الحكم، بين القوي والضعيف وتوخي العدل . ويقول النباهي في عمل القاضي ، وخطة القضاء: (( خطة القضاء من أعظم الخطط قدرا وأجلها خطرا ، ولا سيما إذا اجتمعت اليها الصلاة ، وعلى القاضي اصدار الاحكام واليه النظر في جميع وجوه القضاء )) (٢٣)

أما عن صفات القاضي في هذه الفترة ، فقد اتفقوا على اوصاف معينة كانت شبه ثابتة ، حددها في المغرب والاندلس منذ وقت مبكر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذي اشتهر عنه قوله بالشخص المرشح لتسلم القضاء: (( لا يصلح للقضاء الا القوي على امر الناس المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد، استفاد بذلك ثمنا ربيحا من رضوان الله )) (٢٤)

على هذا، كان اختيار القاضي صعباً ، يعتمد على أسس قلما تبدلت في تاريخ النظام القضائي في المغرب والاندلس وكثيرا ما كان القاضي يختار من الشخصيات العلمية والاخلاقية المتميزة ، كما كان يحدث على سبيل المثال في حاضرة الاغالبة (القيروان) (٢٥) وكذلك الامر عند الخوارج في تاهرت ، والذين استمروا في المحافظة على تقاليد اختيار القاضي ، فكانوا يمتحنون المرشح فيما قد لا يعرفه من أمور الزراعة او الحيوان ، كأن يدسّوا له متخاصمين أو يبعثوا به الى امرأة عجوز مجربة، تختبر ما يتحلى به من التواضع أو الكبر، فاذا سأل الناس فيما لا يعرفه ولوّه ، أما اذا تكبر تركوه (٢٦)

ولأهمية هذا الامر عند حكام المغرب والاندلس ، قام الحكم بن هشام في عصر الامارة الاموية في الاندلس ، باعتماد يحيى بن يحيى الليثي في مسألة اختيار القضاة ، وكان الحكم مكينا موثوقا مقبول القول في القضاة ، فكان لايعين قاض في كل بلدان الاندلس الا بمشورته واختياره ، وكان لاينوه الا بأصحابه ومن كان على مذهبه من المؤهلين لمنصب القضاء . وتعززت ثقة الحكم فيه ، بعد أن رفض تسلم القضاء على أهميته وجلالته. (٢٧)

في مستهل حكم الامارة الأموية بالاندلس ، حصل تطور حضاري مهم في ميدان تسمية كبير القضاة ، ففي حين كان يسمى في عصر الولاة (قاضي الجند) فانه في هذا العصر أصبح يسمى (قاضي الجماعة) الذي يوازي قاضي القضاة في المشرق في عصر العباسيين ، ويوازي في عصرنا وزير العدل أو مدير القضاء العسكري. وظهر ذلك لأول مرة في بداية حكم الامير عبد الرحمن



الداخل، عندما عين على قضائه يحيى بن يزيد التجيبي، الذي كان قاضيا على الاندلس قبل وصول الداخل إلى الاندلس، الذي لم يعزله، وظل حتى كان الصراع بين الداخل والفهري (٢٨)، عندما طلب ليقضي بينهما. ومنذ ذلك الحين سمي قاضي الجماعة (٢٩) وينفرد ابن القوطية برواية أخرى، يحدد فيها ظهور تسمية قاضي الجماعة في زمن عبد الرحمن الثاني، وإن أول من تسمى بقاضي الجماعة في الاندلس هو سليمان بن أسود البلوطي خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي؛ (٣٠) مهما كان عليه الأمر، فإن هذا النظام، هو نظام متقدم مثالي وعصري. لكن تسمية قاضي الجماعة اقتضت على قاضي قرطبة، حتى جاءت دول الطوائف، التي ظهرت كل منها في مدينة كبيرة، تتبعها عدة ضواح وبلدان مثل غرناطة واشبيلية وسرقسطة إضافة إلى قرطبة، فانتقلت هذه التسمية إلى كل منها، مثال ذلك أن المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن هود، استقضى على سرقطة عبيد بن ناصر العتكي، فكان بها قاضي الجماعة (٣١). وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد التغلبي، الذي استقضاه المأمون يحيى ابن ذي النون بطليطلة بعد أبي عمر بن الحذاء (٣٢) ويونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصغار (٣٣).

شذ عن هذا النظام في عهد دول الطوائف، القاضي أبو العباس بن ذكوان بقرطبة، فأطلق على نفسه قاضي القضاة على عادة قضاة المشرق، وكان ذلك في زمن المظفر بن محمد بن أبي عامر. وعندما انقرضت الدولة العامرية بقيام المهدي بن عبد الجبار الأموي، أزال ابن ذكوان لقب قاضي القضاة واقتصر به على قاضي الجماعة، الأمر الذي يدل على أن قاضي القضاة كان أشمل من قاضي الجماعة (٣٤).

والجميل في القضاء المغربي والاندلسي، أن القاضي لم يكن الوحيد، الذي ينفرد في إصدار الأحكام على المتخاصمين، بل كان إلى جانبه هيئة شوري تتألف من عدد من الفقهاء يدعون (بالمشاورين) وهم مجموعة من الفقهاء المتمكنين من مسائل الشرع والفقه، ومهمتهم الرئيسية النظر في المسائل الصعبة، التي يتعذر على القاضي إيجاد حل لها، وبالتالي إصدار حكم بشأنها (٣٥)، وهي تشبه في أيامنا ما يسمى بمحكمة النقض أو الاستئناف أو مجلس القضاء الأعلى. ولم يقتصر وجود هذه الهيئة على العاصمة قرطبة، بل وجدت في كل المدن والبلدان، التي كان يعين لها قاض (٣٦) وكانت هذه الهيئة تدقق في أحكام القضاة للتأكد من صحتها وعدالتها أو عدم ذلك. وأقدم إشارة عن وجود هذه الهيئة المتطورة، تعود إلى سنة ١٧٦هـ / ٧٩٣م عندما كلف أبو محمد عبد الله بن فروخ برئاستها، فهرب إلى المشرق لعدم رغبته في العمل في هذا الميدان (٣٧).

وخلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أسس الأمويون في قرطبة دارا خاصة لشورى القضاة. وقد كانت تخالف الإمام مالك في عدة أحكام، لكن أخبار هذه الدار لم تصل إلينا على وجه بَيِّن (٣٨) وشكلت هذه الهيئة أحد أركان الدولة الإباضية الرستمية، وأطلقوا



عليها تسمية (مجلس الشورى) الذي لم يقتصر على مهمة النظر في أحكام القضاة، بل شملت سلطته حق مراقبة سياسة وسلوك رئيس الدولة (الامام) فاذا وجد انه حاد عن الطريق المرسوم، أسرع إليه فوعظه وانتقده واحتج عليه، وإذا لم يرتدع خلعه وباع غير (٣٩) وفي بعض الاحيان، كانت إذا ظهرت مشكلة فقهية يناهز المناهض في كل قرى جبل نفوسه (٤٠) حتى تتم الشورى في المسألة. وفي بعض الاحيان الاخرى، كان القاضي يبعث لاستشارة علماء جربة (٤١).

ولم يكن القضاة دوماً من العرب الاصليين، بل وجد في هذه الفترة أمثلة عديدة لشخصيات من غير العرب، استلم أصحابها هذا المنصب الجليل. نذكر منهم على سبيل التعريف، قاضي الجماعة عمرو بن عبد الله بن لبيب مولى احدى بنات عبد الرحمن الداخل، استقضاه الامير محمد مدة عامين ثم عزله، وهو أول من استقضى بقرطبة من الموالي. وقد كانت وفاته سنة ١٧٣هـ / ٧٩٠م وأثار تعيينه في القضاء حفيظة العرب، فبلغ ذلك الامير محمد فقال: (وجدت فيه مالم أجد فيهم. فقال العرب، اما القضاء فإننا لانعترض فيه لانه من سلطانه، وأما الصلاة فإننا لانصلي وراءه، فولى الامير رحمه الله الصلاة للنميري عبد الله بن الفرّج...) (٤٢) وهذا يدل على علو مرتبة من يتولى الصلاة في الاندلس والمغرب، لان القاضي في هذين البلدين كثيراً ما كان يجمع بين القضاء والصلاة، كما كان القاضي عبد الله بن خلف اللخمي الاشبيلي، الذي ولي القضاء والصلاة بمدينة اشبيلية في ايام الامير عبد الله المتوفى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م، ثم عزل عن القضاء وأقام على الصلاة الى أن وافته المنية نحو سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م (٤٣)، لكن اضافة الصلاة الى القضاء، لم تكن من الامور الثابتة في المغرب والاندلس.

لم يلتزم قضاة المغرب والاندلس خلال هذه الفترة بالمهام، التي حددها لهم قانون القضاء العام، بل راحوا يتدخلون في مسائل جانبية وفرعية متعددة، لانهم كانوا يرون انفسهم، مسؤولين عن حل كل معضلة في مجتمعاتهم، التي كثرت مشاكلها وتشعبت بسبب التطور، الذي كان مستمرا بدون توقف، وبخاصة خلال فترة الانتعاش الاقتصادي والعلمي في القرن الثالث والرابع الهجريين. فمثلاً كان القضاة يكلفون بالاضافة الى أعمالهم القضائية بأعمال حربية محضّة، كما حدث للقاضي الاندلسي الفرّج بن كنانة، عندما عقد له الامير الحكم بن هشام على جند شذونه لمقاتلة الاعداء. واخرجه مرة اخرى الى الثغر الاقصى (سرقسطة) فقام مقام قادة وصدور الغزاة. وكذلك جرى مع أسد بن الفرات، الذي ولاه زيادة بن الأغلب على القضاء بافريقية، وقدمه على غزو صقلية، فكان أمير الجيش وقاضيه في وقت واحد (٤٤) ومثلهما كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي، الذي أضاف له الناصر لدين الله مهمة اخرى، هي قيادة الجند (٤٥).

كما كلفوا بمهام اخرى غير المهام العسكرية، مثل ادارة الكور والمدن. فقد أناط الناصر لدين الله عدة مهام بالقاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، الذي عينه على قضاء البيرة، وبعد أمد



قصير قلده أمانة كورة البيرة والنظر على عمالها، فكانوا لا يقدمون ولا يؤخرون الا عند أمره. وظل هكذا حتى نقله الى قرطبة لتكليفه بقضاء الجماعة سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٨م. ومنذ ذلك الوقت صار الناصر لدين الله يستخدمه على السفارات، فيرسله الى كبار الامراء في الدولة، كما كان يرسله في الامانات الى الثغور والأطراف، للإشراف عليها، وللإعلام بمصالحها، والبنيان لحصونها، وترتيب مغازيها، وإدخال جيوشها الى بلد الحرب، وربما أقامه في ذلك مقام أصحاب السيوف من قواد جيشه (٤٦) لكن تسلم أمانة الكور لم تكن حالة طارئة أو استثنائية تقتصر على بعض القضاة، بل كانت أمرا معروفا مسلما به، حيث أن جميع القضاة خارج قرطبة وغيرها من الحواضر الاخرى كالقيروان كانوا مسؤولين عن جميع المناطق، التي تتبع الكور المعينين على قضائها، فيكون لقاضي الكورة التصرف بشؤونها القضائية، اضافة الى تسلم أمانة الكورة. وكان بمقدور القاضي أن يرفض ذلك، ويقتصر على القضاء، كما فعل القاضي محمد بن الحسن النباهي، عندما عين لقضاء سرقسطة على عهد بني هود، فاكتمى بالقضاء والنظر في الأحباس (٤٧).

امتاز قضاة الاندلس والمغرب في هذه الفترة بصلاحياتهم الواسعة، التي شملت عددا مهما من قضايا المجتمع والدولة. فعلى أثر نجاح الفاطميين في السيطرة على المغرب في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، قام القاضي الفاطمي محمد بن عمر المروزي قاضي افريقية بتغيير بعض جمل الأذان وأخذ أموال الاحباس والأموال الموقوفة على عمارة الحصون وكتابة اسم المهدي الفاطمي وأشياء من هذا القبيل (٤٨)، وكان باستطاعة القاضي بقرطبة تعيين صاحب الصلاة في أي مسجد كان من هذه المدينة (٤٩) كما كان يرى نفسه، معنيا بملاحقة الفلاسفة والضرب على أيديهم. وهذا ما حدث منذ بداية الحكم العربي في الاندلس، فخلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي قام القاضي محمد بن ييقى بن زوب بملاحقة أصحاب الفيلسوف ابن ميسرة، والكشف عنهم، واستتابة من علم أنه يعتقد مذهبهم، وأحرق ما وجد عندهم من كتب ابن ميسرة (٥٠).

وكان من صلاحيات القضاة أيضا، منع بعض الناس من الحج بعد المرة الاولى. فقد منع القاضي زيد بن الحشا، خلال فترة قضائه في طليطلة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، عبد الله بن موسى الانصاري المعروف بالشارقي من الحج للمرة الثانية.. وقال في رسالة له: (قد قمت بالفرض - فهذه المرة الثانية هي نافلة، والذي أنت فيه الان أكد. فمنعه من الخروج حرصا على وجوده في طليطلة معلما مهذبا للناس) (٥١).

وفي ميدان التحقيق مع المتخاصمين، اتبع القضاة في المغرب والاندلس أساليب مختلفة، فسار كل قاضٍ على طريقة معينة، كان يراها ناجعة في هذا المجال المهم. ففي البداية، كان الامر يتطلب الفصل بين المتخاصمين عند اجراء التحقيق معهم، ليتضح وجه الاتفاق والاختلاف في أقوالهم، وتدوين ما يقولونه بشأن الاشياء المتنازع عليها، اذا كان التخاصم متعلقا بسلعة ما



أو وديعة. بعد ذلك يؤتى بالشهود، وهؤلاء يجب ان يكونوا من أهل العدالة والرضا. لكن قضاة بعض المناطق المغربية، كانوا يتساهلون في مسألة عدالة الشهود، كما كان يحدث في عاصمة الاباضيين تاهرت، فقد سمح القاضي عمرو بن فتح من جعل جميع أهل شروس في جبل نفوسه شهودا عدولا بمجرد انه سمع من بعض مستشاريه أن أهل شروس لا يكذبون (٥٢). كان بعض القضاة يكتفون بشاهد واحد، كما كان يفعل صاعد بن أحمد التغلبي المتوفى سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م؛ لكنه كان يدعم ذلك باليمين «٥٣» وبصورة عامة فقد كان القاضي هو الذي يقر صلاحية العدول أو الشهود لتأدية مهمتهم فيقر بأنهم جاهزون وصالحون لذلك «٥٤» وبعد الشهادة تأتي البيعة وأخيراً يكون اليمين أو القسم في حالة افتقاد البيعة وهو على المدعى عليه وفي بعض الحالات المعينة كان يمكن للقاضي الأخذ بشهادة غير العدول من الشهود مثل العبيد والنساء كما حدث عندما قبل مشايخ جبل نفوسة شهادة العبد الذي نجا وحده من القافلة التي ماتت عطشاً في طريق القبلية فحكموا بموتهم وكل حكم متعلق إليهم انما حكموا بالاشتهار لأن الاشتهار أعظم من الشهادة كما قبلوا شهادة الاجراء الذين كانوا يعملون في بعض المزارع...

وسمح كثير من القضاة للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم في الجرائم، التي تستوجب الحدود، كالقتل والسرقة والزنا وشرب الخمر. فاذا ثبتت جريمته، حكموا عليه بما حكم الله به، فينفذ الامام والولاة على النواحي حكم القضاء، لايتهاونون في اقامة حدود الله (٥٦) وبعضهم كان يلجأ الى وسائل الترهيب المختلفة من أجل اصلاح ذات البين بين الخصوم. فقد كان محمد يحيى قاضي سرقسطة، يلجأ إلى هذا الاسلوب فيوهم الخصوم، بأن المحراب الذي يتم عليه حلف اليمين، هو من بناء التابعين إلى غير ذلك، مما كان يؤثر بأكثرية المتهمين، ويجعلهم يقولون الصدق (٥٧) وحتى لا يحتج المتخاصمون على مسألة تقديم بعضهم على بعض. فقد كان بعض القضاة، يلجأ إلى كتابة، أسماء المتقاضين على رقاع صغيرة، فيخلطها القاضي مع بعضها بعضاً، ويعيد ترتيبها من جديد، ويضعها امامه ويبدأ بقراءة الاسماء المكتوبة واحدا تلو الآخر دون تدخل من أحد، أي بما يشبه القرعة، التي لا يظلم فيها أحد، ويرضى بها الجميع (٥٨).

وبصورة عامة فقد كانت العقوبات الصادرة عن قضاة المغرب والاندلس قاسية. لكنها كثيرا ماكانت تعتمد على حكم الشرع، ففي السرقة كان حكم (قطع اليد) معمولاً به في كثير من المناطق الاندلسية المغربية، وغير معمول في مناطق اخرى، كما كان الحال في بعض مناطق الاباضيين، الذين كانوا يراعون رجال الدولة الرستميين، والرجال الاقوياء الآخرين، فحكموا للرجل القوي على الضعيف. وأمثال هذه الامور هي التي شكا منها محمد بن تومرت، وهو في رحلة العودة الى بلاده من المشرق (٥٩). ولم يكن حكم قطع اليد مقتصرًا على الذين يسرقون، بل طبقة بعض القضاة على بعض كتاب



الوثائق، كما فعل القاضي محمد بن بشير في قرطبة، عندما اكتشف ان احد الكتاب كان يدلس في كتابة الوثائق، فاستجوبه وثبت عنده أنه عقد وثيقة باطلة على رجل من التجار، فحكم عليه بقطع اليد (٦٠).

إلى جانب عقوبة السرقة، كانت هناك عقوبات أخرى متعددة كالحبس والقتل، وهي عقوبات عرفت في ميادين القضاء الاندلسي والمغربي، ماعدا بعض الاستثناءات التي حدثت في عهد الابطاسيين، الذين لم يكونوا متشددين في عقوباتهم، لان قضاتهم كانوا يجارون الظروف ومقتضى الاحوال، فكانوا لا يرضون عن احلال دم المسلمين. وهذا ماحدا ببعضهم لان يحكم بالدية على مسائل القتل إلى غير ذلك (٦١).

ولم يكن القاضي وحيدا في عمله، بل كانت تساعده هيئة ادارية اخرى، كانت تتألف من نواب القاضي وكتابه. فبالنسبة لنواب القاضي كان يعين لكل قاض عدة نواب يساعدونه في انجاز أعماله الكثيرة. فعلى سبيل المثال، كان يساعده نائب في الاحكام والشروط والانكحة، التي تشمل مسائل الزواج وعقوده، بما يشبه قاضي الشرع في وقتنا الحاضر (٦٢) أما الكتاب فقد انحصرت مهمتهم تحديدا في كتابة ما يمليه عليهم قضاتهم أثناء اجراء المحاكمات، وان كان بعض الكتاب قد ناب عن القضاة كما حدث للكاتب البيطيبي الاشبيلي، الذي جعله أحد قضاة قرطبة كاتبه ونائبه في وقت واحد (٦٣). وكان في دائرة كل قاض ديوان فيه عدد من الموظفين، يعتمدون سجلات خاصة لتدوين القضايا المثارة أمام القاضي، وتسجيل كل مايتعلق بها من حيثيات وأحكام، كما هو حال قضاء هذه الايام (٦٤).

وقد شهد القضاء في المغرب والاندلس بعض التطورات المهمة خلال هذه الفترة الأمر الذي يجب التوقف عنده لضرورته وأثره في نتائج القضاء بشكل عام. لكن هذا التطور، لم يكن شاملا لجميع القضاة بقدر ماكان فرديا، ظهر من خلال تصرفات بعض القضاة. ففي أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، اشتهر على هذا الصعيد القاضي القيرواني في عهد الاغالبة، محمد بن عبد الله الكناني أبو محرز، الذي ساوره الشك مرة في أهلية الشهود، فقال لاحد رجاله ان يأتيه بجميلين ليحمل الشهود عليهما ويطوف بهما، ولما سمع الشهود ذلك النداء، هربوا وكان عددهم اثنين فقال لصاحب الشكوى: (ياعدو الله تجترى علينا بشهود الزور وهم بضربه) وحدث ذلك بعد استجوابهما في الجلسة الاولى، حيث جاء الى القاضي الشخص المدعى عليه، وأبلغه بعدم صحة الحكم، فما كان من القاضي، الا ان قام باستدعائهما مرة ثانية، بحجة أنه يريد سؤالهما عن شيء فاته، نسي أن يسألهما عنه في الجلسة الاولى. وأساس هذا التطور هنا، يكمن في أن القاضي على المذهب المالكي لايجوز له فعل ذلك ويكتفي بالحلف كما إن هذا القاضي أباح شرب النبيذ، وأنه كان يخصص يوما في الاسبوع ليقضي خلاله بين النساء عند باب داره (٦٥).

والحق، فلم تكن جميع الاحكام القضائية، التي كانت تصدر عن دوائر القضاء المغربي



والاندلسي، تعتمد على نصوص شرعية واضحة ومحددة، كالقرآن والحديث وغيره. فكانت قناعة القاضي، التي كانت دوما متوافقة مع الحق والعدل والمنطق، هي المصدر المعول عليه، مثال ذلك ماحدث في زمن الاغالبية بالقيروان، عندما اختلف الفقهاء في مسألة رجل اشترى حوتا، فوجد في بطنه حوتا آخر، فاختلفوا هل هو للبائع أو للمشتري؟ فرفعها الحاكم إلى القاضي موسى بن عبد الرحمن الذي قال: «وإن كان الشراء على الوزن فهو للمشتري وإن كان على الجزاف فهو للبائع» (٦٦).

هذا التطور الذي حدث في دوائر القضاء المغربي والاندلسي، لم يأت من قبل السلطات الحاكمة، بقدر ماكان يأتي من قبل القاضي نفسه، كما فعل القاضي سحنون، عندما عين على قضاء الاغالبية في مدينة القيروان. فعلى الرغم من أنه تولى القضاء مرغما، فانه أدخل عدة مهمات اضافية الى عمل القاضي، وأمر بتغيير بعض الامور، التي كانت في نظره غير شرعية. فهو أول من فرق حلق البدع من الجامع، وشرّد أهل الاهواء منه، وهو أول من جعل الودائع عند الامناء، وكانت قبله في بيوت القضاة. وكان أمر الحسبة من اختصاص الامراء والحكام، وفي عهد سحنون، أصبح الحكم فيها من اختصاص القاضي، الذي كان يعين لها بعض الامناء، وهو أول من نظر فيها من القضاة المغاربة، وهو أول من جعل في الجامع اماما يصلي بالناس، اذ كان ذلك للامراء، وكان يحكم في مكان بالمسجد ولايحضر عنده غير الخصمين، ومن يشهد بينهما (٦٧) وهو أول من اتخذ صاحب المظالم، وهي محكمة مستقلة تشبه المحاكم الاستعجالية، تنتصب في الاسواق، وتحكم في دائرة محددة. وهي غير الحسبة على المصالح العامة، مما يدل على وجود نظام محكم ودرجات للقضاء في ذلك العصر. وكان أول قاض هو حبيب بن نصر بن سهل التميمي صاحب مظالم سحنون (٦٨).

وكان بعض القضاة لايرى باليمين، مع أن الامام مالك كان يرى صحة ذلك. ومن هؤلاء القضاة محمد بن بشير المعافري، الذي أجاز أيضا كراء الارض بجزء مما يخرج منها إلى غير ذلك من الامور، التي لم تكن لاحد قبله في المغرب والاندلس (٦٩).

واعتماد قضاة القيروان على كتابة شرط في كتاب الصداق، وأخذوا به وطبقوه في أحكامهم، هو أن للزوجة حق الطلاق من زوجها، ان تسرى عليها الزوج بغيرها. وهو من أروع مااستجد في ميدان القضاء المغربي والاندلسي، لكنه لم يدم طويلا، حيث ألغاه الفاطميون، عندما وصلوا إلى حكم المغرب، أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (٧٠).

ولجأ بعضهم وبخاصة في المغرب الى الحكم بواسطة الفراسة، عندما كانوا لايجدون أو يهتدون إلى البينة أو ايضاح الحجة، فكانوا يعتمدون على بعض الدلائل والامور، التي كانت تظهر من خلال عملية استجواب الخصوم، مثال هذا ماكان يفعله القاضي القيرواني سليمان بن عمران الذي كان يقول: (لو شئت أن أقضي بين الخصمين بلا بينة لفعلت. والله ما يعقد بين يدي الخصمان، ويتناظران الا وأنا أعرف من له الحق منهما) (٧١).



وبلغ تطور القضاء في المغرب حداً، يمكن الوقوف تجاهه باحترام واعجاب، عندما لجأ بعض القضاة الى مناظرة ومناقشة المتخاصمين، ومحاولة إقناعهم بالحجة والعقل والبيان، وبعد ذلك حل مشاكلهم ومصالحتهم. هذا ماكان يفعله ويطبقه القاضي القيرواني حماس ابن مروان الهمداني، الذي ولي القضاء في القيروان خلال العقد الاخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (٧٢).

أما بعض القضاة، فكانوا يعمدون إلى التطويل في اجراءات القضاء، أملاً منهم في الوقوف على حقيقة الامور من جهة، وافساح المجال للتصالح والتراضي بين الخصوم من جهة اخرى، كما كان يفعل القاضي أحمد بن بقي بن مخلد، خلال الربع الاول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكان يقول في ذلك: (صاحب الباطل اذا طول عليه ترك طلبه ورضي باليسير فيه. وقد كثر الآن شهود الزور، والتبست الأمور فرأيت هذا المطل أخلص لي) (٧٣).

وبعضهم الآخر كان يغض الطرف عن كثير من المخالفات، التي كان يعاقب عليها في معظم الاوقات. وقام بتطبيق ذلك القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى خلال مدة عمله القضائي بالبيرة، عندما التقى مصادفة برجل أخذه السكر في أحد أزقة المدينة، فحاول الرجل الهرب، ولكنه لم يقو على ذلك فقال شعراً:

ألا أيها القاضي الذي عمّ عدله  
فأضحى به في العالمين فريدا  
قرأت كتاب الله الف مرة  
فلم أر فيه للشراب حدودا  
فان شئت ان تجلد فدونك منكبا  
صبوراً على ريب الخطوب جليدا  
وان شئت أن تعفو تكن لك منة  
تروح بها في العالمين حميدا

فما سمع القاضي هذه الابيات، أعرض عنه ومضى لشأنه (٧٤).  
كما تأثر القضاء بالجو الفاسد الذي ساد عصر دول الطوائف بالاندلس، لكن هذا التأثير لم يكن أكثر من حالات فردية عابرة، لايعول عليها في هذا المضمار. وقد زالت بزوال حكم أصحابها. ففي مدينة طليطلة وجد قاضيان في وقت واحد، هما أحمد بن سعيد الأنصاري، ويعيش ابن محمد بن يعيش الاسدي. وكلاهما من أسرة عريقة في الجاه والمكانة والعلم، ويعود هذا الى المنافسة، التي كانت محتدمة بين العائلات الكبيرة والمشهورة في مدينة طليطلة، وكثيرا ما وقع التناحر والاختلاف بين هذين القاضيين، واستطاع يعيش بن محمد الأسدي ان ينفي أحمد بن سعيد الانصاري خارج المدينة، ليتقرد هو بالاحكام وشؤون القضاء (٧٥).



بعد كل الذي ذكرناه من ايجابيات القضاء في المغرب والاندلس، فاننا نسأل السؤال التالي: هل كان جميع القضاة على سوية واحدة من الناحية العلمية. والتأهيلية والاخلاقية؟ للجواب عن هذا نقول: إن الكمال في أي عمل مهما كان سهلاً، لا يمكن أن يتحقق ابداً. وهذا ماينطبق على قضاة المغرب والاندلس، الذين وصل عدد منهم الى القضاء، على الرغم من عدم اهليتهم من حيث العلم والمعرفة. نقرب على ذلك مثلاً القاضي يحيى بن محمد بن زرب، الذي يفتقر إلى أدنى المعارف الضرورية للقاضي. وقد قلده هذا المنصب المهم، أبو الوليد محمد بن جهور في مدينة قرطبه، وظل على رأس عمله حتى وافته المنية سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٦م (٧٦). وقد خلفه رجل أجهل منه، هو حسن بن محمد بن ذكوان، استقضاه أبو الوليد محمد بن جهور ورّاه الى القضاء، وكان قبل ذلك يعمل في أحكام الشرطة والسوق، لكنه صرفه لاشياء ظهرت منه، ومنعه من الخروج من بيته الا للمسجد، حتى مات سنة ٤٥٠هـ / ١٠٦٠م (٧٧).

ويمكن تعليل هذه الظاهرة الشاذة في تاريخ القضاء المغربي والاندلسي، بأنها ربما كانت ترجع إلى وجود علاقة مودة بين الحكام وبين الذين وصلوا إلى القضاء. ولم تظهر هذه الظاهرة الا في عصر دول الطوائف، الذي شذ الحكام فيه عن كل الثوابت والضوابط والقواعد والاعراف، حتى أصبح كل شيء رهيناً بارادتهم ورغبتهم الخاصة، هذا بالاضافة الى وجود اعتبارات اخرى، كان منها على سبيل المثال، أن أصل القاضي كان يمت الى عائلة معروفة بعراقتها وجاهاها ومكانتها، الامر الذي ساعد بعض الاشخاص للوصول إلى القضاء كمحمد بن يحيى بن عبد الله بن قاسم العيسمي العرضبي الذي ذكر عنه ابن بشكوال، إنه تولى القضاء في عدد من المناطق، وكان نبيه البيت، قليل العلم، ومات سنة ٤١١هـ / ١٠٢١م (٧٨). وكانت الفوضى قد بدأت تنتشر في المجتمع الاندلسي، منذ أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وكانت تتفاقم مع مرور الايام، حتى وصل الامر الى تعطيل هيئة القضاء بالاندلس من سنة ٤٠١-٤٠٤هـ / ١٠١١-١٠١٤م، حتى جاء علي بن حمود، فأعاد رسم القضاء، وأحياه بأن ولّاه الفقيه المشاور عبد الرحمن بن بشير، وكان آخر قضاة الخلفاء (٧٩).

إلى جانب دائرة القضاء، كانت هناك دائرة اخرى مستقلة، هي خطة المظالم. وهي هيئة قضائية تعالج كل المسائل، التي يعجز عن البت فيها القاضي، فينظر فيها من هو أقوى يداً منه، وذلك أن التنازع اذا كان بين ضعفين قوى أحدهما القاضي وإذا كان قوياً وضعيفاً أو قوين قوة أحدهما في الولاية كظلم الامراء للعمال، القاضي عن البت فيها، وأول من جلس اليه عبد الملك بن مروان (٨٠).

وقد ظهرت خطة المظالم في الاندلس لأول مرة في عهد الامير الأموي الثاني خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، هشام الرضا، الذي اتخذ مكاناً للمظالم بالقرب من القصر الحكومي بقرطبة على الرصيف المشرف على النهر الكبير، في أحد المساجد، وكان الامير هشام الرضا، هو الذي ينظر في المظالم ابتغاء وجه الله كما قال المقرئ في نفح



الطبيب (٨١). أما في المغرب فقد ظهرت خطة القضاء لأول مرة في القيروان، حيث استحدثها القاضي سحنون. إذ أن أول مرة يرد ذكر الخطة في سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م حينما ولي الخطة حبيب بن نصر التميمي. لان تعيين قاضي المظالم كان من اختصاص قاضي الجماعة (٨٢). وبعد ذلك يرد ذكر صاحب المظالم مقرونا بعبارة مؤداها، أن القاضي الفلاني، هو الذي ولاه المنصب، فابراهيم الخشاب ولي من قبل عيسى بن مسكين (٨٣) وجعفر بن أحمد بن وهب وأحمد بن بحر، ولي كلاهما من قبل اسحق بن أبي المنهال (٨٤) ومع ذلك فقد كان الحكام يمارسون أعمال هذه الخطة.

إضافة إلى خطة المظالم، كانت خطة المناكح، التي كانت تتبع أيضا الى القاضي، الذي كان يعين من يراه صالحا لها، كما كان الحال في شأن المظالم والاحكام، وهي تشبه اليوم مايسمى بدائرة القضاء الشرعي في مسائل الزواج والطلاق وما الى ذلك (٨٥).

وخلال حكم الامويين في الاندلس، استحدثت خطة قضائية اخرى، لم يسمع بمثلها في المغرب ولا في المشرق، هي خطة (قضاء قريش)، التي اقتضت أعمالها على الامويين الاندلسيين، الذين كانوا يعتزون بانتمائهم الى قبيلة قريش. وعرفت هذه الخطة بصورة خاصة في مدينة قرطبة، حاضرة الحكم الاموي، ومجمع رجاله وأتباعه، وكانت من مهام قاضي الجماعة بقرطبة. وممن تسلمها على سبيل المثال، محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان من أهل قرطبة، وهو الذي اشتهر بعفته وحسن سيرته في القضاء (٨٦).

هذا، وقد كان حكام المغرب والاندلس، يساعدون ويشاركون في عملية انجاح مهمة القضاء، ولاسيما في الحوادث التي كانت تجري مع العاملين في قصورهم. نذكر من هؤلاء الحكام محمد بن أبي عامر (٨٧). الذي كان يرفض حماية حراسه أو العاملين في قصره. فقد حدث أن بعض أهل قرطبة اشتكى أحد حراسه المقربين، لانه رفض وفاء دين مستحق عليه، فأمر محمد بن أبي عامر صاحب المظالم، ليأخذ منه حق المدعي (٨٨).

وبالمقابل كان القضاة يرفضون بعض طلبات الحكام، عندما كانوا يرونها تتعارض مع القوانين الشرعية. نضرب على ذلك مثلا ان القاضي ابا بكر محمد قاضي قرطبة، رفض الموافقة على أخذ مال الاوقاف للانفاق على المصالح العامة، وعندما اشتد الالحاح عليه، رفض البحث في الموضوع، فاستبعدت الفكرة من أصلها. وكان ذلك في عهد أبي الوليد محمد بن جهور في عصر دول الطوائف (٨٩).

أما بشأن أمكنة ومواضع القضاء في المغرب والاندلس خلال هذه الفترة، فقد ظهر واضحا، أنه لم تكن هناك أماكن ثابتة خاصة لجلوس القاضي من أجل مباشرة أعماله القضائية، بل كان القاضي يمارس عمله في مسجد المدينة أو المحلة، التي عين لقضاائها، وبعضهم الآخر كان يتخذ من داره مكانا للقضاء (٩٠).

ومن ناحية الارزاق والرواتب، التي كانت تخصص للقضاة، فانها كانت عالية بشكل عام،



لكننا لانعرف عن مقدارها المحدد شيئاً يمكن الاعتماد عليه. وكان بعض القضاة يرفضون رفضاً قاطعاً تقاضي أية أجور مقابل قيامهم بعمل القضاء، والامثلة في هذا الشأن كثيرة، نذكر منها القاضي سحنون، الذي رفض أن يأخذ رزقا على قضائه، أو صلة من السلطان، وعبد الرحمن بن سوار قاضي الجماعة بقرطبة على عهد المعتمد ابن عباد. ويبدو أن هؤلاء القضاة، كانوا يعيشون بحبوة اقتصادية مكنتهم من عدم الاعتماد على أرزاق منصب القضاء (٩١).

أما الغالبية العظمى من القضاة في المغرب والاندلس، فقد قبلوا أخذ أجر على القضاء، لانهم كانوا بحاجة لهذا الاجر على ما يبدو، بسبب قلة ما في يدهم من جهة، وتشجيع الشرع الاسلامي الذي يقر أحقية هذا الاجر من جهة أخرى. وزاد بعضهم على ذلك، بأن لجأوا الى أساليب ملتوية فقبلوا بالرشوة علانية وسرا، دون ان يجدوا فيها أدنى حرج أو عمل مشين، كما فعل قاضي القيروان مانع بن عبد الرحمن الرعيني، فكان من عادته اذا سجل قضية، وختم في أسفلها، أن يكتب تحت الختم (بقي شيء) يعني الرشوة (٩٢).

أما الفترة الثانية فتبدأ من الربع الاخير من القرن الخامس الهجري / وتنتهي في أواخر القرن التاسع الهجري. وكان السبب الهام، الذي جعلنا نبحث قضاء هذه الفترة بشكل منفصل عن الفترة السابقة، وهو أن القضاء في عهد المرابطين والموحدين، تأثر منذ البداية بالجو العام المتشدد، الذي اتخذ المرابطون بشكل خاص، مما أعطى فقهاء هذه الفترة سلطات واسعة جدا، وبخاصة في عهد المرابطين وطبقوا مالكية من نوع صارم للغاية. فكان علي بن يوسف بن تاشفين، لا يقطع امرا في جميع ممتلكاته دون مشاورة الفقهاء، فاذا ولي احدا من قضائه كان فيما يعهد اليه، الا يقطع امرا ولا يبيت حكما في صغير من الامور، ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء (٩٣).

يضاف الى كل هذا، أن القضاء الموحيدي لم يكن واضح المعالم، بسبب تحيز القضاة الموحيدين لمذهبهم. فقد جاء الموحدون الى الحكم بعد سحقهم لنظام حكم مالكي صارم. ولذلك اتهموا بعدائهم للمالكية، وشملت التهمة موظفيهم ايضا، على الرغم من أنهم جميعا كانوا على المذهب المالكي.

بقيت مصادر القضاء في هذه الفترة، هي نفسها التي كانت معتمدة في الفترة السابقة وهي القرآن والسنة. يقول ابن صاحب الصلاة في هذا الصدد: (وكانت الوجوه التي تقضي الى الحق في فصل قضايا العباد متنقبة، والطرق المؤدية الى معنى الصدق ملتبسة متشعبة، فخرج فيها بنيات تخطى الصراط المستقيم، وتضل الضلال البعيد، فصار امضاؤها عن غير استثناء إلى هذا الهدى المتبوع، والعلم المرفوع خطرا على ممضيها، وانفاذها على غير هذه السنن غرقا على تنفيذها. ولما كان الامر كذلك تعين ووجب وثبت وترتب، وان نخاطب جميع عمال بلاد الموحيدين أعزهم الله شرقا وغربا وبعدا وقربا خطابا يتساوي فيه جميعهم، ويتوازي في العمل فيه كافةهم بالألا يحكموا في الدماء حكما من تلقائهم، وبرأي من آرائهم، ولا يقدموا على سفكها



بما يظهر اليهم، أو يتقرر فيما يرونه لديهم، إلا بعد أن ترفع اليها النازلة على وجهها، وتؤدي على كنهها، وتشرح حسب ما وقعت عليه، وتنتهي بالتوثيق والبيان على ما انتهت إليه، وتقيد بالشهود والعدول المعروفين في مواضعهم بالعدل والرضا الموجبين للقبول. وتكتب أقوال المظلومين وحججهم وأقرارهم واعترافهم وحجج الطالبين في مقالاتهم، واستظهارهم في بيناتهم (٩٤).

وقد تشدد الموحدون فيما بعد بتطبيق هذه الأمور، فما رأى الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٣م كثرة الخلاف بين الفقهاء، وما نشأ عن ذلك من التعصب للمذاهب، أمر برفض فروع الفقه، وأن لا يفتي الفقهاء إلا بالكتاب العزيز أو السنة النبوية، ولا يقلدون أحدا وأن تكون أحكام القضاة بما يؤدي إليه اجتهادهم في الكتاب والسنة والإجماع والقياس. ولكن ذلك لم يدم طويلا، بل عاد الحال كما كان بعد وفاة الخليفة، سابق الذكر (٩٥).

خلال هذه الفترة، أضيفت إلى بعض القضاة مهام أخرى إدارية كبيرة، مثل الحسبة والشرطة، والتي قام بأعبائها على سبيل المثال القاضي عبد المنعم بن الفرس في غرناطة خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وتمكن من القيام بهذه الأعمال مجتمعة خير قيام (٩٦) وكما كان الحال في الفترة السابقة، فقد شارك القضاة في أعمال القتال والذود عن حياض الوطن، نذكر منهم قاضي القضاة أحمد بن رميلة القرطبي، الذي قضى شهيدا في واحدة من المعارك بين العرب والاسبان. وكانوا يقومون بأعمال مختلفة على الصعيد السياسي، مثال ذلك أن حكام الاندلس قاموا بإرسال وفد من قضاة قرطبة واشبيلية وغيرها إلى حاضرة المرابطين في المغرب، فالتقوا ابن تاشفين، وتمكنوا من الحصول على موافقته بإرسال قوات مرابطية لنجدة الاندلس ضد الخطر الاسباني (٩٧).

وفي هذه الفترة أيضاً، استمرت تسمية كبير القضاة، التي كانت كما رأينا (قاضي الجماعة) وظلت حكرا على الحواضر الكبرى، مثل مدينة مراكش، التي بقيت عاصمة الدولة العربية الإسلامية في الجناح الغربي من ديار العرب والإسلام في عهد المرابطين والموحدين. وعند زوال دولة الموحدين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ظهر على المسرح السياسي في المغرب ثلاث دول هي: الدولة المرينية في المغرب الأقصى وعاصمتها فاس، والدولة الزيانية أو دولة بني عبد الواد في الجزائر وحاضرتها تلمسان، والدولة الحفصية في إفريقية ومالقة ووادي أشي في الزاوية الجنوبية الشرقية من الاندلس. وفي جميع هذه الحواضر، كان يوجد قاضٍ يحمل لقب قاضي الجماعة أو قاضي الحاضرة. فقد سمي القاضي أبو عبد الله محمد القرشي المعروف بالمقري، قاضي فاس بقاضي الحاضرة المرينية (٩٨) وكذلك القاضي محمد بن أحمد التميمي بقاضي الجماعة. وكذلك قضاة حاضرة تونس (٩٩). وكان القاضي في مدينة سبتة في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى، يلقب بقاضي القضاة،



خلال فترة حكم أسرة بني العزمي، التي ظهرت على مسرح الحكم في مدينة سبته منذ سنة ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م وظلت حتى احتلها صاحب مالقة من بني الأحمر وضمها الى دولته (١٠٠). وبقيت خطة الشورى من الخطط المهمة الملحقه بالقضاء. وظل يطلق على من يتقلدها (المشاور) حتى نهاية القرن التاسع الهجري موضوع هذا البحث، وظل اختصاصها ثابتا حول الاقتضاء وابداء الرأي في المسائل الشرعية البحتة (١٠١) وتطور الامر بأصحاب هذه الخطة إلى الافضل بعد نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. فقد كانوا قبل ذلك دون مرتبة قاضي الجماعة، مع أنه كان يستشيرهم في بعض المسائل والاحكام، وكان رأيه هو المعول عليه في اصدار الاحكام. أما في الفترة التي تلت نهاية القرن السادس الهجري، فقد انقلبت الصورة تماماً، حيث أن قاضي الجماعة مهما كانت مرتبته العلمية وخبرته العملية في القضاء، فإن أحكامه كانت تظل رهن موافقه المفتي المشاور ولاقيمة لها بدون موافقته. وكان ابن الدباغ صاحب كتاب (معالم الايمان في معرفة أهل القيروان) خير من ألمح إلى ذلك الواقع بوضوح تام. ومع ذلك فقد نسي، أن يحدد لنا على وجه الدقة، متى كان هذا التحول. يقول: «.....ان القاضي، قاضي الجماعة كان عندهم أرجح من الفتيا، وليس كذلك في زماننا. وذلك أن القاضي ولو كان من أدين خلق الله، لابد أن يشتكي منه بعض المحكوم عليهم، فلا بد من ناظر فوقه ينظر في أموره، وذلك المفتي هو الذي يرتهن في قاضي الجماعة، ولا يقدم قاضي الجماعة قاضياً في بلده من عمالته أو شاهداً أو حكيماً معتبراً الا بعد مطالعته. فهو القاضي في الحقيقة، وقاضي الجماعة انما هو كالنائب عنه. ولا يخل هذا النظام الا اذا قاضي الجماعة قدر المفتي في العلم ويكون السلطان قدمه لنفسه..» (١٠٢)

وفي ظل حكم الحفصيين بتونس، كان بعض الفقهاء يقومون بالاشراف المباشر على جميع القضاة، وتفقد أعمالهم والوقوف على حسن سيرها، مثال ذلك أحمد بن محمد الهنتاني أبو العباس، الذي عين ناظراً على جميع الكور وعدولها. (١٠٣)

وحافظ القضاة على المسيرة العامة لأسلوب وأصول المحاكمات، لان المذهب المالكي بقي الوحيد في المغرب والاندلس، كما كان من قبل. وهذا ما جعل العقوبات، هي نفسها التي ينص عليها هذا المذهب. لكن ذلك لم يكن بصورة مطلقة، بل وجد من القضاة من شذ عن ذلك، وكان عقوباتهم تصل الى حد من الشناعة والبشاعة، بشكل لا يليق بالانسان، مما كان يؤدي الى تحريك غيرة الحكام وحرصهم على حياة الناس، فيقومون بعزل مثل هؤلاء القضاة. فقد استغل القاضي ابن دحية مسألة كراهية الموحدين للموسيقى والغناء، فحكم خلال الربع الاخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، على شخص ضبط وهو يستعمل زمراً بأن قام بشق قمه وتشويه وجهه، واستئصال مذاكير شخص آخر، مع أنه لا يوجد نص قرآني أو حديث نبوي، يخوله فعل هذه الجرائم البشعة. ولما سمع المنصور الموحدي بهذا الحكم البشع، قام بخلع القاضي ابن دحية، وكان اذ ذاك على قضاء دانية في شرق الاندلس.



وقد جاء هذا الحكم في وقت كان الحكام الموحدون، قد بدأوا يتسامحون مع المغنين والموسيقيين بعد ملاحقة قاسية لهم منذ بداية حكم الموحيدين (١٠٤) والشيء اللافت للانتباه في قضاء هذه الفترة من تاريخ المغرب والاندلس، تلك التطورات والمسائل الجديدة، التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى على مسرح القضاء. فلم نعد نسمع ونقرأ عن قاضٍ كان يقوم بمهمة الصلاة إلى جانب القضاء، كما كان الحال في القرون الخالية، بل أصبح يقال، أن فلانا القاضي عين للقضاء والخطابة، كما حدث مع القاضي محمد بن محمد السلمي، الذي ولي القضاء والخطابة بقرناطة سنة ٧١٧هـ / ١٣١٨م (١٠٥).

لكن هذه التطورات لم تكن عامة أو ملزمة، بقدر ما كانت فردية اقتضت على بعض القضاة المتفقهين، الذين يقرنون تطورا لاساليب القضائية بتطور العادات والأزمان، كالقاضي أبي المطرف بن عبد الرحمن المالكي، الذي ولي القضاء في مدينة مالقة وضواحيها في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وكانت له في الاقضية مذاهب من الاجتهاد، لم تكن لغيره من رجال طبقته، مثال ذلك أنه كان يقول في اللصوص المحاربين، اذا اخذوا ومعهم أموال، فجاء قوم يدعون ملك الاموال وليست لهم بينة، ان القول قولهم في أن المال لهم بعد الاستثناء قليلا، وروجع في ذلك فقال، المروي عن مالك أنه قال، يقبل قولهم على اللصوص ودعواهم بغير بينة، وما أعطاهم مالك ذلك الا بسيئة الحال، التي عليهم من أنفسهم بالفساد، فكانت حالهم السيئة من السعي في الارض بغير الحق بينة عليهم.

كذلك كان يقول في الظالم المعروف بأخذ أموال الناس واستباحتها بغير حق، ويردد قول عمر بن عبد العزيز: (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ولا فجور أعظم من الظلم والتسلط على أموال الناس وأشياءهم بغير الحق. وقد جعل الله عليهم بذلك السبيل، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الارض بغير حق) (١٠٦). فاذا كان للمظلوم سبيل فالقول قوله وعلى المدعى عليه البينة، فان البينة في لسان العرب مشتقة من البيان، فكيفما تبين الامر فهو بينة كله (١٠٧) فظلم الظالم بينة عليه.

وكان باستطاعة القاضي في هذه الفترة اسقاط أية شهادة، يراها كاذبة أو مشكوك بصحتها، وهذا ما فعله القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن فرتون في سرقسطة، عندما حضر عنده مجموعة من الرجال بلغ عددها خمسة عشر رجلا، شهدوا على أبي عمر الطلمنكي، بأنه حروري سفاك للدماء، فأسقط شهاداتهم على الرغم من أنهم كانوا جميعا من النبهاء والعلماء المرموقين في مدينة سرقسطة، لانه شعر بأن دوافعهم شخصية بحتة، لا تمت الى جذور الحق والعدل (١٠٨).

ووجد من بين القضاة في الاندلس، من كان لا يتقيد بالمتواتر عن الصحابة من أحكام وثوابت قانونية شرعية. نذكر من هؤلاء قاضي المرية في عهد المرابطين محمد بن يحيى المعروف بابن البراء، الذي رفض أمر الحاكم المرابطي، بأن يفرض معونة على أهل المرية ويرسلها إليه



لاستخدامها في تمويل عمليات الجهاد والمناضلة، فرفض ذلك على الرغم من تذكير الحاكم له، بأن الخليفة عمر بن الخطاب صاحب رسول الله (ص)، وافق على ذلك وما يحق له لايحق لغيره (١٠٩).

ويشمل جزء من هذه التطورات قضية الشهود أثناء المحاكمات. فقد كان القاضي أبو محمد عبد الله الوحيدي، الذي ولي قضاء مدينة رية خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، هو الذي ينتقي الشهود، وكان يساوي بين الشريف والمشروف في القضاء، وهو الذي بدأ تجديد ماكان قد درس من رسم الاحباس (١١٠).

أما قاضي بجاية محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الانصاري الشاطي، فكان يرى أن لايقدم الشهود الا عند الحاجة، ويرى كثرة الشهود مفسدة وطلب منه الحاكم ان يقدم رجلا من أهل بجاية، فقال له مشافهة، ان شئتم قدمتموه وأخرتموني، وكان يرى أن جنایات الشاهد انما هي في صحيفة من يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام (من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة) (١١١).

وقد رأى بعض القضاة عدم صحة أي عقد من العقود، مالم يشهد بصحته أربعة من الشهود العدول، على الرغم من أن القاضي ابن رشد خلال القرن السادس الهجري، كان يقول، إنه يكفي اثنان من الشهود العدول، ويرفض أن يشهد أكثر من ذلك عملا بما جاء في الذكر الحكيم (واستشهدوا بشهيدین من رجالکم) (١١٢) هذا القاضي هو يحيى بن مسعود المحاربي قاضي غرناطة (١١٣).

وبقي القضاء محافظا على قدره واحترامه ومكانته حتى نهاية عصر الموحدين أو قبل ذلك بقليل. ودليل ذلك أن عظماء وكبار الحكام، كانوا يقفون بخشوع واحترام أمام ارادة القضاة من خلال أحكامهم الرائدة، مثال هؤلاء الحكام، الخليفة المنصور الموحيدي، الذي كان قد زوج أخته لابي محمد عبد الواحد الحفصي. وفي وقت من الأوقات جرت بينهما منافرة جاءت على أثرها الى بيت الخليفة الموحيدي المذكور، وبعد أمد قصير لجأ زوجها الى القاضي، الذي قام بدوره بابلاغ الخليفة ضرورة أن يعيدها إلى زوجها، وتكرّر ذلك للمرة الثالثة، التي قال خلالها القاضي للخليفة: (يامولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فاما ان يسير اليه أهله، وأما ان تعزلني عن القضاء فضحك المنصور وأمر أحد غلمانه سرا بإيصال أخته الى زوجها) (١١٤).

لكن الامر لم يكن كذلك في الفترة، التي أعقبت حكم الموحدين، والتي تبدأ منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وتنتهي في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. وخلال هذه الفترة لم يبق القضاة يسرون على الدرب، التي كان يسير عليها أسلافهم والتي تجسدت بالاستقامة والصلابة والجرأة في مسألة اتخاذ الاحكام دون خوف من أحد، هذا بالإضافة الى المعرفة العلمية المكيّنة، التي كانت من أهم شروط المرشحين



لل قضاء، أصابها هي الأخرى بعض الإهمال. فقد ذكر ابن الدباغ الذي عاش معظم سني القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، أن القضاة في عصره، لم يكونوا بالسوية أو المرتبة، التي كان عليها من سبقهم من القضاة. وكان يقارن بين معاصريه منهم وبين الذين سبقوهم مثل القاضي ابن غانم، الذي اشتهر أمره في عهد الأغالية بتونس، الذي يقول فيه: (واعجابه! هكذا كان القضاة في تواضعهم وتعظيمهم لأصحابهم، واليوم صار يتقدم على الناس قاضيا من لا يستحقه، فكما غلط فيه من قدمه، فأخذ هو في نفسه بالتكبر عن من هو مثل من قدمه. وما عاينته من قضاة الوقت أعظم مما استتر فيهم، فالله يجبر كسر المسلمين، حتى لا يتقدم على الناس إلا أعلمهم وأتقاهم، بحيث يكون القاضي لا تأخذه في الله لومة لائم في سائر البلاد شرقا وغربا) (١١٥).

وصار بعض القضاة العوبة في أيدي الحكام وبعض الوزراء المتنفذين، الأمر الذي جعلهم ينفذون كل ما يطلب منهم، مهما كان قبيحا وخطيرا. وفي هذا الصدد، يقول صاحب كتاب (التاج المكلل) في ترجمة الوزير الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، بعد أن ذكر مقتله سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٥م: (أن قتله كان من المجازفات التي صار يرتكبها قضاة المالكية ويريقون بها دماء المسلمين بلا قران ولا برهان) (١١٦).

ومن كان يتصلب أمام هذا الواقع المخزي من القضاة، وفي سبيل أن تظل راية الحق خفاقة ترتفع فوق كل الرايات، كان يواجه بتهديدات قاسية، كثيرا ما كانت تنتج بانتهاء الحياة والموت، مما كان يجعل بعض القضاة غير قادر على الخروج ليلا من بيته (١١٧).

وتمتاز هذه الفترة عن سابقتها بظهور تسمية جديدة، أطلقت على بعض فروع القضاء، وهي تسمية (قاضي العسكر)، الذي كان يرافق القوات العسكرية في حلها وترحالها، ومهمته حل كل ما يحدث في صفوف العسكريين من مشاحنات وخصومات، وهو نفسه الذي كان يسمى في الفترة السابقة (قاضي الجند)، عندما لم تكن الحياة المدنية قد استقرت وتشعبت مصالح الناس، بعد أن كثرت جموعهم، وبالتالي تعقدت مشاكلهم العامة والخاصة، نضرب على ذلك مثلا القاضي عبد الرحيم بن اسماعيل، الذي عينه المرابطون قاضيا لعسكرهم الموجود في مدينة سلا المغربية (١١٨). وكان قاضي العسكر هذا يسمى في بعض الأحيان والأماكن (قاضي المحلة) الذي لا يستبعد أن تكون هذه التسمية اقتضت بشكل خاص على حواضر وعواصم الدول المنفصلة، التي أُبْتُلي بها المغرب العربي بعد زوال الدولة الموحدية، مثل القاضي محمد بن أحمد بن إبراهيم التريكي المتوفي سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م الذي عين كقاضٍ للمحلة أو العسكر في تونس حاضرة الحفصيين (١١٩). ومثله قضاة كثيرون تعاقبوا على قضاء العسكر في مدينة فاس وتلمسان حاضرتي الدولة الزيانية والمرينية (١٢٠).

إضافة إلى قاضي العسكر، فقد وجد قاضٍ موسمي، هو القاضي الذي كان يعين على قضاء قافلة الحج، التي تفرقت إلى عدة قوافل تبعا لتفريق الدول وتشعباتها. ففي حين كانت قافلة واحدة في



عصر المرابطين والموحدين، صارت نحو ثلاث أو أكثر بعد سقوط دولة الموحدين. فقد كان المرينيون الذين حكموا المغرب الأقصى، يرسلون قاضيا مع ركب الحاج الذهاب الى الاراضي المقدسة بالحجاز لتأدية فريضة الحج. وكان هذا القاضي يدعى (قاضي ركب الحجيج المريني) مثال ذلك القاضي محمد بن زغبوش، الذي عين لهذه المهمة في موسم سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م في عهد السلطان أبي يعقوب المريني (١٢١). وكذلك كان الامر عند الحفصيين في تونس والزيانيين في الجزائر.

وكان لكل قاض مساعد أو نائب، كثيرا ماسمي في هذه الفترة بصاحب الأحكام، وهي تسمية أطلقت أحيانا على القاضي نفسه. وكان القضاة يريدون من نوابهم ومساعدتهم أن يكونوا مثالا للاستقامة والصرامة، وعدم التهاون في احقاق حقوق الناس على أساس تعاليم الشرع وأحكامه، ويظهر ذلك بجلاء من خلال أمر تعيين أحد القضاة نائبا عنه في بعض جهات مرسية بالاندلس. يقول: (قلدت فلانا وفقه الله النظر في أحكام فلانة وتخيرته لها بعد ما خبرته، واستحلفته عليها وقد عرفته وقلدته واثقا بدينه راجيا لتحصيله، لانه احتاط فعلم وان أضع أثم. فليقم الحق على أركانه وليصنع العدل في ميزانه، وليساو بين خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه. فقف في الحكم عند استشباهاه، ونفذه عند اتجاهه، ولا تقبل غير المرضي في شهادته، ومن لا تعرف سوى الاستقامة من عاداته، ولتعلم ان الله مطلع على خفياته وسائله يوم ملاقاته) (١٢٢).

إلى جانب ذلك نرى قاضي الانكحة، الذي ظل معروفا في هذا العصر، كما كان في سابق عهده، وان كانت مهمته قد تحددت بدقة أكبر. ففي تونس وغيرها من بلاد المغرب والاندلس الاخرى، جرى العرف بأن نظر قاضي الجماعة هو نظر عام يشمل قاضي الانكحة، الذي يعد في أحسن حالاته نائبا عن قاضي الجماعة (١٢٣).

ومن ناحية أخرى فقد انقسم القضاة الى فريقين خلال هذه الفترة، فريق قبل أصحابه تناول الاجر، الذي كان مقررا للقاضي، وكان أجرا محترما، وفريق رفض تناول هذا الاجر، اما أن يكون من أجل مضاعفة الاجر والثواب عند الله. أو أن حالته المادية تساعد على عدم اللجوء إلى ذلك (١٢٤).

وبقي المكان الذي يقضي فيه القاضي بين الناس غير مستقر أو محدد في جهة معينة. فكان بعض القضاة كما في السابق يقضي بين الناس في المسجد، حيث تعين فيه زاوية خاصة لهذا الامر. وبعضهم الآخر كان يمارس عمله في منزله أو في مكان آخر (١٢٥). ولا يعرف السبب الذي جعل الحكومات العربية الإسلامية في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، تهمل هذا الامر، على الرغم من جلالة وعظمة منصب القضاء في تلك العصور السالفة. ومهما كانت حقيقة الواقع، فان ذلك يعد هفوة كبيرة وقع بها هؤلاء الحكام، وشاركهم فيها القضاة، الذين لم ينبهوا لمثل هذا الامر، الذي كان من غير الممكن رفضه من قبل أي حاكم.



وكان لوجود القضاء في البيوت على الرغم من ذلك حسنات عديدة، فبالإضافة إلى أنه يوفر للقاضي جوا مريحا على مختلف الوجوه، فقد حدث أن شاركت بعض من زوجات القضاة بانجاز كثير من الاحكام والنوازل، فقد حكى أن بعض قضاة لوشة، كانت له زوجة فاقت العلماء في معرفة الاحكام والنوازل، وكان في محل قضائه تنزل به النوازل، فيقوم اليها، فتشير عليه بما يحكم به (١٢٦).

بقي أن ننوه بفرع آخر من فروع القضاء في المغرب والاندلس خلال العصور الوسطى، هو قضاء أهل الذمة. فنقول في البداية، أن العرب المسلمين في الاندلس والمغرب، برهنوا على أنهم خير من تمثل روح الاسلام النقية الصافية في ميدان التعامل مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود على جميع الصعد، ولا سيما على صعيد القضاء؛ فالذي حدث في المغرب والاندلس في هذا الميدان، لم يحدث مايمثله في منطقة عربية اسلامية اخرى خلال العصور الوسطى، وهذا مايقودنا لتأكيد فكرة مهمة، هي أن عرب المغرب والاندلس، استطاعوا أن يتفوقوا في مسألة تطبيق التعاليم الاسلامية الصحيحة، التي تؤكد على التعايش الانساني والحضاري مع كل شعوب الارض.

فمن هم أهل الذمة، الذي تشملهم هذه التسمية؟ كل القواميس اللغوية تقول، أن الذمة هي العهد والكفالة، وتجمع على ذمام، وفلان له ذمة أي حق. وهم الذين يؤدون الجزية من غير المسلمين. ورجل ذمي في معناه رجل له عهد، وسمي أهل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم (١٢٧). وجاء في الكتاب العزيز (لا يرقبون في مؤمن ولا ذمة) (١٢٨).

وبصورة عامة فإن اصطلاح أهل الذمة، يعني الجماعة من الناس، التي تؤدي الجزية من أهل الكتاب، الذين عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم الله ورسوله، طالما هم مقيمون في ديار المسلمين، وعلى المسلمين اقرار غيرهم على دينهم، وحمايتهم حماية كاملة بشرط تأدية الجزية، والتزامهم بالمسيرة الاسلامية العامة، باستثناء الشؤون الدينية البحتة (١٢٩). وفي مقابل ذلك كان على المسلمين رفع الظلم والعدوان عن أهل الذمة في أموالهم وممتلكاتهم العامة، ولهم الحق في العيش مع المسلمين عيشة هائلة لانهم رعية الدولة ومواطنيها (١٣٠).

وقد طبق العرب المسلمون في المغرب والاندلس جميع الشروط التي أقرها الشرع الاسلامي، وزادوا على ذلك باعطاء أهل الذمة، الذين كانوا بصورة خاصة من اليهود والمسيحيين حريات واسعة جدا، توجت بالسماح لهم بممارسة القضاء على مذاهبهم الدينية والحكم بين المتخاصمين بمقتضى قانون هذه الاديان وتشريعاتها، وهذا لم يحصل له نظير في منطقة أخرى غير الاندلس. وظل ذلك مرعيا راسخ الجذور طوال فترة الحكم العربي هناك تقريبا.

وقد حكم النصارى في دوائر قضائهم بموجب القانون القوطي، وكان قاضيتهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم. وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي وإداري كما كان للمسيحيين (١٣١) وكانوا يعينون لهم حكاما من أبناء جنسهم عهدوا اليهم بسن الضرائب



المطلوبة والاشراف على النظام والامن في المنطقة (١٢٢). ولم يكونوا يلجأون للقاضي المسلم الا في مسائل القتل، فكانوا يقدمون اليه ويعرضون ادلتهم. وكانت المحاكم الذمية تقبل شهادة المسلم على الذمي (١٢٣).

أما في الحالات التي كان الذميون، يقدمون على شتم الرسول العربي الكريم، أو التقليل من قدر الدين الاسلامي، فكانوا يحالون الى القاضي المسلم، مثال ذلك ما حدث سنة ٢٣٥هـ / ٨٥٠م في عهد الامارة الاموية، عندما قام المستعربون (١٢٤) في حركتهم المعادية للعرب المسلمين في الاندلس، واستهلوها بشتم الرسول العربي الكريم، والقول بأن الدين الاسلامي دين يقوم على الوهم والخيال. فأحيل عدد كبير منهم الى قاضي المسلمين. لكن وعلى الرغم من بشاعة جرمهم في ذلك الوقت، فقد أمر الامير الاموي عبد الرحمن الثاني باعطاء المتهمين فرصة كبيرة للدفاع عن أنفسهم بتوكيل من يدافع عنهم، وإخضاع الأحكام الى درجات، حتى لا يظلم أحد منهم. فكان لذلك أثره الايجابي الرائع في نفوس المستعربين، الامر الذي جعلهم يخفون من غلواء ثورتهم، ويعتبرون ان من مات في هذه الحركة ليس من الشهداء (١٢٤).

وإذا كان أحد أطراف القضية رجلاً مسلماً وهو المعتدى، فقد كانت القضية تحال الى قاضي المسلمين للفصل فيها، بحسب معطيات الشرع الاسلامي، الذي لا يفرق بين المتخاصمين الا بالحق. ففي بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وخلال فترة قضاء القاضي سليمان بن الاسود الغافقي. ففي مدينة ماردة حدث ان أمير المدينة حجز امرأة مملوكة تعود ملكيتها الى رجل يهودي، فشكى اليهودي أمره الى القاضي سابق الذكر واستشهد بمن حول دار الامارة، بأنها موجودة عند الامير. وبعد تحقيق طويل كان من ضمنه انحاء اللائمة على الامير، وأنه اذا لم يُعَدَّ الجارية الى اليهودي فإنه أي القاضي سيترك عمله ويذهب الى قرطبة. وبالفعل فقد غادر القاضي مدينة ماردة متوجها الى قرطبة، وبينما كان على مسافة ميل منها جاءه أحد فتيان دار الامارة، وأخبره بأن الجارية موجودة عند أحد فتيان الامير، ولم يكن له علم بذلك، فأصر القاضي على أن تحضر (١٣٦) الجارية الى حيث هو موجود ليسلمها الى اليهودي، فجاء بالجارية وسلمت إلى صاحبها.

وقد عرفت في عصر الخلافة الاموية بالاندلس بعض أسماء القضاة المسيحيين الذين كانوا على علاقة طيبة مع بعض خلفاء هذه الفترة. نذكر منهم القاضي اصبيغ بن عبد الله بن نبيل قاضي النصارى على عهد الخليفة الحكم المستنصر، واصبيغ بن سلمة، وهو الذي استعان به المنصور محمد بن أبي عامر حاكم الاندلس سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م لحل خلاف وقع بين الفونسو وبعض المتنفذين من المسيحيين في جليقية، وقد حل الخلاف من قبل القاضي المذكور (١٣٧). ووليد بن حيزون الذي شغل دور المترجم بين الحكم المستنصر وبعض الوفود الاوروبية التي حضرت الى قرطبة (١٣٨) وقد عاصر الاول كمسؤول عن قسامة قومه اليهود في بلدة (اليسانة) القريبة من قرطبة، الحجاج بن متوكل اليهودي سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٤م (١٣٩).



وسلك القضاة المسلمون مع المتهمين الذميين بالاستهتار بجوهر الدين الاسلامي مسلكا طيبا، فكان القاضي المسلم. يطرح على المتهم مسألة اعتناق الاسلام، فان قبل بها نجا وبرئت ساحته، وان رفض طبقت بحقه العقوبة المنصوصة على جرمه، وهي الموت في حاله شتمه للرسول العربي الكريم (١٤٠).

وكان القضاة العرب المسلمون، يقفون امام مقدسات المسيحيين باحترام بالغ، ولا سيما عندما كانوا يلجأون لاختذ اليمين منهم، فقد كانوا يبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان التي كانوا يعملون فيها من أجل ان يحلف المسيحيون في قضية معينة فكانوا يخبرون بالذهاب الى أقدس مركز ديني ومعهم نائب عن القاضي المسلم، يرافقه أحد الشهود، فيحلف اليمين وتنقضي المشكلة (١٤١).

وهناك حالة أخرى كانت تستوجب احالة المتهم الى القاضي المسلم، وهي التعامل مع الاسباب في الشمال، فقد واجه القاضي أبو الوليد بن رشد واحدة من هذه الحالات، عندما أحييت الى دائرته القضائية مجموعة من المعاهدين الاسبان، فحكم على جميع افراد هذه المجموعة بالنفي الى المغرب وتقريقهم في نواحيه، وهو أحق ما يؤخذ به في عقابهم. وكان أفراد هذه المجموعة قد اتصلوا مع اسبان الشمال، وشجعوهم على غزو العرب المسلمين سنة ٥١٩هـ / ١١٢٦م (١٤٢).

وتدخل بعض الحكام لدى القضاة للتخفيف من وطأة الاحكام على أهل الذمة، على الرغم من شناعة الجرائم، التي كانوا يقترفونها. فقد توسط يوسف بن تاشفين لدى قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن علي التغلبي، وأمره بالاكْتفاء بتغريم يهود اليسانة بشيء يراه مناسبا لانهم يزعمون ان الرسول الكريم كان منهم (١٤٣).

وفي حال عدم وجود قاضي ذمي في أية مدينة، كان قاضيها المسلم يكلف بالنظر في شؤون أهل الذمة، كما فعل القاضي منذر بن سعيد البلوطي، عندما كان قاضيا للجزر الاندلسية الشرقية (١٤٤). أي قبل ان يصبح قاضيا للجماعة في مدينة قرطبة خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (١٤٥). وبالجمله فقد تمثل القضاة المغاربة والاندلسيون خلال العصور الوسطى كل الصفات الطيبة والانسانية الخالصة، واقتنعوا في أحكامهم المثل الصالح في عهد النبوة والراشدية وكأنهم كانوا يرون ويعلمون بدقة، انه لاصلاح لمجتمع، مهما كانت امكاناته المادية والعلمية بدون قضاء محايد يأخذ الحق للضعيف من القوي.



## الحواشي

- ١- ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قضى.
- ٢- سورة النساء الآية ٦٤.
- ٣- ابن كثير (اسماعيل بن عمر) تفسير القرآن ج- طبعة ثانية بيروت دار المعرفة ١٩٨٨.
- ٤- سورة النساء الآية ١٠٥.
- ٥- الونشريسي ، كتاب الولايات، تحقيق محمد الامين بلغيث، دون ذكر لمكان وتاريخ الطبعة ص ٢٨ وما بعدها.
- ٦- الماوردي (علي بن محمد)، الاحكام السلطانية، طبعة بيروت، دار الكتب العلمية بدون تاريخ ص ٦٧-٦٨ الونشريسي، المصدر السابق ص ٤٢.
- ٧- الونشريسي - المصدر السابق ص ٤٢.
- ٨- الماوردي - المصدر السابق ص ٧٠-٧١ الونشريسي - المصدر السابق ص ٥٦-٥٧.
- ٩- الماوردي - المصدر السابق ٧١-٨٧.
- ١٠- استمرت عملية فتح المغرب من سنة ٢١-٨٧ هـ تقريباً.
- ١١- محمود عرنوس - تاريخ القضاء في الاسلام، نشر مكتبات الكليات الازهرية بمصر بدون تا ص ٢١.
- ١٢- ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج ١ تحقيق محي الدين عبد الحميد بدون تا ولا مكان الطبعة، ص ٢١ وما بعدها.
- ١٣- حسن حسني عبد الوهاب - كتاب العمر - مراجعة واكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوشي، طبعة اولى بيروت، دار الغرب الاسلامي ص ٢٢٠ النباهي - المرقبة العليا.
- نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٤٨ ص ٤٣.
- ١٤- خير الله طلفاق ، حضارة العرب في الاندلس، طبعة دار الحرية، بغداد ١٩٧٧ ص ١١٢.
- ١٦- الخشنى - قضاة قرطبة - طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ص ١٢-١٣ وقد ذكر النباهي في المرقبة العليا ان هذا القاضي هو يحيى بن زيد التجبببي ص ٤٣.
- ١٧- المالكي ، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، ج ١ طبعة دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٨٣ ص ١٠٩.
- ١٨- في العصور الوسطى كان المغرب الاقصى يمتد من وادي ملوية إلى أسفي على المحيط الاطلسي، وسمي كذلك لانه ابعد ولايات الدولة الاموية عن العاصمة دمشق.
- ١٩- شكيب ارسلان ، الحلل السندسية، ج ١ طبعة اولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٣ ص ٢٥٢.
- ٢٠- الخشنى ، قضاة قرطبة ص ٦.
- ٢١- شكيب ارسلان ، المرجع السابق ص ١٢.
- ٢٢- القاضي عياض (اليحصبي) ترتيب وتقريب المسالك، ج ١ تحقيق احمد بكير محمد.
- دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧ ص ١٠.
- ٢٣- النباهي - المصدر السابق ص ٦.
- ٢٤- النباهي - المصدر السابق ص ٣.
- ٢٥- شارل جوليان، تاريخ شمال افريقيا، ترجمة محمد مزال والبشير بن سلامة، المطبعة التونسية



- للنشر تونس، ١٩٧٨، ص ٦٩ سعد زغلول عبد الحميد - هامش على مصادر الاباضية في المغرب، دراسة  
لكتاب السير في مجلة اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ج ١ المطبعة العصرية  
تونس ١٩٨٩ ص ٧٥.
- ٢٦- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٧٥.
- ٢٧- محمود عرنوس، المرجع السابق ص ٤٤-٤٥.
- ٢٨- هو يوسف الفهري، آخر حكام عصر الولاة في الاندلس.
- ٢٩- الخشني، المصدر السابق ص ٢٤، النباهي، المصدر السابق ص ٢١، محمود عرنوس المرجع السابق  
ص ٩٩.
- ٣٠- ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي)، تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله انيس الطباع،  
طبعة بيروت ١٩٥٧ ص ٩٣-٩٤.
- ٣١- المراكشي (ابن عبد الله الملك)، الذيل والثلمة، السفر الخامس القسم الاول، تحقيق احسان عباس،  
بيروت دار الثقافة ١٩٦٥ ص ١١٤.
- ٣٢- ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ج ١ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ص ٥٦.
- ٣٣- الذهبي (محمد بن احمد شمس الدين)، العبر في خبر من غبر، ج ٥ تحقيق ابو هاجر محمد زغلول،  
طبعة اولي بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٥ ص ٢٦١.
- ٣٤- النباهي، المصدر السابق ص ٤٧-٤٨.
- ٣٥- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ص ١٠٠.
- ٣٦- ابن بشكوال، المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٧٦ و ٥٠٧ و ٥٤٧ و ٥٧١.
- ٣٧- المالكي، رياض النفوس، ج ١ ص ١٧٦-١٧٧.
- ٣٨- محمود عرنوس المرجع السابق ص ١٣٦.
- ٣٩- محمد علي دبوز، المغرب الكبير، ج ٢ طبعة القاهرة، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٣ ص ٣٢١.
- ٤٠- يقع هذا الجبل إلى الجنوب من طرابلس عاصمة ليبيا على بعد يتراوح بين ٨٠ إلى ١٨٠ كم ويسمى  
اليوم محافظة الجبل الغربي، وفيه بلدان غريان وزنتان ويفرق.
- ٤١- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٧٥.
- ٤٢- ابن الغرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الاندلس، ج ١ علماء الاندلس ج ١، الدار المصرية  
للتأليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٨٩ الخشني المصدر السابق ص ٦٧.
- ٤٣- ابن الغرضي، المصدر السابق ص ٢٢٦-٢٢٧.
- ٤٤- النباهي، المصدر السابق ص ٥٣-٥٤.
- ٤٥- محمود عرنوس، المرجع السابق ص ٢٧.
- ٤٦- النباهي، المصدر السابق ص ٦٠.
- ٤٧- النباهي، المصدر السابق ص ١١٣.
- ٤٨- ابن الدباغ، معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، ج ٢ تحقيق مصطفى عوض الحكيم، طبعة اولي  
الخرطوم ١٩٥٤ ص ٢٩١-٢٩٢.
- ٤٩- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ص ٤٢-٤٣.
- ٥٠- النباهي، المصدر السابق ص ٧٨.
- ٥١- شكيب ارسلان، المصدر السابق ج ١ ص ١٤-١٥.
- ٥٢- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٧٥-٧٦.



- ٥٣- ابن بشكوال، المصدر السابق ص ٢٣٦- ٢٣٧.
- ٥٤- ابن الخطيب (محمد بن عبد الملك السلماني)، الاحاطة في اخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة ثانية القاهرة ١٩٧٣، ص ١٨٧.
- ٥٥- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٧٦.
- ٥٦- محمد علي دبوز، المرجع السابق ص ٧٦.
- ٥٧- الضبي (احمد بن يحيى)، بغية الملتبس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص ١٤٤.
- ٥٨- الخشني، المصدر السابق ص ٦٧ وما بعدها.
- ٥٩- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٧٧.
- ٦٠- النباهي، المصدر السابق ص ٤٨.
- ٦١- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٧٨.
- ٦٢- الغبريني (أحمد بن احمد)، عنوان الدارية تحقيق عادل نويهض منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت طبعة اولى ١٩٦٩، ص ٦٣ عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ص ٤٢٨.
- ٦٣- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ص ٤٢٨- ٤٢٩؛ ابن الفرضي، المصدر السابق ص ٦٠- ٦١.
- ٦٤- المالكي، رياض النفوس، ج ٢ ص ٣٩٧.
- ٦٥- ابن الدباغ، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥- ٣٦.
- ٦٦- ابن الدباغ، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٧.
- ٦٧- النباهي، المصدر السابق ص ٢٨- ٢٩؛ ابن الدباغ المصدر السابق ص ٦٠- ٦١.
- ٦٨- ابن الدباغ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٨ ١٩٩٢؛ القاضي عياض، المصدر السابق ج ٢ ص ٥٩٥ وما بعدها.
- ٦٩- النباهي، المصدر السابق ص ٥٠- ٥١.
- ٧٠- حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق ج ٢ ص ١١٦.
- ٧١- ابن الدباغ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٢.
- ٧٢- ابن الدباغ- المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٧.
- ٧٣- النباهي، المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤- ٦٥.
- ٧٤- النباهي، المصدر السابق ص ٦١.
- ٧٥- القاضي عياض، المصدر السابق ج ٣٢ ص ٧٧٥- ٧٥٦؛ ابن بشكوال، المصدر السابق ص ٦٥٠.
- ٧٦- ابن بشكوال، المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦٨- ٦٦٩.
- ٧٧- ابن بشكوال، المصدر السابق ج ١ ص ١٣٧- ١٣٨.
- ٧٨- ابن يشكوال، المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠٥.
- ٧٩- النباهي، المصدر السابق ص ٨٩.
- ٨٠- الخزاعي (علي بن محمد)، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت دار الغرب الاسلامي بدون تا ص ٢٨٣.
- ٨١- المقرئ (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب ج ١، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٦٨ ص ٦٥ و ٤٨٢.
- ٨٢- الخشني، المصدر السابق ص ١٤١.
- ٨٣- ابن الدباغ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٢.
- ٨٤- ابو العرب، طبقات علماء افريقية، تحقيق علي الشاوي ونعيم الباقي، طبعة الدار التونسية للنشر



- ١٩٦٨ ص ١٨٠؛ ابن عذاري - البيان المغرب ج ١ ص ١٩٥.
- ٨٥- ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص ٢٤٩.
- ٨٦- ابن بشكوال ، المصدر السابق ص ٥٠٤.
- ٨٧- حكم الاندلس خلال عصر الخلافة من سنة ٣٦٧ إلى سنة ٣٩٢.
- ٨٨- المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٤٠٩ - ٤١٠.
- ٨٩- القاضي عياض ، المصدر السابق ج ٣ - ٤ ص ٧٨٤ - ٧٨٥ ، احمد بدر ، تاريخ الاندلس ، طبعة دمشق ١٩٨٢ ص ٥١.
- ٩٠- انظر مثلاً عن ذلك ، الدرجيني - طبقات المشايخ بالمغرب ، ج ٢ تحقيق ابراهيم طلاي ، طبعة قسطينة الجزائر ص ٣٣١-٣٣٧ المالكي ، رياض النفوس ، ج ٢ ص ٣٩٧ و ٤٧٦.
- ٩١- ابن بشكوال ، المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ، محمد عرنوس ، المرجع السابق ص ١٨٨.
- ٩٢- ابو العرب - المصدر السابق ص ٨٤ المالكي رياض النفوس ص ١٨٥.
- ٩٣- الحميري (محمد بن عبد المنعم) ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥ ، ص ٨٥ ، مؤسسة الرسالة ١٩٧٦ ص ٧٠.
- ٩٩- ابن الاحمر الغرناطي ، المصدر السابق ص ٢٢٦-٢٢٧.
- ١٠٠- ابن الاحمر الغرناطي ، المصدر السابق ص ١١٩ و ٢٢٤.
- ١٠١- ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج ٢ ص ٣٨٧.
- ١٠٢- ابن الدباغ ، معالم الايمان ، ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣.
- ١٠٣- شجرة النور الزكية ص ٢٤٤.
- ١٠٤- ابن دحية (عمر بن الحسن) ، المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى عوض الكريم ، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤ ص (و).
- ١٠٥- ابن الاحمر الغرناطي المصدر السابق ص ١٥٦ - ذ-
- ١٠٦- سورة الشورى ، الآية ٤٢.
- ١٠٧- النباهي ، المصدر السابق ، ص ١٠٧.
- ١٠٨- شكيب ارسلان ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٤٥.
- ١٠٩- الناصري ، الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، ج ٤ ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، طبعة الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ ص ٥٩.
- ١١٠- النباهي ، المصدر السابق ، ص ١٠٤.
- ١١١- المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ - ٦١٧.
- ١١٢- سورة البقرة ، الآية ٢٨٢.
- ١١٣- النباهي ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠.
- ١١٤- الناصري ، المصدر السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠.
- ١١٥- ابن الدباغ ، المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨.
- ١١٦- القنوجي (صديق بن حسن) ، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والاول ، تصحيح عبد الحكيم شرف الدين ، الطبعة الهندية العربية . بومباي ، ١٩٦٣ ص ٤٤٠ - ٤٤١.
- ١١٧- المقرئ ، نفح الطيب ج ٥ ص ٣٨٦.
- ١١٨- ابن الغرضي ، المعجم في اصحاب القاضي ابن علي الصديقي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٥٧.



- ١١٩- حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ص ٤١٥ .
- ١٢٠- ابن خلدون (عبد الرحمن) ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣ ص ٤٦٨ .
- ١٢١- ابن خلدون ، العبر ، ج ١٣ ص ٤٦٨ .
- ١٢٢- ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص ٥٩٣ .
- ١٢٣- ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي) ، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال ، ج ٣ ، تحقيق محمد الاحمدي ابو النور ، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١ ، ص ١٤٢ .
- ١٢٤- انظر امثلة عن هؤلاء القضاة ، النباهي ، المصدر السابق ص ٣٢ .
- ١٢٥- ابن الاحمر الغرناطي ، اعلام المغرب والاندلس ص ١٦٧ .
- ١٢٦- المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٩٤-٢٩٥ .
- ١٢٧- ابن منظور ، لسان العرب مادة (ذمم) .
- ١٢٨- سورة التوبة ، الآية ١٠ .
- ١٢٩- الكاساني (علاء الدين ابو بكر بن مسعود) ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ج ٥ ، الطبعة الثانية بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ ص ٢٨١ .
- ١٣٠- ابن قيم الجوزية ، احكام اهل الذمة ، ج ١ ، تحقيق صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، طبعة ثانية بيروت ١٩٨١ ص ٢٦ .
- ١٣١- عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، طبعة ثانية ، بيروت دار الكتاب العربي ١٩٨١ ص ١٨٤ .
- ١٣٢- خالد الصوفي - تاريخ العرب في اسبانية طبعة مكتبة دار الشرق بدون تا ص ٩١ .
- ١٣٣- ادم متر ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ١ ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده ، طبعة رابعة بيروت ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ ص ٩٥ .
- ١٣٤- المستعربون مجموعة من السكان الاسبان بقوا على دينهم ، واصطبغوا بالتدريج بصبغة الحضارة العربية .
- ١٣٥- خير الله طلفاق ، المرجع السابق ص ١٦٩ .
- ١٣٦- النباهي ، المصدر السابق ص ٥٦-٥٧ .
- ١٣٧- ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص ٣٩٠ .
- ١٣٨- المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٩٠-٣٩١ .
- ١٣٩- ابن حيان (أبو مروان) ، المقتبس في اخبار اهل الاندلس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، طبعة بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٥ ص ١٤٦ و ١٤٩ .
- ١٤٠- انظر مثلاً عن رجل يهودي حدث له مثل ذلك ، المالكي ، رياض النفوس ، ج ٢ ص ٣٥٩ .
- ١٤١- شجرة النور الزكية ص ١٧٧ .
- ١٤٢- مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في الأخبار الاندلسية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، طبعة الدار البيضاء ، دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩ ص ٩٠ .
- ١٤٣- مؤلف مجهول ، المصدر السابق ص ٨٠-٨١ .
- ١٤٤- هي جزر ميورقة ومنورقة ويابسة في شرق الاندلس .
- ١٤٥- ابن الابار (محمد بن عبد الله) ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ، عني بنشره عزة العطار الحسيني ، طبعة القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٩٣ .



## ثبت المصادر والمراجع

- ١ - ابن البار (محمد بن عبد الله)، التكملة لكتاب الصلة، طبعة القاهرة ١٩٥٦ عني بنشره عزت العطار الحسيني.
- ٢ - ابن الأحمر الغرناطي (اسماعيل)، اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن، وهو كتاب نثر الجمان في شعر من نظمنا واياهم الزمان، تحقيق محمد رضوان الدايع، الطبعة الاولى بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٦.
- ٣ - ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
- ٤ - ابن حيان (أبو مروان)، المقتبس في أخبار أهل الاندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، طبعة بيروت دار الثقافة ١٩٦٥.
- ٥ - ابن الخطيب (محمد بن عبد الله)، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٤.
- ٦ - ابن خلدون (عبد الرحمن)، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا منشورات، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٤.
- ٧ - ابن الدباغ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق مصطفى عوض الحكيم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤.
- ٨ - ابن دحية (عمر بن الحسن)، المطرب من اشعار أهل المغرب، تحقيق مصطفى عوض الكريم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤.
- ٩ - ابن صاحب الصلاة، المن بالاقامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت طبعة اولى ١٩٦٤.
- ١٠ - ابو العرب، طبقات علماء افريقية تحقيق، على الشاوي ونعيم الباقي، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٨٠.
- ١١ - ابن الغرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الاندلس، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦؛ المعجم في اصحاب القاضي ابي علي الصدقي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧.
- ١٢ - ابن القاضي (احمد بن محمد المكناسي)، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال، تحقيق محمد الاحمدي ابو النور، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١.
- ١٣ - ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي)، تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله انيس الطباع، طبعة بيروت ١٩٥٧.
- ١٤ - ابن قيم الجوزية (محمد بن ابي بكر)، اعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بدون تا. احكام اهل الذمة تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، طبعة ثانية بيروت ١٩٨١.
- ١٥ - ابن كثير (اسماعيل بن عمر)، تفسير القرآن، طبعة ثانية بيروت، دار المعرفة ١٩٨٨.
- ١٦ - آدم متر، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، طبعة رابعة بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧.
- ١٧ - حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، مراجعة واكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوشي، طبعة اولى بيروت، دار الغرب الاسلامي - بدون تا.
- ١٨ - الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٧٥.



- ١٩ - خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانية طبعة مكتبة دار الشرق ، حلب بدون تا؛ الخزاعي (علي بن محمد)، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت، دار الغرب الاسلامي بدون تا.
- ٢٠ - الخشني ، قضاة قرطبة ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
- ٢١ - الدرجيني ، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي ، قسنطينة الجزائر بدون تا.
- ٢٢ - دوزي ، ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني ، طبعة اولى القاهرة ١٩٢٣.
- ٢٣ - الذهبي (محمد بن احمد)، العبر في خبر من غير ج ٥ تحقيق ابو هاجر محمد زغلول، طبعة اولى بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٥.
- ٢٤ - سعد زغلول عبد الحميد، هامش على مصادر الاباضية في المغرب ، دراسة لكتاب السير في مجلة اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، المطبعة المصرية بتونس ١٩٧٩
- ٢٥ - شارل جوليان ، تاريخ شمال افريقية، ترجمة محمد مزال والبشيرين، المطبعة التونسية للنشر، تونس ١٩٧٨.
- ٢٦ - شكيب ارسلان ، الحلل السندسية طبعة اولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٦.
- ٢٧ - الضبي (احمد بن يحيى)، بغية الملتبس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧.
- ٢٨ - عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط، طبعة ثانية بيروت ، دار الكتاب العربي ١٩٨١.
- ٢٩ - الغبريني (احمد بن احمد)، عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بيروت، طبعة اولى ١٩٦٩.
- ٣٠ - القاضي عياض (اليحصبي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق احمد بكير محمد، دارمكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧.
- ٣١ - القنوجي (صديق بن حسن) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الاخر والاول، تصحيح عبد الحكم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية بومباي ١٩٦٣.
- ٣٢ - الكاساتي (علاء الدين ابو بكر بن مسعود)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الطبعة الثانية، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٧.
- ٣٣ - المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوشي، طبعة دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٣.
- ٣٤ - الماوردي (علي بن محمد)، الاحكام السلطانية، طبعة بيروت دار الكتب العلمية بدون تا.
- ٣٥ - محمد علي ديون، المغرب الكبير. القاهرة دار احياء الكتب العربية ١٩٦٣.
- ٣٦ - محمود عرنوس، تاريخ القضاء في الاسلام، نشر مكتبة الكليات الازهرية بمصر دون تا.
- ٣٧ - المراكشي (ابن عبد الملك)، الذيل والتكملة، السفر الخامس، تحقيق احسان عباس بيروت دار الثقافة ١٩٦٥.
- ٣٨ - المقرئ (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٦٨.
- ٣٩ - مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في الاخبار الاندلسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩
- ٤٠ - الناصري - الاستقصاء لخبار دول الغرب الاقصى تحقيق، جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء، دار الكتاب ١٩٥٤.
- ٤١ - الونشريسي ، كتاب الولايات، تحقيق محمد الامين بلغيث، بدون تا.



---

**Directeur  
de  
la Revue**

**Abdul Gani Ma' Al Bared**  
Recteur de l' Université de Damas

**Directeur  
de  
la Rédaction**

**Mouhammad Mouhaffel**

**Rédacteur  
en Chef Adjoint**

**Qbdul Karim Ali**

**Revue Historique éditée par la Comité de Rédaction de l'histoire Arabe:**

Dr. Abdul Gani Ma' Al Bared

Dr. Adel Awwa

Dr. Nour el- din Hatoum

Dr. Chaker Fahham

Dr. Mouhammad Kheir Fares

Dr. Hamed Khalil

Dr. Khairieh Quasmieh

Dr. Taib al Tizini

Dr. Soultan Mouhaissen

M. Mouhammad Mouhaffel

Dr. Souheil Zakkar

Dr. Id Mur'i

Dr. Faisal Abdulah

Dr. Ali Ahmad

M. Abdul Karim Ali



